

الأشرف الفتي، زهير الحكيمو

القديم والحديث

قضايا النهضة العربية

١

القديم والحديث

إعداد وتقديم :

محمد كامل الخطيب

منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٨٩

القديم والجديد / اعداد وتقديم محمد كامل الخطيب . -
ط ١ . - دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٨٩ - ٥٣٦ ص ، ٢٤ سم
- (قضايا النهضة العربية) (١) .

١- ٨١٠٣٩ خ طي ق ٢- العنوان ٣- الخطيب
٤- السلسلة
مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع - ١١٨٦ / ٩ / ١٩٨٩

من عصر النهضة

الى

نهضة العصر

- ١ -

يبدو الوطن العربي عموما والفكر العربي الراهن خصوصا وكأنهما يعيشان نوعا من عصور «عودة الملكية» ، أي العودة الى الماضي ، فيما وافكارا وموضوعات ، فالكتب القديمة والتقليدية هي الاغزر طبعا ، والحركات السلفية والدينية ، فكريا وسياسيا ، هي الاكثر ظهورا وضجيجا وتحركا ، والناس يعيشون مشاعر الحنين الى الماضي والفخر به اكثر مما تعيش فيهم مشاعر الامل بالمستقبل ، بل ربما يبدو المستقبل بالنسبة للكثيرين مظلما قياسا الى ماض وضاء او الى واقع شاحب ، بينما ، والى امس قريب جدا ، كانت المشاعر والظواهر مختلفة تماما ، فمنذ منتصف القرن التاسع عشر يجري الحديث عن النهضة المأمولة ، والى زمن ما بين الحربين الاخيرتين كانت النهضة العربية تضيء الامال وتحطم بالتغيير والمستقبل ؛ تيارات وبرامج محددة ، وخصوصا في مصر وسوريا ، فثمة ، آنذاك ، حركة تنوير شاملة تنهض وترافق التغيير الذي كان يحصل في اساسيات واسباس المجتمع العربي ، وثمة انجازات معروفة وما اسماء الطهطاوي والافغاني وسلامة موسى وطه حسين وساطع الحصري وسليم خياطة ، وامثالهم ومجايلهم ، الا رموز لهذه المرحلة النهضوية التي نحاول تقديمها في مشروعا التاريخي - التوثيقي :

«قضايا النهضة العربية» .

خلال عصر النهضة العربية جرت خلخلة الاسس التقليدية للمجتمع والفكر القديمين ، وفي الوقت نفسه كانت الافكار الجديدة تتقدم ، فخلال هذا العصر الجديد حقا ، جرى - مثلا - تحديد مفهوم جديد للامة ، وبديل مفهوم الامة الاسلامية المرتبط آنذاك بوجود السلطنة العثمانية ، جرى ، وبعد انهيار هذه السلطنة ، تحديد رابطة جديدة لبلاد الشام ومصر والعراق ، والمغرب العربي فيما بعد ، هو مفهوم الامة العربية ، وبعبارة اخرى كان هذا التبديل يعني الانتقال من التحديد الديني للامة وللشعب الى التحديد القومي ، اي الزمني - المدني لهذه الامة ولهذا الشعب ، وخلال تقديم هذا التحديد الجديد ، وعلى ارضيته ، نبئت مفهومات جديدة في ترتيب العلاقات الاجتماعية وتجديد مؤسسات المجتمع فدخلت المدرسة المدنية منافسة ، ومن ثم طارده للكتاب والمسجد في التعليم ، وجاء الاستاذ ذو النظارات منافسا للامام والشيخ ولابس الحجة وجاءت القبعة مكان الطربوش والعمامة ، مثلما جاءت الاحزاب السياسية مكان الملل ، وجاءت الطبقات مكان الملة واحدة العقيدة والمصلحة ، وجاء مفهوم الديمقراطية - نظريا - بديلا لمفهوم الاستبداد الشرقي ، والى آخر ما جاء من تجديدات اجتماعية ، وفي الوقت الذي جرت فيه هذه التجديدات في اسس وهياكل المجتمع ، كانت التجديدات تجري في الحقل الثقافي ايضا ، فجاءت الفنون والاجناس الادبية الجديدة ، جاءت الرواية والمسرح والقصة القصيرة والفنون التشكيلية ، وحركة تجديد الشعر ، وخلال كل ذلك كانت اللغة العربية تنهض وتجدد نفسها لتنفس هواء الجديد ، هواء العصر ، فتتغير دلالاتها ، وتزداد وتفتني مفرداتها ، ويتغير تركيب وبناء جملتها ، وبعبارة تلخيصية ، بنا كل شيء وكأنه يتغير ، ونحو الامام ، بل ونحو الافضل ، وهذا سر النبوة الرسولية لدى ممثلي هذه المرحلة ، فقد كانت المهمة واضحة لدى مفكري وادباء هذه المرحلة الا وهي : النهضة .

لكن ، ومنذ اواسط السبعينات ، بدا وكان هناك عملية التفاف بل وتراجع عن كل ما جد واستجد في عصر النهضة ومرحلتها ، فمفهومات القومية هوجمت وجرت محاولات لاعادة تحديد الامة والشعب على اساس

الدين والعقيدة ، فتفجرت الحروب والمذابح الطائفية من جديد ، وهوجمت مفاهيم الحزبية والتعدد الحزبي والطبقات الاجتماعية ، بل والديمقراطية عموما ، على انها مفاهيم غربية واستعمارية ، ثم برزت الى الواجهة أنظمة اشبه بأنظمة المماليك وطولد الطوائف ، واعيد دمج الديني بالزمني واعلن الحكام ايمانهم ، بل ان بعضهم عاد الى قطع يد السارق ، في محاولة التملق مشاعر موجات التدين والمودة الى الافكار والتنظيمات الماضية واصطياد المثل الاعلى وحلول مشكلات الحاضر في الماضي وليس في الراهن والمستقبل ، وحتى الفنون الحديثة من رواية ومسرح ونحت جرى الهجوم عليها ، وبعبارة مختصرة ، بدا وكان كل انجازات عصر النهضة العربية ، الفكرية والاجتماعية والادبية ، تقف على شفاهاوية ، بل ان بعض ممثلي الفكر النهضوي ، وقفوا في الهاوية وشكلوا تيارات ماضوية حديثة ، او سلفية جديدة ، وحتى التيارات الجذرية فهي فكر النهضة العربية ، كالماركسية لم يجد بعض ممثليها مانعا من العودة الى الماضي للبحث فيه عن مشروعية واصول افكارهم وتقديماتهم التي لم يستطيعوا ان يروا في الراهن والمستقبل تاسيسا لها ، فنقبوا عن هذا الاساس في ارضية الماضي وبين كتبه .

لكن كل هذه العودة الى الماضي ، وكل هذا الالتفاف على عصر النهضة بالتسلسل الى ما قبله ، لم يفعل شيئا حقيقيا سوى تعميق الازمة بكل مظاهرها وابعادها ، ففي خلال موجة التراجع الى ما قبل عصر النهضة ادخلت البلدان العربية في اشد درجات ازمتها خطورة ، مجتمعات وحكومات واحزابا وشعوبا ، بل ومن خلال محاولات اعادة تحديد الهوية على اساس ديني اسلامي ، مقابل للفرب المسيحي ، براسماليته واشتراكيته ، على ما يقولون ، جرى اوثق ارتباط بالسوق الامبريالية حتى صار الدولار عملة وطنية لمختلف الانظمة العربية ، ومن خلال اعادة تاسيس التقدميين العرب لفكرهم على اساس افكار ما قبل النهضة العربية ، جرى اكبر تراجع بل وتفتت لهذا الفكر واحزابه بقسميه القومي والماركسي فتراجع من تراجع الى الماضي ، وعلن من بقي في مواقفه نفي « الازمة » وبعضهم رفع الرايات السوداء ، وآخرون البيضاء ، بينما

بقي الكثيرون ساهمين غائمين يلوكون في غيبتهم احلامهم الوردية ،
ويجترون خطاباتهم الحماسية وكانهم اغوات اقطاعيون افلسوا لكن
كبريادهم لا يسمح لهم باعلان افلاسهم ، فهل ثمة ما يبكي ويفسحك
- معا - اكثر من هذا ، وهل من ثمة مفارقة اكثر من هذه تستطيع ان
تقول لنا ولن يريد ان يسمع : ان الحل ليس هنا ؟!

- ٢ -

طرح عصر النهضة العربية قضية الاستقلال عن الغرب ، كاستعمار
مع الأخذ من علومه وحضارته وتقنياته وافكاره ، وبمباراة ثانية طرح
الانطلاق من اللحظة الراهنة في تطور الحضارة العالمية ، ولم يطرح
العودة الى ما قبلها ، وبمباراة محددة طرح هذا العصر في منطوقه وتياراته
الدافعة الحاضر والمستقبل ، الحاضر العالمي طريقا لتغير الراهن العربي
والراهن العالمي طريقا لبناء المستقبل العربي كذلك ، وبمراجعة تجارب
الشعوب التي عانت مشكلة مثل مشكلتنا ونجحت في حلها نجد ان هذه
الشعوب قد فعلت الشيء نفسه ، فهذا ما فعلته اليابان عصر الميجي في
القرن التاسع عشر ، وهذا ما فعله بطرس الاكبر في روسيا ، وهذا ما
تابعه وعمقه وحققه لينين والماركسيون الروس في القرن العشرين ، بل
وهذا ما حاوله محمد علي في القرن التاسع عشر .

اما عننا فان هذا الطرح ، اي الانطلاق من التاريخ البشري في
لحظته المعاصرة ، يتعرض الآن للتراجع عنه والالتفاف عليه عبر العودة
الى ما قبل اللحظة التاريخية المعاصرة ، اذ تجري العودة الى المرحلة
ما قبل الرأسمالية ، ناهيك عن الاشتراكية ، تجري الدعوة للعودة الى
افكار وتنظيمات ومثل وقيم بل ولغة المصور الوسطى ، فلماذا ، وكيف
حدث ما حدث ؟.

ليس بإمكاننا تقديم جواب عن اسباب ما حدث ، اي عن اسباب
هذا التراجع ، سواء في افكار الطليعة العربية المعاصرة ، او في افكار
المجتمع براه العام واحزابه ومؤسساته ، فهذا يقتضي دراسة مختلف

- ٨ -

جوانب الحياة العربية المعاصرة ، بل ويقتضي جهود أكثر من فرد ، لكننا
نطرح هنا هذا التساؤل :

هل انتهى عصر النهضة العربية حقا ؟ وهل أصبح هذا العصر جثة
ميتة كما يعامله السلفيون ، بل وبعض التقميين العرب عندما يتسلل
جمعهم ويلتف الى ما قبل هذا العصر ، او عندما يبحثون عن اسس
افكارهم وتقدميتهم او اصوليتهم في ثورة الزنج وآراء ابن رشد والقرامطة
وخلافة عصر الراشدين او عمر بن العزيز ، بل وفي الفرق الباطنية والصوفية
لدى بعضهم ؟! ام ان اسهامات واشكالات وقضايا عصر النهضة ، افكار
وقضايا الطهطاوي وخير الدين والافطاني ومحمد عبده وفرح انطون
وطه حسين وساطع الحصري وسليم خياطة ما تزال راهنة ، بل ومقاتلة
حقيقية للسلفية وافكار المصور الوسطى ، ما تزال راهنة لانها تكونت
في مناخ شبيه بالمناخ الذي نعيشه الآن ، تكونت في مناخ مناقشة
ومناقضة الافكار السلفية التي استعادت المبادرة وعادت تطفئ اليوم ،
فهل نستطيع مثلا ان نفهم افكار سلامة وطه حسين واحمد امين وساطع
الحصري حقا الا بمعارضتها مع افكار مصطفى صادق الرافعي وشكيب
ارسلان ورشيد رضا وشيوخ الازهر ؟ هل نستطيع ان نفهم تكون الفكرة
القومية الا بمعارضتها بافكار الجامعة الاسلامية ؟! هل نستطيع ان نفهم
تجديد الشعر الا بمعارضته بنمط الشعر الذي كان ينظم في القرن
التاسع عشر وما يزال ينظم على شاكلته حتى الآن ، وهل نستطيع ان
نفهم اهمية الرواية والمسرح الا بمعارضتهما ومقابلتهما مع الاجناس
الادبية السائدة آنذاك ؟!

بهذا المعنى فقضايا عصر النهضة ما تزال قضايانا ، من تحديد مفهوم
الامة ، الى تنظيم مؤسسات المجتمع ، الى الاجناس الادبية ، وشخصيات
عصر النهضة ما تزال حية بيننا ، من ابي الهدي الصيادي والرافعي ، الى
سلامة موسى والمقاد ومحمود احمد السيد الى علي عبد الرازقي
وسليم خياطة والصراع الذي جرى آنذاك ما يزال يجري الآن .

ربما هكذا توضع الامور في نصابها ، وتناقش القضايا بشكلها

المباشر ، الصريح والراهن ، اي دون العودة الى القنعة الماضي وارضيتته
وسمائه ، فوضع النقاش على ارضية السلفيين الحاضرة يعني الاستسلام
مقديا لتأسيساتهم ، ذلك ان الصراع مع السلفيين ليس على الماضي ،
كما يريد هؤلاء ان يصوروا الصراع ، بل هو في الزمن الراهن الذي
يهرب منه هؤلاء السلفيون ، والتقدميون السلفيون الجدد ، انه صراع
على المستقبل الذي لا يمكن ان يبنى الا بالنظر الى الامام .

ومن هنا ربما كان الاجدى هو الانطلاق من عصر النهضة العربية ،
اي من مشكلات وقضايا هذا العصر ، فهي مشكلات وقضايا الراهن
والحاضر والمستقبل ، ففي حوارنا عن عصر النهضة وعلى ارضيته نجد
التأسيس لنهضة العصر ، نهضة العرب التي ما تزال حلما ، حلما يتوقد
ويصبح اكثر إلحاحا كلما تأمل المرء هذا الخراب العربي الشامل ، هذا
المستنقع العربي الاسن الذي يهدد بإغراقنا وقتلنا جميعا في وحواله
وغازاته السامة ، بينما نحن نتذكر الماضي مفتبطين ونعطي صوتنا باغانيه
كلما ازددنا تسمما وتخططا وغرقا ، فهلا نظرنا في بحثنا عن شجرة النجاة
الى الامام والى الاعلى ، وليس الى الوراء حيث لا شيء الا هذا المستنقع ،
هلا فكرنا كيف نخرج من هذا المستنقع ؟!

هل نستطيع الانطلاق من عصر النهضة العربية الى نهضة هذا
العصر ، وهل يستطيع الاحياء دفن الموتى حقا ، ام ان ماساة دفن
الموتى للاحياء وللآمال والاحلام ، والبشر وكما يحدث الان في الوطن العربي ،
سوف تستمر ؟!

- ٣ -

سنحاول فيما يلي تنبعا وثائقيا وزمنيا لمشكلات وقضايا عصر
النهضة العربية ونحدد بدا من اواسط القرن التاسع عشر ، ثم
تقديم هذه العملية الاجتماعية التاريخية الجبالية والفكرية ، والتي
عبرها تكون الفكر العربي الحديث ، ووسيلتنا في ذلك اعادة ترتيب
وترتيب هذه الموضوعات والقضايا ، اي اعادة تركيبها زمنيا ، وبالقلام

اصحابها ، منذ تولدت اولى الافكار ، الى ان صارت هذا القضايا الفكرية
ومفاهيم وتنظيمات تفعل في المجتمع العربي المفاصر ، وتدل بتاريخ
تكوينها ومضمونها على شكل وترتيب هذا المجتمع - الواقع الذي نعيش
فيه ، تدل على شكل حياته وتحدد قضايا ومشكلاته مثلما تحدد
صورته ومكانته في عصر التاريخ الانساني الواحد والشامل .

في سبيل ذلك قمنا بتتبع هذه الموضوعات في المجلات والصادر
والأوليات العربية الاساسية المتاحة ، واعدنا تفكيك عصر النهضة العربية
الى قضايا الاجتماعية والفكرية والادبية الاساسية بادئين بقضية القديم
والجديد ، ثم تتبعنا كل قضية من بدايات بزوغها وحتى استوائها تقريبا
عند مرحلة الخمسينات اواسط القرن العشرين ، مختارين ما بدا لنا ذا
اهمية تاريخية في الحوار بين الآراء ، سواء اختلفنا ام اتفقنا مع صاحبه ،
وهكذا امتدت رحلتنا حوالي القرن ، وهي المدة التي جرى خلالها تكوين
المجتمع العربي الجديد بابعاده السياسية والفكرية والاقتصادية، وقد اصبح
معلوما للقارىء ان هذه المرحلة الزمنية باتت تسمى بعصر النهضة .

محمد كامل الخطيب

دمشق ١٩٨٨



القديم والجديد

- ١ -

١ - ربما تكون قضية القديم والجديد هي القضية الاساس في الفكر والادب ، بل والمجتمع العربي المعاصر ، فمن هذه القضية تفرعت تقريبا كل القضايا الادبية والاجتماعية والفكرية كقضايا الرواية والمسرح والديمقراطية وقضية المرأة وتجديد اللغة ، والتحديث ، وغيرها من باقي القضايا الفكرية والادبية والاجتماعية .

بدأت مناقشة قضية القديم والجديد في الثقافة والفكر والمجتمع العربي بعد ان كان المجتمع العربي قد بلغ مرحلة قارب فيها مرحلة الانفصال عن الدولة العثمانية التي كانت تجمع شعوبها تحت رابطة الدين الاسلامي ، وهنا كان طبيعيا ان يبحث هذا المجتمع عن رابطة اجتماعية - مدنية - فكرية جديدة تشد اجزاءه ، بعضها الى بعض ، بعد انحلال الدولة العثمانية ورابطتها ، وكان طبيعيا في الوقت نفسه ان يبحث هذا المجتمع عن روابط وافكار او اساليب ادبية جديدة مختلفة عن الافكار والاساليب ، بل والاجناس الادبية القديمة .

لكن الامور لا تجري بهذه السهولة ، فالقديم مألوف ومحبوب وله المناعم عنه ، مثلما الجديد مرغوب ومطلوب ، والمجتمع يحتوي في قواه وطبقاته وافكاره واساليبه من وما يدعو الى القديم ويحب به ، مثلما بدأت تتكون فيه قوى احست بالحاجة الى الجديد ، حتى ان بعضهم رأى امام الانحلال والتخلف العام الذي تعيشه مجتمعاتنا العربية بالنسبة الى البلاد الاوربية ان « لا قيام لامرنا الا بالاخذ من المدنية الاوربية »

- ١٢ -

فلوروبا كانت المثال والنموذج ، كانت تمثل الجديد بالنسبة لقوى
التجديد .

إذا كانت أوروبا مثالا للجديد ومقياسا له ، فقد كان طبيعيا ان
يدعو طه حسين الى منهج ديكارت بديلا لمنهج الازهر في الدراسة
الادبية وكان طبيعيا ان يدعو ساطع الحصري الى القومية كرابطة مدنية
اجتماعية جديدة للشعوب العربية بديلا لرابطة الدين التي انحلت بانحلال
الدولة العثمانية ، مثلما كان طبيعيا ان يدعو مفكرون آخرون للديمقراطية
الحديثة بديلا للاستبداد الشرقي التقليدي والزمين ، وان يدعو قاسم
امين لتحرير المرأة بديلا لوضعيتها المعروفة في المجتمع التقليدي ، وان
يدعو الشيخ علي عبد الرازق الى فصل الدين عن الدولة ، وكأنه يعلن
ان انفصال العرب عن السلطة العثمانية لا يعني انفصالهم عن دينهم
فالدولة امر زمني متبدل والدين امر آخر ، كما يرى الشيخ علي عبد
الرازق في كتابه (الاسلام واصول الحكم ١٩٢٥) .

هذه النقاشات والحوارات بل والدعاوى القضائية احيانا ، كانت
فروع ، او تجليات المعركة الاساس ، معركة القديم والجديد ، معركة
تجديد الفكر والادب والمجتمع العربي .

٢ - يعود مصطلح القديم والجديد الى اوائل هذا القرن ، ويكاد يكون
تطورا للمصطلح الذي استعمل منذ القرن التاسع عشر وهو الاصلاح
والنهضة ، فمع الحملة الفرنسية على مصر والشام ومن ثم زيارة رفاعة
الطهطاوي وبعثته الى فرنسا ، ومع بداية السيرة الطويلة المعروفة بسيرة
« الرجل المريض » أي سيرة انحلال الدولة العثمانية ، تحت ضغط
الراسمالية الاوربية الصاعدة من جهة ، وضغط التحلل الداخلي
للمجتمعات العثمانية من جهة ثانية ، منذ ذلك الوقت بدأ التفكير في
اصلاح الاحوال ، هذا التفكير بدأ في الوطن العربي مع جيل الطهطاوي ،
وخير الدين التونسي واستمر طوال القرن التاسع عشر ، ثم تطور هذا
المصطلح الى مصطلح النهضة في النصف الثاني من هذا القرن (*) .

(*) سنقدم قصية « الاصلاح والنهضة » في الحلقة الثانية من هذه السلسلة .

أما في بداية القرن العشرين ، وعندما اتضح ان الرابطة العثمانية قد انحلت ، وان لا أمل في اصلاح السلطة أو نهضتها ، وان الأقاليم العربية منفصلة عنها لا محالة ، فقد اتخذت القضية وجهة أخرى ، وجهة عنيفة حادة فيها كل عنف والم الموت والولادة ، عنف موت السلطنة والأفكار العثمانية القديمة ، وعنفة ولادة الأفكار والمؤسسات والأجناس والأساليب واللغة الجديدة ، انه عنف البعث من خلال الرماد ، وربما كان ذلك هو السبب الكامن وراء الحدة والعنف اللذين سنلاحظهما في معركة الجديد والقديم لدى التقليديين ، وهو ما اضر في حقيقة الامر بقضية الدين كتناسل انساني امام الفلز الوجود ، اولا ، وبقضية الجديد ثانيا ، وثالثا بقضية تجديد المجتمع العربي ككل ، ذلك ان طريقة التقليديين في تقديم ما هو جديد على انه الحاد ، وما هو تقليدي وقديم على انه من اصول الدين ، ان لم يكن هو الدين ، أدت في كثير من الاحوال الى قتل الجديد والمتقدم ، وإذا كان التقليديون ، بهذه الطريقة ، يريحون المعركة مبرمدا صبة المشاعر السائدة وادعاء الحفاظ على الهوية التاريخية والثقافية والمقائدية ، فان المجتمع العربي هو الخاسر الحقيقي ، وهذا ما تدلنا عليه نتيجة معركة الجديد والقديم ، هذه المعركة التي بدأت اوائل هذا القرن ، ولكن من يدري من هو المنتصر الاخير ، على الرغم مما يبدو الان من انتصار التقليديين ، فالتاريخ دهالؤه ومكره ، دهالؤه ومكره اللذان هما جزء من منطق وسيرورته . كما هو معروف ، ولكن لنقرأ هذه المعركة ، معركة القديم والجديد ، فهي الاساس واللاحم لكل المشكلات الفكرية والادبية والاجتماعية التي طرحها ويطرحها المجتمع والثقافة العربيين في هذا العصر .

— ٢ —

١ — قام المصباح بتقريبه للمقالات في المجلات والكتب والمصانيد العربية التي تناولت موضوع القديم والجديد في كليته ، اي دون الدخول في التفاصيل والفروع ، كالجديد والقديم في الرواية ، او المسرح ، او الشعر ، وهذه الفكرة ، أو تلك ، فهذه فروع وقضايا مستقلة ، اما

الفترة الزمنية التي جرى البحث فيها فتمتد من اوائل هذا القرن ، وحتى اواسط الخمسينات ، اذ ان الموضوع بعد ذلك اتخذ تسمية ومنحى آخر ، ولهذا اثرنا الوقوف عند فترة الخمسينات في الحلقات كلها .

٢ - بعد ذلك اختار المعد ما بدا له ذا اهمية فكرية وتاريخية ، او ذا دلالة في تكون المشكلة وبلورتها او عرضها ومناقشتها ، من خلال الجدل الذي دار بين المفكرين والكتاب العرب حول الموضوع ، ثم رتب المقالات والفصول ترتيبا تاريخيا ، وبغض النظر عن القطر او المجلة او الكتاب ، فاذا كانت الثقافة تشكل في كل دائرة ثقافية ، سلسلة متكاملة الحلقات فان السلسلة الثقافية العربية تشكل ، قديما وحديثا ، سلسلة متكاملة ، سلسلة تمتد من المغرب الى العراق ، مروراً بمصر وسوريا ولبنان وغيرها ، مثلما تمتد من الشعر الى الديمقراطية ، الى الرواية ، الى قضية المرأة ، وهكذا مروراً بالشرح والوحدة واللغة والاشتراكية ، وفي الوقت نفسه ، فان تلويح ومشكلات حلقات هذه السلسلة الثقافية تبقى واحدة ومتشابهة بالنسبة للثقافة والمجتمع العربيين في مختلف اقطارها ، واذا كنا نستطيع الحديث عن وحدة في السياسة والاقتصاد العربي المعاصر (الا بمعنى جواهره التابع) فاننا بالمقابل نستطيع الحديث باطمئنان عن وحدة السلسلة الثقافية العربية ماضيا وحاضرا ، فكما تنقل المتنبي بين سوريا ومصر والعراق ، فان فرق المسرح العربي تنقلت بين كل الاقطار العربية ، مثلما قرانا ونقرا مجلات الرسالة والهلال والمنار والطليعة والثقافة الوطنية والاداب والطريق التي انتشرت في مختلف اقطار البلاد العربية ، متخطية الحدود السياسية والاقتصادية والجغرافية المصطنعة .

٣ - رتبنا المحتويات ترتيبا تاريخيا في ثلاثة اقسام :

١ - مقدمات مسألة القديم والجديد .

٢ - مشكلة كتاب « في الشعر الجاهلي » كمثل للمعترك الفكرية التي دارت حول كتاب محدد ، فثمة معترك فكرية دارت حول كتب تجديدية اخرى : « تحرير المرأة » لقاسم امين « والاسلام واصول الحكم » لعلي عبد الرازق .

٣ - نقاشات وحوارات حول القديم والجديد .

وكما هو ظاهر ، فقد افردنا قسما خاصا لمسألة كتاب « في الشعر الجاهلي » نظرا لاهميتها ولكونها المعركة الأكثر دلالة ، مثلما هي المعركة التي استقطبت الجميع من مفكرين ودولة ومؤسسات ، فهذه المعركة كانت الكاشف لكل التيارات والمواقف ، مثلما كانت المعركة التي تربت على أساسها نتائج مباشرة وغير مباشرة ، فهذه المعركة والطريقة التي أدير بها نقاشها ، ووجهت ، وما تزال توجه ، الثقافة والفكر العربيين في نقاشهما حول تجديد المجتمع والثقافة العربية ، وهذه المعركة كانت وراء ربط التقليديين للدين بالقديم ، والجديد باللاحاد ، مثلما كانت السبب في توجه مثقفي الثلاثينات التقدميين إلى دراسة التراث العربي في مختلف جوانبه ، ومن جهات نظر مختلفة (أحمد أمين ، بندلي الجوزي طه حسين ، محمد حسين هيكل ، تحقيقات كامل عياد ، وجميل صليبا لحي بن يقظان والمنقلد من الضلال ... الخ) والخلاصة كانت معركة تاريخية كاشفة أن لم نقل فاصلة ، كما ونرى من خلال هذه المعركة مسالة دخول الجامعة كمؤسسة تعليمية حديثة إلى الجهاز الثقافي العربي . وفيما يلي مراحل ومقالات القديم والجديد كما سلسلناها :

المرحلة الاولى

- ١ - الشعراء المحافظون والشعراء المصريين
نجيب شاهين ١٩٠٢
- ٢ - الشعراء المحافظون
أسعد داهر ١٩٠٢
- ٣ - القديم والحديث
محمد كرد علي ١٩٠٦
- ٤ - الأفكار القديمة والحديثة
محمد تيمور ١٩١٧
- ٥ - مقامة الديوان
العقلاء والمثاليين ١٩٢١
- ٦ - تقليد القدماء
أبراهيم المثالي ١٩٢٤
- ٧ - الرافعي : المذهب القديم والمذهب الجديد
سلامة موسى ١٩٢٤
- ٨ - دفاع عن المذهب القديم
مصطفى الرافعي ١٩٢٤
- ٩ - الخصومة بين القديم والجديد
طه حسين ١٩٢٤

- ١٠ - الجملة القرآنية شكيب أرسلان ١٩٢٤
١١ - القديم والحديث محمد حسين هيكل ١٩٢٥

المرحلة الثانية

- ١ - مقدمة كتاب في الشعر الجاهلي طه حسين ١٩٢٦
٢ - مقدمة كتاب « نقد كتاب في الشعر عبد الرحمن قراعه الجاهلي » (تقديم) محمد الخضر حسين (المؤلف) ١٩٢٦
٣ - منهج الدكتور طه حسين محمد عرفة ١٩٢٦
٤ - نقد كتاب الشعر الجاهلي « مقدمة » محمد فريد وجلي ١٩٢٦
٥ - الإلحاد في الجامعة المصرية المنار ١٩٢٦
٦ - مقدمة وخاتمة تحت راية القرآن مصطفى صادق الرافعي ١٩٢٦
٧ - الدعوة إلى الإلحاد - كتاب في الشعر الجاهلي ١ - ٢ المنار ١٩٢٦
٨ - ديكرات طه حسين ١٩٢٦
٩ - في الشعر الجاهلي إبراهيم المقني ١٩٢٧
١٠ - قرار النيابة العامة عن المنار ٩٢٧
١١ - مقدمة كتاب النقد التحليلي محمد أحمد الفمراوي ١٩٢٩
١٢ - تقرّظ كتاب النقد التحليلي المنار ١٩٢٩
١٣ - حياة القرون الوسطى سلمي الكيالي ١٩٣٢

المرحلة الثالثة

- ١ - الطربوش أم القبة مصطفى الرافعي ١٩٢٧
٢ - فاتحة القول سلمي الكيالي ١٩٢٧

١٩٢٧	المنسار	٣ - الحديث
١٩٢٧	محمد علي ثروت	٤ - النهضة الجبارة
١٩٢٧	ابراهيم المازني	٥ - القديم والجديد
١٩٢٨	المنسار	٦ - مجلة الرابطة الشرقية ١ - ٢
١٩٢٨	الرابطة الشرقية	٧ - نحن وصاحب المنار
١٩٢٨	سلامة موسى	٨ - قطيعة الماضي
٠٠٠٠	ساطع الحصري	٨م - قطيعة الماضي
١٩٢٨	محمد حسين هيكل	٩ - الحاد ام اصلاح
١٩٢٨	مجلة الجديد	١٠ - تجديد
١٩٢٨	محمود المنجوري	١١ - كلمات في التجديد
١٩٢٨	داود بركات	١٢ - التجديد
١٩٢٨	عباس محمود العقاد	١٣ - التجديد قديم
١٩٢٨	عبد الله الطيباوي	١٤ - بين القديم والحديث
١٩٢٩	ب . النيل	١٥ - الادب : قديمه وجديده
١٩٢٩	سامي الكيالي	١٦ - مرامي التجديد
١٩٣٠	نقولا حداد	١٧ - المحافظون والمجددون
١٩٣٠	اديب الصفدي	١٨ - الادب الجديد
١٩٣٠	خليل تقي الدين	١٩ - بين الادب الجديد والقديم
١٩٣٠	اديب	٢٠ - مذهب الادب المصري
١٩٣٢	سامي الكيالي	٢١ - اتجاهات التجديد
١٩٣٣	محمد حسين هيكل	٢٢ - تقديم
١٩٣٣	جميل صليبا	٢٣ - الابداع والاتباع
١٩٣٣	امين الخولي	٢٤ - التجديد في الدين
١٩٣٣	احمد حسن الزيات	٢٥ - حول التجديد
١٩٣٣	احمد امين	٢٦ - التجديد في الادب (١٣)
١٩٣٣	عبد الوهاب عزام	٢٧ - التجديد في الادب
١٩٣٣	محمود الشرقاوي	٢٨ - التجديد في الادب

- ٢٩ - تجديد التقليد محمد حصار ١٩٣٣
- ٣٠ - هذه المعركة المزمعة بين الأدبين كرم ملحم كرم ١٩٣٤
- ٣١ - التطور والتقليد فخري أبو السعود ١٩٣٥
- ٣٢ - آراء في الماضي والحاضر ميشيل عفلق ١٩٣٥
- ٣٣ - الميول الرجعية عند بعض أدباء العرب يوسف متى ١٩٣٦
- ٣٤ - المتعلمون والشعب إبراهيم المصري ١٩٣٦
- ٣٥ - قطيعة الماضي محمد أمين حسونة ١٩٣٨
- ٣٦ - القديم والجديد محمد أحمد الفمراوي ١٩٣٨
- ٣٧ - بين القديم والجديد عبد الوهاب الأمين ١٩٣٨
- ٣٨ - الدين والأخلاق بين القديم والجديد قارىء ١٩٣٩
- ٣٩ - رد على نقد محمد أحمد الفمراوي ١٩٣٩
- ٤٠ - رد على رد قارىء ١٩٣٩
- ٤١ - بين جيلين محمد عبد الواحد ١٩٣٩
- ٤٢ - رجعية قديمة ورجعية جديدة وصفي البنسي ١٩٤١
- ٤٣ - موقف العرب من الثقافة القديمة والثقافة الحديثة عبد المصين ملوحي ١٩٤٣
- ٤٤ - كمقدمة ملوون عبود ١٩٤٨
- ٤٥ - الجديد والقديم عبد الرزاق السنهوري ١٩٤٩
- ٤٦ - محاكمة الجيل الجديد عباس محمود العقاد ١٩٤٩
- ٤٧ - القديم والجديد ساطع الحصري ١٩٥١
- خاتمة وشهادتان :
- ١ - التجديد والتجدد والمجددون رشيد رضا ١٩٣١
- ٢ - حديث طه حسين ٠٠٠٠

المرحلة الاولى

الشعراء المحافظون والشعراء المصريون

نجيب شاهين ١٨٦٥ - ١٩٢٧

يظهر ان الشعراء آخر من يفكر في خلق القديم الخلق والتزيي بالجديد ذي الطلاوة . فمن كل زمرة الشعراء والمتشاعرين الذين ينظمون الشعر او يدعون النظم لا تكاد ترى واحدا في المئة يحاول مجازاة العصر ونبد القديم واقتباس الجديد . وتقليد الشعراء المصريين من الامم الاخرى . والسبب في ذلك اقتصار شعرائنا على درس الشعر العربي وعدم الاحتفال بدرس الشعر الاجنبي اما لانهم يجهلون اللغات الاجنبية او لانهم يزدرون الشعر الاجنبي ويحسبون ان الالهات الشعر لا توحى به الا اليهم وان ما ينظمه الشعراء الاجانب نفاية وسفسفة حتى كانه المقصود يقول ابي الطيب حيث قال :

ان بعضاً من القريض هذاء ليس شيئاً وبعضه احكام
منه ما تجلب البراعة والفصل ومنه ما يجلب البرسام

ومن الغريب ان مزية نظم الشعر العربي الجيد واتقان اللغات الاجنبية لا يلتقيان في شخص واحد او قلما يلتقيان فكلاهما ضرطان او ضدان لا يجعلان او كان الالهات الشعر لا توحى به الا الى الذين لا يعرفون لغة اجنبية غيرة منها على شرف اللغة العربية . ومن خرج عن ذلك فشاد لا بني عليه حكم كالشاعر احمد بك شوقي فانه شاعر عربي وعارف لغة اجنبية وديوانه شاهد له بمقدرته على تقليد الشعراء الغربيين وخصوصا ما نظمه على السنة الحيوايت حاذيا في ذلك حذو لا فونتين وغيره وقد

اغتنمت فرصة تدريسي في المدرسة الكلية ببيروت السنة الماضية فكنت أعلم التلامذة القصائد المذكورة غيباً على كره بعضهم لها جهلاً ولو عد الشعراء المحافظون نظم صاحبها لها وتعليمي أياها مروقاً من مبادئ حزبهم كما سمعته من أفواه بعضهم .

نشرت لي في المقطم بعض قصيدة في مقالة من سلسلة مقالات بعنوان « هنا وهناك » . وقد اقترحت على السادة الشعراء اكمالها فجاءني كتاب من شاعر مجيد صديق قال فيه أنه أخذ في تلبية طلبي ولكنه رأى أن يوجه خلطري إلى مصراع في قصيدتي وينتقد علي المعنى المتضمن فيه . أما البيت فهو :

ونفود وخفة والتفات كظلم يمرحن في بستان

وملخص الانتقاد أنني لو جمعت الظباء تمرح في واد أو كتيب أو منرج أو منعطف أو على هضبة أو اكمة لكان ذلك أوجه لأننا لم نعتد رؤية الظباء تمرح في البساتين والحدائق إذ هي حيوانات برية وحشية لا اليفة انسية . فما ينتقده صديقي عليّ هو عين ما أردت توجيه الانظار إليه والبحث فيه التحذير منه .

يقول صاحبي أننا لم نعتد رؤية الظباء تمرح في البساتين والحدائق بل في الأودية ومنعطفاتها والكثبان وتمعرجاتها . فاسأله كم ظبياً رأى في زمانه أما أنا فلم أر في زماني ظبياً في واد أو على هضبة أو اكمة ولن أومل ذلك لأنه لا يتسنى إلا لصياد في بلاد ترودها الظباء وتكثر فيها الفولان . على أنني رأيتها تنفر وتلتفت وتمرح في بستان فنظمت ما نظمت في ما رأيت أما هو فسمع بنفورها وتلفتها ومرحها مما نظم هذا الشاعر وذلك وعليه ينظم ما ينظم في ما يسمع . وما راء كمن سمع .

والبستان الذي رأيت الظباء تلتفت وتنفر فيه بستان الحيوانات في الجزيرة بمصر . ولو ذهب صاحبي إلى هناك لصدق خبره الخبر ولوافقني على مصرامي بيتي . ولكنه يفضل بقاء القديم على قدمه ويعسب أن الإلهام

لم يهبط الا على الشعراء الاقدمين وان ما ينظمه ابتلاؤهم هذاء في هذاء
جلريا مجرى انصار الفلسفة القديمة فلسفة ارسطو واتباعه فانهم كانوا
يسلمون بمبادئها وقواعدها تسليم الاعمى بحجة ان ارسطو ذهب اليها وهو
معصوم من الغلط لا بناء على المشاهدة والاختبار والامتحان اركان الفلسفة
الجديدة التي قلبت للاولى ظهر المجن ووضعت اساسا ثابتا مكينا للعلوم
والفنون الحديثة .

ومما يجمل ذكره في هذا الصدد اني كنت اكلم عالما فاضلا ببعض الامور
العلمية والادبية فورد ذكر الشعر والشعراء عرضا فجعلنا نقابل الشعر
العربي بالشعر الافرنجي ونبين الفرق بينهما فقال ان السر ولترسكوت
الشاعر الانكليزي المشهور كان اذا اراد وصف جدول ماء مثلا قصده
ليراه بعينه ثم رسمه على قطعة ورق بما على ضفتيه من الحصى والاحجار
والاشجار كأنه مصور لا شاعر . ثم شرع في وصفه شعرا حتى اذا قرا
احد ذلك الوصف امكنه تصور الجدول في مخيلته تصورا واضحا كأنه
يرى صورته الحقيقية امامه . اما شعراؤنا فقضوا ايامهم في مدح فلان
وذم فلان واذا خطر لاحدهم ان يصف منظرا طبيعيا او حادثة ما وصف
كما سمع من هذا وذاك وقلما يحكم وصفه ويدقق في التفصيل .

فوافقته على ما قال وقلت اني لا اكاد اتذكر شاعرا من شعراء العرب
دقق التدقيق الواجب في وصف حادثة شاهدها غير المتنبي في وصف
الاسد وما جرى بينه وبين بدر بن معمر في قصيدته التي مطلعها .

في الخدان عزم الخليفة وحيلنا مطر تزيده به الخدود منحولا

حيث يقول :

امعز الليث (الشديد) بسوطه ان الخوت الصلوم المصقولا

الى آخر ما هناك من الوصف الدقيق الذي لا يقراه احد الا ارتسمت
هيئة الاسد واضحة في ذهنه فاستطاع رسم صورته على الورق ولو لم
يكن قد رآه في زمانه .

ومما يؤخذ شعراؤنا به ان يذكروا في قصائدهم أسماء أماكن في بلاد العرب لم يروها بل لم يروا أحد أراها . ولو اقتصر الأمر على ذلك لكان ولكنهم يجهلون مواقعها وطبيعة أرضها وأقليمها وسائر ما يتعلق بها وربما لم يكن الجغرافيون وعلماء تخطيط البلدان ومساحوها ومشاهير الأفاقين والسياح والمكتشفين أكثر علما منهم بها وبحقيقة مواقعها وإنما أكثر شعراء العرب ذكرها لأنها قسم من بلدانهم فإن كانت جبلا فكم استجلروا واعتصموا به أو سهلا فكم حدوا عيسهم فيه أو عين ماء فكم وردوها وأرووا ظماهم بمائها أو مطمئنا من الأرض فكم أناخوا ركائبهم فيه للمبيت أو دوحة فكم تفيا ظلها للمقبل أو طللا دراسا فكم مرجحوا فيه وطربوا أيام كان ربعا زاهيا . فما لشعرائنا يطيلون الوقوف على الاطلال وما لهم ولذكر العتيق والابلق ودارمية ووجرة وكاطمة والعذيب وبارق والمنحني ووادي الفضا وهم لا يعرفون منها الا أسماءها . قد كان كثيرون من شعراء الاسلام يكترون ذكر بعضها في قصائدهم ويبالغون في مدحها لعلاقتها بصاحب الرسالة الإسلامية . فإن كثيرا منها لم يكن يستحق المدح في حد نفسه كعين وجرة فانها عين سخينة الماء قليلة النز لا تنقع غلة ولا تشفي غلة مرت للوحش في سبب من الأرض لا يسكنه انس ولا ياوي اليه جن . ولا الوم الشاعر العربي اذا مدحها وأعجب بها ما شاء فكم أروى بها الظما هو وقومه بعد اجتياز المغلوز والسباسب الجافة من حوالها . ومهما كان الماء أجاجا آسنا وجده اذ ذاك عذبا زلالا . فمدحه للماء من قبيل الاقرار بالمعروف وعرفان الجميل .

هذا وبدلا من ان تلجا الى الرصافة والجسر في قول الشاعر « عيون المهى بين الرصافة والجسر » عند قصد التغزل والتشبيب لماذا لا نقول « عيون المهى بين الجزيرة والكبري » في وصف المناظر في تلوح لعين الناظر بين كبري قصر النيل والجزيرة المشهورة في يوم سرحت ظباؤه وصفت سملؤه واعتل نسيمه وراق اديمه . الا يكون الوصف اذ ذاك أكثر مطابقة

هذا بعض ما جال في خاطر عن الشعر والشاعر وقد استأذنت
صديقي في نشر انتقادي على صفحات المقتطف الاغر فالذن ووعد بالرد ،
ولي كلمة بعد على الكتابة والكاتب ارجئها الى فرصة اخرى ...

نجيب شاهين

المصدر : مجلة المقتطف ، المجلد ٢٧ - ١٩٥٢ ، ج ١ .

الشعراء المحافظون

اسعد دافسر

وفي النفس أشياء لولع ألقها انكاد جلايمد الصفا تتصدع
علمنا فقلنا ما علمنا كما ترى ولكن علينا الفعل صعب ممتع
ومادام هذا الشأن يا صاح شأننا فلا القول نجدنا ولا العلم ينفع

أبي صديقي الكاتب المدقق نجيب أفندي شاهين إلا أن يجتلبني بلطف أسلوبه وحسن تنلولة إلى خوض مبحث أن أمنت الفرق في تيلره لهم أسلم من البكل .. وإن أحجمت عن الإجابة قضى عليّ شرع الأدب بالوم والعدل . فسأجيب وفاء بالوعد وأنا أقول مكره أخوك لا بطل ..

من الأقوال المأثورة « الحقيقة أن تقال لا أن تعلم » لأن الناس في الشرق والغرب يعلمون حقائق كثيرة لكنهم لا يقولونها لمساسها بالشرائع الدينية أو القوانين السياسية أو القواعد الاجتماعية أو غيرها من الأسباب التي لا محل لذكرها هنا . فتودع غيلبات القلوب وأعماق الصدور . ولا يؤذن لها أن ينفث بها الفم وينطلق اللسان . إلا متى زالت هذه المحاذير وانقطع خوف الإنسان من الإنسان .

ولكننا نحن الشرقيين مصلوبون والأمر لله بخطب آخر أجل من هذا وأعظم إذ لدينا فوق الحقائق التي نعلمها ولا نستطيع أن نقولها حقائق أخرى كثيرة علمناها وقلناها إذ لم يكن في قولها ما يخالف مبدأ أووينا قضى معتقداً لكننا لسوء الحظ وقفنا عند حد العلم والقول ولم نقرنها بشيء من العمل . إذا الحقيقة عندنا أن تعمل لا أن تعلم وتقال . لأن أكثر ما

جاء في مقالة حضرة النجيب من الحقائق التي علمناها وكثيرا ما قلناها وإما فعلها أو العمل بموجبها فالى الآن لم نجتمع عليه . فهو مصيب كل الإصاغة في حكمه على شعرائنا بأنهم محافظون على القديم لا يفكرون في خله ولعله أوجس خوف المناقضة أو الاعتراض فلم يصرح في حكمه كما أراد وكما هو الواقع . أما أنا فأقول بكل صراحة إن كل الشعراء أسواء في التزام التحدي والافتداء والفرق بين أفرادهم الذين تسامح مريدوهم في التسميتهم بالشعراء المصريين أو الأحرار في اصطلاح صديقي النجيب - وبين بقية الشعراء هو نسبي لا يحسب عند التحقيق فرقا .

وكانه بالملمع إلى اللغات الأجنبية يريد أن يتقن واحدة منها يعين الشاعر العربي على نزع التقليد وإتيان الجديد وليس من ينكر عليه أن التطلع من إحدى اللغات الغربية يزيد بضاعة الشاعر ويوسع دائرة تصوره لكنه قلما يجدي نفعا في تحصيل القصد . ومتى كانت العلة باطنية لا يفيدها استعمال المراهم على ظاهر الجلد . ومن السهل جدا أن نقترح على الشعراء أو تكلفهم خلق القديم البالي والتزيي بالجديد الطلي الأنيق ولكننا لا ندري أي جراح دفين في صدورهم ننكا بمثل هلا الاقتراح . ولم يكن صديقي النجيب بأول من أثار الحزازات ونقض الكلوم إذ قد سبقه كثيرون إلى ذلك ولم يجاوره في الانتقاد بلسان الرفق واللفظ بل اشرعوا على الشعراء أسنة اللكر والوخز وأطلقوا نحوهم أعنة الهمز والفمز حتى جعلوهم لرياح التهكم مهزأ ولسكاكين الأندراء محزأ .

وهذه شعراء العصر تحسبها
فقل لمن لام مرزوقا بسيئة
أوفي ثواب لها في حاضر الزمن
يعلمها منه من أعظم المن
« يقضى على المرء في أيام محنته
حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن »

فقد علمنا أن شعرائنا ليس كما ينبغي أن يكون. وقلنا هذا للشعراء وهم مثلنا يريدون أن يجاروا شعراء الغرب وحلوا ذلك مرارا عديدة فما استطاعوا لذلك سبيلا ولم يجدهم اتقان اللغات الأجنبية فتبلا بل زادتهم معرفتهم بها نفصة وتجسرا لأنهم رأوا في الشعر الأجنبي أشياله كثيرة

استحسنوها وودوا من صميم قلوبهم نقلها الى الشعر العربي فلم يقدرها .
ولماذا ؟ لان اللغة لا تطاوعهم على ذلك . هذه هي الحقيقة ولا ينكرها
الا المكابر او من كان ليس بشاعر . وتفصيل ذلك ان الشاعر الاوربي
عندما يخلو بنفسه للنظم في أي موضوع أراد يستكدر قريحته ويشهد
بفرار تصوراته لاستنباط المعنى ويرسم صورته في ذهنه ومتى توافق الى
ذلك ونهيا له التصور المراد والتخيل المطلوب عمد الى خزانة ذاكرته
او فتحها فقرأ ما شاء من مترادفات لغته . وأساليب تعابيرها المنطبقة على
قواعد الصرف والنحو والمعاني والبيان والمفهومة حتى عند عملة أمته
وأطفالها . والمقبولة عند خاصتها وعلمائها وكلها معدة وصالحة لتمثيل كل
صورة ذهنية والتعبير عن كل معنى خيالي .

أما الشاعر العربي المنكود الجهد السي الطالع فقد يكون أسيل من
الشاعر الا فرنجي قريحة وأمضى ذهنًا وأقوى تصورًا . فماذا يبقى عليه
بعد التصور والتخيل . يبقى عليه كل شيء لانه اذا كان ممن رزقوا ببعض
الامام باحدى اللغات الاجنبية واراد مجازاة شعراء الا فرنج في النظم وفتح
خزانة ذاكرته لا يرى فيها سوى الالفاظ العامة واذا استعان بما في
محفوظه من الكلمات الفصيحة لا يرى بينها لفظة تعبر عما يريد وصفه
بالتدقيق كالشاعر الا فرنجي وان رأى لها بعد الجهد الفاظًا تفي بالمعنى
المراد كانت غويصة غامضة يعسر فهمها على الخاصة فضلًا عن العامة .
والاقتراح على شعراء هذه الايام ان يجاروا الا فرنج ليس فقط في التدقيق
في الوصف والتعبير عن حقيقة العواطف حتى تجيء القصيدة اشبه بالصورة
بل في التزام البسط والجلاء حتى لا يقل الشعر عن النثر في سهولة الفهم
ووضوح المعنى بحيث يفهمه اولادنا كما يفهم اولاد الا فرنج اشعارهم .
ويأما اقل عقل من يعلل نفسه بمثل هذا الحال .

وعندما يرى شاعرنا ان الكلام العامي لا يصح ان يتخذه قالبًا لسبك
المعنى الذي اراده والكلام الفصيح لا يفي به او يفي ولكن لا يفهمه احد
الا هو والقاموس الذي اخذه منه يمحو من ذهنه صورة المعنى التي رسمها
على وجه التدقيق والاحاطة ويعرض على مخيلته الصور البسيطة التي

رسمها هو قبلا أو كثيرون غيره من شعراء العرب لمثل هذا الموضوع فيختار منها واحدة سهلة المأخذ قريبة المنال ويلبسها الالفاظ المعدة لها في ذاكرته ويزينها بالاستعارات المألوفة والتشبيه المعروفة ويرسلها كما جاءت لا كما أراد .

هذه علة محافظة شعرائنا على القديم . وهي فاشية بين كتاب النثر ايضا فمصائبهم ومصائب الشعراء فيها واحد . والا فأي كاتب عربي يجسر على القول انه ظافر من الكلام الفصيح الواضح بما يقدره على مجازاة كتبه الا فرنج في وصف كل ما جال في خاطره وتصور في ذهنه من الخواطر والافكار . بل اي كاتب منصف من كتابنا لا يعترف بأنه يعرض له كل يوم عقبات تحول دون ادراكه الغرض وتضطره رغم انه ان يترك جوهر المعنى ويقنع بالعرض .

إذا من يهمله اصلاح شأن الشعر العربي فليتفضل بازالة هذا الملقع من طريق ارباب الشعر والنثر وله خالص الحمد وجزيل الشكر . والا فدرهم يا صاح يهيمون في اللوى والبان . ويعيدون على قلب الصب الولهان . ذكرى مسارح الأرام ومنزل الغزلان . ودعم يستعملون وادي النقا والعذيب . ويحنون الى المنحنى والحصيب . فما يرون بعد ماء وجرة ماء ولا يؤثرون على ارواح نعمان هواء .

بقي ان الصديق النجيب أراد بكلمة الظباء في قوله « كظباء يمرحن في بستان » الحسان او الظباء الانسيات بدليل قوله بعد ذلك « على اني رايتها تنفر وتتلفت وتمرح في بستان » . وقد انكرت عليه كلمة بستان وارتابت ابدالها بالبان ونحوه لغاية حصر كلمة الظباء في معناها الحقيقي وعدم مجازها الى الحسان حتى لا يكون المشبه والمشب به واحدا ويقال هكذا « كظباء يمرحن بين البان » فالقاص يقضي ان يكون معنى الظباء الغزلان ليصح التشبيه ولكن ذكر البستان يصرف الظباء عن الغزلان الى الحسان . والله اعلم .

اسعد دافر

المصدر : مجلة المقتطف ، مجلد ٢٧ (١٩٠٢) ج ٢ .

القديم والحديث

محمد كرد علي ١٨٧٦ - ١٩٥٣

لم يأت على هذه الأمة دور مثل هذا اشتد فيه النزاع بين القديم والحديث ، وأنهزم القديم بضعف القائمين به وقوة انصار الحديث . عشنا بذلك أرباب التقليد ممن يرون السعادة في الاكتفاء بما تعلموه من آباؤهم ، وورثوه عن أجدادهم من العلوم والآداب ، ويعدون ما عداها ضرراً يجب البعد عنه ومحاربته بكل وسيلة ، كما عشنا أرباب التجديد الذين يزعمون أن الاكتفاء بعلوم أهل الحضارة الحديثة وحدها كافية في رفع شأننا .

نشأت للأمة ناشئة بعد أن كثرت احتكاكنا بأوروبا في أواسط القرن الماضي عادت القديم معاداة خرجت فيها عن طور العقل ، وذلك نكاية بما رآته من دعاة ذاك القديم ، وأكثرهم مثال الجمود والبلاهة ، ونموذج الفساد وسوء التربية ، فقامت تزهد فيهم وفيما يدمون إليه ، تحمل طيهم حملاتها ، وتحمل عليهم بتمحلاتها ، وكذلك كان شأن أنصار القديم مع دعاة الحديث ، يرمونهم بكل كبيرة ، ويسلبونهم كل فضيلة ، ويعطون بعلومهم إلا قليلاً ، ويعدون النافع منها ما لا يضر ولا ينفع .

لا خلاف في أن ملكة الدين والآداب ضعفت في البلاد الإسلامية لضعف حكوماتها ، والعامل الرئيسي في كل البلاد في السياسة ، إذا ضعفت يتيحها كل شيء ، فجهل الحكام والملوك منذ نحو ألف سنة هو الذي رفع شأن المنافقين من العلماء الرسميين ، فصار العلم الديني يتطلمه المرء لا لينال السعادتين ، ويكون عضواً مهماً في جسم المدينة الفاضلة ،

بلى ليخدم به أغراض أمراء السوء ، ويستولي على عقول العامة ، وتقبل يدها ويكرم بالباطل ، وهذا ما حدا حجة الاسلام الغزالي واضرابه في عصره ويعدده أن ينحوا على فقهاء السوء إنحاءهم على أمراء السوء لأنهم يتعلمون علوم الفقه والفتيا ليتقربوا بها فقط من السلاطين ، ويجعلوا من الدين سلاحا يقاتلون به من يناصبهم في شهواتهم وأهوائهم . ولقد فضل الغزالي في الأحياء وتهافت الفلاسفة من يتعلمون الطب على الفقهاء وقال : أن من يقولون أن علوم الدنيا تنافي الدين يجنى على الدين .

شغلت الأمة زمنا بنفسها فضعفت ملكاتها وكانت الحروب الصليبية وغارات التاتار من الموائم المنهكة لقواها ، ثم قام ملوك الطوائف وفارقوا الشمل بعد اجتماعه ، إلى أن جاءت الدولة العثمانية وهي تاتارية لا تقيم للمدنية وزنا ، ولا تعرفه لعلوم العمران لفظا ولا معنى ، قوتها بجندها ، وعلمها في إرهاب حدها ، وعظمتها ببطشها ، ومجدها باكتساح البلاد ، واخضاع النفوس لسلطوتهم ، فحاول محمد الفاتح أحد ملوكها أن يجعل من القسطنطينية دار علم ، كما هي دار ملك ، مجلدة للدولة الجراكسة في مصر والشام ، وأعظم لذلك الأعطيات والهبات ، وأنشأ المدارس وحبس الأوقاف ، ولكن ذلك لم يدم إلا بدوامه ، حتى إذا مضى لسبيله عادت الحكومة إلى زهدها في العلوم ، وقد صارت رسمية على عهد المفتي أبي السعود الذي سعى لجعل العلم وراثيا ، وصار ابن العالم يرث أباه ووظائفه ورواتبه ، وإن كان أجهل من قاضي جبل . وعالم هذه حاله هو الجناية الكبرى على الدين والدنيا ، والبلاء العميم على البلاد .

ومع أن الفرس والترك سواء في العجمة ، فالفرس أقدر من الترك على تلقف اللغة العربية منذ القديم . والعربية لغة الدين لا يبرز في علومه من لم يتعلمها ، ولا يفهم الكتاب والسنة من لم يحكم ببيانها . وما تراه من حلال علماء فارس اليوم واتقانهم العربية وارتقاء علومهم الشرعية ، وانحطاط العربية في بلاد الترك وضعف ملكة العلوم الدينية فيها ، لا يرجع إلا إلى أن ميل أبناء فارس إلى إحكام العربية قديم

فيهم ، وان الترك بامرأته المتبريرين جملوا على فروع قليلة من الفقه والكلام وزهدوا فيما عداها فجنوا على البلاد جناية كبرى .

ولما ارادت الدولة ان تنهض وتتشبه بأوروبا وأخذت على عهد سليم الثالث تتعلم فنون الحرب والبحر والسياسة وما ينبغي لها من الطبيعة والرياضة والاجتماع اخذ روح المتفلسف تسري إلى الاستانة ومنها سرت إلى الولايات ومصر ، فلم يعبا أنصار القديم بما رأوه أولا ، واحتقروا ذلك السيل الجارف الاتي عليهم من أوروبا ، وارتأى بعضهم ان خير ما يقابل به المتزندقون ان يكفروا أو يحرموا ويضربوا ، أو يحبسوا أو يهددوا بالقتل أو يقتلوا ، ولم يعد لذلك من العدد اللازمة لبث دعوتهم ، وحفظ ملكة الدين في القلوب ، لتسير مع علوم الدنيا كتفا إلى كتف ، وجاءت ادوار أصبح الوزراء وولاة الامر إلا قليلا من الطائفة التي نزهت ربة القديم ، فلم يبق عليها الا اسمه بل كان بعض المتطرفين في انحلالهم يدعون سرا وجها إلى عدم التأدب بآداب الدين ، محتجين بما هو مائل للعيان من فساد القائمين عليه ، وانحطاط المنتسبين إليه .

وها قد أصبحنا بعد هذا النزاع بين علوم الدين والدنيا والأمة شطرين شطر هو إلى البلاهة والغباوة ، وشرط إلى الحق والنفرة ، وبعبارة أخرى نسينا القديم ولم نتعلم الجديد . ومن الغريب ان معظم المستنيرين بقبس العلوم الأوروبية منا لا يرجعون إلى آداب دينهم ، ويميلون في الظاهر والباطن إلى ان يكون الدين فقط جامعة تجمع الأمة على مثال الجامعات السياسية والجنسية ، وإذا سألتهم عن الحلال والحرام وما شرعته الأديان صعدوا اليك خدودهم وقالوا لك إن الأمة تعيش بحديثها دون قديمها ، وان ذلك القديم ان لم يضرنا الأخذ به فهو لا ينفعنا ، والعاقلة لا يقبل الا على ما ينفعه ويعلي قدره .

تلك هي شئنة أنصار الحديث أو الملاحدة والرنادقة الطبيعيين كما يطلق عليهم المتدينون ، وهذه حالة هؤلاء مع أولئك ، وستكون الغلبة لأنصار الحديث اذا لم يقم خصومهم بلم شعهم على صورة معقولة مقبولة ،

وبين هذين الفريقين فريق ثالث اختار التوسط فلم ير طرح القديم كله ، ولا الأخذ بالحديث بجملته ، بل أثر أن يأخذ النافع من كل شيء ويضم شتاته ، وهذا الفريق المعتدل على قلته لا يقاومه العقلاء من أهل الفريقين الآخرين مقاومة فعلية ، وعامتهما غير راضين عنهم بالطبع ، لأن كثر الناس يحبون أن تكون معهم أو عليهم ولا وسط بين ذلك .

ولقد كتب إلينا أحد علماء المشرقيات في برلين وهو ممن طافوا بلاد الشرق وسكنوا فيه زمنا ، وانقطعوا للدرس أحواله الاجتماعية وعلومه الأثرية ، كتابا بالعربية يصف فيه المكتسب وما يجب للمسلمين أن يقوموا به لقيام أمرهم بعد ذاك السبات الطويل قال فيه :

أما الرسائل التي هي لبها (المجلة) ، فرأيتها تدور أبدا على حث الناس على درس العلوم المدنية التي تراكمت في العالم الشرقي منذ نحو خمسمائة سنة واقتباس الآثار الأفرنجية الحديثة فيها وإحياء الآداب العربية ، وهذا مطابق بحسب اختباري للطريقة الصحيحة لسعادة الأمم إذ لا فائدة من تقليد الأجانب وحده ، ولا فائدة من التناغم فقط بالآثار الشعبية (الوطنية) وحده ، بل الخير كل الخير في الأخذ من هنا وهناك ، وتعميم الدرس والبحث مع اضرام تلك الشعلة العظيمة التي هي ذات نور ، وذات حرارة ، وذات إنبات ، وأعني بها المبدأ الشعبي ، ولنا أن نسميه الشعبية على شرط أن نجرده من الرائحة غير المقبولة .

اجتهد الاسلام والنصرانية أن ينشأ جمعية تقوم بالدين وحده ليكون أهل الشهادة بذلك الدين ظاهرين على الدين كله إلا أنهما فشلا . ولقد تنبأ بعض المسلمين بأن الجامعة الإسلامية التي ستكون في أواخر هذه السنة لن تأتي بما يرجوه أكثرهم من تقوية عروة الدين بل ستقوي الأحزاب الشعبية وربما يتسع الخرق بين الجماعات من جهة المذهب الديني . أما أنا فاقول إن تقوية روابط المسلمين مع من حولهم من غير المسلمين المبنية على وحدة التربية والأخلاق والعادات وعلى وحدة اللسان لا تخلو حقيقة من تقوية الدين نفسه ، لأن هذا الاجتماع من

شأنه أن يدعو إلى نمو عامة التقوى فيزيد من له ميل إلى الحياة الدينية
أعتقاداً وعملاً ، كما يزيد من له ميل إلى غير الدين . قوة فيما اختاره
وعلى هذا فمن مصلحة كل دين أن يكون نصف منتحطيه مجتهدين
مخلصين ، أكثر من أن يكون الجميع فاترين غير مكترئين بشيء أهم .

هذا ما كتب لنا به العالم الغربي الشرقي منذ أشهر نشرناه ليطلع
عليه أنصار القديم والحديث فيعلم الجامدون على مسطور القديم أن
لا قيام لأمرنا بغير الأخذ من مدنية أوروبا ، ويدرك أنصار الحديث بأن
هذه المدنية الجديدة التي بهرتهم بزخارفها وسفاسفها لا تنفعهم ، وتنفع
بني قومهم إلا إذا رافقها ما يجعلها من علوم الأسلاف وآدابهم ، والامة
التي تنزع ربة قديمها جملة واحدة وتنتقل إلى طور آخر دفعة ، قد
ينعكس عليها الأمر ويلتوى عليها القصد ، ولم تنجح اليابان إلا لكونها
اقتبست المدنية الغربية ومزجتها بأجزاء مدنيته وهذا سر قول العالم
المشار إليه « لا فائدة من تقليد الاجانب وحده ولا فائدة من التنافي
فقط بالاثار الشعبية » أي ما وراثته عن اجدادنا من التشبث بأهداب
الوطنية ، وذكر القديم والحرص عليه .

ولنا في الغرب دولتان كبيرتان هما مثال في اقتباس الجديد والحرص
على القديم . فقد شهدنا ألمانيا إلى اليوم تجري في مدارسها وكلياتها
على آداب النصرانية المنقحة فلا تسند التدريس فيها إلا لرجل عرفت
ترجمته وحياته مخافة أن يفسد عليها تربية أبنائها فتكون مدنية دينية
أما فرنسا فناهضت الدين منذ زهاء مئة سنة وزادت مناهضتها له في
السنين الأخيرة حتى نزع لفظ الجلالة من اللماهد العلية وأخذت
تضيق الخناق على أهل الدين من حملة العلم والأقلام حتى صار المتدين
سراً يتجاهر بالانحلال جهراً لا يأمن على معاشه ورزقه وسموا هذا حرية
ولكن الله يحصي على الأمم ذنوبها كما لا يغفل عن الأفراد ، وها قد أخذت
المدنية الفرنسية التي بهرت العيون في الزمن الماضي ترجع القهقري
وعلماء الاخلاق فيها يكون دماً على انبتات شملهم وتراجع عمرانهم ،
حتى روى بعض الاحصائيين أن عدد الفرنسيين سينزل في أواخر القرن

العشرين الى ثلاثة ملايين لان المواليد اخذت تنقص عن الوفيات . اما في ألمانيا فبفضل التربية الدينية والحرص على الاخلاق قبل الحرص على تلقين العلوم فان النفوس تتزايد سنة عن سنة بحيث خيف من تكاثر نسلهم على البلاد المجاورة لهم مع ما هم عليه من المدنية الصحيحة والعلم بالصناعات والفنون ولا غرو فان من خلق الالماني ان يترك من القديم كل ما لا ينفع منه اما الفرنسي فيجرف منه النافع مع الضار ، وشتان بين الخلقين والمدنيتين وها هي النتيجة قد ظهرت للعيان منذ الآن .

وبعد فان كل عاقل عرف تاريخ هذه الامة يرى الخير كل الخير في احتفاظها بتدريسيها وضم كل ما ينفع من هذا الجديد على أن تكون للدين والعلم حريتهما فتكون المعتقدات بمأمن من طعن الطاعنين بها كما تجري المدنية على الشوط الذي يراه واذا رأى بعضهم في بعض المعتقدات ما لا ينطبق على روح الحضارة والعلوم العصرية فالاولى أن يطبقوا العقل على النقل كما هو رأي كبار علماء الاسلام منذ القديم . واذا عجزت عقولهم عن ذلك فالاجدر بهم أن يأخذوا بعض القضايا بالتسليم ، ويتراخوا العالم حراً يسير وحده دون ان يعوقه عائق ، وما نخال كل عاقل الا ويعتقد ان صحيح النقل لا يخالف صريح العقل والله اعلم .

محمد كرد علي

المصدر : المقتبس ، المجلد الرابع ص ٣٠ ، دمشق ١٩٠٩ ، ثم اعيد نشر المقتل في كتاب : القديم والحديث ، المقالة الاولى ، محمد كرد علي ، المطبعة الرحمانية بمصر ، الطبعة الاولى ١٩٢٥ .

الافكار القديمة والحديثة

محمد تيمور ١٩٢١ - ١٩٨٢

كتبنا نقد حافظ منذ اعوام ، ولم يكن الباعث لنا عليه ، كما حسب بما تحويه بطونها ويستشهد في كتاباته بجميل حكمها فهو في نظر الناس عالم فاضل مطبوع على البيان متفنن في ضروب الخطاب . إن تكلم كان بسيط اللسان رحيب المجال وإن كتب كان مليح الفصول رائق الفقر . ان اثبتته برأي يخالف رأيه او غرت صدره واقتدحت غضبه فرمك بالجهل والتعدي على العلماء السالفين الذين لا تلحق آثارهم ولا يشق غبارهم . وإن جئت برأي جديد لم يسمع به احد من قبل قال عنه انه غامض مبهم تخامره فيه الشكوك وتتجاذبه الظنون . هذا هو شأن كثير من علمائنا الاجلاء الذين نشأوا في جو القديم فعز عليهم ان يطرق آذانهم الجديد . يظنون ان آباءنا واجدادنا عاشوا في عصر كان العلم فيه زاهراً فحرام علينا نحن ابناءهم ان ننقض رأياً اتفقوا عليه وأن نجادلهم في قضية اثبتوا صحتها في كتبهم فليلق كل منا سلاحه املاً ادلتهم وبراهينهم مهما كان وثيق الحجة شديد اللداد .

وفلان يحترم آراء السالفين ويجل أعمالهم وسعيهم في تحقيق كل ما وقع تحت عيونهم ولكنه يود ان يكون له بعض ما كان لهم من الحرية البحث والتنقيب حتى يجيء الرأي الصائب ويموت الرأي الواهن مهما تسايرت أهواء الناس على صحته . كل له الحرية في البحث وليس من العار ان يأتي الانسان بفكرة شخذ لها غرار رأيه واثبت له غيره انها غير صحيحة وانما العار كل العار ان يستقصي الانسان في البحث عن رأي

جديد ثم يضمن به على قومه أو يضرب عنه صفحاً لأنه جديد لم يتفق على صحته أحد من السالفين .

لم يزل العلم في جو الطفولة بالرغم مما أتى به علماء الماضي والحاضر والحقيقة التي اتفقنا عليها ما زالت تحيط بها الشكوك والظنون فإن تمسكنا بالتقديم كنا كمن يريد أن يوقف تيار العلم أو كمن يتنحى عن العمل لسواه فيسبقه إلى التحقيق والبحث قوم آخرون ويرجع هو وقومه القهقري أمام أقدام الآخرين وأنه لعار علينا في القرن العشرين أن لا نفيق من رقدتنا الطويلة بعد أن رأينا ما ضحاه الغربيون في سبيل أحياء العلوم وتحقيق كل غامض فيها .

لا نزاع في أن الفكرة الجديدة جميلة وإن كانت غير صائبة . أنت بلا شك تستقبح الجديد لأنك تفاجأ به على غرة قبل أن تأخذ له عدتك وتسحب له ذيلك ولكنك في حل من أن تتصحفه وتستوضحه وتقلب فيه خواطرك حتى تفرق في البحث فتقف على مكان الضعف والقوة فيه وتكون حينئذ حراً في قبوله أو رفضه .

وأي خطر يدهم الأمة إن هي فوجئت بأراء جديدة ؟

لا مشاحة في أن كل رأي صائب يبقى رغم أنف كل مستهجن له وإن كل رأي فاسد يضمحل ويموت وينسى مهما كان معزراً ومهما تمادى صاحبه في ضلاله وغلا في جهالته . لا تخف إن عاش الرأي الواهن حقبة من الدهر لأنه يعيش وهو مهدد إلى أن يتغلب عليه الرأي الصائب وما الدنيا إلا ميدان عراك يتصارع فيها أصحاب الحقيقة ومحبذو الجهالة والله نصير الحق فلا يلبث كل ذي صواب أن يفوز ولا يلبث كل ذي خطأ أن يلوي عنانه ويقصر عن باطله فتظهر الحقيقة ناصعة للناظرين .

١٠ أغسطس سنة ١٩١٧ .

مقدمة

عباس محمود العقاد (١٨٨٩ - ١٩٦٥)

ابراهيم المازني ١٨٨٩ - ١٩٤٨

بسم الله نبتدىء (وبعد) كان للسكوت عن الخوض في أحاديث الادب داع فقد زال ذلك الداعي اليوم وقد تجددت دواع للكتابة في اصوله وفنونه اخصها الامل في تقدمه ، لالتفات الاذهان الى شتى الموضوعات ومتنوع المباحث والحدس عليه من الانتكاس ، لاجتراء الادماء والفضوليين عليه ، وتسلسل الاقلام المغموزة والمآب المتهمة الى حظيرته . وكتابنا هذا مقصود به مجازاة ذلك الامل ، وتوقي تلك العلل . وهو كتاب يتم في عشرة اجزاء . موضوعه الادب عامة ووجهته الابانة عن المذهب الجديد في الشعر والنقد والكتابة . وقد سمع الناس كثيرا عن هذا المذهب في بضع السنوات الاخيرة ورأوا بعض آثاره ونهيات الاذهان الفتية المتهذبة لفهمه والتسليم بالعيوب التي تؤخذ على شعراء الجيل الماضي كتابه ومن سبقهم من المقلدين . فنحن بهذا الكتاب في اجزائه العشرة وبما يليه من الكتب نتم عملا مبدعوا ونرجوا أن نكون فيه موافقين الى الافادة ، مسددين الى الفاية . واوجز ما نصف به عملنا - ان افلحنا فيه - انه اقامة حد بين عهدين لم يبق ما يسوغ اتصالهما والاختلاط بينهما ، وأقرب ما نميز به مذهبنا انه مذهب انساني مصري عربي . انساني لانه من ناحية يترجم عن طبع الانسان خالصا من تقليد الصناعة ، ولانه من ناحية اخرى ثمرة لقاح القرائح الانسانية علما ، ومظهر الوجدان المشترك بين النفوس قاطبة . ومصري لان دعائه مصريون تؤثر فيهم الحياة المصرية ، وعربي لان لغته العربية ، فهو بهذه المثابة اتم نهضة ادبية ظهرت في لغة العرب منذ وجدت ، اذ لم يكن

أدبنا الموروث في أعم مظاهره إلا عربيا بحثا يدير بصره إلى عصر
الجاهلية .

وقد مضى التاريخ بسرعة لا تتبدل ، وقضى أن تحطم كل عقيدة
أصناما عبت قبلها ، وربما كان نقد ما ليس صحيحا أوجب وإسـر
من وضع قسطاس الصحيح ، وتعريفه في جميع حالاته ، فلعلنا اخترنا
أن نقدم تحطيم الأصنام الباقية على تفصيل المبادئ الحديثة ، ووقفنا
الأجزاء الأولى على هذا الغرض ، وسنردفها بنماذج للأدب الراجح من
كل لغة ، وقواعد تكون كالمسبار وكلليزان لأقدارها . فان أصبنا
الهدف والا فلا أسف . وحسبنا بهذه المقدمة الوجيزة بياناً .

المصدر : الديوان : كتاب في الأدب والنقد الجزء الأول مؤلفه عباس محمود العقاد
وأبراهيم عبد القادر المازني الطبعة الثانية ١٩٢١ مكتبة السعادة .

تقليد القدماء

كتبنا نقد حافظ منذ اموام ، ولم يكن الباعث لنا عليه ، كما حسب بعض البله والحمقى ، ضغينة نحملها للرجل او عداوة بيننا وبينه . وكيف يكون شيء من ذلك ولا علم لنا به ولا صداقة ولا صفة (١) ولا نحن نرتزق من الكتابة والشعر ، او نزاحمه على الشهرة ، لان ما بينا من تباين المذهب واختلاف المنزع لا يدع مجالا لذلك ، ولكني لسوء الحظ احد من يمثلون المذهب الجديد الذي يدمو الى الاقلاع عن التقليد والتنكيب عن احتذاء الاولين فيما طال عليه القدم ولم يعد يصلح لنا او نصلح له . اقول لسوء الحظ ، لانه لو كان الناس كلهم يرون رأينا في ضرورة ذلك ، وفي وجوب الرجوع عن خطأ التقليد لربحنا من الوقت ما نخسر اليوم في الدعوة الى مذهبنا ومحاولة رد جمهور الناس عن عادة اذا مضوا عليها افقدتهم فضيلة الصدق ومزية النظر ، وهما عماد الادب وقوام الشعر والكتابة .

ولو كان الناس اعتادوا النقد والفوا الصراحة في القول وتوخي الصدق في العبارة عن الرأي ، لما كانت بي حاجة الى هذه المقدمة او ضرورة الى تبرئة نفسي ودفع ما يرمونني به ، ولكنني انشر النقد على ثقة من حب القراء بي وبخلوص نيّتي وبرعاة سريرتي مما تصفه الاوهام ويصوره الجهل . ولكننا لسوء الحظ مضطرون ان نثبت حسن القصد

(١) نقدنا شعر حافظ في سنة ١٩١٣ ثم جمعنا متفرقه وطبعناه في سنة ١٩١٤ - ١٩١٥ وجعلنا هذا المقال مقدمة له ، ولم يكن بيننا يومئذ وبين حافظ اية صلة . وقد اثبتنا هذا المقال لدلالته على حال الادب . يومئذ . اما النقد فقد اسقطناه من جملة ما كتبنا غير اسفلين على اسقاطه فقد كان مما اخرجت به حماقة الشباب .

في كل ما ننقد كان المرء لا يمكن أن يفعل شيئاً إلا ودافعه الضغائن والاحقاد . ومن سوء حظ الناقد في مصر أنه يكتب لقوم لا يستطيع أن يركن إلى انصافهم أو يعول على صحة رأيهم . وليس لمخني القراء في ذلك ، فقد رأيت عجباً أيام كنت أنشر هذا النقد ذلك أنني كنت إذا قلت أن حافظاً أخطأ في هذا المعنى أو ذاك قال بعضهم « ثم يخطيء حافظ . وإنما تابع العرب وقد ورد في شعرهم أشباه ذلك » كان كل ما قال العرب لا ينبغي أن يأتية الباطل ولا يجوز إلا أن يكون صحيحاً مبرعاً من كل عيب . إلى غير ذلك مما يغري المرء باليأس ، ويحمله على القنوط من صلاح هذه العقول .

وإذا فرضنا أن العرب أصابوا في كل ما قالوا ، افترى ذلك يستدعي أن نقصد قصدهم وألحذي مثالهم في كل شيء ونحن لا نحيا حياتهم ؟ السنا الوارثين لفتهم ، وللوارث حق التصرف فيما يرث ؟ هل تقليدك العرب وجريك على أسلوبهم يشفعان لك في خطأ نحوي أو منطقي ؟ كلا إذن فكيف يشفع لك في غير ذلك مما لا يصح في العقول ولا يتفق مع الحق ؟ وكيف نتحاكم إلى العقل في الأولى ولا نستقصيه في الثانية ؟

لا ننكر ما لدراسة الأدب القديم من النفع والعائدة ، وما للخبرة ببراعات العظماء ، قديمهم وحديثهم ، من الفائدة والأثر الجليل في تربية الروح ، ولكنه لا يخفي عنا أن ذلك ربما كان مدعاة لفناء الشخصية والذهول عن الغاية التي يسعى إليها الأدب ، والفرض الذي يعالجه الشاعر ، والأصل في الكتابة بوجه عام .

على أنه مهما يكن فضل القدماء ومزيتهم فليس ثم مساع للشك في أنك لا تستطيع أن تبلغ مبلغهم من طريق الحكاية والتقليد . فسيان الفقير لا يفني بالاقتراض من الموسرين . ولست أقصد إلى نبد الكتاب والشعراء الأولين جملة ، وعدم الاحتفال بهم ، فإن هذا سخف وجهل ، ولكنني أقول أنه ينبغي أن يدرس المرء في كتاباتهم الأصول الأدبية السليمة التي لا ينبغي لكاتب أن يحيد عنها أو يغفلها بحال من الأحوال .

كالصدق والاخلاص في العبارة عن الرأي او الاحساس — وهذا وحده
كفيل بالقضاء على فكرة التقليد ،

(وبعد) فانه لا يسع من ورد شرعة الادب ، وعلم انه يحتاج الى
مواهب وملكات غير الكد والدؤوب والاحتيلال في حكاية السلفه والضرب
على قلوبهم والاقتباس بهم فيما سلوكه من مناهجهم ، ومن تبسيط في
شعر الاولين ، لا ليسرق منه ما يبتني به بيوتنا كبيوت العنكبوت ، ولكن
ليستضيء بنوره ويستعين به على استجلاء غوامض الطبيعة واسرارها
ومعانيها ، وليهتدي بنجوم العبقرية في ظلمة الحياة وحلوة العيش ،
وليتعجب بنظره شعاعها المتغلغل الى ما لم يتمثل في خاطر والم يحلم به
حالم — اقول ، لا يسع من هذا شأنه وتلك حاله الا ان ينظر الى حال
الادب العصري نظرة في طيها الاسف والخيبة والياس . وكانما شادت
الاقطار ان يذيب احلنا نفسه ، ويعصر قلبه ، وينسج آماله ومخاوفه
التي هي آمال الانسانية ومخاوفها ، ويستوري من رفات آلامه شهابا
يضيء للناس وهو يحترق ، ثم لا يجد من الناس اخا حنانا يوازره ويعينه
على الكشف عن نفسه وإزاحة حجب الغموض عن احساسات خياله
التي ربما التبست على القارئ لفرط حدتها او غلبت في مطاوي اللفظ
واستسرت في مثاني الكلام .

ليس احلنا بمعدور ان هو صرخ وبه من سائح الياس خاطر :
« يا ضيعة العمر . اقص على الناس حديث النفس ، وابثهم وجد
القلب ونجوى الفؤاد ، فيقولون ما الجود لفظه او اسخفه ، كاني الى
اللفظ قصدت !! وانصب قبل عيونهم مرآة للحياة تريهم ، لو تأملوها
نفوسهم بلادية في صقالها فلا ينظرون الا الى زخرفها وإلى اطلالها ، وهل
هو مفضض ام مذهب ، وهل هو مستملح في اللوق ، ام مستجهن !!
وافضي اليهم بما يعني احدهم التماسه من حقائق الحياة فيقولون لو
قلت كذا بدل كذا لاعيا الناس مكان نذك . ما لهم لا يعيبون البحر
باهوجاج شعلاته وكثرة صخوره !! يا ضيعة العمر !! » .

سيقولون ما فضل مذهبكم الجديد على مذهبنا القديم ؟ وماذا فيه من المزية والحسن حتى تدعونا اليه ؟ وبأي معنى رائع جئتم ؟ وماذا ابتكرتم من المعاني الشريفة والاغراض النبيلة ؟ فنقول ، قد لا يكون في شعرنا شيء من هذه المعاني الشريفة والاغراض النبيلة التي تطلبونها وتبحثون فيه عنها ، ولا تألون (انتم) جهدا في الفحص عليها وفتح اغلاقها ، والتكلف لها . وقد لا نكون احسنا صوغ القريض ورياضة القوافي ، ولكن خيبتنا لا يصح ان تكون دليلا على فساد مذهبنا وعقمه ، اذا صح اننا خبنا فيما تكلفناه ، وهو ما لانظنه ، بل هي دليل على تخلف الطبع ، لا اكثر - وعلى فرض ذلك كله فان لنا فضل الصدق وعليكم عار الكذب وذنينة الافتراء على نفوسكم وعلى الناس جميعا . وحسبنا ذلك فخرا لنا وخزيا لكم .

ليس اقطع في الدلالة على انكم لا تفهمون الشعر ، ولا تعرفون غاياته واغراضه ، من قولكم ان فلانا ليس في شعره معان رائعة شريفة ، لان الشاعر المطبوع لا يعنت ذهنه ولا يكدر خاطره في التنقيب على معنى فهذا تكلف لا ضرورة له ، او ليس يكفيكم ان يكون على الشعر طبع ناظمه وميسمه ، وفيه روحه واحساساته وخواطره ومظاهر نفسه سواء اكانت جليلة دقيقة ، شريفة ام وضيعة ؟ وهل الشعر الا صور للحياة ؟ وهل « كل » مظاهر الحياة والعيش جليلة شريفة رفيعة حتى لا يتوخى الشاعر في شعره الا كل جليل من المعاني ورافع من الاغراض ؟ وكيف يكون معنى شريف واخر غير شريف ؟ اليس شرف المعنى وجلالته في صدقه ؟ فكل معنى صادق شريف جليل .

إلا إن مزية المعاني وحسنها ليسا فيما زعمتم من الشرف ، فان هذا سخف كما اظهرنا فيما مر ، ولكن في صحة الصلة او الحقيقة التي اراد الشاعر ان يجلوها عليك في البيت مفردا او في القصيدة جملة ، وقد يتاح له الإعراب من هذه الحقيقة او الصلة في بيت او بيتين ، وقد لا يتأتى له ذلك إلا في قصيدة طويلة ، وهذا يستوجب أن ينظر القارئ في القصيدة جملة لا بيتا بيتا ، كما هي العادة ، فان ما في الابيت من المعاني ، إذا

تدبرتها واحداً واحداً ، ليس إلا ذريعة للكشف عن الغرض الذي إليه قصد الشاعر ، وشرحاً له وتبييناً .

وانتم فما فضل هذا الشعر السياسي الفث الذي تاتوننا به الحين بعد الحين . واي مزية له ؟ وهل تؤمنون به ؟ وهل إذا خلوتكم الى شياطينكم تحمدون من انفسكم ان صرتم اصدقاء تردد ما تكتبه صحف الاخبار ؟ وهل كل فخركم انكم تمدحون هذا وترثون ذلك ؟ وانتم لا تفرحون بحياة الواحد إلا لما له ، ولا تألمون لموت الآخر إلا لانقطاع نواله ؟ ما اضيع حياتكم !! .

ليس ادل على سوء حال الادب عندنا من هذا الشك الذي يتجاذب النفوس في أولى المسائل واكبرها . ولقد كتب نقاد العرب في الشعر ، على قدر ما وصل إليه علمهم وفهمهم ، ولكنهم لم يجيئوا بشيء يصلح ان يتخذ دليلاً على إدراكهم لحقيقته . ولسنا ننكر ان كتاب العرب متخالفون في ذلك ، ولكن تخالفهم دليل على نفاذ بصائرهم وبعد مطارح اذهانهم ودقة تنقيبهم ، وشدة رغبتهم في الوصول الى حقيقة يأنس بها العقل ويرتاح اليها الفكر ، كما ان إجماع كتاب العرب وتوافقهم دليل على تقصيرهم وتفريطهم وانهم كانوا يقلد بعضهم بعضاً إن لم يكن دليلاً على ما هو اشبه من ذلك واعيب .

غير ان هذا القلق والشك المستحوذين على النفوس لمهدنا هذا هما الكفيلان بان يفسحا رقعة الأمل ويطيلا عنان الرجاء ، لان القلق دليل الحياة ، والشك آية الفطنة وما يدرينا لعنا في غد نجني من رياض هذا القلق ازاهير السكينة والطمأنينة .

● ابراهيم عبد القادر المازني

حصاد الهشيم ، ص ١٨٠ - ١٨٥ ، دار الشهاب - ١٩٦٩ .

● صدرت الطبعة الاولى للكتاب عام ١٩٢٤ .

مصطفى صادق الرافعي

المذهب القديم والمذهب الجديد

سلامة موسى ١٨٨٧ - ١٩٥٨

في مصر وسوريا طبقة من الادباء لها عيون في خلف رؤوسها فلذا نظرت لم تر سوى الماضي ثم هي مع ذلك لا ترى كل الماضي وهي لو استطاعت ان تفعل ذلك لكنت لها من ذلك بصيرة بالحاضر والمستقبل . اجل . لو كانت هذه الطبقة تنظر الى الماضي خلال تلسكوب العلوم الحديثة لاستطاعت ان تقرأ لغة الطبيعة وتدرك ان زوح العالم هي روح نشوء وتطور .

تقول هذه الطبقة ان الاديب لا مندوحة له اذا اراد ان يكون اديباً حقيقياً ان يقلد العرب ويحتذي كتابهم في اساليبهم ومراميمهم . ومن هذه الطبقة بل في رأسها نضع الاستاذ مصطفى صادق الرافعي والاستاذ الامير شكيب ارسلان .

ومن المستطاع ان يحلل الانسان هذه « الوطنية الادبية » وان يردّها الى اصولها في ذلك العقل الباطن الذي يخلط بين الدين والقومية والادب العربي ، فالخروج من المألوف في الادب العربي يوهم افراد هذه الطبقة بالخروج على الدين والقومية العربية .

قال الامير شكيب ارسلان في مقال يرد على اديب من القائلين بمماشاة العصر الحديث : « فأنني لا اعلم مذاهب جديدة الا في العلم والفن . واما في الادب واللغة فلا اعرف الا مذهبا واحداً هو مذهب العرب ...

وهو الذي يجتهد كل كاتب في العربية أن يحتذي مثاله ويقترب منه. ما استطاع لأنه هو المثل الأعلى والغاية القصوى . وإذا أراد الكاتب المصري أن يجول في المواضيع الحديثة والمعاني المستجدة استنفذ منته في لباس هذه المعاني الجديدة حل الأساليب العربية القديمة التي هي أصل اللغة والطراز المنسوج على منواله .

هنا ما يقوله أحد زعماء هذا المذهب القديم فانظر الآن الى ما يقوله أحد زعماء المذهب الجديد في أمة جديدة هو الدكتور فرنك كرين الأميركي . قال : « كثيراً ما يقال بأن السلامة في التملق بأفكار آبائنا . كلا . فان السلامة في عكس ذلك . لان تلك الطريق تقودنا الى الهلاك الأكيد . فانه اذا كن آبائنا قد تملقوا بأراء اسلافهم . وهكذا فصل اسلاف هؤلاء . لبقى الشعب القوقازي الآن في سفح جبال هملايا يرعى الأغنام . . . فان ما يحتاج اليه العالم هو ما يحتاج اليه النبات او الحيوان اي قوة الحياة . . . وهذه القوة انما تصدر عن الايمان . . . الايمان بالانسانية . والشك المهلك انما هو الشك بالانسانية » .

فمن يقابل بين هذين القولين او المذهبين : مذهب الأمير شكيب ارسلان والاستاذ الراقمي ومذهب الدكتور كرين يرى تناقضاً بينا وفرقا عظيما هو في الواقع فرق بين التقدم والركود او الحياة والموت .

الفن والصناعة

ينقسم الادب الحديث الى جملة فنون كلها ترمي الى غاية واحدة ذات مظهرين هي البحث عن الحقيقة أي عن الجمال . والادب يختلف في طريقة التعبير عن هذه الغاية تبعا لاختلاف الفنون . فهناك فن الشعر وفن الرسم وفن البناء وفن الموسيقى وفن الدراما وما الى ذلك .

ولكل فن صناعة . فالشعر مثلا هو الفن والنظم هو الصناعة . ومن الادباء من يجيد فهم الفن ولا يجيد الصناعة كالمعمار الراقمي يستطيع وضع ترسيم البناء ولكنه لا يفهم كيفية خطط الملاط وانواعه . وقد

كان رسكين اديبا انجليزيا يجيد نقد فني الرسم والبناء بحيث يستمع الى نصائحه رجال هذين الفنين ومع ذلك لم يكن يستطيع الرسم . وفي انجلترا الآن اديب كبير يدعى وليم ارتشر ليسر، يفضلهُ أحد في فهم فن الدراما ومع ذلك لم يستطع وضع درامة لانه لا يفهم الصنعة وان كان يفهم الفن .

ومن ادباء انجلترا الآن بل في اولهم برنارد شو . فقد كتب في كل فن من فنون الادب ومع ذلك تشعر من عبوته انه سيء الصنعة .

نفهم من ذلك ان الصنعة دون الفن . وان الفن هو الجوهر وهي العرض . فما اريد الآن ان اثبته ان عناية العرب كانت تتجه في الاكثر الاغلب الى الصنعة دون الفن . وقد بلغ الحال في عهد الانحطاط ان تغلبت الصنعة على الشعر والنثر . فصار الاول نظما والثاني سجعاً .

ونحن الآن بقوة ما ورثناه عن العرب كثيراً ما نعنى بالصنعة ونهمل الفن فننتعلق بالقشور ونترك اللب . واكثرنا عناية بذلك هم اهل القديم امثال الرافعي وارسلان .

العلم والادب

وما دامت غاية الادب هي الحقيقة فلا يجب ان يكون هناك تصادم بينه وبين العلم . لان غاية هذا ايضا هي الحقيقة . والاديب الاوربي الآن ليس له من قاعدة يركز عليها سوى العلم . فلذا قرأت قصص زولا الفرنسي تبينت من تحليله انه عالم . واذا قرأت قصص دستوفسكي الروسي دهشت لصدق نظره وسعة اطلاعه في العلوم . وكذا الحال في شو وولز الانجليزيين .

واكثرنا اهمالا للعلم في مصر الآن هم اهل المذهب القديم لان العلوم تتعارض ومعتقدات العرب . فهم لذلك يرفضونها . وتكون النتيجة انهم يدرسون احوال الدولة المباسية او الدولة الاموية او بدعة القرامطة

ولا يبحثون عن بدعة الاشتراكية الراهنة أو علة الفقر في مصر أو سوريا .
اذ ان الماضي يستغرق نظرهم فليس لهم من الوقت أو الرغبة ما يدفعهم
الى درس الحاضر أو المستقبل .

مصطفى صادق الرافعي

بعد هذه المقدمة التي اضطرت اليها اضطراراً اقول ان مصطفى
صادق الرافعي اديب مصري الجنسية سوري الدم والاصل . وهو (١)
يدافع عن المذهب القديم ويقول بافضلية الاساليب العربية القديمة على
اساليبنا الراهنة . و (٢) هو ايضاً يجيد الصنعة ايما اجادة ولكنه
لا يعنى بالفن . . فاذا كتب اتسقت عباراته وانتظمت الفاظه فأتى بالمعجب
ولكن الحقيقة (أي الجمال) لا تشغله في نظمه أو نثره . و (٣) ثم هو
لا يكاد يؤمن بالعلم بل لا تجد له أثراً في جميع كتاباته . والقطعة التي
انتخبناها منه تشهد بذلك فانه يعتقد ان الفقر ضربة لازب قد حكم به
الله ولا مرد لحكمه . كانه لم يسمع عن الاشتراكية في حياته .

« ولد الرافعي في قرية من ضواحي القاهرة تسمى بهتيم في منتصف
سنة ١٢٩٨ هـ . وتادب في ريعان طفولته بحفظ القرآن الكريم فاتقنه
حفظاً وتجويداً باحكام القراءة وهو في العاشرة من سنه . ثم دخل في
المدرسة الابتدائية وكان والده لا يفتأ يقرأ له كتباً من النحو والفقه .
فتميز في المدرسة بالعربية وكان هذا مبدء ميله الى الشعر حتى عزم مرة
في اول عهده ان يضع كتاباً في النحو ويجعل شواهد كلها من نظمه .
ولما انتهى من الدراسة الابتدائية اقتصر عليها لشدة غرامه بالشعر وأخذ
يتصفح كتب الادب » .

وكان الاديب المأسوف عليه فرح انطون اول من نبه اذهان القراء
الى شعره فالرافعي في الحقيقة من مستكشفاتهِ وان كان نبوغه في الصنعة
كان سيظهر. حتماً في الوسط الادبي المصري الذي ينزع نحو الإعجاب
بالصنعة .

نشره

قال الرافعي في كتاب المساكين في كلامه عن الفقر :

« فالناس مخطئون في ما اعتبروا به معنى الفقر اذ حصروه من جهاته الارضية وقد ترامت . وضيقوا من حدوده السماوية وقد تراجبت . وانما هو طبقة معنوية فوق الارض . وانما هو اسلوب خاص في نظام الكون . ولا سبيل الى التنقيح والتحرير في اساليب الله تصرفها عن معانيها أو نتكذب في تأويلها أو نرد عليها ما ليس منها . وانما الشأن كله أن نحسن الفهم عن اوضاع القدرة الالهية بمقدار ما تستبين فيها من الحكمة . فان في ذلك صلاح انفسنا . وما جعل الله سبيل المصلحة والمفسدة الا من افهملنا . حتى أن الادمغة لتعد من اكبر العلل في امراض التاريخ الانساني . وربما كانت العلة الكبرى في طائفة من الطوائف صورة اثرية لا كبر راس فيها . فان نحن اسانا الفهم أو ذهبنا به المذاهب أو افسدنا من تأويل حكمة الله أو غيرنا أو بدلنا فذلك واقع بنا لا يعدونا . وما يستولي على السكون من جهلنا اضطراب . ولا تلحق به آفة في وضع من اوضاعه . وان الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس انفسهم يظلمون .

« وما دام في هذه الدنيا شيء من المادة أو المعاني يحتاج اليه أو يتوهم احد انه محتاج اليه ففي الدنيا الفقر » .

« وما دام للناس رغبة يتناقصون فيها أو يرفعون من شأنها بالمنافسة فثم الحسد . وما دام في الغيب ايام وآمال وفي الدنيا فقر وحسد فهناك الطمع » .

« وما دام لهؤلاء الناس من اشيائهم ما تحملهم اخلاقهم على الضن به أو يكون سبيله من الطبيعة ان يظن به . وفيهم الفقر والحسد والطمع فثم خبء السوء والرديلة الماحقة وثم البخل . وإن البخل وحده لفي حاجة الى نبي يصلحه » .

« وهذه أخلاق أعرفت فيها الإنسانية ولا بد منها ومن فروعها حتى يظل الناس ناساً لا ملائكة ولا شياطين . فان من عجيب حكمة الله انه لا صلاح للعالم الا بالفساد الذي فيه » .

شعره

يمتاز شعر الرافعي بقوة الصنعة وحسن النظم ولكن خياله مع ذلك عربي تقليدي تعرف ذلك من تشبيهه صفحة البدر بصفحة الامرد وضوء الفجر برونق الصارم . وهذا الى خلوه من مثل اعلى يتوخاه . ونقول بعبارة اخرى انه يجيد الصنعة اكثر مما يجيد الفن .

قال يصف ذهاب الاصيل واقبال الليل :

وثوب السماء مطرز بالعسجد	وكانها لبست قميص زبرجد
والشمس عاصبة الجبين مريضة	تصفّر في منديلها المتورد
حسدت نظيرتها فاسقمها الاسى	ان السقام علامة في الحسد
ورات غبار الليل ينفض فوقها	في الافق فانطبعت كعين الارمد
ومضى النهار يشق في اثوابه	حزنا واقبل في رواء اسود
فتهللت غرر النجوم كأنما	كانت لصاحبة السماء بمرصد
وكانها عقد تنائر دره	من جيد غانية ولم تتعمد
والافق بين مفضض ومذهب	كالجيد بين معطل ومقلد
وكان صفحة بدره اذ اشرقت	مصقولة الخدين صفحة امرد
وكان ضوء الفجر رونق صارم	نصبت صحيفته ولما تغمد

سلامة موسى

المصدر : الهلال السنة ٣٢ - ج ٤ - يناير ١٩٢٤ .

دفاع

عن المذهب القديم في الادب

بقلم السيد مصطفى صادق الرافعي ١٨٨١ - ١٩٣٧

في الادب العربي ، كما في غيره من مظاهر الحياة الاجتماعية في العالم العربي ، نزاع بين اهل المذهب القديم واهل المذهب الجديد . وقد اشتد الخلاف بين الفريقين في المدة الاخيرة وقام كل منهما يدلي بحججه وادلته . ويذكر القراء اننا نشرنا في الجزء الماضي من الهلال مقالا للاديب سلامة موسى عن السيد مصطفى صادق الرافعي في سلسلة « الصور الموجزة لادباء مصر » بداه بالكلام على المذهبين وانتقد اهل المذهب القديم ووضع الرافعي في رأسهم واخذ عليهم محافظتهم على الاساليب العتيقة . ولما كان هذا البحث من اخطر المباحث في هذا العصر واعظمها شأننا لنا ونحن في دور انتقال فانه يسرنا ان ننشر هذا الدفاع عن المذهب القديم لاعتقادنا ان واجبنا الصحفي يحتم علينا ان ننصف كل فريق وان نتيح له بيان مذهبه .

[المحدث]

زعم الاستاذ المفكر سلامة موسى فيما كتب عن هذا الضعيف ان ما نقول به من احتذاء العرب في اساليبهم والارتياض بكلامهم والحرص على نغتهم وان يكون الكاتب في هذه اللغة حسن البيان رشيق المعرض رائع الخلابة يتشبه في الفاظه وينظر في اعطاف كلامه ويفتن في اساليبه — كل هذا وما اليه « مذهب قديم » « ووطنية ادبية » ترجع العلة فيها

الى ذلك العقل الباطن الذي يخلط بين الدين والقومية والادب العربي .
ثم قال « وان اهل المذهب القديم يهتمون العلم لان العلوم تتعارض
ومعتقدات العرب » . وظاهر انه يعني بالعرب المسلمين لا غيرهم فان
الجاهلية أصبحت من اكاذيب التاريخ وبليت معتقداتها بلى ادخلها في
قبور اهلها .

فالمذهب القديم إذن هو ان تكون اللغة لا تزال لغة العرب في اصولها
وفروعها . وان تكون هذه الاسفار القديمة التي تحويرها لا تزال حية تنزل
من كل زمن منزلة امة من العرب الفصحاء وان يكون الدين العربي لا يزال
هو هو كأنما نزل به الوحي امس ؛ لا بفتننا فيه علم ولا رأي ؛ وان يأتي
الحرص على اللغة من جهة الحرص على الدين اذ لا يزال منهما شيء
قائم كالاساس والبناء لا منفعة فيهما معا الا بقيامهما معا .

ولكن ما هو المذهب الجديد ؟ انناخذ بالمقابلة فنقول اذا كان الابيض
هو القديم فالاسود هو الجديد ؛ واذا كانت الفصاحة واذا كان الحرص
على ميراث التاريخ واذا كان القانون الطبيعي للفضيلة الاجتماعية واذا
كنا نولد بجلود كبجلود آبائنا ؛ فالركاكة واهمال القومية التاريخية والتحلل
من قيود الواجبات والانسلاخ من الجذلة لانها ليست اوروبية كل
ذلك قديم فكل هذا جديد ؟ ام هناك حقيقة ثابتة محدودة خفيت على
عظمها وخطرنا في هذه اللغة خفاء امريكا في المحيط حتى بعث
الله لها في ايماننا هذه من يرميها ببصره فكشفها وسماها وكان منها المذهب
الجديد وكانت هي اياه ؟

لو تأمل اصحابنا تلويح هذه اللغة وادابها لراوا في كل عصر من
عصورها شيئا كان يمكن ان يسمى مذهبا جديدا ولكننا لم نجد احدا
سماه كذلك ولا نبه على انه شيء بنفسه الا في هذه الايام الاخيرة ثم لم
نجد الا من هؤلاء الذين غلبت عليهم صناعة الترجمة ورجعوا من العربية
الى طبع ضعيف فورد عليهم من الصناعة ما لا تقوم به ادابهم وسأل بهم
السيل فلم يكن بد من ان تدخل اللغات الاعجمية الضيم على عربيتهم

وصار أكثرهم بلغتيه كالميزان ثقلت كفة منه فرجحت وخفت الأخرى
فظهرت فارغة ولو هو وضع في هذه وزن ما في تلك لانتقلب الأمر
ولو ساوى بينهما لكانتا على سواء فلا واف ولا ناقص .

العلة في الحقيقة لا ترجع إلى مذهب قديم أو جديد بل إلى الضعف
في لغة والقوة في أخرى وأن صاحب المذهب الجديد أخذ بالحزم
في واحدة وبالتضييع في الثانية وأكثر من الاقبال على شيء دون الآخر
فتعلق به وأمضى أمره عليه وحسنت نيته فيه واستمكنت فصلت إلى
نوع من العصبية للأدب الأجنبي وأهله . فلما ضربت هذه العصبية
واستحكمت وجهت الذوق في الأدب وأساليبه إلى تفسير معين بحكم
المذهب والهوى وجعلت الفهم من وراء الذوق . وأنت تعلم أن الذوق
الأدبي في شيء إنما هو فهمه وأن الحكم على شيء إنما هو أثر الذوق فيه
وأن النقد إنما هو الذوق والفهم جميعاً . من هنا جاء ذلك الخطأ الذي
يحسبونه صواباً على أنك واجد في القوم من لا تتهم فهمه ولكنك لا تبريء
انصافه ومن لا تتهم فيه هنا ولا ذاك ولكنه مع ذلك يجيء فهمه خطأ
لأنه لا يريد أن يجيء إلا هكذا لمكان العصبية من نفسه لرأي على
رأي أو شخص على شخص مما لا يكون الشأن فيه إلا للحس الباطن .

وقد قال علماء الأدب أنه لما اتسعت ممالك العرب وكثرت الحواضر
وانزعت البوادي إلى القرى وفشا التأدب والمظرف اختار الناس من
الكلام ألينه وأسهله وحمدوا إلى كل شيء ذي أسماء كثيرة فاختاروا
أحسنها مسموماً والطفها من القلب موقعا وإلى ما للعرب فيه لغات
فاقتصروا على أسلسها وأشرفها كما رأيتهم يختصرون « الطويل » فانهم
وجدوا للعرب فيه نحواً من ستين لفظة أكثر بشع شنع . . . فنبلوا
جميع ذلك وتركوه واكتفوا بالطويل لخفته على اللسان . وقع هذا ومثله
في عصر بعد عصر وما رأينا أحداً سماه مذهباً جديداً أو زعمه ، والقرآن
نفسه مذهب جديد بكل معاني هذه الكلمة وما قال فيه أحد هذا القول .
وقد نقل عبد الحميد الكاتب أشياء من الأساليب الفارسية فأدخلها
في كتابته وترجم العلماء عن اللغات المختلفة أكثر مما يترجم كتاب هذه

الايام ومنهم من كان يرجع في التصحيح وتحرير الالفاظ الى رجال
اهدفهم لذلك . وظهرت الافكار المتباينة وتعددت الاساليب في الكتابة
وافتن المتأخرون من القرن الرابع الى التاسع في فنون من الجد والهزل
وفي نكت بديعية لم يعرفها العرب الى ان اختلط لسانهم ؛ وفي كل ذلك
لم يقل أحد ان لي مذهبا جديدا من مذهب قديم لانهم كانوا أبصر باللغة
واقدر على تصريفها وأعلم بحكمة الوضع فيها وأحرص على وجوه الفائدة
منها والانتفاع بها ثم كانت اسباب اللغة ميسرة لهم ينشأ الناشء منهم
على حفظ ورواية ويتلقى عن أشياخ ثقات قد اخلصوا نيتهم للعلم
وناصحوا عن انفسهم فيه وكأنما عنصرت ارواحهم من الفنون عصرا وكان
في الواحد منهم روح مكتبة .

فلما تعطل الزمن وأصبح الادب صحفيا وآلت العربية وآدابها
الى بضعة في أوراق مدرسية وانزوى ذلك العلم المستطيل وأصبحت
المكاتب له كالقبور المملوءة بالتواييت وفشت العصبية بيننا
للأجنبي ؛ رجع الامر على مقلد ذلك في صغر الشأن وضعف المنزلة
واحترج اهل هذا القليل من العربية الى ان يعتبروه كلاء بنفسه لا جزءا
من كله فكان لذلك مذهبا وكان مذهبا جديدا

واذا أنت لم تجد في كل علماء المتقدمين من يستطيع ان يقول انه
صاحب مذهب جديد في الادب واللغة او يرى لنفسه رأيا فيها الا انه
يعمل لحفظها ونماؤها ورواتها والا انه يرقق ما استطاع ويتصرف بما
أطلق ؛ فانك واجد في اهل سنة ١٩٢٣ من يقول في هذه اللغة
بمعناها : « لك مذهبك ولي مذهبي ، ولك لغتك ولي لغتي » فمتى
كنت يا فتى صاحب اللغة وواضعها ومنزل اصولها ومخرج فروعها
وضابط قواعدها ومطلق شواذها . ومن سلم لك بهذا حتى يسلم لك
حق التصرف (كما يتصرف المالك في ملكه) وحتى يكون لك من هذا حق
الايجاد ومن الايجاد ما تسميه أنت مذهبك ولغتك ؟ لاهون عليك ان
تولد ولادة جديدة فيكون لك عمر جديد تبتدىء فيه الادب على حقه
من قوة التحصيل وتستأنف دراسة اللغة بما يجعلك شيئا فيها — من

أن تلد مذهباً جديداً أو تبتدع لغة تسميها لغتك فإنك عمر واحد في عصر واحد بين ملايين من الأعمار في عصور متطاولة وإن ما تحدثه على خطأ لا يبقى على أنه صواب ولا يبقى أبداً إلا كما تبقى العلة على أنها علة فلا يقاس عليها أمر الصحيح ولا يحكم بها فيمن لم يعتل .

إن أرادوا (بالمذهب الجديد) العلم والتحقيق وتمحيص الرأي والابتداع في المعنى على أن تبقى اللغة قائمة على أصولها وعلى أن يكون التفنن (طرائق) كما قيل في ابتداع القاضي الفاضل الذي سموه الطريقة الفاضلية ؛ لا مذاهب يراد بها اثبات ومحو ؛ فإننا لا ندفع شيئاً من هذا ولا ننزع فيه بل هو رأينا بل هو رأي الحياة بل هو قانون الطبيعة . ولكننا مع ذلك نزيد عليه أن الأصل في كل ذلك سلامة اللغة وسلامة القومية فلا ننظر في آراء الأمم إلا على أننا شرقيون ولا ننقل من لغات الأفرنج إلا على أننا أهل لغة لها خصائصها ولا تصرفنا مدنياتهم عن أنفسنا ولا نأتي بسيوفهم لرقابنا وبنزعاتهم لقلوبنا « وكوكاكايينهم لانوفنا . . . » بل تؤثر الفضيلة على الرأي وإن كان رأس المجنون « نيتشه » ونرغب في المصلحة الجافية الخشنة على المفسدة اللينة الناعمة وإن كانت نعومة الأنوثة البريسية .

وانظر كم بين من يسلم لفلان وغيره من علماء أوروبا لأنهم من علماء أوروبا وبين من لا يسلم إلا عن اقتناع وعلى بينة من المصلحة وبعد أن تبلغ الحجة مبلغها . فهذا كاتبنا الفاضل (سلامة موسى) ينزع إلى الاشتراكية ويدين بها ويراها مائدة الخالق التي مدت في أرضه للناس جميعاً . وينعي علينا أننا نتجاهلها كأننا لم نلم بها على أننا نراها تلك المائدة بعينها غير أننا نزيد عليه أنها ممدودة للناس جميعاً ليتدافع عنها الناس جميعاً فلا يصل إليها أحد . . . ونفضل على كل هذه المائدة الخيالية بما حفلت به من لذائدها وألوانها تلك اللقيمات التي يفرضها نظام الزكاة في الإسلام فرضاً لا يتم الإسلام لأحد إلا به ، وعلى هذا فاعتبر ولا يفوتن صاحبنا أن كثرة الآراء في هذا العصر وكثرة العقول المفكرة

والاستقلال الفكري التام . . بلا قيد ولا شرط ثم الرغبة في ان يكون لكل عقل اثر في الاجتماع ولكل اثر دليل عليه ولكل دليل اتباع ، كل ذلك سينتهي الى ان تكون علة الاجتماع الانساني لا يبرء منها الا بالقيود الالهية التي تسمى الاديان وها نحن اولاء نرى في اوربا وامريكا ان من الغفلة ما هو مذهب ومن الرقاعة مذهب ومن تسفل الشهوات مذهب ومن الجنون مذهب ومن كل شذوذ مذهب ومن غير المذهب مذهب ايضا . .

تلك واحدة والثانية انهم ان ارادوا « بالمذهب الجديد » ان يكتب الكاتب في العربية منصرفا الى المعنى والغرض تاركا اللغة وشأنها متصفا فيها اخذا ما يتفق كما يتفق وما يجري على قلمه كما يجري معتبرا ذلك ذلك اعتبار من يرى ان مخه بلا غلاف من عظام رأسه وان عظام رأسه كعظام رجله وان اصابع قدميه كاهذاب عينيه وان مطلق التركيب هو مطلق النظام وان اللغة اداة ولا بأس بالاداة ما اتفق منها ولا بأس ان يمزج الجراح مزعا في جلد العليل بأسنانه او باظافره او بنصل الغأس . . ما دامت معقمة وما دام ذلك فعل الموضع بعينه لا يزيد الموضع عليه الا الدقة . . ان ارادوا بهذا واشباهه المذهب الادبي الجديد قلنا لا ثم لا ثلاث مرات .

فلما الاولى فان خيرا من ترك الجاهل في جهله ان يزجر عن جهله .
واذا كان مذهب الضعف ان لا يحمل عليه الا بقدره وفي طاقته فهل يجعل ذلك اصلا للقوة ، والضعف ان هو الا استثناء منها ، وقاعدة الاستثناء ان يفيد بنصه ولا يتوسع فيه ؟

ثم ايما خير لآدابنا وعلومنا وكتبنا ؟ ان نحصر على الاصل الصحيح القوي الذي في ايدينا ونحتمل فيه ضعف الضعفاء ونصبر على مدافعتهم عن افساده حتى ينشأ جيل اقوى من جيل وتخرج امة خيرا من امة فتجد الاصل سليما فتبني عليه وتزيد فيه . ام ندع الصلاح للفساد ونتراخي في القوة حتى تحول ضعفا فلذا جاء من بعدنا وجد الاصل فاسدا فزاده فسادا ويعود « مذهبنا الجديد » بعد حين من الدهر مذهبنا قديما

فيستحدث منه جديد على نمط آخر ثم يتقدم هذا أيضا على السنة نفسها وهلم إلى أن تصبح هذه العربية في بعض أزمانها لعنة على كل أزمانها فتتسخ جملة واحدة ويصبح الكلام المانوس الذي نراه اليوم سهلا لينا وهو الجاني الجلف الغليظ الذي لا يترجمه إلا عالم بصير بما كان يسمى من قبل فعلا واسما وحرفا . والا فليقل لنا أصحاب المذهب الجديد ما هو حد التجديد عندهم ولم يقصروا على حد معين بل كيف يقصرونه وفي الناس من هو اضعف من ضعيفهم فوجب أن يكون له جديد من جديدهم على مقدار ضعفه ما دام شكل القياس واحدا أو القضية فيه واحدة .

وأما الثانية فإن هذه العربية لغة دين قائم على أصل خالد هو القرآن الكريم وقد أجمع الأولون والآخرون على إعجازه بفصاحته إلا من لا حفل به من زنديق يتجاهل أو جاهل يتزندق . فلذا كان المعجز في لغة من اللغات بأجماع علمائها وأدبائها هو من قديمها فهل يكون الجديد فيها كمالات أم نقصا ؟

ثم إن فصاحة القرآن يجب أن تبقى مفهومة ولا يدنو الفهم منها إلا بالمران والمزاولة ودرس الأساليب الفصحى والاحتذاء عليها واحكام اللغة والبصر بدقائقها وفنون بلاغتها والحرص على سلامة الذوق فيها . وكل هذا مما يجعل الترخص في هذه اللغة وأساليبها ضربا من الفساد والجهل فلا تزال اللغة كلها مذهب قديما وانما يكون المذهب الجديد فيها رجلا إلى حين . . . ثم يدخل مذهبهم معه إلى القبر . وما عسى يصنع كاتب وعشرة ومائة ألف في لغة ينبض على كتابها المعجز أربع مائة مليون قلب ؟ وكم من أسلوب ركيك أو ضعيف أو عامي ظهر في هذه اللغة منذ دونوا وكتبوا وكم من فكر فاسد أو زائغ أو مدخول وكم من كتب كان يصلح أن يسمى بلغة اليوم مذهبا جديدا . فإين كل ذلك وإين أثره في اللغة وأساليبها بعد ثلاثة عشر قرنا ، لقد ابتلعتة ثلاث عشرة موجة فانحدر إلى أعماق الموت العظمي .

على اني رأيت لاصحاب « المذهب الجديد » اصلا في تلويخ الادب العربي كانت جذوره ممن انتحلوا الاسلام وهم يدينون بغيره وممن كفوا يدينون به وتزندقوا فيه حتى قال الجاحظ في بعض رسائله يعني هؤلاء وأولئك : « فكل سحنة عين رأيناها في أحدائنا وأغبيائنا - (تأمل) - فمن قبلهم كان أولها » . ورحم الله أبا عثمان أن التاريخ ليعيد نفسه اليوم « بسحنة جديدة » . .

وأما الثالثة فان الخاصية في فصاحة هذه اللغة ليست في الفاظها ولكن في تركيب الفاظها كما أن الهزة والطرب ليست في النغمات ولكن في وجوه تأليفها وهذا هو الفن كل الفن في الاسلوب لانه يرجع الى الدوق الموسيقي في حروف هذه اللغة واجراس حروفها . واشهد ما رأيت كتابا واحدا من اهل المذهب الجديد يحسن شيئا من هذا الامر ولو هو احسنه لا نكشف له من احسانه ما لا يبقى عنده شك في ابطال هذا المذهب وتوهينه . ولذا تراهم يعتلون للمذهب الجديد بالفن والمنطق والفكر وبكل شيء الا الفصاحة . واذا فصحوا جاءوا بالكلام الفج الثقيل والمجازات المستوخمة والاستعارات الباردة والتشبيهات المجنونة والعبارات الطويلة المضطربة التي تقع من النفس كما تقع الكرة المنفوخة من الارض لا تزال تنبو عن موضع الى موضع حتى تهمد .

ولا نريد أن نطيل في هذا الوجه فقد استوفينا اكثر الكلام عليه في الجزء الثاني من « تاريخ آداب العرب » وانما نقول ان الكلام الوحشي الغريب ينقسم الى قسمين : ما كان خشنا مستغربا لا يعلمه الا باحث مطلع ، وما كان مانوسا واقعا في غير موقعه كما نرى في أساليب بعض كتاب هذه الايام التي تنفجر بما لا يطاق على رقتها وتهب عليك هبوب النسيم ولكنه بين موضع وموضع لا بد ان يكنس الارض . . .

فالقسم الاول نافر بنفسه فهو وحشي على حالة واحدة تختلف والثاني نافر بموضعه فهو وحشي يعلو ويسفل على مقدار اضطرابه . ثم هي وحشية المذهب الجديد اختص بها ولا يكادون ينتبهون اليها .

هذه كلمة لم نعرض في اجمالها للتفاصيل وانما حذرناه حذراً وبعد
فلذا اردت تشبيهها لمخاصمة المذهب الجديد والقديم وما يتوهمه هذا
الجديد وما ينتهي اليه امره قلنا لك التمس رجلاً يرى ظل راسه على
الحائط فيضربه براسه الذي على عنقه . . ولكن اعلم انا واياك الا نحذره
ونمتعه فقد جنينا عليه وان لم نمسه باذى .

محمد صادق الراجحي

المصدر : مجلة الهلال السنة /٢٢/ الجزء /٥/ فبراير ١٩٢٤

الخصومة

بين القديم والجديد في الادب

بقلم الدكتور طه حسين ١٨٨٩ - ١٩٧٣

لقد اخذ النزاع يشتد بين انصار المذهب القديم وانصار المذهب الجديد في الادب . ففي الهلال المأهلي نشرنا للسيد مصطفى صادق الرافعي دفاعاً عن المذهب القديم بمناسبة ما كتبه عند الاستاذ سلامة موسى في سلسلة « الصور الموجزة لادباء مصر » . وعلى اثر مطالعة مقال الرافعي في الهلال كتب الدكتور طه حسين مقالا نفيسا في « السياسة » ضمنه رايه في هذا النزاع ولقد رأينا ان تثبتته هنا لنفسه قال الدكتور طه حسين بعد مقدمة وجيزة :

الحق ان ميدان هذه الخصومة اوسع من مجلة « الهلال » وان ابطال هذه الخصومة اكثر من الاستاذين سلامة موسى ومصطفى الرافعي واذا كان الانسراف في استقصاء التاريخ والا نذهب بالقارئ الى ما بعد به العهد فقد يكون لنا ان نذكر القارئ بان مصدر هذه الخصومة في هذه الايام الاخيرة انما هي صحيفة الادب في « السياسة » ، ففي الصيف الماضي اشتدت الخصومة بين الاستاذ الرافعي وطائفة من الكتاب المصريين حول رسالة له بعث بها الى « السياسة » تحت عنوان « اسلوب في العتب » وذهب فيها مذهب المتكلفين من بعض الكتاب القدماء فانكر عليه بعض الكتاب المصريين جمال هذا الاسلوب ، وكانت حول هذا الانكار خصومة طويلة انتهت الى الشتم والتناوب . ثم لم تكد تنتهي السنة الماضية حتى نشرت « السياسة » لكتاب اديب من كتاب فلسطين هو الاستاذ

خليل السكاكيني رسالة حول الاسلوب القديم والاسلوب الجديد وحول الايجاز والاطناب تناول فيها بالنقد كاتباً ادبياً من كتاب سورية هو الامير شكيب ارسلان ، فرد عليه الامير رداً طويلاً واشتدت المناقشة بين الكاتبين حتى انتهت الى شيء من العنف ليس بقليل ثم عرض الاستاذ سلامة موسى للاستاذ الرافعي في مجلة « الهلال » فعده مع الامير شكيب ارسلان من زعماء المذهب القديم وأشار الى الكاتب الاديب خليل السكاكيني على انه من انصار المذهب الحديث .

هذا هو التاريخ القريب لهذه الخصومة بين القديم والجديد في الادب ، ويخطيء من ظن ان هذه الخصومة ستنتهي غداً او بعد غد ، ويخطيء من سال نفسه عن قيمة هذه الخصومة وعن آثارها الحسنة أو السيئة ، فستستمر هذه الخصومة في الادب العربي كما استمرت في الآداب الأخرى وكما استمرت في الادب العربي القديم نفسه ، وستنتج نتائجها التي انتجتها في كل زمان وكل مكان فينتصر جديد على قديم ثم يصبح هذا الجديد قديماً وتكون الخصومة حوله وحول جديد آخر ينتصر متى آن له الانتصار ، وستظل الحال كذلك ما دام للغة العربية والادب العربي حظ من حياة .



هذه الخصومة اذن مشروعه ، سواء اكانت نافعة أم لم تكن ، فليس الادب العربي بدءاً من الآداب وليس الادب العربي العصري بدءاً من الآداب العربية المختلفة . فليختصم الاستاذان سلامه موسى ومصطفى صادق الرافعي ، وليختصم الاديبان خليل السكاكيني وشكيب ارسلان ، ولكننا نظن ان من حقنا نحن القراء على هؤلاء المختصمين ان نسألهم : فيم يختصمون ، وان نطلب اليهم في رفق ولين ان يتفضلوا فيحددوا لنا موضوع الخصومة حتى نتبهم فيها على بصيرة من امرها ومن امرنا . فقد يظهر لنا الى الآن ان هؤلاء المختصمين يختطفون في اشياء لم يستطيعوا بعد ان يحدوها ، وآية ذلك أنك تقرأ مقال الاستاذ الرافعي فتجده يسأل ما

« المذهب الجديد » وما « المذهب القديم » ، ويحاول أن يتبين هذين المذهبين وما بينهما من فروق . ولو كانت الخصومة بينه وبين صاحبه واضحة الموضوع بينة الحدود لما كلف نفسه هذا التساؤل ولما احتاج الى ان يكتب كل هذا الفصل الطويل . وقل مثل هذا في الخصومة بين الادبيين السكاكيني وشكيب ارسلان ، فهما يختلفان في الايجاز والاطناب والمساواة ، يرى احدهما ان الاطناب خصلة من خصال اللغة العربية قد عمد اليها اكبر الكتاب وارفعهم قدراً منذ كان النثر العربي الى الآن ، فمن الحق ان تتبع طريقهم في ذلك . ويرى الآخر ان الاطناب خصلة من خصال اللغة العربية ولكن له مقامه فلا ينبغي ان يعمد اليه الكاتب ولا سيما في هذا العصر الا بمقدار والاحين تدعو اليه الحاجة الادبية . ويدور المختصمون جميعاً حول الدوق دون ان يحددوا هذا الدوق . أليس من حقنا ان نسألهم عن حد هذا الدوق ما هو وما حده وما الذي يريدون منه ؟ ولا تقل ان الاستاذ الرافعي قد اجاب على هذا السؤال ، فنحن نعرف بان جوابه ادق من ان نفهمه واشد غموضاً من ان نظهر عليه . وانظر الى ما يقوله في الدوق : « وانت تعلم ان الدوق الادبي في شيء انما هو فهمه وان الحكم على شيء انما هو اثر الدوق فيه وان النقد انما هو الدوق والفهم جميعاً . . . » نعرف باننا لا نفهم هذا الكلام ، بل نعرف باننا نعتقد ان هذا الكلام ليس من شأنه ان يفهم . فاذا كان الدوق الادبي في شيء انما هو فهمه واذا كان الحكم على شيء انما هو اثر الدوق فيه فكيف نستطيع ان نفهم ان النقد انما هو الفهم والدوق جميعاً ، ذلك ان الجملة الاولى صريحة في ان الدوق هو الفهم واذن فالدوق والفهم لفظان يدلان على معنى واحد ، واذن فليساً شيئاً وانما هما شيء واحد هو الفهم ، واذن فالحكم اثر من آثار الفهم . والنقد هو الفهم ، واذن فالنقد والفهم والحكم والدوق كل اولئك شيء واحد تدل عليه الفاظ مختلفة . . . نعرف كما قلنا باننا لم نفهم هذه الجملة ولم ندقها ، واذن فنحن لا نستطيع ان ننقدها ولا نحكم فيها لان الدوق هو الفهم ، والفهم هو الحكم ، والنقد هو الدوق والفهم معاً وتستطيع ان تدور في ذلك ما شاء الله ان تدور . . . فما زال الاستاذ الرافعي مطالباً بان يوضح لنا نظريته هذه في الدوق ونحسبه يحتاج في توضيحها الى

مناء كثير ، ذلك انه يخيل الينا ان الذوق شيء والفهم شيء آخر وان من الاسراف ان نقول ان الذوق هو الفهم ، فقد نفهم اشياء كثيرة دون ان ندوقها ، وآية ذلك اننا نفهم كثيراً من كلام الاستاذ الراقعي دون ان ندوقه او نعجب به . وربما كان لنا ان نذهب الى اكثر من هذا فنزعم اننا قد ندوق اشياء كثيرة دون ان نفهمها . واثبات ذلك ليس بالشيء العسير ، فما نظن ان الذين يدوقون الموسيقى يطربون لها يفهمونها جميعاً ، بل نعتقد ان الكثرة المطلقة من الذين يسمعون للموسيقى فيطربون ويتأثرون وينتهي بهم ذلك الى شيء يشبه الذهول لا تفهم الموسيقى كما يفهمها الموسيقيون الاخصائيون . فانت ترى ان الذوق والفهم شيان مختلفان قد يجتمعان حينما تفهم قصيد من الشعر او فصلا من النثر وتعجب بهما وحينما تفهم قطعة من الموسيقى وتطرب لها ، ولكنهما قد يفترقان حينما تقرأ فصلا من فصول الكتاب المتكلفين او قصيدة من نظم الشعراء المتكلفين فتفهم النظم وتفهم النثر ولكنك تكرههما وتسخط عليهما السخط الشديد ، وحينما تسمع قطعة من الموسيقى فتعجب وتطرب دون ان تفهم ما اراد الموسيقي .



وللاستاذ الراقعي في فصله هذا آراء كهذا الراي محتاجة الى شيء من المناقشة ، ومنها ما كان يحتاج الى شيء من التواضع قبل ان ينشر ويعلم الى الناس . انظر اليه مثلاً يزعم ان المذهب الجديد في الادب ليس في حقيقة الامر الا نتيجة لضعف في اللغة والادب العربي وقوة في اللغة والادب والاجنبي وان الذين يزعمون انهم من انصار المذهب الجديد انما هم قوم ضيعوا حظهم من لغة العرب وآدابهم واخلوا بنصيب موفور من لغات الفرنج وآدابهم ، فكالت قوتهم في هذه اللغات والآداب وضعفهم في اللغة العربية وآدابها مصدر تورطهم في فنون سخيصة من القول ، وكان اعتزازهم بالمذهب الجديد وانكارهم للمذهب القديم ضرباً من الاعتذار لانفسهم ولونا من ألوان الغرور بانفسهم ايضاً نعتقد ان الاستاذ الراقعي سرف في هذا الحكم ولعل مصدر اسرافه في هذا الحكم ، ان

صحت نظريته السابقة ، انه اخطا فهم ما يكتب انصار المذهب الجديد ، وهو انما خطا الفهم لانه اخطا الذوق او هو انما اخطا الذوق لانه اخطا الفهم ، وتستطيع ان تدور مع الاستاذ الرافعي حول الذوق الذي هو الفهم او حول الذوق الذي ليس هو الفهم والفهم الذي ليس هو الفهم حتى تتعبا فتسقطا معا وقد بلغ منكما الكلل والاعياء ، ولكن الاستاذ الرافعي معذور على كل حال فما كان له ان يحكم فيحسن الحكم دون ان يفهم ويدوق وهو يخطئه الفهم والذوق احيانا فتخطئه الاصابة في الحكم . ونظن ان للاستاذ الرافعي حظا من الانصاف وانه يرى معنا ان بعض انصار المذهب الجديد او الذين يسمون انصار المذهب الجديد قد أخذوا من اللغة العربية وآدابها بحظ لا باس به وان قوتهم في اللغة الاجنبية وآدابها لم تحملهم على ان يضيعوا حظهم من اللغة العربية وآدابها ، فهم يستطيعون ان يفهم الجاحظ كما يستطيعون ان يفهموا « فولتير » . واذن فالتصار هؤلاء للمذهب الجديد ليس ضعفا وليس اعتذارا لانفسهم وليس تعصبا للادب الاجنبي الذي تفوقوا فيه . وما نظن ان الاستاذ ينكر على خصمه سلامة موسى انه يفهم الادب العربي كما يفهم الادب الانكليزي ، ويستطيع ان يحكم فيهما عن فهم هو الذوق او ذوق هو الفهم او فهم ليس ذوقا او ذوق ليس فهما وما نظن ان الاستاذ ينكر علينا نحن اننا نستطيع ان نفهم الادب العربي وان نفهم الادب الفرنسي وان نحكم فيهما احيانا عن ذوق وفهم ، او عن فهم دون ذوق ، او عن ذوق دون فهم . . . ثم هب سلامة موسى وغيره من خصوم الاستاذ الرافعي واتصل المذهب الجديد ضعفا في اللغة العربية وآدابها ، اقوياء في اللغات الاجنبية وآدابها فهناك قوم ينصرون المذهب الجديد وليس لهم من اللغات الاجنبية وآدابها حظ ، وحظهم من اللغة العربية وآدابها موفور تدل عليه آثارهم وما ينشرون ، فما رأي الاستاذ في هؤلاء ؟ وما اصل مذهبهم الجديد وهم يجهلون اللغة الاجنبية ولا يتعصبون لها ؟ ثم ما لنا نذهب بالاستاذ بعيدا عن الموضوع الذي اتقنه وبرع فيه . فلسنا نشك في ان الاستاذ اتقن الادب العربي واحسن روايته وفهمه وتقليده واسرف في هذا التقليد وهو يناقض نفسه بعض المناقضة فيصرح بان العرب عرفوا القديم والجديد فكان

القرآن الكريم جديدا وكانت الآداب العباسية جديدة من بعض وجوها وتجددت الآداب العربية غير مرة ، يصرح بهذا ولكنه في الوقت نفسه يزعم ان احدا من العرب وادبائهم لم يذكر مذهباً جديداً ولا قديماً ، واذن فقد تجددت الآداب العربية غير مرة دون ان يشعر العرب بهذا التجدد او يشعر العرب بهذا التجدد دون ان يذكروه .

والحق ان الآداب تجددت غير مرة وان العرب شعروا بهذا التجدد وانهم ذكروه واختصموا فيه كما يختصم فيه الاستاذ الرافعي واصحابه الآن ، وقد كتبنا في « السياسة » فصولا طويلا في العام الماضي فصلنا فيها بعض ما كان من الخصومة بين انصار القديم وانصار الجديد ايام بني العباس . واذا كان العرب لم يصطنعوا لفظة « المذهب الجديد » و « المذهب القديم » فليس ذلك دليلا على انهم لم يعرفوا القديم والجديد ولم يذكروهما ولم يختصموا حولها . وما معنى لفظ « البديع » ؟ وهل كان البديع جديدا ام هل كان قديما ؟ وهل اختصم الناس حول البديع ام هل قبلوه دون مناقشة ولا جدال ؟ وهل امتاز بالبديع من الكتاب والشعراء قوم غلوا فيه فرضي عنهم قوم وانكرهم آخرون ، ام هل قبله الناس جميعا واخذوا منه بحظوظ متساوية ؟ واذا كان الاستاذ لا ينكر ان العرب اختصموا حول القديم والجديد في الشعر وفي النثر فهل يستطيع ان يعلل لك هذا الاختصام ؟ فليس من شك في ان انصار الجديد من العباسيين مثلا لم يكونوا ضعافا في اللغة العربية وآدابها ولم يعتذروا لانفسهم عن هذا الضعف بتعلقهم بالجديد وغلوهم فيه . اكان ابو نواس ضعيفا في اللغة العربية وآدابها ؟ اكان ابو تمام ضعيفا في اللغة العربية وآدابها ؟ اكان المتنبي ضعيفا في اللغة العربية وآدابها ؟ ومع ذلك فقد جدد ابو نواس وانتصر للجديد ، وقد جدد ابو تمام وانتصر للجديد ، وقد جدد المتنبي وانتصر للجديد ، وقد اختصم الناس حول هؤلاء الشعراء وتجديدهم فانتصر لهم قوم وسخط عليهم قوم آخرون ونستطيع ان نؤكد للاستاذ الرافعي ان الادباء الفرنسيين الذين كانوا يختصمون حول القديم والجديد كانوا يفهمون اللاتينية واليونانية وآدابهما كما يفهمون الفرنسية وآدابها وكان منهم مع ذلك من يؤثر اللاتينية واليونانية ومنهم

من يؤثر الفرنسية وكان منهم من يؤثر مذهب القدماء ومنهم من يؤثر مذهب
المحدثين ، فليس المذهب الجديد قائماً على جهل أو ضعف أو تعصب
وانما هو قائم على شيء آخر غير هذا كله . قائم على الفهم قبل كل شيء .
قائم على ان الذين ينصرون هذا المذهب الجديد يحسون مالا يحسه انصار
المذهب القديم ويرون ما لا يراه انصار المذهب القديم ويشعرون بانهم
يحيون فيريدون ان يأخذوا بحظهم في الحياة ، يريدون ان يفهموا الناس
وان يفهمهم الناس ، يعيشون مع الجيل الذي هم فيه دون ان يقطعوا الصلة
بينهم وبين الاجيال الماضية .



ورأي آخر للاستاذ الراءفي يحسن ان نناقشه ولو قليلا . فهو يرى
ان من الخير لانصار المذهب الجديد ان يولدوا من جديد وان يتعلموا الادب
العربي من جديد ليأخذوا منه بالحظ الوفور فيسلوكوا فيه سبيل القدماء
ذلك خير لهم من ان ينتحلوا مذهبهم الجديد ولغتهم الجديدة فيدخلوا
في اللغة والادب ما ليس من حقهم ان يدخلوه ، ذلك لان اللغة موروثه وهي
ملك للملايين من الاعمار ولطائفة طويلة من العصور فيجب ان نقبلها كما
ورثناها دون ان ندخل فيها شئنا من عند انفسنا . ونحن نعتزف باننا
نخالف الاستاذ كل المخالفة في هذا الرأي ونسمح لانفسنا بان نراه عقيما
ونسبح لانفسنا بان نزع ان لنا في هذه اللغة التي نتكلمها ونتخذها اداة
للفهم والافهام حظا يجعلها ملكا لنا ويجعل من الحق علينا ان نضيف اليها
ونزيد فيها كلما دعت الى ذلك الحاجة او قضت ضرورة الفهم والافهام
او كلما دما اليه الظرف الفني . لا يقيدنا في ذلك الا قواعد اللغة العامة
التي تفسد اللغة اذا تجاوزناها . فليس لاحد ان يمنعك او يمنعني ان
نضيف الى اللغة لفظا جديدا او ندخل فيها اسلوبا جديدا ما دام هذا
اللفظ او هذا الاسلوب ليس من شأنهما ان يفسدا اصلا من اصول اللغة
او يخرجها بغير طريقها المألوفة ، ولولا هذا وان اللغة ملك لابنائها يضيفون
اليها ويدخلون فيها لما نمت اللغة ولما عاشت ولما استطاعت ان تفي بحاجات
اهلها التي تتجدد وتتغير بتجدد الأزمنة وتبدل الظروف . والكتاب

والشعراء في كل عصر وفي كل مكان يضيفون إلى لغاتهم ويدخلون فيها ويجددونها فمنهم من يسعده الحظ فتروج ألفاظه وأساليبه ويقبلها الناس ويتهاكون عليها حتى تشيع وتصبح جزءا من اللغة المألوفة ، ومنهم من يخطئه هذا الحظ فلا يحفل الناس بما أدخل ولا بما أضاف .



ومما يحسن أن ينبه إليه الاستاذ الرافعي في رفق ولين أيضا أنه يسرف في سوء الظن بأوروبا وأمريكا وفي سوء الحكم عليهما ، ولعل مصدر ذلك أنه لا يقرأ لغة أوروبا وأمريكا ولا يفهما ولا يذوقها فهو يخطيء في الحكم على أوروبا وأمريكا . وهو مسرف حين يظن « أن في أوروبا وأمريكا من الغفلة مذهباً ومن الرقاعة مذهباً ومن تسفل الشهوات مذهباً ومن الجنون مذهباً ومن كل شذوذ مذهباً من غير المذهب مذهباً . . . » هو مسرف في ذلك فليست أوروبا وأمريكا من السوء بحيث يظن ولو قد بلغنا من السوء هذا الحد لما كان لهما التفوق على غيرهما من بلاد الله . ثم إن اختلاف المذاهب وتنوعها في أوروبا وأمريكا ليس شيئاً جديداً وإنما هو شيء عرفه الإنسان منذ تحضر ومنذ فكر ، ويسوءنا أن نقول إن الإنسان قد عرف الديانات منذ تحضر ومنذ فكر أيضا فما استطاعت الديانات أن تقضي على اختلاف المذاهب ولا استطاعت اختلاف المذاهب أن يقضي على الديانات وإنما الإنسان إنسان فيه الخير وفيه الشر ، فيه الإيمان وفيه الإلحاد ، فيه الفضيلة وفيه الرذيلة ، فيه الإباحة التي لا حد لها وفيه التحرج الشديد . والاستاذ الرافعي كغيره من أنصار المذهب القديم مشفق كل الإشفاق على القرآن الكريم وعلى الإسلام أن يصينيهما من المذهب الجديد شر أو ينالهما ضيم . ونظن من السخف والإطالة التي لا تجدي أن نهون على الاستاذ ونهديء من روعه فليس ما يدعو إلى هذا الإشفاق ونظن أننا ونحن من أنصار المذهب الجديد المتشددين في نصره نستطيع أن نفهم القرآن الكريم ونذوقه كما يفهمه

الاستاذ وأصحابه ويدوقونه . ذلك ان مذهبنا الجديد لا يقتل اللغة ولا يصرف الناس عنها ولا يغير من أصولها وقواعدها وإنما يريد ان تكون اللغة حية نامية . ومن ذكر الحياة والنمو فقد ذكر التطور ومن ذكر التطور وآمن به فهو من انصار المذهب الجديد سواء ارضي ذلك أم انكره .

طه حسين

المصدر : مجلة الهلال . المجلد / ٢٢ / د / ٦ / مارس / ١٩٢٤ .

الجملة القرآنية

شكيب أرسلان ١٨٦٩ - ١٩٤٦

حضرة الاستاذ العبقري ، نابغة الادب ، وحجة العرب ، السيد مصطفى صادق الرافعي ، نفع الله به .

اراك قد استغربت قول احدي الجرائد العربية الصادرة في امريك
انك لو تركت « الجملة القرآنية » والحديث الشريف لكنت الآن المرجع
الذي لا ينزع ، ولبد مذهبك في البلاغة المذاهب كلها من قديم وحديث .

ويحق لك ولغيرك وايم الله ان يستغربوا هذا التمني الدال على مرض
روحي عند بعض الناس لانه قد يجوز ان انسانا لا يعتقد بتنزيل القرآن
ولكن لا يوجد عربي سليم الذوق لا يعتقد ببلاغة القرآن وحديث الرسول
(ص) ولعبري ان الامر لكما قال ذلك الذي سألته سائل : هل يقال
« فاذا قها الله لباس الجوع » فاجابه : ويحك ، هبك تنهم محمداً انه لم
يكن نبيا اتتهمه انه لم يكن عربيا .

ولكنك لم تلبث ان فهمت مغزى هذه النزعة الغريبة ، وعبرت عما
ظهر في تلك الجملة الموجزة من المرامي والمقاصد البعيدة ، فقلت وانت
سيد القائلين « فظهر لي في نور هذه الكلمة ما لم اكن اراه من قبل حتى
لكانها (المكروسكوب) وما يجهر به من بعض الجرائيم مما يكون خفياً
فيستعلن ودقيقاً فيستعظم وما يكون وكأنه لا شيء ومع ذلك لا تعرف
العلل الكبرى الا به » .

نعم ان وراء الاكمة ما وراءها وان هناك دسائس خفية تظهر بعض اطرافها في هذه الجملة . ولكن دعني اقول لك انه ليس مرادهم العدول الى الركافة ولا مناصبة القرآن العداوة لمجرد كونه فصيحاً . وليس الامر من قبيل ما ذكره احمد فارس في (الفاريق) من ان بعض خدمة الدين ممن كان يتكلم عنهم يتبركون بالركيك من القول ويستوحشون من العربي الجزل الليخ . ولا هو من نمط ما وراءه في (كشف المخبا عن فنون اوربا) من انه كان يعرب التوراة وهو في انكلترا فكان يقف على الترجمة العربية قسيس انكليزي شدا شيئاً من العربية فكان كلما رأى لاحد فارس جملة شم منها رائحة الفصاحة نسخها واستبدل بها جملة ركيكة . فكان الشدياق يعجب من امره وقد نقل عنه من هذا النسق جملاً يستغرب لها الانسان من الضحك اذ يرى كيف كان ذلك القسيس يعتمد قلب العالي بالساقط والجيد بالردل تعمداً ويتهافت على الركيك تهافت الدلب على الطواء ويصرح بأنه انما يتوخى بذلك ابعاد الكلام عن شبه القرآن .

كلا يا ايها الاخ ، ان هذه الفئة لا تمج الفصاحة من حيث هي ، ولا تدن بالركافة التي كان يذنب بها قسوس احمد فارس فيسخر بهم ما يسخر ، ولا تحارب اللغة العربية نفسها ، ولكنها تحارب منها القرآن .

ان هذه الفئة تحارب القرآن والحديث وجميع الآثار الاسلامية وتريد ان تتبدل بها كلام الجاهليه وكلام فصحاء العرب حتى من المخضرمين والمولدين وكل كلام لا يكون عليه مسحة دينية . وهذه الفئة قد تعددت غاياتها في هذا المنزع ولكن قد اتفقت في الوسائل . فمنها من لا يجهل بلاغة القرآن وجزالته وكونه من العربية بمنزلة القطب من الرحي ، ولكنه يدس الدسائس من طرف خفي لا قصائمه عن دائرة الادب العربي وتزهيد الناشئة فيه بحجة كونه قديماً وان كل قديم هو بال . حتى اذا اثم لهم ما يبتغون من غض مكاة القرآن في صدور الناس يكونون قد طعنوا الاسلام طعنة سياسية في احشائه . . . على حين هم يزعمون ان الموضوع موضوع ادبي لغوي لا مدخل للسياسة فيه فيزلقون بهذه الدعوى المدحاض كثيرين ممن لو تفتنوا لما وراء هذه الدعاية البارزة في زي لغوي ادبي من المآرب

السياسية الخبيثة لكانوا امنها على حذر بل لا تقلبوا عليها وصادروا قرآنيين .
ولكن مع الاسف نقول ان الحوادث الاخيرة لاسيما ما جرى قبيل الحرب
الكبرى الى ما بعدها قد اثبتت انه مازالت هناك فئة تلعب بفئة وتسوقها
الى حيث تريد فلا تستفيق هذه من سكرتها الا وقد قضى الامر الذي
فيه تستفتيان وهذه الدسياسة التي ظهر لكم مكنونها من جملة
واحدة ان هي الا حلقة لغوية من سلسلة دسائس مقصود منها الاسلام
لا القرآن من حيث كونه قرآنا ولا الفصلحة من حيث كونها فصاحة .

ولقد اشرتم الى ذلك من مقالكم الجليل فقلتم « لا اعرف من السبب
في ضعف الاساليب الكتابية والنزول باللغة دون منزلتها الا واحدا من
ثلاثة : فاما مستعمرون يهدمون الامة في لغتها وآدابها لتتحول عن اساس
تاريخها الذي هي امة به ولن تكون امة الا به ، واما النشأة في الادب على
مثل نهج الترجمة في الجملة الانجيلية والانطباع عليها وتعويج اللسان بها ،
واما الجهل من حيث هو الجهل او من حيث هو الضعف » .

فانا اقول ان الوجوه الثلاثة متوفرة في السبب ، ولكن الوجه الاول
هو اقواها . واصحاب هذا الوجه منهم من يريدون هدم الامة في لغتها
وآدابها خدمة لمباديء الاستعمار الاوروبي ، ومنهم من يشير باستعمال
اللغة العامية بحجة انها اقرب الى الافهام ، ولكن منهم من لا يحاول هدم
الامة في لغتها وآدابها لا حبا باللغة والآداب ولكن علما باستحالة تنصل
العرب من لغتهم وآدابهم . ولذلك ترى هؤلاء دعاة الى اللغة والآداب على
شرط ان لا تكون ثمة قرآن ولا حديث وأن تكون الصبغة لا دينية ؛ وحجتهم
في ذلك حب التجدد وكون القرآن والحديث وكلمات السلف كلها من القديم
الذي لا يتلاءم مع الروح المصرية في شيء . وآخرون حجتهم في ذلك النزعة
القومية التي بزعمهم تناقض النزعة الدينية ، واصحاب النزعة القومية
هؤلاء يقولون انها من باب التجدد وان روح القومية هي السائدة في هذا
العصر . فالدين والمعاصرة نقيضان لا يجتمعان . فاما اذا سألهم سائل
قائلا : انكم انتم من دعاة التجدد من قراء الآداب الاوروبية لا تنكرون ان
كتاب اوربا اليوم من فرنسيس والماني وانلكيز وطلين واسبانيول وروس
الفخ الخ انما آدابهم كلها مأخوذة من اللغات القديمة كال يونانية واللاتينية

وان آيات التوراة والانجيل تدور على السنتهم واقلامهم جارية فيها مجرى الامثال لا يكاد يخلو من خطاب ولا كتاب ، حتى ان المنفضين منهم من العقيدة يتكلمون بلغة الانجيل والتوراة وهذا كلعنسو الذي لا يوجد حرب على الدين اشد منه كان يجاوب بعض من اعترض عليه من اجل بعض نقاط في معاهدة فرساي قائلا : ادخلوا في فرح المعاهدة تجدوها كما تريدون . ومعلوم ان جملة « دخل في الفرخ » هي آية انجيلية ادخل في فرح سيدك وهذا شيء لا يمكن ان يحصى الا اذا احصيت رمال يبرين . وانما نريد ان نثبت به كون التجدد والمعاصرة لم يمنعا بقاء لغات اوربا وادابها على صفتها القديمة وماخذها من التوراة والانجيل ومن شعراء يونان وخطباء رومة وان ادباء اوربا في هذا العصر يستهجنون اختراع انشاء جديد واسلوب غير مالوف ويحسبونه مخالفا للدوق ويتمثلون بمعان غابرة لم يبق لها اثر . انظر هل بقي اثر للقوس والنشاب في اوربا وهل يوجد اعرق في القدمة من القوس والنشاب والى هذا اليوم يقولون *il fait glechie de tout bois* وترجمتها : ياخذ نشابا من كل خشب . ومرادهم بها انه يستعين باي قوة حصلت في يده . افتراهم وقد ارادوا مراعاة الاحوال المصرية يقولون : يعمل بندقية من كل حديد . او : يصنع قنبلة من كل ديناميت . كلا لا يقولون ذلك ولا يرون الخلط بين العلوم والآداب ولا يجدون التجدد في الفنون والصناعات داعيا الى تغيير اسلوب الكتابة بحجة ان هذه التعابير كانت يوم لم يكن تلغراف ولا تليفون ولا اشعة رونتجن . افرايت كتابا اوروبيا يقول : طقت بمنطاد الفكر في سماء الموضوع ، كلا ولا ما اشبه ذلك . ولا ينكر انه قد جدت في اوربا فرائد وجمل لم تكن مالوفة في العصر السابقة كما جدت ايضا اصطلاحات في كل عصر من اعصر اللغة العربية فليس جميع ما اصطلاح عليه الناس في ايام العباسيين كلن معروفا في صدر الاسلام او في الجاهلية ، ولكن كل ما يتجدد هنا او هناك لابد من ان يرجع الى نصاب اللغة وينزل على حكمها ولن تترك اللغة فوضى لا في شرق ولا في غرب . طالما ترنحت الاعطاف عند ذكر الكاتب الفرنسي العظيم اناتول فرانس الذي توفي منذ بضعة اشهر ، وكان هذا الكاتب هو المصدر المقدم في الانشاء عند قومه لا يرون احدا في

منزلته بعد رنان وكان مما تميز به النزوع الى المذاهب الاجتماعية الجديدة والفلو في كره العقائد الدينية والعادات القديمة والنفور من النصرانية بأجمعها حتى لقد صفة كثيرون مع الشيوعيين . وبالرغم من هذا فقد اتفق جميع من ترجموه لدن وفاته حتى من أدباء الفئة الاشتراكية والشيوعية على انه كان في إنشائه اصوليا استلذا مقلدا يخلو حذو راسين الشاعر الذي عاش قبل هذا العهد بمائتي سنة وانه حافظ على الطريقة الكتابية الاصولية المسماة عندهم « كلاسيك » اي الطريقة المدرسية وقيل للكاتب المشهور موريس بارس - وكان من انصار الديانة والكنيسة - افلا ترى مبادئ أناتول فرانس وغلوه في الاشتراكية الخ ، فاجابهم : قولوا فيه من هذه الجهة ما شئتم الا انه حفظ اللغة . وهي جملة شهيرة يحفظها الجميع عن بارس .

نعم يقدر العربي ان لا يكون صحيح العقيدة ولا مسلما ، ويكون نصاب اللغة عنده القرآن والحديث وكلام السلف ، لانها هي الطبقة العليا التي تصح ان تكون مثالا . ولكن ليس هذا مراد هذه الفئة التي تريد حربا وتوري بغيرها تبغي نقض قواعد القرآن - التي هي السد الامنع الحائل دون الاستعمار والثقافة الافرنجية بفروعها - وتأتي ذلك من طريق نبذ القديم والبالى والاخذ بالجديد والحالي ، ولا يوجد مع الاسف كثيرون ممن ينتبهون لهذه السفسطة ويعلمون مرمى هذه الدعاية به ان كثيرا من ناشئتنا ومن عامتنا هم من فح الى فح ومن حملة هذه الاشراك ان القرآن حائل دون القومية العربية لا يفسح لها مجالا فتراها ينصبون له العداوة وامراض العقول كثيرة كأمراض الابدان ولكن امراض القلوب هي التي لا حيلة فيها هذا و بعضا من ادعياء الجديد - لا دعة الجديد - لا يحاربون القرآن ولا الشرع عن بحث وتدقيق ومقايسة ومقابلة يتبعون المعقول قديما كان او جديدا ويرتادون المفيد معرقا كان او محدثا كلا ، بل هم اختاروا مذهبهم من قبل فرجحوا كل جديد كينفسه كن وبدون محاكمة ، وذلك ليقل انهم رعاة عصريون ، اما نظرية اخذ الاحسن من كل شيء واختيار الاوفق من ي جهة جاء فهذه ليسوا منها بسبيل ، وانما يؤثرون الشيء اذا علموا ان بعض الافرنجة اخذت به .

ولما وافقت هذه الفئة في تركيا على منع المسكرات لم يكن السبب في هذه الموافقة ضرر المسكرات أو النهي الشرعي بل حرموا الخمر لمجرد كون أمريكا حرمتها !

وخذ لك هذا المثال :

كنا في مجلس المبعوثين في الاستانة وكان زملائنا زهرا ب أفندي الارمني الشهير ولم يكن علمه وذكاءه بأقل من شهرته وكان يصعب على مبعوث مهما كان قوي المعارضة قاطع الحجة ان يخاصم زهرا ب لاسيما في التشريع . فاتفق ان بعض مبعوثي الترك من المولعين بالجديد - لمجرد ادعاء الرقي المصري - اختلفوا مع زهرا ب في سن مادة قانونية ، فمقدوا لها مجلسا خاصة وانبرى لزهراب اثنان من هؤلاء المصريين يجادلانه ويحاولان ان يحملاه على رايهما فبعد حوار طويل تغلب زهرا ب عليهما والزمهما الحجة ولم يبق امامهما الا السكوت . الا ان زهرا ب اخطا في شيء وهو عدم معرفته عقلية هذه الفئة فبعد ان اخرسهما في الجدل عاد فقال لهما : وهذا ايضا وفق احكام شريعتكم (الاسلامية) التي تقول كذا وكذا . حدثنا الفلكي الرياضي فطين أفندي مدير مرصد الاستانة : انه لما قال لهما زهرا ب هذا القول عادا فنبرا بغتة قائلين : اذا كان الامر كذلك فلا نقبل هذا الرأي . ومن بعد تلك الفتنة لم يعد زهرا ب قادرا ان يقنعهما بوجه من الوجوه فليس صواب الشيء وعدمه هو الحاكم عند هذه الفئة بل هو مصدر الشيء بدون نظر الى أي اعتبار آخر فان علموا كونه آتيا من طريق الدين او ملائما لحكم وورد في الشرع استمروا مذاقه قبل ان يلوقوه ، وليس هذا منحصر في الترك وفي الفئة التورانية منهم بل عندنا نحن من هذا النخل فسيل في مصر والشام وغيرهما .

وباليتك ترى هذه الفرقة على شيء من التحقق بالجديد فيما يلزم فيه الاخذ بالجديد من علم نافع او فن مفيد او صناعة دارة . فان العلم لا يجب ان يكون فيه قديم وجديد بل هو اصل يتفرع منه فروع كل يوم يتحت على الانسان ان يتبعها كلها ناظرا الى حقيقتها وصدق تجربتها وفائدتها للاجتماع .

كلاي سيدي قلما رايت من هذه الفرق الا الادعاء الفارغ والنزوع الى الثورة على ما يسمونه بالقديم وهم ينسون ان هناك مبادئ ثابتة وبديهيات ليس فيو ، قديم وجديد وان الاثنين والاثنين اربعة من مائة الف سنة فلا تدبر ان نعمل على ذلك ثورة وان المقولات العشر مما لا تتناوله الثورة وان الثورة انما هي واجبة على الجهل والوهم لا على الحق والعلم . وان العلم لا يكون قديما وان الادب لا بد ان يراعى فيه ذوق الامة وتاريخها وعاداتها وعرفها وانه ليس بتجربة كيمائية .

هذا يا اخي هو المرمى الصحيح ممن اخذ عليك « الجملة القرآنية » فاما الفئام الاخرى ممن عجز عن الفصيح فابغضه ممن يستأنس بالركيك لانه هو الشيء الوحيد الذي يقدر عليه فهذه خطبها يسير وقلعتها اوهى من ان يحمل مثل قلمك عليها .

لوزان : ٨ فبراير سنة ١٩٢٥

شكيب ارسلان

الأدب واللغة القديم والحديث

محمد حسين هيكل

١٨٨٨ - ١٩٥٦

٢

ثابت مسألة القديم والحديث مرة أخرى . وتلك مسألة إذا ثابت لم يكن يسيرا أن تهذا . فهي عند بعض الكتاب صيحة حرب لا تلبث أن ترتفع حتى يهرع من يسمون أنفسهم أنصار القديم الى صفه القديم ينصرونه ، ومن يسمون أنفسهم أنصار الحديث الى صف الحديث يعززونهم . وإذا انتظم الكتاب صفوفنا للنضال عن كتابتهم فويل للمحارب والأفلام وويل للأوراق والصحف . أما القراء فلهم البشري . ان لهم من ميدان هذه المعركة خير منظر تتراشق فيه الحجج مطمئنة تلو محتدمة طورا وتتجاوب الأدلة مستقيمة حينما ملتوية أحيانا . وما بالك يقوم يدفعون عن وجودهم ويلودون عن كيانهم . أوليست الكتابة حياة الكاتب . فدفاعه عنها دفاع عن الحياة . وإذا كان المزارعون من أهل الريف ينشعب أحدهم أظافره في عنق جاره حتى ليقضي عليه ان حاول ليصد الماء عن مزرعته فان للكاتب بديلا من أعلامهم عن الأظافر يدودون بها عن حياض حياتهم كما يلود المزارع عن حوض حياته .

ومن العجب في أمر معركة القديم والحديث التي تنشب هذه السنين ما بين آن وآخر في مصر أنها تنشب بين أقوام يعلنون جميعا أنهم على اللغة العربية وقوامها حراس ، في حين أن قوما آخرين لهم بين كتاب

العربية اسم ومقام ولهم فيها تواليف ورسائل وغرضهم الظاهر في كتاباتهم العدول بالعربية عن أصولها وقواعدها وأساليبها والفاظها ، بقون بعيدين عن المعركة ينتظرون ما ينجلي عنه غبارها ، آملين أن يكون لهم من ورائها مغنم . وهل رأيت الريحاني أو جبران خليل جبران أو من شايعهم يعبرون اعتراض أنصار القديم أو أنصار الحديث عناية أو التفاتا . أم هم كأنما يقولون في سخرهم المطمئن وأزدرائهم للمتنكرين : أولئك أقوام تعلقوا بالقشور دون اللباب . فليظفوا في معاركهم حول الالفاظ والتراكيب فلن يكون لهم من ورائها الا التناحر . يومئذ يكون لجديدينا نحن ، هذا الجديد الممتلئ حياة وقوة ، هذا الجديد الشاثر على أمة العرب العتيقة المتهدمة ، هذا الجديد الطامح الى حياة الغرب وطمعه وأدبه ، بل الطامح للفظه أن أتيح له بلوغه ، يومئذ يكون لجديدينا نحن الفوز على حين يبقى هؤلاء في معاركهم التي تنشب لغير غاية ، وتنتهي الى غير نتيجة . وينجلي غبارها عن غير فكرة جديدة ، أو أمل في التقدم نحو فكرة جديدة.

هذا من العجب حقا . فأنصار القديم هم الأساتذة : صادق عنبر ومصطفى صادق الرافعي والشيخ علام ومن نحا في أسلوبهم نحوهم . وأنصار الحديث هم الدكتور عزمي والدكتور صبري وأخوانهم . فان تسئل ما قديم أولئك وما حديث هؤلاء ترى المقالات تواجه المقالات والرسائل تنقض الرسائل . لكنك ترى هذه المقالات والرسائل جميعا مكتوبة بأسلوب عربي مبين . لم يصنع أحدها قواعد النحو والصرف بما تصفعها به رسائل الريحاني وجبران . ولم تكره الالفاظ خلالها حتى لتراك في حيرة قبل أن تصل الى ما يريده أصحابها منها . فقيم إذن هذه المعارك يحتدم فيها الجدل وترتفع فيها جلبة الالفاظ وضجيجها حتى لتشبه فرقة البارود وقعقة السنان ؟

ما القديم وما الحديث ؟ مسألة يجب حلها لمعرفة حدود الخلاف بين الفريقين . فهل القديم في اللغة والأدب ما يرجع عهد الى عصور الجاهلية الأولى . أم هو ما اجتمع أيام حضارة العرب الى حين بدا

التدهور في أدبهم بعد أن تدهورت سيادتهم واستعجمت حضارتهم .
ما نظن أحداً ممن يسمون أنفسهم أنصار القديم يريد قصر اللغة والأدب
في عصرنا الحاضر على ما كانا عليه في الجاهلية الأولى . فهل يقول لنا
أحدهم بعد هذا أي لغة وأي أدب عربي يفضل ؟ ما نخالهم ينكرون
لغة امرئ القيس وأدبه ليست لغة أبي النواس وأدبه . وإنك لتقرأ
المعلقات وما عاصرها فتري فيها شيئاً غير الذي تراه في شعر العباسيين
أو في شعر الأندلسيين . وإنك لتقرأ نثر الهمذاني فتراه غير نثر الجاحظ
وغير نثر ابن المقفع وغير نثر أبي الفرج صاحب الأغاني . ثم أنت إذا
عدلت عن الشعر والأدب إلى الفلسفة والتاريخ رأيت في رسائل الفلأبي
وفي كتب ابن خلكان وابن خلدون صوراً من النثر متباينة . فمن أي
الصور في النثر والشعر يرضى أنصار القديم ؟ وأي هذه الصور في نظرهم
هي المثل الأعلى للغة وللأدب ؟ وهل يرى أحدهم أن يقف في أدبه وكتابته
عند ما اشتملت عليه ؟

كذلك ما نظن أحداً ممن يسمون أنفسهم أنصار الحديث ينكر على
هذا الميراث العربي في اللغة والأدب مجده وعظمته . بل ما نظن أحداً
منهم ينظر إلى ثورة التجديد التي يحمل لواءها جبران خليل جبران
وأصحابه بعين مطمئنة . ومهما يعجب أحدهم بما تنتجه مدرسة الثورة
هذه من بعض الثمرات ، ومهما يجد في مثل كتاب الأجنحة المتكسرة
من فيض الخيال الشعري ، فكل واحد منهم جد حريص على بقاء الصلة
بين الحاضر والماضي وثيقة متينة . ذلك بأنهم يعلمون أن كل حاضر
لا يتصل بالماضي وشيك الزوال .

قيم الخلاف إذا ؟ الخلاف في رأي أنصار القديم أن هؤلاء «المحدثين»
قد انصرفوا عن العرب وأدبهم إلى الغرب وأدبه . وأنهم لذلك جهلوا
من أساليب العرب أفصحها لفظاً وأبلغها عبارة واكتفوا بالقليل الذي
درسوا في مكاتبهم وحاولوا إكراه هذا القليل على احتمال ما امتلات
به رؤوسهم من العلوم الحديثة فنزل بهم ما عرفوا من اللغة وأساليب
الأدب إلى الاضطراب والركاكة . والخلاف في رأي أنصار الحديث أن

هؤلاء « الأقدمين » حبسوا أنفسهم في غيابات الماضي ووقفوا من الألفاظ ومعانيها والعبارات وتراكيبها موقف العرب ، جاهلين أو ناسين أن اللغة مظهر من مظاهر الحياة ، وأنها لذلك يجب أن تحتل أداء كل ما يريد الأحياء من صور ومعان على الوجه الذي يريدون أدائه به . فوقف بهم ذلك عن مجاراة الحضارة الحاضرة ، وصجزوا عن أداء ما تريده الحياة من صور هذه الحضارة ومعانيها .

والئن صدق هذا التصوير فالخلاف ليس بين القديم والحديث ، والقديم والحديث لا يمكن أن يكون بينهما خلاف ، وإن كان أبداً بينهما اختلاف . بل الخلاف بين أدب اللفظ وأدب الفكر . فالذين يسمون أنفسهم أنصار القديم يريدون البقاء في دائرة حضارة العرب يستعمرون تصوراتهم للأشياء وتصويرهم أياها بالألفاظ ، ويعملون على إكراه الحضارة الحالية في قوالب الحضارة العربية . والذين يسمون أنفسهم أنصار الحديث يحاولون الفرار من بيت الحضارة القديمة ويعملون على أن يخلقوا لما أنشأته الحضارة الحديثة قوالب جديدة من اللفظ قد لا تتفق وما يرضاه فقه اللغة العربية وسرها .

مثل هذا الخلاف يرجع إلى قيام طائفتين مختلف تهذيب كل منهما واختلفت ثقافتهما عن الأخرى ، فتعذر عليهما التعاون الواجب لخلق روح قومية للثقافة والأدب . ولن يزال هذا الخلاف ما بقي الاختلاف بين الطائفتين في التهذيب والثقافة وما بقيت الأمة في علمها وأدبها كلا على سواها وعالة على غيرها . فيظل « الأقدمون » بين جذران قصور الماضي المجيد بحضارته وأدبه معجبين بمخلفاته ، ناسجين ثمرات أفهامهم وخيالاتهم على منواله ، قانعين بالنظر إلى الحاضر وأعماله وآماله من بنوافذ هذه القصور ، فرحين بما قد يجدونه فيه من مشابهاة لما عندهم ، مؤمنين بأن ما لديهم خير وأبقى ، وبأن ما يرون من سناء والآلاء ليس إلا خلباً من برق وسراباً من آل . . فلذا حسن ظنهم بالحاضر قالوا إنما هو فروع هذا الجذع الذي جمعنا حوله وأوجب علينا أن نزيده قوة وصلابة .

ويظل « المحدثون » في فضاء الحاضر الحر الدائم مأخوذين بما أبدع الغرب فيه من ثراء وغنى في الحكمة والعلم والشعر ، ممثلة نفوسهم بمحبته واجلاله ، متمثلة كل ما فيه من بهاء لا يبلى ، وجدة لا يهرمها شتاء حتى يعقبه ربيع أكثر بهاء وجدة . فلذا أدبروا رؤوسهم الى قصور «الاقدمين» التي منها درجوا حلوا لولا أن يتصل ما بين كنوزها وهذه الحضارة الجديدة فان تيسرت الصلة الصحيحة فذاك . وإن لم تيسر فلا ضير أن تكون صلة أقل صحة مادامت ترضى منهم هوى النفوس وتكفي عندهم لبوسا للمعاني الجديدة والصور المستحدثة .

والحق أن اللغة العربية على ما خلفتها حضارة العرب كثيرا ما تستعصي على صور هذه الحضارة الحديثة . وليس عليها في ذلك ذنب ، وليس في طبيعتها دون الوصول اليه عجز . ذلك بأن اللغة أداة ان لم يدم صقلها املاها الصدا ، ثم كان فيها تناقل عن السير المطمئن الى حيث يحتاج اليها الدهن الفياض بمعان وصور جديدة . ولقد يبلغ من صدتها أن يقبرها . وهذه الهيروغرافية واليونانية القديمة واللاتينية والاشورية وما اليها من لغات ، حملت اسمى صور الحضارة الانسانية القديمة ثم أهملت فصارت قبورا لهاته الصور ، ينبش العلماء اليوم لاستخراج ما تحتويه من كنوز ودقائق تضيف الى سلطان الحاضر وعظمته سلطانا وعظمة . ولا ريب في أن اللغة العربية تنطوي من الكنوز على ما لو اطلعت عليه جميعا لوقفت امام جلاله وبهائه مبهورا مقدسا . وذلك سر سحرها الاقدمين واخذها اياهم عن انفسهم . لكن اللغة العربية كائن حي لا تزال ولن تزال . وكل كائن حي لا يستطيع القيام دون الاشتراك مع سائر الكائنات التي تتصل به اشتراك تعاون وتنافس . وقد هدمت منشآت الحضارة الحديثة ما بين الدول من حدود وما كلن يحيط بشمرات الفكر من قيود . فأصبح العلم كله كتلة واحدة ذات حضارة واحدة . واصبحت عقول السكسون والجرمان واللاتين والعرب والهندوس والصين تتجلوب ثمراتها وتتنافس آثارها وتتجاذب في نضال وتضامن . واندفعت الاسم العربية واللغة العربية ، حتما مقضيا ، تغامر في المضمار وتعد كاهلها لاحتمال حضارة الانسانية كلها بكل ما فيها من علم وفن وأدب . ولا مفر لها من أن يبلغ

اصفو صقالها ما يجعلها في حملها حضارة العالم تعدل كل لغة من لغاته .
فلذا أتاح القدر لأهلها أن كان لهم على الحضارة الغلب يوما كانت بين
اللغات جميعا زينة وسحرا وبهرا .

ولعل هذه المعارك القلمية التي تنشب بين « الأقدمين » و « المحدثين »
أحدى الخطى في سبيل هذه الغاية . « فالأقدمون » يريدون أن يمسكوا
« بالمحدثين » لكي لا يندفعوا إلى ما يندفع إليه الريحاني وجبران خليل
جبران . و « المحدثون » يحاولون أن يخرجوا « الأقدمين » من غيابة
الماضي إلى نور الحاضر وحركته .

وذلك نضال غايته الكمينه حراس الطائفتين على التضامن والتعاون
في الحياة القومية لتؤدي كل ما أوجبه عليها الحياة لخير الانسانية جميعا .

لكن هذه المعارك لا تزيد على أنها خطوة ضيقة . ودرك تلك الغاية
السلمية تعوزه خطى المعالقة وجهود الفحول . هؤلاء المعالقة الفحول
هم النوابغ يقف الواحد منهم من قومه موقف الهادي تتعلق به الأنظار
وتنفتح لعبارة الأفئدة والقلوب . يعتمر ذهنه الفرد لب الحضرة جميعا
وينفثها من روجه القوى في احاديث وقطص أو في قصائد منظومة أو في
كتب علم وفن ، فيتلقاها عنه قومه وقد لبست الفاظه ثيابا من المعاني
يجب أن تقرها معاجم اللغة راضية أو كارهة . ولهذا النابغة يخضع
« الأقدمون » و « المحدثون » جميعا . ليكون في عبارته ما فيها على قواعد
اللغة من خروج وشدوذ ؛ هي لغة الحضارة وروح العصر ؛ هي الجواب
الكافي لحاجة في النفوس تتطلع لسدها ؛ هي الاداء الصحيح لما يجول
بخاطر الانسانية من المعاني . والانسانية ميراث متجدد يسفر كل صباح
من حظ منه جديد . فاللغة التي تؤدي حاجة الانسانية وما يجول
بخاطرها لا يمكن الا أن تكون الثمرة الناضجة لهذا الميراث والجماع الكامل
لكل ما كدسه الوجود من علم وروم ومن حس واتصور .

متى يتاح للغة العربية أمثال هؤلاء النوابغ الذين ينشئون الادب

القومي ويفرغون في قوالبه المصقولة حضارة الانسانية بكل ما تنطوي عليه في ذلك سؤال جوابه للزمن . لكن اهل هذه اللغة بحاجة الى مجهودات صالحة يقوم بها المثات والالوف من ابنائها في مثابرة وجد لا اجتناء ثمرات مجهودات الامم الاخرى وبشها في جو البلاد العربية . سيجد هؤلاء المثات والالوف من مجهودهم مشقة وعناء ، وسيقع بعضهم اعياء ويفر آخرون رياسا . لكن الحضارة شجرة من الاشجار الضخمة العظيمة الجذع التي لا تسرع الى الظهور والنمو ولكنها تسير في سبيله مقاومة كل صعب متغلبة على كل عقبة ، وتبدو اول ظهورها ضئيلة لا يطمئن من لا يعرفها الى انها باللغة ما يبلغه امثالها من ضخامة وعظمة ، ولذلك يصد عنها ولا يعني وتمهدها . وهذا هو شأن الكثيرين من اهل الشرق اليوم . اولئك يريدون المعالجة فيهممون باقتطاف زهر النبات الضعيفة سوقه السريع انقضاء اجله . وهم يكتفون بتفيء ظلال جذوع سقطت اوراقها وجفت اغصانها . اما ذرو العلم فلا يشنيه عن تمهدها عجز ولا طمع . فلذا هي اورقت كان من ثمرها قطاف النايغة الهادي .

يوم يقيم النوايغ الادب القومي ، بعد ان ينشبر المجاهدون العلم والثقافة القومية ، تنتقل المعركة من ميدان القديم والحديث الى التنافس حول الكمال والقرب منه والابتعاد عنه ، ويومئذ يتشعب الكمال الى ما يريد النوايغ من صور ، ويومئذ يسلس قياد اللغة ويسرع تيارها الفياض الى حيث يحتاج اليه الدهن . ثم يكون التعاون الصادق بين ثمرات الفكر . وتكون هذه الثمرات لذاتها هي الغاية ان اصبحت اللغة منهلا عذبا كثير الزحام . ويومئذ ترى هؤلاء المقتتلين من « الاقدمين » و « المحدثين » قد انصرفوا عن نضالهم الحاضر الى ما هو خير وابقى ، ونرى اللغة اتصل ماضيها بحاضرها دائمة الالهة لتمثل ما تخلقه الحضارة من كمال حديث .

لكن انصراف المقتتلين اليوم لن يحسم المعركة . وكيف تحسم في الحياة معركة والحياة تمور في نضالها الدائم الاتجاه نحو ما ترجوه الانسانية من كمال . انما يكون صلح الطائفتين المتنازعتين اليوم مثارا

القيام طوائف جديدة تقف في وجههما جميعا . ألم تر في نضال الفن كيف
قام الآخذون عن القلمك فأنشأوا اليوم شتى المذاهب ووقفوا ينصرونها
في وجه المدرسة اللاتينية العريقة الاصل والحسب ؟ أو لم تر الى من
قد يسميهم الاستاذ عزمي المكعبين Les cubis tes اذن فسيقوم عند
بلوغها من صفو الصقل غايته أوائلك « المكعبون » ومن اليهم من الناشرين .
واسيكون اثر هؤلاء في اللغة اثر السموم تدخل الى الجسم القوي فتزيد
قوة وتواتيه من المناعة ما يقيه ويحفظه .



لا نطلب اليوم اذن الى « الاقدمين » و « المحدثين » أن يكفوا عن
النضال مادام نضالهم خطوة في سبيل الكمال . انما الذي نرجوه ونطلبه
أن يتضامن المثات والالواف من اهل اللغة العربية لتمثل لغتهم حضارة
الانسانية وليحتمل كاهلها كل ثمرات الذهن الانساني ونطبيب من الثقافة
القومية فقد آذنت الساعة لقيام التوابغ الذين ينفثون في الشرق العربي
روح حياة وقوة ويخلعون على اللغة ثوب البهاء الذين يجدر بها أن تكسوه
في هذه المدينة الحاضرة لتكون به جديرة بأبناء هذا الشرق مهد الحضارات
الانسانية واكبرها مجدا وعظمة .

محمد حسين هيكل

المصدر : في اوقات الفراغ . الطبعة الثانية ١٩٦٨ د . محمد حسين هيكل .
مكتبة النهضة المصرية .

نشرت المقالة للمرة الاولى في جريدة السياسة بتاريخ ٢٣ ابريل ١٩٢٥ .

المرحلة الثانية

في الشعر الجاهلي

طه حسين ١٨٨٩ - ١٩٧٣

الكتاب الأول

١

تمهيد :

هذا نحو من البحث عن تاريخ الشعر العربي جديد ، لم يألّفه الناس عندنا من قبل . واكاد اثق بأن فريقا منهم سيلقونه ساخطين عليه ، وبأن فريقا آخر سيزورون عنه أزورا . ولكنني على سخطي ولثك الأزوراء هؤلاء أريد أن أذيع هذا البحث ، أو بعبارة أصح أريد أن أقيده ، فقد أذعته قبل اليوم حين تحدثت به إلى طلابي في الجامعة . وليس سرا ما تتحدث به إلى أكثر من مائتين .

ولقد اقتنعت بنتائج هذا البحث اقتناعا ما أعرف أنني شعرت بمثله في تلك المواقف المختلفة التي وقفتها من تاريخ الأدب العربي . وهذا الاقتناع القوي هو الذي يحملني على تقييد هذا البحث ونشره في هذه الفصول ، غير حافل بسخط الساخط ولا مكترث بأزوراء المزور . وأنا مطمئن إلى أن هذا البحث وإن أسخط قوما واشق على آخرين ، فسيرضى هذه الطائفة القليلة من المستنيرين الذين هم في حقيقة الأمر عدة المستقبل وقوام النهضة الحديثة وذخر الأدب الجديد .

والقد تناول الناس منذ حين مسألة القديم والجديد ، واشتد فيها اللجاج بينهم ، وخيل إلى بعضهم أنه يستطيع أن يقضي فيها بين المختصمين . ولكنني اعتقد أن المختصمين أنفسهم لم يتناولوا المسألة من جميع أطرافها ، فهم لم يكادوا يتجاوزون فنون الأدب التي يتعاطاها

الناس من نثر وشعر ، والأساليب التي تصطنع في هذه الفنون والمعاني ،
والألفاظ التي يعتمد عليها الكاتب أو الشاعر حين يريد أن يتحدث إلى
الناس بعواطف نفسه أو نتائج عقله . ولكن للمسألة وجها آخر لا يتناول
الفن الكتابي أو الشعري ، وإنما يتناول البحث العلمي من الأدب وتاريخه
فنونيه .

نحن بين اثنين : إما أن نقبل في الأدب وتاريخه ما قال القدماء ،
لا نتناول ذلك من النقد إلا بهذا المقدار اليسير الذي لا يخلو منه كل
بحث والذي يتيح لنا أن نقول : أخطأ الأصمعي أو أصاب ، ووافق أبو
عبيدة أو لم يوفق ، واهتدى الكسائي أو ضل الطريق ؛ وإما أن نضع
علم المتقدمين كله موضع البحث . لقد اتسبت ، فلست أريد أن أقول
البحث وإنما أريد أن أقول الشك . أريد ألا نقبل شيئا مما قال القدماء
في الأدب وتاريخه إلا بعد بحث وثبت أن لم ينتهيا إلى اليقين فقد
ينتهيان إلى الرجحان .

والفرق بين هذين المذهبين في البحث عظيم ، فهو الفرق بين الإيمان
الذي يبعث على الاطمئنان والرضا ، والشك الذي يبعث على القلق
والاضطراب وينتهي في كثير من الأحيان إلى الإنكار والجحود .

المذهب الأول يدع كل شيء حيث تركه القدماء لا يناله بتغيير
ولا تبديل ولا يمس في جملة وتفصيله إلا مساهة رفيقا . أما المذهب
الثاني فيقلب العلم القديم رأسا على عقب . وأخشى إن لم يمح أكثره
أن يمح منه شيئا كثيرا .

ولندع هذا النحو من الكلام العام والنوضح ما نريد أن نقوله بشيء
من الأمثلة :

بين يدينا مسألة الشعر الجاهلي نريد أن ندرسها وننتهي فيها إلى
الحق . فإما أنصار القديم فالطريق أمامهم واضحة معبدة ، والأسر
عليهم سهل يسير . اليس قد أجمع القدماء من علماء الأمصار في العراق

والشلم وفارس ومصر والاندلس على أن طائفة كثيرة من الشعراء قد عاشت قبل الاسلام وقالت كثيرا من الشعر ؟ أليس قد اجمع هؤلاء العلماء أنفسهم على أن لهؤلاء الشعراء أسماء معروفة محفوظة مضبوطة يتناقلها الناس ولا يكادون يختلفون فيها ؟ أليس قد اجمع هؤلاء العلماء على أن لهؤلاء الشعراء مقداراً من القصائد والمقطوعات حفظه عنهم روايتهم وتناقله عنهم الناس ، حتى جاء عصر التدوين فدون في الكتب وبقي منه ما شاء الله أن يبقى الى أيامنا ؟ وإذا كان العلماء قد اجمعوا على هذا كله فرووا لنا أسماء الشعراء وضبطوها ونقلوا اليها آثار الشعراء وفسروها ، فلم يبق الا أن نأخذ عنهم ما قالوا واضين به مطمئنين اليه . فإذا لم يكن لاحدنا بد من أن يبحث وينتقد ويحقق فهو يستطيع هذا دون أن يجاوز مذهب انصار القديم . فالعلماء قد اختلفوا في الرواية بعض الاختلاف وتفاوتوا في الضبط بعض التفاوت . فلنوازن بينهم والنرجح رواية اهل رواية والنقثر ضبطاً على ضبط ، ولنقل : أصاب البصريون واخطأ الكوفيون ، أو وفق المبرد ولم يوفق ثعلب . لنذهب في الادب وفنونه مذهب الفقهاء في الفقه بعد أن أغلق باب الاجتهاد : هذا مذهب انصار القديم ، وهو المذهب الدائع في مصر ، وهو المذهب الرسمي أيضاً ، مضت عليه مدارس الحكومة وكتبها ومناهجها على ما بينها من تفاوت واختلاف .

ولا ينبغي أن تخدمك هذه الالفاظ المستحدثة في الادب ، ولا هذا النحو من التأليف الذي يقسم التاريخ الادبي الى عصور ، ويحاول أن يدخل فيه شيئاً من الترتيب والتنظيم ؛ فذلك كله عناية بالقشور والأشكال لا يمس القلب ولا الموضوع . فما زال العرب ينقسمون الى بائدة وباقية ، وإلى عاربة ومستعربة . وما زال أولئك من جرّهم ، وهؤلاء من ولد إسماعيل . وما زال امرؤ القيس صاحب « قفا بك . . » وطرفة صاحب « تخوّالة أطلال . . » وعمرو بن كلثوم صاحب « الاهبّي . . » ، وما زال كلام العرب في جاهليتها واسلامها ينقسم الى شعر ونثر . والنثر ينقسم الى مراسل ومسجوع ، الى آخر هذا

الكلام الكثير الذي يفرغه انصار القديم فيما يضعون من كتب وما يلقون على التلاميذ والطلاب من دروس .

هم لم يغيروا في الادب شيئاً . وما كان لهم ان يغيروا فيه شيئاً وقد اخلوا انفسهم بالاطمئنان الى ما قال القدماء واغلقوا على انفسهم في الادب باب الاجتهاد كما اغلقه الفقهاء في الفقه والمتكلمون في الكلام .

واما انصار الجديد ، فالطريق امامهم معوجة ملتوية ، تقوم فيها عقاب لا تكاد تحصى . وهم لا يكادون يمضون الا في اناة وريث هما الى البعد اقرب منهما الى السرعة . ذلك انهم لا يأخذون انفسهم بإيمان ولا اطمئنان ، أو هم لم يزرعوا هذا الايمان والاطمئنان . فقد خلق الله لهم عقولا تجد من الشك لذة وفي القلق والاضطراب رضا . وهم لا يريدون ان يخطوا في تلويخ الادب خطوة حتى يتبينوا موضعها . وسواء عليهم وانفقوا القدماء وانصار القديم أم كان بينهم وبينهم اشد الخلاف .

هم لا يطمئنون الى ما قال القدماء ، وانما يلقونه بالتحفظ والشك . ولعل اشد ما يملكهم الشك حين يجدون من القدماء ثقة واطمئنانا . هم يريدون ان يدرسوا مسألة الشعر الجاهلي فيتجاهلون لإجماع القدماء على ما اجمعوا عليه ، ويتساءلون : اهنالك شعر جاهلي ؟ فإن كان هنالك شعر جاهلي فما السبيل الى معرفته ؟ وما هو ؟ وما مقداره ؟ وبم يمتاز من غيره ؟ ويمضون في طائفة من الاسئلة يحتاج حلها الى روية واناة والى جهود الجماعات العلمية لا الى جهود الافراد . هم لا يعرفون ان العرب ينقسمون الى باقية وبائدة ، وعاربة ومستعربة ، ولا ان اولئك من جرحهم ، وهؤلاء من ولد اسماعيل ، ولا ان امرؤ القيس وطريقة وابن كثوم قلوا هذه المطولات ؛ ولكنهم يعرفون ان القدماء كانوا يرون ذلك . ويريدون ان يتبينوا اكان القدماء مصيبين أم مخطئين ؟

والنتائج اللازمة لهذا المذهب الذي يذهب المجددون عظيمة جليلة

الخطر ، فهي الى الثورة الادبية اقرب منها الى اي شيء آخر . وحسبك أنهم يشكون فيما كان الناس يرونه يقينا ، واقد يجحدون ما أجمع الناس على أنه حق لا شك فيه .

وليس حظ هذا المذهب منتها عند هذا الحد ، بل هو يجاوزه الى حدود أخرى أبعد منه مدى وأعظم أثرا . فهم قد ينتهون الى تغيير التاريخ أو ما اتفق الناس على أنه تاريخ . وهم قد ينتهون الى الشك في أشياء لم يكن يباح الشك فيها . وهم بين اثنتين : إما أن يجحدوا أنفسهم ويجحدوا العلم وحقوقه فيريحوا ويستريحوا ؛ وإما أن يعرفوا لأنفسهم حقها ويؤدوا للعلم واجبه ، فيتعرضوا لما ينبغي أن يتعرض له العلماء من الأذى ويحتملوا ما ينبغي أن يحتمله العلماء من سخط الساخطين .

وليس حظ هذا المذهب منتها عند هذا الحد ، بل هو يجاوزه للأذى . وربما كان الحق أنني أحب الحياة الهلثة المطمئنة وأريد أن اتذوق لذات العيش في دعة ورضا . ولكني مع ذلك أحب أن أفكر ، وأحب أن أبحث ، وأحب أن أعلن الى الناس ما انتهى اليه بعد البحث والتفكير ؛ ولا أكره أن آخذ نصيبي من رضا الناس عني أو سخطهم عليّ حين أعلن اليهم ما يحبون أو ما يكرهون . واذن فلاعتمد على الله ، ولاحدثك بما أحب أن أحدثك به في صراحة وأمانة وصدق ، ولاجتنب في هذا الحديث هذه الطرق التي يسلكها المهرة من الكتاب ليدخلوا على الناس ما لم يالفوا في رفق وإناة وشيء من الاحتياط كثير .

وأول شيء أفجؤك به في هذا الحديث هو أنني شككت في قيمة الشعر الجاهلي والبحت في الشك ، أو قل ألح على الشك ، فأخذت أبحث وأفكر وأقرأ وأتدبر ، حتى انتهى بي هذا كله الى شيء إلا يكن يقينا فهو قريب من اليقين . ذلك ان الكثرة المطلقة مما نسميه شعرا جاهليا ليست من الجاهلية في شيء ، وإنما هي منتحلة مختلفة بعد ظهور الاسلام ، فهي اسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم

أكثر مما تمثل حياة الجاهليين . وإنكاد لا أشك في أن ما بقي من الشعر الجاهلي الصحيح قليل جدا لا يمثل شيئا ولا يدل على شيء ، ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهؤلاء العصر الجاهلي . وأنا أقدر النتائج الخطرة لهذه النظرية ، ولكنني مع ذلك لا أتردد في إثباتها وإداعتها ، ولا أضعف عن أن أعلن إليك وإلى غيرك من القراء أن ما تقرؤه على أنه شعر امرئ القيس أو طرفة أو ابن كلثوم أو عنبرة ليس من هؤلاء الناس في شيء ؛ وإنما هو انتحال الرواة أو اختلاق الأعراب أو صنعة النحاة أو تكلف القصاص أو اختراع المفسرين والمحدثين والمتكلمين .

وأنا أزعم مع هذا كله أن العصر الجاهلي القريب من الإسلام لم يضع ، وأنا نستطيع أن نتصوره تصورا واضحا قويا صحيحا . ولكن بشرط ألا نعتد على الشعر ، بل على القرآن من ناحية ، والتاريخ والأساطير من ناحية أخرى .

وستسألني كيف انتهى بي البحث إلى هذه النظرية الخطرة ؟ ولست أكره أن أجيبك على هذا السؤال ؛ بل أنا لا أكتب ما أكتب إلا لأجيبك عليه . ولأجل أن أجيبك عليه أجابة مقنعة يجب أن أتحدث إليك في طائفة مختلفة من المسائل . وسترى أن هذه الطائفة المختلفة من المسائل تنتهي كلها إلى نتيجة واحدة هي هذه النظرية التي ذكرتها منذ حين . يجب أن أحدثك عن الحياة السياسية الداخلية للأمم العربية بعد ظهور الإسلام ووقوف حركة الفتح ، وما بين هذه الحياة وبين الشعر من صلة . ويجب أن أحدثك عن حال أولئك الناس الذين غلبوا على أمرهم بعد الفتح في بلاد الفرس وفي الشام والجزيرة والعراق ومصر ، وما بين هذه الحال وبين لغة العرب وآدابهم من صلة . ويجب أن أحدثك عن نشأة العلوم الدينية واللغوية وما بينها وبين اللغة والأدب من صلة . ثم يجب أن أحدثك عن اليهود في بلاد العرب قبل الإسلام وبعده ، وما بين اليهود هؤلاء وبين الأدب العربي من صلة . ويجب أن أحدثك بعد هذا عن المسيحية وما كان لها من الانتشار في بلاد العرب

قبل الاسلام وما احدثت من تأثير في حياة العرب العقلية والاجتماعية والاقتصادية والأدبية ، وما بين هذا كله وبين الأدب العربي والشعر العربي من صلة . ثم يجب أن أحدثك عن مؤثرات سياسية خارجية عملت في حياة العرب قبل الاسلام وكان لها أثر قوي جدا في الشعر العربي الجاهلي وفي الشعر العربي الذي انتحل وأضيف الى الجاهلين . وهذه المباحث التي اشرت اليها ستنتهي كلها الى تلك النظرية التي قدمتها : وهي ان الكثرة المطلقة مما نسميه الشعر الجاهلي ليست من الشعر الجاهلي في شيء .

ولكنني مع ذلك لن أقف عند هذه المباحث ؛ لاني لم أقف عندها فيما بيني وبين نفسي بل جاوزتها . وإريد أن أجولها معك الى نحو آخر من البحث اظنه اقوى دلالة وانفض حجة من المباحث الماضية كلها ، ذلك هو البحث الفني واللغوي . فسينتهي بنا هذا البحث الى ان هذا الشعر الذي ينسب الى امرئ القيس او الى الاعشى او الى غيرهما من الشعراء الجاهليين لا يمكن من الوجهة اللغوية والفنية ان يكون لهؤلاء الشعراء ، ولا ان يكون قد قيل والذيع قبل ان يظهر القرآن . نعم . وسينتهي بنا هذا البحث الى نتيجة غريبة ، وهي انه لا ينبغي ان يستشهد بهذا الشعر على تفسير القرآن وتأويل الحديث ، وانما ينبغي ان يستشهد بالقرآن والحديث على تفسير هذا الشعر وتأويله ، اريد ان أقول ان هذه الاشعار لا تثبت شيئا ولا تدل على شيء ، ولا ينبغي ان تتخذ وسيلة الى ما اتخذت اليه من علم بالقرآن والحديث .. فهي إنما تكلفت واخترعت اختراعا ليستشهد بها العلماء على ما كانوا يريدون ان يستشهدوا عليه .

فإذا انتهينا من هذه الطرق كلها الى غاية واحدة هي هذه النظرية التي قدمتها ، فسنبجته في أن نبحت عما يمكن أن يكون شعرا جاهليا حقا . وأنا اعترف منذ الان بان هذا البحث عسير كل العسر ، وباني اشك شكا شديدا في انه قد ينتهي بنا الى نتيجة مرضية . ومع ذلك فسنحاوله .

منهج البحث

أحب ان اكون واضحا جلياً وان أقول للناس ما أريد ان أقول دون ان اضطرهم الى أن يتأولوا ويتمحلوا ويذهبوا مذاهب مختلفة في النقد والتفسير والكشف عن الافراض التي أرمي اليها . أريد أن أريح الناس من هذا اللون من ألوان التعب ، وأن أريح نفسي من الرد والدفع والمناقشة فيما لا يحتاج الى مناقشة . أريد أن أقول إنني سأسلك في هذا النحو من البحث مسلك المحدثين من اصحاب العلم والفلسفة فيما يتناولون من العلم والفلسفة . أريد أن أصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه (ديكارت) للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث . والناس جميعا يعلمون أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هي أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل ، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلوا تما . والناس جميعا يعلمون أن هذا المنهج الذي سخط عليه انصار القديم في الدين والفلسفة يوم ظهر ، قد كان من الخصب المناهج وأقومها وأحسنها أثراً ، وأنه قد جدد العلم والفلسفة تجديدًا ، وأنه قد غير مذاهب الأدباء في أدبهم والفنانين في فنونهم ، وأنه هو الطابع الذي يمتاز به هذا العصر الحديث .

فلنصطنع هذا المنهج حين نريد أن نتناول أدبنا العربي القديم وتاريخه بالبحث والاستقصاء . ولنستقبل هذا الأدب وتاريخه وقد برأنا أنفسنا من كل ما قيل فيهما من قبل وخلصنا من كل هذه الأغلal الكثيرة الثقيلة التي تأخذ أيدينا وأرجلنا ورءوسنا فتجول بيننا وبين الحركة الجسمية الحرة ، وتجول بيننا وبين الحركة العقلية الحرة أيضا .

نعم ! يجب حين نستقبل البحث عن الأدب العربي وتاريخه أن ننسى قوميتنا وكل مشخصاتها ، وأن ننسى ديننا وكل ما يتصل به ، وأن ننسى

ما يضاد هذه القومية وما يضاد هذا الدين ، يجب ألا نتقيد بشيء ولا ندعن
بشيء إلا مناهج البحث العلمي الصحيح ذلك إذا لم ننس قوميتنا
وديننا وما يتصل بهما فسنضطر إلى المحاباة وإرضاء العواطف ، وسنفل
عقولنا بما يلائم هذه القومية وهذا الدين . وهل فعل القدماء غير هذا ؟
وهل أفسد علم القدماء شيء غير هذا ؟ كان القدماء عربا يتعصبون للعرب ،
أو كانوا عجماء يتعصبون على العرب ؛ فلم يبرا علمهم من الفساد ؛ لأن
المتعصبين للعرب غلوا في تمجيدهم وإكبارهم فأسرفوا على أنفسهم وعلى
العلم ؛ ولأن المتعصبين على العرب غلوا في تحقيرهم وإصغارهم فأسرفوا
على أنفسهم وعلى العلم أيضا .

كان القدماء مسلمين مخلصين في حب الإسلام ، فاختصوا كل شيء
لهذا الإسلام وحبهم إياه ، ولم يعرضوا لبحث علمي ولا لفصل من فصول
الادب أو لون من ألوان الفن إلا من حيث إنه يؤيد الإسلام ويعزه ويعلى
كلمته . فما لأم مذهبهم هذا أخلوه ، وما نافره انصرفوا عنه انصرافا .
أو كان القدماء غير مسلمين : يهودا أو نصارى أو مجوسا أو ملحدين أو
مسلمين في قلوبهم مرض وفي نفوسهم زيف ، فتأثروا في حياتهم العلمية بمثل
ما تأثر به المسلمون الصادقون : تعصبوا على الإسلام ونحوا في بحثهم
العلمي نحو الفض منه والتصغير من شأنه ، فظلموا أنفسهم وظلموا
الإسلام وأفسدوا العلم وجنوا على الأجيال المقبلة . ولو أن القدماء
استطاعوا أن يفرقوا بين عقولهم وقلوبهم وأن يتنلوا العلم على نحو
ما يتنلوه المحدثون لا يتأثرون في ذلك بقومية ولا عصبية ولا دين ولا ما
يتصل بهذا كله من الأهواء ، لتبركوا لنا أدبا غير الأدب الذي نجده بين
أيدينا ، ولأراحونا من هذا العناء الذي نتكلفه الآن . ولكن هذه طبيعة
الإنسان لا سبيل إلى التخلص منها . وأنت تستطيع أن تقول هذا الذي
نقوله في كل شيء . فلو أن الفلاسفة ذهبوا في الفلسفة مذهب (ديكارت)

منذ العصور الاولى ، لما احتجج (ديكارت) الى ان يستحدث منهجه الجديد . ولو ان المؤرخين ذهبوا في كتابة التاريخ منذ العصور الاولى مذهب (سينيوبوس) لما احتاج (سينيوبوس) الى ان يستحدث منهجه في التاريخ . وبعبارة ادنى الى الإيجاز : لو ان الإنسان خلق كاملا لما احتاج الى ان يطمع في الكمال .

فلندع لوم القدماء على ما تأثروا به في حياتهم العلمية مما أفسد عليهم العلم . لنجتهد في ألا نتأثر كما تأثروا وفي ألا نفسد العلم كما أفسدوه . لنجتهد في ان ندرس الادب العربي غير حافلين بتمجيد العرب أو الغض منهم ، ولا مكتثرين بنصر الإسلام أو النقي عليه ، ولا معنيين بالملاءمة بينه وبين نتائج البحث العلمي والادبي ، ولا وجلين حين ينتهي بنا هذا البحث الى ما تاباه القومية أو تنعر منه الأهواء السياسية أو تكرهه العاطفة الدينية . فإن نحن حررنا أنفسنا الى هذا الحد فليس من شك في أننا سنصل ببخشنا العلمي الى نتلج لم يصل الى مثلها القدماء . وليس من شك في أننا سنلتقي أصدقاء سواء اتفقنا في الرأي أو اختلفنا فيه . فما كان اختلاف الرأي في العلم سببا من أسباب البغض ؛ إنما الأهواء والمواقف هي التي تنتهي بالناس الى ما يفسد عليهم الحياة من البغض والصداء .

فانت ترى ان منهج (ديكارت) هذا ليس خصبا في العلم والفلسفة والادب فحسب ، وانما هو خصب في الاخلاق والحياة الاجتماعية ايضا . وانت ترى ان الاخذ بهذا المنهج ليس حتما على الذين يدرسون العلم ويكتبون فيه وحدهم ، بل هو حتم على الذين يقرءون ايضا . وانت ترى أنني غير مسرف حين اطلب منذ الآن الى الذين لا يستطيعون ان يبرءوا من القديم ويخلصوا من اغلال المواقف والأهواء حين يقرءون العلم أو يكتبون فيه إلا يقرءوا هذه الفصول . فلن تفيدهم قراءتها الا ان يكونوا احرارا حقا .

مرآة الحياة الجاهلية يجب ان تلمس في القرآن لا في الشعر الجاهلي

على اني احب ان يطمئن الذين يكلفون بالادب العربي القديم ويشفقون عليه ويجدون شيئاً من اللذة في ان يعتقدوا ان هناك شعرا جاهليا يمثل حياة جاهلية انقضى عصرها بظهور الإسلام ، فلن يمحو هذا الكتاب ما يعتقدون ، وان يقطع السبيل بينهم وبين هذه الحياة الجاهلية يدرسونها ويجدون في درسها ما يبتغون من لذة علمية وفنية . بل انا اذهب الى ابعد من هذا ، فازعم اني سأستكشف لهم طريقا جديدة واضحة قصيرة سهلة يصلون منها الى هذه الحياة الجاهلية ، او بمبراة اصح : يصلون منها الى حياة جاهلية لم يعرفوها ، الى حياة جاهلية قيمة مشرقة ممتعة مخالفة كل المخالفة لهذه الحياة التي يجدونها في البطولات وغيرها ممن ينسب الى الشعراء الجاهليين . ذلك اني لا انكر الحياة الجاهلية وانما انكر ان يمثلها هذا الشعر الذي يسمونه الشعر الجاهلي . فاذا اردت ان ادرس الحياة الجاهلية فلست اسلك لها طريق امرئ القيس والنابغة والاعشى وزهير ، لاني لا اثق بما ينسب اليهم ، وإنما اسلك اليها طريقا اخرى ، وادرسها في نص لا سبيل الى الشك في صحته ، ادرسها في القرآن . فالقرآن اصدق مرآة للعصر الجاهلي . ونص القرآن ثابت لا سبيل الى الشك فيه . ادرسها في القرآن ، وادرسها في شعر هؤلاء الشعراء الذين عاصروا النبي وجادلوه ، وفي شعر الشعراء الآخرين الذين جاءوا بعده ولم تكن نفوسهم قد طابت عن الآراء والحياة التي ألفها آباؤهم قبل ظهور الإسلام . بل ادرسها في الشعر الأموي نفسه . فلست اعرف امة من الأمم القديمة استمسكت بمذهب المحافظة في الادب ولم تجدد فيه إلا بمقدار كلامة العربية . فحياة العرب الجاهليين ظاهرة في شعر الفرزدق وجريير وذو الرمة والاختل والراعي أكثر من ظهورها في هذا الشعر الذي ينسب الى طرفة وعنترة والشماع وبشر بن أبي خازم .

قلت : ان القرآن اصدق مرآة للحياة الجاهلية . وهذه القضية غريبة حين تسمعها ؛ ولكنها بدهية حين تفكر فيها قليلا . فليس من اليسير ان نفهم ان الناس قد اعجبوا بالقرآن حين تليت عليهم آياته إلا ان تكون بينهم وبينه صلة هي هذه الصلة التي توجد بين الأثر الفني البديع وبين الذين يعجبون به حين يسمعون أو ينظرون اليه . وليس من اليسير ان نفهم ان العرب قد قاوموا القرآن وناهضوه وجادلوا النبي فيه إلا ان يكونوا قد فهموه ووقفوا على اسراره ودقائقه . وليس من اليسير بل ليس من الممكن ان نصدق ان القرآن كان جديدا كله على العرب . فلو كان كذلك لما فهموه ولا وعوه ، ولا آمن به بعضهم ولا ناهضه وجادل فيه بعضهم الآخر . إنما كان القرآن جديدا في أسلوبه ، جديدا فيما يدعو إليه . جديدا فيما شرع للناس من دين وقانون ، ولكنه كان كتابا عربيا ؛ لغته هي اللغة العربية الأدبية التي كان يصطنعها الناس في عصره ، أي في العصر الجاهلي . وفي القرآن رد على الوثنيين فيما كانوا يعتقدون من الوثنية . وفيه رد على اليهود ، وفيه رد على النصارى ، وفيه رد على الصائفة والمجوس . وهو لا يرد على يهود فلسطين ، ولا على نصارى الروم . ومجوس الفرس . وصائفة الجزيرة وحدهم ، وإنما يرد على فرق من العرب كانت تمثلهم في البلاد العربية نفسها . ولولا ذلك لما كانت له فمية ولا خطر . ولما حفل به أحد من أولئك الذين عارضوه وأيدوه ، وضحوا في سبيل تأييده ومعارضته بالاموال والحياة .

افتري أحدا يحفل بى لو اني أخذت أهاجم البوذية او غيرها من هذه الديانات التي لا يدينها أحد في مصر ؟ ولكنني أغيظ النصارى حين أهاجم النصرانية ، وأهيج اليهود حين أهاجم اليهودية ، وأحفظ المسلمين حين أهاجم الإسلام . وأنا لا اكاد أعرض لواحد من هذه الأديان حتى أجد مقاومة الأفراد ثم الجماعات . ثم مقاومة الدولة نفسها تمثلها النيابة والقضاء . ذلك لاني أهاجم ديانات ممثلة في مصر يؤمن بها المصريون وتحميها الدولة المصرية . وكذلك كانت الحال حين ظهر الإسلام : أهاجم الوثنية فعارضه الوثنيون . وهاجم اليهود فعارضه اليهود ، وهاجم النصارى فعارضه النصارى . ولم تكن هذه المعارضة هينة ولا لينة ،

ولإنما كانت تقدر بمقدار ما كان لأهلها من قوة ومنعة وبأس في الحياة الاجتماعية والسياسية . فاما وثنية قريش فقد أخرجت النبي من مكة ونصبت له الحرب واضطرت أصحابه الى الهجرة . واما يهودية اليهود فقد البت عليه وجاهدته جهادا عقليا وجدليا ، ثم انتهت الى الحرب والقتال ، واما نصرانية النصارى فلم تكن معارضتها للإسلام إبان حياة النبي قوية قوة المعارضة الوثنية واليهودية . لماذا ؟ لأن البيئة التي ظهر فيها النبي لم تكن بيئة نصرانية ، إنما كانت وثنية في مكة ، يهودية في المدينة . ولو ظهر النبي في الحيرة أو نجران للقى من نصارى هاتين المدينتين مثل ما لقي من مشركي مكة ويهود المدينة .

وفي الحق أن الإسلام لم يكد يظهر على مشركي الحجاز ويهوده حتى استحال الجهاد بينه وبين النصارى من جدال ونضال بالحجة الى اصطدام مسلح ، أدرك النبي أوله وانتهى به الخلفاء الى أقصى حدوده .

فانت ترى أن القرآن حين يتحدث عن الوثنيين واليهود والنصارى وغيرهم من أصحاب النحل والديانات إنما يتحدث عن العرب وعن نحل وديانات ألفها العرب . فهو يبطل منها ما يبطل ، ويؤيد منها ما يؤيد . وهو يلقي في ذلك من المعارضة والتأييد بمقدار ما لهذه النحل والديانات من السلطان على نفوس الناس . وإذن فما أبعد الفرق بين نتيجة البحث عن الحياة الجاهلية في هذا الشعر الذي يضاف الى الجاهليين والبحث عنها في القرآن .

فاما هذا الشعر الذي يضاف الى الجاهليين فيظهر لنا حياة غامضة جافة بريئة أو كالبريئة من الشعور الديني القوي والعاطفة الدينية المتسلطة على النفس والسيطرة على الحياة العملية ، والا فإين تجد شيئا من هذا في شعر امرئ القيس أو طرفة أو عنتره أو ليس عجيبا أن يعجز الشعر الجاهلي كله عن تصوير الحياة الدينية !

واما القرآن فيمثل لنا شيئا آخر ، يمثل لنا حياة دينية قوية تدمو

أهلها الى أن يجادلوا عنها ما وسعهم الجدل . فاذا رأوا أنه قد أصبح قليل الغناء لجأوا الى الكيد ، ثم الى الاضطهاد ، ثم الى اعلان الحرب التي لا تبقى ولا تذر .

افتظن ان قريشا كانت تكيد لابنائها وتضطهدهم وتذيقهم السوان العذاب ثم تخرجهم من ديارهم ثم تنصب لهم الحرب وتضحى في سبيلها بشرواتها وقواتها وحياتها لو لم يكن لها من الدين الا ما يمثلها هذا الشعر الذي يضاف الى الجاهلين ؟ كلا ! كانت قريش متدينة قوية الايمان بدينها . ولهذا الدين وللإيمان بهذا الدين جاهدت ما جاهدت وضحت ما ضحت . وقل مثل ذلك في اليهود ، وقل مثله في غير أولئك وهؤلاء من العرب الذين جاهدوا النبي عن دينهم .

فالقرآن اذن اصدق تمثيلا للحياة الدينية عند العرب من هذا الشعر الذي يسمونه الجاهلي . ولكن القرآن لا يمثل الحياة الدينية وحدها ، وانما يمثل شيئا آخر غيرها لا نجده في هذا الشعر الجاهلي ، يمثل حياة عقلية قوية ، يمثل قدرة على الجدل والخصام أنفق القرآن في جهادها حفا عظيما . ليس القرآن قد وصف أولئك الذين يجادلون النبي بقوة الجدل والقدرة على الخصام والشدة في المحاوراة ! وفيهم كانوا يجادلون ويخاصمون ويحاورون ؟ في الدين وفيما يتصل بالدين من هذه المسائل المعضلة التي ينفق الفلاسفة فيها حياتهم دون أن يوفقوا الى حلها : في البعث ، في الخلق ، في امكان الاتصال بين الله والناس ، في المعجزة وما الى ذلك .

افتظن قوما يجادلون في هذه الاشياء جدا لا يصفه القرآن بالقوة ويشهد لأصحابه بالمهارة ، افتظن هؤلاء القوم من الجهل والغبلة والغلظة والخشونة بحيث يمثلهم لنا هذا الشعر الذي يضاف الى الجاهلين ! كلا ! لم يكونوا جهالا ولا أغبياء ولا غلاظا ولا أصحاب حياة خسنة جافية ، وانما كانوا أصحاب علم وذكاء وأصحاب عواطف رقيقة وعيش فيه لين ونعمة .

وهنا يجب أن نحتاط ، فلم يكن العرب كلهم كذلك ، ولا يمثلهم القرآن كلهم كذلك ؛ وانما كانوا كغيرهم من الامم القديمة وكثير من الامم الحديثة منقسمين الى طبقتين : طبقة المستنيرين الذين يمتازون بالثروة والجاه والدكاء والعلم ؛ وطبقة العامة الذين لا يكاد يكون لهم من هذا كله حظ .

القرآن شاهد بهذا . اليس يحدثنا عن اولئك المستضعفين الذين كفروا طاعة لسادتهم ووعمائهم لا جهادا في الراي ولا اقتناعا بالحق ، والذين سيقولون يوم يسألون : (ربنا انا اطعنا سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيل) . بلى ! والقرآن يحدثنا عن جفوة الاعراب وغلظتهم وامعائهم في الكفر والنفاق وقلة حظهم من العاطفة الراقية التي تحمل على الايمان والتدين . اليس هو الذي يقول : (الاعراب اشد كفرا ونفاقا واجدر الا يعلموا حدود ما انزل الله) . اليس قد شرع للنبي ان يتألف قلوب الاعراب بالمال ! بلى . فالقرآن اذن يمثل الامة العربية على انها كانت كغيرها من الامم القديمة ، فيها الممتازون المستنيرون الذين كان النبي يجادلهم ويجاهدهم ، وفيها العامة الذين لم يكن لهم حظ من استنارة او امتياز والذين كانوا موضوع النزاع بين النبي وخطومه والذين كان يتألفهم النبي بالمال احيانا .

والقرآن لا يمثل الامة العربية متدينة مستنيرة فحسب ، بل هو يعطينا منها صورة اخرى يدهش لها الذين تعودوا ان يعتمدوا على هذا الشعر الجاهلي في درس الحياة العربية قبل الاسلام ؛ فهم يعتقدون ان العرب كانوا قبل الاسلام امة معتولة تعيش في صحرائها لا تعرف العالم الخارجي ولا يعرفها العالم الخارجي ، وهم يبنون على هذا قضايا ونظريات ، فهم يقولون ان الشعر الجاهلي لم يتأثر بهذه المؤثرات الخارجية التي اثرت في الشعر الاسلامي : لم يتأثر بحضرة الفرس والروم . . وانى له ذلك ! لقد كان يقال في صحراء لا صلة بينها وبين الامم المتحضرة . كلا ! القرآن يحدثنا بشيء غير هذا ، القرآن يحدثنا بان العرب كانوا على اتصال بمن حولهم من الامم بل كفوا على اتصال قوى قسمهم احزابا وفرقهم شيعا . اليس القرآن يحدثنا عن الروم وما كان بينهم وبين الفرس

من حرب انقسمت فيها العرب الى حزبين مختلفين : حزب يشايح اولئك
وحزب يناصر هؤلاء ! اليس في القرآن سورة تسمى سورة الروم وابتدىء
بهذه الآيات : (الم غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم
سيغلبون في بضع سنين لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون
بنصر الله ينصر من يشاء) .

لم يكن العرب اذن كما يظن اصحاب هذا الشعر الجاهلي معتزلين ؛
فانت ترى ان القرآن يصف عنايتهم بسياسة الفرس والروم . وهو
يصف اتصالهم الاقتصادي بغيرهم من الامم في السورة المعروفة (لإيلاف
قريش لإيلا فهم رحلة الشتاء والصيف ١٠١٠٠) وكانت إحدى هاتين الرحلتين
الى الشام حيث الروم ، والاخرى الى اليمن حيث الحبشة أو الفرس .

وسيرة النبي تحدثنا ان العرب تجاوزوا بوغاز باب المندب الى بلاد
الحبشة . ألم يهاجر المهاجرون الاولون الى هذه البلاد ! وهذه السيرة
نفسها تحدثنا بانهم تجاوزوا الحيرة الى بلاد الفرس ، وبأنهم تجاوزوا
الشام وفلسطين الى مصر . فلم يكونوا اذن معتزلين ، ولم يكونوا اذن
بنجوة من تأثير الفرس والروم والحبس والهند وغيرهم من الامم المجاورة
لهم . لم يكونوا على غير دين ولم يكونوا جهالا ولا غلاظا ولم يكونوا في
عزلة سياسية أو اقتصادية بالقياس الى الامم الاخرى ، كذلك يمثلهم
القرآن .

واذا كانوا اصحاب علم ودين ، واصحاب ثروة وقوة وبأس ،
واصحاب سياسة متصلة بالسياسة العامة متأثرة بها مؤثرة فيها ، فما
اخطئهم ان يكونوا امة متحضرة راقية لا امة جاهلة همجية . وكيف
يستطيع رجل عاقل ان يصدق ان القرآن قد ظهر في امة جاهلة همجية !

أرايت ان التماس الحياة العربية الجاهلية في القرآن انفع واجدى
من التماسها في هذا الشعر العقيم الذي يسمونه الشعر الجاهلي أرايت
ان هذا النحو من البحث يغير كل التغيير ما تعودنا ان نعرف من أمر
الجاهليين ،

الشعر الجاهلي واللغة

على أن هناك شيئاً آخر يحظر علينا التسليم بصحة الكثرة المطلقة من هذا الشعر الجاهلي ، ولعله أبلغ في إثبات ما نذهب إليه . فهذا الشعر الذي رأينا أنه لا يمثل الحياة الدينية والعقلية للعرب الجاهليين بعيد كل البعد عن أن يمثل اللغة العربية في العصر الذي يزعم الرواة أنه قيل فيه . والأمر هنا يحتاج إلى شيء من الروية والآنسة . فنحن إذا ذكرنا اللغة العربية نريد بها معناها الدقيق المحدود الذي نجده في المعاجم حين نبحث فيها عن اللفظ اللغة ما معناه ، نريد بها الألفاظ من حيث هي الألفاظ تدل على معانيها ، تستعمل حقيقة مرة ومجازاً مرة أخرى ، وتتطور تطوراً ملائماً لمقتضيات الحياة التي يحيها أصحاب هذه اللغة .

نقول أن هذا الشعر الجاهلي لا يمثل اللغة الجاهلية . ولنجتهد في تعريف اللغة الجاهلية هذه ما هي ، أو ماذا كانت في العصر الذي يزعم الرواة أن شعرهم الجاهلي هذا قد قيل فيه . أما الرأي الذي اتفق عليه الرواة أو كادوا يتفقون عليه فهو أن العرب ينقسمون إلى قسمين : قحطانية منازلهم الأولى في اليمن ، وعدنانية منازلهم الأولى في الحجاز .

وهم متفقون على أن القحطانية عرب منذ خلقهم الله فطوروا على العربية فهم العاربة ، وعلى أن العدنانية قد اكتسبوا العربية اكتساباً ؛ كانوا يتكلمون لغة أخرى هي الصيرانية أو الكلدانية ، ثم تعلموا لغة العرب العاربة فمحت لغتهم الأولى من صدورهم وثبتت فيها هذه اللغة الثانية المستعارة . وهم متفقون على أن هذه العدنانية المستعربة إنما يتصل نسبها بإسماعيل بن إبراهيم . وهم يروون حديثاً يتخلونه أساساً لكل هذه النظرية ، خلاصته أن أول من تكلم بالعربية ونسي لغة أبيه إسماعيل ابن إبراهيم .

على هذا كله يتفق الرواة ، ولكنهم يتفقون على شيء آخر أيضاً

أثبتته ، البحث الحديث ، وهو أن هناك خلافا قويا بين لغة حمير (وهي العرب العاربة) واللغة عدنان (وهي العرب المستعربة) . وقد روي عن أبيهم عمرو بن العلاء أنه كان يقول : ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا .

وفي الحق أن البحث الحديث قد أثبت خلافا جوهريا بين اللغة التي كان يصطنعها الناس في جنوب البلاد العربية ، واللغة التي كانوا يصطنعونها في شمال هذه البلاد . ولدينا الآن نقوش ونصوص تمكننا من إثبات هذا الخلاف في اللفظ وفي قواعد النحو والتصريف أيضا . وأذن فلا بد من حل هذه المسألة .

إذا كان أبناء اسماعيل قد تعلموا العربية من أولئك العرب الذين نسميهم العربية فكيف بعد ما بين اللغة التي كان يصطنعها العرب العاربة واللغة التي كان يصطنعها العرب المستعربة ، حتى استطاع أبو عمرو ابن العلاء أن يقول إنهما لغتان متميزتان ، واستطاع العلماء المحدثون أن يثبتوا هذا التمايز بالأدلة التي لا تقبل شكاً ولا جدالاً ! والامر لا يقف عند هذا الحد ، فواضح جدا لكل من له إلمام بالبحث التاريخي عملة وبدرس الأساطير والأقاصيص خاصة أن هذه النظرية متكلفة مصطنعة في عصور متأخرة دعت إليها حاجة دينية أو اقتصادية أو سياسية .

للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم واسماعيل ، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا ، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي ، فضلا عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة اسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها . ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعا من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة ، وبين الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى . وأقدم عصر يمكن أن تكون قد نشأت فيه هذه الفكرة إنما هو هذا العصر الذي أخذ اليهود يستوطنون فيه شمال البلاد العربية ويبثون فيه المستعمرات . فنحن نعلم أن حروباً عنيفة

ثبتت بين هؤلاء اليهود المستعمرين وبين العرب الذين كانوا يقيمون في هذه البلاد، وانتهت بشيء من المسألة والملاينة ونوع من المحالفة والمهادنة. فليس يبعد أن يكون هذا الصلح الذي استقر بين الفريقين وأصحاب البلاد منشأ هذه القصة التي تجعل العرب واليهود أبناء أعمام ، لا سيما وقد رأى أولئك هؤلاء أن بين الفريقين شيئاً من التشابه غير قليل ؛ فأولئك وهؤلاء ساهيون .

ولكن الشيء الذي لا شك فيه هو أن ظهور الاسلام وما كان من الخصومة العنيفة بينه وبين وثنية العرب من غير أهل الكتاب ، قد اقتضى أن ثبت الصلة الوثيقة المتينة بين الدين الجديد وبين الديانتين القديمتين : ديانة النصارى واليهود .

فأما الصلة الدينية فثابتة واضحة ، فبين القرآن والتوراة والأنجيل اشتراك في الموضوع والصورة والغرض ، كلها ترمي الى التوحيد ، وتعتمد على أساس واحد هو هذا الذي تشترك فيه الديانات السماوية السامية . ولكن هذه الصلة الدينية معنوية عقلية يحسن أن تؤيدها صلة أخرى مادية ملموسة أو كالملموسة بين العرب وأهل الكتاب . فما الذي يمنع أن تستغل هذه القصة قصة القرابة المادية بين العرب الصليانية واليهود ؟

وقد كانت قریش مستعدة كل الاستعداد لقبول مثل هذه الاسطورة في القرن السابع للمسيح . فقد كانت في أول هذا القرن قد انتهت الى حظ من النهضة السياسية والاقتصادية ضمن لها السيادة في مكة وما حولها وبسط سلطاتها المعنوي على جزء غير قليل من البلاد العربية الوثنية . وكان مصدر هذه النهضة وهذا السلطان اسريين : التجارة من جهة ، والدين من جهة أخرى .

فأما التجارة فنحن نعلم أن قریشا كانت تصطنعها في الشام ومصر وبلاد الفرس واليمن وبلاد الحبشة .

وأما الدين فهذه الكعبة التي كانت تجتمع حولها قريش ويحج إليها العرب المشركون في كل عام ، والتي أخذت تبسط على نفوس هؤلاء العرب المشركين نواها من السلطان قويا ، والتي أخذ هؤلاء العرب المشركون يجطلون منها رمزا للدين قوي كأنه كان يريد أن يقف في سبيل انتشار اليهودية من ناحية والمسيحية من ناحية أخرى . فنحن نلمح في الأساطير أن شيئا من المنافسة الدينية كان قائما بين مكة ونجران . ونحن نلمح في الأساطير أيضا أن هذه المنافسة الدينية بين مكة وبين الكنيسة التي أنشأها الحبشة في صنعاء هي التي دعت إلى حرب الغيل التي ذكرت في القرآن .

فقريش إذن كانت في هذا العصر ناهضة نهضة مادية تجارية ، ونهضة دينية وثنية . وهي بحكم هاتين النهضتين كانت تحاول أن توجد في البلاد العربية وحدة سياسية وثنية مستقلة تقاوم تدخل الروم والفرس والحبشة ودياناتهم في البلاد العربية .

وإذا كان هذا حقا - ونحن نعتقد أنه حق - فمن المعقول جدا أن تبحث هذه المدينة الجديدة لنفسها عن أصل تاريخي قديم يتصل بالأسول التاريخية المأجدة التي تتحدث عنها الأساطير . وإذن فليس ما يمنع قريشا من أن تقبل هذه الأسطورة التي تفيد أن الكعبة من تأسيس إسماعيل وإبراهيم ، كما قبلت روما قبل ذلك ولأسباب مشابهة أسطورة أخرى صنعها لها اليونان تثبت أن روما متصلة بإينياس ابن بريام صاحب طروادة .

أمر هذه القصة إذن واضح . فهي حديثة العهد ظهرت قبيل الإسلام ، واستفله الإسلام لسبب ديني ، وقبلتها مكة لسبب ديني وسياسي أيضا . وإذن فيستطيع التاريخ الأدبي واللغوي ألا يحفل بها عندما يريد أن يتعرف أصل اللغة العربية الفصحى . وإذن فنستطيع أن نقول أن الصلة بين اللغة العربية الفصحى التي كانت تتكلمها العدنانية واللغة التي كانت تتكلمها القحطانية في اليمن إنما هي كالصلة بين اللغة

العربية واي لغة اخرى من اللغات السامية المعروفة ، وان قصة « العاربة » و« المستعربة » وتعلم اسماعيل العربية من جرهم ، كل ذلك حديث اساطير لا خطر له ولا غناء فيه .

والنتيجة لهذا البحث كله تردتنا الى الموضوع الذي ابتدأنا به منذ حين ، وهو أن هذا الشعر الذي يسمونه الجاهلي لا يمثل اللغة الجاهلية ولا يمكن أن يكون صحيحا . ذلك لأننا نجد بين هؤلاء الشعراء الذين يضيفون اليهم شيئا كثيرا من الشعر الجاهلي قوما ينتسبون الى عرب اليمن الى هذه القحطانية العاربة أنتي كانت تتكلم غير لغة القرآن ، والتي كان يقول عنها أبو عمرو بن العلاء : إن لغتها مخالفة للغة العرب ، والتي أثبت البحث الحديث أن لها لغة أخرى غير اللغة العربية .

ولكننا حين نقرأ الشعر الذي يضاف الى شعراء هذه القحطانية في انجاهلية لا نجد فرقا قليلا ولا كثيرا بينه وبين شعر العدنانية . نستغفر الله ! بل نحن لا نجد فرقا بين لغة هذا الشعر ولغة القرآن . فكيف يمكن فهم ذلك أو تأويله ؟ أمر ذلك يسير ، وهو أن هذا الشعر الذي يضاف الى القحطانية قبل الاسلام ليس من القحطانية في شيء ، لم يقله شعراؤها وانما حمل عليهم بعد الاسلام لاسباب مختلفة سنبينها حين نعرض لهذه الاسباب التي دعت الى انتحال الشعر الجاهلي في الاسلام .

● طه حسين

المصدر : في الشعر الجاهلي ص ١ - ٢٠ ، طه حسين ، مطبعة دار الكتب المصرية
بالقاهرة ١٣٤٤ هـ - ١٩٢٦ م الطبعة الاولى .

نقض كتاب في الشعر الجاهلي

راي

حضرة صاحب الفضيلة مفتي الديار المصرية في هذا الكتاب

عبد الرحمن قراعة ١٨٦٢ - ١٩٣٩

اطلع على هذا الكتاب « نقض كتاب في الشعر الجاهلي » حضرة صاحب الفضيلة العلامة التحرير ، والقذوة الشهير ، مولانا الاستاذ المحقق الشيخ عبد الرحمن قراعة مفتي الديار المصرية فتفضل قلمه البليغ - أيده الله - بكتابة ما يأتي :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على سيدنا محمد رسول الرحمة ، وناشر لواء الحكمة وقائد انخلق الى الحق ، وعلى آله وصحبه ومن ثبتهم الله على الهداية بقوله الثابت الى يوم الدين ، فلا يضرهم من قبل ما قاموا من اهل العزم والبصيرة واليقين .

وبعد فان الباطل ما برح يحارب الحقيقة الاسلامية بسيوفه المفلولة وشبهاته الضئيلة ، ثم يرجع خائباً بغير جدوى . وقد عاد اليوم الى جولة يدفعه اليها نفر من المتأثرين بكتب الداعمين الى معاداة دين سيد المرسلين ، سقطوا على ما فيها من تضليل فالتفتوا منه ما راق لهم ، وظلوا يمرضونه على انظار قرائنا واسماع الطلاب من ابنائنا ، زاعمين انه بضاعة جديدة هي ثمرات قرائهم ونتائج افكارهم ، محاولين بذلك

تقويض بناء قامت فضائله الشامخة على أساس متين من الحقائق
الراسخة . فاستاء من عملهم هذا أهل العلم الصحيح والأدب الصريح .
ومن هذه الكتب رسالة عنوانها (في الشعر الجاهلي) عرف صاحبها
بالتعصب لكل ما فيه كيد للإسلام وحط من جلاله وفضائل عظمائه
وآله . وقد احتوت هذه الرسالة على مزاعم وأباطيل يجمعها كلها وصف
واحد هو الاستخفاف بالحقائق والتعصب لعقيدة خاطئة افتتن مؤلف
الرسالة بها . فانبرى له حضرة العالم المحقق والفهماء المدقق (السيد
محمد الخضر حسين التونسي من علماء الجامع الأزهر بمصر وجامع
الزيتونة بتونس) فحطل هذه الرسالة تحليلاً علمياً نزيهاً ، رد فيه ما انتطه
إلى أهله ، وعاد به إلى أصله ، ودحض الأباطيل بالأدلة الواضحة ، ونبه
إلى مغامر الكتاب المردود عليه ، ودل على المرامي التي يرمي إليها ، وأبان
عن مواطن ضعفه ومكامن سخفه . والعمري إنه قد خدم بهذا العمل
الجليل العلم المتين والأدب الرفيع خدمة تحول بها شر الكتاب المردود
عليه إلى خير . جزاء الله عن الدين والعلم والحق أفضل ما يجزي به
عباده الصالحين المخلصين . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ..

عبد الرحمن قراعه



بسم الله الرحمن الرحيم

محمد الخضر حسين ١٨٧٦ - ١٩٥٨

تمهيد :

نهضت الامم الشرقية فيما سلف نهضة اجتماعية ابتدأت بطلوع
كواكب الاسلام ، واستوثقت حين سارت هدايته سيرها الحثيث وفتحت
عيون هذه الامم في طريقة الحياة المثلى .

سادت هذه النهضة وكان لها الاثر الاعلى في الافكار والهمم والاداب ،
ومن فروعها نهضة ادبية لغوية جعلت تأخذ مظاهرها العلمية لعهد بني
امية ، واستوت على ساقها في أيام بني العباس .

امسك بيدك كتب التاريخ والادب ملتصقا بالحقيقة بلذكاء مؤزن
وقلب سليم ، فلا احسبك تصدر عنها الا بنفس مطمئنة لاجلال أوالك
الذين درسوا ادب اللغة وخاضوا في فنونه فامتعوا البحث ، وكانوا القدوة
الحسنة في حسن التصرف وحكمة البيان .

تمتع الشرق بنهضتيه الاجتماعية والادبية حقبا ، ثم واقف التعليم
عند غاية واخذ شائنا غير الشأن الذي تسمو به المدارك وتنمو به نتائج
العقول ، فاذا غفوة تدب الى جفون هذه الامم ولم تكد تستفيق منها الا
ويد اجنبية تقبض على زمامها .

هبء بعض اولي الحكمة منا يقلبون وجوههم في العلل التي مست
امم الشرق فقمعت بهم سنين عددا ، وبعثوا اقلامهم من مراقدها تصف
هذه العلل وتنذر الناس موتة الياس والجبن والخمول ، وتلقي عليهم
دروسا في اسباب الحياة ووسائل الخلاص .

التفت الشرق الى ما كان في يده من حكمة ، والى ما شاد من مجد ، والى من شب في مهده من اعظم الرجال . اخذ ينظر الى ماضيه ليميز ابناؤه بين ما هو تراث آبائهم وبين ما يقتبسونه من الغرب ، وليشعروا بما كان لهم من مجد سامخ فتأخذهم العزة الى ان يضموا الى التالد طريقا ، وليذكروا انهم ذرية اولئك السراة فلا يرضوا ان يكونوا للمستبددين عبيدا .

انشأ اولو الاحلام الراجحة من الزعماء والكتاب يأخذون بما يظهر من جديد صالح ولا ينكتون ايديهم من قديم نافع ، فاستطاعوا بهذه الحكمة والروية ان يسلكوا قلوب الامة في وحدة ، ويخطوا بها الى حياة العلم والحرية والاستقلال .

نظر الى هذه النهضة الزاكية من لا يرغبون في تقدم هذه الامم الى خلاصها ولو خطوة ، وعرفوا ان بأيدي هذه الامم كتابا فيه نظم اجتماعية وآيات تأخذ في شرط ايمانهم به الا يلينوا لسلطة شانها ان تسوسهم على غير اصوله ، فما كان من هؤلاء القوم الذين يستحلون إرهاب الامم الا ان يبتغوا الوسيلة الى فتنة القلوب وصرفها عن احترام ذلك الكتاب ، والغاية تقويض بناء هذه الوحدة السائرة بنا الى حياة سامية وعز لا يبلى .

فسقت طائفة عن ادب الاسلام ، وارفعت أقلامها لتعمل على هذه الخطة الخذلة ، غير مبالية بسخط الامة ولا متحرجة مما سينطق به التاريخ من وضع يدها في يد خفية لا شأن لها الا نصب المكاييد لامة كان لها العزم النافذ والكلمة العليا .

تلهج هذه الطائفة باسم حرية الفكر وهي لا تقصد الا هلكا الفن الذي اكبت عليه صباحها ومساءها وهو النيل من هداية الاسلام والفض من رجال جاهدوا في سبيله بحجة وعزم واقدام . ويكفي شاهدا على رياء هؤلاء الرهط انهم يقيمون ماتم يندبون فيها حرية الفكر ، ثم

ينصرفون ويقولون فيما يكتبون : للحكومة ان ترهق الشعب وترغمه على ما تراه امرا لا نقا . ولو سبق ظنك الى ان مؤلف كتاب في الشعر الجاهلي هو عينهم الناظرة وسهمهم الذي يرمون به في مقال امتهم الغافلة ؛ لخلت بينك وبين هذا الظن اذ ليس لي على هذه الظنون الغالبة من سبيل .

فالقلم الذي يناقش كتاب « في الشعر الجاهلي » انما يطل موطناً يفريظ طائفة احتفلت بهذا الكتاب وحسبته انطعنة القاضية على الاسلام وفضل العرب « ورد الله الدين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا » .

محمد الخضر حسين

المصدر : نقض كتاب « في الشعر الجاهلي » . تقديم مفتي الديار المصرية « عبد الرحمن قراة » . مقدمة المؤلف : محمد الخضر الحسين . عنيت بنشره المطبعة السلفية ومكتبتها - القاهرة ١٣٤٥ هـ (١٩٢٦ - ١٩٢٧ م) .

(منهج الدكتور طه حسين العلمي في البحث)

للاستاذ الشهير صاحب الامضاء

محمد عرفة ١٨٩٠ - ١٩٧٣

اظن ان الصحف لا تأبى عليّ نشر هذا النقد للشعر الجاهلي للدكتور طه حسين وان ليس لاحد سبيل عليها اذا نشرته لانه لا يتعلق بدينه ولا باثبات كفره بما كتبه في الشعر الجاهلي ولا باثبات انه طعن في الدين الاسلامي الذي تقام شعائره في مصر فيكون مستحقا للعقوبة المنصوص عليها في القانون المصري . وانما هو مناقشة هادئة علمية محضة في المنهج الذي اصطنعه الدكتور في البحث في الشعر الجاهلي يتبين منها اهله المنهج الذي سلكه في البحث علمي منطقي يرضى عنه العلم ام هو منهج خاطيء لا يحترمه العلم ويحتقره المنطق ويرى انه من المغالطات .

إننا سنحاول ذلك وستكون النتيجة كما سيراها القاريء ان منهج الدكتور في البحث من ضلالات العقول ومغالطات الوهم ، وانه ليس يسلك هذا المنهج الا الذين لم يمارسوا صناعة المنطق ولم يملوا على صناعة البرهان ، وكانوا سطحيين في بحوثهم لم يتعمقوا الى الغور ، ولم يبعدوا البرمي ، وفرضنا من ذلك أمور ثلاثة :

(أولا) ان تسقط دعوى الدكتور طه حسين بأن ما سلكه في البحث منهج علمي حديث وانه بذلك يحشر نفسه في زمرة العلماء حشراً في عداد (٤) المخترعين والمبتكرين والمستكشفين وليس يعلم إلا الله ما ينال هؤلاء العلماء من الأذى في مضاجعهم بانتساب الدكتور اليهم وحشره نفسه قسراً في زمرةهم .

(ثانيا) ان احمي شباب مصر من عدوى ذلك المنهج ومن ان يتاثروا
الدكتور في طرائقه الفكرية . فان مستوى البحث في مصر لما ينضج بعد ،
وذيوع امثال طرائق الدكتور مما يكون ضغنا على ابلالة .

(ثالثها) ان يعلم الذين يدينون بالاسلام في مصر ان دينهم لم يصادمه
علم ولا عقل كما يدعي الدكتور ويفتري ، وحاشا الاسلام ان يصادمه
علم او عقل ، وانه اذا كان ثم ما يصادمه فليس العلم والعقل وإنما هو
الجهل المخزي والباطل الشائن والعقل الفج الذي لم يستكمل بعد
شرائط الانتاج - سيء ذلك الدكتور طه حسين ولا يرضيه ، ولكنني
لست اتوخى رضاه ولا اتحرز من مساعته وإنما اتوخى رضى الحق
واتجنب مساء الصواب . فاما من عداها فلا علي ان يكونوا غاضبين
وليس يدخل في غرضي ان يقتنع الدكتور طه حسين فانه ليس ممن يرجى
منهم اقتناع فانه ليس طالب حق وإنما هو طالب رواج . وليس ممن يعنيه
الصواب وإنما ممن يعنيه الريح ، فهو كالتاجر همه ان تروج بضاعته
لا ان تنقد فيعلم جيدها من رديتها ، وكما ان التاجر اذا بصرتة عيب
بضاعته ناكرك وجاحدك ، كذلك الدكتور اذا المسته عيب ما يقول بيده
جحد واستكبر ، لان ذلك يقف دون رواجه وربحه - وياهما يريد (١) .

ان الذي افسد على الدكتور امره اعتقاده ان امته امية فهو يلقي
اليها مباحثه على عواهنها الا يعني بتمحيصها ونفي الزائف عنها ، عالما
بانه ليس عندها من ملكة النقد ما يبين عيبه ويظهر شينه ، وقد مد له
له في هذا الاعتقاد انه يرى المعجبين برأيه والمقرظين لعلمه (٢) مهما كان
فيه من الباطل والخطا .

الا فليعلم الدكتور بعد انه ليس ينشر بحوثه في امة وحشية متبدية
كقبائل الزنوج وإنما هو ينشرها في امة متحضرة متمدينة ضربت في العلم

(١) انار : هذا الحصر خطأ بين فان مطلب الرجل الاول صرف الناس من الدين
وحملهم على الالحاد والزندقة وفرضه الاول من هذه الشهرة بالفلسفة والتزلف
للافرنج وإنما رواج الكتاب وربحه ففرض ثالث ان صح ان يكون على حقارته فرضا .

بسهم وأخذت منه حظا ، وإن بني قومه فيهم من ينقدون الآراء ويعلمون بحقها من باطلها ، ويعلمون المغالطات مهما بولغ في تزيتها ، وأنهم لم تستعص عليهم نحل الفلاسفة ومعتقداتهم في الآلهيات والأخلاق والسياسة والاجتماع فنقدوها ، وعلموا زائفها من خالصها ، فكيف تستعصي عليهم آراء سطحية تتعلق بتاريخ أو شعر ؟ وأنهم إن كانوا قليلا ففي استطاعة هؤلاء القليل أن يبينوا لجمهرة الأمة عشرات الآراء والكبوات الألفهام .

جاء شقيق عارضا ومعه أن بني عمك فيهم ومناح

نفى الدكتور طه حسين في الفصل الذي عنوانه (الشعر الجاهلي واللغة) وجود إبراهيم وإسماعيل وبناءهما الكعبة وهجرتهم إلى مكة وتعلم إسماعيل العربية من العرب العاربة الذين هم من قحطان وإن كان قد ورد ذكرهما في التوراة والقرآن . نفى ذلك الدكتور وليس له اختيار في هذا النفي لأنه مضطر أمام الدليل القطعي ، والدليل الذي اضطره إلى ذلك هو أنه ثبت أن لغة قحطان أي لغة جنوب جزيرة العرب تخالف اللغة التي يتكلم بها أهل الحجاز فنسبتها إلى اللغة العربية كنسبة بين اللغة العربية وبين أي لغة سلمية ، فإذا كانت هذه القصة صحيحة وكان إسماعيل وبنوه قد تعلموا العربية من القحطانية ، فكيف بعد ما بين اللغة العربية والمدنانية واللغة القحطانية ؟

نحن إذن بين امرين إما أن نقبل هذه القصة ونرفض ذلك الدليل القطعي أو العكس ، ولا مندوحة تجوز رفض الدليل القطعي فلا بد من رفض هذه القصة وإنكارها والادعاء للدليل القطعي : ننكرها بجملتها فلم يوجد إبراهيم وإسماعيل فضلا عن بناءهما الكعبة وهجرتهم إلى مكة وتعلم إسماعيل العربية من القحطانية ، ونحن مضطرون إلى ذلك وإن حدثنا القرآن والتوراة عنهما فإن ورود هذين الاسمين فيهما لا يكفي لوجودهما التاريخي .

هنا دليل الدكتور وسنبدا في مناقشته قبل الدخول في تفصيلات المناقشة — نذكر مقدمة ينبغي أن تعلم وهي أن القرآن لم يعرض لحديث

تعلم اسماعيل العربية من قحطان وانما الذي عرض له وجودهما وهجرتهما وبنائهما الكعبة ، وانما الذي عرض لتعلم اسماعيل العربية من القحطانية هم مؤرخو اللغة . وبعد فسنسلم للدكتور جدلا كل ما قاله عن البعد بين القحطانية والمدنانية بعدا يجعلهما لغتين مستقلتين ومن انه لو تعلم اسماعيل من القحطانية كانت اللغتان متفقتين أو متقاربتين .

ولكننا نقول له ان دليلك لا ينفي الا ان اسماعيل تعلم اللغة العربية من القحطانيين فاما وجودهما وهجرتهما الى مكة وبنائهما الكعبة وهي الامور التي عرض لها القرآن فلا ينفىها ولا يتعرض لها ، فمما يتفق مع دليلك ان يكون ابراهيم واسماعيل قد وجدا وهاجرا الى مكة وبنيا الكعبة وتعلم اسماعيل وابناؤه العربية من غير القحطانيين من العرب الذين خلقهم الله ان يتكلموا العربية الحجازية التي بقيت الى مجيء الاسلام ، فالدليل القطعي لا ينفي الا شيئا واحدا وهو تعلم اسماعيل وبنيه العربية من القحطانية ، فمن الواجب ان يقتصر به على ذلك ولا يغدي الى القصة جميعها فينفىها اذ لا منافاة بينه وبين بقيتها . ومثل الدكتور في ذلك مثل من يسمع مؤرخين احدهما اللورد كتشنر كان عميد الدولة البريطانية في مصر والآخر يقول انه كان عميدها في مصر سنة ١٩٢٠ فيقول : ان التاريخ يفيد ان اللورد كتشنر فرق في زمن الحرب العظمى التي انتهت قبل هذا التاريخ فما قاله المؤرخان كذب ولم يكن اللورد كتشنر عميدا لانكلترا في مصر وقتا ما . كذب المؤرخين واكذب القصة جميعها والواقع المنطوق لنفي كونه عميدا في زمن سنة ١٩٢٠ ولم يعد النفي الى كونه عميدا ولم يكذب القرآن فيما قاله وهو لم يعرض لما نفاه الدليل وانما عرض لغيره .

فيلادكتور دليلك اقصر من دعواك : انت تدعي نفي وجود ابراهيم واسماعيل وهجرتهما الى مكة وبنائهما الكعبة وتعلم اسماعيل العربية من القحطانية ، ودليلك انما ينفي الاخير وهو تعلم اسماعيل العربية من القحطانية ، فاما ما عدا ذلك فلا ، ويسمي علماء المناظرة ذلك بمنع التقريب والتقريب الدليل على وجه يستلزم المطلوب ، ويقولون في مثل ذلك

ان التقريب غير مسلم أي انك سقطت الدليل على وجه لا يستلزم المطلوب
فمثلك مثل من ادعى ان هذا الشبح انسان ويستدل على هذه الدعوى
بانه متحرك بالارادة وكل متحرك بالارادة حيوان ، نعم الدليل مسلم
ولكنه لا يستلزم المطلوب وهو انه انسان .

فالمنطق يأمرنا اذا نفى الدليل شيئا ان نقصره على ذلك الشيء ولا
نعديه الى ما عداه ، وقد رأيت في مثال اللورد كتشنر كيف نخطيء اذا
عدينا النفي الى غير ما قام عليه الدليل - ولو اردنا ان نصوغ دليلك
في قالب منطقي لكان هكذا : لو كانت 'الحجازية' اصلها القحطانية لما بعد
ما بينهما هذا البعد لكنهما متباعدتان ، اذن فليست الحجازية اصلها
القحطانية ، هذه النتيجة فقط ولكنك تريد فيها ما يأتي : لم يوجد
ابراهيم واسماعيل ولم يبنيا الكعبة ولم يهاجرا الى مكة . وهذا هوس
ليس منطقيًا ويظهر ان الدكتور طه علم ان دليله لا ينتج عن تكذيب القرآن
فيما ذكره فلم يرتب التكذيب على الدليل ولم يقل (واذن) التي يستعملها
دائما في كلامه وقال فواضح جدا لكل من له الملم بالبحث التاريخي عامة
ويدرس الاساطير والقصص خاصة ان هذه النظرية متكلفة مصطنعة في
عصور متأخرة دعت اليها حاجة دينية ، او اقتصادية ، او سياسية .
وهو بين شرين لا مفر منهما اما ان يكون اجترا على تكذيب القرآن في
وجود ابراهيم واسماعيل بدون دليل وليس بيده الا قوله فواضح جدا -
وحينئذ تكون دعوى لا دليل عليها ، والدعوى ان لم تقم عليها بينة لم
يعبأ بها واما ان يكون قد كذب القرآن بذلك الدليل ، وقد علمنا انه اقصر
من دعواه ولا ينتج تكذيب القرآن .

هذا وقد رأى القراء اننا لم نناقش الدكتور على قاعدة ان القرآن
نص يقيني وهو حجة على كل ما خالفه ، وانما ناقشناه على قاعدة
انه نص تاريخي كنص أي مؤرخ من البشر تنزلا منا ، وبيننا له ان دعواه
لم تتم لان الدليل العقلي الذي استعمله لا ينهض فلم تلزمه بنصوص
الدين لئلا يقال ان ذلك لا يلزمه الا المتدين وانما الزمناء بالدلة العقلية
المشتركة للانسانية كلها من تدين ومن لم يتدين ولا يظن ظان ان ادلة

الدكتور الحديثة تقف عند هذا الحد من العبث والبطلان ، بل ان لها لونا آخر من اللون العبث والبطلان وهو ما سنبينه .

يزعم الدكتور طه ان قصة ابراهيم واسماعيل موضوعة وضعها اليهود لغرض وهو انهم كانوا يريدون ان يثبتوا القرابة بينهم وبين العرب ليعيشوا معهم عيشة راضية وقبلتها مكة لغرض سياسي وديني لانهم كانوا يريدون ان يتصل نسبهم باصل من تلك الاصول المأجدة ، وقبلها الاسلام لغرض ديني . وهو انه يريد ان يثبت صلة بينه وبين اليهودية .

هكذا زعم الدكتور وليس معه نص تاريخي يفيد ذلك . وليس بيده الا ان ذلك يمكن ان يكون قد كان ، واذا تصور على هذه الحال كان منسجما ونحن نقول له يا دكتور ان التاريخ لا يثبت بمثل ذلك وليس كل ما يمكن ان يكون قد كان يجب ان يكون قد كان ، ولا يثبت الامر بان هذه العلة يجوز ان تكون له . وان مثلك في ذلك مثل مؤرخ يأتي بعد مائتي سنة يقول : يزعم المؤرخون ان امريكا اشتركت مع فرنسا في حرب المانيا في الميدان الغربي ، وهذا باطل فاين امريكا من فرنسا ان بينهما المحيط الاطلانطقي على سمته . القصة مكذوبة وقد اخترعها بعض الامريكان ليقرب الشعبين الامريكي والفرنسي بعضهما من بعض ، ان هذه القصة تفيد انهما حاربا معا جنبا لجنب عدوا مشتركا فهي تدعو الى تآلف الشعبين فقد وضعت لذلك ، وان الذي يدعو الى ان توضع علوم الاوائل كلها موضع الشك ولا يثبت الا ما قام العلم على اثباته لا يسوغ له ان يطلب منا الاقتناع بمثل هذه الظنون والافهام وليس عنده من الحجة الا ان ذلك يمكن ان يكون قد كان ، فيجب ان يكون قد كان اللهم الا اذا كان يدعو الى رفض تقليد الماضين الى تقليده هو ، وان قارئ كتابه يحتاجون الى مقدار عظيم من البلاهة والعمالة حتى يقتنعوا بامثال تلك الحجيج التي هي كما قل الاول .

حجج تهافت كالزجاج تخالها حقاً وكل كاسر مكسور

اذا اراد الدكتور ان يقنع الامة بكتابه فعليه اولا ان يبدأ بالغاء مقولها

وعكس منطقها السليم ، وإحالة تلك العقول عن فطرتها ، حتى يكون على غرار عقله . ثم يلقي إليها بعد أمثال تلك الاوهام وحينئذ تقنع بها وتصدق ويتم له ما يريد ولكن : دون ذلك وينفق (١) .

الا لا يقولان الدكتور بعد اليوم : المنهج العلمي الحديث ولا البرهان العامي ، ولا يتمسحن باعتاب العلماء ، فقد اطلعنا القراء على قيمة نهجه الحديث ومنطقه الجديد فعلموا ان ذلك ليس منطق العقلاء وانما هو منطق البله والاضمار والمرودين .

وبعد فكتاب الشعر الجاهلي ان كان ألفه مؤلفه كتابا في المغالطات ، وأمثلة على القياس الذي لم يستكمل شروط الانتاج ، والاضرب العقيمة والحجة الخداج ، فهو كتاب جيد في بابه واف بالفرض الذي قصد اليه . وان كان ألفه مؤلفه كتابا في تاريخ الشعر والادب فليس من ذلك في قليل ولا كثير .

ولو ان في بلدنا مجمعا علميا منظما لحكمته بيني وبين الدكتور ولرضيت حكمه فيما رميت به دعوى الدكتور من انها دعوى يقيم عليها ادلة اقصر منها تارة ، ويدعيها بدون برهان تارة ، ويثبت الشيء بانه ممكن تارة اخرى ، وكان من وراء ذلك التحكيم الخير ، فانه اذا حكم علي تواريت خجلا وارتحت الناس من سماع هذا النقد وامثاله ، واذا حكم على الدكتور حمى شباب الامة من التورط في آرائه وحماها ايضا من عدوى ذلك المنهج الخاطيء في البحث - اما والبلد ليس فيها مثل المجمع فادعو المشتغلين بالمتطرق ان يبدووا آراءهم فيما بيني وبين الدكتور من خلاف ، انهم ان فعلوا ذلك خدموا العلم والحقيقة ومن اولى من هؤلاء بخدمة العلم المظلوم والحقيقة المهينة .

محمد عرفة
استاذ بمعهد الاسكندرية

(١) تنمة المثل وينفق الحمار - والامثال لا تفر وما كل قارىء يعرف المثل فتفنيه النقط عن ذكر الحمار المراد بنفاقه نفاق كتاب الدكتور .

(المنار) قد بينت في مقالي الذي نشرته في الجزء الماضي طريقة الدكتور طه حسين في البحث والاستدلال في قواعد بسط الاستاذ الشيخ الشيخ محمد عرفة غراب الكلام على اثنتين منها وهما الدعوى بدون دليل والاستدلال بما لا يدل على المطلوب ، وهو ضرب من المغالطة الواضحة وقد كبر من شأنها بتمنيه عرضها على مجمع علمي لو وجد أو بعرضها على المشتغلين بعلم المنطق ليعلم ايهما الخاطيء في البحث ، وحسبنا من علم الجمهور - اهل المنطق الفني ومن دونهم من اهل المنطق الفطري - بسفسة الدكتور ومغالطاته انه لم يدافع عنه احد من الملاحدة ولا اعضاء جمعيته وحزبهم ولا قرضوه ولا اثنوا عليه كما فعل بعضهم بالدفاع عن علي عبد الرازق اذ كان احق منه في المغالطة والسفسة .

نعم ان بعض التلاميذ والموام قد يفترون بخلاسته فالواجب بيان ضلاله واضلاله في مسائل الكتاب لا في الاستدلال عليها فقط .

المصدر : مجلة المنار ج ١٠ مجلد ٢٧ يناير ١٩٢٧ .
ملاحظة : الملاحظات والمقالات الموقعة باسم المنار هي بقلم صاحب « المنار » الشيخ محمد رشيد رضا (١٨٦٥ - ١٩٣٥) م . هـ .

نقد كتاب الشعر الجاهلي

محمد فريد وجدي ١٨٧٨ - ١٩٥٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله محمد خاتم
النبيين ، وعلى اخوانه المرسلين ، وآله وصحبه وتابعيه الى يوم الدين .

مقدمة الكتاب

اما بعد فقد قرأت في الجرائد منذ شهور ، تقاريظ لكتاب وضعه
الاستاذ الدكتور طه حسين ، اسماء (في الشعر الجاهلي) ، فقلت في نفسي
مدرس الآداب العربية ، في الجامعة المصرية اراد ان لا يقصر ثمره جهوده
العقلية على تلاميذه ، فنشرها ليستفيد منها الكافة ، فحبذا لو احتذى
مثاله جميع المدرسين . ولكنني لم ألبث ان قرأت فصولا ضافية الديول
لبعض شيوخ الادب في المدارس المصرية ، يشنون فيها على هذا الكتاب
حربا طاحنة ، تذهب باليابس والاخضر ، باعتبار أنه قد استطرد الى ذكر
مسائل اتبع فيها غير سبيل المؤمنين ، بل جحد بعض ما نص عليه الكتاب
المبين . لم تمض غير ايام حتى قرأت في الجرائد ان علماء الجامع الازهر
قد اجتمعوا وقرروا ان في كتاب الدكتور طه حسين كفرا صريحا ، وطالبوا
الحكومة بمصادرته ، ومنع مؤلفه عن التدريس ، كيلا يفتن نابتة الامة
بما يبثه فيها من الاضاليل . وبينما الناس ينتظرون جواب الحكومة اذا
بالدكتور يعلن انه لم يقصد الطعن في الدين ، وانه يؤمن بالله وملائكته وكتبه
ورسوله واليوم الآخر الخ الخ .

هذه الحطقات المتصلة من الحوادث التي اثارها هذا الكتاب حفزتني الى الاطلاع عليه . فرايت فيه اخطاء اجتماعية وبسيكولوجية وفلسفية لا يصح السكوت عليها ، والفتيت الدكتور لاضطراره الى تصيد الاسباب التي حملت ذوي النفوس المريضة على اختلاق الشمر ونسبته الى الجاهليين ، قد عول على كتب المحاضرات ، وهي قرارة الاكاذيب ، ومستنقع المقتریات من كل نوع . فجاء كتابه بما حمل من اوزار المفترين ، وبما غلا هو فيه من تقصي اقراءات المتناظرين ، وتسويلات المتنافسين ، من القادة الاعلى ، طامسا معالم اكبر ثورة اجتماعية حدثت في العالم ، الا وهي ظهور الديانة الاسلامية ، وما استتبع انتشارها من سقوط دول وقيام دول ، وفناء لغات وشعوب في لغات وشعوب ، وتبدل مبادئ واصول بمبادئ واصول ، وطروء عهد جديد على الانسانية انتقلت به درجات كثيرة في معارج العلم والفلسفة والاخلاق وال عمران .

لا ندعي هنا ان الدكتور طه حسين قصد الي تشويه جمال هذه الثورة الكبرى في كتابه ، ولكنه بغلوه في تحري اسباب الاختلاق ، على الجاهليين التقط من كتب المحاضرات جميع ما فيها مما يتعلق بالاختلاق ، وبالعوامل التي حملت عليه ، وبالمطامع التي دفعت اليه ، ولم يسر على ذلك ما يقتضي به عليه مذهب ديكارت من النقد والتمحيص ، بل وثق به ثقة مطلقة حملته على اصدار الاحكام جزافا في تركيب المسلمين الاولين ، وتاليف مجتمعاتهم ، مما لا يتفق واثار هذه الثورة التي قاموا بها في عالم الاجتماع والعلم والمدينة ، ولا يتلاءم وما اعترف به عنها خصومها ومناظروها قديما وحديثا .

فبينما علماء الغرب لا يتمالكون انفسهم من الدهش من قوة هذه الحركة الاجتماعية التي انبعثت من بلاد العرب فجأة فرجت العالم كله رجاء اذهلته عن كل شيء الا عنها ، ولا يزال دريها يرن في آفاقه ، يصعب علينا ان نرى واحدا منا يضع كتابا بالفرض قليل الخطر ، هو اثبات ان الشمر الجاهلي مخترق ، يكون اثره على قارئه ان يحتقر هذه الثورة الكبرى ، ويستخف برجالها ان الذين اخذوا حظا من تمثيلها ، والاضطلاع باعبائها ، وقد اتمت العالم ببركات لا يزال يعترف لها بها الى اليوم .

فاذا كان الانجليزي يفخر بأن آبائه كانوا اول من فكر في وضع حد لحكم الفرر ، واذا كان الفرنسي يفخر بأن اسلافه اول من فكر في تعيين حقوق الانسان الطبيعية ، فهلا يفخر المسلمون بان اوائلهم كانوا بايعاز من دينهم او من اعلن الناس كافة بأن الانسانية قد بلغت سن الرشد ، وانها أصبحت لا يصح ان تخضع لطوائف تنتحل لنفسها حق الوصاية عليها ، وان السلطان للجماعة لا للفرد ، وان الممول على العقل لا على الموروثات ، وان الايمان بالدليل لا بالتقليد ، وان التمايز بالمزايا لا بالجنسية ولا بالقومية ، وان الحكم بالشورى لا بالاستبداد ، وان الدين هو الفطرة التي فطر الله النفوس عليها ، لا الرسوم ولا الاشكال التي يزينها الوهم ويولدها الخيال ، وان اصل كل الاديان واحد ، وما فرق الناس شيئا واحزابا إلا قادتهم بما صوروه لهم من الاباطيل والاضاليل الخ ، قلت فهلا يفخر المسلمون بهذه العراقة في الاصول العالية مع الفاحرين . ويتحققون ان لهم اكبر اثر في ترقية الانسانية مع العاملين ؟

اني ما كدت اتم قراءة كتاب الدكتور طه حسين حتى وجدتني مدفوعا لوضع نقد عليه استهدف به غرضين : (اولهما) مناقشته في المسائل التي تتعلق بتكوين الامة الاسلامية ، ولا يتفق حكمه فيها والمقررات التاريخية ، ولا الاصول الاجتماعية ، وارى الاغضاء عنها ضارا كل الضرر بنابذة هذا الجيل ، وهم في هذا الدور من الانتقال السريع .

(وثانيهما) مقابلة اول ثمرات الجامعة المصرية بما تستحقه ، من العناية ، وهذه العناية لا تعنى في عالم العلم غير النقد والتمحيص .

فالله ارجو أن يجعل عملي هذا خالصا من شوائب المراءاة والمماراة وان ينفع به الناس انه الموفق للهداية ، المعين على بلوغ الكفاية .

● محمد فريد وجدي

المصدر : نقد كتاب الشعر الجاهلي . مقدمة الكتاب تأليف محمد فريد وجدي ، مطبعة دائرة معارف القرن العشرين . القاهرة الطبعة الاولى ١٩٢٦

الاحاد في الجامعة المصرية

الدكتور طه حسين المتخرج من الجامعة المصرية والمدرس بها القى محاضرات فيها وجمعها في كتاب سماه « الشعر الجاهلي » وقد طعن فيه على الاسلام والقرآن ، فهاج الرأي العام ، وتناول كتابه الادباء والكتاب ، بالرد والتفنيد وقد كلف فضيلة شيخ الازهر ورئيس المعاهد الدينية لجنة من علماء الازهر بالنظر في الكتاب ووضع تقرير عنه فقامت بذلك ورفعت لفضيلته التقرير الاتي :

وهذا نصه كما جاء في مقطع يوم الاحد ٢٦ شوال سنة ١٣٤٤ .

كتاب الشعر الجاهلي

رأي لجنة العلماء فيه

حضرة صاحب الفضيلة مولانا الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الازهر .

السلام عليكم ورحمة الله .

وبعد فقد اجتمعت اللجنة المؤلفة بأمر فضيلتكم من الموقعين عليه لفحص كتاب طه حسين المسمى « في الشعر الجاهلي » بمناسبة ما قيل عنه من تكذيب القرآن الكريم واطلعت على الكتاب وهذا ما ترفعه الى فضيلتكم عنه بعد فحصه واستقراء ما فيه .

يقع الكتاب في ١٨٣ صفحة وموضوعه انكار الشعر الجاهلي وانه منتحل بعد الاسلام لاسباب زعمها - وقال انه بنى بحثه على التجرد من كل شيء حتى من دينه وقوميته عملا بمذهب (ديكارت) الفرنسي . والكتاب كله مملوء بروح الالحاد والزندقة ، وفيه مغامر عديدة ضد الدين مبثوثة فيه ، لا يجوز بحال ان تلقى الى تلامذة لم يكن عندهم من المعلومات الدينية ما يتقون به هذا التضليل المفسد لعقائدهم ، والموجب للخلف ، والشقاق في الامة ، واثارة فتنة دينية ضد دين الدولة ودين الامة .

وترى اللجنة انه اذا لم تكافح هذه الروح الالحادية في التعليم ، ويقتلع هذا الشر من أصله ، وتطهر دور التعليم من (الالادينية) التي يعمل بعض الافراد على نشرها بتدبير واحكام تحت ستار حرية الرأي اختل النظام وفشت الفوضى واضطرب حبل الامن لان الدين هو أساس الطمأنينة والنظام .

الكتاب وضع في ظاهره لانكار الشعر الجاهلي ، ولكن المتأمل قليلا يجده دعامة من دعائم الكفر ، ومعولا لهدم الاديان ، وكأنه ما وضع الا ليأتي عليها من اصولها وبخاصة الدين الاسلامي ، فانه تذرع بهذا البحث الى انكار اصل كبير من اصول اللغة العربية من الشعر والنثر قبل الاسلام مما يرجع اليه في فهم القرآن والحديث . هذا ما يرمي اليه الكتاب في جملة : ولندكر نبذاً منه بعضها كفر صريح ، وبعضها يرمي الى الالحاد والزندقة فتقول :

قال في صفحة ٢٦ ما نصه (للتوراة ان تحدثنا عن ابراهيم واسماعيل) وللقرآن ان يحدثنا عنهما ايضاً ، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لاثبات وجودهما التاريخي فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة اسماعيل ابن ابراهيم الى مكة) .

انكر المؤلف بهذا هجرة (١) سيدنا ابراهيم مع ولده اسماعيل عليهما

(١) عبارة المخلول نص في انكار ابراهيم واسماعيل انفسهما فضلاً عن هجرتهما فلماذا يذكر التقرير انكاره لهجرتهما فقط ويسكت عن انكاره لوجودهما . هذا وانكار ابراهيم واسماعيل مصادمة صريحة للكتب السماوية والشرائع الالهية وللتواتر والتاريخ .

« النار »

السلام . وقال : ان ورد هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لاثبات وجودهما التاريخي وهو تكذيب صريح لقول الله تعالى في سورة ابراهيم حكاية عنه عليه الصلاة والسلام (وإذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنيتي أن نعبد الاصنام ، رب انهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ، ومن عصاني فإنك غفور رحيم * ربنا اني أسكنت من ذريتني بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكروا) . وقال في الصفحة نفسها (ونحن مضطرون الى أن نرى في هذه القصة - يريد قصة الهجرة - نوعاً من الحيلة لاثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة ، وبين الاسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى) .

وهو في هذا النص يصرح بأن القرآن اختلق هذه الصلة بين اسماعيل والعرب ليحتال على جلب اليهود وتأييدهم ، ولينسب العرب الى اصل ماجد نوراً وبهتاناً لأسباب سياسية أو دينية ، وهذا من منتهى الفجور والفحش ، والطعن على القرآن الكريم في اثباته أبوة ابراهيم للعرب في قوله تعالى (وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم : الآية)

وقال في صفحة ٢٧ (وقد كانت قريش مستعدة كل الاستعداد لقبول مثل هذه الاسطورة - الهجرة المذكورة - في القرن السابع للمسيح الى أن قال في صفحة ٢٨ اذا فليس ما يمنع قريشاً من أن تقبل هذه الاسطورة التي تفيد أن الكعبة من تأسيس اسماعيل وابراهيم كما قبلت روما قبل ذلك ، ولأسباب مشابهة اسطورة أخرى صنعتها اليونان تثبت أن روما متصلة بابننياس بن بريام صاحب طرواده ، أمر هذه القصة إذا واضح فهي حديثة العهد قبل الاسلام ، واستغلها الاسلام لسبب ديني ، وقبلتها مكة لسبب ديني ، وسياسي أيضاً . وإذا فيستطيع التاريخ الادبي واللغوي ألا يحفل بها عندما يريد أن يتعرف اصل اللغة العربية الفصحى) وهو تكذيب صريح لقول الله تعالى (وإذ بوأنا لابراهيم مكان البيت ألا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود ، وأذن في الناس

بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من فج عميق) وقوله تعالى (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ، وعهدنا الى إبراهيم واسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والراكع السجود) الى غير ذلك من الآيات التي في هذا الموضوع وهو فوق تكذيبه للقرآن يقول ان فيه تدليسا واحتيالا لاسباب سياسية ودينية من أجلها اختلق هذه الاخبار - بهذا وامثاله يقرر المؤلف أن القرآن لا يوثق بأخباره ولا بما فيه من التاريخ .

واكم يترك هذا الكفر الفاحش في عقول الطلبة من اثر سيء ؟ وهدم لعقائدهم ودينهم ، وماذا بقي : القرآن من ثقة وحرمة في نفوسهم بعد هذا التكذيب .

واقال في صفحة ٣٣ (وهناك شيء بعيد الاثر لو أن لدينا أو لدى غيرنا من الواقت ما يمكننا من استقصائه أو تفصيل القول فيه ، وهو أن القرآن الذي تلي بلغة واحدة ، ولهجة واحدة هي لغة قريش ولهجتها ، لم يكد يتناوله القراء من القبائل المختلفة حتى كثرت قراءاته ، وتعددت اللهجات فيه ، وتباينت تباينا كثيرا الى أن قال : انما نشير الى اختلاف آخر في القراءات يقبله العقل ويسيفه النقل ، وتقتضيه ضرورة اختلاف اللهجات بين قبائل العرب التي لم تستطع أن تغير حناجرها ، وألسنتها ، وشفاهها لتقرأ القرآن كما كان يثلوه النبي وعشيرته من قريش فقراءته كما كانت تتكلم الى آخر ما قال .

وهذا تصريح منه بأن القراءات لم تكن منقولة كلها عن النبي صلى الله عليه وسلم ، بل هي من اختلاف لهجات القبائل ، فالسبع المتواترة ليست عنده واردة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ومعلوم في اصول الدين ان السبع متواترة ، وان طريقها الوحي فمكروها كافر .

وعدا ما سردناه توجد صحائف عديدة فيها مغلز مؤلة منها ماقاله في صفحة ٨١ (وشاعت في العرب اثناء ظهور الاسلام وبصده فكرة ان الاسلام يجدد دين ابراهيم) وفي الصفحة التي قبلها (أما المسلمون فقد

ارادوا ان يثبتوا للاسلام اولى في بلاد العرب كانت قبل ان يبعث النبي ،
وان خلاصة الدين الاسلامي وصفاته هي خلاصة الدين الحق الذي
اوحاه الله الى الانبياء من قبل) وهو في هذا يكذب قوله تعالى (ثم اوحينا
اليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين) وقوله تعالى
(ان اولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا)
الى غير ذلك من الآيات الكثيرة في هذا الموضوع ، ومنها غير ذلك كثير مما
هو مبثوث في الكتاب .

ولا ريب في ان هذا هو عين ما كان يطعن به المشركون على القرآن في
مبدأ امره قال تعالى في سورة الفرقان (وقال الذين كفروا ان هذا الا فك
افتراه واعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا وقالوا اساطير
الاولين اكتتبتها فهي تملي عليه بكرة وأصيلا) .

فاللجنة ترفع الى فضيلتكم ما وصلت اليه على سرعة من الوقت مما
سطره المؤلف من الكفر الصريح ، وتترك ما ينطوي في ثناياه من الاسلحة
والزندقة مما لا يخفى على الناظر .

نرفعه مطالبين فضيلتكم والحكومة بوضع حد لهذه الفوضى اللاحادية
خصوصا التي تنبت في التعليم لهدم الدين بمعول الزندقة كل يوم فما
نفرغ من حادثة الا ونستقبل حوادث لا تدع المؤمن مطمئنا على دينه .

نطالب فضيلتكم والحكومة بذلك حرصا على ابناء الدولة ان يتغشى
هذا الداء فيهم وهم رجال المستقبل ، وسيكون بيدهم الحل والعقد في
مهام الامور .

ونحن لا نفهم كيف تصرف اموال المسلمين واقافهم على تعليم نتيجه
هذا الالحاد الذي يبثه هذا الداعي ويتقاضى عليه مرتبا ضخما من هذه
الاموال .

وهل بهذه الطريقة وعلى هذا النحو تخدم وزارة المعارف ابناء الامه ورجال
الغد وهبني صرح التعليم والترقية ؟

نسأل الله أن يوفقكم لما فيه المصلحة والسلام .
٢٦ سوال سنة ١٣٤٤

الإمضاءات

محمود الديناري . عبد المعطي الشرشمي . محمد عبد السلام القباني
عبد ربه مفتاح . عبد الحكم عطا . محمد هلالى الابياري . عبد الرحمن
المحلاوي . محمد علي سلامة .

المصدر : مجلة المنار ج ٢ المجلد ٢٧ . ١٢ مايو ١٩٢٦ .

تحت رؤية القرآن : المعركة بين الجديد والقديم

مصطفى صادق الرافعي

تنبیه

نلفت القراء الى اننا في هذا الكتاب انما نعمل على اسقاط فكرة
خطرة ، واذا هي قامت اليوم بفلان الذي نعرفه فقد تكون غدا فيمن
لا نعرفه ، ونحن نرد على هذا وعلى هذا برد سواء ، لا جهلنا من نجهله
بلطفه منه ، ولا معرفتنا من نعرفه تبالح فيه .

والفكرة لا تسمى بأسماء الناس ، وقد تكون لالف سنة خلت ثم
تعود بعد ألف سنة تأتي ، فما توصف من بعد الا كما وُصفت من قبل
ما دام موقعها في النفس لم يتغير ، ولا نظنه سيأتي يوم يذكر فيه
إبليس فيقال : رضي الله عنه .

ونحن مستيقنون أن ليس في جدال من نجادلهم عائدة على انفسهم ،
إذ هم لا يضلون الا بعلم وعلى بينة ، فمن ثم نزعنا في أسلوب الكتاب
الى مَنَحَى بياني نديره على سياسة من الكلام بعينها ، فان كان فيه
من الشدة أو العنف أو القول المولم أو التهكم ، فما ذلك أردنا ، ولكننا
كالذي يصف الرجل الضال ليمنع المهتدي أن يضل ، فما به زجر الأول
بل عظة الثاني ، ولهذا في مناحي البيان أسلوب ولذلك أسلوب غيره ؛
الا وان اقبح من القبح ما جعله يسمى قبحا ، وان احسن من الحسن
ما جعله حسنا ، ولكل معنى باعتباره موضع ، ولكل موضع في نظره
وصف ولكل وصف في غرضه تعبير ، ولكل تعبير أسلوبه وطريقته ؛
فهذا ما ننبه اليه .

ولو كان أصحابنا غير مَن هم في الاثر والمنزلة لكان أسلوبنا غير ما
هو في النمط والعبارة ، والسلام .

الرافعي

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على رسوله وأنبيائه .

اللهم هبىء لنا الخير ، واعزم لنا على الرشد ، وآتنا من لدتك رحمة ، واكتب لنا السلامة في الراي ، وجنبنا فتنة الشيطان أن يقوى بها فنضعف ، أو نضعف لها فيقوى ، ولا تدعنا من كوكب هداية منك في كل ظلمة شك منا ، واعصمنا أن تكون آراؤنا في الحق البين مكان الليل من نهاره ، أو تنزل ظنوننا من انيقين النير منزلة الدخان من ناره ، نسالك بوجهك ونتوسل اليك بحمدك وندعوك بأفئدة عرفتك حين كذب غيرها فأقرت ، وآمنت بك فزلزل غيرها واستقرت .

وأما بعد ؛ فاني قد نظرت فإذا كل ما كنت أريد أن أقوله في هذه الكلمة قد كتبه في هذه المقالات ، فهي لا تدع مسألة ولا تترك شبهة ولا تزال تأخذ بيد القارئ فتضعها على غلطات أصحابنا المجددين ، بل المبدين ، واحدة بعد واحدة ، وشيئا بعد شيء ، فهو منا في برهان لائح من حيث بدا الى حيث ينتهي ، كالنجم : لا يزال بعين منه أين مشى وكيف تلفت .

وما رأيت فئة يأكل الدليل الواحد أدلتها جميعا كهؤلاء المجددين في العربية ، فهم عند أنفسهم كالجمرة المتوقدة : لا يشبعها حطب الدنيا ولكن غرفة من الماء تاكل الجمرة ؛ وهم مخدولون بقوة الله ، اذ ليس فيهم رجل فصيح بليغ يكون لهم كالتعبير من الطبيعة عن هذا المذهب ، حتى يثبت مذهبهم فلا يدفع ويقوم فلا ينقص ، ولن يأتي لهم هذا الرجل ، فلو أنه اتفق لهم لكان أشد أعدائهم ، ولا غلظ فيهم النكاية ، فما يزال ينقصهم أبدا ، ولن يتموا به أبدا ؛ وذلك من عجيب تقدير الله في العربية ، لمكان القرآن منها ، حتى لا يدخل في طمع أحد ولا تناله يد متناول ، فهو محفوظ بالقدر كما ترى ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

وان طائفة من الذباب لو اصاب لها حاميا مدافعا من النسور
فجاءت تطن! بأجنحتها لتلوذ به وتنضوي اليه ، ثم قصف النسر قصفة
بجناحيه لاهلكها أو بعثرها وشردها ، وهو كان في وهمها ملاذا وكان
عندها حمى فذلك مثل القوم وما يحتاجون اليه من الرجل البليغ اذا
التمسوه فاصابوه !



اما انه ليس يقوم العقل ما يسمى عقلا ، ولكن ما يسمى غرضا
وحاجة ورغبة واضطرارا ؛ فاهواء امرىء من الناس جاعلة له عقلا غير
عقل من لم تدعه نفسه الى مثل هذه الاهواء ، وان كان امرهما واحدا
بعد ومن ههنا اختلافه مع هؤلاء المجددين ، فان لهم اغراضا لا مناص
أن تجعل لهم عقولا يحسبها وعلى مقاديرها في المصلحة والمفسدة ،
وهم صور من ضمائرهم ، فليس في الملحد يكون ضمير مؤمن ، ولا في
الفاجر ضمير تقي ، ولا في المستهتر ضمير ورع ؛ ومن ثم وجب أن
تتحذرهم الامة وأن تقرهم في ذلك الحيز من تخيلاتهم وأوهامهم ، فهم
من الامة اذا غلبت هي عليهم ، وليسوا منها اذا غلبوا عليها ، ما مثلثهم
الا كالرمل والحصى : تكون في مجرى الماء العذب فتكون شيئا من طبيعته
وتحدث فيه لونا من الحسن والرونق ، واذا هي خيال من شعر النهر ،
حتى اذا خرجت مع الماء وانساغت في حلق من يجرعه كانت بلاء وأذى
وانقلبت للماء سببة ورمي بها ورميت به !.

وهم يريدون بأرائهم الامة ومصالحهم ومراشدها ، ويقولون في ذلك
بما يسمعه طغيانهم على القول واتساعهم في الكلام واقتدارهم على الثثرة ،
حتى اذا فتشت وحققت لم تجد في أقوالهم الا ذواتهم وأغراضهم
واهواءهم يريدون أن يتلوا بها الناس في دينهم وأخلاقهم ولغتهم ،
كالمسلول يضافحك ليبلغك تحيته وسلامه فلا يبلغك الا مرضه وأسباب
موته !.

ولقد كان من أشدهم غراما وشراسة وحمقا هذا الدكتور « طه حسين » أستاذ الآداب العربية في الجامعة المصرية ؛ فكانت دروسه الأولى « في الشعر الجاهلي » كفرا بالله وسخرية بالناس ، فكذب الأديان وسفّه التواريخ وكثر غلظه وجهله ، فلم تكن في الطبيعة قوة تعينه على حمل كل ذلك والقيام به إلا المكابرة واللجاجة ؛ فمر يهذي في دروسه ، لا هو يثبت الحقيقة الخيالية ولا يترك الحقيقة الثابتة ، وأراد أن يسلب أهل العلم ما يعلمونه كما يسلبك اللص ما تملك بالجرأة لا بالحق . وبالحيلة لا بالإقناع ، ومن غفلة لا عن بيئته . وما يضحكني إلا أن أرى هذا الأستاذ واثنين أو ثلاثة من أشباهه يريدون أن يكونوا ثورة في الأدب العربي ، ونسوا أنهم إنما يريدون ذلك لا أنهم خلقوا لذلك ، فكان « طه » في الجامعة كالممثل : انما وسيطته أن يتصنع ويجترأ ويؤثر ، فلما نزعنا عنه ثوب الرواية . . نزعنا في الثوب الحادثة والرواية والممثل جميعا ، ورجع طه حسين وهو طه حسين . وأين هو أو مثله من وسائل القدرة ، وما وسائلها إلا القلم الذي لا يجارى ، والفكر الذي لا ينقض ، والخيال الذي لا يلحق ، والقوة المستحصدة ، والطبع المستجيب ، والكلام الذي تراه حيا ساميا فتحسبه ينبع من موضع يد الله في النفس الانسانية ؟

على أن أستاذ الجامعة انما يقلد الهدّامين من جابرة العقول في أوروبا ، وانه منهم ولكن كما تكون هذه الكرة الجغرافية المدرسية التي تصور عليها القارات الخمس — من كرة الأرض التي تحمل القارات الخمس . . . ولايسر عليه أن يملك أوروبا أو أمريكا من أن يملك عقلا كتلك العقول التي يحاول مثل عملها في غير هندستها ولا حكمتها ولا سموها ولا معانيها ؛ وظنّك أنت قد غرست في جناح غراب ريشة من الطاووس لتكون زرعا ينبت الريش من مثله فينقلب الغراب من ذلك يوما يزدهي ويتخايل ويبرق ويرف بألوانه وتحاسينه ، فانه لينقلب طاووسا قبل أن تعد طه حسين عبقريا فيلسوفا . . . ! فالرجل متخلف الدهن تستعجم عليه الأساليب الدقيقة ومعانيها وأكبر ما معه انه يتحدلق ويتدهى ويتشبه بالمفكرين ولكن في ثوب الرواية . . . !

هو وأمثاله المجددون يسمون كتابا وعلماء وأدباء ؛ إذ كان لا بد لهم من نعت وسمة في طبقات الأمة ، غير أنهم على التحقيق غلطات إنسانية تخرجها الأقدار في شكل علمي أو أدبي ليعارض بها صوابا كاد يهمله الناس ، فيخشى الناس أن يتحيّف الخطأ صوابهم أو يذهب به ، فيستمسكون بحبله ويشدون عليه ، ويعود ذلك الصواب بعد ظهور الخطأ الذي يقابله ووقوفه بإزائه موقف العدو من العدو ، كأنما ظهر دليله لا نقيضه ، فيعرف أناس وجه الحاجة إليه ، ومكان الغناء فيه ، وضرورة المنفعة به ، وكان وشيكا أن يضيع ، فكانهم استنقلوه ، وكل ذلك مما يكبره ويرفعه ويبين عنه أحسن إبانة وأوضحها ، وكل ذلك مما يغرى به الحرص على سنة طبيعية قاهرة لا تدافع ؛ وما زالت هذه من عجائب حكمة الله فيما يحوط به هذا الدين الإسلامي وكتابه العربي الخالد ، فكلما وهن عصر من عصوره رماه الله بزندق فاذا الناس أشد ما كانوا طيرة وأبلغ ما كانوا دفعا ومحلما ، وإذا الدين أقوى ما كان فيهم وأثبت ، وإذا الزندق كأنما سيق إليهم من جهنم ليقول لهم : هلم إليها ! فيقول ميسم النار عليه : أياكم وإياها !

فالمجددون المحدثون هم جزء من الخطأ يخرج من عمله جزء من الصواب ، وما أشبههم بالمواد السامة يدافع قليلها في الدواء لتكون قوته من قوتها ، فاذا ما زجته عادت فيه غير ما كانت وهي في نفسها لا تزال كما هي .

وما نريد أن نزيد « طه » على ما قلنا فيه مما ستقرؤه في هذا الكتاب ، ولكننا نرجو أن يهديه الله فيكون من أمته ويعود إليها ، فانه الا يكن بها لا يكن بغيرها ، وانها الا تكن به تكن بغيره .

وقد كان أمره وأمر أصحابه كما يكون من الوباء يمر بالدنيا مرة فيصيب منها ولكنه يترك في أيدي أطبائها المصل الواقي منه أبد الدهر ؛ ولقد تركوا لنا هذا الكتاب ؛ فالله نسأل أن يجعله خالصا لوجهه الكريم ، نافعا بهذه النية ، مثوبا بهذا النفع ؛ وله الحمد في الأولى والآخرة .

مصطفى صادق الرافعي

المصدر : تحت راية القرآن ، المعركة بين القديم والجديد . الطبعة الأولى .
الكتبة الأهلية بمصر ١٩٢٦ • المقدمة .

الجامعة في مجلس النواب

ثم كان يوم الأحد الثاني عشر من شهر سبتمبر سنة ١٩٢٦ ،
فقرضت ميزانية الجامعة في مجلس النواب ، فإذا غضب الله وإذا
مقت الأمة كما ترى فيما ننقله عن « جريدة الاهرام » الفراء بحروفه
محصولا من مضبطة المجلس :

قال الاستاذ « صبري أبو علم » بعد أن أتى على تلخيص الجامعة
وبدئها وإلحاقها بوزارة المعارف وأنها بعد ذلك لم تكن الا قانونا ومكانا
واعلانا من اعلانات السياسة :

... إن كل الظواهر تدل على انها اخرجت المشروع بدون أن
تستكمل بحث الوسائل الفنية والادارية التي يتم بها المشروع ، ودليلي
على ذلك أنه عند البدء في إنشاء القسم العلمي كانت محاضرات الكيمياء
لم يبدأ في تدريسها الا في أوائل نوفمبر بسبب اشتغال استاذ الكيمياء
في وظيفة سكرتير عام الجامعة ، أما دروس الكيمياء العملية فلم تبدأ
الا في ٣ يناير لعدم اعداد المعامل اللازمة لها ، وكذلك تدريس علم
الجيولوجيا لم يبدأ الا في أوائل فبراير ، وسبب ذلك أن استاذ ذلك
العلم كان عميد الكلية وقد استغرقت ظروف تنظيم كلية العلوم وتكوينها
كل أوقاته وجهوده ولم يكن هناك بناء خاص للمعامل كما أن الأدوات
العلمية اللازمة لم ترد الا قبل الامتحان ببضعة أسابيع ، من ذلك
سيتضح أنه كان سر خفي يدفع القائمين بالأمر الى اعلان افتتاح الجامعة
من غير تهيئة الوسائل اللازمة لها من حيث استعداد الطلبة وأهليتهم
لتلقي الدروس ؛ ومن حيث اختيار الاساتذة وفهمهم لحوال الطلبة
الذين سيتابعونهم في تلقي الدروس منهم ؛ مع أن القانون الصادر بتكوين
الجامعة تكوينا جديدا صدر صدر بتاريخ ١١ مارس سنة ١٩٢٥ على
أن يعمل به من يوم نشره .

أذكر أننا عند بحثنا في تصرفات وزير المعارف السابق سمعنا من سعادته أن معظم الإصلاحات التي أشار بإدخالها على مناهج التعليم كان الغرض منها تقليد الجامعة المصرية بطلبة يمكنهم أن يتابعوا دروسها. ومعنى هذا أنه إذا كانت الفكرة من هذه الإصلاحات أعداد طبقة من الطلاب تكون قادرة على تلقي علوم الجامعة ، فكان من الواجب أن يتأخر إنشاء هذه الأقسام حتى يتسنى للطلاب الالتحاق بالجامعة ، ولذا لا أفهم السر في إنشائها بمثل هذه السرعة ، وفي محاولة الهروب من رقابة البرلمان ، في الوقت الذي تعيش فيه الجامعة على الأموال العامة .

ظهرت الجامعة وهليها طابع الاستعجال ، فمن سرعة في تقرير إنشائها ، إلى اندفاع في تكوينها وفي تعيين المدرسين اللازمين لها .

أنشئت بقرار من مجلس الوزراء ، وهذا غير كاف من الوجهة العلمية ، فلا أظن أن جامعة تنشأ بين يوم وليلة إذ أن الجامعات نتيجة تطور مستمر للعلوم والمعارف ؛ أنها تنمو وتتطور أو تتكون وتتشرب بالنظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي

ثم أفاض الخطيب فيما وقع من الخلط والخبط في الجامعة وتوظيف رجالها .

جلسة يوم الاثنين

[١٣ سبتمبر سنة ١٩٢٦]

خطبة الأستاذ عبد الخالق عطية

حضرات النواب :

نصف مليون جنيه ! نصف مليون جنيه ! أجل نصف مليون جنيه
احتملته خزانة البلاد ثمنا لقصر الزعفران ومصروفات الجامعة المصرية
التي لم تنشأ على صورتها الحاضرة الا منذ سنة ١٩٢٥ دون أن تقول

البلاد كلمتها في هذا الشأن ، والآن يطلب منكم أن تصادقوا على ثلاثمائة ألف جنيه أخرى لتكون مصروفات لهذه الجامعة في السنة الحالية .
مبالغ ضخمة وأرقام جسيمة يضحّ ويا طول ما يضحّ من ثقلها صغار الممولين ودافعوا الضرائب من هذه البلاد .

أقول ذلك ولا أراني مبالغا ، ولكني أودّ أيضاً ألا تستروحوا من كلامي رائحة الكراهة للعلم أو للصد عن ورود مناهله ومعاهده ، فإنني اعتقد أن كل مال وإن عزّ يهون في جانب الغاية العظمى والغرض الاسمي الذي من أجله أنشئ ، وينشأ مثل هذا المعهد ، ولكني أعود وأقول إن الشرط كل الشرط لذلك أن نبتدىء في أعمالنا من حيث يجب الابتداء ، والقيّد كل القيّد أن تكون الأنظمة التي وضعت والأساليب التي روعيت من شأنها أن تؤدي إلى هذه الغاية وتحقق ذلك الغرض . عند ذلك يستحب الانفاق ، بل يجب السخاء .

يا حضرات النواب : بالأمس تكلم حضرة الزميل الاستاذ صبري أبو علم عن الغرض من إنشاء الجامعة والغاية منها ، ولكنه كان في بيانه مجمّلا ، فقد مر على ذلك مرّ النسيم ، وأنا أرجو واستميتحكم علما في أن أراني مضطرا اليوم لإبداء شيء من التفصيل في هذا الموضوع ، حتى تكون المقدمات مرتبطة مع النتائج التي اقترحنا ارتباطا واضحا منسجما ، وهذه النتائج هي ذات العلاقة والرابطة فيما يتعلق بالمال المطلوب منا التصديق عليه اليوم .

إن الجامعة ، في أي بلد من بلاد العالم ، خاضعة دائما ككل كائن لنوامس العمران ، تبتدىء جنينا « أي فكرة » ، ثم تخرج طفلا ، ومن هنا يبتدىء دور الانشاء ثم تتزعزع فتصير صبيا بعناية أصحابها ، ثم تنمو فتصبح شابا ، ثم كهلا ؛ ثم شيخا يجمع اختبارات القرون وتجلوئها ؛ وحينئذ تكون جديرة بالبدل حرية بالإسعاد .

أيها السادة :

كلنا نعرف أن ما ينفق على الطفل أقل مما ينفق على الصبي ، وما يقتضيه حال الصبي أقل مما يقتضيه حال الشاب ، وهكذا الحال بالنسبة للكهل والشيخ ، خصوصاً في مثل المسألة التي نحن في صدددها .

إذا فهمنا ذلك ووعيناه فماذا ينبغي أن أقول وما ينتظر أن أرمي إليه ؟ دخلت الجامعة في دور جديد فأصبحت أميرية منذ مارس سنة ١٩٢٥ وأصبحت تعتمد في حياتها الجديدة على الأموال المشتركة ، أي على المال العام ، وهو مال الأمة ، فيحق لحضراتكم بما لكم من الولاية على هذا المال ويقضي عليكم واجب التحري واللمة - أن تعرفوا إذا طلب منكم أن تصرفوا : لماذا تصرفون وكم تصرفون ؟ الواجب أن نشجع عندما يجب التشجيع ، وننتقد عندما يجب الانتقاد ، بحيث لا نترك مسألة تمر علينا دون تشجيعها أو انتقادها على حسب ما تقضى به المصلحة .

لقد كنت أريد أيها السادة أن الدين أدخلوا الجامعة في الدور الجديد يفتنون إلى أن الطبيعة تلبى الطفرة . كنت أرجو ذلك ، ولكن بكل أسف أقرر أن السياسة التي تملكها شهوة التغير والتبديل ، والتي ركب أكتافها شيطان العجلة فكانت تسمى إلى المظاهر لا إلى الحقائق ، وإلى الأشكال لا إلى الموضوعات ، وهكذا أبرزت لنا وللبلاد جامعة في ثياب الصمالة ، بينما هي لا تزال قرماً من الأقزام ، وأرادت أن تقوم تلك الجامعة على أرجلها كأنها خلق سوي بينما هي طفلة في المهد ؛ ولو كلن الأمر وقف عند هذا الحد لكان ، ولكن الذي لا يهون أننا احتملنا مبالغ ضخمة في سبيل الأشكال لا في سبيل الموضوعات ، وأننا مستهدفون - إذا لم نبادر إلى علاج حاسم - لمصروفات لا بد أن تتضخم تضخماً كبيراً

ثم فاض الاستاذ في الكلام على إدارة الجامعة ومدرسيها وإسرافها وتخطيها ببيان مستفيض ، ثم قال :

مسألة طه حسين

هذا فيما يختص بأمر التعليم :

بقيت هناك نقطة أخرى لا بد من التنبيه إليها :

حدث يا حضرات الأعضاء حادث بالجامعة المصرية ، وقام من ناحيتها صوت أفقدها عطف الكثيرين ، قد أدى الى فتنة أو كاد ، والأشد والأتكى أن البلاد لم ينلها حظ ولم تنلها مصلحة ظاهرة أو خفية من اثارة ذلك الموضوع الذي تعرض له صاحب ذلك الصوت حتى كان يقال ولو من طريق التساهل : إن الحسنات تكافأت مع السيئات . وأظن أن حضراتكم بعد هذا البيان قد فطنتم الى ما أريد وتبينتم أن الصوت المعني بقولي هذا هو كتاب « الشعر الجاهلي » ذلك الذي تضمن طعناً ذريعاً على الموسوية الكريمة والعيسوية الرحيمة ، وعلى الاسلام دين الدولة المصرية بنص الدستور .

أيها السادة : ان العقائد كانت وما زالت في الشرق وفي الغرب أيضاً عواطف حساسة متوترة متيقظة متاجعة ولو ظهرت خامدة ؛ فالرجل العاقل يجب عليه ان يبتعد عن كل ما يهيجها ، والرجل العالم حقاً الذي يفهم البيئة التي يعيش فيها والوسط الذي يكتنفه ، يجد من غلمه متسعاً لا نهاية له لمعالجة الاصلاح والعيوب الكثيرة دون أن يجد نفسه مضطراً في وقت ما الى ان يلج هذا الباب الذي قد يترتب على ولوجه الكثير من الحوادث الجسم والامور العظام .

يا حضرات النواب ، أرجو أن لا يتناول علينا متأول أو يتقول علينا متأول أو يمتن علينا ممتن بأنه أشد منا غيرة على حرية العلم والتعليم وأعظم منا رغبة في تأييد حرية الرأي والتفكير . انه لا توجد في العالم حريات مطلقة ، ولو كان الامر كذلك لنهشت امراض بحكم حرية الرأي ، ولو كان الامر كذلك لقام في البلاد من يهاجم نظام الحكم اعتماداً على حرية الرأي ، ولو كان الامر كذلك لقام في البلاد من يبث مبادئ الفوضوية أو

البلشفية استنادا الى حرية الرأي ، ولكن الحرية - يا حضرات الاعضاء - محدودة وتنتهي عندما تبتدىء بالتصادم مع مقتضيات النظام والقانون .
انت حر في كل ما تريد ، ولكن حاذر ان تقع تحت سلطة القانون .

إن التعليم حر بنص الدستور ، وليس منا من يعارض في ذلك ؛ ولكن الدستور قال أيضا : ان التعليم حر الا اذا اخل بالنظام العام ، اذا كان منافيا للادب . والإخلال هنا معناه ان يترتب على تقرير الرأي حدوث فتنة أو احتمال حدوثها ، وعند ذلك يقف القانون حدا حائلا ، لان المصالح العامة مقدمة على الشهوة ؛ فعلى الذين يفهمون حرية الرأي كما حددها القانون ، وعلى الذين يعقلون حرية التعليم كما يعينها القانون ، ان يفهموا اننا اذا تعرضنا لهذه المسألة فإنما نريد ان نكون دائما في دائرة القانون .

ايها السادة : ان تصرفه هذا الشخص كان ايضا مخالفا للوق ، فانه مندرس بالجامعة المصرية ، وهي معهد اميري يعيش من اموال الحكومة المثلة للامة ، فهو يتقاضى مرتبه من هذه الهيئة التي دينها الاسلام ، فلم يكن من المفهوم ولا من المعقول ولا من حسن الوق ان يقوم هذا الشخص فيبصق في وجه الحكومة التي يتقاضى مرتبه من اموالها بالظمن على دين رعيته من اقلية او اكثرية . اننا اذ نسلم اولادنا للحكومة ليتعلموا في دورها نفعل ذلك معتمدين على ان بيننا وبينها تعاقدًا ضمنيًا على ان الديانات محترمة لا نقول تعاقدًا ضمنيًا فقط ، بل صريحًا ، لان الحكومة تعني بتعليم الدين في مدارسها وتضعه في مناهجها ، واذا كان الامر كذلك فعلى الذين يريدون ان يحرقوا بخور الالحاد ان يحرقوه في قلوبهم ، لانهم احرار في عقائدهم ، او ان يحرقوه في منازلهم ، لانهم احرار في بيئاتهم الخاصة ، اما ان يطلقوه في اجواء دور العلم ومنازل الجامعة فهذا لا يمكن ان نفهمه . باي حال من الاحوال « تصفيق حاد » واغرب ما في هذا التصرف ان صبح ما بلغني من إدارة الجامعة اشترت من مؤلف هذا الكتاب كتابه ! اشترته يا حضرات النواب من اموال الامة الموتورة بهذا العمل ! فلن كان هذا الكتاب سيدرس في الجامعة فتلك ثالثة الاتافي ، وليس لنا على

هذا الامر تعليق ، اما اذا كان الغرض من شراء الكتاب اتقاء ضرر انتشاره فهذا ايضا تصرف غير معقول ، لان مال الامة لا يجوز ان يدفع اجرا ومكافأة على اساءة للامة ، ولان هذا التصرف في حد ذاته من المكافأة وهذه المكافأة قد حلت حيث كانت تجب الاساءة وحيث كانت تجب المجازة ، هذا كله ان صح ما سمعته من ان ادارة الجامعة قد اشترت هذا الكتاب .

وزير المعارف : اما فيما يختص بمسألة كتاب « في الشعر الجاهلي » فقد قلت لحضراتكم في الجلسة الماضية اننا نطمح في ان تكون الجامعة معهدا طلقا للبحث العلمي الصحيح ، وليس معنى هذا اننا نرضى ان تكون كراسي الاساتذة منابر تلقى فيها المطلعون في أي دين من الاديان قصد النيل من كرامته او التهجم على حرمة ، وانما واجب الاساتذة ان يتحاشوا ذلك في كتاباتهم ومحاضراتهم ، وحادثه كتاب « في الشعر الجاهلي » حصلت كما تعلمون في عهد الوزارة السابقة ، فلما توليت الوزارة اردت ان اقف على حقيقة الامر ، فسالت سعادة مدير الجامعة عن الاجراءات التي اتخذها ازاء هذه الحادثة ، فاجاب بان الجامعة منعت انتشار الكتاب بشراء جميع النسخ من المكاتب وحصرتها في مخزونها ، كما اتخذت الاجراءات اللازمة لمنع طبع نسخ اخرى منه ، وقد اكد لي سعادته ان ما يؤخذ عليه المؤلف لم يلقه على طلبته في الجامعة كما ظن ، وان المؤلف صرح على صفحات الجرائد بانه مسلم ولم يقصد الطعن في دين من الاديان او المس بكرامته « ضجة » .

هذا ما اكده لي مدير الجامعة ، اما فيما يختص بالمبلغ الذي دفع ثمننا للكتاب فاني اصرح بانني لو كنت مسؤولا لما رضيت به لئلا يتصرفوا واني موافق على استرداده اذا كان لا يوجد مانع قانوني يحول دون ذلك

اما فيما يختص بالاجراءات الاخرى فلا يخفى على حضراتكم ان المؤلف مسافر الى اوربا من شهر يونيو عقب تأليف الوزارة مباشرة ولم يعد بعد ، فلا يمكن ان اتخذ من الان اجراءات في غيابه ، وعلى كل حال فاني اهد ببحث المسألة ...

فرفعت الجلسة .

ثم اعيدت .

الرئيس (١) ترفع الجلسة للاستراحة . فرفعت الجلسة ثم اعيدت .

(١) هو رجل الامة العظيم وثابتة الشرق كله ونادرة الملك صاحب الدولة سعد باشا زلول.

خطبة الاستاذ القاياتي

الشيخ القاياتي : سادتي النواب ، كان بودي ان تمر بنا ميزانية الجامعة فنتقبلها هاتفين مصفقين ، لانها ميزانية امنية طالما تمنيناها ، وغاية كثيرا ما رجوناها ، لاننا نعتقد ان وجود جامعة مصرية انما هو طريق الى الفلاح المرجو ، وإلى الحرية المطلوبة ، وإلى الاستقلال الحقيقي المنشود ، ولكن الله تعالى اراد - او ان غير الله ممن يجرون على ما لا يجوز - لهم ان يجروا عليه ارادوا - ان تمر علينا هذه الميزانية ونحن نئن من الالم ، ونتضرع من الحزن ، ونبكي من المصيبة التي كنا نرجو ان تكون نعمة كبرى .

انا لا اريد ان اتكلم عن الجامعة باعتبار ادارتها ، ولا باعتبار ما يدرس فيها ، ولا باعتبار كفاية مدرسيها وموظفيها بعد الذي ادلى به حضرات الاعضاء المحترمين من البيانات في هذا الشأن ، ولكن الذي اريد التكلام فيه من غير إطالة هو موضوع كتاب « في الشعر الجاهلي » الذي ألفه الدكتور طه حسين وهو ابن الجامعة البكر الذي كانت تنفق عليه من مال الامة وما كان يظن ابدا ان يقابل هذا الاحسان بالعقوق الى درجة ان يضربها بضرب دين الاسلام دين الاغلبية .

ذكر حضرة النائب الاستاذ عبد الخالق عطية ملاحظات كثيرة عن هذا الكتاب ومن وقع على الامة ، وتأثيره في قارئيه وسامعيه ، حتى لقد قال بحق : « انه اثر فتنة او كاد » . والحق ان يقال انه ما كان من المظنون ان يوجد بين المسلمين في مصر من يجروا على الدين الى هذا الحد الذي بلغه الشيخ طه حسين .

قيائح متعددة : ما بين تكذيب لصحيح التاريخ وتكذيب لنصوص القرآن ، وسب التحايل الى الله وإلى النبي محمد وإلى موسى عليه السلام .

وقبل ان اتعرض لسرد ما جاء في هذا الكتاب او سرد شيء منه ، اريد ان اظهر لكم شدة اندهاشي مما نقله معالي وزير المعارف عن حضرة مدير الجامعة ، من ان هذا الكتاب لم يلق على الطلبة ، يعني ان الدكتور طه حسين لم يلق على طلبته ما جاء في هذا الكتاب . اندهشنا من هذا القول لان المؤلف نفسه صرح في مقدمة كتابه انه القاه على الطلبة ، ولست ادري كيف يمكن ان يكون حقا ما قيل من انه لم يلقه على طلبته بعد ان يقرر هو بنفسه بانه القاه عليهم .

اصوات : ماذا قال ؟

الشيخ القاياتي : قال في مقدمة الكتاب : « هذا نحو من البحث في تلخيص الشعر العربي لم يأنفه الناس عندنا من قبل ، واكاد اثق بان فريقا منهم سيلقونه ساخطين عليه ، وبان فريقا آخر سيزورون عنه ازورارا ، ولكنني على سخط اوائك وازورار هؤلاء ، اريد ان اذيع هذا البحث ، او بعبارة اصح ، اريد ان اقيده ، فقد اذعته قبل اليوم حين تحدثت به الى طلابي في الجامعة ، وليس سرا ما تتحدث به الى اكثر من مائتي شخص » .

هذا قول المؤلف في مقدمة انكتاب ، ولست افهم كيف يقال بعد ذلك إنه لم يلق هذا الكتاب على طلبة الجامعة ، وأن يترتب على ذلك ما رتبته الجامعة من منع استاذ أن يرد عليه في الجامعة بعد أن سمحت له بذلك ، بعلة ان الكتاب لم يلق على الطلبة حتى يرد عليه في نفس الجامعة .

لقد جاء هذا في هذا الكتاب تكذيب صريح للقرآن، ونسبة صريحة للنبي عليه الصلاة والسلام بأنه متحايل وكذب صريح على التاريخ ؛ لا يجوز ابدا أن نهمل ولا أن نترك صاحبه دون تدقيق معه في البحث ويكون حسابنا معه عسيرا . إنني اعرف انه من الكرم والروءة ان يعفو الإنسان عن أساء إليه ، ولكن من الظلم والتهجم على المصلحة ان يعفو الإنسان عن أساء الى غيره ، أو عن طعن في وطنه أو دينه « تصفيق » .

إن الدولة أعلنت في دستورهما أنها دولة إسلامية ، وإن دولة إسلامية لا تحافظ على دينها من أن يمس ولا على كرامتها أن تجرح لهى دولة أعوذ بالله أن تكون مصر من أمثالها !

لقد بلغت الدرجة بالدكتور طه حسين أن يذكر في كتابه أن حادثة إبراهيم وإسماعيل - التي نص الكتاب العزيز عليها - حادثة لا يعول عليها التاريخ ولا يمكن التسليم بها ، وإنما هي حادثة أُرجمها المسلمون لسبب مخصوص هو سبب سياسي أكثر منه دينيا .

وقد جاء في كتابه بالصفحة ٢٦ ما يأتي :

« للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل ؛ والقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً ، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي » .

معنى هذا أن دعوى الله أن شيئاً حصل لا ينهض دليلاً على أن هذا الشيء حصل ؛ والله يعلم أن هذا يساوي في قوله إن الله كذاب فيما قال !

ثم جاء الصفحة المذكورة :

« ... فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها . ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعاً من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة ، والقرآن والتوراة من جهة أخرى ؛ وأقدم عصر يمكن أن تكون قد نشأت فيه هذه الفكرة إنما هو هذا العصر الذي أخذ اليهود يستوطنون فيه شمال البلاد العربية ويبثون فيه المستعمرات ، فنحن نعلم أن حروباً عنيفة شبت بين هؤلاء اليهود المستعمرين وبين العرب الذين كانوا يقيمون في هذه البلاد وانتهت بشيء من المسالمة والملاينة ونوع من المحالفة والمهادنة ؛ فليس ببعيد أن يكون هذا الصلح الذي استقر عليه الرأي بين المغيرين

وأصحاب البلاد منشأ هذه القصة التي تجعل العرب واليهود أبناء أعمام ، لا سيما وقد رأى أولئك وهؤلاء أن بين الفريقين شيئاً من التشابه غير قليل ، فأولئك وهؤلاء ساميون .

وقد جاء بالصحيفة ٢٧ ما يأتي :

« وقد كانت قريش مستعدة كل الاستعداد لقبول مثل هذه الاسطورة في القرن السابع للمسيح » .

كلمة « الاسطورة » يا حضرات الزملاء لا تقال إلا للخرافات او الترهات ، فالقول بأن هذه القصة التي وردت في كتاب الله العزيز خرافة ، يعنى أن الله يخرف ونحن نؤمن بتخريفه « مقاطعة » .

أنا والله لا أريد التشنيع ، ولكنني أريد أن أذكر حقيقة ، أريد أن أقول لا قوم لا يرون رأينا ويدعون أن البحث أمر واجب وحر وأنه لا يجوز لنا أن نقيد حرية الناس في آرائهم - أقول لهم إننا لا نقيد حريتهم في عقائدهم ، ولكننا نقيد آراء تلقن أولادنا وتشاع على أفراد الأمة ما بين متعلم وغير متعلم ، ولا بد أن يكون ذلك داعية الضلال والفسوق ، فإذا لم أطل بينكم الليلة في سرد النصوص الواردة في هذا الكتاب وذكر العبارات الشنيعة التي لا تدل إلا على زندقة ، فلأنني لا أريد إدخال الحزن على قلوبكم ، ولأنني لا أود أن أرى دموعكم تسيل جزعا على دينكم وشرف دولتكم .

إننا لا نتكلم في هذا إلا بباعث المحافظة على الدين ، وليس ذلك بالأمر الذي يهم المسلم دون غيره ، فإن كرامة الأديان على السواء يجب أن تكون محفوظة .

إنني لا أسمح ولا أقبل أن يطمعن أحد في دين المسيح عليه السلام ولا أقبل أن يطمعن في دين موسى عليه السلام ، بالنسبة التي لا يرضى بها

أحد أن يطعن على دين محمد عليه السلام ؛ فإن حرمت الأديان يجب أن تكون موفورة .

إنني لا أخشى أن يقال إننا نتكلم متمصين تعصبا دينيا ، لأنه إذا كان التعصب الديني هو المحافظة على كرامة الأديان جميعا فإنني أول المتمصين .

كنت أود بعد أن قرأت لكم كلمات المؤلف أن أقرأ لكم كلمات الله فيما كذبه المؤلف ، ولكنني لا أظن أنكم في حاجة إلى ذلك .

نريد أن نثبت في تاريخ عملنا أننا لا نقبل أبدا أن يتهور متهور على الدين تهورا يحط كرامته وكرامة الدولة ، فإن الطعن في دين الدولة طعن في الدولة ، هو طعن في كل فرد من أفرادها . لا نرضى أن يسجل علينا التاريخ أنه قد فتح بيننا هذا الباب ، ونشر بيننا هذا الكتاب ، وقامت عليه الضجة التي قلعت ، ثم يمر علينا كما يمر السحاب دون أن ينل المسيء جزاء إساءته ؛ لا أريد أن يقال : طعن في الدين وشهر به وحر الأمر على مجلس النواب وخرج الطاعن نظيفا شريفا بدون جزاء !

إن الرحمة واجبة ، ولكن ليس في الدين ؛ وقد أوجب الدين أن يرجم بعض من يرتكب الجرم ؛ فما بالكم فيمن يدمى أن الله كاذب ، وأن النبي كاذب وأن المؤمنين جاهلون لا يفرقون بين الحق والباطل ؟

ولا يجوز أن يكتفى مطلقا بأن المؤلف صرح في الصحف أنه مسلم ؛ وأنني ألفت نظركم إلى أن الدكتور المؤلف لم تسمح له نفسه - مع أن الموقف كان شديدا والإلحاح عليه كثيرا - أن يكتب كلمة يشرح بها ما قال وأن يبرره بمعنى يفهم منه خلاف ما فهمناه .

إذا كان قد ارتد بكتابه ثم رجع إلى الإسلام بعد ذلك فهو مسلم ، ولكن التوبة لا تغفر الذنب ولا تعفى من العقوبة ؛ وقد كنت أريد أن أقترح اقتراحا خاصا ولكنني أطلعت على اقتراح لحضرة عبد الحميد البناني بك ووافقته عليه .

الرئيس : تلا « اقتراح حضرة عبد الحميد البناني بك ونصه :

« اقترح على المجلس الموقر تكليف الحكومة :

أولاً - مصادرة وإعدام كتاب طه حسين المسمى « في الشعر الجاهلي » بمناسبة ما جاء فيه من تكذيب القرآن الكريم ، واتخاذ ما يلزم لاسترداد المبلغ المدفوع إليه من الجامعة ثمناً لهذا الكتاب .

ثانياً - تكليف النيابة العمومية رفع الدعوى العمومية على طه حسين مؤلف هذا الكتاب لطعنه على الدين الإسلامي دين الدولة .

ثالثاً - إلغاء وظيفته من الجامعة وذلك بتقرير عدم الموافقة على الاعتماد المخصص لها » .

ثم تلى اقتراح حضرة محمود لطيف بك وهذا نصه :

« اقترح بعد البيانات التي سمعها المجلس الموقر عن كتاب « في الشعر الجاهلي » أن يقرر المجلس رغبته إلى الوزارة في معاقبة مؤلف هذا الكتاب الذي أهان في مؤلفه « الشرائع السماوية والأنبياء » ، وأهان فيه دين الدولة الرسمي ، وأن تتخذ الوزارة ما يحفظ المعاهد العلمية من أن تكون مقاماً لمثل هذا التهجم ، مع اتخاذ اللازم لإعدام النسخ الموجودة من هذا الكتاب » .

الرئيس : هل يريد مقدم الاقتراح الأول أن يؤخذ الرأي على اقتراحه
فقرة فقرة ؟

عبد الحميد البناني أفندي : نعم .

محمود وهبة القاضي بك : أذكر أن الشيخ طه حسين كتب في الجرائد أنه مؤمن بالله ، ونبيه ، وكتبه وورسله ، واليوم الآخر « ضجة » .

معنى هذا أنني ممتنع عن الكلام ما دمت غير راقبين فيه .

بيان رئيس الحكومة(*)

رئيس مجلس الوزراء : أريد أن أقول كلمة في هذا الموضوع ، فقد ذكر معالي وزير المعارف العمومية أن هذا الكتاب طبع ونشر في عهد الوزارة السابقة ؛ وحين تشكلت هذه الوزارة وجدت برئاسة مجلس الوزراء خطابا من حضرة صاحب الفضيلة شيخ الجامع الأزهر يطلب فيه من الحكومة أن تتخذ إجراءات خاصة في موضوع هذا الكتاب ، وأذكر منها رفع الدعوى الجنائية على المؤلف ؛ فطلبت من وزير المعارف بحث هذا الموضوع ، فبحثه وكتب لي خطابا بين فيه نتيجة بحثه باشتراك مدير الجامعة وما رأى اتخاذه من التدابير اللازمة لمنع تكرار وقوع مثل هذا العمل في المستقبل . وقد وافقته على ما أرتأه وكتبت لفضيلة شيخ الأزهر بما قرره وزير المعارف ووافقته عليه ، من حبس الكتاب ، أي منع انتشاره ، وبأن المؤلف قد اعتذر بما بينه معالي وزير المعارف ، وأخبرت فضيلته أيضا بما اعتزمته الحكومة من اتخاذ التدابير لمنع تكرار وقوع مثل هذا العمل من أي استاذ بالجامعة ؛ فموافقتي على ما قرره وزير المعارف يعتبر عملا حكوميا صدر من رئيس وزارة مسئول عنه . وأني أفهم أن يظهر المجلس استياءه من الكتاب ، أو أن يترك لوزير المعارف الحرية في اتخاذ إجراءات علاوة على ما اتخذ من قبل ، أما أن يقرر المجلس قرارا يخالف ما اتخذته الوزارة من الإجراءات ، أو أن يلزمها بالقيام بعمل معين زيادة على ما عملته وبما وعد به وزير المعارف ، فيكون هذا انتقادا لإجراءاتها في هذا الموضوع ويعرضها للمسؤولية الوزارية .

الرئيس : لم أفهم القصد من هذا القول ، فهل تريد ألا يتخذ المجلس

قرارا ؟

رئيس مجلس الوزراء : الاقتراح المروض الآن يعتبر في نظري انتقادا للوزارة ويعرضها لمسألة الثقة .

(*) قلت : هو المرحوم مدني يكن باشا .

الرئيس : تريد اذن طرح مسألة الثقة بالوزارة .

رئيس مجلس الوزراء : نعم .

الرئيس : حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء يرى انه اذا قرر المجلس قرارا يخالف ما اتخذه من الاجراءات فان ذلك يدعو الى طرح الثقة بالوزارة .

رئيس مجلس الوزراء : قلت انه اذا قرر المجلس قرارا ما يخالف الاجراءات التي اتخذت وما وعد به وزير المعارف العمومية ، فان ذلك يدل على عدم ثقة المجلس بالوزارة .

وزير المعارف : قلت ان مؤلف هذا الكتاب غير موجود بمصر ، ووجدت انه عند حضوره ابحت المسألة واسأله فيها . وبعد ذلك يتخذ ما يتراءى من الاجراءات ونعرض كل ذلك على المجلس .

الرئيس : ولكن المجلس ينظر الآن في الغاء وظيفة .

رئيس مجلس الوزراء : لا شك ان من حق المجلس الغاء أية وظيفة شاء وهذا لا تعرض فيه مطلقا .

انت اذن تعرض في احالة المؤلف على النيابة ؟

رئيس مجلس الوزراء : اعتبر ان في تكليفنا بذلك عدم ارتياح لما قمنا به من الاجراءات ، وهذا يدعوني . . .

الرئيس : يعني ان الوزارة لا تود تكليف النيابة بالتحقيق ؟

وزير المعارف العمومية : لا تعرض الوزارة في ذلك بعد سؤاله ؛

واذا تبين لها ان هناك جريمة ؟

الرئيس : يعني ان الوزارة تعد بتكليف النيابة بالتحقيق اذا اتضح

لها بعد سؤال المؤلف ان هناك جريمة ؟

رئيس مجلس الوزراء : قلت اننا اتخذنا ما يجب اتخاذه من الاجراءات .

الرئيس : ولكن للمجلس الحق في ابداء رغبات .

رئيس مجلس الوزراء : اذا كان الغرض ابداء رغبة فهذا شيء آخر ؛ اما تكليف الحكومة امرا فلا يعد ابداء رغبة من المجلس .

الرئيس : يجوز للمجلس ان يكلف الحكومة باشيء بما له عليها من حق الرقابة الداخلة في اختصاصه ؛ فهل تأبى الحكومة ذلك ؟ فاذا كنتم تعدوننا بقبول ذلك فهذا حسن ، والا فان ذلك يكون اساسا لمبدأ جديد يلزم بحته .

رئيس مجلس الوزراء : هذه المسألة من اختصاص السلطة التنفيذية ، وللمجلس الحق في ابداء رغبات بخصوصها ، فتبحث الحكومة هذه الرغبات لترى اذا كان من الممكن تنفيذها ام لا ، فاذا تأكدت للحكومة ان هناك جريمة امكن معاقبتها .

الرئيس : هل حضراتكم موافقون على الرغبات التي تليت عليكم ؛ اعني المصادرة وتكليف النيابة العمومية برفع الدعوى والغاء الوظيفة .

محمود لطيف بك : ان الاقتراح الذي قدمته برغبة يوفق بين رأي المجلس والوزارة .

الرئيس : هناك اقتراح برغبة ، فاما ان ترفضوه او تقبلوه .

فكري اباطة بك : ان في نصوص هذه الرغبة متناقضات ، مثلا : انه غير ممكن مصادرة الكتاب الا بحكم .

الرئيس : قيل ان ادارة الجامعة اشترت هذا الكتاب وحبسته لتمنع بذلك تداوله ؛ فهل يكتفي حضرة مقدم الاقتراح بذلك ام يريد اعدامه ؟ .

عبد الحميد البناني أفندي : أريد اعدامه .

الرئيس : هل تمنع وزارة المعارف في اعدام هذا الكتاب ؟

وزير المعارف : ان وزارة المعارف لا تمنع في ذلك .

الرئيس : بقيت النقطة الثانية ، وهي تكليف النيابة العمومية باقامة الدعوى ضد المؤلف ؛ فهل ترى الحكومة - اذا وافق المجلس على ابداء هذه الرغبة - في ذلك اعتداء على اختصاصها ؟

عبد الخالق عطية أفندي : أرى ان المسألة تتعلق بالصيغة أكثر منها بالموضوع ، لانه ربما يتبادر الى الذهن ان المقصود بلفظة « تكليف » الزام النيابة برفع الدعوى العمومية ، فلذلك اقترح ان تستبدل بكلمة « تبليغ » كلمة « تكليف » .

الرئيس : اذا استبدلت كلمة « تكليف » المذكورة بالاقتراح بكلمة « تبليغ » فهل لدى الحكومة ما يمنعها من تنفيذ هذه الرغبة اذا وافق المجلس على ابدائها ؟

رئيس مجلس الوزراء : لقد تصرفت الحكومة في هذا الموضوع بما رآته مناسباً ؛ فتكليف المجلس اياها بان تقوم بأكثر مما فعلت يفيد أن ما اتخذته من الاجراءات لم يكن كافياً ؛ وأرى لهذا أنه يجب عليّ أن أعارض في ذلك !

الرئيس : لا يمكننا ان نقبل هذا مطلقاً ، لان للمجلس اختصاصات وحقوقاً ؛ فله ان يبدي رغبات ، ويطلب طلبات ، فلذا لم تستطع الحكومة تنفيذها وجب عليها ان تبين له اسباب ذلك ؛ أما اذا رأت الحكومة أنه ليس للمجلس مبدئياً ان يكلفها او يدعوها الى العمل ، فاننا لا نقبل ذلك ولا يمكنني ان أراس هذا المجلس اذا لم يكن ذلك من اختصاصه « تصفيق حاد » .

. لقد أبدى المجلس فيما مضى رغبات أهم من هذه بكثير ، فلم تعترض على تنفيذها ؛ وبصفتي رئيس مجلس النواب لا يمكنني أن أقبل ما تقوله الحكومة ، من أنه ليس من اختصاص المجلس أن يبدي رغبة كهذه ، خصوصا وأنها ترمي الى اعطاء القضاء ما هو من حقوق القضاء !

رئيس مجلس الوزراء : لا تقول الحكومة أنه ليس من اختصاص المجلس ابداء رغبات ، ولكنها تقول أنها تصرفت في الموضوع ، فإذا وافق المجلس على هذه الرغبة فكانه يقول أن ما قلتم به الحكومة لم يكن كافيا .

الرئيس : اذا كانت موافقة المجلس على ابداء هذه الرغبة تفيد أن تصرف الحكومة في هذه المسألة لم يكن كافيا فلن له هذا الحق .

رئيس مجلس الوزراء : للمجلس الحق الا ان هذا يعتبر اعتراضا على تصرف الحكومة .

الرئيس : انه اعتراض بلا شك ، ولكن اذا رأى المجلس ان هذا الاعتراض في محله فما رأى الحكومة في ذلك ؟

فكري اباطة بك :

حضرات الزملاء المحترمين ! اشار حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء الى تصرفات الحكومة في هذا الموضوع اجمالا ، ولكننا لم نطلع على تفاصيل هذه الاجراءات ، فمع تمسكنا بما لنا من حق ابداء رغبات ، يهمننا أن نطلع على تفاصيل ما قلتم به من التصرفات حتى يمكننا أن نحكم عليها ، ولكن بما أن الفرصة لا تسمح لنا ولا تمكنا من أن نحكم فيها اذا كانت هذه التصرفات كافية ام لا ، فلذلك أقترح تأجيل النظر في هذا الموضوع حتى نطلع على التفاصيل التي اشرت اليها .

الرئيس : ان الحكومة لم تبين لنا هذه التفاصيل ، ولكنها تقول ان مطالبة المجلس اياها بالقيام بغير ما قامت به يعتبر اعتراضا على تصرفاتها ، حقيقة ان طلب المجلس يعتبر اعتراضا ولكنه في محله !

فكري اباطة بك : يمكنها استيفاء الموضوع في فترة التاجيل .

الرئيس : ان الموضوع مستوفى .

وزير الحقانية : يظهر لي ان المسالة تكاد تكون من اختصاص وزير الحقانية .

يريد المجلس الموقر ان يبدي رغبة بتقديم مؤلف كتاب « الشعر الجاهلي » الى المحاكمة .

واقول الحكومة انها تصرفت في هذه المسالة بطريقة مخصوصة قبل ان تثار في المجلس ويقول معالي وزير المعارف ان هذه المسالة محل نظر الوزارة وانها ستتخذ فيها ما تراه من الاجراءات ؛ فهل هناك فرق بين رغبة المجلس وما وعد به معالي وزير المعارف ؟ لا اظن ان هناك فروقا للمجلس ان يبدي رغبة بتبليغ النيابة العمومية لاقامة الدعوى ضد الكتاب ، ولعالي وزير المعارف ان ينظر في هذه الرغبة ويتصرف فيها بما رآه ، واظن ان هذا اليق بكرامة المجلس ، لانه وهو الهيئة التشريعية اذا امر برفع الدعوى العمومية وجاء الحكم فيها مخالفا لرايه فيكون معنى هذا ان رأي المجلس لم يكن في محله ، اما اذا تركت المسالة للحكومة ورات ان تقيم الدعوى العمومية ثم صدر الحكم ببراءة المؤلف فلا يؤاخذ المجلس بشيء وتتحمل الوزارة وحدها مسؤولية تصرفها .

الرئيس : يجوز ان يكون تبليغ النيابة من ضمن الاجراءات التي تتخذها الوزارة في هذه المسالة ، وتبليغ النيابة هذا لا علاقة له بالحكم في الدعوى .

وزير الحقانية : الذي فهمته ان الاقتراح يرمي الى تكليف النيابة برفع الدعوى العمومية .

الرئيس : ستستبدل كلمة « تبليغ » بكلمة « تكليف » ، واظن ان تبليغ النيابة عن جريمة ارتكبت حق واجب على كل فرد .

وزير الحقانية : لا نزاع في ذلك .

عبد الحميد البنان أفندي : اوافق على أن تستبدل بكلمة « تبليغ » كلمة « تكليف » .

وزير الحقانية : يمكنني أن أقول أن سبب عدم تبليغ النيابة ربما كان مبنيًا على أن كتاب « الشعر الجاهلي » مكروه من الأصل ، وكان من الواجب احتقاره وعدم إذاعته بين الجمهور ؛ ولما كان التبليغ يقتضي نشر الكتاب في الجرائد وإذاعته بين أفراد الأمة ، رأت الوزارة أن لا تبليغ النيابة ؛ استهانة بما احتواه الكتاب وتحقيرا لشأنه !

فلذا رأى المجلس مع ذلك ضرورة تبليغ النيابة فلا مانع من أن يبدي هذه الرغبة ، على أن تكون من ضمن الإجراءات التي تتخذها الحكومة .

الرئيس : تقدم اقتراح برغبة ؟

عبد الحميد البنان أفندي : لا مانع هندي من أن تكون هذه الرغبة ضمن ما تتخذه الوزارة من الإجراءات .

الرئيس : هل يعد معالي وزير المعارف بذلك ؛ لأن هناك جريمة ارتكبت ويريد المجلس التبليغ عنها ؟

وزير الحقانية : أننا نقدر رغبات المجلس حق قدرها ، ولم يبدي المجلس أي رغبة إلا نفذتها الحكومة ؛ فلماذا يطلب من معالي وزير المعارف أن يعد من الآن ؟

الرئيس : ما الداعي لهذه المعارضة الشديدة ؟ المسألة في غاية البساطة ، وهي : هل توافق الحكومة على تنفيذ هذه الرغبة أم لا ؟

عبد الحميد البنان أفندي : أعدّل اقتراحي بأن يضع معالي وزير المعارف هذه المسألة موضع البحث حتى إذا رأى ...

وزير المعارف : اوافق على هذا التعديل .

الرئيس : لقد تم الاقتراح ومن حق المجلس ان يصدر قرارا بخصوصه ؛ فهل يوافق معالي وزير المعارف على تبليغه النيابة ؟

وزير المعارف : اني موافق على تعديل حضرة عبد الحميد البناني
افندي .

الرئيس : التعديل هو ان يقوم معالي وزير المعارف بتبليغ النيابة ؛
فهل تعد بذلك ؟

الدكتور احمد ماهر : ارجو ان ترفع الجلسة للاستراحة .

الرئيس : ترفع الجلسة للاستراحة عشر دقائق ..

كلمة جريدة الاهرام الغراء

الوزارة تعرض مسألة الثقة

رشدي باشا وعلي باشا في بيت الامة ليلا

تفاصيل المسألة - تسويتها

عرضت امس وأول من امس على مجلس النواب ميزانية الجامعة
ومن اسبوعين مضيا انتشرت في الجو اشاعات مختلفة عن الجامعة ، فان
روح التدمير والاستياء التي بدت بين النواب من تصرفات وزير المعارف
السابق في شؤون وزارة المعارف تناولت تصرفاته في أمر الجامعة أيضا
وهي تصرفات اجتمعت الكلمة على انها خرقت القانون في كثير من المسائل
الهامة ، بل قامت على اساس من الفوضى التي لم تراع فيه للقانون
حرمة ..

ومنذ ذلك الحين راجت اشاعات شتى ، فقيل ان هناك فكرة ترمى الى إلغاء قانون الجامعة وترك كل مدرسة عالية او كلية قائمة مستقلة ، مع ابقاء كليتي الآداب والعلوم كل كلية منهما على حدة الى ان يتيسر انشاء جامعة بالمعنى الصحيح على اساس متين منظم ، راجت غير ذلك من الاشاعات ، وراينا مدير الجامعة الاستاذ احمد لطفي السيد بك يتردد على بيت الامة عدة مرات قابل فيها دولة الرئيس الجليل سعد باشا زغلول للدفاع عن الجامعة او عن مصر الجامعة .

ومن المسائل التي ثارت حولها الاشاعات ايضا مسألة كتاب « الشعر الجاهلي » الذي اخرج به الدكتور طه حسين الاستاذ بالجامعة واستنكر العلماء وغير العلماء بعض ما احتواه من العبارات الماسة بالدين ، فان كثيرين من النواب يستنكرون بقاء الدكتور طه استاذ بالجامعة بعد ان اجتمعت كلمة العلماء على خروجه هلي الدين . وكان صاحب الفضيلة النائب المحترم الشيخ مصطفى القاياتي قد اعلن عزمه على استجواب رئيس الوزارة في هذا الشأن . ثم بدلت مساع حثيثة لحمله على العدول عن الاستجواب ، ثم ابدل الاستجواب بسؤال نشرناه منذ ايام على ان يكون الرد عليه كتابة .

ولم يرد رئيس الوزراء على السؤال واشيع ان كثيرين من النواب شيعر ضون مسألة الدكتور طه حسين على المجلس اثناء بحث الميزانية وقيل ان بعضهم سيطلب الغاء وظيفته ، فبدل اصدقاء الدكتور طه حسين مساعي حثيثة للوصول الى اقناع الدين ينوون المطالبة بالغاء الوظيفة بالعدول عن ذلك ، على ان يكتفى في المجلس باستنكار عمل الاستاذ طه .

وحدث امس ان ثارت المناقشة في مجلس النواب في شأن كتاب « الشعر الجاهلي » ومؤلفه ، والقيت الخطب مما يراه القراء بنصه في محضر جلسة المجلس المنشورة في غير هذا المكان .

وقدم النائب المحترم عبد الحميد البنان أفندي نائب الجمالية اقتراحاً
من ثلاثة أقسام :

- ١ - إبادة كتب الشعر الجاهلي .
- ٢ - إحالة الدكتور طه حسين إلى النيابة .
- ٣ - إلغاء وظيفته .

وقد سلم معالي وزير المعارف بالقسم الأول من الاقتراح ، وتكلم دولة
عدلي باشا رئيس الوزراء عن القسم الثاني ، وجرت بينه وبين دولة
الرئيس الجليل مناقشة اشترك فيها وزير المعارف والحقانية ، انتهت
بأن ذكر عدلي باشا أن قرار المجلس بإحالة المؤلف إلى النيابة يكون بمثابة
اعتراض على تصرفات الحكومة وذكر مسألة القة بالوزارة !

وكان الأمر قد أبلغ إلى دولة باشا (*) فترك مجلس الشيوخ مسرعاً
إلى مجلس النواب .

وكان جو المجلس مملوءاً كهرباء ، فاقتراح النائب المحترم الدكتور أحمد
ماهر رفع الجلسة عشر دقائق للاستراحة ، ولما رفعت ذهب الرئيس
الجليل إلى مكتبه بمجلس النواب وتبعه إليه عدلي باشا ورشدي باشا
وبقياً معه عشر دقائق .

وكان دولة الرئيس الجليل سعد باشا متعباً فاستقل سيارته إلى
داره .

واتفق بعض النواب على تأجيل الجلسة إلى غد ، لأن الساعة كانت
قد أوشكت على العاشرة تقريباً ، وليكون هناك متسع من الوقت لتسوية
المسألة .

وأميد الجلسة في الساعة العاشرة وثلاث برئاسة حضرة صاحب

(*) قلت : كان رحمه الله وقتئذ رئيساً لمجلس الشيوخ .

السعادة مصطفى النحاس باشا ، فطلب أعضاء كثيرون التأجيل لتأخر الوقت ، فاجلت .

وعلى اثر ذلك ذهب حضرة صاحب المعالي فتح الله بركات باشا الى رشدي باشا الى بيت الامة ، كما قصد إليه صاحب المعالي فتح الله بركات باشا ومحمد محمود باشا ، وتكلم عدلي باشا في ظروف الحادث ، وذكر انه قام على سوء تفاهم ، فإنه لم يقصد تحدي المجلس في سلطته . وظل عدلي باشا ورشدي باشا في بيت الامة الى ما قبل منتصف الليل بثلاثي ساعة . وبعد انصرافهما سألنا بعض الوزراء عن النتيجة فقالوا لنا « إن الحادث سوّى وانتهى وأصبح كأنه لم يكن » .

وعلى اثر ذلك ذهب حضرة صاحب المعالي فتح الله بركات باشا الى النادي السعدي ، حيث كان بعض اصحاب المعالي الوزراء وبقي هناك نحو نصف ساعة مع كثيرين من أعضاء مجلسي النواب والشيوخ يتسلمون .

ولا شك انه كان مما يؤسف له كثيراً ان ينتهي الدور البرلماني الحاضر بخلاف يقوم حول مسألة كمسألة أمس بعد ان سار مجلس النواب والوزارة في مختلف شؤون الدولة الخطيرة بتمام الاتفاق والوثام ، وان تثير الحكومة مسألة الثقة بسبب كتاب سلمت - إذ اقرت مصادره وقبلت إبداته - بضرر ما فيه ، كتاب نعرف ان الاغلبية العظمى من الامة - وفي مقدمتهم العلماء والمتعلمون - لا ترضى عنه ولا عن مؤلفه .

جلسة يوم الثلاثاء

الرئيس : ننتقل الى استئناف النظر في ميزانية الجمعة .

عبد الحميد البناني افندي : قدمت اليوم بلاغا الى النيابة العمومية للتحقيق مع الدكتور طه حسين فيما كتبه طعنا على الدين الاسلامي ؛ وبناء على ذلك لم يبق محل للقسم الثاني من اقتراحي الذي قدمته أمس في هذه المسألة ؛ وبما ان مصادرة الكتاب لا يمكن ان تكون الا بحكم ، وهذا تابع بطبيعة الحال للقضية المطلوب تحقيقها ، فانه لم يبق محل للقسم الاول

ايضا في اقتراحي ؛ وأما فيما يختص بالقسم الثالث فاني أكتفي بتصريح
دولة رئيس الوزراء ومعالي وزير المعارف بالنظر في هذه المسألة وبحثها
بما تستحقه من العناية .

وبناء على كل هذا قد سحبت اقتراحي .

الرئيس : وهو كذلك .

نقول : وتسلمت النيابة الدكتور طه حسين ، وتم طبع هذا الكتاب
وهو معلق بعد في ميزانها أما الى وأما الى(*)

(*) قلت : واجت التنيابة التحقيق وحفظت القصية ، وكان كتاب الحفل وما تضمنه
من اسباب ، بابا من ابواب الادب في معارضة كتاب الدكتور طه حسين بك لم يؤن
يذكره قراؤه .

المصدر : تحت راية القرآن ، المعركة بين القديم والجديد ، الطبعة الاولى : المكتبة
الاهلية بمصر ١٩٢٦ ، الفصل الاخير من الكتاب .

الدعوة الى الاتحاد بالتشكيك في الدين

كتاب (في الشعر الجاهلي)

ظهر بمصر في اواخر السنة الماضية كتاب بهذا الاسم من وضع الدكتور طه حسين مدرس الآداب في (الجامعة المصرية) واحد اركان جمعية دعاية الاتحاد بمصر ، بنى بحثه فيه على منهج للبحث في الآداب وغيرها غريب هو أن يبنى على الشك في كل ما روي عن المتقدمين او تكذيبه وأن أجمعوا عليه ، وعلى التجرد من الدين والجنسية والوطنية ، وجميع الروابط القومية والمالية . وهو بناء على هذه القاعدة يطمح فيما ثبت بنص القرآن المجيد وفي جميع ما صرح عند علماء الملة الاسلامية من الروايات الدينية والتاريخية والادبية ، دع ما ليس له أسانيد تصل الى درجة الصحة كتواريخ سائر الامم ومروياتها . حتى انه تجرأ على التصريح بتكذيب القرآن المجيد فيما أثبتته من بناء ابراهيم واسماعيل لبيت الله الحرام بمكة المكرمة ، وشكك في آيات أخرى وفي أحاديث وزوايات كثيرة من صدقه فيها من تلاميذ الجامعة او غيرهم من الدهماء ينبذ الدين وراء ظهره ويمشي عاريا مجردا من الوازع النفسي الذي ينهى عن الفواحش والمنكرات ، فيستحل جميع ما قدر عليه من أموال الناس وأعراضهم اذا عنت له وأمن العقاب عليها في الدنيا . وحينئذ يكون كالدكتور طه حسين في فلسفته وأحكامه التي كان منها عد أفسق الفساق في التاريخ كأبي نواس من كبار المصلحين ، ونشر أخبار فسقه في صحيفة السياسة وفيه من ترغيب الناس فيها .

ان قاعدة الدكتور طه حسين التي جرى عليها في كتابه هذا وفي غيره هي ان الفلسفة العليا التي يتوقف عليها وصول الانسان الى العلم الصحيح

في الآداب والتاريخ وغير ذلك هي أن يكذب الله ورسله وأفضل البشر بعد الرسل كالخلفاء الراشدين وأئمة العلم والدين ، أو يشكك في أقوالهم على الأقل ، ويأخذ بالقبول والتسليم ما فيه طعن في الإسلام ، وفي سلفه الصالح وكبار أئمة وإن لم يقله إلا بعض فساق المسلمين ومن لا ثقة بصدقه منهم ومن غيرهم ، ثم ماذا ؟

ثم يستبدل بها نظريات بل ضلالات اخترعتها مخيلات ملاحدة الأفرنج وكذا دماء النصرانية الذين تعلموا وربوا على الطعن في الإسلام وجعل مدار معيشتهم من جمعياتهم الدينية على تشكيك المسلمين بدينهم أن لم يقدروا على تحويلهم عنه وجعلهم أعداء له . ويزين ذلك بخلاصة اللفظ وشقشة اللسان والقلم ، وسفسطة الجدل ، ولماذا ؟

لأجل أن تنحل روابطهم الملية ، وتزول عقيدتهم الدينية ، وتفسد ملكاتهم الأدبية ، فيقبلوا بارتياح أن يكونوا تابعين لدول الاستعمار الأجنبية ، فإن لم تكن هذه اللام لام العلة والغاية ، فلا بد أن تكون لام الضرورة والعاقبة .

إن موضوعات هذا الكتاب هي من دروس للدكتور طه الأدبية التي يلقيها على تلاميذ الجامعة المصرية لأجل أن ينسلخوا من الإسلام الذي صار قديماً رثاً بالياً في نظره !! ويصيروا أمة جديدة لا يدينون بدين ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يابون الخنوع لكل حاكم وإن كان أجنبياً .

وكذلك فعل صديقه واحد أركان جمعيته الشيخ علي عبد الرازق في كتابه « الإسلام وأصول الحنم » فأرضيا بذلك دول الاستعمار ودماء النصرانية فائياً على هذا أجل الثناء كما أثنيا على ذلك . وكلنا عندهم محل الرجاء .

ظهر هذا الكتاب وأنا في مكة المكرمة فرأيت في الجرائد خبره وقيام رجال العلم والدين بالرد عليه والطعن فيه ومطالبة الحكومة بمصادرته

ومنع قراءته ورأيت فيه ان الحكومة (عاقبته) بشراء نسخ جميع الكتاب منه دفعة واحدة بدلا من ان يبيعها هو في عدة سنين - وحفظها لدى وزارة المعارف - ولا ندري لماذا ؟

ولما رجعت الى مصر لم يتح لي الحصول على نسخة منه وانما اطلعت امس على نسخة منه استعرتها ساعة واحدة او اقل من ساعة فتصفحت فيها اهم صحائفه .

ورأيت قبل هذا في الجرائد اضطرابا في مجلس النواب اذ طلب بعض اعضائه عقاب هذا المعتدي على دين الحكومة الرسمي وهو من عمالها واخراجه من المدرسة الجامعة حرصا على عقائد طلبتها وآدابهم ، وكان هذا الاضطراب يؤول الى استقالة الوزارة المدلية لان صاحب الدولة رئيسها ووزير الداخلية فيها رأى انه لا حق لمجلس النواب في مطالبتها بما طالبا فطلق يرد على بعض النواب ، وانبرى صاحب الدولة الرئيس الجليل سعد باشا زغلول رئيس المجلس لمناقشته والدفاع عن حقوق المجلس حتى اعتقد الحاضرون ان الجلسة لا تنتهي الا باستقالة الوزارة ، ولما كان اتفاق هذه الوزارة مع المجلس هو قطب الرchy لاتحاد الامة المصرية بعد طول الشقاق اقترح بعض الاعضاء تأجيل الفصل في هذه المسألة الى الجلسة التالية لتلك الجلسة ، وذهب في تلك الليلة كل من صاحبي الدولة رئيس الوزارة ورئيس مجلس الشيوخ حسين رشدي باشا الى بيت الامة فسمرا مع دولة سعد باشا سمرا طويلا انتهى بالاتفاق على قبول ما صرحت به الحكومة في مسألة الدكتور طه حسين وهو انها تعمل ما يجب عليها وان يطلب بعض النواب من النيابة العامة اقامة الدعوى على الدكتور طه حسين - وهكذا كان .

طلب بعض النواب محاكمة الدكتور طه حسين فطلبت النيابة العامة للتحقيق معه ، وعين جماعة من كبار علماء الجامع الازهر لمناقشته ومناقشة وكلائه في القضية ، وقد ظهر من ضعف هؤلاء العلماء في المناقشة ما كان مدعاة الامتعاض والاسى من اهل الدين والتقوى ، وقال بعض الملاحدة

ان علماء الازهر ارادوا ان يشبتوا كفر الدكتور طه حسين فاثبت هو
كفرهم !!

ليست هذه القضية قضية فرد اسمه طه حسين يشك ويشكك في
الدين فقط - بل هي اعظم من ذلك - ولا هي قضية استاذ في مدرسة
الجامعة المصرية اعطي حقا رسميا في افساد عقائد الطلبة في المدرسة
الجامعة الرسمية وتجريدتهم من دينهم - وان هذا لعظيم جدا جدا -
ولكن وراءه ما هو اعظم منه وهو الذي يفقهه اهل الفقه في مصر وفي اوروبا
وسائر العالم وبه كانت القضية اعظم واكبر شأنا من قضية فرد اشتهر
بعدم التدن وبالصمد عن الدين ، واعظم واكبر شأنا من كونها قضية استاذ
في الجامعة المصرية اعطي حقا رسميا من الحكومة يثبت رأيه على زيغه -
اي يافساد عقائد الطلبة .

بمذا كلت هذه القضية اعظم من هذا الامر الذي اعترفنا بانه عظيم
جدا جدا جدا ؟

يذكر قراء المنار اننا كتبنا في احدى المقالات التي استنكرنا فيها جريمة
كتاب الشيخ علي عبد الرازق ان احد اذكى الاسرائيليين في مصر صرح
في محفل ادبي بان قضيته هي قضية التنازع بين مدرسة الجامعة الازهرية
الدينية ومدرسة الجامعة المصرية اللادينية ، او التنازع بين الدين والالحاد
في البلاد المصرية ، ولعلهم يذكرون ايضا ان الشيخ علي عبد الرازق هدد
خصومة في بعض المقالات التي نشرها في جريدة السياسة وانذروهم الخيبة
والفشل في مقاومته ومحاكمة الازهر له ، ثم ظهر ان وزير الحفانية ورئيس
الحزب الحر الدستور يعارض في محاكمة هيئة كبار علماء الازهر له
بحسب قانون الازهر ، ولما اصر رئيس الوزارة في ذلك الوقت (يحيى
ابراهيم باشا) على وجوب محاكمته وعضده اكثر اعضائها استقال وزير
الحفانية هو وسائر الوزراء الذين من حزبه الحر الدستوري كما هو
مشهور ولم ينسب الجمهور .

وهذا الدكتور طه حسين قد جعل كتابه الجديد هدية الى صاحب الدولة عبد الخالق باشا ثروت وزير الخارجية في الوزارة الحاضرة واحد الاركان المؤسسين للحزب الحر الدستوري وصدره باسمه ، وفهم الكثيرون ان رئيس الوزارة صاحب الدولة عدلي باشا قد ناضل مجلس النواب واشتدت الملاحه بينه وبين صاحب الدولة سعد باشا رئيس المجلس لاجله حتى كاد يسمح بترك الوزارة في هذه السبيل .

ومما يعلمه الجمهور مع هذا ان جريدة السياسة التي هي لسان الحزب الرسمي هي اللسان غير الرسمي لهؤلاء الذين يطمنون في الاسلام ويحاولون هدم دعائمه الدينية واللغوية والادبية كالشيخ علي عبد الرازق والدكتور طه حسين وغيرهما ، وهناك جريدة أخرى اسبوعية تمت الى هذا الحزب بسبب ، وهي تهزأ بالدين ورجاله في كل عدد ولو بغير سبب .

ومما يعلمون مع هذا ان الملاحدة والزندقة قد كثروا في مصر ، وانهم صاروا يجاهرون بالدعوة الى الالحاد ، والى تقليد زعماء الترك في المروق منه والتفصي من جميع مقوماته ، والانسلاخ من جميع مشيخته ، وتقليد ملاحدة الفرنج واباحيهم دون أهل الدين منهم الذين يبدلون الملايين في تأييد دينهم ونشر دعوته في العالم ، ومن هؤلاء الملاحدة اصحاب المناصب العالية والدائية .

فمن فكر في هذه المقدمات كلها يعلم ان قضية الدكتور طه حسين هي قضية التنازع بين دين الاسلام والجهر بالالحاد الصريح كما كانت قضية الشيخ علي عبد الرازق كذلك - وقد صرح بهذا فيهما بعض كتاب الجرائد الاوربية في مصر وفي أوربة نفسها ، فلذا برىء الدكتور طه حسين منها تعد تبرئته في عرف الشرق والغرب انتصارا للكفر على الايمان ، والالحاد على الاسلام ، وثارا للملاحدة من المسلمين ، وشبهة في حزب الاحرار الدستوريين ، تجرى سائر الملاحدة على الطعن في الدين وانه لم يبق بين اتباع الحكومة المرية خطوات الحكومة التركية الحاضرة الا قليل ولا أقول اكثر من هذا ولا حاجة الى قول يعرفه جماهير المفكرين من شرقيين وغربيين ، لا من المصريين وحدهم .

ولن يمكنني مع هذا أن أقول أن الحزب الحر الدستوري في جملته مغبون ومظلوم في جمل جريدة السياسة لسان حاله في كل ما تنشره خارجا عن الخطة السياسية الوطنية للحزب كالحملة على الدين ورجاله ودعوتها إلى تجديد الأمة المصرية بثقافة جديدة تحل روابط الثقافة الإسلامية وتحل محلها ، فلنا نعرف من أعضائه المسلمين الصادقين الصائمين ، بل ربما كان في أعضائه من يكره كثيرا مما نشرته في سبيل سياسة الحزب أيضا . أو قول أيضا أن ما أشرت إليه من سبب نضال صاحب الدولة عدلي باشا لمجلس النواب هو المعقول دون ما قيل وما انتشر من كون المراد به الدفاع عن طه حسين وكتابه . وأقول ثالثا أن صاحب الدولة ثروت باشا لا يعقل أن يكون قد استشير في تصدير كتاب (في الشر الجاهلي) باسمه ، أو أنه رضي بذلك على علم بما في الكتاب .

ثم أقول رابعا إن النيابة العامة إذا قررت عدم محاكمة طه حسين ، وإن القضاء إذا براه بعد محاكمته من عقاب الطعن في الدين وتكذيب القرآن وكذا التوراة ، فلا يكون هذا ولا ذلك براهنا منطقيًا ولا قانونيًا على تعمد نصر القضاء الكفر على الإيمان ، والألحاد على الإسلام ، لأن كلا من رجال النيابة والقضاء المشتركين في هذه القضية قد ينظرون ويحكمون بمقتضى الالفاظ التي يقولها الخصوم في مجالس التحقيق والمحاكمة ؛ وقد يغفلون عن كون كلام طه حسين وواكلائه مخالفا لكل ما فهمه رجال الدين وجماهير المسلمين والغربيين في كتاب الدكتور طه حسين . ومن كون فهم هؤلاء الجماهير يجب أن يكون له قيمة بل أكبر قيمة في ادانته فإن العبرة أو العمدة في اثبات طعنه في الدين واهانته له بما يفهمه جماهير الناس منه ، لا بما يمكن أن يقال في تأويل الكلام والجدال فيه ، وقد فهم العرب والإفرنج جميعا أن الكتاب طعن صريح في القرآن والنبي وسلفه المسلمين الصالحين وأئمتهم ، ونكتفي بنشر برقية واحدة مما جاء من أوربة في ذلك :

داعي أوربة في قضية الدكتور طه حسين :

لندن في أول نوفمبر - لمراسل الاهرام الخاص - نشرت جريدة « الدايلي تلغراف » اليوم مقالا رئيسيا جاء فيه ما يأتي :

« ليس في العالم دين لا يوجد بين معتنقيه عدد من الهرطقة .
فالدكتور طه حسين رجل جسور فلا بد أن ينال جزاءه بالاضطهاد .
فمن ينتقد القرآن فهو كافر لأن القرآن منزل بحروفه . وهذا يعني أن
الوحي لا يقتصر على ما يقوله القرآن ، بل يشمل أيضاً معنى ذلك القول
كما فسره المفسرون القدماء . ثم إن المسلم المتمسك بدينه يود أن يذهب
إلى أبعد من الإيمان بوحي القرآن ويريد من الكتاب أن يكون الحجة
الفاصلة في الأدب العربي وينكر على كل إنسان أنه يستطيع الاتيان بمثل
لغته العالية . فمن الصعب على العقل الغربي أن يقبل هذا . على أن
المؤمنين أنفسهم قد يجدون مثل هذه الصعوبة ، فقد سأل اثنان من
الصحابة النبي مرة كيف يقرأ آية قراها كل منهما قراءة مناقضة للآخرى
فأجاب أن القرآن أنزل عليه بسبع قراءات . ويظهر أن النبي لم يكن
هو نفسه يكتب القرآن ، بل أنزل عليه بواسطة جبريل ، ثم توقفت هذه
البلاغات المكتوبة المرسله من السماء وجعل النبي يتكلم بصوت الوحي
والصحابة يكتبون ما يقول وقد نبه مرة إلى إحدى الآيات قائلاً إنها وحي
من الشيطان فنسخت .

« ليس في العالم عقيدة يسهل الدفاع عنها إذا شاء الناقدون البارعون
تفنيدها أمام جمهور يميل إلى النقد . ومع ذلك فلازم لم يكن الوحي هو
القوة التي جعلت للقرآن ذلك السلطان فما هي تلك القوة ؟ لقد أوجد
القرآن أحد الأديان العظمى التي يعتنقها الجنس البشري وهو منذ ألف
سنة من أعظم القوى الموجودة في العالم » ا هـ .

(المنار) اقتصرنا على هذه البرقية لأن صاحب الجريدة الانكليزية
زاد على وصف طه حسين بالهرطقة (يعني محاربة الدين) أن أيده في
هرطقته بأمور نشر إلى تخطئتها بالإيجاز ، وشهد للقرآن شهادة معقولة
نصفه بها وجوه الملاحدة ودعاتها الذين يحاولون سلب هذه القوة من
المسلمين والذين لا يفقهون سر المعجز القرآن ، فنقول :

(١) إن الكاتب الانكليزي علل كفر من ينتقد القرآن بأنه منزل

بحروفه واستنبط من هذا أن تفسير القدماء للقرآن يدخل في معنى الوحي .. ومراده أن من ينتقد تفسير المتقدمين كان كافراً كالذي ينتقد عبادة القرآن المنزلة . يشير الى أن طه حسين قد يضطهد بمخالفته لتفسير قدماء العلماء ! وكأنه يلقنه بذلك نوعاً من اساليب الدفاع .

وجوابه أن هذا خطأ كبير فإنه لم يقل أحد من علماء المسلمين وأئمتهم إن تفسير أحد من القدماء له حكم نص القرآن نفسه ، وكثيراً ما نرى متأخري المفسرين يخالفون بعض المتقدمين في تفاسيرهم حتى مفسري الصحابة منهم .. نعم أن اجماع أهل الصدر الأول من الصحابة والتابعين على تفسير آية معتبر من أدلة الشرع الواجب اتباعها ، ولكن مخالفته لا يعد كافراً الا اذا كان أمراً معلوماً من الدين بالضرورة وكان المخالف غير حديث عهد بالإسلام - أو كان قد علم به وكنبه أو جحدته . فالمنار في التكفير على اعتقاد المخالف أن هذا من قطيعات الدين المنصوصة في القرآن ومخالفته أو جحوده مع ذلك .

(٢) قال : أن المتمسك بدينه يود أن يذهب الى أبعد من الإيمان بوحى القرآن النخ وجوابه أن كل من قرأ القرآن أو سمعه من أهل المعرفة الصحيحة باللغة العربية والنديق السليم في آدابها من المسلمين وغير المسلمين كانوا - وما زالوا - يؤمنون بما ذكر الكاتب الانكليزي من خصائص المسلم المتمسك بدينه وهو أن القرآن « هو الحجة الفاصلة في الادب العربي ، وأنه لم يستطع ولن يستطيع أحد الاثيان بمثل لغته العالية » . ولا نسلم للكاتب قوله إن العقل الغربي يصعب عليه أن يقبل هذا فضلاً عن قوله ان المؤمنين انفسهم قد يجدون هذه الصعوبة . وذلك أن العقل الغربي السليم لا يمكن أن يحكم في أمر لا يعرفه وهو ليس محالاً للماتة .

من المنصوص في القرآن والمعروف بالتواتر الاجماعي من تاريخ الاسلام أن النبي (ص) قد تحدى عرب قريش وهم أفصح العرب لغة ثم تحدى سائر الخلق بالاثيان بمثل القرآن أو بسورة من مثله ، وجعل هذا آيته

الكبرى على كونه وحياً من الله وصرح بأنهم لن يستطيعوا ذلك فقال حاكياً عن الله تعالى (ولن تفعلوا) فلو قدر أحد من الكافرين به وكان أكثرهم كافرين أن يأتوا بسورة من مثله لأتوا بها لابطال دعواته والاستراحة من تعادي القبائل بمقاتلته ، ولكن ظهر عجزهم وعجز جميع الخلق من الاتيان بسورة من مثله في بلاغته واهم عن الاتيان بمثله في هدايته اعجز ، فهذا النوع من اعجازه قد اعترف به الكاتب الانكليزي وغيره من الغربيين . ولكنه امترى في اعجازه ببلاغته لانه لا يعرف لغته فهذا العجز حجة للمسلمين الذين يعرفون البلاغة العربية والذين يجهلون منها الاما جم وعوام العرب على اعجاز القرآن وصدق وعد الله عز وجل ، وهي حجة واقعية قطعية لا يمكن المراء والجدل فيها ، ولا مجال هنا للزيادة على هذا وقد بسطناه في مواضع من التفسير وغير التفسير .

(٣) زعمه أن اثنين من الصحابة (رض) سألا النبي (ص) مرة « كيف يقرأ آية قراها كل منهما قراءة مناقضة للآخرى فأجاب أن القرآن نزل عليه بسبع قراءات » .

هذا النقل أو الزعم باطل ، وله أصل حرافه أو لم يفهمه الناقل ، كذاب خصوم الاسلام فيما ينقلون عنه . ونحن نذكر أصله الصحيح ، ليعلم من يريد العلم الحق كيف يكون الاختلاف والتحريف .

اقول أولاً إن قراءة القرآن بالسبعة الاحرف وردت في حديث مستقل غير حديث اختلاف بعض الصحابة في القراءة فقد روى أحمد والبخاري ومسلم من حديث ابن عباس (رض) أن رسول الله (ص) قال « أقراني جبريل على حراف فلم أزل أستزيده ويزيد لي حتى انتهى الى سبعة احرف » وفي بعض الروايات أن النبي (ص) قال له « هون على امتي - و : ان امتي لا تطيق ذلك » كما في صحيح مسلم من حديث أبي بن كعب ، وهذه غلة منصوبة في سبب تعدد القراءات تنافي أن تكون لتصحيح ما اختلف فيه بعض الصحابة .

ثم اقول ان الاختلاف وقع بين عمر بن الخطاب وحكيم بن هشام

(رضي الله عنهما) في بعض آيات سورة الفرقان كما في الصحيحين وكل منهما ادعى أن النبي (ص) اقراه كما قرأ فجلبيه عمر بردائه وأخذه إلى النبي (ص) وقص عليه ما سمعه منه مخالفاً لما اقراة (ص) فصدق كلا منهما بأنه هو الذي اقراه كما قرأ وقال « ان هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقراءوا ما تيسر منه » وواقع مثل ذلك لغيرهما . ولم يذكر أحد من الرواة ما اختلف فيه عمر وهشام ، فمن أين أخذ هـنا الانكليزي قوله ان قراءة كل منهما كانت مناقضة للآخرى ؟ هذا اذا كان قد عبر بما يدل على المناقضة المعروفة في اللغة العربية أو اصطلاح علماء المناظرة عندنا . فاما اذا كان تعبيره بمعنى المخالفة التي تصدق باللفظية بحيث لا ينقض معنى كل قراءة معنى الاخرى فيكون كلامه صحيحا . وفي الفرقان الفاظ كثيرة اختلف القراء في قراءتها منها المتواتر الذي يعد قرآنا ، ومنها غيره وهو لا يعد قرآنا ، فالاول قراءة (ويجعل لك قصورا) بضم لام يجعل وبجزمها ، وقراءة ضيقا من قوله تعالى (واذا لقوا منها مكانا ضيقا) بتخفيف الياء وبتشديد ياءها ، وأمثلة ذلك مما لا يتناقض معناه .

(٤) قوله : ويظهر أن النبي لم يكن هو نفسه يكتب القرآن « الخ وهذا لا يحتاج الى استنباط منه او استظهار فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أمياً - وأميته من دلائل نبوته - لا يكتب شيئا وانما كان يكتب له أصحابه كل ما يوحى به اليه ويحفظونه ويقرءونه كما يقرء صلى الله عليه وسلم في الصلوات الخمس وفي خروجها كل يوم . والذين اختلفوا من الصحابة في بعض الالفاظ من سورتي الفرقان والنحل سمعه بعضهم من بعض في الصلاة .

(٥) قوله عن النبي صلى الله عليه وسلم « انه نبه مرة الى احدي الآيات قائلا انها وحي من الشيطان فنسخت » غير صحيح ، وهذه هي المسألة المعروفة بمسألة الفرائيق وقد كتب شيخنا الاستاذ الامام مقالا مسهبا في تحقيق الحق فيها يراجعها من شاء في المجلد الرابع من المنابر او في ملحقات تفسير الفاتحة المطبوع مرارا .

(٦) قوله « ليس في العالم عقيدة يسهل الدفاع عنها » الخ هذا نفى مطلق لا يجزم به عقل منطقي ، فالدفاع من وجود الله ووحدةانيته وحكمته من اسهل الامور وقد جزم بها اكثر البشر من جميع الملل والنحل والمنكرون لها على قلتهم لم يسمعو ابراهيمها من اهل العلم الصحيح ، ومن سمع ذلك ومازى فيه فشانه كشان السوفسطائية الذين انكروا الحسيات وماروا فيها فلا يعتد بانكارهم اذ مقتضاه انه لا يثبت في العالم شيء ، وهذا جهل ما وراءه جهل .

واما شهادة الكاتب الانكليزي التي حملة استقلال عقله على التصريح بها فهي ان سلطان القرآن الروحي الذي حدث به ذلك الانقلاب العظيم في البشر واوجد احد الاديان العظمى فيهم وهو منذ الف سنة ونيف « من اعظم القوى الموجودة في العالم » - اذا لم يكن هذا السلطان وهذه القوة قوة الوحي الالهي وسلطانه فاي شيء هما ؟ وهذا بمعنى ما قلناه وكتبناه مرارا وهو ان اعجز القرآن بهدايته ، اعظم من اعجازه ببلاغته : وقد صرح بمعناه غير هذا الكاتب من حكماء الغرب .

إننا نكتفي في هذه المقالة بل العجالة بتنبيه الاذهان لخطر هذا الكتاب وامثاله من مكتوبات الدكتور طه حسين واخوانه دعاة الالحاد والولياتهم وندع الرد على قضايا كتابه في الشعر الجاهلي او الادب الجهلي الى الذين وجدوا من فراغ الوقت ما شغلوه بالرد على قضايا الباطلة وشبهاته العاطلة . ووجه الخطر انه دعوة الى الكفر والالحاد وتحقير الدين والصد عنه ولا سيما في نابتة المدارس العليا وغيرهم ونحن ما زلنا نذكر الامة بخطر هؤلاء وضرورهم منذ بلغنا انهم الفوا جمعية للتعاون على افساد الدين في مصر ، وكان اول من بلغنا هذا الخبر بعد وقوفه عليه المرحوم الشيخ محمد مهدي احد اساتذة البلاغة والدين في دار العلوم ثم في مدرسة القضاء الشرعي التي صار وكيلا لها . ثم بلغنا في العام الماضي ان لهم او لبعضهم صلة خفية بجمعية يهودية في مصر الجديدة تساعدهم على سعيهم هذا . والله اعلم .

ولا شك عندنا في ان هذا الافساد هو افعل اسباب ما يتفاقم خطبه

في بلادنا هذه من تهتك النساء والشبان واستباحة الاعراض وانحلال
روابط البيوت وذهاب الصحة والثروة ، وكذا الاستعداد لقبول تعاليم
البلشفية وغيرها من بدع الافرنج التي لا تقوى بنية دولتنا ولا بنية أمتنا
الاجتماعية والعلمية بدون الدين على ما تقوى عليه من احتمالها بني دول
أوربة وشعوبها بعلومها ونظمها وقوتها العسكرية .

(فان قيل) ان الدكتور طه حسين قد صرح حين اتهم بهذه التهمة
بأنه يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله (قلنا) ان مثل هذا التصريح المجمل
البهيم في مقام دفع التهمة لا يسلب منا لغتنا ولا عقولنا فتغير فهمنا لكنابه
وغيره من مكتوباته ومقالاته .

اهلنا يكتب المؤمنون ؟ يضعون كلام الله المنزل موضع الشك بل
ينظمونه في سلك الاساطير الخرافية ثم ينقضونه بنظريات مخترة لبعض
اعداء الاسلام ؟ الايمان بكتب الله هو التصديق اليقيني بكل ما أنزله الله
تعالى فيها مع الاذعان النفسي والعملي له ، فكيف يصدر عن صاحب
هذا الايمان ما ذكرناه وما لم نذكر من تشكيك في القرآن فتكذيب مقرون
بالهزؤ ؟ فترجيح لمطاعن اعدائه فيه على نصوصه .

الايمان بالرسول (ص) هو تصديقه اليقيني القطعي في كل ما جاء به
عن الله تعالى مع الاذعان النفسي والعملي لذلك وهو يقتضي تعظيمه وتوقيره
وتعزيزه أي نصره وتفخيمه . وتقديم حكمه على كل حكم ، واننا نرى له
في هذا الكتاب ما نرى من التكذيب والهزؤ ، ونراه اذا ذكر النبي الذي
يدعي ملته فانما يذكره كما يذكره الكافرون به بلا تعظيم ولا صلاة
ولا سلام عليه ؟

قد كان يمكن لطله حسين أن يذكر شبهات اعداء الاسلام على بناء
ابراهيم واسماعيل لبيت الله تعالى (مثلا) بطريق الحكاية عنهم ، وكان
من مقتضى الايمان أن يقفي عليها بالرد ، أو يجري فيها على قاعدته
(التشكيك) على الاقل ، أو يقول هذه نظريات مردودة عندنا معشر

المسلمين - او عند المسلمين - اذا لم يشأ أن يعد نفسه منهم - بنص القرآن الصريح الذي وصف في بعض سوره بأنه (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد) ولكنني لم أر فيما قرأت من الكتاب جملة تدل على أن كاتبه مسلم او يدين بدين ، وسأعود ان شاء الله تعالى الى النظر فيه ، فان وجدت شيئاً من ذلك أثبتته له .

وصفوة القول فيه انه لو لم يكن قاصداً متعمداً متوخياً تجريد تلاميذه من دينهم ووطنيتهم ، لادخر هذه الفلسفة لنفسه دونهم ، وان شاء ربى عليها اولاده الذين سماهم بأسماء الافرنج دون أسماء المسلمين ، عداوة لهذه اللغة وهذا الدين .

المصدر : مجلة النار ج ٨ ص ٢٧٣ نوفمبر ١٩٢٦

ملاحظة : محرر النار هو الشيخ رشيد رضا .

كتاب في الشعر الجاهلي

دعاية الى الالحاد والزندقة

وطعن في الاسلام

تمهيد :

اتيت الي النظر ثانية في هذا الكتاب وقرأت الكثير من كتبه وفصوله في فرص متفرقة - فحكمت بقراءتها حكما تفصيليا لا شك فيه بمثل ما أجملته في مقالتي الاولى ، بعد تلك النظرة العجلى ، حكمت بأن الدكتور طه حسين ما ألف هذا الكتاب لتحقيق ما يمكن الوصول اليه من الشعر الجاهلي يقينا او ظنا او شكاً ، بل ألفه لاجل الطعن في الاسلام ، والصد عن سبيل الايمان ، والدعوة الى الزندقة والالحاد ، هذا هو المقصد ، والشعر الجاهلي والادب العربي وسيلة اليه .

وقد كنت أردت ان أقرأه كله وأحصى ما فيه من المظالم والابين بطلانها ، ثم رأيت أن خلس الفراغ من أيام الجمع لا تمكنني من ذلك الا في عدة أشبه ، فراجعت الى رأيي الاول وهو ترك الرد التفصيلي للذين صنفوا والذين لا يزالون يصنفون كتباً خاصة في ذلك يعني كل منهم برد نوع من ابطال الكتاب وصاحبه أو برد عدة أنواع منها كما فعل (مصطفى صادق افندي الرافعي) و (محمد فرید أفندي وجدي) ، فان هذا قد بين اغلاطه وجهله من الوجهة العلمية والتاريخية : دون ضلالاته الدينية ، وكأنه رآه مفيداً من هذه الوجهة بهدمه للاسلام المعروف عند اكثر المسلمين لعله يكون وسيلة وتمهيداً للاسلام الصحيح ، اسلام القرآن الكريم اذ كان كتب مقالات في جريدة الاخبار ارتأى فيها ان المسلمين لا يحسن ان يكونوا

مسلمين كما يجد الا اذا تركوا الاسلام المعروف عندهم وارتدوا عنه معتقدين بطلانه ، ثم دعوا الى الاسلام الآخر . وقد حفظت هذه المقالات عندي لابين ما فيها من خطأ وصواب عند سئو الفراسة .

وانني ابدا الآن ببيان خطة الدكتور في دعايته الالحادية وما مهد لها به في كتابه الجديد (في الشعر الجاهلي) من الدعاوى والقواعد الخادعة مع اتفنيدها وبيان ما فيها من التعارض والتناقض ، ثم اقفى على ذلك ببيان اهم مطاعنه في الدين الالهي وفيما ختمه الله واكملة به بيعته خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم .

الفصل الاول

المقاصد والاصول والمقدمات التي جرى عليها الدكتور طه حسين

في طعنه في الاسلام ودعوته الى الالحاد

(١) ان الدكتور طه حسين قد اخذ على عاتقه ان يحارب دين الاسلام والامة الاسلامية بالطعن فيهما وصرف الناس عنهما الى الزندقة والاباحية . ذلك شأنه في مصنفاته من (ذكرى ابي العلاء) الى (في الشعر الجاهلي) وفي مقالاته التي نشرها في جريدة السياسة تحت عنوان (حديث الاربعة) الى مقاله الاخير (العلم والدين) وهي خطة قد ابتدعها بعض اليهود في اوروبية الافساد دين النصرانية على اهلها ، ويقال ان لبعض اعضاء جمعية الالحاد والزندقة هنا صلة ببعض الجمعيات اليهودية .

(٥) (*) ان من اساليب الدكتور طه حسين المعروفة في كل ما كتبه انه يخترع مسائل يجعلها من قبيل القضايا المسلمة بما يزينها به من خلاصة القول ، ثم يستدل بها ، او يورد عليها بعض الشبهات ويرد عليها دفاعا عنها ، وهذا كثير في كتابه هذا وسنذكر امثله عند بيان بطلانه .

(*) هكذا يتسلسل الترقيم في المجلة م . خ .

(٦) أن من أساليبہ انه يشكك في المسائل الثابتة بضروب من خلاطة المغالطة أو السفسطة ، ويزين هذا التشكيك لقارىء كلامه ويحاول حمله على قبوله بدعى أن الشك في كل شيء هو الطريق اللابح الموصل للعلم الحق والفلسفة الصحيحة والتجديد ، فيجب على طالب الحقيقة أن يقبله ولو على سبيل الفرض بأن يفرض أن ما يؤمن به ايماناً يقينياً هو باطل لا حقيقة له ، لأجل أن يكون سالكا للمنهج الذي نزع أن الذي نهجه وأشرعه للناس هو الفيلسوف (ديكارت) اللبحث عن حقائق الأشياء ، وهو تجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل (ص ١١) أو ليلذ عقله بالشك والقلق والاضطراب (ص ٥) أو ليتمتع بلذة قبول كل جديد ونبد كل قديم ولا سيما إذا كان اسلامياً . فيكون من المجددين الذين يكونون أشد شكاً في القديم أو « أشد ما يملكهم الشك حين يجدون من القدماء ثقة واطمئناناً » (ص ٥) يعني أن جل الدتهم وغبطتهم في هدم ما بنه المتقدمون .

(٢) انه قد بين في التمهيد من كتابه هذا المذهب الذي يجري عليه هو واخوانه المجددون للالحاد والاباحة وزينه بقوله (ص ٢) « أريد أن لا تقبل شيئاً مما قال القدماء في الادب وتاريخه إلا بعد بحث وتثبت أن لم ينتهيا الى اليقين فقد ينتهيان الى الرجحان » .

(٣) انه ذكر الفرق بين هذا المذهب ومذهب القدماء بزعمه فقال : « والفرق بين المذهبين في البحث عظيم فهو الفرق بين الايمان الذي يبعث على الاطمئنان والرضاء ، والشك الذي يبعث على القلق والاضطراب ، وينتهي في كثير من الاحيان الى الانكار والجحود » اهـ

ثم وصف هؤلاء المجددين وثمره مذهبهم بقوله (ص ٦) « والنتائج اللازمة لهذا المذهب الذي يذهب المجددون عظيمة جليلة الخطر ، فهي الى الثورة الادبية اقرب منها الى شيء آخر . وحسبك أنهم يشكون فيما كان الناس يروونه يقينياً ، وقد يجحدون ما أجمع الناس على أنه حق لا شك فيه » اهـ

ثم وصفهم بما هو أبعد في الصراحة مدى من ذلك وهو قوله « وهم قد ينتهون الى الشك في أشياء لم يكن يباح الشك فيها » .

(٤٤) انه فصل اجمال هذا المذهب بما أوجبه على هذه الطائفة بقوله « نعم . يجب حين نستقبل البحث عن الادب العربي وتاريخه أن ننسى قوميتنا وكل مشخصاتها ، وأن ننسى ديننا وكل من يتصل به ، وأن ننسى كل ما يضاد هذه القومية وما يضاد هذا الدين . يجب أن لا نتقيد بشيء ولا نلتعن لشيء الا مناهج البحث العلمي الصحيح ، ذلك أننا اذا لم ننس قوميتنا وديننا وما يتصل بهما فسنضطر الى المحاباة وارضاء المواطنين ، وسنفل عقولنا بما يخالف هذه القومية وهذا الدين ، وهل فعل القدماء غير هذا ؟ وهل أفسد علم القدماء غير هذا ؟ » اه بحروفه .

(٤٥) من مناهج الدكتور طه حسين في مباحثه العلمية والادبية ، ومقاصده اللاحادية الاباحية ، انه يعتمد الى شيء من الباطل كالخرافات او الروايات التي لا تصح فيقرن به شيئاً من الحق المشابه له ليوهم المطلع على كلامه ان حكمهما واحد . ثم انه يجعل الباطل هو الحق الذي لا مزية فيه ولا مرء ، اذا كان مشككا في الاسلام او مزرياً به وصاداً عنه ، كما جمع بين خرافات الجاهلية في الجن وتلقينهم الشعر للشعراء ، وبين ما ثبت في الكتاب والسنة من وجود الجن وايمان بعضهم وكفر بعض - ليوهم المسلمين أن هذا من ذاك ، كل منهما خرافات .

(٤٦) من منطق الدكتور طه حسين في البحث والاستدلال انه يجعل بعض جزئيات الاخبار التي توافق هواه قواعد كلية ، وحججا علمية ، لا يتسرب اليها شيء من الشك الذي فرضه في كل كلام قديم حتى الكلام القديم الاولي وهو كلام الله تعالى - وان لم ترو بسند صحيح ، ولم تمحص بنقد ولم تثبت بدليل ، كزعمه أن سعد بن عباد قد قتله المسلمون قتلا لما زعم من ذنوبه وادعوا ان الجن قتلته ، وسيأتي بيان ما فيه من الكذب المتعمد ، فكيف اذا كانت تلك الجزئيات مأخوذة بالتسليم ، ومن هذا انه جعل وقائع الاحوال في العصبية القومية بين العرب أصلاً يحمل عليه ما

ليس منه حتى أدخل في عمومه المهاجرين والانصار الذين ألف الله بين قلوبهم بالاسلام فاصبحوا بنعمته اخوانا كما يشهد لهم القرآن والتاريخ الصحيح الثابت بالتواتر .

(٩١) من منهج الدكتور طه أنه يأخذ كلام بعض اعداء الاسلام في الطعن فيه بالقبول ، والا يجري فيه على قاعدته في رد كلام المتهم بعداوة او عصبية - ولا بقاعدة (بالكون) التي ادعى انه لا يحيد عنها في مباحثه ، فقد رأينا ان ينتحل بعض كلام دعاة النصرانية الذين جعلت جميعياتهم الدينية رزقهم ومادة معيشتهم وتكريمهم الطعن في الاسلام ودعوة اهله الى تركه ، من حيث يطعن في روايات ائمة المحدثين الذين يتقربون الى الله تعالى بتمحيص الروايات مهما يكن موضوعها حتى أن بعضهم صحح بعض ما بعد طعننا في الاسلام او يغري بالطعن فيه . وحكموا بالضعف تارة وبالوضع اخرى على احاديث لا يختلف عاقلان في صحة معناها وتأيدها للاسلام .

(١٠٠) من سنن الدكتور طه ودأبه أنه يخترع للقضايا والمسائل الصحيحة والمختصرة المفتراة منه عللا باطلة يفتجرها افتجارا للطعن في الاسلام كما علل ما زعمه من اختراعهم للشعر الجاهلي بأنهم كانوا محتاجين الى ذلك لتأييد لغة القرآن وكما علل به انتساب العرب العدنانيين الى اسمه عيل بن ابراهيم وما علل به تسمية الاسلام بملة ابراهيم الخ الخ .

الفصل الثاني

(١) تفنيد زعمه انه هو واعوانه طلاب علم يقيني في الشعر الجاهلي :

زعم الدكتور طه حسين او يوهم تلاميذه وقراء كتابه ان الغاية الثمينة النفيسة الغالية التي ينسى هو واخوانه المجددون للاحاد والزندقة قوميتهم ودينهم وما يتصل به من كتاب ربهم وسنة رسوله لاجل الوصول اليها هي تحقيق الحق في الشعر الجاهلي - ونحوه من الادب

العربي وتاريخه — فان لم ينتهوا بعد تكذيب كل قديم فيه والبحث الجديد الى اليقين فحسبهم الانتهاء الى الرجحان: (ص ٢ و ٣) .

ثم قال ان اول شيء يفجأ به القارئ انه بالحاحه في الشك والحاح الشك عليه اخذ يبحث ويفكر ويتدبر حتى انتهى به ذلك كله « الى شيء الا يكن يقينا فهو قريب من اليقين . ذلك ان الكثرة المطلقة مما نسميه شعرا جاهليا ليست من الجاهلية في شيء ، وانما هي منتحلة مختلفة بعد ظهور الاسلام » ثم صرح بان المسلمين هم الذين اختلقوا هذا الشعر واخترعوه ، وقد اشرك المفسرين والمحدثين والمتكلمين في هذا الاختلاق والاختراع لانه يريد ان يعتقد تلاميذه ان جميع علماء المسلمين كانوا كذابين افاكين حتى ائمة الدين منهم .

لكنه نقض كل ما كان بناء في هذا الفصل وهو الاول التمهيدي وهدمه في آخره بعد : « بعد ان اطل فيما اراد ان يجعله قلعة مسلمة في سبب ما قذف به علماء المسلمين من الاختلاق فقال (ص ١٠) .

« فلذا انتهينا من هذه الطرق كلها الى غاية واحدة هي هذه النظرية التي قدمتها فسنجته في ان نبحث عما يمكن ان يكون شعرا جاهليا حقا . وانا اعترف منذ الان بان هذا البحث عسير كل العسر ، وباني اشك شكاً شديداً في انه قد ينتهي بنا الى نتيجة مرضية ، ومع ذلك فسنحاوله » اهـ .

فقصارى فلسفة الدكتور واخوانه دعاة الالحاد انهم يدعون تلاميذ الجامعة المصرية وغيرهم من قراء العربية ان يتجردوا من دينهم وهدايتهم التي هي مناط سعادة الدنيا والآخرة حسب اصول الايمان ، وان يتجردوا من جنسيتهم ووطنيتهم التي بها يعتزون ويتناصرون ويحافظون على شرف الاستقلال والحرية القومية وابداء ذل العبودية — وان يلقوا انفسهم بعد هذا التجرد في تيار من بحر الحيرة والاضطراب في اثبات الشعر الجاهلي يدفعهم شك ويتلقاهم ريب ، ولا ينتهون الى نتيجة مرضية — (اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) والشك باليقين ، والحيرة والاضطراب بالسكينة والطمأنينة (فما ربحت تجارتهم وما كفوا مهتدين) .

أما والله أن هذا مذهب باطل ، لا يرضاه لنفسه فاضل ، وتجارة لا يختار بضاعتها المزجاة عاقل ، وإن هؤلاء المجددين للإلحاد والإباحة لا يقصدون هذا الشك ، ولا يتلذذون به وإنما يتوخون التشكيك لغيرهم لينتظموا في سلك ملاحدة أوربة الذين نسب إليهم صد أهلها عن النصرانية ، إن لم يكونوا كلهم مستأجرين لذلك من المستعمرين الطامعين ، أو من الباشفيين وأمثال الباشفيين .

(٢) تصريحه بأنهم دعاة كفر وجحود للدين :

وصف الدكتور طه حسين هذا الشك في آخر الصفحة الثانية بأنه سينتهي في كثير من الأحيان إلى الإنكار والجحود ، وقال في وصف أهله مجددي الإلحاد (في ص ٦) « وقد يجحدون ما أجمع الناس على أنه حق لا شك فيه » اهـ .

وهذا تصريح منه بأنهم يتعمدون الكفر والإلحاد والدعوة إليه حتى فيما يعلمون أنه حق - وهذا معنى الجحود نفي ما في القلب اثباته ، والاثبات ما في القلب نفيه . قال عز وجل (وجحدوا بها واستيقنوا أنفسهم) أقول : ومنه أيضا قوله تعالى خطابا للنبي صلى الله عليه وسلم (فاتهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) والدكتور طه يعرف هذا المعنى ، ويقصد به جحد القرآن وتكذيبه حتى فيما يعلم هو وأوليؤه أنه حق ، وليس عند المسلمين أجماع على حق لا شك فيه إلا على كتاب الله الذي سبحانه في وصفه (ذلك الكتاب لا ريب فيه) ورسالة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وما تواتر من سننه . فهو يقصد جحود القرآن وما فيه والرسالة والسنن حتى المتواترة - وقد أكد أرادته لهذا المعنى بقوله « وهم قد ينتهون إلى الشك في أشياء لم يكن يباح الشك فيها » . وأما الشعر الجاهلي وغير الجاهلي فأقواه رواية مظنون ، وما عداه فمشكوك فيه أو مردود . فليس فيه شيء أجمعوا على أنه لا شك فيه ، ولا أنه لا يباح الشك فيه .

(٣) بطلان ما علل به ترك الدين والقومية وما يتصل بهما :

جعل الدكتور طه الاصل والقلعة للبحث عن الادب العربي وتاريخه وجوب نسيان الدين وكل ما يتصل به ، أي من علم وهو الكتاب والسنة ومن عمل وهو العبادات والفضائل والآداب الاسلامية ، وكذلك القومية ومشخصاتها - وبطل ذلك بان عدم تركهما يضطر الباحث الى المحابة وارضاء المواطنين وبطل العقل بما يلائم القومية والدين ، وان هذا هو الذي افسد على المتقدمين عملهم دون غيره (ص ١٢) .

نقول في تفنيد هذا الزعم الذي اراد ان يجعله من القضايا المسلمة :

(اولا) ان مسألة الشعر الجاهلي من المسائل النقلية التي لا يمكن اليقين فيها إلا بالنقل المتواتر ، فاذا كان هذا لم يحصل فيما مضى فلن يحصل الآن ولا في المستقبل لان موضوعه الزمن الماضي ، واذا كان اليقين فيه متعلما بقي الظن ، وما دونه من شك ووهم وطريقة علماء الاسلام المتقدمين في ترجيح بعض الروايات على بعض فيه وفي كل منقول ان ينظر في حال الرواة من حيث الصدق والامانة وجودة الحفظ واضدادها ، وعدم معارضة الرواي غير الثقة للثقات - والثقة لمن فقه في العدالة - ومما يشترطونه في عدالة الراوي الا يكون متعصبا لرأي او مذهب وداعية له . وان لا يروي عن علم انه لم يلقه ، وان يكون السند الصحيح متصلا بالعدول ، خاليا من العلل والشذوذ .

هذا ما يروونه من جهة التثبت من الرواة - واما مروياتهم فيشترط فيها ان تكون ممكنة في نفسها فلذا كانت مشتملة على ما يقوم الدليل على امتناعه لم يعتدوا بها الخ ، وبهذه الشروط ردوا كثيرا من روايات الاحاديث واخبار التواريخ ، ودموا كثيرا من الرواة بالضعف والوهم والكذب وتعمد الوضع .

واجدر الناس بالتثبيت والصدق في ذلك ودقة النقد علماء الدين من المحدثين وغيرهم لانهم يدينون الله بتحري الصدق ويؤمنون لايماننا

قطعي، بأن الله يعاقبهم في الآخرة على الكذب واتباع الهوى . فلا إيمان هو الذي جعل عملهم أصبح العلم ، ورواياتهم أجدر روايات الأمم وأحقها بالتمحيص ، وقبول الصحيح منها ورد الضعيف . وقد اعترف لهم بهذه المزية المنصفون من علماء أوربة .

فاذا كان هؤلاء قد قصرُوا في نقد ما روي من الشعر الجاهلي بمثل دقتهم في نقد رواية الحديث فما على الدكتور طه أن صدق في زعمه أنه يقصد الوصول في رواية الشعر الجاهلي إلى شيء قريب من اليقين إلا أن يتبع خطتهم ويسير على منهاجهم ، ومنه أن يدين الله بالتزام الصدق والامانة ، والاجتناب الكذب والخيانة ، اهتداء بقوله تعالى (إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون) - الآية - ويقول رسوله (ص) في حديث الصحيحين وغيرهما « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أئتمن خان » فهذا النهج الإسلامي أصح وأسلم وأقرب إلى الامكان من قاعدة باكون كما فهمها الدكتور طه ، وهي أن ينسى الإنسان جنسه ودينه وما يتصل بذلك لأجل البحث عن امر لا مطمح في الوصول إلى الحق اليقين فيه ، ولا يعقل أن نقول ذلك العالم الرياضي مثل هذا في تحقيق مسائل نقلية عن الأمم الخالية .

(ثانيا) أن نسيان الجنس ومشخصاته إن كان ممكنا فإن نسيان الدين ليس بممكن ، فكيف يأمر به ويوجهه على الناس - ورب الناس لم يكلفهم ما ليس في طاقتهم كما قال تعالى (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) نعم انه يعني بنسيانه تركه وهو لازمه وقد استعمل فيه حتى في القرآن فهو يدعو إلى ترك الدين قطعا ، وإنما السبيل إلى تركه الارتياح فيه ، فهو لذلك يشكك فيه .

(ثالثا) أن الدكتور طه يعلم أن الدين مبني على الإيمان ، والإيمان هو التصديق اليقيني المقترن بالأدلة ، ويعلم أنه ليس من الممكن تركه بمجرد امر أمر لأنه هو الحاكم على العقل والوجدان ، وإنما غرضه بهذا اقناع تلاميذه المقلدين ، الذين لم يصلوا في الدين إلى علم اليقين ، أن

الايمن والعلم بالحقائق ضدان لا يجتمعان ، ليصددهم بهذا عن الايمان والاسلام ، ويوهمهم انهم بهذا دون سواه يمكن ان يكونوا فلاسفة مجددين وأحرارا اباحيين .

(رابعا) نقلت الصحف ان الدكتور طه لما شعر بإمكان مؤخذاته على افساد عقائد طلبة الجامعة المصرية والطن في دين الامة والدولة ، كتب كتابا الى رئيسه مدير الجامعة المصرية قال فيه انه يؤمن بالله وملائكته وكتبه واليوم الآخر - ورغب اليه ان ينشر هذا الكتاب فنشره دفعا عنه فان كان مؤمنا كما كتب فكل ما في القرآن وكل ما اجمع عليه المسلمون من سنة رسول الله (ص) المتواترة قطعي عنده لا يحتمل الشك ، لان الشك ينفي الايمان بالضرورة العقلية ، وبنص قوله تعالى (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتكبوا) وامثاله من كتاب الله تعالى فكيف يتفق هذا مع قلده « وجوب الشك في الدين وكل ما يتصل به » الا ان دعواه الايمان ، وتصريحه بالشك في القرآن ضدان لا يجتمعان ، بل نقيضان لا يدخلان في حكم الامكان .

(خامسا) هب ان المؤمن يمكنه ان يشك ، ولكن كيف يعقل من طالب اليقين في الشعر الجاهلي - وهو لا سبيل اليه كما صرح به - ان يوجب على نفسه ترك اليقين في ايمانه وما يتصل به لطلب ما اعترف بانه يشك شكاً شديداً في انه قد ينتهي به نتيجة مرضية منه ؟ ان الصادق في طلب اليقين يطلبه في كل شيء يمكن الوصول اليه فيه ، فما له يرغب عن اليقين في الدين بعد حصوله ؟ ثم يرغب في طلبه في الشعر الجاهلي مع عدم امكانه ، او مع الشك في الوصول الى ما يقرب منه فيه ؟

(سادسا) هب ان في الامكان الانتهاء في معرفة الشعر الجاهلي الى اليقين وهو ما يرجوه الدكتور - وحق له الا يرجوه لانه محال وانما يرجى الممكن - فهل من المعقول ان نتوسل لهذا اليقين القليل الجدوى ، بترك يقين الايمان الذي يثمر السعادة في الدنيا والعقبى ؟ اليس هذا من الخرق وافن الرأي ، واستبدال الذي هو ادنى بالذي هو خير ؟

(سابعا) هب أن اليقينين متساويان في انفسهما ، وفي ثمرتهما وفائدهما ، فكيف يتصور تعارضهما في الحصول والشبوت ، ومواقف تحصيل المفقود منها على بلل الوجود ، والمعقول المعروف في المنطق أن اليقيني لا يناقِي اليقيني ، فلا بد إذن أن يكونا أو يكون أحدهما غير يقيني ، ومن المعروف من طباع البشر أن النقد خير من النسيئة المساوية له - فكيف إذا كان النقد هو الأفضل والانفع ؟

(ثامنا) نذكر الدكتور طه واعضاء حزبه ، وجمعيته الذين يدعون الاسلام والايمان - ومنهم من لا يدعي ذلك - بعرض قاعدتهم : « وجوب نسيان الدين وما يتصل به » على قوله تعالى « قال رب لما حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا » (*) قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى» والمراد بالعمى هنا عمى البصيرة لا البصر ، فهل يقول الدكتور طه أن هذه الذكري لا تتناولها لأنه أعمى البصيرة والبصر معا فإذا حشر لا يمكنه أن يقول : وقد كنت بصيرا ؟

كل هذه حجج ناهضة ودلائل بينة على أن الغرض من هذا الكتاب افساد دين طلبة الجامعة ، وكل مستعد للكفر والالحاد من العامة ، لا تحصيل ما يقرب من اليقين في الشعر الجاهلي والادب العربي ، فإنه قد صرح بأنه يشك شكاً شديداً في الوصول الى نتيجة مرضية منه ، وكلها تثبت سوء نيته في الطعن في الاسلام ، واضلاله فيما زعمه من طلب تحقيق مسألة الشعر الجاهلي .

(كتاب الشهاب الراصد)

بعد كتابة ما تقدم وجمعه وقبل طبعه اهدى الينا الاستاذ محمد لطفي جمعه المحامي الشهير كتابه (الشهاب الراصد) وهو بحث تحليلي انتقادي ورد علمي تاريخي على كتاب (في الشعر الجاهلي) وهو كتاب حافل ممتع ابطل به ما ادعاه الدكتور طه حسين من اتباع الفيلسوف ديكرت ، وهدم به ما بناه من قواعد الجهل لا ثبات الحق في الشعر الجاهلي كما زعم ، وسنعود الى تفريظه بعد ان نطالع جل فصوله ، وصفحاته تزيد على الثلاثمائة بقطع المنار ، وثمان النسخة منه ١٥ قرشا مصريا تضاف اليها اجرة البريد ويطلب من مكتبة المنار بمصر .

المصدر : مجلة المنار ج ٩ م ٢٧ ديسمبر ١٩٢٦ .

طه حسين

ديكارت

شيخان من انصار القديم قرأ كتاب « الشعر الجاهلي » الذي ادعته منذ أسابيع . وكانا قد سمعنا به قبل ان يظهر ، وكانا قد ازمعنا الرد عليه بعد ظهوره . فلما ظهر الكتاب قرأه كله أو بعضه ، فاعترضهما فيه اسم ديكارت ومنهجه الفلسفي . والله يصرف الكون كما يريد ، ويجري الاقدار فيه كما يحب ، وقد اراد الله ان يظهر اسم ديكارت وفلسفته منذ ثلاثة قرون وان يطبع العصر الحديث كله بطابع ديكارت ، وان يتغلغل تأثير ديكارت كاسم ارسططاليس عنوانا لطور من اطوار الحياة الانسانية العامة التي تلزم الاجيال مهما تختلف بها الازمنة والامكنة . اراد الله هذا كله ، واراد معه شيئا آخر هو ان يظل ديكارت مجهولا عند طائفة من شيوخ الادب في مصر ، لا يعرفون اسمه ولا مذهبه ، ولا يدركون كيف يؤكل ، وان دروا كيف تؤكل الكتف ، ولا يعرفون كيف يشرب ، وان عرفوا كيف تشرب القهوة والشاي ، وكيف يشرب الخروب والعرقسوس . واذا اراد الله امرأ فلا مرد له . وليس لنا ان نلصق للقضاء ونصبر لجهل شيوخ الادب العربي اسم ديكارت وفلسفة ديكارت في العصر الذي يحرم الانسان فيه على ان يعلم كلما استطاع ان يعلم .

ومن غريب الامر ان شيوخ الادب يرون ويكتبون كما كان يرى الادباء القدماء ويكتبون : ان الاديب « هو من يأخذ من كل شيء بطرف » كذلك قال شيخ الادب في دار العلوم ، وانما اريد لاستاذ الشيخ علام ، قال ذلك في « السياسة » منذ اسبوعين ، ولم يكن في ذلك مجددا ، وانما كان يحكي القدماء ويرددهم . وقد كان المبرد حريصا كل الحرص على ان يأخذ الاديب من كل شيء بطرف ، وظهر ذلك في كتاب الكامل ظهورا واضحا حتى انك

لترى فيه بابا قال المبرد في عنوانه : « باب نذكر فيه من كل شيء شيئا » .
وكتب الادب العربي القديمة كلها قائمة على هذا النحو من تصور الادب
والاديب . والاستاذ الشيخ علام واصحابه يرون رأي القدماء ، ويكتبون
ان الاديب يجب ان يلم من كل شيء بطرف ، بل يجهلون ديكرات وفلسفته
وأثره البعيد في حياة العقل والشعور كما قلنا .

وهم يجهلون ناسا آخرين غير ديكرات ، واشياء اخرى غير فلسفة
ديكرات ، ولكنهم مع ذلك يرون أنهم ادباء ، وانهم قد الموا من كل شيء
بطرف . ومعدرتهم في هذا قائمة : فديكرات ليس شيئا وفلسفته ليست
شيئا ، والحق عليهم ان يلموا من كل « شيء » بطرف . فأما ما ليس
« شيئا » فلا ينبغي ان يلموا به بقليل ولا كثير . فإذا اردت ان تعرف
لم لا يكون ديكرات شيئا من الاشياء ، ففي جواب ذلك قولان : احدهم
ان الشيء الذي ينبغي ان يلم الادباء بطرف منه هو الشيء الرسمي الذي
اشتمل عليه برنامج التعليم الرسمي في وزارة المعارف . فعلى الاديب ان
يلم بعلوم العربية وان يلم بالرياضيات والطبيعات . وليس في البرنامج
الرسمي لوزارة المعارف ذكر ديكرات ولا فلسفة ديكرات . واذن فهما
ليسا في الورقة الصفراء واذن فليس الاديب مكلفا ان يلم منهما بطرف
لانهما ليسا شيئا .

هذا أحد القولين . وهناك قول آخر وهو ان الشيء الذي ينبغي ان
يلم الاديب منه بطرف هو الشرقي القديم . . . استغفر الله العظيم واتوب
اليه ، بل هو العربي القديم . مصر القراعنة ليست شيئا ، ومصر اليونان
والرومان ليست شيئا . وليس الاديب مكلفا ان يلم منها بطرف ، واقسم
ما يعرف ، الاستاذ الشيخ علام واصحابه لها طعما . . استغفر الله العظيم
واتوب اليه ، بل الشيء هو العربي القديم الذي لا يتجاوز بلاد العرب
والشام والعراق في العصور العربية الاولى والاندلس في بعض عصورها
الاسلامية . فأما مصر الفاطميين والمماليك ، فأما افريقيا الشمالية فليست
شيئا وللادباء ان يجهلوها ، وهم يجهلونها باذن الله . واذن فأوروبا ليست
شيئا . واذن فديكرات ليس شيئا وفلسفته ليست شيئا . وجهل أوروبا

وديكرت وفلسفته ليس من الامور التي تعاب على الاديب . ورحم الله شيخا من شيوخنا في الازهر اراد ان يرفع في يوم من الايام ظلامه الى المحافظة فلم يستطع ان يكتب ما كان يريد ، فاستعان بأحد « انباء المدارس » معتذرا او مفاخرًا بأنه لا يحسن مثل هذا السخف الجديد . فلشيوخ الادب ان يعتذروا او ان يفاخروا بأنهم يجهلون ديكرت وفلسفته لانهما ليسا شيئا ، وخير من ذلك واجدى ان ينكب الاديب على فقرة من فقرات الحريري ، او مقامة من مقامات البديع ، او بيت من شعر امرئ القيس .

ولكن حظ الاديب سيء ابدا ، وانت لم تنس بعد حرفة الادب التي قتلت ابن المعتز ، وفتفت لحية الحريري ، وحالت بين لفظ الادب وبين الورود في القرآن ، فالادب لذيذ ولكنه شؤم على اهله . ومن شؤم الادب على الادباء ان كتابا ظهر في هذه الايام يقال له « الشعر الجاهلي » ويجب على الادباء ان ينقدوه وينقضوه ويهدموه ويهدموا كتابه ، ويتقربوا بهذا النقد والتقص والهدم الى الله او .. الى الشيطان ، وقد اقساموا ليفعلن . وقد بداوا يفعلون فما هي الا ان اعترضهم هذا الشجى وهو اسم ديكرت وفلسفة ديكرت .

والحق ان نقول بان موقفهم بازاء هذا الاسم والفلسفة كان بديعا لا يخلو من فكاهة وظرف . فاما احد هذين الشيخين اللذين ذكرتهما في اول هذا الفصل واللذين اهدي اليهما هذا البحث فقد كتب في تواضع يشبه الكبرياء انه لا يعرف ديكرت ولا مذهبه ، وانه يظن او يرجح ان مذهب ديكرت قريب من المذاهب الاسلامية ، وان صاحب « الشعر الجاهلي » قد حرف هذا المذهب لحاجة في نفسه او كما قال الشيخ ، واما الآخر فعزیز عليه ان يتكبر او يتواضع على هذا النحو . وهو قد تعود ان يستغل الرافعي واليازجي والسكندري وابن مكرم دون ان يذكرهم او يشير اليهم ، فلم لا يستغل في امر ديكرت حيا او ميتا يشبه هؤلاء ؟ وقد بحث بين الاموات فلم يجد وبحث بين الاحياء فلم يجد من كتب عن ديكرت او اشار اليه ، وهو لا يعرف لغة ديكرت ولا لغة اجنبية اخرى . واذن

فليحيا الى احد الذين يعرفون لغة من هذه اللغات ليقص عليه امر ديكارت ، ويلخص له فلسفته ، حتى اذا استقام له ذلك في صفحات او اسطر تكلم عن ديكارت وفلسفته كلام العالم المحقق واثبت لصاحب «الشعر الجاهلي» انه لا يفهم ديكارت ولا يحسن تخريج مذهبه الفلسفي . وكان قد تفوق على زميله الذي يكتب في « الاهرام » فعرف من امر ديكارت وفلسفته ما لم يعرف هذا الشيخ المسكين .

وانا احد الذين يعرفون لغة اجنبية واحد الذين يحسنون لغة ديكارت ، واحد الذين قرأوا ما كتب عن ديكارت . وانا اريد ان اهدي الى الشيخين بحثا عن حياة ديكارت وفلسفته لیتما به ادبهما ويستعينا به على هدم كتاب الشعر الجاهلي ، والتهام صاحب هذا الكتاب التهاما . وانا مخلص فيما اكتب ، فانا احب ان يلتهمني الشيخان لاني اعرف ان حلقيهما ان استطاعا ازدرادي فستعجز معدتاها عن هضمي .

انا اهدي الى الشيخين بحثي عن حياة ديكارت ، ولكنني اهديه اليهما على ان يقرأه ويفقهاه فقها « حسنا » لا يشبه فقهما « للشعر الجاهلي » ولا للسان العرب ولا لما كتب الرافعي أو املي السكندري . وانا اهدي هذا البحث الى الذين يعرفون ديكارت من المتفرجة والمتعلمين على اختلافهم ذلك اني اعلم من امر ديكارت مالا يعلم الناس في مصر . فقد كنت اريد ان اضع فيه كتابا واضطرتني ذلك الى كثير من البحث والتحقيق والى الوان من الاستقصاء والاستقراء . ولكنني لا آسف على ما لقيت من عناء ، فقد وصلت الى نتائج غريبة قيمة لو اعلنتها في فرنسا لاندكت لها السوربون ولاضطربت لها الكوليج دي فرانس ولاعلن لها المجمع العلمي الفرنسي افلاسه . . . لا تضحك ولا تعجب فلست احداثك الا بالحق الذي لا شك فيه ولا غبار عليه . ويكفي ان تعلم اني استكشفت طائفة من الكتب المخطوطة التي كتبت في النصف الثاني للقرن السابع عشر بعد ان مات ديكارت بسنين قليلة ، والتي كانت محفوظة في مكتبة الملك الخاصة ، حتى اذا كانت الثورة الفرنسية ، وتبدد ما في القصر ضاعت هذه الكتب ولم يستطع ان يظفر بها الذين انشأوا المكتبة الاهلية في باريس

بعد الثورة وأخذت أسرة من الأسر الشريفة تتوارث هذه الكتب ، حتى انتهت الى صديق لي فرنسي ، كان يدرس معي ، وهو يقيم في ريف بورجونيا ، فدعاني في بعض فصول الصيف ان أقضي عنده اياما ففعلت ، واطهرني على مكتبه آبائه ، فاذا فيها هذه الكتب المخطوطة ، فدرسناها معا ، ولم نستوف درسنا بعد ، وسنقدمه الى السوربون يوم نستوفيه ، وسننشر هذه الكتب على الناس ، وسنودع اصولها المخطوطة المكتبة الاهلية بباريس ، وسيعلم الناس يومئذ انهم لم يؤثروا من العلم عن ديكرت الا قليلا ، وستعلم الحكومة الفرنسية يومئذ ان هذه الطبعة الرسمية التي نشرت في اثني عشر مجلدا ضخما لا تشتمل الا على ما كان يكتب ديكرت ليلهو ويعبث ويلهي الناس عن فلسفته الصحيحة .

فديكرت كاستطاليس يذهب في الفلسفة مذهبين مختلفين احدهما يعلنه الى الناس ، فانهم يستطيعون ان يفهموه وان يسيغوه ؛ والاخر يحتفظ به لنفسه ، وللأصفاء من تلاميذه ولا يديعه في الجماهير لانه اعسر وادسم من ان تحتمله عقولهم . وقد ظفرت الحكومة الفرنسية بالقسم الاول من آثار ديكرت ، فعمدت الى عالمين من اكبر علماء فرنسا بتحقيقه ونشره ففعلا ، ووقع هذا القسم في اثني عشر مجلدا ضخما كما قلت لك . ولكن من يقرأ هذه الطبعة الرسمية او هذه المطبوعة الرسمية - على راي وحيد - ويقارن بينها وبين ما سننشره قريبا سيري ان ديكرت كان غريبا حقا . فقد كان يألف من : - خصين يختلفان فيما بينهما كل الاختلاف : احدهما فيلسوف معتدل معقول يكتب بالفرنسية حيناً ، وباللاتينية حيناً آخر ، ويتناول فيما يكتب كل ما تناوله الفلاسفة من قبله ، ويذهب فيما يكتب مذهب التجديد ، فيخيل اليك انه سيؤسس فلسفة جديدة تهدم ما اقامه ارستطاليس وتلاميذه ، ذلك لانه يتخذ لفلسفته هذه قاعدة لم يالها الناس ، هي نسيان القديم والبراءة منه كله ، وافترض انه لم يكن ، حتى اذا قرأت هذه الفلسفة وتعمقت فيها لم تجد . جديداً ، ولا شيئاً يشبه الجديد ، وانما هو كلام ككلام الفلاسفة فيه كثير من الحدود والقضايا والاقيسة ، ومع ذلك فقد فتن الناس بهذا الشخص واعتبروه ابا الفلسفة الحديثة ، ومؤسس العلم الجديد . ولكن الشخص الثاني هو الذي

لفتنا وبهرنا ، لما فيه من غرابة كنا ننتظر كل شيء الا اياها . ذلك ان ديكارت لم يكن مسيحيا ولا فيلسوفا ولا من اصحاب التجديد ولا من انصار هذه الحقائق الثابتة التي افها الناس ، وانما كان مسلما ديانا متصوفا مغرقا في التصوف شطاحا مسرفا في الشطح . انتهى به هذا كله الى شيء لا يستطيع ان اسميه الا « اظهار الكرامات » . ولعل احسن طريق لشرح هذه الناحية الخفية من حياة ديكارت ان الخص لك في شيء من الايجاز بعض ما كتبه ديكارت عن نفسه ، وما وجدناه في الكتب (المخطوطة) التي حدثتك عنها آنفا .

ولد ديكارت في القرن السادس عشر ، للمسيح ، وكانت أسرته فقيرة ، شديدة المحافظة على العادات القديمة والسنن الموروثة ، فلما شب ارسلته اسرته الى مدرسة اليسوعيين ، فتعلم فيها على نحو ما كان اليسوعيون يعلمون . اتقن اللاهوت وفلسفة العصور الوسطى واللغتين اللاتينية واليونانية . ولكنه كان ذكيا حاد الذهن مستعدا للنقد والشك ، فاضطربت نفسه اضطرابا شديدا حين احس تناقضا بين قواعد اللاهوت وفلسفة ارستطاليس . ولكنه لم يظهر من هذا الشك شيئا لانه كان محافظا كابويه واساتذته اليسوعيين . على انه لم يكذب يدع المدرسة حتى سئم الحياة التي وجهه اليها ابواه ، وهي حياة الحرب ، فانصرف الى السياحة ولقي في هولندا رجلا شيخا من اليهود يقال له دروكلكسيس بن كراباك . قال ديكارت : كان لهذا الشيخ تأثير غريب في نفسي ، لا ادري اكان مصدره ذكائه وفطنته أم غرابة شكله ، واختلاف اطواره العجيبة . كان قصيرا ضخما عريض ما بين الكتفين ، صغير العينين غائرهما ، ولكن عينيه كانتا شديدي التوقد كأنهما شعلتان تضطربان ، عريض الاذنين ، دقيق الانف ، غليظ الشفتين ، مرسل اللحية ، فاما صوته فلا اعرف اني سمعت صوتا يشبهه . اما في حديثه العادي فكان غليظا متهدجا أشبه شيء بالرعد ، فلذا ناقش او ناظر في العلم كان نحيف الصوت حاده خلاص الحديث . ولا اعرف اني رايت عالما يحيط بمثل ما كان يحيط به هذا الرجل مما كتب الاولون والآخرين ، كان يهودي الجنس والمولد ، ولكنه لم يكن يهودي الدين .

واحسب انه قد ورث شيئا من آباءه الذين خالطوا المسلمين مخالطة شديدة في اسبانيا . كان غنيا ولكنه شديد الزهد فيما كان يملك من ثروة ، الا انه كان يحب الاستمتاع بالطيب من لذات الحياة ؛ وكان يعجبني في بيته شيئان : مائدته ومكتبته ، تحدثت اليه في الفلسفة وفي اللاهوت فسمع مني ، وتحدث الي ، وما هي الا ان فتنت به وشغف بي ، واصبحت لا استطيع عن لقائه صبرا . وقد كان في حديثه الي ماهرة لبقا يلقي الي اغرب الآراء ، وكأنه يحدثني عن الجو والمطر ، حتى اذا آس مني اطمئنا اليه ، وثقة بكل ما يقول ، كشف لي عن دخيلة نفسه ، فاذا هو لا يؤمن بالمسيحية ولا اليهودية ، ولا يحب الالحاد ولا الملحدين ، وانما اتخذ لنفسه ديناً كنت اسمع به ، ولا أعرف من حقيقته شيئا . فلما رغبت اليه في ان يظهرني على دقائق هذا الدين اطال الصمت ، ثم قال في هدوء : ما أحب ان أظهر لك هذا الدين ، وانما احب ان يظهر لك الدين نفسه فاتبعني ، ثم مضى بي الى مكتبته واستخرج سفرا ضخما دفعه الي ، وقال اقرا هذا ، فاذا فرغت منه فلنتحدث ، ثم تركني ومضى . ونظرت في الكتاب فاذا هو باللاتينية واذا هو ترجمة لكتاب كتبه أحد المسلمين في القرن العاشر للمسيح يقال له الطواسين ويقال لصاحبه الحلاج^(١) ولم أكد امضي في هذا الكتاب حتى احسست كان بيني وبين الحقائق سترا صفيقا ؛ وكان هذا الستر اخذ يرتفع شيئا فشيئا ويظهر لي من ورائه عالم بديع غريب غلاب ، واخذت نفسي تمتلئ شوقا الى هذا العالم وهياما به . انفقت في قراءة هذا الكتاب اياما ثلاثة ، فلما فرغت منها انكرت نفسي وانكرت ما حولي من الاشياء ومن حولي من الناس . ولقيني دروكلكسيس فلم يظهر عجبا ولا انكسارا . . .

واذا كنت لا ازال حيا الى الآن ، واذا كنت قد استطعت ان انشر

(١) الفت الاستاذ لويس ماسينيون الى هذه الترجمة اللاتينية لكتاب الطواسين فاننا اعلم انه يعني بهذا الكتاب وصاحبه وانه قدم الى السوربون فيهما رسالة كان لها خطر عظيم .

في الناس كتباً أعجبهم ، واكتب لنفسي كتباً قراوها ، وإذا كان صوتي قد وصل الى أقصى أطراف الأرض ، وتنافس الملوك في عشري والاستثنائي ، فأنا مدين بهذا كله لدرو كلكتيس بن كراباك . ذلك اني خرجت من قراءة ذلك الكتاب مفتونا ، اريد ان اعلن الى الناس ايماني بهذا الدين الجديد ، واناضل عنه بما املك من قوة ، ولكنه حال بيني وبين ذلك ، وكان يقول لي في هدوء : احذر ان يصيبك ما اصاب الحلاج فلا تنتفع بحياتك ، ولا تنفع الناس ، والحياة اعلى وانفس من ان تبدل في غير نفع ، فلكم ما انت فيه وانفق حياتك في التسبيح والتقديس ، وانفع الناس ما استطعت الى نفهم سبيلا .

من ذلك الوقت آثرت العزلة ، وعشت هذه الميشية التي كان الناس يعجبون من امرها .

وفي الحق ان حياة ديكلوت كانت غريبة ، فقد كان ينفقها في موقد له لا يخرج منه الا مضطرا ، وكان يقسم وقته اربعة اقسام : احدها لما يحتاج اليه جسمه من العناية المادية ، وكان يقتصد في هذه العناية اقتصادا شديدا ، لا يأخذ من الأكل والشرب والنوم الا بما يمسك عليه الحياة ، والثاني ينفقه في الكتابة والتأليف فيما ينفع الناس في هذه الحياة العاجلة ، والثالث في التفكير الفلسفي الاشراقي ، والرابع في التسبيح والتقديس اذ اخذتني غفوة ، فرايت فيما يرى النائم كان بن كراباك . وكان لترديده اياها تأثير عظيم في حياته العملية والعقلية . قال ديكلوت :

« بينا انا في موقدي ذات يوم اردد ما تعودت ترديده من صيغ التسبيح والتقديس اذ اخذتني غفوة ، فرايت فيما يرى النائم كان سقف البيت قد انشق منه حجما وأعرض منه جناحا ، وكان هذا الطائر الهدهد ، ولكنه اكبر منه حجما وأعرض منه جناحا ، وكان هذا الطائر قد وقف قبالة الموقد محذبا في منصفنا لما اقول ، وكأنه قد اترك صمتي ونومي فقل في لغة لاينية تبينتها في وضوح وجلاء : عجا لهذا الصامت

النائم والفلك يدور ، وشيخه في خطر ، فاستيقظت لهذا الصوت في شيء من الانزعاج ، ونظرت فلم أر شيئا ، ولكنني اشفقت على درو كلكتيس وأردت أن أراه فسمعت إليه من فوري ولم أكد أسأل عنه حتى حدثت أنه مريض ، وأن الطبيب يخشى عليه . فادخلت عليه ، فإذا هو في سريره شاحب ضعيف يتردد نفسه قويا في صدر فارغ ، فجثوت عنه سريره ، وأخذت ادعوه في رفق ، وكأنه كان نائما فلقبه وقال : هائلا قد أقبلت ، لقد أرسلت ادعوك وكنت أخشى أن أفاوق هذه الحياة قبل أن أراك ، فهل جاءك رسولي ؟ قلت من رسولك ؟ قال : برييش ، قلت إن هذا اسم لم أسمعه من قبل ، قال : ولكنك رأيت مسماه منذ حين ، هو طائر يشبه الهدد ويتكلم لاتينية سيرون ، فاحفظ اسمه فسينفعك ، وأدعه كلما احتجت إلى شيء شاق ومره بما شئت فستجد منه طاعة وإخلاصا ونصحا ، وأعلم أنه موكل بزعماء المتصوفة منذ كانوا ، يخدمهم ويقضي حاجاتهم ، لا يجد في ذلك مشقة ولا عسرا ، وهو فوق العلة ، وفوق الموت حتى تنقرض طائفة المتصوفة ويموت بعد آخرهم بقليل . خدم متصوفة الهند قبل المسيح بالآلاف السنين ، وأشرف على بناء الأهرام ، وأملأ ما كتب فيها من طلاسم ، وأعان فيثاغورس ، ووافق أفلاطون في سياحته ، ولزم العلاج وابن الفارض ومحيي الدين بن العربي ، وسيلزموك منذ غد ، وسيعينك على سياحات لا بد من أن تسيحها في الأرض ، فانت مضطر إلى زيارة البيئات الصوفية في بغداد والقاهرة وتلمسان وفارس ، على أني مؤد إليك أمانة يتناقلها زعماء الصوفية ويتوارثونها وهي لهم نافعة فخذها فانت زعيم الصوفية بعدي .

ثم أخرج من تحت وسادته علبة صغيرة من الذهب أشبه شيء بعلب النشوق التي يصطنعها الشيوخ في مصر وقال : احتفظ بها ولا تفتحها إلا حين يطلب ذلك إليك صديقنا برييش ، واحفظ عني هاتين الصيغتين تستقبل بأولاهما النهار وبأخراهما المساء ما حييت . ثم همس بالصيغتين في أذني على أنهما سر لا يباح إلا لزعميم . وما هي بعد ذلك إلا أن اضطرب جسمه اضطرابا شديدا ثم هذا وقد فارقت الحياة ،

واذا برييش قد ظهر في الغرفة ، وقال في هدوء : « انصرف فقد مضى صاحبك ، ودع هذا الجسم لاهله فليس لك به شأن فخرجت » .

وهنا يصف ديكاوت حزنه على صاحبه في عبارات مؤثرة حقا ، ولكن صحف « السياسة » محدودة ، فلادع حزن ديكاوت ولاتم ما انا فيه من ذكر حياته الغريبة .

اصبح ديكاوت بعد انصرافه من عند صاحبه ، فاستقبل النهار بالصيغة التي اداها اليه درو كلكسيس . وما كاد يستقر في موقعه حتى جاء برييش فقال : ما انت وهذا الموقد ، وما انت والكتابة والتفكير ؟ هلم الى سياحتك . قال ديكاوت لبرييش : ولكني لم اعد لهذه السياحة شيئا ، فدعني ادبر امري . قال برييش : ومتى دبر الصوفية لانفسهم امرا ! قم فانطلق معي . ومضى في الجو قريبا من الارض يسايره فيلسوفنا حتى خرجا من المدينة ، واذا جرة ضخمة من الفخار قد نقشت عليها نقوش وتصاوير لم ير مثلها ديكاوت . قال برييش : امتط هذه الجرة وردد صيغة المساء مرات . ففعل ، واذا الجرة تصعد به في الجو حتى الشفق على نفسه ، ولكن الجرة ماضية ، ماضية في الجو لا تلوي على شيء ، والطائر مواز لها يمضي في دافق ويتلو في اعجاب خطبة من خطب سيسرون التي القاها في مجلس الشيوخ الروماني يعنف بها كاتيلينا . وهو يحلل هذه الخطبة ويظهر للفيلسوف ما فيها من آيات البلاغة . ومضيا على هذا النحو ، واذا برييش يقول لصاحبه : انظر الى الارض ، فينظر فلا يرى الا امواجا تلتطم وتصطخب ، فيسال صاحبه اين نحن ؟ فيجيبه نحن نعبث البحر الى الاسكندرية ، وانتصف النهار ، واحس فيلسوفنا الجوع والظما ، فيسال الطائر : من لنا بطعام وشراب ؟ قال برييش : والعلبة التي اهداها اليك امس درو كلكسيس اين هي ؟ هي معي . اذن فاخرجها وافتحها . فيخرج العلبة ويفتحها فلا يروعه الا فتاة ظريفة قد خرجت منها مبتسمة محيية مصفقة ، واذا فتين وفتيات قد اقبلوا اليها من الجو مسرعين ، واذا هي تامرهم بلغة لا يفهمها ديكاوت فيسائل صاحبه ما هذه اللغة ؟ فيجيبه : هي

اللغة السريانية التي لا بد لك من ان تتعلمها بعد حين . وما هي الا لحظات حتى وقفت الجرة في الجو لا تتقدم ولا تتأخر ، ونصبت أمامها في الجو مائدة فخمة صفت عليها الصحافه والاكوام من الذهب والفضة ، وقدمت عليها الوان من الطعام لا عهد لديكارت بلذتها وحسن مذاقها في الفم وموقعها في المعدة ، فاكل الفيلسوف وشرب ، ومن حوله الطير تصدح بانغام لذيذة حلوة ، حتى اذا تم له من ذلك ما اشتهى رفعت المائدة ، واستخفى كل شيء ، وأقبلت الفتاة السريانية مبتسمة قائلة في ظراف وخفة : والان فادخلني علبتي ، فيفتح لها الفيلسوف العلبة فتستخفي فيها ، وتستأنف الجرة سيرها في الجو . ويأخذ بريبيش في قراءة لخطبة التاج التي القاها ديموستين على الاتينيين محللا مستنبطا اسرار البلاغة اليونانية . فاذا سأل ديكاوت عن حبه اللاتينية واليونانية قال : انا موكل بالادب احبه وانفق فيه حياتي ، ولست اؤثر ادبا على ادب ، وانما احيط بالاداب كلها ، وانت تعلم ان الاديب يجب ان يلم من كل شيء بطرف ، قال ذلك ادباء العرب وسيقولوه في آخر الزمان منهم رجل يقال له الشيخ علام . واذا كنت قد تلوت عليك خطبة سيسرون وخطبة ديموستين ، فذلك لانك تعرف اللغة اللاتينية واليونانية . وسأتلو عليك غدا قصيدة عربية وضعها رجل يقل له خلف الاحمر ، ونسبها الى شاعر يقال له النابغة الديباني ، وهي قصيدة جيدة لا يشك سامعها في انها قديمة ، وقد استشهد النحاة بشيء كثير منها على قواعد النحو العربي . قال ديكاوت : واي فائدة في تلاوة هذه القصيدة او غيرها من الشعر العربي ، وانا اجهل لغة الحلاج ، ولا استطيع ان اقرأ هذا الكتاب القيم كتاب الطواسين الا في هذه الترجمة اللاتينية التي نشرت في القرن الثالث عشر والتي أرجح انها لا تخلو من خطأ . قال بريبيش : ستعرف اللغة العربية وتتقنها اذا امسيت ، فليس يباح لك ان تدخل بلدا دون ان تعرف لغة اهله ، واذا كنت ستزور اطرافه الارض كلها فستعرف لغات الناس جميعا ، قال ديكاوت : ومن لي بذلك ؟ قال بريبيش : انا لك به ، انظر الى هذه العلبة الصغيرة ، انها تحتوي اللغات جميعا ، فيها اقراص تشبه اقراص النعناع كل واحد منها يمثل لغة من اللغات ، فلذا اشرفنا على البلاد العربية فسادفع اليك قرص اللغة العربية

تزدوده فاذا انت اقدر الناس على ان تنشد وتفهم وتنقد ما ينسب الى امرىء القيس من شعر ، وما يضاف اليه تأبط شرا من سخف ، وما يحكى عن قس بن ساعدة من وعظ وارشاد ، واذا انت من اقدر الناس على مناقشة سيبويه والخليل والمبرد فيما تركوا من قواعد النحو والعروض والقافية والصرف ، فانتظر . وانتظر ديكارت حتى اذا مالت الشمس الى الغروب نظر فاذا من تحته مدينة يموج الناس فيها موجا . قال لصاحبه ما هذه المدينة ؟ قال : هي مدينة طنطا يحتفل الناس فيها بمولد السيد احمد البدوي . فازدرد هذا القرص ، ففعل . وقال بريبش كلمات هوت لها الجرة الى الارض ، ونظر ديكارت فاذا هو واقف على قدميه . قال له بريبش ضع هذه القلنسوة على رأسك لتستخفي عن أعين الناس ففعل ، ومضى مع صاحبه يزور المولد ويجلس في كل خيمة لحظة ثم دخلا المسجد واختلطا بالشيوخ والطلاب والزائرين والذاكرين .

وعلى هذا النحو الذي يفصله ديكارت تفصيلا ممتعا قضى صاحبنا سنتين كاملتين مطوفا في اقطار الشرق الاسلامي كله متقنا لغاتها وعاداتها ، ذاكرا مع الذاكرين ، متيما مع المتيمين ، دائرا مع الدائرين ، يلتهم النار حينما ويبتلع الزجاج آخر ، وينتطق بالحيات والافاعي ، ويمشي على الماء ويطير في السماء ، ويזור الجن في الارض السابعة ، والملائكة في السماء الرابعة ، حتى اذا قضى من هذا كله وطرا وعلم من اسرار الكون ما يضمرة الشرق وحده ، عاد الى هولاندا فمكث في مواقده اشهره يكتب ويفكر ويقدر ويأتيه بريبش كل مساء فيقضي عنده ساعة ثم ينصرف . حتى جاءه ذات يوم فقال : احسب انك قد احببت الراحة وكرهت مشقة السفر ، ومع ذلك فلا بد لك من رحلة اخرى ليست اقل مشقة ولا نفعا من رحلتك الاولى فقم على اسم الله . فقال ديكارت : الا ننتظر اشراق النهار ؟ قال : كلا ، وما انت والنهار والليل ؟ الجرة تنتظر وعلمتك كفيلة بحاجات السفر وعلمتك كفيلة بتعلم اللغات ، وسأتلو عليك في هذه الرحلة آيات المانية وروسية لم تظهر بعد ، لان اصحابها لم يخلقوا ولكنهم سيخلقون وسيحدثون هذه الايات فيعجب بها الناس ،

سأتلو عليك ما سيحدثه جوت وهنري هين وتلستوي وغيرهم من اعلام الشعر والنثر والفلسفة في القرن الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين ، ثم سأتلو عليك كتابا يكتبه بعد سنين يهودي يتاثر بمذهبك اسمه سبينوزا سيكتب في الاخلاق والفلسفة متأثرا بهذا الكلام الفارغ الذي تكتبه للناس في اوقات الفراغ . وسيظن انه وصل الى الحق وسيلقى من الناس اكبارا واحتقارا . وقد استصعبت كتابا شرقيا عربيا سيظهر في الربع الاول من القرن العشرين في مدينة القاهرة وهو كلام فلرغ ككلامك هذا الذي تنشره على الناس ، واسمه يدل على انه فارغ وهو كتاب « في اوقات الفراغ » الذي سينشره على الناس كاتب ظريف مفكر يجد حينا ويعبث احيانا ، اديب ولكنه يحب السياسة ويرشح نفسه للانتخاب في مجلس النواب ، واسمه محمد حسين هيكل . فانت ترى ان رحلتنا ستكون قيمة سهلة ، ولا سيما حين اتلو عليك كتابا باللغة العربية سيضعه مصري في القرن التاسع عشر يقال له محمد عبده ويترجمه في القرن العشرين عالمان يقال لاحدهما مصطفى عبد الرازق والآخر برنار ميشيل ، وسترى ان هذا الشيخ المصري المسلم متأثر تأثرا تاما بفلسفتك هذه الفارغة التي تفسد بها عقول الناس ، وتنشئ لهم بها علما جديدا ، سيمكنهم من استعباد البخار والكهرباء والماء والهواء والصمود الى السماء . قم بنا .

فقلما وامتنى فيلسوفنا جراته ومضيا نحو الشمال ، واستمررا في رحلتهم ايلما وليالي متنقلين من ادب الى ادب ، ومن فن الى فن حتى استقبلهما في صباح يوم مشرق جبل شامق لا يصل الطرف الى قمته ، قال ديكارت : أين نحن ؟ قال بريبيش نحن في اقصى الارض من ناحيتها الشمالية ، وهذا الجبل الذي تراه هو سورها الذي ياخذها من جميع اطرافها . قال ديكارت مصفقا : هذا جبل قاف . قال بريبيش نعم هو جبل قاف . قال ديكارت ليس وراءه الا الماء الذي لا حد له طولا ولا عمقا ، والذي لا يحيا فيه شيء ، قال بريبيش اخطأت فسترى ان في هذا الماء حياة واحياء . قال ديكارت : ماذا تقول ؟ سنقتحم هذا الجبل ؟ قال بريبيش : وما جئت بك الا لانتحمه . ان من وراءه قوما ينتظرونك لتنشر

فيهم الدعوة الى الحق ، وتخرجهم من الظلمات الى النور ، دع هذه الجرة فهي لا تفني عنك شيئا . قال ديكلوت . وكيف نصعد في هذا الجبل ؟ قال بريبيش : اترى الى هذا السحاب المتراكم ، ستهبط منه سحابة تحملنا الى حيث نريد . وهبطت سحابة فاذا شيء اشبه بعربة من الذهب الخالص ، فيه وسائد من الحرير والاستبرق ، وأكواب ملء بعضها من الشاي وبعضها من القهوة ، وبعضها من اللبن ، وعلبة نشوق وسجائر مختلفة منها الطويل والقصير ، والضخم والنحيف ، ولكنها كلها عطرة ارجة يتضوع منها نشر يشبه العنبر ، وفيها شيشة وجوزة ، وفيها نرد وشطرنج ودومينو وما الى ذلك من ادوات اللعب . اجلس الفيلسوف ومعه بريبيش واخذ في تدخين الشيشة لانه كان قد جرب ذلك في دمشق فاحبه . اما بريبيش فاخذ يدخن الجوزة لانه كان كثير الاختلاف الى حي من احياء القاهرة في باب الشعرية ، وهناك تعلم هذا النحو من التدخين . وصعدت بهما السحابة في السماء حتى انتهت بهما الى قمة الجبل ، فهم ديكلوت بالخروج فامسكه بريبيش قائلا : لا تخرج حتى تشرب قدحا من اللبن وكاسا من القهوة وحتى نتنشق ، فكل هذه الاشياء من ثمرات الارض التي نتركها ، ولا بد من ان ندوقها الان لنضمن لانفسنا العودة الى هذه الارض احياء او امواتا ، فان نحن لم نفعل فسيقوم جبل قاف حائلا بيننا وبين الارض آخر الدهر . شربا ودخنا وخرجا . فاذا طائر عظيم لا يستطيع الطرف ان يحيط به قد حلق كأنه ينتظر امرا ، قال ديكلوت ماذا ارى ؟ قال : هذا الطائر الذي تراه هو بلاجواست ، وهو السفينة التي يتخذها الاحياء فيما وراء جبل قاف لمواصلاتهم فلمتط هذا الطائر فساكون موك ، وسترى انه يقطع في لحظات ما تقطعه سفنكم في ايام . واستقر على جناح الطائر وما هي الا لحظات قصار حتى هوى بهما الى جزيرة عظيمة فيها غابات كثيفة ومروج خضر ، ولكن اهلها قصار لا يتجاوز ارتفاع احدهم شبرا ، عراض لا يتجاوز عرض احدهم مترا وهم يضحكون أبدا ، ولهم فيما بينهم حديث كقصف الرعد وهم يدخلون ولكن ياذا نفهم يدخل الدخان في احدى الاذنين فيخرج من الاخرى ، وليس لكل واحد منهم العين واحدة قد استقرت في وسط جبهته ، ولكنها ضخمة متوقدة يتطاير منها شرر مخيف . قال ديكلوت : ولكني لا افهم شيئا مما يقولون ،

قال برربيش : هذا قرصهم فازدروه تفهم لغتهم . واخذ ديكارت يسمع لغتهم ويفهمها ، فقال لصاحبه : الست ترى معي ان هذه اللغة تشبه اللغة البلغارية شيها شديدا ، قال برربيش : هي اصل اللغة البلغارية وهؤلاء الناس هم آباء البلغار ، كانت فيهم ثورة منذ آلاف السنين انتصرت فيها الديمقراطية على الاشراف فأجلتهم عن بلادهم ، فعبروا جبل قاف ، وهنا في ارضكم اثر فيهم الجو ، فأخذ من عرضهم وزاد في طولهم ، فاستقامت لهم هيئات وقامت كهيئات الناس وقلماتهم ، ومضوا في طريقهم حتى انتهوا الى الأرض التي تسمى الآن بلغاريا . فاحتلوها واستعمروها . وهم الذين تحدثوا الى فقهاء المسلمين عن أرض تشرق فيها الشمس ستة اشهر فليس فيها ليل ، وتغيب عنها ستة اشهر فليس فيها نهار ، وقد وضع فقهاء المسلمين احكاما فنية لاهل هذه البلاد تمس اوقات الصلاة بنوع خاص وقد جئت لتنشر الاسلام في هذه الأرض ، فعلم الناس كيف يؤقتون الصلاة حين تشرق الشمس وحين تغيب ، وامض بنا فإن « قاطرينا » تنتظرك في قصرها . قال ديكارت : من قاطرينا ؟ قال برربيش : هي ملكة هذه الجزيرة حدثتها عنك وانباتها بنبتك ، فهي تنتظرك وقد زارها من قبلك درو كل كيس وزارها الحلاج وزارها فيثاغورس قال ديكارت : هي اذن خالدة لا تموت قال برربيش : ان الخلود لم يكتب لاحد ، كل شيء هالك الا وجه الله ، ولكن ملوك هذه البلاد كتب لهم طول الاعمار ، فأعمارهم لا تعد بالسنين ولا بالقرون وانما تعد بالآلاف . وقد ولد قاطرينا سنة ٣٥٠٥ قبل المسيح وملوك هذه البلاد اذا بلغوا من العمر ثلاثة آلاف سنة جاءهم النبا بالعام الذي سيموتون فيه . وقاطرينا تعلم انها ستموت سنة ١٩١٧ حين يقرب الالمان من مدينة باريس في الحرب العالمية الكبرى التي ستكون في ذلك الزمان وهي مشوقة الى ان تراك لتأخذ عنك العلم والحق والدين ، وتنفق ما بقي لها من الدهر في عبادة وتقرب الى الله تاركة امر الملك لولي العهد الذي يبلغ من العمر الآن ألفي سنة ، واسمه ساباتييه بن ارابيشا . ومضيا حتى انتهيا الى القصر ، فاذا فخامة وضخامة وترف لا عهد لفيلسوفنا بها ، واذا الملكة القصيرة العريضة تنظره مبتسمة ، واذا هو لم يكد يجلس اليها حتى اخذت تتحدث اليه وتسأله ، واتصل مجلسهما ساعت فتنت فيها الملكة بفلسفة

ديكارت فتنه لا حد لها ، ولم تأذن له بالانصراف ليستريح الا كارهة ،
واخذ فيلسوفنا يتردد على الملكة يعلمها ويفقهها في الدين والتصوف ،
وهي به مشغوفة ، ولكن جو هذه الجزيرة لا يلائم طبيعة أهل هذه الأرض
فقد أخذ ديكارت يلاحظ ان قامته تقصر وتعرض ، وشكا ذلك الى بريبيش
فقال له : ألم أنبئك ان أهل البلاد حين هاجروا الى أرضكم ضاقوا وطالوا
حتى أصبحوا أمثالكم ؟ فأهل أرضكم اذا جاءوا الى هذه البلاد قصروا
وعرضوا حتى أصبحوا كغيرهم من سكانها ، ولكن السن كانت تقدمت
بديكارت فلم يستطع ان يقاوم امتداد جسمه من ناحية وانكماشه من
ناحية اخرى فتوفي عام ١٦٥٠ .

وقد وصف بريبيش في كتاب أرسله الى الحكومة الفرنسية مع جثة
ديكارت مقدار ما أصاب الملكة من جزع وحزن لفقد هذا الفيلسوف قبل
ان تنتشر مذاهبه القيمة في رعيته . قال بريبيش في آخر كتابه : والرأي
عندي الا يسافر الزعماء الذين سيخلفون ديكارت الى ما وراء جبل قاف
الا في منتصف الالف الثالث بعد المسيح ، ففي ذلك الوقت قد يتشابه
وريتقارب ما دون الجبل وما وراءه بحيث يصبح طول الناس جميعا أربعة
أشبار وعرضهم أربعة أمتار ، وفي ذلك اليوم قد يكون فن الطيران قد
تقدم ويستطيع الناس ان يقتحموا جبل قاف ، ويعبروا بحر كاف ،
ويصلوا الى جزيرة نون في سهولة ويسر . قال بريبيش على نبي الموكل
بهؤلاء الزعماء فلا أسمح لاحد منهم بزيارة قاطريتنا أو سجنها سجناته بن
أراييشا الا حين يثين الاوان لهذه الزيلات .



هذا ما أحببت ان أهديه الى الشيخين الجليلين من حياة ديكارت ،
وانا اعتمد على ذكائهما في فهم فلسفته من هذا الفصل فللرجل نرجس
من الفلسفة : أحدهما سخييف ضعيف هو الذي اعتمدت عليه في كتب
الشعر الجاهلي ، لاني لست من أهل التصوف ولا القادرين على الشطح
والنطح ، والاخر قيم ممتع خصب لليد يلتمس في كتب العلاج

ومحيي الدين بن العربي ، وفي كتاب الديري وشمس المعارف الكبرى
وفي رسالة صغيرة توجد في مكتبة الاستاذ الجليل أحمد زكي باشا بقسم
المخطوطات يقال لها « دومة في نومة » .



أما بعد فإنني أقسم لصاحب المعالي وزير المعارف ، ولوكيلها
وسكرتيرها العام ، وأعضاء مكتبها الفني ، ولناظر دار العلوم وأساتذتها
وطلابها لو سئل تلميذ أوروبي عن ديكرت في امتحان الشهادة الثانوية
وجعله كما يجعله أساتذة هذه المدرسة العالية لحيل بينه وبين الشهادة
التي يطلبها ، وأذن فانا أقترح عليهم أحد أمرين : إما أن يكلفوا أحد
العلماء بإلقاء محاضرات في تاريخ الفلسفة للأساتذة وللشيوخ منهم بنوع
خاص ليستطيعوا أن يكونوا أدباء وأن يلموا « من كل شيء بطرف » وأما
أن يأخذوا هذا الفصل الذي أكتبه ملخصا فينشروه ويأخذوا الأساتذة
والطلاب بقراءته وفهمه فليس ينبغي أن يكون في مدارسنا العالية استاذ
أو طالب يجهل اسم ديكرت أو فلسفته أو أثره في هذا العصر الحديث .

● طه حسين

المصدر : من بعيد ، ص ٢٠٩ - ٢٢٥ ، المؤلفات الكاملة ، المجلد الثاني عشر .
يقول طه حسين في مقدمته لكتاب « من بعيد » ، وهو في غالبية فصوله رد على معركة
« الشعر الجاهلي » أن فصوله كتبت في الفترة بين عامي ١٩٢٦ - ١٩٢٠ ، بينما صدرت
الطبعة الأولى لهذا الكتاب عام ١٩٢٥ ، أما مقالة « ديكرت » فقد كتبت عقب صدور
الردود العنيفة على كتاب « في الشعر الجاهلي » ونشرت في جريدة السياسة عام ١٩٢٦ .

في الشعر الجاهلي

إبراهيم عبد القادر المازني

تأليف الدكتور طه حسين

استاذ الآداب العربية بكلية الآداب بالجامعة المصرية

من أشق مباحث الأدب العربي ، ذلك المهد الذي يسمونه « بالجاهلية » وإن كان ما أثره الرواة عنه وقالوا إنه انحدر إلينا منه ، لا يختلف عن جنس غيره من العصور الإسلامية في شيء . فالروح واحدة ، والنظرة إلى الحياة متفقة . والوجهة متحدة ، والكلام مستقيم على أوزان وقواف غير مضطربة بين هذه العصور ، وأسلوب التفكير نهج غير متعدد ، حتى العبارة نفسها لا يكاد يعتمدها تغير جوهري . فما هو هذا العصر الجاهل إذن ؟ انه عصر يعرفه الفقهاء ومن يرغبون أن يقيموا حداً بين الإسلام وما قبله ، أما مؤرخ الأدب فمعلومة إذا أنكر أن له سمة يتميز بها وينفرد فالجاهلية التي انتهت إلينا ما روى من أخبارها وأيامها هي جاهلية دينية واجتماعية إذا شئت ، ولكنها من حيث الأدب شيء آخر مختلف جداً لا يسع الأديب إلا أن يقف حيالها متردداً شاكاً بل رافضاً كما فعل الاستاذ الدكتور طه حسين في كتابه « في الشعر الجاهلي » .

ولكل أدب آفته السلاجة وجدائته المتعثرة كما لكل شيء آخر في هذه الحياة — يصدق علينا على الجملعات صدقه على الأفراد ، وعلى العلوم والآداب وسائر ما ينشأ في دنيا هذه . ولكن الأدب العربي ليس له أول يعرف ولا نشأة توصفه إذ أقدم ما وقع إلينا منه — على قول الرواة — بشحم كلاه . إن صح هذا الخبر ، ونعني بذلك

ان هذا القديم مستو بالغ اشده ، وان الاطوار الاولى التي لا بد ان يكون الادب قد تقلب فيها ومرت بها ، كغيره من آداب الشعوب الاخرى ، حتى تنامي شبابه على النحو الماثور ، نقول ان هذه الاطوار مفقودة ضائعة لا سبيل الى العلم بها والوقوف عليها الا تخيلا والا بالطبع في التخيل على غرار ما حدث للآداب الاخرى التي وقفنا على اصولها ونشأتها ، والا بان نرسم لانفسنا خط التطور طبقا للسنن الطبيعية « قالشعر الجاهلي » وصف غير صادق لان جاهلية الادب مطوية مع الازمان التي غبرت ، وليس من المعقول ، ولا من المقبول ، ان يكون هذا الشعر الماثور او ما قالته العرب لانه شعر ناضج متساقط الاغراض مطرد النظام ، فيه فن وصناعة ، ثم هو بعد ذلك تعبير فيه خلط بين الادب والدين .

وليس ثم ما يمنع ان يكون هناك شعر قيل قبل الاسلام ، بل الذي يرفضه العقل هو الا يكون الشعر قد قيل قبله ، ولكن هل ما يعزى من الشعر الى من عاشوا في العصر الجاهلي صحيح النسب غير ملزق بهم ؟ وهل اذا سالت هذا الشعر عن نسبه ينتمي اليهم ويعتري بهم ام ينطق تكوينه ومنحاه واسلوبه بانه دعى دخيل ؟! هذان هما السؤالان اللذان يلقيهما كل اديب على نفسه . وقد تناولهما الدكتور طه حسين في كتابه « في الشعر الجاهلي » وطرح السؤالين جميعا وكان جوابه الرفض !

ولم ياخذني الدكتور طه على غرة بهذا الكتاب فما اعرفني قرات شيئا من اخبار هذه الجاهلية او شعرها او خطبها الا نازعني في امره شك ضعيف او قوي ، والا حكى في صدرى منه اشياء كثيرة او قليلة . واشهد ان الدكتور كان بارعا في بسط رأيه وفي ابراز الشبهات التي تحوم حول هذا وتضعف الثقة بنسبته الى الجاهليين ، وفي تأكيدها ايضا . ومن واجب كل متادب ان يطلع على هذه الرسالة التي جاءت - على خلاف عادة الدكتور - خالية من كثير من حشوه المألوف ونحسب ان لا خلاف في ضرورة هذا البحث مهما تكن النتيجة التي يخرج بها المرء ، وان من الجملة ان نسترسل في الاستئانة الى ما جاء في الكتب

القديمة وان كان كل شيء يدعو الى الريب ويغري بالنقد ، وان نوصد بأيدينا في وجوهنا أبواب التفكير مخافة ان يظن بنا العقوق والتمرد على ما خلف لنا السلف ، او مدفوعين الى ذلك بحكم النزعة الانسانية الى التسليم ، فما زال التصديق أسهل من البحث ، والاقرار أسير من النقد ، والجمع أهون من الوزن وأمتع والد أيضا . وما من احد نزع الى للنقد الا اضطر ان ينبذ بعض ما يقع اليه وفي هذا الاطراح خسارة متوهمة .

والنقد مهمة قاسية ، وما أكثر ما تكون بغيضة الى القراء ، ولكننا لا نعرف احدا احرى بالعطف وأحق بان تلقى له الافئدة من الناقد ، فهو لا يجد - كالكيميائي - كل شيء حاضرا مهيا في معلمه ، وليس امامه شيء من تلك الملاحظات المنظمة المدونة التي تغني عن الشهود وتقوم مقام المعاينة ، بل عليه ان يفحص كل ما تقع عليه يده ليستجلي غوامضه ويمحص حقائقه ، ان كان ثم حقائق يمكن استخلاصها ، وان يخطو بحذر ويتوخى الاحتياط اذ كان العقل الانساني نزاعا الى التساهل ميلا الى تناول ما يتطلب الدقة . بغير احتفال او تدبير . وما رأيت احدا ينكر فائدة النقد ومزيته وضرورته . ولكن الاقرار بذلك أسهل من المعاناة . وحسبك ان تفكر في القرون العديدة التي مضت وعصور المدسية التي انقضت قبل ان يظهر « فن » النقد في العالم ، حتى في عصرنا هذا لا يامن المرء على الطالب ان يقع في الاخطاء القديمة . لان النقد يحيد بالمرء عن اتجاه الدهن في العادة . وقد تعلم ان الميل اللدني هو التصديق والترديد حتى حين يختلف ما يتلقاه بالتصديق عما انتهى هو اليه من الآراء والملاحظات .

السنا في حياتنا اليومية نتقبل بلا تمييز او تمحيص ما يتأدى إلينا من الاشاعات والانباء التي لا نعرف لها مديعا ولا ندري ما مصدرها ؟ وقد نشد أحيانا عن ذلك ونجنح الى الشك والتنقيب عن أصل الخبر وقيمته ونحاول امتحانه ولكن هذا لا يكون منا الا بدافع من سبب خاص ، اما اذا كان ما يتصل بنا غير مستحيل في ذاته ولا بعيد التصديق

ولم يبلغنا ما ينقصه أو ينفيه فانا نؤدده ونفرح به وقد نضيف اليه ونزيد عليه !

وقد لا يجهل القارئ أن المرء حين يلقي نفسه في الماء تكون حركاته الطبيعية الاولى من شأنها أن تؤدي الى الفرق . وأن السباحة معناها اعتياد المرء الامتناع عن هذه الحركات اللدنية والقيام بغيرها ، وكذلك النقد ليس بالعادة الطبيعية وإنما هو شيء يكتسب .

وقد تخالف الدكتور طه إذا عز عليك التخلي عما درجت عليه ، أو توافقه على كثير أو قليل مما يذهب اليه إذا أثرت التمويل على العقل والمنطق ، ولكنك لا تستطيع على الحاليين إلا أن تقدر جهده وإلا أن تقر بقيمة هذا البحث الطريف . وما من ريب في أن الأكثرين يشق عليهم أن ينفضوا أيديهم مما عاشوا مطمئنين اليه ، غير أن الشعر الجاهلي لا يصيبه شيء ، فهو باق كما هو ، لم يحرقه الدكتور ولا سواء من خلق الله وكل ما يجد أن نسبته تنفخ أو تصحح . وما أحق ذلك بأن يكون رواية ممتعة . . . وإنها لذلك في كتاب الدكتور .

وهنا موضع التحرز : فلسنا نقول أن بحث الدكتور طه قاطع في اثبات ما ذهب اليه وما نشايه عليه من الرفض ، ولكننا نقول أن حجته أقوى من حجة القدماء . وأن رسالته ليست أكثر من باب فتحه لطالب الأدب الجاهلي إذا أراد أن يصل الى نتيجة يسكن اليها العقل ، وإنها لم يخل من التأخذ ولم تبرأ من السقاط وأن أولها خير من آخرها ، وصدرها أمتن من عجزها ذلك أنه لم يوافق في التطبيق ولم يأت بشيء له قيمة ، ولو زهيدة ، حين أراد أن يتناول الشعر الجاهلي بالتفلية بعد أن مهد لذلك ببحث أسباب الانتحال ودواهيته .

ولا بأس من أمثلة تجلو للقارئ ما نريد .

يقول الدكتور في رسالته أن « امرئ القيس » يعني وشمره قرشي اللفظ لا فرق بينه وبين القرآن في لفظه وأهراجه وما يتصل بذلك

من قواعد الكلام ، ونحن نعلم . . . أن لغة اليمن مخالفة كل المخالفة للغة
الحجاز ، فكيف نظم الشاعر اليمني شعره في لغة أهل الحجاز ؟ بل في
لغة قريش خاصة ؟ سيقولون نشأ امرؤ القيس في قبائل عدنان وكان
أبوه ملكاً على بني أسد وكانت أمه من بني تغلب وكان مهلهل خاله ،
فليس غريباً أن يصطنع لغة عدنان ويعدل عن لغة اليمن ولكننا نجهل
هذا كله ولا نستطيع أن نثبتته إلا من طريق هذا الشعر الذي ينسب إلى
امرئ القيس ونحن نشك في هذا الشعر ونصفه بأنه منتحل .

والآن فنحن ندور : « نثبت لغة امرئ القيس الذي نشك فيه ! »
إلى أن يقول « وأعجب من ذلك أنك لا تجد مطلقاً في شعر امرئ القيس
لفظاً أو أسلوباً أو نحواً من أنحاء القول يدل على أنه يمني فمهما يكن
امرئ القيس قد تأثر بلغة عدنان فكيفه نستطيع أن نتصور أن لغته
الأولى قد محيت من نفسه محو تاماً ولم يظهر لها أثر ما في شعره ؟ نظن
أن أنصار القديم سيجلدون كثيراً من المشقة والعناء ليحلوا هذه المشكلة » .

فامرؤ القيس يمني ، والشعر المعزو إلى امرئ القيس عدناني اللغة
قرشياً . وهذا حسن ولكن أحسن منه أن الدكتور حين تناول الأبيات
المنسوبة إلى امرئ القيس رفض بعضها وقبل البعض الآخر — وأن
كانت كلها عدنانية قرشية !! رفض مثلاً هذين البيتين :

وليل كموج البحر أرخى سدوله عليّ بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وفاء بكل كل

وقبل هذا البيت الذي يتلوها :

إلا أيها الليل الطويل ألا نجلى يصبح وما الاصباح منك بامثل

فلماذا ؟ أهو يمني اللغة دونهما ؟ أفیه شيء يخالف لغة عدنان
وقريش التي نزل بها القرآن من حيث اللفظ أو الإعراب وما يتصل
بذلك من قواعد الكلام ؟ أم وقعت المعجزة وبلغ من تأثر الشاعر بلغة
عدنان أن محيت لغته اليمنية من نفسه محو تاماً في هذا البيت فقط ؟

وقد وقع الدكتور في مثل هذا الخطأ عينه لما تناول شعر عبيد
وعلقمة وعمرو بن قميئة ومهلل وبين حلزة وطرفة بن العبد الخ الخ
وإن اختلفت القبائل .

وهو مع جنوحه الى رفض القصص المنحولة يتقبل قصة الفرزدق
وإن كانت اشبه بالمنحول منها بأن تكون حقيقية ونعني بها زعمهم انه
خرج في يوم مطير الى ضاحية البصرة وانتهى الى غدير فيه نساء . فقال
ما أشبه هذا اليوم بيوم دارة جلجل ثم انصرف فصاح النساء به :
« يا صاحب البغلة » وعز من عليه الا ما حدثهن بحديث دارة جلجل قالوا
فقص عليهن قصة امرئ القيس وأنشدن قوله :

الا رب يوم لك منهن صالح ولا سيما يوم بدارة جلجل

ومن سقطه انه يذكر « ابتذال » اللفظ ، ويعني انه مانوس غير
حوشي ، ويتكلم على المثانة والجزالة ويريد بهما حشو الكلام بالغريب
الذي يحتاج المرء في فهمه الى مراجعة معاجم اللغة . وهو ما لا يغتفر
لرجل تدوق الادب بله من يدرسه في الجامعة ، ومن ذلك قوله عن
قصيدة جلة في رثاء كليب انها شعر « لا ندري ايسطيع شاعر او شاعرة
في هذا العصر الحديث أن يأتي بأشد منه » سهولة وليناً وابتدالاً ؟
والأبيات التي يشير اليها هي :

جل عندي فعل جساس فيا	حررتي عما انجلي او ينجلي
فعل جساس على وجدي به	قاصم ظهري ومدن اجلى
يا قتيلا قوض الدهر به	سقف بيتي جميعا من هل
هدم البيت الذي استحدثته	وانثنى في هدم بيتي الاول
خصني قتل كليب بلظى	من ورائي ولظى مستقبلي
لبس من يكي ليومية كمن	انما يبكى ليوم ينجلي

وهي أبيات ليس فيها ابتذال بالمعنى المفهوم . ومن نظرياته ان لغة
الكلام عند العرب قبل الاسلام كانت وعرة حوشية !! انظر قوله « فان

قصيدة هذه من رقة اللفظ وسهولته ما يجعل فهمها يسيرا على أقل الناس حظا من العلم باللغة العربية في هذا العصر الذي نحن فيه ، وما هكذا كانت تحدث العرب في منتصف القرن السادس للمسيح وقبل ظهور الإسلام بما يقرب من نصف قرن « فمن ادراك يا دكتور ؟! » ويا لها من صورة معكوسة للغة في ذهن الدكتور !!

وقد اطلنا جدا والصحيفة لا تتسع للافاضة . ولذلك نختم كلامنا بأن الباب الثالث من الكتاب أشبه بتخبط الطلبة منه بإبحاث الاساتذة قليته استغنى عنه . وإن الدكتور ليحسن جدا الى نفسه اذا تحاشى الخروج من النقد العام الذي يسهل مع التحصيل ، الى النقد الطبيعى او الدراسات الفردية .

● إبراهيم عبد القادر المازني

المصدر : قبض الريح . ص ١٧٦ - ١٨٣ الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٠
صدرت الطبعة الاولى للكتاب عام ١٩٢٧

— ٢٠٩ — القديم والجديد م-١٤

قرار النيابة العامة

قضية الدكتور طه حسين

وصلت إلينا نسخة من هذا القرار فإذا هو يؤيد ما كتبه الكاتبون من علماء الشرع ومن علماء القوانين ومن سائر طبقات العارفين من أثبتت جهل طه حسين فيما كتبه وطعنه في الدين الاسلامي وتكذيبه للقرآن وتقليده في ذلك لبعض دعاة النصرانية ، واننا ننقل منه ما سبقتنا الى تلخيصه جريدة الاخبار الفراء للثقة بها قالت :

أصدر حضرة صاحب العزة محمد بك نور رئيس نيابة مصر قرارا مسهبا عن البلاغات التي قدمت ضد الدكتور طه حسين لتأليفه كتابا اسماه الشعر الجاهلي ويقع هذا القرار في ست عشرة صفحة من القطع الكبير وقد تناول في مقدمته الاشارة الى أسماء الاشخاص المبلغين وهم الشيخ خليل حسنين الطالب بالقسم العالي بالازهر وفضيلة شيخ الجامع الازهر وحضرة عبد الحميد افندي البنان عضو مجلس النواب .

ثم اتى القرار على التهمة التي وجهها المبلغون الى الدكتور وهي انه طعن في الدين الاسلامي في مواضع أربعة من كتابه .

(الأول) ان المؤلف اهان الدين الاسلامي بتكذيب القرآن في أخباره عن ابراهيم واسماعيل .

(الثاني) ما تعرض له المؤلف في شأن القراءات السبع المجمع عليها .

(الثالث) ينسبون للمؤلف انه طعن في كتابه على النبي صلى الله عليه وسلم (طعنا فاحشا من حيث نسبه .

(الرابعة) انكر المؤلف ان للاسلام اولية في بلاد العرب وانه دين
ابراهيم .

عن الامر الاول

تتلول القرار الكلام عن الامر الاول باستفاضة واسعة وذكر اقوال
الدكتور طه في الشعر الجاهلي ولغة العرب وعاب طريقة المؤلف في
الاستدلال والاستنتاج ثم انتقل الى تعرضه لابراهيم واسماعيل فقال :

ان الذي نريد ان نشير اليه انما هو الخطا الذي اعتاد ان يرتكبه
المؤلف في ابحائه حيث يبدأ بافتراض يتخيله ، ثم ينتهي بان يرتب عليه
قواعد كأنها حقائق ثابتة كما فعل في امر الاختلافات بين لغة حمير وبين
لغة عدنان ، ثم في مسألة ابراهيم واسماعيل وهجرتهما الى مكة وبناء
الكعبة إذ بدأ فيها باظهار الشك ثم انتهى باليقين (١) بدأ بقوله « للتوراة
ان تحدثنا عن ابراهيم واسماعيل والقرآن ان يحدثنا عنهما ايضا ولكن
ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لاثبات وجودهما
التاريخي فضلا عن اثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة اسماعيل بن
ابراهيم الى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها » الى هنا اظهر الشك
لعدم قيام الدليل التاريخي في نظره كما تتطلبه الطرق الحديثة ، ثم
انتهى بان قرر في كثير من الصراحة قوله « امر هذه القصة اذن واضح
فهي حديثة العهد ظهرت قبيل الاسلام واستغلها الاسلام لسبب ديني »
الحق فما هو الدليل الذي انتقل به من الشك الى اليقين .

هل دليله هو قوله « نحن مضطرون الى ان نرى في هذه القصة
نوعا من الحيلة في اثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة ، وبين
الاسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة اخرى . وإن اقدم عصر
يمكن ان تكون قد نشأت فيه هذه الفكرة إنما هو هذا العصر الذي اخذ
اليهود يستوطنون فيه شمال البلاد العربية ويبنون فيه المستعمرات »

(١) اي بالجزم .

الخ وان ظهور الاسلام وما كان من الخصومة العتيقة بينه وبين وثنية العرب من غير اهل الكتاب قد اقتضى ان تثبت الصلة بين الدين الجديد وبين ديانتى النصرى واليهود ، وانه مع ثبوت الصلة الدينية يحسن ان تؤيدها صلة مادية الخ .

اذا كان الاستاذ المؤلف يرى ان ظهور الاسلام قد اقتضى ان تثبت الصلة بينه وبين ديانة اليهود والنصارى ، وان القرابة المادية الملتقة بين العرب واليهود لازمة لاثبات الصلة بين الاسلام وبين اليهودية فاستغلها لهذا الغرض فهل له ان يبين السبب في عدم اهتمامه ايضا بمثل هذه الحيلة لتوثيق الصلة بين الاسلام وبين النصرانية - وهل عدم اهتمامه هذا معناه عجزه او استهانته بأمر النصرانية ؟ وهل من يريد توثيق الصلة مع اليهود بأي ثمن حتى باستغلال التلفيق هو الذي يقول عنهم في القرآن (لتجدن اشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) .

ان الاستاذ ليعجز حقا عن تقديم هذا البيان اذ ان كل ما ذكره في هذه المسألة انما هو خيال في خيال ، وكل ما استند عليه من الأدلة هو : (١) فليس يبعد ان يكون (٢) فما الذي يمنع (٣) ونحن نعتقد (٤) واذن فليس يمنع قریشا من ان تقبل هذه الاسطورة (٥) واذن فنستطيع ان نقول :

فالاستاذ المؤلف في بحثه اذا رأى انكار شيء يقول لا دليل عليه من الأدلة التي تطلبها الطرق الحديثة للبحث حسب الخطة التي رسمها في منهج البحث ، واذا رأى تقرير أمر لا يدل عليه بغير الأدلة التي أحصيناها له وكفى بقوله حجة !

سئل الاستاذ في التحقيق عن أصل هذه المسألة (أي تلفيق القصة) وهل هي من استنتاجه او نقلها فقال : هذا فرض فرضته أنا دون ان أطلع عليه في كتاب آخر ، وقد اخبرت بعد ان ظهر الكتاب ان شيئا مثل هذا الفرض يوجد في بعض كتب المبشرين ولكن لم افكر فيه حتى

بعد ظهور كتابي . على أنه سواء كان هذا الغرض من تخيله كما يقول أو من نقله عن ذلك المبشر الذي يستتر تحت اسم هاشم العربي فانه كلام لا يستند الى دليل ولا قيمة له . على اننا نلاحظ أن ذلك المبشر مع ما هو ظاهر من مقاله من غرض الطعن على الاسلام كان في عبارته اظرف من مؤلف كتاب الشعر الجاهلي لانه لم يتعرض للشك في وجود ابراهيم واسماعيل بالذات ، وانما اكتفى بأن انكر ان اسماعيل أبو العرب وقال : إن حقيقة الامر في قصة اسماعيل انها دسيسة لفقها قدماء اليهود للعرب تزلفا اليهم الخ .

كما نلاحظ أيضا أن ذلك المبشر قد يكون له عذره في سلوك هذا السبيل لأن وظيفة التبشير لدينه غرضه الذي يتكلم فيه ، ولكن ما عذر الاستاذ المؤلف في طرق هذا الباب وما هي الضرورة التي ألجأته الى أن يرى في هذه القصة نوعا من الحيلة الخ .

وان كان المتسامح يرى له بعض العذر في التشكك الذي اظهره أولا اعتمادا على عدم وجود الدليل التاريخي كما يقول فما الذي دعاه الى ان يقول في النهاية بعبارة تفيد الجزم : « امر هذه القصة أذن واضح فهي حديثة العهد ظهرت قبيل الاسلام واستغلها الاسلام لسبب ديني الخ » مع اعترافه في التحقيق بأن المسألة فرض افترضه .

يقول الاستاذ : « انه ان صح افتراضه فان القصة كانت شائعة بين العرب قبل الاسلام فلما جاء الاسلام استغلها وليس ما يمنع ان يتخذها الله في القران وسيلة لاقامة الحجّة على خصوم المسلمين كما اتخذ من غيرها من القصص التي كانت معروفة وسيلة الى الاحتجاج او الى الهداية » وهاشم العربي يقول في مثل هذا : ولما ظهر محمد رأى المصلحة في اقرارها فأقرها وقال للعرب انه انما يدعو الى ملة جدّهم هذا الذي يعظمونه من غير ان يعرفوه . فسبحان من اوجد هذا التوافق بين الخواطر (!!)

ان الاستاذ المؤلف اخطأ فيما كتب واخطأ ايضا في تفسير ما كتب

وهو في هذه النقطة قد تعرض بغير شك لنصوص القرآن ولتفسير نصوص القرآن وليس في وسعه الهرب بادعائه البحث العلمي منفصلاً عن الدين فليفسر لنا اذن قوله تعالى في سورة النساء (انا اوحينا اليك كما اوحينا الى نوح والنبيين من بعده واوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وعيسى واليوسف ويونس وهارون وسليمان) .

وقوله في سورة مريم (اذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقاً نبياً . واذكر في الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبياً) وفي سورة آل عمران (قل آمنّا بالله وما انزل على ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما اوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون) .

وغير ذلك من الآيات القرآنية الكثيرة التي ورد فيها ذكر ابراهيم واسماعيل لا على سبيل الامثال كما يدعي حضرته . وهل عقل الاستاذ يسلم بأن الله سبحانه وتعالى يذكر في كتابه أن ابراهيم وأن اسماعيل رسول نبي مع أن القصة ملفقة ؟ وماذا يقول حضرته في موسى وعيسى وقد ذكرهما الله سبحانه وتعالى في الآية الأخيرة مع ابراهيم واسماعيل وقال في حقهم جميعاً (لا نفرق بين احد منهم) ؟

الحق أن المؤلف في هذه المسألة يتخبط تخبط الطائش ، ويكاد يعترف بخطئه لان جوابه يشعر بهذا عندما سألنا في التحقيق عن السبب الذي دعاه اخيراً لان يقرر بطريقة تفيد الجزم بأن القصة حديثة العهد قبل الاسلام فقال ص ٣٨ من محضر التحقيق : هذه العبارة اذا كانت تفيد الجزم فهي انما تفيده ان صح ان فرض الذي قامت عليه وربما كان فيها شيء من الغلو ولكنني اعتقد ان العلماء جميعاً عندما يفترضون فروضا علمية يبيحون لانفسهم مثل هذا النحو من التعبير فالواقع انهم مقتنعون فيما بينهم وبين انفسهم بأن فروضهم راجحة .

والذي نراه نحن ان موقف الاستاذ المؤلف هذا لا يختلف عن مواقف

الاستاذ هوار حين يتكلم عن شعر امية بن ابي الصلت وقد وصف المؤلف نفسه هذا المؤلف في ص ٨٢ و ٨٣ من كتابه بقوله :

« ومع اني من اشد الناس اعجابا بالاستاذ هوار وبطائفه من اصحابه المستشرقين وبما ينتهون اليه في كثير من الاحيان من النتائج العلمية القيمة في تاريخ الادب العربي وبالمناهج التي يتخلونها للبحث فاني لا استطيع ان اقرأ مثل هذا الفصل دون ان اعجب كيف يتورط العلماء احيانا في مواقف لا صلة بينها وبين العلم . »

حقا ان الاستاذ المؤلف قد تورط في هذا الموقف الذي لا صلة بينه وبين العلم لغير ضرورة يقتضيها بحثه ولا فائدة يرجوها ، لان النتيجة التي وصل اليها من بحثه وهي قوله : « ان الصلة بين اللغة العدنانية وبين اللغة القحطانية كالصلة بين اللغة العربية وأي لغة أخرى من اللغات السامية المعروفة ، وان قصة العاربة والمستعربة وتعلم اسماعيل العربية من جرهم كل ذلك حديث اساطير لا خطر له ولا غناء فيه » ما كانت تستدعي التشكك في صحة اخبار القرآن عن ابراهيم واسماعيل وبنائهما الكعبة ثم الحكم بعدم صحة القصة وباستغلال الاسلام لها لسبب ديني ونحن لا نفهم كيف اباح المؤلف لنفسه ان يخلط بين الدين وبين العلم وهو القائل بان الدين يجب ان يكون بمعزل عن هذا النوع من البحث الذي هو بطبيعته قابل للتغيير والنقض والشك والانكار (ص ٢٢ من محضر التحقيق) واننا حين نفصل بين العلم والدين نضع الكتب السماوية موضع التقديس ، ونعصمها من انكار المنكرين وطعن الطاعنين (ص ٢٤ من محضر التحقيق) ولا ندري لم يفعل غير ما يقول في هذا الموضوع ؟ لقد سئل في التحقيق عن هذا فقال : ان الداعي اني اناقش طائفة من العلماء والادباء والقلماء والمحدثين وكلهم يقررون ان العرب المستعربة قد اخلدوا لغتهم عن العرب العاربة بواسطة ابيهم اسماعيل بعد ان هاجر وهم جميعا يستدلون على آرائهم بنصوص من القرآن ومن الحديث فليس لي بد من ان اقول لهم ان هذه النصوص لا تلزمني من الوجهة العلمية .

اما الثابت في نصوص القرآن فقصة الهجرة وقصة بناء الكعبة وليس

في القرآن نصوص يستدل بها على تقسيم العرب الى عاربة ومستعربة ولا على ان اسماعيل ابو العرب العدنانيين ولا على تعلم اسماعيل العربية من جرهم . ونص الآية التي تثبت الهجرة (ربنا اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) لا يفيد غير اسكان ذرية ابراهيم في وادي مكة اي ان اسماعيل هو جر به صغيراً (كنص الحديث) الى هذا الوادي فنشأ فيه بين اهله وهم من العرب وتعلم هو وابناؤه لغة من نشأوا بينهم وهي العربية لان اللغة لا تولد مع الانسان وانما تكتسب اكتساباً ، وقد اندمجوا في العرب فصلوا منهم ، وهذا الاندماج لا يترتب عليه ان يكون جميع العرب العدنانيين من ذريته اذ الحكم بهذا يقتضي ان لا يكون مع اسماعيل احد منهم حتى لا يوجد غير ذريته وهو ما لم يقل به احد ويا ليت الاستاذ المؤلف حدا حذو ذلك المبشر هاشم العربي في هذه المسألة حيث قال « ولا اسماعيل نفسه باب للعرب المستعربة ولا تملك احد من بنيه علي امة من الامم وانما قصارى امرهم انهم دخلوا وهم عدد قليل في قبائل العرب العديدة المجاورة لمنزلهم فاختلطوا بها وما كانوا الا كحصاة في فلاة » (تراجع صحيفة ٣٥٦ من كتاب مقالة في الاسلام) - والو ان المؤلف نقل هذا لنجا من التورط في هذا الموضوع . واما مسألة بناء الكعبة فلم نفهم الحكمة في نفيها واعتبارها اسطورة الاساطير اللهم الا اذا كان مرده ازالة كل اثر لابراهيم واسماعيل ولكن ما مصلحة المؤلف في هذا ؟ الله اعلم بمراده (١) .

عن الامر الثاني

تناول القراء الامر الثاني الخاص بالقراآت وبعد تحصيله قال « ونحن نرى ان ما ذكره المؤلف في هذه المسألة هو بحث علمي لا تعارض بينه وبين الدين ولا اعتراض لنا عليه » .

(١) المنار : الذي فهمه الناس من كلامه ان مراده الطعن في الاسلام وصد الناس عنه .

عن الامر الثالث

تناول القرار مسألة نسب النبي صلى الله عليه وسلم وبعد أن حللها قال « ونحن لا نرى اعتراضاً على بحثه على النحو من حيث هو وإنما كل ما نلاحظه عليه أنه تكلم فيما يختص بأسرة النبي صلى الله عليه وسلم ونسبه في قریش بمباراة خالية من كل احترام بل بشكل تهكمي غير لائق ولا يوجد في بحثه ما يدعو له لايراد العبارة على هذا النحو » .

الامر الرابع

تناول القرار الامر الرابع وبعد تحليله قال « ونحن لا نرى اعتراضاً على أن يكون مراده بما كتب في هذه المسألة هو ما ذكره ولكننا نرى أنه كان سيء التعبير جداً في بعض عباراته كقوله : ولم يكن أحد قد احتكر ملة إبراهيم ولا زعم لنفسه الانفراد بتأويلها . لقد أخذ المسلمون يردون دين الاسلام في خلاصته الى دين إبراهيم هذا الذي هو اقدم واتقى من دين اليهود والنصارى . وكقوله : وشاعت في العرب اثناء ظهور الاسلام وبعده فكرة ان الاسلام يجدد دين إبراهيم في عصر من العصور .. لان في ايراد عباراته على هذا النحو ما يشعر بأنه يقصد شيئاً آخر بجانب هذا المراد خصوصاً اذا قربنا بين هذه العبارات ، وبين ما سبق له ان ذكره بشأن تشككه في وجود إبراهيم وما يتعلق به » .

عن القانون

نصت المادة (١٢) من الامر الملكي رقم (٤٢) لسنة ١٩٢٣ بوضع نظام دستوري للدولة المصرية على أن حرية الاعتقاد مطلقة .

ونصت المادة (١٤) منه على أن حرية الرأي مكفولة ولكل انسان الاعراب عن فكره بالقول او بالكتابة او بالتصوير أو بغير ذلك في حدود القانون .

ونصت المادة ٤٩ منه على أن الاسلام دين الدولة فلكل إنسان إذا حرية

الاعتقاد بغير قيد ولا شرط وحرية الرأي في حدود القانون فله ان يعرب
عن اعتقاده وفكره بالقول او الكتابة بشرط ان لا يتجاوز حدود القانون .

وقد نصت المادة ١٣٩ من قانون العقوبات الاهلي على عقاب كل تعد
يقع باحدى طرق العلانية المنصوص في المادتين ١٤٨ ، ١٥٠ على احد الاديان
التي تؤدي شعائرها علنا . وجريمة التعدي على الاديان المعاقب عليها
بمقتضى المادة المذكورة تتكون بتوفر اربعة اركان .

١ - التعدي .

٢ - وقوع التعدي باحد الطرق العلنية المبينة في المادتين ١٤٨ ، ١٥٠
عقوبات .

٣ - وقوع التعدي على احد الاديان التي تؤدي شعائرها علنا .

٤ - القصد الجنائي .

عن الركن الاول

لم يذكر القانون بشأن هذا الركن في المادة إلا لفظ (تعد) وهذا لفظ
عام يمكن فهم المراد منه بالرجوع الى نص المادة باللغة الفرنسية وقد عبر
القانون فيه عن التعدي outage والقانون قد استعمل لفظ outrage
هذا في المواد ١٥٥ و ١٦٠ عقوبات أيضا ولما ذكر معناها في النص العربي
للمواد المذكورة عبر في المادة (١٥٥) بقوله (كل من انتهك حرمة) وفي
المادتين ١٥٩ ، ١٦٠ باهانة فيتضح من هذا - أن مراده بالتعدي في المادة
١٣٩ هو كل مساس بكرامة الدين أو انتهاك حرمة أو الحط من قدرة
أو الازدراء به لان الاهانة تشمل كل هذه المعاني بلا شك .

وحيث إنه بالرجوع الى الوقائع التي ذكرها الدكتور طه حسين والتي
تكلمنا عنها تفصيلا وتطبيقها على القانون يتضح ان كلامه الذي بحثناه تحت
عنوان (الامر الاول) فيه تعد على الدين الاسلامي لانه انتهك حرمة هذا

الدين بأن نسب الى الاسلام انه استغل قصة ملفقة هي قصة هجره اسماعيل بن ابراهيم الى مكة وبناء ابراهيم واسماعيل للكعبة . واعتبار هذه القصة اسطورة وانها من تنفيق اليهود . ، وانها حديثة العهد ظهرت قبل الاسلام الى آخر ما ذكرناه تفصيلا عند الكلام على الوقائع وهو بكلامه هذا يرمي الدين الاسلامي بأنه مضلل في أمور هي عقائد ثابتة ، وواردة في القرآن باعتبار انها حقائق لا مرية فيها كما أن كلامه الذي بحثناه تحت عنوان (الامر الرابع) قد اورده على صورة تشعر بأنه يريد به اتمام فكرته بشأن نسب النبي صلى الله عليه وسلم فهو إن لم يكن فيه طعن ظاهر إلا أنه اورده بعبارة تهكمية تشف عن الخط من قدره — وأما ما ذكره بشأن القرآن مما تكلمنا عنه في الامر الثاني فإنه بحث بريء من الوجهة العلمية والدينية أيضا ولا شيء فيه يستوجب المؤاخذة لا من الوجهة الادبية ولا من الوجهة القانونية .

عن الركن الثاني

لا نزاع في هذا الركن أيضا لان التعدي وقع على الدين الاسلامي الذي إذ أنه اورد في كتاب الشعر الجاهلي الذي طبع ونشر وبيع في المحلات العمومية والمؤلف معترف بهذا .

عن الركن الثالث

لا نزاع في هذا الركن أيضا لان التعدي وقع على الدين الاسلامي الذي تؤدي شعائره علنا وهو الدين الرسمي للدولة .

عن الركن الرابع

هذا الركن هو الركن الادبي الذي يجب ان يتوفر في كل جريمة فيجب إذا لمعاقبة المؤلف أن يقدم الدليل على توفر القصد الجنائي لديه ، وبعبارة أوضح يجب أن يثبت أنه إنما اراد بما كتب أن يتعدى على الدين الاسلامي فلذا لم يثبت هذا الركن فلا عقاب .

انكر المؤلف في التحقيقات انه يريد الطعن على الدين الاسلامي ، وقال انه ذكر ما ذكر في سبيل البحث العلمي وخدمة العلم لا غير - غير مقيد بشيء ، وقد اشار في كتابه تفصيلا الى الطريق الذي رسمه للبحث ، ولا بد لنا هنا ان نشير الى ما قرره المؤلف في التحقيق من انه كمسلم لا يرتاب في وجود ابراهيم واسماعيل وما يتصل بهما مما جاء في القرآن ولكنه كعالم مضطر الى ان يدعى لمناهج البحث فلا يسلم بالوجود العلمي التاريخي لابراهيم واسماعيل فهو مجرد من نفسه شخصيتين وقد وجدنا المؤلف قد شرح نظريته هذه شرحا مستفيضا في مقال نشره بجريدة السياسة الاسبوعية بالعدد نمرة ١٩ الصادر في ١٧ يولييه سنة ١٩٢٦ ص ٥ تحت عنوان (العلم والدين) وقد ذكر فيه بالنص « فكل امري منا يستطيع ان فكر قليلا ان يجد في نفسه شخصيتين ممتازين إحداهما عاقلة تبحث وتنقد وتحلل وتغير اليوم ما ذهبت اليه امس ، وتهدم اليوم ما بنته امس . والاخرى شاعرة تلذ وتألّم وتفرح وتحزن وترضى وتغضب وترغب وترهب في غير نقد ولا بحث ولا تحليل ، كلتا الشخصيتين متصلتان بمزاجنا وتكويننا لا نستطيع ان نخلص من إحداهما فما الذي يمنع ان تكون الشخصية الاولى عالمة باحثة ناقدة ، وان تكون الشخصية الثانية مؤمنة مطمئنة طامحة الى المثل الاعلى .

ولسنا نعترض على هذه النظرية باكثر مما اعترض به هو على نفسه في مقاله حيث ذكر بعد ذلك : « ستقول وكيف يمكن ان تجمع المتناقضين ؟ ولست أحاول جوابا لهذا السؤال وإنما أحولك على نفسك الخ ولا شك في أن عدم محاولة الاجابة على هذا الاعتراض انما هو عجزه عن الجواب ، والمفهوم انه قد أورد هذا الاعتراض لانه يتوقعه حتى لا يوجه اليه .

الحقيقة انه لا يمكن الجمع بين النقيضين في شخص واحد وفي وقت واحد بل لا بد من أن تتخلى حدى الحالتين للاخلى وقد اشار المؤلف نفسه الى هذا في نفس المقال في سياق كلامه على الخلاف بين العلم والدين حيث قال بشأنهما : « ليسا متفقين ولا سبيل الى أن يتفقا الا أن ينزل أحدهما لصاحبه عن شخصيته كلها » .

اما توزيع الاختصاص الذي اجراه الدكتور بجعله العلم من اختصاص القوة العاقلة والدين من اختصاص القوة الشاعرة فلسنا ندركه ، والذي نفهمه ان 'نعقل هو الایساس في العلم وفي الدين معا ، واذا ما وجدنا العلم والدين يتنازعان فسبب ذلك انه ليس لدينا القدر الكافي من كل منهما — اننا نقرر هذا بناء على ما نعرفه في أنفسنا اما الدكتور فقد تكون لديه القدرة على ما يقول وليس ذلك على الله بمعسر .

نحن في موضع البحث عن حقيقة نية المؤلف فسواء لدينا صحت نظرية تجريد الشخصيتين عالمة ومندبنة او لم تصح فاننا على الفرضين نرى أنه كتب ما كتب من اعتقاد تام ولما قرأنا ما كتبه بامعان وجدناه منساقا في كتابته بعامل قوي متسلط على نفسه ، وقد بينا حين بحثنا الواقع كيف قاده بحثه الى ما كتب وهو وان كان قد اخطأ فيما كتب الا ان الخطأ المصحوب باعتقاد الصواب شيء وتعمد الخطأ المصحوب بنية التعدي شيء آخر .

وحيث انه مع ملاحظة ان أغلب ما كتبه المؤلف مما يمس موضوع الشكوى وهو ما قصرنا بحثنا عليه وانما هو تخيلات وافتراسات واستنتاجات لا تستند الى دليل علمي صحيح فانه كان يجب عليه ان يكون حريصا في جراته على ما قدم عليه مما يمس الدين الاسلامي الذي هو دينه ودين الدولة التي هو من رجالها المسؤولين عن نوع من العمل فيها وان يلاحظ مركزه الخاص في الوسط الذي يعمل فيه — صحيح إنه كتب ما كتب عن اعتقاده بأن بحثه العلمي يقتضيه ولكنه مع هذا كان مقدراً لمركزه تماما وهذا الشعور ظاهر من عبارات كثيرة في كتابه منها قوله :، واكاد اثق بان فريقا منهم سيلقونه ساخطين عليه ، وبأن فريقا آخر سيزورون عنه ازواراً ، ولكنني على سخط اولئك وازورار هؤلاء أريد ان اذيع هذا البحث .

ان للمؤلف فضلا لا ينكر في سلوكه طريقا جديدا للبحث هذا فيه حذو العلماء من الغربيين ولكنه لشدة تأثر نفسه مما اخذ عنهم قد تورط في

بحثه حتى تخيل حقا ما ليس بحق ، او ما لا يزال في حاجة الى اثبات
انه حق — انه قد سلك طريقا مظلمة فكان يجب عليه ان يسير على مهل
وان يحتاط في سيره حتى لا يصل ولكنه أقدم بغير احتياط فكانت النتيجة
غير محموده .

وحيث إنه مما تقدم يتضح أن غرض المؤلف لم يكن مجرد الطعن
والتعدي على الدين بل ان العبارات الماسة بالدين التي اوردتها في بعض
المواضع من كتابه انما قد اوردتها في سبيل البحث العلمي مع اعتقاده ان
بحثه يقتضيها .

« وحيث إنه من ذلك يكون القصد الجنائي غير متوفر

« فلذلك » تحفظ الاوراق اداريا .

رئيس نيابة مصر

القاهرة في ٣ مارس سنة ١٩٢٧

(المنار) قد أثبت رئيس النيابة ان الدكتور طه حسين طعن في الدين
الاسلامي وكذب القرآن بما سبقه اليه بعض دعاة النصرانية فكان هذا في
طعنه أقرب منه الى الادب — وأثبت أن مطاعنه التي شكها منها المسلمون
وطالب بعض رجال الدين ورجال النيابة البرلمانية محاكمته عليها لم تستند
الى دليل علمي صحيح وانما هي تخيلات وافتراضات باطلة وهو قد
أثبت بما ذكره إرتداداه عن الاسلام ، وانه كان مقدرا نتيجة عمله وسوء
تأثيره في المسلمين كما صرح به بغير مبالاة — ثم ان الرئيس مع هذا قد
ارتأى ان الدكتور طه يعتقد ان ما كتبه حق وانه يقتضيه البحث العلمي
ولم يقصد به مجرد الطعن والتعدي — وانه لهذا لم يجد وجها قانونيا
لمحاكمته فأمر بحفظ الاوراق الخاصة بقضيته اداريا .

وقد رأينا الناس متعجبين من هذه النتيجة ومخالفين لرئيس النيابة
في استنتاجه ، على اعجابهم بدقة فهمه وحسن تفنيده لتلك المظالم .
وقد سبق لي ان بينت في المنار ما فهمته من غرض الدكتور طه حسين وهو
تشكيك طلبة الجامعة المصرية وسائر من يقرأ كتابه في الدين الاسلامي

بل افساد اعتقاداتهم وتجريئتهم على الكفر ، لانه ليس من الغبولة والبلادة بحيث يعتقد ان تلك « التخييلات والافتراضات » ادلة علمية على حقيقة طعنه فهو لا يعتقد ان ما كتبه حق الا من حيث انه لا يؤمن بان كتاب الله هو الحق الذي « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

ثم اقول اذا كان من يطعن في دين الدولة والامنة طعنا صريحا لا يستند الى دليل ولكنه هو يعتقد - يباح له ذلك قانونا ولا يحاكم ولا يعاقب فكيف يعقل ان يكون الطعن في الدين ممنوعا ومن الضروري انه لا يطعن فيه الا من يعتقد بطلانه من ملحد او متدين بدين آخر ؟ الا ان هذا القرار يجرا كل كافر بالاسلام على الطعن فيه ، وهل يطعن فيه الا كافر به ؟

هذا وان الدكتور طه قد استقال من التعليم في الجامعة عقب صدور هذا القرار لما فيه من الاهانة له واثبات جهله فبادر مدير الجامعة احمد لطفي بك السيد الى تلافي الامر وحمل وزير المعارف على ان لا يقبل استقالته ففعل ، فعلم بهذامن لم يكن يعلم رأي كل من مدير الجامعة ووزير المعارف في الدكتور طه حسين وقد طبع كتابه ثانية بعد حذف ما اذكر المسلمون منه وهو باق في الجامعة فمن شاء فليرض ومن شاء فليغضب (ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

محمد احمد الفمراوي

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، المبعوثين بالحق ،
والمخبرين بالصدق عن الله .

وبعد فهذا نقد لكتاب ظهر من قبل باسم ، ثم ظهر بعد باسم ،
وحوى في الحالين باسم العلم كثيرا مما يجهله العلم .

ظهر كتاب « في الشعر الجاهلي » منذ أكثر من عامين فسخطه
الناس سواء العامة منهم والخاصة ، لا لأنه حوى حقائق ينكرونها ولكن
لأنه حوى دعاوى خالفت ما يعرفون من أساسيات الدين واللغة والتاريخ .
وكان فيما استلفتني من ذلك دفاع صاحب الكتاب عن كتابه باسم العلم ،
وادعاؤه أن ذلك الذي سخطه الناس إنما هو نتيجة بحث أخذ فيه بمنهج
البحث العلمي الصحيح . وهي دعوى لم تكن لتستحق التمحيص لولا أن
الرأي العلمي في بلدنا هذا لم يتكون أو ليس له صوت مسموع . فلو كان
في مصر رأي علمي مسموع الصوت ما أمكن أن يلقى ذلك الكتاب الفج
دروسا على طلبة حديثي العهد بالدور الثانوي لا يستطيعون تمحيصا
لرأي يلقيه عليهم أستاذهم كأحدث ما يتفق مع النهج العلمي الحديث .

عندئذ صحت العزيمة على تناول صلب ذلك الكتاب بنقد يكشف
عن طريقته العلمية هي أم غير علمية ، ويقرن بعض أجزاء الكتاب إلى
بعض ليتبين امتوافقة هي فيما بينها أم متخالفة ، فإن الطريقة العلمية
يعرفها المشتغلون بالعلم وهم بيننا غير قليل ، وتوافق أجزاء الكتاب

الواحد ضروري ان كان ذلك الكتاب قد صدر عن تفكير صحيح . واقل فوائد هذا النوع من النقد انه اذا احسن القيام به يسد ابواب المراء على اهل المراء والشك ، ويخيرهم بين ان يلعنوا للحق او ان يصيروا مثالا وسخرية في العقلاء .

وكان من اثر ذلك العزم ان ظهرت سلسلة كلمات في جريدة « البلاغ » (١) تنقد كتاب « في الشعر الجاهلي » من الناحية العلمية ، احقاقا للحق وانصافا للعلم والدين . وهي كلمات كدنا ننزل على رأي بعض اولي الفضل فنجمعها اذ ذاك كتابا ، لولا ان ذلك لم يكن من قصدنا حين كتبناها ، وان الكتاب الذي كتبت في نقده كان قد صدر ورفع من الاسواق ، فلم نسترح اذ ذاك الى نشر النقد كتابا وقد طوى المنقود .

لكن المنقود عاد فانبعث بعد ان غير من زيه وان لم يغير من حقيقته فلم نجد بدا من ان نعيد ذلك النقد ونجمله بعد التعديل المناسب نواة لنقد اوسع يتناسب مع التضخم في الكتاب المنقود . فكتاب « في الادب الجاهلي » هو مثل كتاب « في الشعر الجاهلي » بروحه وغايته وطريقته ، لم ينتفع فيه صاحبه بنقد الناقدين على تعدد نقدهم وصوابه واني لا اعرف في عهدنا هذا كتابا لقي من عناية النقاد على تنوعهم ما لقي ذلك الكتاب . وهم لم يمنوا به لانه جاء بقيم يستدعي اكلابهم ، اذ كل ما كتب الكاتبون فيه كان تخطئة له في صميمه ودلالة على عيوبه ، وانما عنوا به لانه تعرض بالهدم للثابت مما يكبر الناس من دين ولغة وتاريخ . فهي عناية كانت اشبه بعناية الطب اذا هب لمكافحة مرض تتهدد جراثيمته الناس .

وفي رأينا ان إعراض صاحب ذلك الكتاب عن الانتفاع بذلك النقد

(١) في النصف الثاني من سنة ١٩٢٦ .

الكثير الصائب أدل على الروح الذي يحركه والفرض الذي يصرّكه
والفرض الذي يسمى إليه من كل ما نمق وما ينمق من زخرف يزعم
به التجرد من الهوى والجري على سنن العلم والحديث ، وإن أخراجه
كتاب « في الادب الجاهلي » وفيه ما فيه من اغلاط « الشعر الجاهلي »
لدليل قصور عن ادراك الحق ، أو عناد يخرج صاحبه من دائرة طلاب
الحق .

أما نوع تلك الاغلاط ، وبعده ما بين الكتاب وبين العلم وسننه في
النظر والبحث ، فهذا ما نرجو أن يتبينه القارئ من هذا النقد التحليلي
للكتاب .



المقدمة

صاحب الكتاب والتجديد في الادب

ولصاحب الكتاب نداء يلجأ اليه كلما اراد تزيين رأيه وتسويه رأي
مخالفيه للناس هو نداء التجديد . فهو المجدد ومخالفه غير مجدد ، وهو
نصر الجديد ومخالفه نصير القديم . وكلمة التجديد هنا ، ككلمتي القديم
والحديث ، من الكلمات المبهمة التي يحتاج معناها الى تحديد . ثم هي
هنا من الكلمات المنقولة عن مدلول مادي الى مدلول معنوي . والخطر
الذي يصحب مثل هذا النقل هو أن ينتقل مع الكلمة جوها الذي كان
يصحبها في استعمالها الاول فيصير معها في استعمالها الثاني ، فان لامثال
تلك الكلمات أجواء تنتقل معها في تداولها ، كما للكواكب أجواء تنتقل معها
في سبحها وتنقلها . فاذا علقت الكلمة ذات الجو بمدلول جديد علق به ما
كان يحيط بها في استعمالها الاول من استحسان أو استقباح ، وسرى
ذلك الى النفوس خفية فتستحسن أو تستقبح من غير أن تدري لذلك
سببا .

فالناس يستحسنون في الماديات الجديد ويفضلونه على القديم .

فالبس الجديد مثلاً والمسكن الجديد خير عندهم من مثله من القديم .
وهم يأخذون في ذلك بتجاريبهم فهم فيه على صواب . لكن اذا نقل ناقل
القدم والجدة الى المعنويات فبدأ يكلم الناس عن الادب القديم والادب
والجديد ، والمدينة القديمة والمدينة الجديدة ، والحياة القديمة والحياة
الجديدة . كان الناس منه على خطر وبدأوا يستقبحون ويستحسنون
من غير ان يكونوا غالباً على صواب في الاستقبح او الاستحسان :
يستحسنون المدينة الجديدة ولعلها شر من المدينة القديمة ، ويستقبحون
الادب القديم ولعله خير من الادب الجديد . وهم لا يفعلون ذلك لانهم
يرون مدينة خيراً من مدينة وادياً شراً من أدب ، ولكن لان الجدة فيما
الفوا من المحسوسات مقرونة عندهم بالتفضيل فيجرون المعنويات مجرى
الماديات عفواً من غير قصد ، ويفاضلون بين الجديد والقديم في الادب كما
يفاضلون بين الجديد والقديم في اللباس ، ويقعون طبعاً في نفس الخطأ
الذي يقع فيه طالب المنطق حين يستعمل في قياس واحد لفظاً واحداً
مشتركا بين معنيين مختلفين . والناس معذرون اذا فعلوا هذا ، اذ ليس
منتظراً من جمهورهم ان يكونوا منطقة مدققين او ان يحذروا سوء استغلال
قانون الربط او القرآن النفسي (Association Law) . انما الذي
تقع عليه تبعة ذلك الخطأ الخفي البالغ هو ذلك الذي يستغل امثال تلك
الالفاظ من غير حق وينقلها عما ينطبق جوها عليه الى ما لا ينطق جوها
عليه . واذا كان هذا الاستغلال منتظراً او على الاقل لا يمكن منعه في
الدمايات الحزبية ، حيث تراعى المصلحة ولا تراعى الحقيقة ، فان الابحاث
العلمية والادبية يجب ان تبرأ منه اذ يجب ان يكون للحقيقة فيها المكان
الاول .

وكتاب الادب الجاهلي يستغل هذا النوع من الالفاظ الى حد كبير ،
فهو لا يسام الكلام عن القديم والجديد والادب القديم والادب الجديد ،
وانصار القديم وانصار الجديد ، وصاحبه دائماً يريد بانصار القديم
مخالفه وبانصار الجديد اتصاره ، فهل هناك فيما يدعو اليه في ادب اللغة

شيء جديد يستحق ان تفترق الكلمة فيه فيكون انصاره هم المجددين ،
ويكون اعداؤه هم الجامدين ؟

هذا سؤال يحتاج جوابه الى النظر في طريقة صاحب الكتاب في الادب.
وفيما جاء به من مذهب في فهم الادب وتاريخه ومن رأي في اصلاحهما ،
ثم فيما ساق في كتابه من بحث . ونظن أنك ستري اذا مرضنا عليك هذا
كله ان امر صاحب الكتاب ومن معه اهنون كثيراً مما يصوورن ، وانهم في
صميمهم مقلدون لا مجددون ، وكثيرا ما يسيئون التقليد .

● محمد احمد الغمراوي

المصدر : النقد التحليلي لكتاب في الادب الجاهلي المقدمة + ص ٢١ - ٢٢ . تأليف :
محمد احمد الغمراوي منشورات دار الحكمة . بيروت ١٩٧٠
ظهرت الطبعة الاولى للكتاب عام ١٩٢٩ من المكتبة السلفية - القاهرة .

تقريظ المطبوعات الحديثة

النقد التحليلي لكتاب « في الادب الجاهلي »

مؤلفه الاستاذ الفاضل محمد احمد الغمراوي خريج مدرسة المعلمين العليا بمصر ثم جامعة لندن في انكلترا ، وله مقدمة حافلة بقلم امير البيان الامير شكيب ارسلان طبع في المطبعة السلفية بمصر سنة ١٣٤٧ هـ ١٩٢٩ م وصفحاته بفهرسه دون مقدمته ٣٢٥ واثمن النسخة ١٥ قرشا .

اما كتاب (في الادب الجاهلي) الذي وضع هذا الكتاب لنقده بالاسلوب الذي يسمى بالتحليلي فهو كتاب للدكتور طه حسين الذي كان استاذ ادب اللغة في كلية الاداب من الجامعة المصرية ، واخرج منها في هذه الاثناء ثم عزل من وزارة المعارف . وكان سماه « في الشعر الجاهلي » لخص فيه دروسا في آداب اللغة العربية القاها على تلاميذه في الجامعة كان اهم مقصد له فيها نعت سموم الاتحاد في ارواحهم بالتشكيك في عقائد الاسلام . بل صرح فيه بتكذيب القرآن العظيم ، فضج المسلمون في غير الجامعة ضجيجا شديدا بالانكار عليه ، وكتبوا مقالات كثيرة والفوا كتباً ورسائل في نقض مطاعنه وغيرها من جهالته ، فكان يطير بذلك سرورا لانه سبب لطيران شهرته وعلو مكانته عند منافقي المسلمين اعداء الاسلام من الافرنج وغيرهم ولاسيما الملاحدة ودعاة النصرانية منهم ، وهما الفريقان اللذان قد ايد دمايتهما وكان ماكتبه في الصد عن الاسلام اضر من كل ما كتبوه . ولكن آل ذلك الى مطالبة النيابة العامة مقاضاته الى محكمة العقوبات واصدار رئيسها عقب التحقيق قرارا في شان كتابه شديد الوطأة عليه ، وابلغ من كل ما كتب من الطعن

فيه ، إلا أنه لم يثبت عنده أنه سيء النية في طعنه ، بحيث يحكم القانون بعقابه ، ولكن جاء في صيغة القرار ما يدل على سوء النية . وقد أمرت الحكومة بمصادرة الكتاب وجمع ما بقي من نسخه ومنع نشرها فنفذ ذلك .

ذلك بأن مجلس النواب المصري كان قد ثار عليه يومئذ ثورة شؤمي وارتأى وجوب عقابه ومنعه من التدريس وكان رئيسه الزعيم الأكبر سعد باشا زغلول يرى ذلك ولكن تصدى لمظاهرة الدكتور والدفاع عنه زعماء الحزب الدستوري الذي ينتمي إليه ، فلما اشتد سعد باشا عليه بلغ من انتصار عدلي باشا له أن بلغ سعد باشا أنه يستقيل من الوزارة إذا عوقب طه حسين — وكان عدلي رئيس الوزارة الائتلافية بعد الصلح بينه وبين سعد باشا — فاضطر سعد باشا إلى الإغماض والإغضاء — فكان هذا أغرب ضعف رأيناه من سعد باشا ، وأغرب قوة وشدة عزيمة عرفناها من عدلي باشا . . . ولماذا ؟ لأجل إبقاء طه حسين في الجامعة المصرية ينفث سموم الالحاد والزندقة فيها .

بيد أن الدكتور طه حسين اضطر في أثناء هذه المحنة أن يصرح بقول ينجو به من عقاب الحكم عليه بتعمد الطعن على القرآن ومعاداة الإسلام فصرح في كتاب كتبه إلى رئيس الجامعة يقول فيه أنه مسلم يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولكن مثل هذا الاقرار لا يكفي في إثبات رجوعه عما كان قاله وفعله منافيا للإسلام فإن أهل الكتاب يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله أجمالا وهو لم يأخذ طعنه في القرآن إلا عنهم ، وإنما كان يجب أن يقر بأنه يؤمن بأن القرآن كلام الله تعالى المنزل على محمد رسول الله وخاتم النبيين وأن كل ما فيه حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأن ما قاله منافيا أو معارضا لذلك فهو خطأ .

ثم أنه اضطر بعد هذا إلى أن يحذف أصرح ما قيل أنه تكذيب القرآن ومناف للإسلام والإيمان من كتاب (في الشعر الجاهلي) ويزيد فيه بعض المباحث ويعيد طبعه مسميا إياه (في الأدب الجاهلي) وهذا الكتاب الثاني

هو الذي ألف الاستاذ الغمراوي كتابه في نقده ، واثبت ما فيه من الجهل ومنافاة الاسلام والتشكيك فيه ، ولكن طه حسين لا يبالي نقدا ولا تقضا . ولا يرد على ناقد ولا ناقض ، لانه ان فعل هذا يظهر جهله للمغرورين بعلمه من تلاميذه وغيرهم ، وربما كان اكثرهم لا يقرعون كلام الدين يردون عليه ، وما هو بالذي يتحري الحق وما ينفع الناس فيرجع عما يظهر له خطوه فيه .

اما مقدمة الامير شكيب للكتاب فلو لم يكتب في النقض الاجمالي لكتفي الدكتور طه حسين او كتابه ذي الثوبين او الاسمين — لما احتيج الى غيرها . واما كتاب الاستاذ الغمراوي نفسه فهو لم يفادر صغيرة ولا كبيرة فيه الا احصاها ، وحكم عليها حكما تحليليا عادلا ، ولعمر الحق ان طه حسين وكتبه الخلافة الافسادية لا يستحقان كل هذه العناية واتما عني العلماء والادباء بالرد عليه لما راوا من عناية بعض الوزراء والكبراء به وبما يكتبه وبدفاعهم عنه ، ولهذا زاد الامير شكيب على الاستاذ الغمراوي القاء ذنبه على وزارة المعارف ووضع ذنبها على برلمان البلاد وذنب البرلمان على الامة المصرية .

ان دعاية الالحاد التي ينفث سمومها طه حسين في ارواح طلبة الجامعة وقد دون اصولها في كتابه هذا مبنية على قاعدة التجديد تجديد الادب — وان سادته فيها كتب دعاية النصرانية وكتب بعض المستشرقين ولاسيما اعداء الاسلام منهم كالدكتور مرجيلوث الانكليزي المشهور — وان اسلوبه فيها — هو ذم كل قديم في الاسلام وكتبه وآدابه واثمتها والتشكيك في كل حق وحسن منها بصبرات التهكم والاستهزاء ، واما حجته فيها فهي انها مقتضى النقد التحليلي الذي يزعمون أنه من وضع الافرنج وما هو من وضع الافرنج بل كان معروفا عند سلفنا علماء العرب وأدبائهم ، فمنه ما نراه في مقدمة حكيمنا ابن خلدون من نقده لكتب التاريخ ومنه ما كتبه كثير من العلماء والادباء في نقضهم للشعر وبعض كتب العلم كنقض شيخ الاسلام ابن تيمية لكتاب أساس التقديس للامام الرازي ونقض علم المنطق .

واذا قرأت كتاب النقد التحليلي للاستاذ الغمراوي فانه يثبت لك أن

الدكتور طه حسين لا يملك من هذا النقد الا خلاصة اللفظ ، فيما سداه
الدعوى ولحمته الجهل ، وحسبك اعتماده فيه على الشك ، وانما الشك
دون الظن ، والظن دون العلم ، وقد بينا هذا في المنار من قبل .

وفي كتاب الغمراوي من الحجج القيمة على جهلة مالا يمكن رده . وفيه
من الفوائد العلمية والقول الحق في المسائل المبحوث فيها وفيما حوالها
مالا يستغني عنه طلاب الادب فنحث القراء على مطالعته والاستفادة منه .

حماة القرون الوسطى

سامي الكيالي ١٨٩٨ - ١٩٧٢

... لقد قضي الامر ، واسدل الستار على الفصل الاخير من رواية « حماة القرون الوسطى » التي انتهت بفصل الدكتور طه ليس من الجامعة فحسب بل من مركزه في الوزارة ايضا !.. وليهنا حماة الدين الان فكانما كان الدين الحنيف على شفا جرف هار منذ كان الدكتور في بيئته العلمية ، وان فصله عن هذه البيئة قد سند الدين من الانحدار في الهلوية وأعاد له جلاله وللإسلام قدسيته !

هذا هو هيكل الرواية التي قام بتمثيلها جملة يسيطرون على مقادير أمة يربو عدد نفوسها على الخمسة عشر مليوناً . ومصر اليوم تتبوأ زعامة الشرق في ميدان التجديد الأدبي وتناضل عن كرامة العقل وصون حرية الفكر من كل عبث ، ومع ذلك ، ولأسباب واهية لا يسندها منطق يضيق صدر وزير المعارف في حكومة صدقي باشا - الرجل الدبلوماسي المرن كما يقولون - من عميد كلية الآداب الدكتور طه لثباته على الحق وعناده في صون استقلال الجامعة من العبث ومن أن يكون هذا المعهد العلمي الخطير العوبة بيد الأهواء السياسية تحركه كما تشاء !.. نعم ! لهذه الأسباب الواهية التي تذرع بها الوزير يزعمون أقوى لبنة في بناء « الجامعة المصرية » ويقصون عنها أكبر زعيم حر عرفته الآداب العربية في طور بعثها الجديد . ويحاولون أن يبرروا خطيئاتهم وأن يستروا أغفلاطهم وأن يكسبوا عطف الرأي العام الذي لفظهم بمجاجة وقرف فماذا يعملون ؟ لا شيء منهم سوى إثارة الشعور الديني وإعادة تمثيل هذه الأسطورة السمجة - ومهدنا بالأساطير أن تكون رائعة الصور - تحت قبة البرلمان الصدقي .

ويهيح هائج كالثور ويندب حظ الدين ويشفق على الاسلام من الارتطام
بضخرات الملحدين - وكانما الاسلام غشاء رقيق تكفى اقل همسة ان تمزق
هذا الغشاء ! - وبعد مناورات مفصولة ينقلب البرلمان الى حلقة من
حلقات الذكر ينفخ في اوارها ابليس قد لبس كسوة مشايخ العلماء وما هي
فترة حتى ينتهي اولياء الله الصالحون - وما اكثرهم في هذا الزمن - من
غزوتهم الكبرى وقد كللت رؤوسهم باكاليل الغار لتثبيتهم الاسلام بعد ان
كلت اسسه على هلوية من الفناء - كما يزعمون !!



لقد دلنا التاريخ على ان كثيرا من الهيئات الحاكمة حينما تفلس في
سياستها العرجاء تلجأ الى الوهم الاسس وتقع في امر الاغلاط . . . ولسنا
نريد في كلمتنا هذه ان نعرض الى سياسة صدقي باشا في الحكم فليس
هذا من شأننا نحن . . . ولكن هذا الحادث يدلنا بكل صراحة على ان هذا
الرجل لم يكن ذلك الداهية الفد الذي كنا نعتبره ، الى حين غير بعيد ، من
كبار الموهوبين بين رجالات الشرق العربي . لان هذه الاغلاط في فصل
اكبر موهوب عرفته الاداب العربية في تلويخها الحديث يرجع علرها الى
صدقي باشا مباشرة قبل ان يرجع الى غيره ممن بيدهم مثل هذه الامور .

ان الدكتور طه حسين ، هو الملع شخصية في تاريخ ادبنا الحديث .
هذا حق لا يستطيع ان يمارى فيه احد . فهو الذي خلق الحركة الادبية
الجديدة ، وهو الذي نفخ روح التجديد في قلوب الشباب ، وهو الذي
رسم اوضح السبل في طريق رواد الادب . بل نستطيع ان نقول - ونحن
نتحمل تبعه هذا القول مفاخرين - انه اول اديب عربي أسس مدرسة أدبية
جديدة للبحث والاستقراء مما نشره من آراء طريفة وبحوث ناضجة وكتب
خالدة . وان كثيرا من الشباب وقراء الادب في الشرق العربي مدينون
بثقافتهم الادبية لآرائه المختصرة وبحوثه القيمة التي فتح بها فتحا جديدة
في تلويخ الادب العربي . وهذا الذي دعا الادباء في كل قطر عربي ان يهتموا
بحادث الدكتور طه الذي لا يمسه شخصيا كما نعتقد بل يمس الجامعة

في صميمها ذلك لان الدكتور طه هو الاديب الوحيد الذي اضطلع بهذا العبء الخطير واخذ على عاتقه تجديد دراسة الادب العربي بنفس الطرق التي جددت بها اداب الامم الحية .

واذا كان الدكتور طه لم يبلغ رسالته العليا كما يريد بسبب هذه الصدمات التي تواجهه بين حين وآخر فيكفيه فخرا انه فتح الطريق بجرأة قوية وضم حول فكرته اقوى شخصيات الادب الذين ينهجون نهجة في البحث والاستقراء ، وكتاب « فجر الاسلام » وغيره وغيره مما تلده المطابع المصرية لبعض اساتذة الجامعة وكثير من شباب التجديد في مصر والشرق العربي — ان هذه البحوث تطمئننا تماما على ان مدرسة الدكتور طه قد بدأت تثمر اطيب الثمرات الناضجة ، وان جموع الرجعيين الذين اصبح يمثلهم حلمي عيسي باشا ومحاولاتهم باقصاء الدكتور طه عن حرم الجامعة التي ننظر اليها كموئل علمي لبعض حضارة العرب — ان هذه المحاولات الخاسرة التي وفقوا اليها الآن لن يتاح لها ان تجثم طويلا في اقدس موئل علمي ، وانها لا بد زائلة مع الايام القريبة ، وان يافوخ الوزارة الصديقة سيتحطم حيث يقوم على انقاضها منجد العلم ممثلا في شخصية الدكتور طه المحبوبة .

* * *

عندما اعلن « غاليله » في العام ١٦١٠ م ان منظره استطاع ان يكشف للعين عن أقمار السيار « جوبتر » — اي المشتري — اتهمه أعداؤه من من طفمة رجال الكنيسة في العصور الوسطى ، وهم في التفكير كبعض المعممين في هذا العصر الذين تعلو أدمغتهم المحجوبة عن النور عمائم كالبرج ثقيلة الوطاء — لقد اتهموه بالتجديف والكفر بالله . وعاضدهم كثير من المبشرين الذين استندوا في حملتهم الى نصوص الكتاب المقدس كما هاجمه اللاهوتيون ورؤساء محكمة التفتيش ومجمع الكرادلة ، ولم يقف الامر عند مهاجمته وتاليب العوام عليه بل اضطهدته الكنيسة وعذبتة وسجنته طيلة ايام حياته بعد ان اعلنت « محكمة التفتيش » قرارها بنقض نظريته — وتضييق حقول هذه المجلة عن سرد ملخص قصته — ومع ذلك فقد ظن

اعدادهم بهم هذه المثالب النكراء قد استطاعوا ان يخفتوا صوت « غاليليه »
وان يقضوا على تعليمه قضاء لا يجعل لها اي ارتباط بمالم المعرفة الانسانية.

وفي العام ١٩٢٦ وفي وضع القرن العشرين يحاول الدكتور طه تجديد
الادب العربي ويعمل على تجديده بنفس الطرق التي جددت بها آداب الامم
الحية ، يعلن صراحة انه من الواجب « حين نستقبل البحث من الادب
العربي وتاريخه ان ننسى عواطفنا القومية وكل مشخصاتها ، وان ننسى
عواطفنا الدينية وكل ما يتصل بها ، وان ننسى ما يضاد هذه العواطف
القومية والدينية ، اي ان الواجب يقضي علينا الا نتقيد بشيء ولا نلصق
لشيء إلا مناهج البحث العلمي الصحيح . ذلك اننا اذا لم ننس هذه العواطف
وما يتصل بها فنضطر الى المحاباة وارضاء العواطف وسنقل عقولنا بما
يلائمه » وبعد ان يعرض الى طريقة القداماء في البحث يقول : « ولنجتهد
في الانتاثر كما تاتروا وفي الانفسد العلم كما افسدوه . ولنجتهد ان ندرس
الادب العربي غير حافلين بتمجيد العرب او الغض منهم ، ولا معنيين
بالملاءمة بينه وبين نتائج البحث العلمي والادبي ، ولا وجلين حين ينتهي
بنا هذا البحث الى ما تاباه القومية او تنفر منه الاهواء السياسية او تكرهه
العاطفة الدينية » ثم تحدث الدكتور طه بصراحته المصهودة : « اذا نحن
حررنا انفسنا الى هذا الحد فليس من شك في اننا سنصل ببحثنا العلمي
الى نتائج لم يصل الي مثلها القداماء . . » ولا يكاد يخضع الدكتور طه
بحوثه الادبية الى مثل هذه النظريات ويفسح المجال للعقل ان يبحث ويفكر
للاوصول الى نتائج خطيرة في الادب العربي حتى يتناولوه خصومه الموتورون
بشتائم مقلعة ليست في شيء من ادب العلماء ولا تمت باية صلة الى آداب
المنافرة التزيهة . وهذه النظرية التي بسطها الدكتور طه تعد جديدة في
الادب العربي ، والنفوس الاسنة عدوة كل جديد . اذن فلا بد . في نظرهم ،
ان تحمل هذه النظرية عداء للدين . . . ويحاول غير واحد من ادمية الادب
ومن دجاجة الدين ان يكيّدوا للدكتور طه فيوفقون بعض التوفيق وتثور
العامة وانصاف المتعلمين ضده ثم لا يلبث ان يتمزق غشاء هذه الاسطورة
وان تهدا العاصفة مما لا يجهله اي قاري عربي .

وتصطدم وزارة صدقي باشا . في هذه الايام الاخيرة مع الدكتور طه الذي لم يقرأها على تصرفاتها في كثير من الامور ، ويحتفظ الاحتفاظ الكامل بعقيدته السياسية وبكرامة العلماء فتحقق حنقا شديدا ويغلي صدرها بالحق ونحاول ان نكيد له فتعصب عينيهما وتبحث عن مخرج لها من هذا المأزق فلا تجد غير اثارة قضية كفر طه حسين فتثيرها ولكن كمن يشير عاصفة في فنجان ! وينتهي الامر بفصله ويوعز الى فضيلة شيخ الجامع الازهر ان يقوم بتمثيل دور قسيس من قسوس محاكم التفتيش فيفضي بحديث كله سخف وهراء ثم يطلب الى رئيس الدولة بعد ان يشكره على صنيعه ان يجمع كتب طه حسين وان يبدها حرقا كأنما نحن لسنا في صميم القرن العشرين بل في عمايات القرون الوسطى !

ان حماية الاسلام - كما رد الدكتور طه في حديثه على شيخ الازهر - لا تكون بفصل طه حسين من الحكومة لانهم لن يمنعوه في فعله من ان يتكلم وان يكتب وان يكون له تلاميذ وان يلتقي بتلامذه القدامى انما تكون حماية الاسلام بتحويل نظم الحكم كلها : تكون بتحريم الربا واغلاق المصارف ومنع الحكومة ان تستفيد من اموالها في البنك الاهلي وغيره من البنوك ومنعها ان تبيع الخمر وتجبي عليها الضرائب واغلاق دور الفسق والفسوق الى آخر ما يتضاد وروح الدين الحنيف والشريعة السمحاء .

في الحق ، ان وزارة صدقي باشا لا تبحث عن عقيدة الدكتور طه وايمانه الديني بل انها تبحث عن نفسيته وايمانه السياسي . وقد مجمت عود هذه النفسية غير مرة فرائها صلبة في الحق لا تميل مع الاهواء .. وآلها ان يكون الدكتور طه غير مطواع وان يكون صاحب كرامة وأنفة وضمير حي فاقترفت جنايتها كان ممثلو رواية « حماة القرون الوسطى » غير البقين ولا موافقين في تمثيل ادوارهم الباردة فوا اسفاه .

سامي الكيالي

الحديث س ٦ ع ٥ ايار ١٩٢٢ .

المرحلة الثالثة

الطربوش أم القبعة ؟

رايان لكاتبين قديرين

مصطفى صادق الرافعي

دكتور محمد عزمي ١٨٨٩ - ١٩٥٤

ان الجدل بين انصار الطربوش وانصار القبعة هو في الحقيقة جدال بين عقليتين تتنازعان اقطار الشرق العربي الان ولكل فريق ادلة وحجج جديدة بالنظر والتأمل . وقد راينا ان نطلب الى كاتبين من اقدر كتابنا ان يبين كل منهما رايه في هذا الشأن فالسيد مصطفى صادق الرافعي يدافع عن الطربوش والدكتور محمود عزمي يناضل من القبعة .

لماذا استمسك بالطربوش ؟

بقلم مصطفى صادق الرافعي

لا تسأل ما الطربوش ولكن من لابسها ولا ما القبعة ولكن من حamlها ، فان القبعة والطربوش كلاهما كسائر العروض التجارية لا قيمة لكائن ما كان منها الا ان يمضي منفعة ويرجع مالا ويخرج في صورة عمل لينقلب في صورة اجر كان هذه الارض بما عليها قضية مالية عند منقطع كل استدلال من ادلتها برهان عن الفضة أو الذهب .



(*) سال الحاج مصطفى الترنسفالي ، في انه يوجد افراد في بلاد الترنسفال تلبس البرانيط لقضاء مصالحهم وعوائد الفوائد عليهم ، هل يجوز ذلك ؟

الجواب : اما لبس البرنيطة ، اذا لم يقصد به فاعله الخروج من الاسلام والدخول في دين غيره ، فلا يعد مكفرا ، واذا كان اللبس لحاجة ، من حجب شمس او دفع مكروه او تيسير مصلحة لم يكره ذلك ، لزوال معنى التشبه .

« فتوى للشيخ محمد عبده عام ١٩٠٢ » م.خ.

ونحن نبتاع ما شئنا منذ أصبح العالم كله سوقا واحدة لا تنفك
عروضها عن سفر والقلب ، فان صاحب الحاجة أدري بسداد حاجته
وابصر كيف يتولاها ، فحللنا لنا مثلا تجد فيه متانة الحربية الألمانية
وثيابي تكاد تستعمر جسمي لأنها من انجلترا ١٠٠. ولكنني عند الطربوش
والقبعة أجد حنا تقف اليه ذاتيتي الفردية فلا أرى ثمة موضع انفراد
ولكن موضع مشاكلة ، ولا اعرف صفة منفعة لي بل صفة حقيقة مني .



ويعترضني من هنالك المعنى الذي يصير به النوع الى الجنس والواحد
الى الجملة وأجدني من الامة في مثل المنزلة التي يقرأ فيها العدد المجموع
فلا يطلق عليه ما كان يسمى به وهو أرقام مفردة ويكون العدد مثلا من
خمسة وأربعة وستة فيقرأ مجموعها ستمائة وخمسة وأربعين ، وانه لهو
ذلك لولا منزلة الضم والاتصال وتكوين الجملة التي هي اصل في حساب
الاجناس .



فالقبعة على رأس المصري منفردا بها دون قومه باثنا من جملتهم ، انما
هي مظهر من مظاهر التحلل الاجتماعي وانكاس في منطق الجملة المصرية
ونفي لهذا الرقم من عبارة مجموعة . بل هي في الرجال مشتقة من
المصدر ، نفس المصدر الذي يخرج منه التهتك في النساء وكلاهما منوع
من المخالفة وكلاهما ضد من صفة اجتماعية تقوم بها افضلية شرقية علما
وان كان فيما وراء ذلك ضرب من القول في توجيه القبعة ومذهب من
الرأي في الاحتجاج لها .

غير أن المذاهب الفلسفية لا يعجزها ان تقيم لك البرهان جدلا محضا
على ان حياة المرأة الفاضلة ان هو الا رذيلة في الفن وان هو الا مرض
وضعف وكيت وكيت ، ثم تنتهي به الفلسفة الى ان تجعله من البلاهة
والغفلة . وما الغفلة والبلاهة الا ان تريد فلسفة من فلسفات الدنيا
ان تقحم في كتاب الصلاة مثلا فصلا في ١٠٠. في ١٠٠. في الدهارة .



لا يهولنك ما أقرر لك من أن القبعة على رأس المصري في مصر تهتك أخلاقي أو تهتك سياسي أو تهتك ديني أو من هذه كلها معا ، فانك لتعلم أن الذين لبسوها لم يلبسوها إلا منذ قريب ، بعد أن تهكت الاخلاق الشرقية الكريمة وتحللت أكثر عقدها وقاربت الحرية المصرية بين النقائص حتى كادت تختلط الحدود اللغوية ، فحرية المنفعة مثلا تجعل الصادق والكاذب بمعنى واحد فلا يقال إلا أنه وجد منفعته فصدق ووجد منفعته فكذب ، وما فرق بين اللفظين وجعل لكل منهما حدا محدودا إلا جهل القدماء وفضيلة القدماء ودين القدماء وهذه الثلاثة : الجهل والفضيلة والدين هي أيضا في المعجم اللغوي الفلسفي الجديد... مترادفات لمعنى واحد ومتى أزيلت الحدود بين المعاني كان طبيعيا أن يلتبس شيء بشيء وأن يحل معنى في مواضع معنى وأصبح الباطل باطلا بسبب ، وحقا بسبب آخر . ولم يعد يحكم الناس إلا مجموعة من الأخلاق المتنافرة تجعل كل حقيقة في الأرض شبهة مزورة عند من لا تكون من أهوائه ونزعاته ، واحتاج الناس بالضرورة إلى قوة تفصل بينهم فصلا مسلحا... فيكسبون القانون بمدنيتهم قوة همجية تضطره أن يعد للوحشية الانسانية وتدفع هذه الوحشية أن ترصد له وترشح بجرائمها لاعتراضه . وما القبعة على رأس الشرقي إلا حد طمس حدا وفكرة هزمت فكرة ووذيلة قالت لفضيلة . أنا جئت فاذهبي .

ما هو الأكبر من شيئين لا حد بينهما للصفر وما أصغر شيئين لا حد بينهما للكبـر ؟



إنها الفوضى كما ترى ما دام الحد لا موضع له في التمييز ولا مقر له في العرف ولا فصل به في العادة ومن هنا كان الدين عند قوم أكبر كلمات الانسانية في كل لغاتها وأملأها بالمعنى وكان عند آخرين أصغرها وأفرغها من المعنى وما كبر عند أولئك إلا من أنه يسع الاجتماع الانساني وهو محدود بغاياته العليا ، ولا صفر عند هؤلاء إلا بأن الاجتماع لا يسعه فلا حد له كأنه معنى متوهم لا وجود له إلا في حروف كلمته .



فجماعة القبعة لا يرون لانفسهم حدا يحدونها به من اخلاقنا او ديننا او شريعتنا وقد مراقوا من كل ذلك ولا اعرف احدا منهم الا علمته موضع قطع او تمزيق في هذا النسيج الشرقي الثمين . وانت ترى منهم من اوفى على الخمسين من عمره ومنهم من جاوزها ومنهم دون ذلك على حين تاريخ القبعة فيهم لا يرجع الى ابعد من مدة القمط للطفل الرضيع في حول او حولين .

افليس لنا ان نسألهم اين كانوا من قبل وكيف ضاق بهم الطربوش بعد هذه السن ؟



ولكن الطربوش لم يضيق وانما ضاقت العقول او ضاقت الاخلاق وهذه الامة منكوبة بالتقليد والمقلدين فهلا زيا مخترها او اصلاحا في زي معروف ، فاذا كانوا عاجزين عنهما فهلا عقلوا سخافة هذا التقليد وشؤم هذه المتابعة ؟

يقولون ان الطربوش يوناني ونقول انه يوناني معرب فهو في الفاظ الحياة كالفاظ مثله في اللغة وقد أصبح رمزا من رموزنا ففيه من ذلك قوة السر الخفي الذي يلهمنا ما اودعه التاريخ من قوميتنا ومعاني اسلافنا او فيه سر القوة الخفية التي تجمعننا حول المعاني الاعتبارية برمز تتمثل فيه تمثل الوطن في الراية . وهو عندنا كالاصلحاح في الحفلة الرسمية على ثوب رسمي لا بد منه لكل من يحضرها ليتسق به نظامها شئت ام ابئت . وقد تقول ان في الشرق ضروبا اخرى غير الطربوش كالعمائم والقلائس فنقول لك ان الاصطلاح واقع عليها كذلك وهذا الاصطلاح عينه هو الذي ينفي القبعة ويلحق لابسها بالفئة الاجنبية .

انا اعرف ان منا قوما يرى احدهم في ظن نفسه انه قانون من قوانين التطور فهو فيما يلبسه لا ينظر الى انه واحد من الناس بل واحد من

النواميس . . . وكأنها حادثة لها مادتها الفعالة فريد أن يكون على ما تقتضيه تلك المادة الوهمية القائمة بنفسه . . . ومن هنا الثقل والدعوى الفارغة وما هو أكبر من الثقل وإفراغ الدعوى فإنه يلحق أن يكون بعض الناس أنبياء ولكن أقبح ما في الباطل أن يظن كل انسان نفسه نبيا .

انا استمسك بالطربوش لاني أريد الدقة في التعبير الذي تعبر به نفسي حين تعلن عن نسبتي وقوميتي فالطربوش وما في حكمه مما وقع الاصطلاح عليه إنما هو تدقيق في التعبير بالفكر وإخراج هذا الفكر في اصدق ما يدل عليه وأصرح ما يؤديه . ثم اني مستيقن ان الافكار الشرقية او الاسلامية تحت القبة هي غيرها تحت الطربوش لان تغيير الرمز يتغير به ما كان يلهمه وهذا لا يكابر فيه أحد فقد عاد الامر الى صبغة نفسية كما ترى .

وانت تعلم ان النفوس تضع من أحلامها في كل ما تلبسه حتى تصنع كل جامد من المادة بأثر من آثارها كأن الانسان لا يكون انسانا الا بتحويله كل ما حوله في ألوان انسانية . والمدنية هي التي تزيد في هذه الاحلام وتنوع منها أنواعها ولولا ذلك ما كان للرؤوس غطاء الا ما غطاها الله به من هذا الشعر الكثيف المسترسل يضرب الى المنكبين ويرد على الصدفين والعنق ويتم تمامه بالليحية كثة مرسل . وذلك أفضل الاغطية والوفاء بالحاجة وأردها على الجسم بالصحة والعافية لولا النفس وأحلامها .

فنحن من الطربوش او القبة باناء مظهر فيه احلام النفس كما فيه المنفعة لا بد من الاعتبارين جميعا . وما نظن احلام النفس الشرقية كاحلام النفس الغربية الا اذا ازيح الحد الذي يفصل بينهما .

وها هنا امر لا بد من التنبيه اليه وذلك ان الاوربيين لا يتخلون من القبعات الا اغطية للطريق فهم ينزعونها في مجالسهم وبيوتهم وامكن عملهم ومن ثم كان بناؤها عندهم على احكام الطرق وأرواح الشارع وهندسة الثلج والضباب والرطوبة ، ولادهم تعمى الشمس فيها اكثر السنة

ولا تبصر اذا ابصرت الا في اشعة قليلة . فمن سخافة التقليد بل من الغفلة ان ننزع نحن الى ما اتخلوه وننشأ على الوقاية من شمس أرضنا بهذه الوقاية المحكمة في حين انه ان لم نجعل بيننا وبين الشمس ونورها وحرها ملائمة فنبرز لها ونعتادها من الصفر وللقاها بوجوهنا - هيانا ذلك لضرباتها عند أيسر الأسباب وبهتت فينا قوة الاحتمال ولم نعد نصلح لهذا الجو بعد ، ولعله لا تمر بضعة أجيال حتى تظهر جنايتنا على أعقابنا في لعنة تعد ضربة من ضربات الطبيعة .

وأعلم ان ما يزينونه للشرقي من فضائل القبعة ان هو الا منطق شهوات في جملة والقد تسمع الجائع الصائم يتكلم عن الطعام فتري كلاما في معانيه معان أخرى لا يعدها غير الجائع الا حماقة ساعته .

ولم أعرض في هذه الكلمة للجانب الديني ففيه كلام آخر يجمل اللعنة لعنتين ١٠١٠ وفي واحدة لما يذهب بالقبعة .

لماذا لبست القبعة ؟ بقلم الدكتور محمود عزمي

■ تفضل « الهلال » فسالني ان أفضي لقرائه بسبب لبسي القبعة . فعدت ، من جانبي الى نفسي أسألها تاريخ هذا السبب وتطورات ، فلن له عندي تاريخا وتطورات .



وقد رجع بي التفكير في هذا الصدد الى أيام الصبا ، أيام كنت بالمدرسة الثانوية ، وإيام ظهرت كتب « قاسم أمين » عن المرأة والحجاب . فقد أثر في ذبوع بعض ما تضمنته الكتب من آراء ، ثم قراءتي هذه الكتب بالذات ، أثرا عجيبا جعلني أمقت الحجاب مقفا شديدا يرجع الى الاعتبار خاص هو اعتباره من أصل غير مصري وهو اعتبار دخوله الى العادات المصرية عن طريق تحكم بعض الفاتحين الأجانب وتعلق بعض الوطنيين بالتقليد المزدول .



وكنـت في تلك الايام منتظم الذهاب الى القرية امضي فيها فترة
المعـطة المدرسية كلها فكنت ارى مظاهر السفور الطبيعي عند القرويات
اثناء عملهن واثناء راحتهن ، وكنـت اقارن بينه وبين ما هو متجل منه
داخل دار الـانار ، فكان حنقي على الولـثك الاـجانب من الفاتحنين
« الاسلاميين » يزيد ، وكنـت تنطـع بعض المفسرين لآيات القرآن يضيف
الى ذلك الحنق ما يثبت اركانـه ويدعم قواعده .



وكانت تقوم حملة على « التبرج » ، وكانت تقوم دعوة الى النهوض
بالمشروعات الاقتصادية ولا سيما ما اتصل منها بصناعة اللبوسات ،
فكان هذا كله يجر الى التفكير في الزي وما يجب أن يكون منه « حشمة
وواقرا » وما يجب أن يكون منه « مصريا في مادته وصناعته » .



وانتج ذلك كله التفكير في الزي وموافقته للمظاهر القومية والاحوال
الجوية ، وتعدى التفكير دائرة زي السيدات الى دائرة زي الرجال ،
وبوضح ميل البعض بهذا الشأن الاخير الى تقرير أن « الطربوش » ليس
لباسا قوميا وليس لباسا صحيا ، وذهبوا الى حـد الاغـراب عن ضرورة
العودة الى ما كان يحملـه « المصريون القدماء » على رؤوسهم من «عملة»
يتدلى منها على العنق ما يتدلى ليمنع عنه الشمس وما لها عليه
من سوء .

وكنـت أنا من هؤلاء المصريين ، انقم على الفرس ومن كانوا واسطة
نقل « حجابهم » الينا وعلى البيزنطيين ومن كانوا واسطة نقل
« طربوشهم » الينا ، وكنـت في ذلك احس اني مدفوع بعامل من
« الوطنية » قوي .



ثم حدث ان ذهبت الى اوربا ادرس ببليس فتجلت لي آيات
«السفور» بما جعلني انظر اليه على انه وسيلة اصلاح اجتماعي كبرى،
وتجلت لي آيات البشرية بما جعلني افقه «الوطنية» على انها احساس
غور يجب ان يتعمده المرء في عمقه لا في اتساع سطحه . وهكذا اخذت
انظر الى حضارة القوم وإلى حضارة العالم نظرة اخاء وتضامن لا نظرة
عداء وتنافس ، ودعم من هذا «النظر» ان نظرية «التضامن» هي التي
كانت تجري بها البحوث الفقهية والاجتماعية في ذلك الاوان نستمتع
اليها كل يوم في الدروس وفي المحاضرات ونقرأها في البحوث والمجلات .



واذن فقد دعتنا «البيئة المكتنفة» الى تقرير العلائق بيننا وبين
الحضارة الغالبة ، وكان طبيعيا ان يكون الزي - وقد خرجنا من مصر
في وقت ماجت فيه الاراء باعتبارات - هو اول ما نفكر فيه من تلك
العلائق . فوجدنا اننا نأخذ عن حضارة اليوم «الشائعة» كل مظاهرزيتها
الا ذلك الذي دخل الينا عن طريق الفتح العثماني وصار رمزا للقوة
القاهرة والسلطان المستبد .

لكن هذه المشاعر قد وقفت عند حد الاحساس بها والتفكير فيها
والتمدح بفضائل تنفيذها والهيام بهذا التنفيذ ، ولا سيما كلما جاء
الصيف واحس المقيم هنا منا هناك بخفة قيمة الفصل على رأسه او احس
المقيم منا هنا بشدة «كبس» الطربوش على يافوخه .

على اننا لم نقو على تحقيق هذا الذي كانت النفوس تصبو اليه اللهم
الا واحدا لبس القبعة في مصر اياما ثم عاد الى الطربوش تحت تأثير
ما كان الناس يقابلونه به من التهكم حيناً ومن الرمي بالزندقة والمروق
والالحاد والكفر احيانا .



ثم جاءت الحرب الكبرى واصيبت مصر منها باعلان الحماية البريطانية

عليها فوجدنا طائفة من اخواننا الشرقيين يستبدلون القبعة بالطربوش هروبا من « العثمانية » وتقريبا من الدولة الحامية او فراوا من عدوان الجنود الاستراليين . فكان من هذا ان ازداد تمسك المصريين بالطربوش يطنون به دائما استعدادهم الي تحمل اكبر انواع الاذى في سبيل عدم رضاهم عن الحماية التي فرضت عليهم فرضا .

وتكشفت النهضة التي كانت كلمنة ، وتفجرت المواطف التي كانت مضغوطة ، فزاد تكشفها وتفجرها ذلك الاستمسك بما يحسبه الناس مظهرا للشرقية ورمزا للمصرية ورسخت اقدام الطربوش من جديد فوق الرؤوس جميعا .



وفازت النهضة باوالي ثمار جهادها ، وافلزت مصر بنعمة الدستور والحياة النيابية ، وسمعت آذان المصريين جميعا مبادئ الحرية يرن صدها في صلب الدستور يقرها في نصابها ابدا ويكفلها تامة ويطلقها من اغلالها احلاقا ، كما واصلت مصر في علاقاتها مع الانجليز الى نوع من التفاهم يرجو الطرفان ان يستكملاه بعد حين .



فعادت الى العقول طرائق تفكيرها المعتدل اعتدالا يزيد قوة ما اعلنت كفالته في الدستور من مبادئ حرية واطلاق . واخذ المفكرون يعودون الى ذاكرة الحضارة الغالبة في هذا العصر — ولكل عصر حضارة غالبة تخضع لها الحضارات الاخرى خضوعا حتميا — وضرورة الاخذ عنها مبادرة الى الرقي واسراعاً في الخطى نحو التقدم ، وكانت فكرة الزبي هي الشاغلة حيزا كبيرا من تفكير القوم ، وادوار الانتقال تعني دائما بالمظاهر العرضية توطئة بالبواطن الجوهرية ، فعادت حركة الكلام في القبعة والطربوش لكن عادت في جو اصلى من ذلك الجو الاول الذي مدل صاحبنا فيه عن لبس القبعة تحت ضغط التهمة بالاحاد والخروج على التقاليد .

ذلك ان السيدات المصريات خطون في طريق التحرر من «الحجاب» خطوات واسعة فسفر منهن كثيرات محتربات كل الاحترام ، وذلك ان النهضة التركية التي فوضت دعائم « الخلافة » وما كان يحيط بها من مظاهر العسف والاذلال والجمود والاستبداد اقلت بالطربوش الى حضيض الغياهب وزينت الرؤوس بالقبعات تزيينا دون ان يقول فقيه اسلامي عاقل ان الاتراك خرجوا بهذا على الدين او اصبحوا من اجله ملاحدة كافرين ، وذلك ان الدستور المصري قد اطلق حرية الاعتقاد وكفل الجهر به وابعاح الالحاد لمن يشاء .



واقامت في بلاد الشرق المتكلمة باللغة العربية نهضات وثابة الى الاستقلال والانطلاق من القيود وكثر خلالها اللجاج بين ان يعود القوم الى المدنية العربية وان ياخلوا من المدنية المصرية ، وحاول البعض ان يوفق بين الرايين ورأى البعض ان هذا التوفيق محال لانقطاع الصلة — بفعل محن التاريخ — بين حاضر هذه الشعوب الشرقية وماضي الامة العربية او الامم الاسلامية ، بتعبير اصح ، وانه لا محيص من الاختيار بين المدينتين .

ولست ادري على التحقيق ما هو الراي الغالب لكني ادري اني انا من الذين ينادون بملء فيههم بضرورة الاخذ من المدنية المصرية وهي الحضارة الغالبة وبان الخير كل الخير في شخوص الكتلة الشرقية المتكلمة لغة عربية الى شواطئ البحر المتوسط الشمالية الغربية ، وبان كل نظرة الى دمال التيه والبادية انما تكون حرصا على الاعقاب في ميدان الجهاد الذي يسير فيه العالم سيرا هائل السرعة الى الامام .

وسط هذه التيارات المتقلبة اقبل صيف سنة ١٩٢٥ ، وكان علي ان امضيه في القاهرة . وعندى بعض الاصلاحات الاجتماعية لا تجدي فيها المناقشة ولا يفيد الجدل ، بل تجدي القدوة ويفيد العمل من اجل هذا امتزمت ان انقل ما انا مقتنع به من رأي في صدد المدنية

المصرية وفي مدد القبة لكن « الاخطاء الوراثية » المتراكمة كان لها في عريمتي بعض الاثر . فجمعتني اجد من « حسن الفطن » الا افاجيء اخواني واصدقائي بما ساضع على رأسي في مصر من عمارة جديدة ، وان انلزمهم قبل الموعد بايام حتى لا ينقضوا على بالسؤال والاستفسار والذن فقد حددت لنفسى اليوم الاول من شهر يوليه سنة ١٩٢٥ لالبس فيه القبة واخذت منذ العشرين من شهر يونيه اعلن كل من اقبله من الاخوان والاصدقاء بي مغير لباس الرأس من أول الشهر التالي .

وجاء اول الشهر واقصدت في حزم وهرولة الى بائع القبعات بميدان « سوارس » ولاحظت ان سرعة الخطى قد اخذت تقل عندما اقتربت من الحانوت ، ولاحظت ان السير قد واقف بي عند باب الحانوت ، ولاحظت اني اخذت انظر الى القبعات المعروضة خلال الزجاج ، ولاحظت اني استأنفت سيري في شارع قصر النيل دون أن اشترى القبة ودون ان ادخل حانوت القبعات ، ولاحظت اني اخذت اتهم نفسي في صوت غير خافت بانى « جبان » وبأن « الاخطاء الوراثية » لا تزال تجد منى منفذا ، ومنيت نفسى بالعودة الى الحانوت بعد الظهر لكنى لم امد اليه علما كاملا ..



ومضى الصيف ومضى الخريف ومضى الشتاء ومضى الربيع واقبل الصيف من جديد ، صيف سنة ١٩٢٦ ، والمناقشة حول « الطربوش والقبة » يتسع نطاقها حتى وصل الى « الرابطة الشرقية » التي ارادت ان تندرع « بفتوى » يصدرها الاطباء فتقدمت الى جمعيتهم باسئلة واسئصاحات انتهت الجمعية الى الاجابة عنها باجتماعها العام الذى عقده صباح يوم الجمعة الموافق للثاني من شهر يوليه لسنة ١٩٢٦ .

وقالت « هيئة كبار الاطباء » في فتواها ان الطربوش لباس رأس غير صحي وان للباس الصحي شروطا حددتها واذا بها متوفرة في القبة وغير متوفرة الا فيها .

وأعلن القرار أو أعلنت الفتوى مساء فكانت هي القاضية على « اخطائي الوراثة » من هذه الناحية إذ قصدت صباح اليوم التالي السبت الثالث من شهر يولييه لسنة ١٩٢٦ الى بائع القبعت نفسه واشتريت قبعة الصيف وخلعت على الحوذي ما كان على رأسي قبل هذا من طربوش .

ومنذ ذلك اليوم لبس القبعة متناوبا انواعها المتمشية مع كل فصل من فصول السنة .



تلك هي ظروفه لبسي القبعة وتلك هي تطورات الاعتبارات التي دفعت الى لبسها ، انتهت آخر الامر بأن كانت الاعتبارات صحة واعتبارات شخوص الى الشمال الغربي للاخذ بالحضارة العصرية الغالبة بدل افتقاد العمر في ندب الماضي الذي ليس من سنة الكون ان يعود .

وقد قابل اثنان من اصدقائي لبسي القبعة بتعليقين اوى مناسبا ان تختتم بهما هذه الكلمة .

ذهبت الى « القدس » في اليوم التالي للبسي القبعة لأول مرة في مصر واستوقفت صديقا من اصدقائي هناك هو « فحل من فحول الادباء والمفكرين العرب » - ولم يكن يعرفني بها ، فلما عرفني قال على فوره : « الآن اخذ الشرقيون يفكرون برؤسهم ! » .

وغداة عودتي من فلسطين تلك المرة خرجت الى محطة القاهرة اودع صديقا « عالما فاضلا واديبا مجيدا ظريفا » وهو مسافر الى اوربا ، فضمن اولى « مذكرات سفره » الى جريدة السياسة اشار الى قبعتي وقال على لسان صديق يحدثه :

« ما العمامة العربية فقد دخلت مصر على يد الفتح الاسلامي فاتصلت بالروح الديني من اول يوم ، واسما الطربوش التركي فهبط الينا من رؤوس المتسلطين لباسا رسميا الجنود والموظفين فهو رمز التسلسل والحكم ، وهذه القبعة تنتشر في الوسط الاخذ بالمذاهب الحديثة فهي تمثل لونا خاصا ، وليس النزاع بين العمامة والطربوش والقبعة ولكنه تنافز بين صور مختلفة من التفكير والدوق يريد كل منها ان يتسود » .

المصدر : الهلال : الجزء الاول . المجلد ٣٦ عام ١٩٢٧ .

الحديث

فاتحة القول

لا نتكلم في فاتحة عملنا عن الاثر المنتج الذي تتركه المجلات في نفوس الافراد والجماعات التي كثيرا ما تتأثر بفكرة واحدة قد تكون وليدة لعصارة ما تجود به ادمغة المفكرين من رجالات الادب ورسل العلم ؛ ولئن نبحت عن عناية الامم - المتمتعة - بحظ وافر من الثقافة والرقى - بالصحف والمجلات التي تضم بين حقولها شتى المباحث ومختلف الموضوعات والدراسات التي تنير طرق الامة في جهادها العلمي وتروي ظمائها وشهوات عقلها في الادب والفن - لن نتكلم عن هذا ؛ فقد اصبحت هذه المقدمات اشبه بالمدارس السيارية يتلو القاريء بين اعمدتها احدث الدروس العلمية من البديهيات التي لا تحتاج الى توضيح ؛ واصبحت المجلات الراقية في كل ظاهرة من ظواهر الاجتماع ، وفي كل ما ينتجه العباقرة من علم وفن وادب . واذا كان لا بد من توضيح نتقدم به عن غرضنا من انشاء « مجلة الحديث » وعن الخطة التي ارتسمناها لها والمنهج الذي سنسير عليه - اذا كان لا بد من هذا التوضيح الذي اعتاد القراء الكرام انتظاره في بدء كل عمل فنحن مضطرون الى تدوين هذه الكلمة التي يلمس القاريء من عضون سطورها خطتنا وغرضنا .

لا نكران ان الشرق اليوم في غليان شديد وقد تنبه من غفلته ودبت في شرايين ابنائه حمى النهوض لمجراة الامم الفنية في ثروتها الفكرية ؛ واصبحوا ، بل اصبحت الامم الشرقية - في كل قطر ومصر - ترنو الى الحياة الجديدة بعين يقظة وقلب مملوء بالآمال . وان هذا الغليان ، بل هذا الانقلاب الفكري الذي دهم الشرق منذ منتصف القرن التاسع عشر ،

والذي هو ثمرة الايام ووليد صرخات المخلصين من رجالات الشرق الذين ما فتئوا ينظرون نظرة المتالم الى ما نحن عليه وما قطعته الامم الراقية من الخطوات الواسعة في ميدان الثقافة — هذا الانقلاب الذي هز الشرق هزاً عنيفاً والذي نشعر بنتائجه قد تغلغلت مبادئه في نفس كل فرد اخذ بقسط وافر من التعليم والتهذيب فانتفض يعمل مع العاملين لخلق بيئات علمية تحارب الجمود والجهل وكل فئة تقف دون الرقي والخروج على العادات البالية . واذا كان هذا الانقلاب هو نتاج ما مر بهذا الشرق من ويلات ، ووليد احتكاكنا بالغرب وما اخذناه عنه من عادات ونظم تجرنا بقوة الى مستقر لا نعلم مداه ، وتسير بنا الى حياة جديدة لا نعلم نتائجها وما تحمله من طياتها الجون من امل معسولة او آلام مريرة ؟ ! اذا كلن الامر كذلك ، وكان كثير من اخواننا الشرقيين قد اندفعوا وراء التجديد بدون ان يتبينوا النتائج او ينظروا نظرة بعيدة الى المصير الذي سنصير اليه ليوفقوا بين ما توارثناه من عادات قد يكون في تناسيها ومحوها فناء شخصيتنا وقوميتنا وبين ما سنأخذه من عادات ونظم لا نعلم اتلائم طباعنا وما فطرنا عليه ام لا تلائم ؟ . واذا كلن الاتراك قد اندفعوا اندفاعاً كلياً وراء النظم الغربية يأخذونها على علاتها بدون ان يقتبسوا ما يلائم عقلية جماعاتهم ؛ وكانت مصر — منارة الشرق — تسير نحو الاصلاح والتجديد بروح قوية مليئة بالحكمة والرزانة ، غير مندفعة اندفاع الاتراك ، وكانت ايران والافغان وسائر البلاد الشرقية تنظر الى النهضةين التركية والمصرية نظرة المتفائل تارة والمتشائم تارة أخرى ؛ وبالتالي اذا كلن التجديد يلعب دوره بحكم الزمن — اردنا ام لم نرد — فما احوج سورية الكبرى وما احوج شبابها المستنير وقادة الفكر فيها — ما احوجهم ان يدخلوا الميدان بقلب ثلثت وبفسر قوية ليدلوا برأيهم الواضح غير اللتوي في هذا الانقلاب الفكري الذي يهز الشرق من اقصاه الى اقصاه ؟ ما احوج سورية ان تماشي النهضة العلمية وان يهب شبابها المفكر الى محاربة الامية ، ونحطيم القيود التي تغل الادمغة عن التفكير ، والى تأسيس المدارس في المدن والقرى والديساكر ، والى ارسال البعثات العلمية الى ديار الغرب واختيار الاذكياء النابهين من بنينا لاتمام دراساتهم في الجامعات الراقية . . .

ان سورية الكبرى في حاجة الى كل هذا ، والى خلق بيئات علمية تنير أمام الامة طرق الحياة والتجديد الذي يغمر الشرق بطابعه القوي . والتجديد - كما يعلم كل اديب مثقف - لا يتناول الادب فقط . كلا ! بل يتناول العلوم والفنون ، والعادات والتقاليد وكل ضروب الحياة ؛ وقد تعدى كل ذلك الى هز النظم القديمة من جذورها وخلق نظم جديدة هي وليدة ميول الامة الخاضعة لناموس التطور والرقى .

والامة السورية اليوم ، تشاهد عن كثب ما يمثل على مسرح العالم الشرقي من التطورات ، ويرى شبابها المفكر هذا النضال القوي القائم بين القديم والحديث، ويعلمون ان للقديم انصارا والحديث انصارا ، وان كل فريق يعمل على تأييد مذهبه وتسفيه مذهب خصمه بدون هوادة ، ولا لين بل بعنف يدفع الى خصام غير محمود . تشاهد الامة السورية كل ذلك وهي واقفة بين الاحجام والاقدام ، لا تدري اتحافظ على قديمها ام تنكره لتقيم على انقاضه حياة جديدة ؟ . هي تفكر بهذا . . . وقد تفكر طويلا . . . وقد ينتهي بها هذا التفكير الى صمت مريع لا ندري اوله من آخره . . . لذلك فقد وجب على الشباب المستنير ان يخرجوا من صمتهم وان يتناولوا هذه الابحاث بالدرس والتحليل لنصل الى نتيجة مرجوة وحياة مضمونة العواقب .

واذا ما نظرنا نظرة الى انصار القديم وانصار الحديث ، ترى كلا الفريقين - يسير بين الافراط والتفريط ، وهي خطة قد يكون ضررها اكثر من نفعها ، وسيئاتها اعم من حسناتها ، لذلك « فمجلة الحديث » التي فكروا باصدارها منذ عامين لخوض غمار هذه الحرب المضطربة - ستنهج نهجا وسطا نوفق كل ما تكتبه بين انصار المذهبين ، بحيث لا تحبذ الهدم على علاته بدون ان نفكر بالبناء ، فان ظاهرا انصار الحديث ووقفنا الهدم على علاته بدون ان نفكر بالبناء ، فان ظاهرا انصار الحديث ووقفنا خطط الاصلاح قبل ان نرفع المعول لتكون النتائج مضمونة الى حد ما .

ونحن على اعتقاد اكيد بان « دور الهدم » الذي تجتازه الامم في فجر

نهضتها لا ينتج الفائدة المرجوة — مع ما يجز وراءه من التضخات الخطيرة — ما لم ترسم خطط البناء والتشييد ؛ ويدرك القارئ الكريم من هذا التلميح أننا لا نريد أن ننكر ماضينا وما فيه من صفحات مجيدة وسطور ذهبية لامعة جديرة بالعناية والدرس والتحليل . نعم ، لا نريد أن ننكر هذا الماضي الخالد بذكرياته الرائعة — وذكرياته : هي كل ما بقي لنا من تراث الاجداد . ولكننا نتساءل : ايمنعنا هذا الحرص على الماضي ان نكون جامدين الى حد ان لا نفهم هذا التراث على صورته الحقيقية ؟ كلا ! اننا سنعمل ما نستطعن على تفهم ماضينا بصورته الحقيقية بدون تزوير يخدع الانظار او تزوير يخلب الالباب . وسنأخذ من « الجديد » كل ما يعيننا على فهم أنفسنا وفهم ماضينا معا . وفي فهم الماضي والحاضر كما يجب توطيد لكرامتنا وصون للحضارة العربية التي كادت تنطمس وراء سجوف الاوهام والاساطير التي يسدها بعض ادعياء العلم والمتطفلين على التاريخ الذين يحكون اصوات غيرهم بدون ان يرافوا « بالحقيقة » و « بالواقع » ، وهما رجلا التاريخ — ان صح هذا التعبير — .



وراء هذه الفكرة تصدر « مجلة الحديث » التي ستكون صحيفة الشباب المفكر في كل قطر شرقي بنطق ابناؤه بالضاد ، ومراة ينعكس على صفحاتها ما يجول بخواطر انصار الجديد من الاراء الحديثة في كل فن ومطلب : في الادب والتاريخ والاجتماع ، وفي العلم والفن والاقتصاد وفيما يعلى شأن المرأة التي لا تزال في دور الامية ، مستمدين المعونة من اعلام الادب ورجالات الفكر الذين اظهروا ميلهم الى تمضيد مشروعاتهم ونصر الفكرة التي نسير وراءها والتي اجملناها في هذه الكلمات والله من وراء القصد .

سامي الكيالي

الحديث . السنة الاولى (١٩٢٧ / العدد الاول ، كانون الثاني) افتتاحية العدد
الاول من المجلد (الحديث) .

التقريظ وانتقاد المطبوعات

(الحديث) مجلة « تبحث في الآداب والتاريخ والعلوم الاجتماعية » أنشأها في حلب كل من سامي أفندي الكيالي وهو محررها ومديرها المسؤول وادمون أفندي رباط . قيمة الاشتراك فيها ٧٥ قرشا وأنه ليسبرنا أن تكثر المجلات العلمية والأدبية في امتنا ولكن يسوءنا أن يكون بعض هذه المجلات أضر على الأمة من بعض الجرائد السياسية التي تخدم الأجانب الضارة باستعبادها واستعمار بلادها ، وتمهد لهم السبيل لذلك . فان جمهور الأمة يسهل عليه أن يدرك خيانة هؤلاء فان ثوب الوطنية المزور الذي يلبسونه نهنه يشف عما وراءه ، وأما إفساد المجلات والجرائد لتكوينها بتقطيع الروابط التي توحد جمعها وتجمع كلمتها من دين ولغة وأدب وتشريع وهو ما نعبر عنه بمقوماتها ، ومن عادات وأزياء وهو ما نعبر عنه بمشخصاتها ، فلا يدرك كنهه ويحيط بمفاسده إلا أفراد قليلون ، ذلك بأن أولئك المفسدين يدمون أنهم يخدمون العلوم والآداب ويرقونها لتنهض بها الأمة إلى مستوى الأمم العزيزة الراقية ، ويقل من يدرك أنهم يخربون بيوتها بأيديها وأيدي أعدائها من حيث يعجزون عن بناء بيوت أخرى لها تكون خيراً مما هدموا .

ذلك مثل بعض محرري جريدة السياسة ومجلة الهلال بمصر كسلامة موسى وطه حسين ومحمود عزمي . . . المنتحلين لانفسهم صفة تجديد الثقافة ، واننا نرى مجلة الحديث السورية معجبة هؤلاء منوها بأرائهم مثنية عليهم ، فان كان محررها العريق في هذه الأمة العربية ، الاصيل في بيوتك هذه الملة الاسلامية ، غير مقلد لهؤلاء الواغلين عليهما ، الادعياء فيهما ، الذين لا ينزع بهم غرق غيرة عليهما ، ولا موافق لهم في كل رأي من

آرائهم ، ولا مائل مع كل ربح من أهوائهم ، - وهو ما نعتقده في نفي الكلية
للكل المتطيقين - فلماذا لا يفتأ ينوه بهم ، بما يفري قراء مجلته باتباع
خفتهم ، وهي ما يسمونه الثقافة الجديدة التي يحكمونها في كل ما أشرنا
إليها من مقومات الأمة ومشخصاتها ، وبذلك كلوا دعاة هدم وإفساد فيها ؟

الثقافة في اللغة مصدر ثقف الرجل (كضخم) أي صار ثقفا وثقيفا -
ويقال ثقف (كتعب) أيضا - أي صار ثقفا أي حاذقا خفيفا ، وهذا الحلق
والخفة اللذين يدمو إليهما هؤلاء الملاحدة مفسدة ظاهرة للأمة الإسلامية
وشعوبها ولا سيما العربية ذات التشريع العادل والتاريخ المجيد ، غايتها
تقليد ملاحدة الأفرنج وفساقهم فيما يشكو منه جميع عقلائهم وحكمائهم ،
وهو فيهم عرض من أعراض التنزف والثروة والسيادة الجاهلة كشعوبنا ،
فكيف وهو الذي أفسد شعوب المدنات القديمة ذات الباس والقوة ،
ولا يشك حكماء أوربة اليوم بأنه سيفسد مدنياتهم في زمن لم يعد بعيدا
حتى أن بعضهم يعد عمر الدول الكبرى بعشرات السنين ، ولدينا عنهم
نقول كثيرة في ذلك قد نشرنا بعضها .

هذا وإن هؤلاء الدعاة للثقافة الجديدة التي تشمل في استعمالها
ثمرة العلوم والفنون والآداب والأديان ليس لأنفسهم حظ منها إلا بعض
مدلولها اللغوي وهو الخفة الشبيهة بخفة الصبيان فهم عاقون لامتهم
هادمون إهدايتها وتشريعها وآدابها بل ساعون لابتلاع الأفرنج لها ، ومنهم
المستخدمون لذلك ، وهم يوهمون الناس في هذه الأيام أنهم مبدعو هذه
الدعوة في بلادهم وليس كذلك بل ابتدعها في مصر الخديو اسماعيل اغترارا
بزيشتها وشهواتها فهو أول من أراد أن يجعل مصر أوربية وله في ذلك كلمة
مشهورة . فكان أول ثمرة منها جناها فقد ملكه ، وأما جده محمد علي
فاتما أخذ من أوربة أسباب الثروة من صناعة وزراعة وأسباب القوة ،
وهو الواجب على كل شعب شرقي يملك أمر نفسه دون تقليد القردة في
الآزياء والزينة والعادات وحرية الفسق والفجور والكفر التي يدمو إليها
منتحلو الثقافة الجديدة ، وإنما لئلا نرجو من مجلتنا السورية الجديدة التي
لا يملك هو ولا غيره من أهل وطنه شيئا من أمر تعليم الشعب ولا تربيته

ولا ادارته ولا سياسته ان يحزر أولا تحديد الثقافة والتجديد الذي
يحياه ويجعله شعباً حراً قوياً ؟ فانا لنضن يا بن الكيالي الكريم ان يكون
مقلدا لسلامة موسى ومحمود عزمي وطه حسين الذين لا وطن لهم ولا ملة
ولا امة عليهم .

المصدر : مجلة النصار ج ٩ مجلد ٢٨ نوفمبر ١٩٢٧ .

النهضة الجبارة

القديم والحديث

[صديقنا الاستاذ محمد علي ثروت من شباب مصر المجددين ، وهو اديب نال على التعاليم القاسية القديمة ، يلمس القاريء ذلك من ثنايا سطور مقاله الذي نشره معجبين بادبه الفص و بروحه الكبيرة وبتزعمته الحرة وهذا المقال مقدمة لسلسلة ابحاث مطولة سيخص الاستاذ بها مجلة « الحديث » التي نغفر بنشر مثل هذه الابحاث الطريفة التي تنير للشباب الفكر طريق التجديد] .

المحور

الآن ، وفي تلك الساعة الهادئة من الليل المتشبع بروائه المهيّب ، الليل الاخرس والصامت كالقبر ، اجلس الى مكتبي لاكتب الى صديق نفسي الاديّب « سلمي افندي الكيالي » محييا ارباه ، ومكبّرا فيه ذلك النشاط الكامن في صميم نفسه ، والذي دفعه الى الحقن على العتيق الخائر ، وحمل الفأس والمول ، ليهدم ما شاده المحافظون الاغبياء من صروح براقعة جوفاء .

ذلك هو « الحديث » ينبثق من افق الثقافة الحقة كالفجر ، فطوبى لاولئك الذين يشهدون النور فيتقدمون الى السير في سناه ، والويل لاولئك الذين يتعاملون عنه ، مفضلين الخب في الظلمات القائمة ، والسير في الطرقات المعوجة الوعرة ، المحفوفة بالاشواك !

يعتقد المخرفون من انصار القديم ان المحافظة على جزالة الالفاظ في كتاباتهم ، والسير على ذلك النهج الذي سلكه ادباء العرب الاقدمين امر واجب . برغم ذلك التطور الاجتماعي الذي وصلت حالة العالم اليه في القرن العشرين . ويكرهون اوريا لاعتقادهم ان حضارة اهلها قد نفشت في حياة الشرقيين الجميلة التي ترع في بحبوحة الطهر ، والتي تظلها اجنحة الملائكة العلوية البريئة من شوائب الاثم -- روح فسق وخلاعة وكفر ! ولكنهم قد اساءوا الفهم ، وتمصبوا للتقديم تعصبا اعمى . فاخلوا يعرفون بما لا يعرفون !!!

لم تكن تلك النهضة الادبية ، التي طلعت في الشرق شمسها في اواخر القرن الماضي الا نفحة هبت على عقليات شعراء الشرق واكتابه من حداثات الادب الغربية قدبت في اذهانهم كما تدب العافية في اعضاء مريض تالم طويلا ثم ابل بعد سقم منهك ! واذا كتبت عن الشرق فانما اكتب عن البلاد التي تتكلم وتكتب باللغة العربية ، تلك البلاد التي تلبت سماء اذهان اهلها طويلا بسحب متراكمة من الجهل والغبالة والبلادة الذهنية ، ثم اشراق عليها بعد ذلك شمس الثقافة الاوروبية فبددت تلك السحب وعادت السماء صافية كالبلور .

انا لا اكره القديم احلاقا ، ولا استطيع قط ان احول نظري عن كواكب الادب العربي وشموسه الساحطة ، ولان ان اسام شعر « ابي الطيب المتنبي » و « ابن الرومي » او اُنشد آيات « ابي العلاء » الخالدة او ادب « الهملاني » و « الحريري » -- ذلك الادب البديع ، الطريف ، الرائع وانه لجحود وكفر ان نعتبر ما كتبته اقلام اولئك الفحول من القديم ، البالي ، الفاسد ، ولكني انكر من يحملون القلم في يومنا الحاضر تقليد اولئك الماضين من السلف الصالح مع وجود بينونة كبرى بين البيئتين والظروف التي احاطت بهم قديما ، وتحيط بنا الان .

الادب العربي كنز يجب علينا ان نحفظ به ليكون لنا مرجعا يهذب افلاطنا . ويقوم اوجاج السنتنا . ولكننا يجب ان نفكر برؤوسنا فحسب ، ولا نفكر برؤوس الاقدمين .

أنا لست متشائماً ، ولكنني اجاهر بفقرنا المدفع الى الادب والادباء .
والذا أنا شكوت ذلك الفقر فلاني اعتقد اعتقاداً راسخاً في ذهني بأننا حتى
الساعة لم نحرك ساكناً نحو السير في الطريق الذي يؤدي بالآدابنا الى
الغاية التي نرجوها لها ، لنترك كل ما في الحياة من مسرة ويؤس ، ونور
وظلمة ، ونشاط وخمول . على حين ان فينا قوى دفينه ومواهب كامنة
لو اننا عملنا على اظهارها لتجلت كعروس النور .

اين منا الذين يقدمون لنا افكارهم في ثوب جديد ملائم لروح العصر
فيساعدنا على ان نرتفع فوق اقدار الحياة وشنائعها الى جمال البقاء
وكماله ؟

اين منا من ينهضون بعزم الفتوة فيخلعون ذلك الرداء الخلق . فلا
يتوكلوا على الحياة ، والحياة تتوكلنا على الادب واسع كالحياة ، عميق
كاسرارها ينعكس فيها وتنعكس فيه ؟؟

اين هنا من ينهضون بعزم الفتوة فيخلعون ذلك الرداء الخلق . فلا
يكتبون الرسائل الطويلة الباعثة على السامة والضجر في مواضيع قديمة
مبتدلة ، ويرتدون الرداء الذي يصلح للعصر الحاضر فيجدون في الادب
القصصي مجالا واسعا لتصوير الحياة بريشة القلم ، والتاثير في العقول
والقلوب بما يكتبون من اقاصيص كلها عظمت وعبر ، وكلها ادب وحكمة ؟

امامنا الامثلة العليا من الادب الاوربي القديم والحديث فلنقراها
لنستمد منها نور الحكمة .

فلنقرأ « افلاطون » و « سوفوكليس » ولنقرأ « شكسبير » ولنقرأ
« جيته » و « فتيشه » ثم ولنقرأ ادباء فرنسا وعلى الاخص اولئك الذين
ظهروا تحت سمائها ، بل وفي العالم اجمع في القرن التاسع عشر ، ظهور
الشهاب اساطع في بهيم الليل . مثل « جان بيير بيرانجيه » و « لامرتين »
و « ديلافين » و « وفييني » و « هوغو » و « موسيه » و « لابراد »
و « كوبيه » و « لوي دي فونتان » و « فرنسواه اندرييه » و « شاتوبريان »
وغيرهم من الاعلام الخالدين بقوة عقولهم في تاريخ الادب العاليه .

ولنقرأ « الاغاني » و « اللزوميات » وغيرهما من مراجع ذخور الادب العربي وكوزه العديدة . ثم نكتب بعد ذلك ، ونكتب بدماء قلوبنا ، لتكون كتاباتنا صورة دقيقة من الواقع .

اننا اذا فعلنا ذلك استطعنا ان نرفع آدابنا من المستنقعات القلرة ، فعلينا ان نسمى من الآن لهدمقديم الفاسد لنشيد على خرائبه وانقاضه صرحا من الادب جديدا متينا ، يسمو حتى يطاول أبراج السماء ، ويرتفع حتى يناطح الجوزاء .

محمد علي ثروت

بكلوريوس في الآداب من امريكا

العدد : السنة الاولى (١٩٢٧) العدد الثاني شباط .

القديس والجديد

من الاوهام الشائعة ان الناس مولعون بكل جديد ، ومن الامور التي يشكوها من يتكبون الطرق المعبدة ان الناس لا يبذلون الى متابعتهم حيثما يذهبون . فاي القولين اصدق ؟ وبأيهما نأخذ ؟

لقد اشرنا من قبل الى ان سبيل الطبيعة ان تصل الى غايتها من اهلون سبيل ، اي انها تتوخى اسهل السبل واقلها واعظمها اقتصادا ، ولا بأس من ان نعود الى ذلك بشيء من البيان يجلو غامضه ، ويحل مشكله . ولنضرب مثلين أحدهما من الانسان وثانيهما من غيره ولنبدأ بثانيهما فانه اخف وايسر ايضا . تسقط الامطار على الجبال او سواها . فينحدر الماء ويحتفر لنفسه مسيلا . فهل علم أحد ان هذا الماء الجاري أثر ، منذ سال على وجه الارض ان يخترق الصخور او يعلوها وزهد في اللين الدمث الذي لا يشق عليه ان ينساب فيه ! كلا ! ما علمنا على الماء من حماقة كهذه ! فهو اذا صادفته ارض صخرية لم يتلبث عندها ريثما يحفر فيها مجراه بل راح يترقرق فوقها . واذا اعترضته وعور ذاهبة في الجو لم يتجشم ان يعلوها ويظم فوقها اذا وجد مجازا له عن يمينها او شمالها . ودع هذا وتأمل الانسان وسل نفسك ما السر في ان المرء يصعب عليه ان يغير ما كون لنفسه من العادات ؟ اليس لانها لا تتقاضاه من الجهد ما تكلفه مخالفتها ؟ مثال ذلك ان تكون قد الفت ان تسلك طريقا معبنا بين بيتك وبين المكان الذي تزاوّل فيه عملك اليومي . فانت كلما ذرت الشمس تكرر ما عملته في الصباح الماضي وتزايل بيتك وتقودك رجلاك وانت لا تشعر الى هذا الطريق المعين وتدبان بثقلك الا يكلفك تنبها خاصا او تفكيرا وانك حين تمشي فيه وتمر بما تمر به كل يوم لا يلفتك فيه شيء . شائك في ذلك من

بعض الوجوه كشالك حين تأكل : تمتد يدك الى اللقمة فتتناولها ثم ترتفع الى فمك ومنه تهوى الى جوفك . وليس لديك عين ترى بها مكان فمك من وجهك ، ولسنا نعلم ان يد المرء تخطيء وترتفع الى الانف . فقد اعتادت ان تحسن تقدير المسافة وأصبح الجهد اللازم لذلك يبذل بطريقة آلية وكذلك رجلاك تحملانك في الطريق المألوف وتذهبان بك في منعطفاته دون ان تفكر انت في شيء ولكنك حين تسلك طريقا آخر غير الذي ألفته تلقى نفسك تستعمل عينيك وتجيلهما فيما هو امامك وعن يمينك وشمالك ، وقد تفكر في طوله أو قصره بالقياس الى طريقك المعتاد ، وفيما هو قائم على جانبيه من المساكن أو الاشجار وغير ذلك ، وقد يعقد ذهنك مقارنات ومقاييس كثيرة ويجرك هذا الى مواضع شتى قد تشعلك النهار أو بعضه أو أكثر من ذلك وهذا كله جهد لا تبلل شيئا منه حين تأخذ في طريقك المألوف . وكذلك الحال حين تتناول طعامك بغير اليد التي ألفت ان تتناوله بها .

ولم تكن الحياة نفسها تعجز عن ان تخلق الناس في ايامنا هذه كما خلقت اولهم واسبقهم في الوجود ، اعني من طينة الارض التي صيغ منها المخلوق الاول — كائنا ما كان هذا المخلوق — ونست اعني بطينة الارض وحلها ، وانما اعني المواد الطبيعية الاولية . كما هو ظاهر بالبداية . ولكن الحياة لا تفعل ذلك الآن وقد كفت من زمان طويل لا يعرف حسابه الا الله سبحانه وتعالى ، عن اخراج المخلوقات على هذا النحو العتيق وصرنا نخرج الى الدنيا بطريقة التوالد اذ كان خلق الانسلان بالتوالد اسهل من اعادة كل ادوار التطور الماضية كلما اريد خلق انسان ولان التوالد يتيح المرور بمختزل هذه الادوار وبسرعة فلا حاجة لتكلف المرور بها على نحو مطابق للاصل . واذا كان هذا الكلام يحتاج الى تفسير فليعلم القارئ — اذا كان ممن يجهل ذلك — ان المرء يعيد على صورة مصفرة مختزلة ما مرت به الانسانية من ادوار النشوء ، وللقارئ ان يصدق هذا أو لا يصدق ، فان كانت الاولى فله منا الشكر الجزيل على الثقة بنا والاطمئنان الينا ، وان كانت الثانية فلا ضرر عليه أو علينا ولن يمنع انكاره ان الامر

كما نقول والحال على ما نصف ووقتنا وصدرنا اضيق من ان نتجشمه اثبات ذلك له على حين يستطيع هو ان يريحنا بان يقرأه في اكثر من كتاب واحد .

والآن فلننتقل الى شيء آخر ، وليحضر القارئ الى ذهنه تلك الآلة الموسيقية التي يسمونها القانون . وهي آلة ذات أوتار كثيرة يحتاج الضارب عليها ان يعيد اصلاح اوتارها كلما اراد ان ينتقل الى « نغمة » مغايرة للنغمة الاولى ومن باب غير بابها . ولكنه لا يحتاج الى اعداد اوتاره وتهيئتها من جديد اذا كان الانتقال بسيطا وفي موضع واحد او مواضع قليلة من الصوت الذي يوقعه ولم يكن عاما شاملا . ونحسب هذا معروفا مفهوما . وما منا الا من رأى ذلك وشهده بعينه فصاحب القانون لا يغير شد الاوتار ولا يكف عن التوقيع عليها ليعالجها من جديد اذا كان الخروج عاما هيا له أو اوتاره جزئيا غير تام . وهو حين يحدث هذا الخروج الجزئي عما استعد له بآلته لا يتعبه هذا الخروج ولا يصدع ولا يكلفه او يكلف الاوتار فوق طاقته وطاقتها فيستمر العزف او التوقيع كان نم يحدث انتقال ما .

كذلك الناس حين يجيئهم واحد منهم بما هو اشبه بقديمهم الذي ساروا عليه والفوه ، لا يحسون ان جديدا طرا أو أنهم يحتاجون ان يصلحوا نفوسهم ويهيئوها تهيئة خاصة لتلقى هذا الطارئ واستقباله . ولا يشعرون بدافع الى المقاومة اتقاء لما يكلفهم اطراح ما اعتادوه من الجهد . ومن الامثلة كتابات المنفلوطي رحمه الله . وهذه لم يكن فيها جديد بل كلها مما شبوا وشابوا عليه . وكل ما في الامر انه جعل لكلامه طلاء أو لونا لا يحيله عن اصله ولا يخرججه عن تياره . وشبيه بذلك ان تستحدث الوانا جديدة في الملابس دون ان تغير الشهرة (المودة) في تفصيلها - فلا يصد الناس منها شيء كبير ولا يحملهم على التردد في قبولها والاقبال عليها انها مخالفة لما يجري عليه العرف ولكن لنفرض ان حائكا سن لنا شهرة جديدة كل الجدة كان يرتد بنا الى خمسين أو ستين سنة ليحيى طرازا كان شائعا يومئذ او كان يستحدث اسلوبا تكون الازرار من الخلف لا من الامام او تكون

السترة او ما يسمونه « الجاكتة » اشبه بالشملة . فهل يقبل الناس على تلقف هذا الطراز ؟ كلا ! يتخرجون في اول الامر وينكرونه ويظنون يتهيبونه زمنا طويلا او قصيرا على قدر بعده من مالوفهم ، حتى يتهيثوا لقبوله شيئا فشيئا ويقتنعوا بصلاحه وجماله على الايام ان كان له نصيب من الجمال او الصلاح . وهذا هو الذي يحدث حين يخرج كاتب او شاعر على التقاليد والسنن وينهج سبيلا غير التي ألف الناس ان ينهجها الكتاب ، او حين يأتي عالم او فيلسوف برأي يقلب ما نشأ الجمهور على اعتقاده . ولماذا في ظنك كان اهل اوربا في القرون الوسطى يستنكرون ان يذهب احد الى ان الارض دائرة او انها ليست محور الوجود وقطب الكون او ان الشمس لا تدور حولها بل هي التي تدور حول الشمس ؟؟ ماذا يعنيهم من كون الارض كرة او سطحا او هل تدور حول الشمس أم الشمس التي تدور حولها ؟ ماذا كربهم من ذلك في حياتهم او افسدها عليهم حتى آذوا القائلين بما اعتقدوا خلافه ؟ لا شيء سوى ان الرأي الجديد كان خطوة في عكس الطريق الذي درجوا عليه كما درج آباؤهم وكان من شدة المغايرة وفرط المعارضة لما لوفهم بمثابة القول بأن الانف مجمول لمضغ الطعام والاذر للشم والعين للسمع . والناس انما يسهل عليهم الاخذ بالجديد اذا كان مقارنا لما اعتادوه وكان كانه امتداد له ولم يكن مغايرا في جوهره لارائهم او اذواقهم .

وقد قلت حين سقت مثل الحائك « لنفرض أنه سن لنا شهرة جديدة كل الجدة كان يرتد بنا خمسين او ستين سنة ليحيى طرازا كان شائعا يومئذ » واعني بذلك ان القديم الذي مضى زمنه وانقضى عهده يكون في حكم الجديد وله وقعه وصدمته حين يراد احياؤه ، لانه يكون جديدا في نظر من لم يالفوه ، واعتبار من لم يدركوا زمنه وعلى ان هذا فرض قائم على استحالة اذ كان احياء القديم يتطلبان تتوفر الاحوال والمقتضيات والحالات النفسية والفكرية التي عفى عليها الزمن وطوى صفحتها .

وبعد فليس بصحيح ان الناس مولعون بكل جديد وانما الصحيح انهم يقاومونه ويتهيثون له على الايام وان جديد اليوم اذا كان صالحا خليق ان

نشكر الله عليه . اذ حقق بالدنيا ان تنقلب بيمارستانا ضخما لو ان الناس فيها كانوا يبادرون الى الاخذ بكل جديد واجابة كل مهيب فليس كل جديد صالحا والاتزان في الحياة الزم واجدى واكفل باطراد التقدم من طيش ! نتعجل .

● ابراهيم عبد القادر المازني

المصدر : قبس الريح الدار القومية - القاهرة ١٩٦٠ ص - ٦١ - ٦٦ .
صدر الكتاب للمرة الاولى عام ١٩٢٧ .

أنباء العالم الاسلامي

مجلة الرابطة الشرقية

(ودعاية التجديد الالحادية والادينية ودعائه)

نشرت جمعية الرابطة الشرقية في ١٧ صفر من هذا العام (اعلانا)
للمجلة التي قررت انشاءها نشرناه لها في الجزء الخامس من المنار الذي
صدر في سلخ ربيع الاول ، واذ كان آخر كلمة في الاعلان ان لجنة المجلة
هي : « الرئيس السيد عبد الحميد البكري . مدير المجلة : أحمد شفيق
باشا . المشرف على التحرير : الاستاذ علي عبد الرازق » قفينا عليه
بقولنا :

« نحمد الله ان آن اصدار هذه المجلة التي قررنا اصدارها من اول
المهد بإنشاء الجمعية (وفي الاصل المجلة وهو غلط بالطبع) ولكن نخشى
أن يظهر فيها شيء من شذوذ المراقب الذي يسوء جميع المسلمين كدفاعه
عن الترك ، وثنائه على خطة حكومتهم في نبد الاسلام وراء ظهورهم ،
ومحاولة ازالة كل اثر له في شعبهم ، ولكن الرجاء في سماحة الرئيس
وسعادة الوكيل ان يحولا دون ذلك فالمراقب لابد له من مراقبة » .

نشرنا هذا التنبيه والتحذير راجين ان يكون حائلا دون ما نخشى
ونحذر على مجلة جمعيتنا من تأييد الدعاية الالحادية الجديدة التي قد
توجب علينا ان نؤذن مجلة جمعيتنا بالحرب — (كما حذرنا ملك الافغان
وزيروه الاكبر من تقليد الترك الكماليين في حكومتهم اللادينية ، وانذرنا
الوزير سوء عاقبة هذا التقليد في بلادهم لئلا نضطر الى عدائهم ، ونحن

نحب ان نكون من انصارهم ، كما يجب علينا لكل شعب اسلامي ولاسيما قوم استاذنا الاكبر في السياسة الاسلامية والشرقية السيد جمال الدين الافغاني رحمه الله تعالى) - ويسوعنا ان وقع ماكننا نتوقع في مجلتنا وفي شعب استاذنا .

صدر العدد الاول من مجلة الرابطة الشرقية فاذا هي مجلة لادينية تؤيد ما يسميه ملاحدة هذا العصر بالتجديد اللا ديني وتحرير المرأة المسلمة ، وتدافع عن الترك والفرس والافغان ، فيما يجادلونه من تجديد يهدم الاسلام ، على احتراس قليل في التعبير هو اقرب الى الدفاع عن مصطفى كمال وامان الله خان منه الى الهجوم عليهما ، وينبئ عن الخشية عليهما من الفشل لا عن تمنيه لهما - واذا بنا نرى فيه مقالة للدكتور طه حسين الذي اشتهر بالطعن في الاسلام وتكذيب القرآن (العظيم المجيد الكريم الحكيم) وخلاصة لبحثه الجهلي السخيف في ضمير الغائب واستعماله . اسم اشارة في القرآن الكريم ، ومقالة اخرى لاستاذ الدكتور منصور فهمي داعية التجديد من ناحية الفلسفة في باب خاص به عنوانه (صفحات شرقية) ومقالة للاستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق شقيق الاستاذ علي عبد الرازق رئيس تحرير المجلة ، فاذا كان هذان الاستاذان يساعدا المجلة في تحريرها لانهما عضوان في مجلس ادارتها ، فما بال الدكتور طه حسين ، وما الذي وضع اسمه في العدد الاول في مقالين اثنين على اشتهاره بين مسلمي مصر وغيرها بالطعن في الاسلام ؟

بعد صدور هذا العدد بايام جاءني كتاب من بعض اهل العلم الاسلامي الداعين الى الاصلاح يقول فيه ما معناه : ان اهل العيرة الاسلامية المحبين للنار وصاحبه المحسنين للظن به ينتظرون ان ينشر في الجرائد اليومية انه خرج من جمعية الرابطة الشرقية وتبرا منها بعد ان ظهرت خطتها اللادينية في مجلتها . ثم تكلم معي بعض اعضائها في وجوب تلافي هذا الامر وتداركه .

ثم ظهر العدد الثاني من المجلة فاذا هو اصرح من العدد الاول فيما

ذكر وإذا بنا نرى من محررية الدكتور طه حسين الذي تعبر عنه المجلة بكلمة « صديقنا » وإستاذه وسلامة موسى عدو الأديان كافة والاسلام خاصة ، وعدو الآداب والفضائل الروحية ، وعدو الروابط الشرقية من وطنية وجنسية لغوية ، وداعية الكفر والوقاحة والتهتك اللذين يعبر عنهما بالادب المكشوف ، ويوجهه على ضده من الصيانة والحياء الذي يسميه الادب المستور ، والدكتور هيكل بك رئيس تحرير جريدة السياسة داعية الثقافة اللادينية ، والاستاذ أحمد أمين أحد أركانها ، فمن ذا الذي جعل هذه المجلة ميداناً لسباق أشهر فرسان الثقافة الالحادية وجعلها لسان حالهم ومقالهم ؟

وإذا بنا نرى من موضوعات هذا العدد مقالة وجيزة من المجلة عنوانها (البرنيطة في بلاد الشرق) بدأها الكاتب ولعله المشرف على تحريرها بقوله « من غريب المصادفات أن يتفق زعماء النهضة في بلاد الاسلام ، : تركيا وفارس وأفغانستان ، على إلزام أممهم قهراً بلبس البرنيطة رغم العقيدة الفاشية في تلك الامم عن البرنيطة من أنها شعار نصراني خاص لا يرضى به الا مسلم خارج عن دينه » الخ .

ثم قال في أواخرها « الحق أننا لا نزال عند رأينا في أمر البرنيطة من أنها أهون شأناً من أن يختلف فيها اثنان ، أو ينتطح فيها عنزان ، وخطا الدعاء اليها والمعارضين لها في تعظيم امرها » .

تنويه مجلة الرابطة الشرقية بالحاد الكمالين :

وإذا بنا نرى من موضوعاته مقالة أخرى في تنظيم شأن النهضة التركية في المعارف وغيرها ولا سيما نشر التعليم العام بالحروف اللاتينية الناسخة للحروف العربية ، وزعم الكاتب أن هذا الانقلاب الطمي الأخير في تركيا ليس له نظير في تاريخ البشر لأنه جعل المدن والقرى في جميع المملكة مدرسة كبرى « غرف فصولها الاندية والمقاهي والمساجد ... » ثم نوه بمظمة الفازي مصطفى كمال الذي هو الاستاذ الأكبر لهذه المدرسة العامة الشاملة لجميع أفراد الأمة التركية !!!

أيظن الكاتب الذي جن في الدعاية الكمالية فعظم ما ليس بعظيم ،
أن الناس كلهم مجانين يأخذون هذا التنويه الجنوني بالتسليم ، بعيشك
أيها القارئ ألم يكن صاحب المنار فيما توقعه من مصطفى كمال ومن
أمان الله خان ثم من الرابطة الشرقية غيداراً^(١) وداهياً إلى الترشد لمن
لم يزدحم دعاؤه إلا فراراً ؟

خضاع طه حسين للأزهريين بترك الدنيا للملحدين :

وإذا بنا نرى من موضوعاته مقالة للدكتور طه حسين حاول فيها
إقناع الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر بأن يجعل التعليم فيه وفي
سائر المعاهد الدينية موجهاً إلى الدعوة والإرشاد دون القضاء الشرعي
والتعليم في المدارس وغير ذلك من أعمال الحكومة والمصالح الدنيوية إذ
يجب عنده ترك جميع الأعمال القضائية والمدنية والتعليمية للمدارس
الدنيوية تبعاً لمذهب التجديد القاضي بفصل أمر الدين عن أمور الدنيا
خلافًا للإسلام .

ونرى من المناسب أن ننتقل على سبيل الاستطراد من سرد المباحث
التي تسمى التجديدية ، وكتبتها في مجلة الرابطة الشرقية ، إلى ذكر
شيء جديد في مقال الدكتور طه حسين ، وهو أنه يذكر الله تعالى في هذه
المقالة ويسمي الإسلام دين الله ، والقرآن كلام الله ، فقد قال في آخر
هذه المقالة .

« ألا إن سبيل الأزهر إلى الخير واضحة إن أراد أن يسمى إلى
الخير حقاً فليخرج لنا وعاظاً مرشدين خليقين بهذا اللقب ، وليخرج لنا
دعاة إلى دين الله وذادة عنه وحماة له ، وليدع الدنيا وأعراضها للدين
تعنيهم أعراض هذه الحياة الدنيا ، فقد صدق الله تعالى حين قال
(واضرب لهم ^(٢) مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به

(١) الغيدار الذي يسيء الظن فيصيب .

(٢) غلط الدكتور في أول الآية فجعله (إنما مثل الحياة) وصوابه ما ذكرنا .

نبات الارض فاصبح هشيماً تدرؤه الرياح) فليدع الازهر هذا الهشيم
الذي تدرؤه الرياح ، وليدع الازهر هذا الزبد الذي يذهب جفاء .

ونقول الظاهر ان هذا التصريح الجديد في هذه المقالة يقصد به
التاثير واقتناع شيخ الازهر ورجال الاصلاح بهذه النصيحة الخادعة
وايهامهم انها مقتضى كلام الله تعالى ، وشيخ الازهر وعلماء الازهر
يعلمون ان الاسلام جمع لاهله بين مصالح الدنيا والآخرة ، وان هذا
المثل الذي ذكرهم به الدكتور ليس معارضا لقوله تعالى (هو الذي
خلق لكم ما في الارض جميعا) وقوله (قل من حرم زينة الله التي اخرج
لعباداه والطيبات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة
يوم القيامة) وامثال ذلك من الآيات ، التي ترشد المسلمين الى جميع
علوم الكائنات ، والآيات التي وعدهم الله بها بأن يجعلهم خلفاء الارض
ويمكن لهم فيها السلطان والمجد ، وانما ذلك مثل لتضفير متاع الحياة
الدنيا بالنسبة الى سعادة الآخرة ، لئلا يشغلهم الغرض الأدنى عن
الغرض الأعلى ، وقد أرشدهم الى الجمع بينهما ، وعلمهم ان يدعوهم
بقوله (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة) ومن العلوم من
تاريخ الاسلام بالضرورة ، ومن تعاليمه بالنصوص المتفق عليها بين
الائمة ، ان خلفاء المسلمين وقضاتهم وحكامهم يجب ان يكونوا من أعلم
علمائهم المستقلين ، ومن أشدهم اقامة للعدل واعتصاما بعدالة الدين .
وهم يحفظون من كلام سلفهم : الدنيا مزرعة الآخرة ، وقد بينا هذا
بالتفصيل في مواضع من التفسير والمنار فلا محل لبسطه هنا .

وقد غلط الدكتور طه حسين الازهرين فيما ضربه لهم من الامثال
الدنيوية كهذا المثل الديني إذ ذكر لهم المدارس الدينية لدعاة النصرانية،
وهذا حجة عليه فان هذه المدارس تلقن طلابها جميع علوم الدنيا ، ودعاة
النصرانية المتخرجون فيها منهم الاطباء واساتذة العلوم والفنون الرياضية
والطبيعية وغيرها ، فلملأنا يحاول اقتناع متخرجي الازهر وسائر المعاهد
الدينية ، بترك تعليم المدارس المدنية والقضائية وغير ذلك من مصالح
الدنيا لكليات جامعته المصرية المدنية ، والراضى بأن تكون سيادة الدنيا

ومجدها وقفاً على الملحدين ، ولماذا تنشر له مجلة الرابطة الشرقية هذا الغش والخداع للمسلمين ؟ فيا ليت شعري هل يرى رئيس الجمعية ووكيلها ما يراه زميلهما المشرف على تحرير مجلتها من ان الاسلام دين روحاني محض لا حكومة ولا شريعة يجب على اهلها التزامها ، وهل يريان ما يرى صديقه طه حسين من جعل غاية التعليم الديني الوعظ والدعوة وحصر اعمال الحكومة المصرية الاسلامية في خريجي المدارس اللادينية ؟ الذي كنا نعرفه عنهما غير هذا .

ويلى مقال الدكتور طه حسين مقالاً لاستاذ الدكتور منصور فهمي تابع لما كتبه في العدد الاول ، وغايته التنويه بتعظيم شأن مصطفى كمال فيما تراءى له والسائر دعاة التجديد اللاديني من نجاحه فيما يسمونه اصلاحاً وان لم يصرح باسمه ولا باسم المقتدين به ملك الافغان وشاه ايران الذين يعبر عنهم « برجال الشرق الحاليين ومصالحيه » .

دعاية سلامة موسى الى الاتحاد وهدم الاسلام :

واذا بنا نرى من موضوعاته دعائية سلامة موسى المشرف في الاتحاد الى رايه في مقالة عنوانها (الشرق والغرب) وهي تتضمن تخطئة جمعية الرابطة الشرقية في سعيها للتعارف والتعاون بين شعوب الشرق من ادناها الى اقصاها اذ يقول « اننا نحن المصريين والسوريين والعراقيين نمت بجملة صلات من النسب الى اوروبا ولا نمت باي صلة الى اليابان والصين ، فنحن من حيث السلالة البشرية ننتمي نحن والانكليز الى « ام واحدة » ونحن من حيث الدين يشترك كثير منا واوروبا في المسيحية ، والمسلمون هم اقرب الملل في العالم الى المسيحية » .

وغرض سلامة موسى افندي من هذا البحث في مقالته اقناع قراء مجلة الرابطة الشرقية وتقريب بعض آخر من رايه المشهور عنه وهو وجوب اندفاعنا في الامة الانكليزية ، ولو كان هذا المقام مقام المناقشة والمناظرة لاثبت له ان النصرانية الحاضرة نصرانية التثليث هي اقرب الى البوذية منها الى الاسلام ولكن دين المسيح دين التوحيد الخالص

هو عين دين محمد عليهما الصلاة والسلام الذي جاء في أنجيل يوحنا منه قول عيسى في مناجاة ربه « ١٧ : ٣ وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنك أنت الاله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته » .

ويدعو الاستاذ سلامة موسى في مقاله هذا الى هدم الاديان عاملة والاسلام خاصة ، كما يدعو الى ما ذكر من السياسة القومية ، فقد زعم فيه ان اسخف ما سمعه عن انفرق بين الشرق والغرب ان الاول روحي والثاني مادي » وان مما يزيده عجبا واستغرابا لهؤلاء القول الاستدلال عليه بنشوء الاديان في الشرق (قال) « مع أنهم لو تبصروا قليلا في القرآن والانجيل والتوراة لوجدوا ان جميع الانبياء في هذه الكتب الثلاثة كان همهم الاكبر هو الاصلاح الاقتصادي الذي هو هم أوروبا الآن » ونقول هذا من الافك والبهتان ، الذي يفنده فيه جميع اهل هذه الاديان .

ثم إنه انتقل الى الدعوة الى تقليد اوروبا بطفرة سريعة على رأي صديقه الاستاذ علي عبد الرازق رئيس تحرير مجلة الرابطة الشرقية ومدير سياستها الحقيقي وقال :

« مثال ذلك انه يجب علينا أن نساوي بين الرجل والمرأة ولكن اساس هذه المساواة هو الاقتصاد فلا معنى لان تعطى المرأة حق الانتخاب والتصويت والسفور والتعليم ولا يكون لها في الميراث سوى نصف الرجل بل يجب ان نفصل الدين عن الدولة ونجعل المرأة مساوية في المواثيق للرجل بلا ادنى فرق .

« ثم يجب ان نجعل التعليم العام وسيلة لتخريج رجال متمدينين ومتمدينين فقط وربما كان اللباس الاوربي أي القبعة (يعني المبرنيطة) والبنتلون مما يجلب عطف الامم الاوربية علينا ويجعلنا ننظر الى انفسنا نظرا غربيا فلو جعلناه الراسيا لجميع الافراد لكان فيه فائدة كبرى في الاسراع في اتخاذ الحضارة الغربية » .

هذا آخر مقال هذا الداعية الى هدم الاديان ولا سيما الاسلام وهدم الوطنيات والاندغام في الاوروبيين بسرعة سيف مصطفى كمال وقوانينه ومحاكمه الاستقلالية التي تحكم على الممتنع من لبس البرنيطة تدبنا بالقتل - فهنئاً لجمعية الرابطة الشرقية بهذه المجلة وكتابها .

وقد كان دعا الى مثل ما دعا اليه في شأن المساواة بين المرأة والرجل في الميراث وغيره في محاضرة او خطبة استفرغها في نادي جمعية الشبان المسيحيين ثم كتب الى هدى شعراوي هانم رئيسة جمعية النهضة النسوية بمصر يدعوها الى مطالبة الحكومة بتقرير هذه المساواة فردت عليه بأن ما تطلبه جمعيتها من الاصلاح لا يدخل فيه الخروج عن دين الاسلام وترك احكام الشريعة بل هو في دائرة حدودها ورد عليه كثير من كتاب المسلمين مبينين عدل الاسلام وفضله على جميع الشرائع في الارث وغيره ، ولكن مجلة الرابطة تعيد له نشر هذه الدعاية .

واللدكتور منصور فهمي تعليق على هذا المقال بداه باجلال اخيه سلامة موسى والاشارة بما له من المنزلة الرفيعة في نفسه ثم داعبه مداعبة في بعض عباراته .

دعاية الاستاذ احمد امين الى التفرنج :

ويلي هذا مقالين قالت المجلة انهما «يتصلان بالموضوع اتصالاً شديداً» أحدهما عنوانه (وحدة العالم) وهو للاستاذ أحمد أمين من أركان الدعاية اللادينية جزم فيه بأن الشرق لا يمكن أن يكون له مدنية خاصة به وأن العالم الشرقي كله سائر الى المدنية الغربية ولا يستطيع أن يتجه الى غير ذلك - وأنه « يجب أن يكون عمل المصلحين محصوراً في دفع همهم الى الأخذ بأوفر حظ من المدنية الغربية وخير طريق لذلك تهينة نفوس الامة لهذا الاقتباس » الخ .

راي هيكل بك في الحاجة الى دين جديد :

والمقال الثاني عنوانه (حضارة الشرق متى تبعث من جديد لتضيء

ظلام المدينة الغربية) وهو للدكتور محمد حسين هيكل بك مدير جريدة السياسة مبتدعة الثقافة اللادينية ولسان حال حزب التجديد اللاديني، ولكن مقاله هذا فيه من سعة العلم بحال أوربة والشرق ما ليس في شيء من تلك المقالات اذ نظر الى ما في أوربة من فساد الاخلاق والآداب وخطر المدنية المادية وعلم ما لم يعلم سائر اولئك الكتاب او خبر بما لم يخبر به احد منهم من حاجة أوربة نفسها الى اصلاح روجي لا يمكن أن يكون الا بهداية دينية ، وان الشرق هو الجدير بأن يكون مشرق هذه الهداية التي لا يرجى صلاح الغرب بدونها ، فهو يقترح زند هذا الرجاء فيه ؟

سبق للدكتور هيكل مقال في هذا الموضوع نشره في الهلال وتمنى فيه لو يبعث نبي جديد في مصر من اهلها يتحقق بما يأتي به من وحي الدين هذا الرجاء في اصلاح الغرب والشرق ، وفاته ان هذا النبي الذي قوي توجه العقول الى الحاجة اليه قد وجد وجاء بكل ما يرجى في هذا الامر ولكن الذين يدعون اتباعه قد شوهوا هدايته بما ابتدعوه فيها ، وانها لو ظهرت نقية من هذا البدع والخرافات بدعاية حكيمة معقولة لادت هذه الوظيفة المرجوة على اكمل وجه .

هذا النبي المطلوب لاصلاح فساد المدينة الغربية هو محمد رسول الله وخاتم النبيين ، صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين ، كما بينا ذلك في مواضع من المنار في السنين الماضية وبيننا أن اول من اهتدى الى حاجة أوربة الى هدايته في هذا العصر هو حكيم الشرق السيد جمال الدين الافغاني رحمه الله تعالى وانه كان كثيرا ما يقول : لا حجاب يحول بين أوربة وبين دين القرآن الا نحن فانهم ينظرون اليها من خلال القرآن هكذا — ويرفع يديه مفرجا بين اصابعهما — فيجدون وراءه اقواما غلب عليهم الجهل والكسل والتواكل والخرافات فيلقونه قائلين لو كان اصلاح لصلح به متبعوه ، فاذا اردنا ان نقنعهم بحقية الاسلام واصلاحه وجب ان نقنعهم قبل ذلك باننا لسنا مسلمين وبليه في ذلك الاستلا الامام وقد نقلنا عنه مرارا انه قال في درسه العام في الازهر انني اعتقدت منذ عشرين سنة عقيدة ترداد رسوخا في نفسي سنة بعد أخرى بقدر ما ازداد علما

واختبارا لحالة العالم المدني وهو ان اوروبا لا تجد لها منقلا من فوضى
الاقتار المادية وفساد الاخلاق الا بالاسلام الصحيح وانها ستنتهي
الى الاهتداء به في يوم من الايام وربما صار المسلمون الجاملدون يأخذون
الاسلام عن علمائها (او قال ما هذا معناه وربما اكون ذكرته من قبل
بلفظه او بما هو اقرب من هذا الى لفظه ولكن المعنى لم يتغير) واقول
ان تجديد الثقافة والحضارة السليمة من الرذائل يظهران على اكمل
وجوهما بتجديد الاسلام ويكون هؤلاء المجددون له مصداق قول النبي
صلى الله عليه وسلم « ان الله تعالى يبعث لهذه الامة على رأس كل
مائة سنة من يجدد لها دينها » رواه ابو داود والحاكم والبيهقي في
(المعرفة) من حديث أبي هريرة ووضع له السيوطي في الجامع الصغير
علامة الصحيح ، وحينئذ نرى هؤلاء الدعاة الى التجديد الاعمى يؤمنون
بآية التجديد المبصرة ويكونون من السابقين الى الاسلام الذين يجهلون
ويحتقرون أهله .

مختارات مجلة الرابطة الطاعنة في الاسلام :

ومما اخترته المجلة او مراقبها لهذا العدد الثاني من الاقتباس
والترجمة في مقالة في (مسيلمة الكذاب) مخالفة في سداها ولحمتها
لما عند المسلمين يسمى صاحبها مسيلمة نبيا كما يسمى محمد (ص)
نبيا يعني ان كلا منهما كان نبيا لقومه ، ويسند الى الاخبار الاسلامية
التعير عنه بمسيلمة الكذاب كانه او لانه مخالف لهم في هذا
الوصف ، فما كان اغنى قراء هذه المجلة عن هذه المباحث في اوائل
اعدادها !!

ومنها ما ترجمه الاستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق من محاضرات
لطلاب المدرسة الحرة في بلريس في الاسلام من الطعن على هذا الدين القويم
وهي خمس محاضرات جمعها كتاب اسمه (الاسلام والسياسة الحاضرة)
ولم يرد الاستاذ على شيء مما فيها من الطعن في الاسلام والمسلمين ولا
أشار الى شيء مما فيها من الخطا ولكنه قال فيما بينه من غرضه بعد

تلخيصها » وليس من غرضنا أن نناقش في رأي ولا أن ندل على خطأ أو تناقض ، وثم لمن أراد موضع المناقشة وبيان التهافت ، إنما نريد أن ننقل إلى أهل الشرق تصور الغربيين لهم وحكمهم عليهم » .

أقول أننا في حاجة إلى العلم بما يقول فينا أهل الغرب من خير وشر وحق وباطل لا من الطعن فقط ، وفي حاجة إلى تمحيص أهل العلم والرأي لما يكتب عنا والفصل بين الحق والباطل من أقوالهم . والاستاذ المترجم يعلم أن أكثر قراء مجلة الرابطة الشرقية من المسلمين ليس لهم من المعارف الإسلامية ما يقدرون به على المناقشة وبيان الخطأ والتناقض وأن الطعن في دينهم مما يضرهم قراءته ، ويا ليت شعري هل تقبل مجلة الرابطة الشرقية هذه المناقشات إذا كتبها إليها بعض المسلمين أم تعتذر عنها بأنها مما تبرأت منه في بيان خطتها في العدد الأول .

هذا بعض ما أنكرنا في هذا العدد الواحد من مجلة الرابطة الشرقية ورآه الناس واستنكروه ومثلنا وكان أشدهم استنكاراً له المسلمون ولا سيما رجال الدين ورجال السياسة منهم . وقد كتب إلي عالم سوري عصري كبير في فلسطين يقول ما خلاصته أنه ظهر للعالمي والخاصي أن مجلة الرابطة الشرقية مجلة الحادية أو لا دينية على مذهب زعنفة دعاء التجديد المعادين للإسلام ، وأنه يجب عليك الخروج من جمعيتها حفظاً لمقامك الديني إلا أن تكون ساعياً لمنعها من الاستمرار على هذا الطريق ذي العوج .. وقال لي كاتب من أشهر الكتاب السياسيين يظهر أن مجلة الرابطة الشرقية مشايعة لجريدة السياسة ومجلة الهلال في نزعة التجديد اللاديني الخ .

على أن جريدة السياسة اعتدلت في خطتها بعض الاعتدال وقد نشر فيها عدة مقالات في استنكار خطة الكماليين في استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية ، وتنكر على ملك الأفغان اتباعه لخطواتهم على أنها تسميها أصلاً وتخشى عليه من الفشل بعدم مراعاة ما عليه قومه من عقائد وتقاليد قديمة .. ثم أنها مع ذلك تنصر الاستاذ الأكبر الشيخ

محمد مصطفى المراغي شيخ الازهر فيما نهض به من امر اصلاح الاسلامي
نصرا لم نر فيما قرأناه منه شائبة من دسيسة الدكتور طه حسين التي
نشرها في مجلة الرابطة الشرقية ولا من شذوذ رئيس تحريرها الاستاذ
علي عبد الرازق الذي بسطه في مجلة الهلال .

انني قد اضطرت الى هذا التطويل في نقد مجلة جمعية كنت من
اوائل المؤسسين لها والواضعين لقانونها لانها تنكبت في مجلتها ذلك الطريق
الذي سرفنا عليه فيها ، وقد كنت اوجزت في النصيحة بما ذكرته في التعليق
على اعلان المجلة ثم بما نصحت بلساني فلما لم ينفع النصح المختصر الخفي ،
اضطرت الى هذا الانكار الصريح الجلي ، والى نشره في المنار ، فعسى ان
لا احتاج الى مثله بعد ، والله الامر من قبل ومن بعد .

المصدر : مجلة المنار ج ٨ مجلد ٢٩ . ديسمبر ١٩٢٨ .

ملاحظة : محرر المنار هو الشيخ رشيد رضا .

الاحاد ودعائه في مجلة الرابطة الشرقية

والاستاذ احمد امين

راجعني تلميذ لي في عدي الاستاذ احمد امين من اركان دعاة الاحاد الذي سقط من قلبي في انتقادي على مجلة الرابطة قائلا انه لم يعرف عنه هذا وليس في مقاله في تلك المجلة شيء صريح فيه ، وذكرني بانه هو المتخرج في مدرسة القضاء الشرعي الذي كان قاضيا شرعيا - فاعترفت له آسفا بانني اخطأت في عده من اركانهم لانه اشتبه علي بكتاب آخر كتب مقالات الجادية كثيرة في جريدة السياسة ولكنني لا اراني مخطئا في نظم مقالته التي نشرتها له تلك المجلة في سلك سائر مقالاتها التي تؤيد دعاية ما اعنيه بكلمة الاحاد ، على انني جعلت عنوانها (الدعوة الى التفرنج) ورايت من الواجب علي الان ان افسر في المنار ما اعنيه بكلمة الاحاد التي يشتمل عمومها على تلك المقالة فقد علمت ان بعض الناس يفهمونها مرادفة لكلمة الكفر والتعطيل ، والصواب انها اعم من ذلك لغة وشرعا كما بينت بالتفصيل في تفسير قوله تعالى (٧ : ١٨٠) والله الاسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في اسمائه سيجزون ما كانوا يعملون) اذ قلت في اوله ما نصه :

واما الاحاد فطمناه العام الميل والافوراد عن الوسط حسا او معنى ، والاول هو الاصل فيه كأمثاله - وبعد ذكر الالفاظ والجمل المستعملة من هذه المادة قلت : ولما كان « خيل الامور اوساطها » كان الانحراف عن الوسط مذموما ، ومنه اخذ التعبير عن الكفر والتعطيل والشك في الله تعالى بالاحاد ويسمى ذووه الملاحدة والملاحدون . ثم نقلت ما قاله الراغب في مفردات القرآن تفسيراً لهذه المادة ومنه : الحد فلان : مل عن الحق ،

والحاد ضربان ، إلحاد الى الشرك بالله وإلحاد الى الشرك بالاسباب ، فالاول ينقي الايمان ويبطله ، والثاني يوهن عراه ولا يبطله الخ ثم بينت ان إلحاد في أسمائه تعالى سبعة أنواع (راجع ص ٤٤٠ - ٤٤٨ ج ٩ تفسير) .

فانا اعني بالإلحاد في كل ما أرد به على الملاحدة المعنى العام له الذي يشمل الكفر المخرج من الملة وغير المخرج منها وما ليس بكفر مما يضعف الايمان ويوهن روابط الاسلام اللغوية والاجتماعية كالثقافة اللادينية التي كانت تدمر اليها جريدة السياسة وغيرها وكثير مما يسميه جملة الكتاب اللادينيين بالتجديد كازياء الرجال والنساء الافرنجية التي جعلها مصطفى كمال باشا ومريده امان الله خان من اركان الاصلاح لما يقصد بها من إنساء المسلمين جميع ماضيهم . ومن اركانها استبدال الحروف اللاتينية بالعربية وغير ذلك من الميل عن الوسط الى افراط او تفريط في الشؤون الاسلامية . وليس منها تجديد الصناعات والفنون العسكرية والمالية والتجارية وامثال ذلك مما يزيد قوة الامة وثروتها بل هذا واجب شرعا ..

ويرى القراء في عناوين مقالنا في الانكار على مجلة الرابطة ما يدل على هذا التقسيم للاراء الالحادية ولا سيما التفرقة بين دعاية سلامة موسى الى هدم الاسلام ودعاية احمد امين الى التفرنج . فثبت من كل ما تقدم اننا لا نعد كل ما ننتقده من التجديد المدني الحادا ، ولا كل الحاد وتفرنج كفرا يخرج به صاحبه من الملة .

هذا وان مقالة المنار في الانكار على مجلة الرابطة الشرقية قد كان لها وقع عظيم في نفوس المسلمين هنا وربما كان وقعها اعظم في سائر الاقطار الاسلامية التي لم يوجد فيها من حرية إلحاد مثل ما هو معهود في مصر .

نشرتها جريدة كوكب الشرق اليومية التي يقال انها الآن اوسع صحف القطر انتشارا ، ونشرتها صحيفة الفتح الاسبوعية . وقد جرى حديث بين احد محرري الكوكب وصاحب السعادة احمد شفيق باشا في موضوع المقالة كانت فيه اجوبة سعادته للمحرر مشفرة برضاه عن تلك المقالات التي انتقدناها على المجلة الا مقالة سلامة افندي موسى فقد اعتذر عنها

بحرية النشر . . . فكان ذلك موجبا لمزيد استياء المسلمين كما بينته مجلة
الفتح . وجرى بيننا وبين سعادته وسماحة الرئيس في المسالة مالا ينبغي
لنا ان ننشره لانه من امانة المجالس ، ثم جرى حديث آخر في جلسة مجلس
ادارة الرابطة الاخيرة . وقد علم من كل هذه الاحاديث ان هيئة تحرير
مجلة الرابطة ستبين رايها في انتقاد مجلة المنار لها بما يصح ان يبنى عليه
راي مجلس الادارة فيها - وكذا الراي الاسلامي العام الاولى . فمضى ان
يوفق صاحب السماحة والسعادة الرئيس والوكيل الى انتياش المجلة من
الورطة التي نشبت فيها بشلوذ الاستاذ رئيس التحرير الذي لم يعرفنا
كنهه من قبل ، وان ما نعهده فيهما من الحنكة والحلم والروية جدير بان
ينتصر على ما عنده من الشر والحدة والاصرار ، وقد بلغنا انه يستعد
لانتقام منا بنقد التفسير وغير التفسير من الآثار والمطبوعات . وما نقده
بالذي يخيفنا ونحن نعرض كل ما نكتبه للنقد وننشر ما يرسل إلينا منه
وان كان تجهيلا وتضليلا ، حتى لامنا خيل قراء المنار على اضاعة اوقاتنا
واوقاتهم في ذلك ، وانما نحسب حسبا لما عسى ان يكون لاطلاق العنان
له في مجلة الرابطة من تأثير سيء في جمعية الرابطة وتأثير اسوأ في جميع
المسلمين ، وانا للجزء الثالث منها لمنتظرون .

نحن وصاحب المنار

بين الشيخ رشيد رضا صاحب المنار وبين المشرف على تحرير هذه المجلة خصومة قديمة العهد معروفة ، ولقد كان يحسن بهذه الخصومة ان تبقى بعيدة عن عمل لا شأن له بها ، وعن اناس لا يعنيهم من امرها كثير ولا قليل ، ولكن الشيخ رشيد يابى الا ان تتغلب على اعصابه ومشاعره تلك الخصومة وتملا عليه مشغله واوقات حياته ، فهو لا يبرح متأثرا بها في جليل اعماله وصغيرها وفي خاصها وعامها ، كأنما صغرت نفس الشيخ رشيد وضاق صدره حرجا بتلك الخصومة فهو لا يرى في الوجود غيرها ولا يشعر الا بها ، او كأنما كبرت في نفسه تلك الخصومة حتى ملأت عليه فجاج الارض وسدت في وجهه منافذها .

اما المشرف على تحرير هذه المجلة فقد عرف لهذه الخصومة حقا واراد ان يقف بها عند حدودها ، فلا يخلط بها ما ليس له بها صلة ، ولا يلقي اعباءها على اناس لا ينبغي ان ينالهم من عبثها شيء . واما الشيخ رشيد فانه لم يستطع ان يصون نفسه عن التورط في تلك الخصومة واثارتها في غير مواطنها ، ولم يستطع ان يتخلص في وقت من الاوقات من سلطان الحقد والضغينة عليه فاذا هو يستقبل خبر هذه المجلة بغمز المشرف على تحريرها فيه من قبل ان يظهر العدد الاول منها ، ومن قبل ان يعرف منهجها واسلوبها ، لم يستطع الشيخ رشيد ان يحيى الاعلان عن مجلة الرابطة الشرفية ولا ان يستقبلها بكلمة صالحة غير ان يقول : « نحمد الله ان آن اصدار هذه المجلة التي قررنا اصدارها من اول العهد باتشاء الجمعية

ولكن نخشى ان يظهر فيها شيء من شدوذ المراقب الذي يسوء جميع المسلمين كدفاعه عن الترك وثنائه على خطة حكومتهم في نبد الاسلام وراء ظهورهم ومحاولة ازالة كل اثر له في شعبهم ولكن الرجاء في سماحة الرئيس وسعادة الوكيل ان يحولا دون ذلك ، فالمراتب لابد له مراقبة » .

ظهر العدد الاول من المجلة فلم ينظر الشيخ رشيد اليه الا من وراء الدغل والسخيمة غطي على سمعه وبصره غشاوتهما ، ولم يشعر اذائه الا بما ياكل قلبه من خصومة المشرف على التحرير ، فكتب ينتقد العدد الاول ، وما ينتقد في الحقيقة الا شخص المشرف على تحريره ، وما يقول عن العدد الاول من مجلة الرابطة الشرقية الا حديثا مكررا من حديث الذي رمى به المشرف على التحرير من قبل قال :

« صدر العدد الاول من مجلة الرابطة الشرقية فاذا هي مجلة تؤيد ما يسميه ملاحدة هذا العصر بالتجديد اللاديني وتحرير المرأة المسلمة وتدافع عن الترك والفرس والافغان فيما يحاولونه من تجديد يهدم الاسلام على احتراس قليل من التعبير هو اقرب الى الدفاع عن مصطفى كما وامان الله خان منه الى الهجوم عليهما وينبئ عن الخشية عليهما من الفشل لا من تمنيه لهما ... » .

قرأنا هذا الكلام فضحكنا وقلنا رجل لا يفتح عينه الا راي المشرف على تحرير هذه المجلة ، ولا يرهف اذنه الا سمع المشرف على تحرير هذه المجلة ، وهو لا يقدر ولا يفكر ولا يقرأ الا راي المشرف على تحرير هذه المجلة واصحابه واصدقائه يتوشون عقله وقلبه وحسه من قريب ومن بعيد ، ينفصون يومه ، ويؤرقون نومه ، ويظليون همه ، ويمدون غمه ، ويفسدون عليه كل شيء فهو كما قال الشاعر :

مازلت تحسب كل شيء بمدها

خيلا تكرر عليكم ورجلا

والاشباح التي تخيف الشيخ رشيد كثيرة مختلفة الانواع ، تأتيه من فوقه ومن تحته وعن ايمنه وعن شماله . فمصطفى كمال يفزعه ، وامان الله خان يروعه ، وشاه الفرس يزعجه ، ودعوة التجديد تخرجه عن طوره ، وما اقل ما يستقر الشيخ في طور . . ولكن هذه الاشباح ملحة عليه تكاد تقض مضجعه . . . الم تر اليه ينكر على العدد الاول من هذه المجلة انها لا تتمنى الفشل للفرس والترك والافغان ، كأنما اتشئت هذه المجلة لتتمنى الفشل للامم الشرقية الناهضة ، ولتقطع ما بينها من صلة يجب ان توثق ، وتدمر ما فيها من امل يجب ان يشيد ، وتشط ما فيها من عزيمة يجب ان تقوى ، وتحارب على الاجمال ما فيها من نهضة حياة يجب ان تجتمع الجهود على نصرها وتأييدها وتوجيهها الى الخير وقصد السبيل .

والشيخ رشيد محرف للكلم عن مواضعه ، وكأنما قد خلق الله نفسه معوجة لسانه ، لا يمر بنفسه المبدأ الصحيح والمذهب القيم حتى يفسد ويلتوى ، كما لا تجري على لسانه الكلمة المستقيمة حتى تقبح وتشوه . واماوضح دليل على ذلك ان يحتكر فلسفة الاستاذ الامام ودعوته الى الخير والاصلاح فاذا هذه الدعوة المضيئة الحية الحرة قد مرت برأس الشيخ رشيد فظهرت في اثره مظلمة ناشرة للظلمة ، ميتة باسطة لسلطان الموت ، جامدة مسرفة في الدعوة الى المجمود وسكوتها هو يتمنى الفشل للامم الاسلامية الناهضة . ولو عاش الاستاذ الامام وشيخه جمال الدين ، ولو قد رايما مثل هذه النهضة في الامم الاسلامية لكانا بذلك اسعد الناس واشدهم غبطة . ولاطمانا ووضيا واستقبلا جوار ربهما سعيدين بان جدهما لم يذهب سدى ، وبان جهدهما قد آتى ثمره يانما طيبا ، واذا الشيخ رشيد اشد الناس اسرافا في تكفير المسلمين ، وتفسيق الصالحين ، والاحتكام على الله عز وجل في الثواب والمقالب .

ولو قد هاش الاستاذ الامام فرائى الشيخ رشيد يسيء الى كلمة الله هذه الاساءة لاسرع الى ما بينه وبينه من سبب فجلمه في غير

أناة ولا فتور . وكيف وقد كان رحمه الله أشد الناس بغضا للتكفير
والتأثيم ونفوراً من رمى الناس بالالحاد والخروج على الدين .

ضحكنا من الشيخ وأعرضنا عنه وما أكثر ما نعرض عنه من
لغو القول .

ولكن العدد الثاني من مجلة الرابطة الشرقية قد ظهر ، فلم يكدر
ينظر فيه حتى أخذته الصاعقة ، ودأبت به الأرض ، وخر عليه السقف
من فوقه ولم لا ؟ إله تتمثل له هذه الأشباح التي تخفيه تفزعه وفيها
الترك والفرس والافغان حية قوية الحياة ، ناهضة سريعة النهضة ،
مجددة حريصة على التجديد ؟

أليس بعض هذا يكفي ليذهب بصواب الشيخ رشيد ! أليس
المشرف على تحرير هذه المجلة ينشر أخبار هذه الأمم الحية الناهضة
يفسر ويطلق ويتمنى الفوز ولا يتمنى الفشل . ومن حوله أصحابه
وأصدقائه يرون نهضة الأمم الإسلامية فيدرسونها ويفسرونها ويحاول
كل منهم أن يوجهها إلى قصد السبيل ، أليس بعض ذلك كافياً ليكفر
الشيخ رشيد نفسه ثم ليكفر الناس ؟!

وذلك ما فعل الشيخ رشيد أسرع إلى هذه المطية المنكرة التي يوفل
بها في الشر ويوضع بها إلى الفتنة ، أسرع إلى مطيته المنكرة وهي قلمه
فرمى عالمين من علماء الإسلام هما صاحباً الفضيلة مصطفى عبد الرزاق
وأحمد أمين بالالحاد واللا دينية . لماذا ؟ لأن أولهما كما يقول الشيخ
رشيد (شقيق المشرف على تحرير المجلة) ولأن الثاني فيما يظهر صديق
للمشرف على تحرير هذه المجلة . كان الاتصال بالمشرف على تحرير هذه
المجلة بمصلات الرحم أو المعرفة قد أصبح مصداقاً للادينية !

ومن عجيب الأمر أن ينكر هذا الشيخ على الاستاذ مصطفى عبد
الرزاق أنه أظهر أهل الشرق على رأي جماعة من علماء الغرب فيهم في

امانة وصدق ، دون أن يظهر رأيه الخاص في هؤلاء الناس وما يرون .
كان من الحق عليه الا ينقل رأيا حتى يبين حكمه عليه ورأيه فيه .

اما الاستاذ احمد امين فلم ينكر عليه الا اسمه وانه يرى من الخير
للشرق ان يجد في الاخذ بأسباب المدينة الغربية .

ولكن وراء الالكمة ما وراءها . فنحن نعرف ماذا ينكر على هذين
الاستاذين ، ينكر عليهما قبل كل شيء انهما من العلماء الذين يسمع
الناس لهم في غير شك ولا ريبة ولا تظنن ، وان لهما من الواجهة العلمية
والدينية ما يتقطع دونه (نستغفر الله بل دون بعضه) نياط قلب
الشيخ . وينكر على اولهما بنوع خاص انه كان اشد الناس اتصالا
بالاستاذ الامام ، وانه ورث علم الاستاذ وفلسفته ودعوته الى النهضة ،
وانه ظل في الدعوة الى طريقة الاستاذ ماضيا مخلصا مستقيما ، لم
يفسد عليه الامر في ذلك ضعفه ، ولا طمع ، ولا رغبة ، ولا رهبة ، ولا
خور ، ولا تهالك على حطام هذه الدنيا يتلقطه من هنا ومن هناك ، يئل
في سبيله نفسه . ويبيع في سبيله دينه وضميره ، وانه فوق هذا كله
اعلم الناس برأي الاستاذ الامام في هذا الشيخ وامثاله من الادعياء واقدر
الناس على أن يظهر هذا الرأي فتكسد يومئذ بضاعة ، وتخيب يومئذ
آمال ، وتضمحل يومئذ عزائم .

ويصل الدعي الى الدكتور هيكل بك ، والدكتور هيكل بك صحيفة
سيارة ، ونفس الدعي جزعة خوارة ، وقد طالما جرحته السياسة بأنياب
واضراس ، فهو لا يمس الدكتور هيكل الا مساً رقيقاً . وأي شيء ينكر
على هيكل ؟ ينكر عليه أن ينتظر أن يبعث من الشرق روح ديني يصلح
القرب في مستقبل الايام كما كان الامر في الماضي . ولم يذكر هيكل ديناً
جديداً وانما ذكر ديناً قد يكون الاسلام . وهنا روى الشيخ رشيد عن
السيد جمال الدين حديثاً ان صح الزمه الحجة واقام عليه البرهان ،
وان لم يصح (وما نخاله صحيحاً) كان دليلاً جديداً على ان الشيخ
رشيد يكذب أيضاً على السيد جمال الدين الافغاني .

زعم الشيخ رشيد أن السيد جمال الدين كان يقول :

« إذا أردنا أن نقنع الأوروبيين بحقيقة الاسلام واصلاحه وجب أن نقنعهم قبل ذلك بأننا لسنا مسلمين » أسمعت ؟ أوعيت ؟ كان السيد جمال الدين إذا يكفر الأمة كلها ويقر على نفسه بالكفر ! فان يكن هذا صحيحا فالذين يدعون الى التجديد انما يريدون أن يخرجوا الأمة من هذا الكفر الذي أقر به عليها السيد جمال الدين وما يزال يتبعه في ذلك الشيخ رشيد ، هم يريدون أن يردوها الى الاسلام صحيحا سمحا كما خرج من منجمه ونجم من معدنه ، ولكننا نعتقد أن السيد جمال الدين لم يقل هذه الكلمة المنكرة ، وقد كان أظهر نفسا والذكى قلبا وأبصر بالصواب من أن يرمي أمة محمد صلى الله عليه وسلم بالكفر والاجتماع على الضلال ، انما هو نزغ الشيطان جعل الشيخ يتورط في الاثم ويورط معه فيه أئمة الدين والهداة الى الحق ، كذب على السيد جمال الدين كما كذب على الاستاذ الامام وكما يكذب على الله نفسه عز وجل حين يصل الى الدكتور طه حسين فينكر عليه انه يريد أن يختص علماء الدين بالوعظ والدعوة الى الله وان يتركوا الدنيا لاهل الدنيا ، فيزعم أن الله قد خلق الوظائف المدنية وغيرها من شؤون الدنيا لعلماء الدين ، ويستدل على ذلك بآيات كل ما تدل عليه أن الله أباح للناس أن ينتفعوا بكل ما خلق لهم . فمن أنكر هذا ؟ وأي صلة بين هذا وبين انصراف علماء الدين عن الوظائف المدنية وشؤون الدنيا الى الوعظ والدعوة الى الله ؟ ولكن الشيخ رشيد لا يريد أن ينصرف علماء الدين عن الدنيا لانه يحسب نفسه عالم دين ولانه يريد أن يأخذ بحظه من الدنيا ، واهل يعيش الشيخ رشيد الا للدنيا ؟ وهل يطلب الشيخ رشيد حظه من الدنيا الا من طريق الدين ؟

وينكر الشيخ على المجلة أنها نشرت للاستاذ سلامة موسى مقالا عن الحضارة في الشرق والغرب دعا فيه صاحبه الى ايشل الحضارة الغربية ، ومس فيه نظام الميراث الاسلامي . وسوء نية الشيخ في هذا ظاهرة ، فالاستاذ سلامة موسى مسيحي يعرف الناس جميعا منه ذلك ، متطرف

في نزعتة الى التجديد وقد يعرف الناس منه ذلك ايضا ، وقد اخذت مجلتنا نفسها بأن تكون لسانا للشرقيين جميعا لا تفرق بين اديانهم وأجناسهم ولا تنصر ديننا على دين ، كما انها لا تنصر جنسا على جنس لانها مجلة إخاء لا مجلة تفريق . ومن حق الشرقيين جميعا عليها ان تنشر لهم آراءهم القيمة ومباحثهم ما لم يتجاوزوا فيها حد الادب والقانون . وهي حين نشرت مقال الاستاذ سلامة موسى لم تتجاوز ان قامت بواجبها الذي فرضته على نفسها كما انها لم تبج لنفسها ان تتجاوز الانصاف فعلقت على هذا المقال وبرأت من تبعته وبوضعت الامر في نصابه . وكان الذي وضع هذا الامر في نصابه ودافع عن نظام الارث الاسلامي الدكتور منصور فهمي الذي يراه الشيخ من دعاة اللادينية .

ولكن الشيخ رشيد احرص على الاسراف في سوء النية من ان يعرف للمجلة وللدكتور منصور انصافهما واقرارهما الامر في موضعه .

وبعد فماذا يريد الشيخ رشيد الى هذه المجلة وأصحابها والدين يكتبون فيها ؟ فان كان يريد ان تكون نسخة من المنار وان يكون أصحابها وكتابها صورا من نفسه فالمجلة وأصحابها وكتابها اكرم على انفسهم واحب للشرق والحق من ان يتورطوا في ذلك ، وهم انما يجدون ويكتبون ويبدلون ما يبدلون من جهد ليستنقذوا الشرق من اناس فيه لا يدعون الى خير ، ولا يريدون الا النفع ، ولا يبتغون من الدين والعلم الا اخس امراض هذه الحياة . وان كان يريد من هذه المجلة وأصحابها وكتابها ان ينظروا الى هذه النهضة الشرقية نظرة من يقدرها ويريد ان يؤيدها ويوجهها الى قصد السبيل فذلك ما فعلوا وما سيفعلون . وخليق بالشيخ رشيد ان يتبعهم في ذلك ان استطاع .

هذه سبيل المجلة ستمضي فيها راشدة ان شاء الله ولانف الكاشح الرخم .

المصدر : مجلة الرابطة الشرقية ، القاهرة - العدد الثالث - السنة الاولى ،
فبراير ١٩٢٩ .

قطيعة الماضي

سلامة موسى

اننا مع احترامنا الجراءة القوية التي امتاز بها الاديب المعروف الاستاذ سلامة موسى في بحوثه لا يسعنا الا أن نكون على خلاف معه في نظريته التي ترمي الى قطع كل صلة لنا بالماضي . لاننا نعتقد أن اندفاعنا نحو اقتباس ما في المدنية الحديثة من خيرات لا يمنعا أن نستجلي غوامض الماضي ونعرف ما فيه من خير وشر ، والخطأ التي نسير عليها في « الحديث » . تلخص كما أوضحنا كثيرا فيما يلي :

- ١ - أن ندرس ماضينا درساً نأخذ منه كل عبرة تنير أمامنا طريق السبر .
- ٢ - أن ننعم بخيرات المدنية الحديثة بدون أن يكون ذلك وسيلة نحو كياننا وقوميتنا . فمع احتفالنا بهذا الرأي ننشر مقال الاستاذ على طوله .

في مصر بل في سوريا والعراق وسائر الاقطار العربية أيضا نجد طبقة صغيرة من الناس يتعلقون بالماضي . وليس تعلقهم عن رغبة في الدرس والبحث وانما هو تعلق يقوم على الكرامة القومية بتمجيد السلف .

وعندنا من هؤلاء الممجدين السلف من يدفعهم احترامهم له الى استنقاص الحضارة الاوربية الراهنة حتى لينشأ في اذهانهم ما يمكنني ان اسميه « مركب التاريخ » أو « مركب السلف » فيتعلقون بكل ما هو شرقي ويكرهون العادات الغربية ويتكلمون عن اسيا كأنها وطنهم . وفي مصر من هؤلاء طائفة التفت رابطة أطلقوا عليها اسم « الرابطة الشرقية » يدافعون فيها عن الشرق وعاداته وتاريخه .

ومثل هذه الجهود توهم الناس اننا شرقيون . والواقع عكس ذلك
فالنا نحن والسوريون والعراقيون من حيث الدم سلالات آرية اي
غربية لا تمت باية صلة الى الصينيين او اليابانيين . وهؤلاء الصينيين
انفسهم عندما قام في اذهانهم ان ينهضوا ويجاروا اوربا في التقدم والرفي
عملوا الى ماضيهم فانكروه فتركوا الايمان بالالهة القديمة واصلحوا
اللغة حتى جعلوها اشبه بالعامية الفاشية بين سواد الامة . اما اليابان
فارتقاؤها لا يرجع الى مسبب آخر سوى تفرنجها اي تملصها من
تاريخها وعاداتها . فهذه الامة الشرقية لم تتقدم بتعلقها بالسلف
واحترامه بل بتركه والانضمام قلبا وقالبا الى اوربا واصطناع الحضارة
الغربية .

ويجب ان نذكر ان هذا الماضي الذي يطلب منا تمجيده هو بالنسبة
الينا بمثابة عهد الطفولة للشباب ، كله جهالات وسخافات ليس يصح
الا فتخار بها . اجل ، لقد كان اسلافنا يؤمنون بالرق ويرتكبون في سبيله
اكبر الجرائم التي اوقعها انسان بانسان ، وكانوا يعيشون راضين
بالحكومة الاوتوقراطية يتسخرهم اي طاغية لقضاء اوطاره الساقطة . ولم
تكن قصور ملوكهم سوى مواخير تعج عجيجا بالنساء بينهم فحل عظيم
هو الملك او الخليفة . وكانوا في حروبهم يشربون دماء اعدائهم ويفخرون
بذلك . وكان هذا السلف يرضى في مصر وسوريا بان يحكمه ويستبد
به مخائيت او غاد يدعون الممالك ..

اني اذكر بمناسبة الدعوة الى احترام الماضي ما ذكره التاريخ من
ان « كليون بطرة » كانت زوجة اخيها ومن ان ام عمرو بن العاص كانت
زوجة لاربعة رجال في وقت واحد . واذكر ما كتبه الطبري عن يزيد
ابن المهلب ، فقد كان هذا القائد المشهور في جرجان فثار عنهم السيف
« فاعطى الله عهدا لئن ظفر بهم ان لا يقطع عنهم ولا يرفع عنهم السيف
حتى يطحن بدمائهم ويختبز من ذلك الطحين وياكل منه » قال الطبري :
وبريمينه « فطحن واختبز واكل » فهل مثل هذا السلف جدير بالاحترام؟

كلا ، انما واجبنا الا قطيعة الماضي واختطاط الخطط الجديدة للمستقبل فان روح هذا الماضي لا تألف وروحنا ، ويخشى ان اشبع قلوب الناس بالماضي ان يتجهوا للمستقبل فيرون في المخترعات بدءاً مكروهة وينظرون للعالم المجد نظرة العداء الذي يولده الاختلاف في النظر ويعتادون معايرة الاشياء بمعايير عتيقة .

لقد كان الاوربيون في القرون الوسطى يحترمون السلف ويعاقبون التلاميذ اذا خالفوا رأيا من آراء « ارسطاطاليس » ويحرقون بالنار من يتجرا على انكار شيء قال به الانجيل او التوراة . فكفوا لذلك يعيشون في ظلام وظلم يخيم عليهم الجهل ويسودهم الاستبداد وكانت مدارسهم تجري في تدريسها على الانماط المتبعة الآن في الانهر حيث لا يزال ارسطوطاليس حياً في « المنطق » وشروحه حواشيه وحيث « الكلام » موضوع من اهم موضوعات الدرس .

تم جاءت النهضة فقام كل من « ديكولت » و«بيكون » يقول بالشك في جميع ما قاله او آمن به القدماء وشرع العلماء يدرسون الاشياء من جديد لا يصدقون شيئاً لاتقره التجربة او الحواس حتى ساد العقل وشرعت اوربا تكتشف وتخترع وحتى طغى سبيلها على الشرق فاستعبده وحق لها ان تستعبده ما دامت هي تنظر للمستقبل وتعد له عدته بينما هو لا يزال ينظر الى الماضي ويتقيد بتقاليده .

ونحن كذلك يجب ان ننهض بقطيعة السلف فلا نحترمه ولا نحترقه بل ننظر اليه بصفة كونه يمثل طورا من اطوار الانسانية قد عدونا كما يعدو الشاب طور الطفولة . ثم نشرع بعد ذلك في اختطاط الخطط الجديدة في الاخلاق والاداب والعلوم . فاذا تكلمنا عن الزواج وجب الا نلتفت الى ما كان يفعله اسلافنا قبل الف عام ، واذا كتبنا في الادب وجب الا نذكر ما كان يرتأيه الجاحظ او الجرجاني . اما في العلوم فيجب ان نعرف اننا نحرث ارضا بكرنا بالنسبة لبلادنا لم تشقها بعد سكة محراث .

هذه هي خطة الشباب الجديد الذي يؤثر ركوب الطائرات على ركوب
الحمير الكراء ويؤثر المجازفة في سبيل الوقوف على حقائق هذه الدنيا
مع التعرض للخطأ على الركود والدعة والاستئمة الى العقائد القديمة .
ويؤثر اللحاق بأوروبا على الرضى بان ينزل مع الشرق المميت على قدم
المساواة ، بل اقول يؤثر المعرفة المبنية على العلم على العقيدة المبنية على
الايحاء .

واذا كان الشرق جديرا بالنهوض فلينهض وليبارك الله على نهضته وعندئذ
نسير معا اما اذا كان يختلر لنفسه خطة السلف فليبق في مكانة
فلسنا نرضى نحن بالوقوف معه لان الوقوف في هذا العالم هو بمثابة
التهيق للانقراض ونحن نريد ان نحيا فان في نفوسنا شهوة شريفة للتطور
ونزعة قاهرة للسمو كلتاهما تدعونا الى ان نكون اقوياء مستنيرين مخترعين
مكتشفين مثل أهل أوروبا . وهذا لا يكون ابدا بكثرة التلفت الى الماضي
والصباغة الدائمة الى الثقافة القديمة .

سلامة موسى

المصدر : مجلة الحديث : السنة الثانية ١٩٢٨ العدد الاول كانون الثاني .

قطيعة الماضي*

ساطع الحصري ١٨٨٠ - ١٩٦٨

يدعو سلامة موسى في مقاله هذا الى « قطيعة الماضي ، واختطاط الخطط الجديدة للمستقبل » .

١ - فيقول : « يجب ان نشرع في اختطاط الخطط الجديدة في الاخلاق والآداب والعلوم . فاذا تكلمنا عن الزواج وجب الا نلتفت الى ما كان يفعله اسلافنا قبل الف عام . واذا كتبنا في الادب وجب ان لا نذكر ما كان يرتأه الجاحظ او الجرجاني . اما في العلوم فيجب ان نعرف اننا نحرث ارضا بكرًا بالنسبة لبلادنا ، لم تشقها بعد سكة محراث » .

اننا نتفق مع الكاتب في هذه الملاحظات ، من جميع الوجوه لاننا نعتقد بوجوب التجديد في جميع مناحي الحياة - من ادبية وعلمية وصناعية وزراعية ودينية واجتماعية . . ونقول باننا في حاجة عظمى الى تحوير انظمة الحياة في بيوتنا ، والى تغيير اساليب التفكير المسيطرة على نفوسنا .

لكننا نفترق عن الكاتب ونخالفه في ميئه الى جمل « فكرة التجدد » معادية « للفكرة القومية » - كما فعل في مقالات عديدة - وفي قوله ان ماضيها « كله سخافات وجهالات ، لا يصح الافتخار بها » كما صرح في مقاله الاخير .

(*) سلامة موسى ، في : مجلة الحديث ، العدد الممتاز .

« اننا نعتقد بأن » السخافات والجهالات « الموجودة في ماضينا ليست اعظم ولا اكبر مما وجد في ماضي أمة من الامم الراقية التي نعرفها ، ولا نرانا في حاجة الى بيان مبلغ مباهاة تلك الامم بتاريخها ، او الى ذكر قيمة آثارها الفنية المستخرجة والمستلزمة من اساطيرها .

فلا يقوتنا مثلا ان اشد انصار الديموقراطية والجمهورية في فرنسا لا يتأخرون ابدا عن تعظيم وتبجيل لويس الرابع عشر ، مع علمهم بأنه كان من اكبر المستبدين . فلماذا لا نفتخر نحن ايضا بالأمم وهرون الرشيد ، وان علمنا « ان كلا منهما كان حاكما مستبدا » ؟

كان المؤرخ الشهير « ارنست لافيس » يقول بوجوب الاخذ بمبدأ « المشروعية المتتالية » *Légitimités Successives* في مثل هذه الاحوال : ان لكل دور احكاما ، ولكل جيل خصائص ، فحكمنا على كل من ادوار التاريخ يجب ان يكون حكما نسبيا ، بالنسبة الى الظروف المحيطة به وليس بالقياس الى درجة حضارتنا هذه ، كما ان حكمنا على رجل من رجال التاريخ يجب ان يعتبر باحكام زمانه وخصائص جيله ، فلا يقيس احواله على مقاييس الاجيال التي اتت من بعده .

فالذي يجب علينا في هذا الباب ، هو اذن تغيير اسلوب نظرنا الى التاريخ ، لا تحويل اذهاننا عنه .

علينا ان نستمد قوة من التاريخ ، ليس لتقليد اجدادنا وتحدي المسلك الذي سلكوه من قبلنا ، بل لتقوية وتشديد عزائمنا لبلوغ منزلة سامية من حضارة العصر الذي نعيش فيه ، كما بلغ اجدادنا من قبل تلك المنزلة السامية من حضارة القرون التي عاشوا فيها . .

٢ - ينتقد سلامة موسى جهود « الرابطة الشرقية » ويقول :

« مثل هذه الجهود توهم الناس بأننا شرقيون ، والواقع عكس ذلك ، فانا نحن والسويون والعراقيون من حيث الدم سلالات آرية غريبة لا تمت بأية صلة الى الصينيين او اليابانيين » .

نحن لسنا من الداعين الى الرابطة الشرقية ، ولا من القائلين بها .
فاننا لا نعتقد الا بالرابطة القومية - التي تستند على اللغة والتاريخ -
ولا ننظر الى كلمات « الشرق والشرقي والغرب والغربي » الا كاصطلاحات
جغرافية ، ولكننا مع ذلك نستغرب « البرهنة » التي اختلرها سلامة
موسى ردا على فكرة الرابطة الشرقية . اذ اننا نجد فيها عدة مدعىات
تناقض الحقائق العلمية كل المناقضة : لم يسبق لنا العلم بان « علماء
الاقوام » يعتبرون المصريين او السوريين او العراقيين من سلالات آرية
كما اننا لا نفهم الداعي الى الخوض في مسألة الدم والسلالات في مثل
هذه الابحاث . فهل كل الامم الغربية « آرية » ؟ وهل جميع الامم
الشرقية « غير آرية » ؟ كلا ! فان في اوروبا عدة امم غير آرية : مثل
الهنغار والفنلانديين ، والاستونيين ، كما ان في اسيا عددا غير قليل من
الامم الآرية : كالفرس والافغان والهنود . فلو سلمنا - مع سلامة موسى -
باننا من الامم الآرية - رغما عن مخالفة ذلك للحقيقة - فماذا يمكننا ان
نستنتج من هذه القضية ؟

نقول هذا ، لا بقصد الدفاع عن فكرة الرابطة الشرقية ، بل بقصد
اعطاء مثال بليغ على ما تنطوي عليه بعض المقالات من مخالفة الحقائق
بالرغم من « مظهرها العلمي » الخداع .

٣ - يحاول سلامة موسى ان يبرهن على وجوب « قطيعة الماضي »
بذكر الخطط التي سلكتها الامم الشرقية الناهضة ، ويقول :

« ان الصينيين عندما قام في اذهانهم ان ينهضوا ويجلروا اوروبا في
التقدم والرقي عمدوا الى ماضيهم فانكروه ... »

« اما اليابان فارتقاؤها لا يرجع الى مسبب آخر سوى تفرنجها ،
اي تملصها من تاريخها وعاداتها » .

« فهذه الامم الشرقية لم تتقدم بتعلقها بالسلف واحترامه ، بل
بتبركه والانضمام قلبا وقالبا الى اوروبا واصطناع الحضارة الغربية » .

لا شك في أن الأمم تركت كثيرا من تقاليدھا القديمة ، كما أنها اقتبست جميع أساليب الحضارة الغربية وآلاتھا . ولكنها هل « انكرت يا ترى تاريخھا » حقيقة ؟ هل « تملصت منه » فعلا ؟ كلا ؟ فاننا نعلم أن اليابانيين تجددوا كل التجدد واقتبسوا الحضارة الغربية بمدى واسع ، من غير أن يتساهلوا في شيء من مقوماتهم القومية ، وبدون أن ينكروا شيئا من تاريخهم الوطني ، وبدون أن يقللوا احترامهم لأسلافهم العظام . حتى أنهم اخلدوا يحترمون أسلافهم أكثر من ذي قبل ، فانهم لم يبدلوا بأقامة احتفالات سنوية بتتويج امبراطورهم الأول - الذي عاش على زعمهم ستة قرون قبل الميلاد - إلا سنة ١٨٩٠ .

وقد قال « لودوفيك لودو » في كتابه عن « تطور اليابان الحديثة ما يأتي : « حادث غريب : ان اليابان ، على تقليدھا الأوروبية ، تحاول أن تعيد بناء ماضيها نفسه ، وأن تختلق لنفسها تاريخا » (*) .

وقد قال « فلسيسيان شالي » في أحد الدروس التي القاها في « مدرسة الأبحاث الاجتماعية العالية » عن أخلاق اليابان .

« ان تأورب اليابان لم يكن تأوربا عاما ولا تأوربا سطحيا ، بل هو تأورب محدود بحدود وضعت عن قصد وعلم : ان اليابانيين قبلوا تأثير أوروبا في بعض المناحي عن قصد وشعور ، رفضوه في بعض المناحي الأخرى كذلك عن قصد وشعور . . » .

وقال أيضا « لم يتطور اليابانيون إلا لكي يحافظوا على عاداتهم المحبوبة . لقد تأوربت اليابان ضد أوربة ، لكي تبقى أكثر يابانية من ذي قبل . »

فكيف يجوز لنا والحالة هذه أن نقول ، « ان ارتقاء اليابان يرجع إلى تملصها من تاريخها وعاداتها » ؟!

L. Nandau, Le Japon moderne, p. 184.

*

المصدر : ساطع الحصري أحاديث في التربية والاجتماع - الأعمال الكاملة (٢) مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت ١٩٨٢ ولم نستطع تحديد مكان وتاريخ نشر المقالة للمرة الأولى .

حياتنا العقلية

إلحاد ام إصلاح - حقيقة النزاع بين طائفتين

للدكتور هيكل بك رئيس تحرير السياسة

تفضل احد الصحفيين الفلسطينيين بزيارتي منذ ايام مناسبة مروره بالقاهرة من غير ان تسبق بيني وبينه معرفة ، وكنت احسب بلدىء الراي ان الزيارة ستقتصر على تبادل التحية والسؤال عن احوال مصر وفلسطين والبلاد العربية . لكنني تبينت من زيارة الزميل غاية اخرى سررت بها وبالنتيجة التي بلغتها منها . وكان اول ما عبر به حضرته عن غايته هذه ان سألني ان كنت لا ارى الخير لبلاد الشرق واللام الاسلامية جميعا في عدم تعرض كاتب او صحفي لشيء من عقائدها بنقد ، وفي عدم بث الدعوة للحضارة الغربية وما يتبع هذه الحضارة من ترف مدل ، وبالجمله في عدم ترويج فكرة الالحاد ؟

وقد سرني هذا التلخيص للفكرة ، وسرني اكثر من ذلك ان اواد صاحبها المناقشة فيها لا مجرد اتخاذ لفظ من الالفاظ او عبارة من العبارات صيحة حرب امام الجماهير . ويسرني الآن ان اخص بقراء الجديد ما دار بيني وبين فضيلة الشيخ من حديث انتهى الى قوله :

- إذن فالمسألة بينكم وبين الآخرين سوء تفاهم . ولو انكم تفاهمتم لما كان لخلاف موضع . واني اصدقك اني جئت الى هنا بفكرة غير الفكرة التي انتهيت الان اليها .

يسرني أن أخص هذا الحديث لأنه يصف الواقع في مصر وفي غير مصر من بلاد الشرق ، ويدل دلالة واضحة على أن سوء التفاهم الذي أشار إليه محدثي في ختام خطابه إنما ينشأ أكثر الأحيان بسبب تضارب المصالح الخاصة . وكثيراً ما جنت هذه المصالح الخاصة على اخلاص الناس لمقائدهم وأفكارهم وعلى إيمانهم بهذه المقائد والأفكار .

قلت لمحدثي جواباً على سؤاله الأول :

— الحقيقة أن ليس ثمة في هذه البلاد ولا في غيرها من البلاد العربية إلحاد ولا دعوة إليه . وإنما الإلحاد لفظ ابتدعه قوم ليحلوا به أمام الجماهير كل من يتصدى للإصلاح . ويسير عليك أن تقدر ذلك إذا ذكرت المواقع التي يقال هذا اللفظ فيها . فقانون يراد سنه لاتقاء أضرار تصدد الزوجات ويراد به أن لا يكون التعدد إلا لضرورة يقرها القاضي فيقال هذا إلحاد . وقانون آخر يراد سنه لاتقاء أضرار الوقف الأهلي الذي أصبح عند الناس ذريعة للفرار من التورث الشرعي كما أصبح عقبة اقتصادية في سبيل التطور الحديث فيقال هذا إلحاد . وبنك يراد انشاء ليودع الناس فيه أموالهم ويقبضوا منها فائدة مقابل استغلال البنك لإياها فيقال هذا ربا والسماح به أو الدعوة إليه إلحاد . هذا مع أن اذن القاضي في التعدد وفي الطلاق مما أفتى بها علماء مسلمون من مئات سنين ماضية ، ومع أن الوقف الأهلي غير جائز في رأي أبي حنيفة ، ومع أن الاشتراك في فائدة الاستغلال غير الربا المقصود به أرهاق المدين بفائدة الدين فائدة لا يصل إليها من السعي الحلال . فهل يعتبر لفظ الإلحاد الذي يقول به أصحابه في مثل هذه المواقف إلا صيحة حرب يريدون بها أغراء الجماهير بخصومهم أغراء قبيحاً .

« وفيم الدعوة إلى الإلحاد ونحن في الشرق بحاجة إلى إصلاح سريع لا محل معه للأبحاث التجريدية التي يلجأ إليها الدين يقصرون حياتهم على التفكير في المادة وما وراء المادة ؟ فيم كل هذا وكل دأع إلى دعوة في بلد يحتاج إلى الإصلاح إنما يرجو من وراء دعوته أن تكون عاملاً في التعجيل

بهذا الإصلاح ؟ نحن نعلم أن الأمم لا تستطيع أن تعيش من غير دين .
وفرنسا التي انتشرت فيها أفكار الإنكار على مختلف صورته لا يبدو فيها
الإنكار قوي المظهر إلا في بعض المدن . أما في الأقاليم فالفرنسيون أشد
تمسكاً للمسيحية من الإنكليز ومن الألمان ومن الإيطاليين . فمن أضعاف
الوقت في أمم الشرق المحتاجة اليوم إلى أوليات الحياة أن يضيع إنسان
وقته في الدعوة إلى مذهب خاص لا يبدو له في الإصلاح الذي يطلبه أي
أثر عاجل .

قال محدثي : صحيح أن الخلاف على قانون الأحوال الشخصية
وقانون الوقف والمصارف وما إليها لا شأن له مطلقاً بالمعقيدة ولا علاقة
له إذن بالإيمان أو بالإنقاذ . بل أنا على رأيكم في أنها مسائل تراكمت
الشريعة الإسلامية شؤون تنظيمها للقاضي . والمشرع إنما يسن للقاضي
كليات لتوضح له طريق تنظيم الجزئيات . ولكن ألا ترون معي أن من
بعض المسائل ما لا محل لاثارته حتى لا يتقول غيركم عليكم ما ليس بحق
ما دامت هذه المسائل لا تمس شؤوناً ذات خطر في تقدم الإصلاح أو في
تأخره . وأضرب مسألة القبعة لذلك مثلاً . فاما المسائل ذات الخطر
فالمشايع يوافقونكم في كثير منها كمسألة تعليم المرأة وما إليها . قلت :

« أنا معك في أن المسائل غير ذات الخطر لا تستحق إثارة جدل عنيف
حولها . ولذلك لم أتعرض لمسألة القبعة التي أشرت إليها وإن كان
انصارها يعتقدون أن تغيير الزي يغير لون الحياة وطريقة النظر إليها .
لكنني يجب أن أذكر لك أن المشايخ لم يوافقونا في مسألة تعليم المرأة إلا
بعد أن رموا الداعين إليه بالإنقاذ واتهموهم بأقبح التهم . فقد وضع
المرحوم المغفور له قاسم بك أمين كتابه تحرير المرأة في سنة ١٨٩٩ .
وأنت اليوم إذا قرأت هذا الكتاب شعرت به رغم جمال أسلوبه وتصويره
كانه بعض كتب القرون الوسطى . فقد أنفق قاسم أمين أكثر من ثلثه
للتدليل على أن تعليم المرأة لا يخالف الدين ، وأن مزاوله المرأة شؤون
الحياة لا يخالف الدين كذلك . وعلى هذا انتقل إلى القسمين الآخرين
من كتابه عن تعليم المرأة وعن الحجاب . مع ذلك فقد رماه مشايخ ذلك

العصر بالاحاد والمروق والفسق ، وبلغ من ذلك انه ، برغم شغله منصب مستشار في الاستئناف ، حرم من الدخول الى عابدين ومن مقابلة الخديوي . فاذا كان رجال الدين اليوم يقرؤنا على تعليم المرأة فذلك بعد ان جرف التيار جمودهم القديم واصبحوا لا يستطيعون ان يواجهوا ابنائهم ولا بناتهم بجمودهم كما اصبحت مصالح بناتهم الخاصة معرضة للضرر اذا هم لم يعلمواهن .

« فانت ترى ان كل فكرة جديدة تقابل من جانب رجال الدين برمي صاحبها بالاحاد حتى تستقر وتصبح من الافكار المتداولة فيقبلونها طائعين او كارهين . وانت ترى ان هذه الافكار الجديدة جميعا لا علاقة لها بالايمان ولا بالاحاد . فهي كلها افكار اجتماعية بحتة . وحرية الفكر التي دعونا والتي ندعو اليها هي الاخرى فكرة اجتماعية لا علاقة لها بالايمان ولا بالاحاد ، لان المؤمن الذي لا يكون حر الفكر لا يكون في الحقيقة مؤمنا بل يكون عبد رقيق في تفكيره . لكن هذه الافكار التي سبقت ودخلت في الحياة العلمية واقراها الناس جميعا واقراها رجال الدين بملهمهم والافكار التي تقدم اليوم لتدخل في الحياة العلمية انما هي ادوات الاصلاح الاجتماعي الذي لا بد منه لحياة امة من الامم او شعب من الشعوب في هذا العصر الحاضر .

قال محدثي منتقلا من موضوع الى موضوع آخر متصل في ذهنه هو بالموضوع الاول :

— انت ترى انكم في مصر لا تستطيعون مقاومة الانكليز بالقوة واخراجهم عنوة من بلادكم ، كما لا نستطيع نحن اخراجهم من بلادنا عنوة . كما لم يستطع السوريون اخراج الفرنسيين عنوة . هذا مع ان انكلترا وغير انكلترا من الامم الغربية تحسب لابن السمود وجيوشه الحساب . افلا ترى مع هذا ان الدعوة للحضارة الغربية معناها الدعوة للترف الذي جعلكم في مصر لا تستطيعون مقاومة القوة بالقوة وان الدعوة للفضائل الاسلامية من التقشف والزهادة والانصراف عن الملذات هي التي تمكنا من دفع نير الغرب والعود الى مثل ما كان المسلمون فيه من عزة وقوة .

وهنا دلت محدثي على أن الموضوع الذي عرض له جديد لا علاقة له بالاحاد ولا بالتجديد والاصلاح واقلت :

— أما ان عزة الامم الاسلامية ومنعتها كانت في العصور السالفة اثرًا من آثار الزهد والتقشف فذلك ما أحسب التاريخ يتشكك فيه حين يذكر ما كانت عليه عصور معاوية ويزيد والرشيد والمأمون من ترف لا نسمع اليوم بمثله . على أن القول ببقاء الغرب متحكما في الشرق بسبب ترف الشرق فغير صحيح . لأن الامم الغربية يوم فتحت او احتلت الامم الشرقية كانت هذه الامم الشرقية بعيدة عن كل ترف وكانت الامم الغربية على العكس من ذلك هي المترفة المبتغية المنبثقة من وراء الفتح زيادة في الرفاهية والنعمة . إنما تغلب الغرب على الشرق بالعلم . وبالعلم يقاوم الشرق الغرب . ونحن مع الاسف ما نزال من علمنا بعيدين عن مسابقة الغرب وان كنت أرجو في النهضة الحاضرة بعثًا عظيمًا . نحن ما نزال بعيدين عن مسابقة الغرب سواء في علمنا الديني أو في علمنا المدني . وآية ذلك أن العالم لا يكون عالمًا إلا اذا أخلص لعلمه وارتاح للتضحية في سبيله ولم يتخذ مجرد أداة للرزق . فالعالم الديني الذي يستحق هذا الاسم هو الذي يقبل عن طواعية نفس وطمأنينة ضمير كل تضحية في سبيل الدعوة لإيمانه دعوة خالصة لوجه الله والدين . فهل ترى في رجال الدين المسلمين اليوم من ذلك شيئًا ؟ هل ترى منهم من يحتمل مشاق الاسفار للدعوة الى دين محمد كما يبشر المسيحيون بدينهم ؟ أم الواقع المحزن انهم لا إخلاص عندهم لهذا الدين ولا لما تعلموا منه الا بمقدار ما يدر عليهم من رزق وما يمكن لهم من حكم . هذه حقيقة مرة ولكنها يجب أن تقال . فاما العلم المدني فقد كان الى سنوات قليلة ماضية متأثرًا باحداث السياسة ، وهذا هو اليوم يفتح ابوابه للمخلصين له المؤمنين بما في العلم من خير . فاذا نحن بلغنا من العلم ما بلغت أوروبا وعرفنا كيف نتحكم في الطبيعة تحكمها فيها ولم تكن مجرد مقلدين لاهلها فلن نستطيع أوروبا مجتمعة أن تتغلب على أمة بل على ولاية من أمم الشرق وولاياته .

هنا قال الشيخ تلك العبارة :

— إذن فالمسألة بينكم وبين الآخرين سوء تفاهم . ولو أنكم تفاهمتهم لما كان للخلاف موضع .

والست أدري إن كانت المسألة سوء تفاهم وكفى . لكن الذي أقطع به أنه لو اخلص الآخرون وفكروا في اصلاح بلادهم والبلاد المجاورة لهم ولو لم يدر عليهم الاصلاح من اخلافه الرزق ما لا يطمعون اليوم في غيره لا يمكن المتفاهم ولطهرت مصر وغير مصر من تهم كثيرة باطلة لا تزيد عن أنها صيحة حرب يعلنها الضعفاء على الاقوياء ليغروا الجماهير بهم لانهم اضعف من ان يقارعوهم الحجة بالحجة او يناقشوهم الدليل بالدليل .

محمد حسين هيكل

حياتنا العقلية

تجديد

ميزة هذا العصر الذي نميش فيه انه عصر اضطراب في الراي قد تناول حياتنا القومية من جميع اطرافها . تناولها من ناحيتها السياسية فقد كرهنا النظم السياسية القديمة وظهر كرهنا لها عنيفا منذ عشرين سنة ، واخذ هذا العنف يشتد شيئا فشيئا وتدفعه الى هذه الشدة ظروف داخلية واخرى خارجية حتى انتهى الى هذا الطور الذي نحن فيه طور الحياة النيابية البرلمانية وهو بعد لا يزال في طريقه مؤيدا لهذه الحياة النيابية في محو اثر الرجعية حريصا على استكمال "سيادة القومية في الداخل والخارج . وتناولها من ناحيتها الاجتماعية الصرفة . فقد اخذنا منذ عشرين سنة ايضا ننصرف عن تقاليدنا الاجتماعية القديمة شيئا فشيئا وظهرت الدموة الى حرية المرأة والى تجديد منظم في حياة الاسرة وفي نظام الزواج والطلاق والتربية ومضينا في هذا متقدمين ، نبطء حيننا ونسرع حيننا حتى انتهينا الى هذا الطور الذي نحن فيه والذي اصبحت حرية المرأة فيه حقا يعترف به العقل والعرف وتأخذ القوانين في الاعتراف به قليلا قليلا ، والذي اخذنا فيه نجدد النظر في امر الزواج والطلاق ونحاول ان نضع القوانين التي تلائم هذا التجديد ، والذي اخذنا فيه ايضا نجدد النظر في امر الوقف وفي غيره من الامور الاقتصادية المختلفة . وتناولها من ناحيتها العلمية فقد اخذنا منذ عشرين سنة ايضا نكره نظام التعليم الذي وضعه لنا الانجليز ونجد في تغييره فحاولنا انشاء الجامعة ، وحولنا نشر التعليم الاولى ، وحاولنا اصلاح فروع التعليم الاخرى ومضينا في هذا كله حتى انتهينا الى هذا الطور الذي نحن فيه والذي اصبحت فيه

الجامعة حقيقة واقعة ، وجعل التعليم الاولى الزاميا ، وتناول فروع التعليم الاخرى بالاصلاح القوي الحازم . وتناولها من ناحيتها الدينية ، فقد ظهر منذ اول هذا القرن سخطنا على طائفة من التقاليد الصقت بالدين وليست منه في شيء ، وازادت طائفة من المصلحين الدينيين ان تطهر الاسلام من هذه الاثام وتظهره كما انزله الله نقيًا صافيا سمحا محببا الى النفوس .

ورأت هذه الطائفة ان سبيلها الى هذا الاصلاح انما هي اصلاح التعليم الديني في الازهر ، فمضت في هذا الاصلاح ومضينا معها حتى انتهينا الى هذا الطور الذي نحن فيه والذي اعترفت فيه الحكومة والبرلمان بأن اصلاح الازهر ضرورة قومية ماسة لا سبيل الى التخلص منها ، ولا بد من مواجهتها بالجد والحزم والاخلاص . وتناولها من ناحيتها الادبية،واللغوية، فقد احسنا منذ عشرين سنة او نحو ذلك ما اصاب اللغة العربية من جمود وقصور وجهدنا انفسنا في اتقاء هذا الجمود والقصور وكانت لنا في ذلك محاولات مختلفة حتى انتهينا الى هذا الطور الذي نحن فيه والذي اعترفت فيه الحكومة والبرلمان معا بأن اصلاح اللغوي ضرورة ماسة لا بد من مواجهتها ايضا بالجد والحزم والاخلاص ، واذا البرلمان يطلب انشاء مجمع لغوي واذا الحكومة تجد في انشاء هذا المجمع .

واذن فهذا العصر الذي نعيش فيه يمتاز كما قلنا باضطراب الراي في حياتنا العامة من جميع فروعها . ولكن هذا الاضطراب قد اخذ يهدا ويدنو الى الاطمئنان ان صح ان نسمي الايمان بالاصلاح والجد في سبيله هدوءا ودنوا الى الاطمئنان ، او هو قد اخذ يشتد ويمتدو يتغلغل في اعماق حياتنا العامة اذا كان الاصلاح الذي يبدأ فيه ولا يتم لونا من الوان الاشتداد والامتداد .

والحق ان هذا الاضطراب قد تطور الآن فكثرت انصاره وجنوده وعظم امره ، وازادت الظروف ان تلقي اليهم مقاليد الحكم فاخذوا يجددون او يحاولون التجديد . فهو على كل حال طور جديد لا بد من الوقوف عنده ومواجهته بشيء من التفكير .

المصدر مجلة الجديد م - ١ - العدد الاول - ١٩٢٨ - الافتتاحية .

كلمات في التجديد

« نحن نزرع تحت عبء من الماضي المرهق . فاما ان نتحرر لنستقبل حياة جديدة تقوم على متكأ من المدنية الحديثة من علم وحضارة ورفاهة ؛ واما ان نبقي حيث نحن في حياة ملبدبة مريضة لا هي من الماضي ولا من الحاضر في شيء . »

٢

تنقص زعمائنا الشجاعة . لانهم لم يستطيعوا بعد ان يرفعوا معلولهم لهدم القديم البالي ولانهم لم يتمكنوا من ان يشدوا ايديهم بكل جديد من المدنية الحديثة التي بهرتهم وملأتهم اعجابا في حين انهم جنباء يرون مجدهم في اغراء العلة ، باحترام عاداتهم الموروثة وتقديس خرافاتهم وان كان فيها هلاك البلاد .

٣

ليس ينقصنا غير هذه الشجاعة التي توجب علينا التمرد من الماضي الثقيل ؛ ان اوروبا تعيش في مدنية قائمة على العالم والثروة والرفاهة بينما نحن الشرقيون نعط في نومنا ونعظم بمجد شعرائنا وادب كتابنا وتصور اجدادنا . هم يهدبون في حياتهم كل يوم بينما نحن نمنع في السير الى الوراء كان من طبيعتنا ان نسير الى الخلف بينما بنى الانسان من الاوروبيين لا يسيرون الا الى الامام او كان في السير الى الامام صعوبة لا نطيقها ولا نستطيع لها احتمالا .

٤

لست أستطيع أن أفهم كيف تقبل من الغرب بعض علومه وكيف نشق في علاجه لامراض اجسامنا وكيف يحمل فريق منا على هذه المدنية التي انتجتها هذه العلوم . نحن اذن متمصبون . وكل متمصب جاهل احمق » .

٥

ليس لنا في المتمصبين من الشيوخ اي رجاء . فقد دل حرضهم على انهم اشد ضررا لوطانهم من طيش الشباب .

كل املنا في زهرات العلم الحديث . وكل ما نرجوه ان تقوى ثورة الجديد فتقتلع القديم من جذوره وتلقيه بميلنا عنا حتى لا تعود هذه الجذور الى الانبات .

٦

نحن لا نطمئن على الشرق مادمت فيه من الرؤوس ما يدمو الى سلوك حياة القرون الماضية . وان الساعة التي تقبل فيها البيئة الشرقية مبادئ التجديد والتطور لهي ساعة الخلاص من قيود اللل والخضوع والعبودية.

٧

من اكبر المصائب على المرء ان يلقي عقله ليهيش بفكر غيره . فما اتعس هؤلاء المساكين الذين يعيشون في تفكير اجدادهم ويمنعهم حبهم لكل قديم من دراسة ما في القديم من فن وغنى ومواصلة التفكير لايجاد صلة بين الماضي والحاضر والمستقبل .

٨

« لست أدري الى متى نتغنى بشعرائنا ونبدل حيائنا في قراءة دواوينهم

وحفظ كلامهم ولما يظهر فينا بعد مخترع يغالب الهواء فيطير على جناحيه
كما فعل اهل الغرب ولست ادري الى متى نحلم بالشعر بينما غيرنا يحلم
بالعلم وبمخاطبة سكان النجوم .

٩

وكما ندعو الى إهانة الادب بروح العلم الحديث كذلك نلج على الادباء
للاشتراك معنا في « تفنين » الادب العربي ، فاني لا اعترف بهذا الادب
الجاف المتقطع الاوصال الذي لا يستمد جماله من العناصر الفنية التي
تحوط صاحبه . والادب الحي هو الذي يتلقى الحياة من الفنون جميعا:
من الموسيقى من التصوير ومن الرقص ايضا . ولا تعجب اذا كنت اشير
الى الرقص ؟ فما الرقص الى السير الا كالشعر الى النشر ؟ لهذا كان
فنا وكان « للدوق » حكمه وتقديره فيه . فليكن فينا من يكتب الفصول
في « تفنين الادب » وليكن فينا من يعالج البحث عن « الصلات التي تربط
الادب بالفنون جميعا » ومن « الادب كفن » او عن الادب كمصدر من عناصر
« الجامعة الفنية » ومن صلة الجمال بنفسى الاديب ومن الفرق بين
الادب الجاف والادب الفني .

محمود النجوري

العدد ٢٠ ص ٢٠٨ شباط ١٩٦٨ .

حياتنا العقلية

داود بركات (١٨٦٧ - ١٩٣٣)

التجديد

للاستاذ الكبير داود بك بركات رئيس تحرير الاهرام

يسألني زميلي وحريري صاحب « الجديد » رأيي في ما اطلق عليه جماعة من المفكرين كلمة « التجديد » وأرادوا منه على ما وصل الى علمي ادخال الحضارة الحديثة على الحضارة القديمة . فالذا كان ذلك ما يراد بكلمة التجديد ، فانه في نظري وبقيني فوق الراي وفوق التساؤل . هل هو لازم ام غير لازم ؟ وهل هو نافع ام غير نافع ؟ لان هذا التجديد محتم بفعل الطبيعة ، والطبيعة لا تغالب . وكل ما للأيدي العاملة من فعل فيه أنها تدفع تياره ولكنها لا تخلق ذلك التيار . وكما أن المجددين لا يخلقون غير موجود ولا يبرزونه الى حيز الوجود بل هم يمدونه فقط بقوة الدعاية وبقوة التشذيب والتهديب وقد يوجهونه الى بعض الناحية التي يريدون فان الجامدين عباد القديم لا يستطيعون مقاومة التيار ولا صده وان استطاعوا ايقافه حيناً ما عن الانتشار في الجو الواسع كما يوقف الجدار الضوء او النور الغائض وكما يوقف السد الماء الدافق في النهر العميق او النهل الفسيح .

التجديد من ناموس الطبيعة ومن اسرار الدوام ومن اسباب الرقي والتقدم نحو الكمال . الا ترى العصفور يخلع ريشه القديم اذا ما أقبل الربيع ؟ الا ترى الشجر ينثر ورقه في الخريف ليكتسي حلة زاهية عند

دانو الربيع ويثمر عند حلول الصيف ؟ الا ترى علماء الطبيعة يصفون لنا تكوين الارض بالملايين من السنين حتى صارت ارضنا التي نرى وكرتنا الجمدة الثابتة التي نساكن . الا ترى علماء الحيوان يؤكدون في كتابهم ان السمك الذي يسبح في البحار انقضت عليه ٦٥ مليون سنة حتى وصل الى هذا التكوين والخلق الذي نرى الان . الا تسمعونهم يقولون ويؤكدون ان الانسان على ما عرف نفسه في الحالة التي نرى صرف ٤٥ مليون سنة فتحول وتغير وتطور وتجدد سنة فسنة وعلمنا فعلمنا . الا ترى اجماع الباحثين على ان هذا التطور والتجدد امر لا يقبل الجدل اذ الجدل والبحث في حساب السنين وتعدادها ؟ اما سمعنا اصحاب المذهب اللابروني يقولون بسنة الارتقاء في فصيلة الحيوان حتى يجلدوا رابطة بين الحيوان والانسان فرد عليهم خصومهم بسنة الهبوط وسألوهم لماذا تقولون بارتقاء الفرد او الحلقة المفقودة بين الفرد والانسان ولا تقولون بسنة الهبوط من الاعلى الى الادنى فردوا حجتهم بوجود سنة الرقي بفعل التجدد من الادنى الى الاعلى .

اما قال علماء الاجتماع برقي العقول والافهام بفعل التجدد الدائم وإضافة كل مستحدث جديد حسن الى كل قديم حسن حتى ترقى العقول والافهام متطلعة من وراء هذا الصعود والرقى الى الكمال وان كان الكمال لله وحده ؟

اما قالوا ان الناس يعيشون بماضيهم ويهيئون الطريق لمستقبلهم بضم الصالح من الماضي الى الصالح من الحاضر حتى يصلوا الى الاصلح في المستقبل ؟؟

خذ بحث الاثريين في حضارة مصر فقط تجددهم يسألون عما اجتاحت تلك المدينة المصرية الراقية مذ وقفت ثم بادت ولو أنها لم تقف ولم تبد لوصلت اليوم بعد تجددها المتواصل وتقدمها الى ذروة من الرقي لا يستطيع الانسان ان يتخيلها وان خالها .

الذهب الى دار الآثار المصرية والى نظرة على آثار العصر الحجري

ودقق بما يعرض المينيك من آثار العصور الخالية متدرجا معها عصرا
عصرا. وقرنا فقرنا وجيلا فجيلا الى هذا العصر والجيل تجد التجدد
الدائم والتجدد الرقي المتوالي بواسطة هذا التجدد حتى يومنا الذي نحن
فيه والذي نتطلع منه الى ما هو اعظم واتقن واصلاح في المستقبل .

انظر الى هذا العالم المتمدن وابحث في أسباب تقدمه وورقيه من كل
وجه يظهر لك أن مصدر ذلك هو التجدد ومصدر التجدد ذلك التعاون
العقلي بين أممه وشعوبه حتى يتم أحدهم الآخر وحتى يعاون فكر هذا
فكر ذلك .

ابحث في تطور الاديان كلها بل في تطور الاديان ذاتها تجد أن نظام
الشعوب تحول من البساطة والسلاجة الى ما نرى في كل مذهب ودين .

فالتجديد في كل شيء أمر لا مندوحة عنه لصيانة ذلك الشيء من
الفناء والترقيته من الصالح الى ما هو اصليح . أما الجمود فهو مغاير
لبينة الوجود ذاته والطبيعة تأتي امرين اثنين : الفراغ والجمود .
فالجامدون يقاومون الطبيعة فقط ومن غالب الطبيعة فقد حكيم عليه
بالاندحار ومن جاراها في ناموسها فقد فاز وانتصر .

التجديد قديم — فلماذا يعادونه الآن

للكاتب الكبير عباس محمود العقاد محرر البلاغ

التجديد قديم :

في هذا القول شيء من الغرابة والتناقض الظاهر ولكننا لم نتمعه ولم نعد به أبسط الحقائق المشاهدة فاختر أي فترة من الزمن تتفق لك في تاريخ اللغة العربية لا تجد فترة واحدة خلت من كلمات جديدة داخلتها من اللغات الأجنبية وكلمات قديمة تبدل معناها فوضعها المعاصرون في غير موضعها عند المتقدمين ، وليس في تجديد اليوم شيء يأخذه عليه الجامدون غير هذا الذي كان في كل عصر حتى عصر الجاهلية وعصر القرآن . فقد تكلم العرب في بداوتهم الأولى بالكلمات الرومية والفارسية والهندية ووردت هذه الكلمات في القرآن الكريم . وما زالت ترد في كتابة كل كاتب بليغ من بلغاء العربية المعدودين . فلماذا يعادون الجديد اليوم ولم نجد له مثل هذا العداء بين المتقدمين ؟ ولماذا يشتد جامدو هذا الزمان في انكار أسر لم يشتد في انكاره السلف الذي يحتجون به ويرجعون إليه ؟

أوجز جواب عن هذا السؤال هو أن نجيب عنه بسؤال آخر وهو : ترى لو كانت الدولة الآن في العالم للأمم العربية أكان يفزع الجامدون في الجديد فزعهم هذا الاخرق العقيم وبيالفون في خطره على اللغة مبالغتهم التي ملكت عليهم أسباب التفكير الصحيح ؟ أكانوا يحسبون أن كل كلمة جديدة أو عبارة جديدة مودية باللغة وقاضية على فصاحتها وبلاغتها وآتية لها ببذعة ثم يسبق السابقون إليها ؟ لا نظن ذلك ، فقد ادخل

العرب في لغتهم أيام قوتهم وغلبيتهم مئات من أسماء الثياب والاثاث والعلوم والمخترعات غير خائفين على اللغة ولا وجلين من عواقب هذه التوسعة لانهم كانوا يأخذون تلك المفردات من أمم اضعف منهم وأقل شأنًا ، بل من أمم تدين لهم بالطاعة وتدخل في حوزة سلطانهم الكبير ، فلم يكن في ورود تلك الزيادة معنى الاغارة المخيفة والسطوة الخارجية وانما كاتب كالحزبية يأخذها السيد المعتز بنفسه الواثق بيومه وغده من عبده الذي يخدمه بلغته كما يخدمه بكل شيء عنده . ولولا ذلك لكان عرب الامس احق من جامدي اليوم بالفيرة على لغتهم من الطوارق الاجنبية ومدافعة المفردات والاساليب الغريبة التي تسربت اليها .

فاذا اغرب الجامدون اليوم في الفرع فانما هو فرع الاحساس بالضعف واقلته الثقة بالنفس وواسواس الخوف الذي يلبس للخائفين ملبس الفيرة والعصبية . وهذا في رأينا هو اقوى اسباب الاغراق في الجمود والثورة التي لا مثيل لها على الجديد . وهو فيما يخيل اليينا كضعف الغابر الذي يوقعه في الظفر الهرة والولاه لجاز به العدو شقة الهلاك .

وهناك سببان آخران لأشتداد الجامدين في زماننا هذا على التجديد وقد رأيت أنه ليس بالبدع الجديد ، أول هذين السببين أن التجديد عندنا « حركة تنبيهة » وليس بالعارض الذي يأتي من هنا وهناك ولا يتنبه اليه ، ومن عادة الحركات التنبيهية أنها تستدعي الانتباه اليها والعمل لمقاومتها لان فيها شيئًا من معنى الاستفزاز والاقتحام . فاذا سألت ؟ ولم كان تجديدا كذلك ولم يكن كتجديد السابقين . قلنا لعل السر في ذلك أنه اثر اليقظة بعد السبات الطويل والوثبة بعد الجمود وهو اثر لم يعالجه العرب في عهد الدولة وعنفوان الظهور .

والسبب الثاني أن الجامدين في زماننا يجهلون فضائل الجديد الذين يحاربونه ولم يكن للجديد في الزمن الغابر فضل مجهول ، وهل تحسبنا مبالغين اذا قلنا أنهم يجهلون « القديم » وهم يدفعون عنه ولا يحق

لهم ان يحملوا علمه في مواجهة انصار الجديد ؟ فان من هؤلاء الانصار لمن يعلم قديم العربية وآدابها فوق علمهم ويمجبه بها وببلاغتها اشد من اعجابهم ، فهي عصبية الجهل اذن لا عصبية المعرفة البصيرة والموازنة المعقولة بين ما يدفعون عنه ويحنقون عليه ، ولو عرفوا الجديد أو لو عرفوا القديم لكان لهم فيها اقرب الى الصواب وأدنى الى السماحة .

ان الجديد قديم لا جديد عليه في اساس دعوته غير احساس الضعف في الجامدين وحركة اليقظة في العصر الحديث وعصبية جاهلة في ادعياء القديم لا تستند الى غير صادقة ولا ادراك لما يخوضون فيه ، ولماذا تصنع المقاومة باسم القديم في سنة يتصرها الزمن بقديمه وجديده ؟ ثم اين هي هذه المقاومة ؟ انها انكار محض وليس فيها عمل وانشاء ، ولن يفلح الانكار المحض في صد حركة تندفع وتسير .

عباس محمود العقاد

بين القديم والحديث

عبد اللطيف الطيباوي

١

في الشرق اليوم نزعان تتصارعان : نزعة القديم ونزعة الحديث ؛
سنة من سنن الكون ونتيجة لازمة لعامل النشوء والتطور ومظهر من
مظاهر المحافظة والاعتداد بالنفس . نميل الى الجديد لما نحن مفطورون
عليه من الاعجاب والاستغراب ونحافظ على القديم لاننا لا نود امتهان
انفسنا والكفر بعاداتنا .

ويجتاز الشرق اليوم دورا خطيرا . ويسلك طرقا لم يمهدها من ذي
قبل . يسير مدفوعا مع تيار الحديث ويقف متهيبا امام جلال القديم .
فأيهما الغالب يا ترى ؟

الغالب في شرع الطبيعة هو الاصلح والانسب .

اذن بات من واجبنا ان نكون حذرين متيقظين . فان نحن اندفعنا
في تيار الجديد ونبدلنا القديم ورائنا ظهريا جاء مع هذا الجديد ما لا يتلائم
والروح الشرقية والمزاج الشرقي بل ما فيه تشويه لشخصيتنا التي
نحافظ عليها ما حيينا . وان نحن استمسكنا بالقديم رزحنا تحت نير
الجمود والتقهقر وتعلمر علينا مجارة الأمم الحية .

فما العمل ؟

أمامنا مشاكل عديدة يتناولها موضوع القديم والحديث : كيف
تؤسس قوميات متينة دعمتها السيادة الشعبية ؟

الى اى مدى نسمح لانفسنا باقتباس المدنية الاوروبية ؟ ما هي طرق الشروع في عملية الاصلاح والتجديد ؟

امامنا اكثر من هذه المشاكل .

فالمهمة الملقة على عواتقنا شاقة ولو بدت بسيطة لاول وهلة .
مهمتنا التوفيق بين القديم والحديث : لا نحب الغلو في المحافظة كما لا نرغب الافراط في التجدد .

نود ان نأخذ من المدنية الاوروبية ما يلائم مزاجنا والوسط التي نعيش فيه . وننبذ ما يتصادم والروح الشرقي من حيث العفة والايمان وكرم الاخلاق .

نود ان نهدم من القديم كل عائق لظهور الشخصيات والنبوغ .
نود ان نقضي على تباين الطبقات ونموض منها بالديمقراطية والمساواة .

من القديم ميراثنا القومي

وفي الجديد ميراثنا الاممي

لنا من القديم ميراثنا الروحي الذي اخذه الغرب عنا

ولنا من القديم ميراثنا الادبي العلمي الذي قدمناه للمدنية .

هذه قديمة عريقة في القدم ولكننا نموت دونها ولا نرتضي بها بديلا !

السنا نحن الذين لقنا العالم وحدانية الله ، السنا اصحاب مدنية

وثقافة كسائر الاسب ؟

هذه قديمة عريقة في القدم ولكننا نموت دونها ولا نرتضي بها بديلا !

عفوا . . . فان هذا لا يعني اننا لا نود ادخال شيء جديد الى آدابنا

مثلا . كلا ! فنحن في حاجة ماسة الى هذا الجديد ولا ضرر في ذلك لان

الادب كالعلم شركة اجتماعية اشترك في تحقيقها وحشدتها كل الناس

في كل عصر ومصر . وهي مال مشاع للجميع لا وطن ولا دين لها .

اجل . يجب ان نصطنع من الجديد ما يساعدنا على مجازاة الامم
وننبذ من القديم كل ما يعوقنا عن الوصول الى هذا الهدف . نحن
الآن مع التيار ولم نصل بعد الى الضالة المنشودة وهذا الدور هو اشد
الادوار واحرجها في حياة الشعوب والامم لانه يخشى عليها ان تفقد
شخصيتها التي عرفها بها التاريخ .

ان التيار لقوي جارف ومن الخرق الوقوف في وجهه لصدده . بل
ليسير مع الجهة الصالحة لاننا سائرون ورضينا ام كرهنا . والحكمة
كل الحكمة في سلوك الجهة الموافقة .

ليس هذا بهين . وعلى الذين يقودوننا في هذا السبيل ان يحاذروا
صوغنا في قالب غربي : فيجرفنا التيار ونكون من الضالين . ليس هذا
بهين لاننا نحاذر ان نخرج عن شريقتنا ونضيع شخصيتنا ولكننا لا نود
ان نحافظ على ذلك الشخصية وهذه الشرقية كما سلمها لنا الابهاء .

٢

ليس بيننا من ينكر اننا متأخرون عن الغرب ! ونحن لذلك نؤمن
بالتمدن الغربي كنتيجة صالحة للعقل الانساني في جملته ، فحق علينا
ان نقتبس منه اذن ما ينقصنا .

طل على الشرق الامل وهو شديد الاعتداد بالحكم الاوتوقراطي !
الم يحسن دور السيادة الشعبية وحكومة الشعب . نحن في حاجة الى
اقتباس النظم الدستورية البرلمانية . حمدا لله وشكرا : لقد نجحت
هذه التجربة في اكثر من بلد من بلدان شرقنا الادنى .

طل على الشرق الامل وحرية الفكر والاعتقاد فيه مغلولة وازفت
الساعة التي يجب فيها الخلاص . لقد حانت ساعة استقلال العلم والبحث
العلمي عن جميع المؤثرات من دين وسياسة فالعلم لا دين له ولا وطن .

بل ليمَ الا نأخذ من الغرب روح التعاون والاستثمار والعمل المشترك .

أقول والاسف ملء جوانحي اننا لا نقتبس عن الغرب الا كل ما يبعدنا من شخصيتنا ويذهب بكرم اخلاقنا . وقليلة جدا هي المقتبسات التي نعمل عليها في المستقبل كدعامة صالحة لبنيان قوميتنا .

نحن في حاجة الى اقتباس الصالح فلم نحجم عن ذلك ؟ اجبني ؟
ما عهدنا الشرقي جباناً رعيدياً .

لقد اقتبس الغرب عنا وجاء دورنا لنقتبس عنه فما الدنيا الا « يوم لنا ويوم علينا » .

... ولكن من يقوم بهذه المهمة الشاقة !

الشباب - الشباب - :

نؤمن بعزيمة الشباب ونوقن باصلاح الشعوب عن طريق التهذيب .

فالمهمة اذن - مهمة التوفيق بين القديم والحديث - مهمة الشبيبة المهذبة في بلدان هذا الشرق ! في الشباب اليوم عوامل تنزع بهم عن القديم وتسوقهم الي الحديث ولكن بتهور . فعليهم وهم أهل الحصافة والرأي ان يكونوا جديرين بهذه الثقة ولا يفرهم من الجديد مظاهره .

لا اخشى ان اقول ان الشباب اليوم في معتقدتهم وافتقارهم ودمهم شوقيون . وفي اساليب حياتهم وتفكيرهم غربيون أو شبيهون .

فعملية التصفية والاختبار سائرة سيراً حثيثاً . وهنا موطن الخطر .

هنا تختلط العقلية الشرقية بالعقلية الغربية وهنا تتصادم نزعات الشرق وميوله مع نزعات الغرب وميوله . واللبيب اللبيب من فاضل بين الاثنين وأخذ من كل شيء أحسنه .

على هذا الرجل وامثاله نعلق الآمال الكبار .

عبد اللطيف الطيباوي

الحديث السنة الثانية ١٩٢٨ ، العددان ٢ - ٤ .

الادب

((ب . النبال))

قديمه وجديده - وحظ العربية منهما

بقلم الكاتب التونسي صاحب التوقيع



باسم القديم والجديد تجري اليوم في بلاد الشرق الناهض معركة في الادب والاجتماع . فانصار القديم هم المحافظون على ما يمتاز به الشرق من علم وخلق وآداب فتراهم سريعي التشاءم في كل حركة تنزع بهم الى التطور والتجديد . فكانوا بذلك على عكس ما يفهمه المجددون من فلسفة الاجتماع . فالمجدد يرى ان العالم بما فيه قد تشبكت اوضاعه بغير الشكل الذي يتغنى به المحافظون . وان اعتزال الامم القديمة عن مجاراة المدنية الحاضرة مما يجعل بانقراضها وانحلال كيانها المتداعي . فالمجدد لا يتشائم من التطور كخصمه لان حضارة الغرب في نظره ارتكزت على دعائم لم يفقد بها الجنس خصائصه كما انها لم تقو على المؤثرات الموضعية ومفعول البيئات . فهي حضارة لا تخشى منها الامم على كيانها . بل فيها من الادب وتهذيب الخلق ما يبرز قوة الاحتفاظ بالوطنية ويزيد الناس علما بمعرفة الواجبات .

فمعركة القديم والجديد معركة عامة تدور رحاها على كل ما لا يتفق مع النظم السائدة بفعل التطور : ولكننا نشاهدها اليوم جليلة حول موضوع الادب . وجدير بالادب ان يشتد فيه اللجاج وان يكون في مقدمة ما يتنازع عنها من ضروب الاصلاح لا تتأني الا عن تطورات عقلية ونباهة حسية توقيظ

في شعور الامم . . والادب البليغ لائط بالنفوس عالق باعماقه الخفية فروعته كافلة بدفعها الى الاشلاء او الهدم . وبما اننا نشعر الان بمؤثرات تدفعنا عن اكراه او اختيار للسير في طرق تنتهي بقلاب عاجل او آجل نرى من الحكمة ان ناتي بملخص عن تاريخ حركة التجديد الادبي في فرنسا لنتمكن من التنظير بينها وبين الادب العربي بصورة مجملة . ونقد ما يجب انتقاده فقد آن اوان الاعتراف بالعيوب وجاءت ساعة التصريح بما هو كائن فالادعاء الكلاب ضرب من الجنون المزري وحماقة لا ترضيها النفوس الايية .

الادب المدرسي « كلاسيك » :

كلن مما شملته النهضة الحديثة في أوروبا وساق اليه نزوع أممها الى تكوين مميزات قومية : تثقيف اللسان الخارج وتأسيسه على بيان متين . فريضوا صيغه على تأدية مكونات النفس وتصورات العقول حتى كونوا لانفسهم لغة عامة في دوائر قومية ذات ادب يماشيا وينفعل بكل ما تنفعل به من نظريات فلسفية وحقائق علمية ولكن في القرن السابع عشر التبحر في الفلسفة النظرية ظهر على الادب طابع تلك الروح التي لا تؤمن الا بما هو صادر من العقل والى العقل مرجمة . فصار الادب رهين القيود العقلية والضوابط الصناعية نحو قرن ونصف . وواضعو هذه الطريقة المسماة بالطريقة المدرسية هم « كورنيل بوالو - راسين » فهؤلاء يرون « ان التخيل يجب أن يكون مقرونا بالتعقل وخير الشعر عندهم اصدق ولا يريدون باجتنااب المبالغة والقلو تصوير الحقائق تصويرا تاما لان المعاني في نظريهم يجب ان يلاحظ الحسن فيها مقرونا بحسب اللفظ وجماله » . وبما يرونه واجبا وجود الموازنة بين جميع الحواس . وفي تمثيل الروايات يشترطون وحدة الزمان والمكان والعمل . فلا يتجاوز الحادث الممثل وقوعه عادة (٢٤) ساعة ليحصل التأثير على المشاهد كما لا يتعدد بطل الرواية ويتفرع مرماها . واللؤلؤات في حكمهم يجب ان تصور الجميل البديع والجمال في مذهبهم يندر في ما تشمئز منه النفوس وينافي الادب ويميزون التأليف بتجافيه عن كل ما يستمد من الاراء الاجنبية . هذه خلاصة الطريقة المدرسية التي لم تلبث قرنا ونصفا حتى ناهضها المذهب الابداعي .

المذهب الابداعي « رومانتيك » :

الذي ظهر في المانيا بعد ظهور شكسبير في انكلترا ودخل فرنسا برعامة « شاتوبريان » قدوة « فيكتور هيكو » الذي قضى ببلاغته الجديدة الرائعة على الطريقة المدرسية .

فمن مميزات المذهب الابداعي اتباع اللهجات المألوفة وتوخي الاساليب المؤثرة على النفوس . والمثيرة للعواطف وتصوير المعجائب للتشويق والزيادة في التأثير . واستمداد المواضيع الشعرية والنثرية من الوقائع المحلية الجارية بين عامة الشعب . فهم لا يهتمون بدوق الخواص ولم تكن عنايتهم منصرفة الا للاهتمام بالدوق العام . حتى لقد قيل عن « شيلر » زعيم هذا المذهب في المانيا انه شاعر النساء والاحداث .

نكما ان الاسلوب المدرسي كان اثرأ من الفلسفة النظرية كان المذهب ظاهرة من ظواهر طموح الشعب في فرنسا الى الاستقلال بالحكم . فالدوق العام الذي استمد منه اشباع الطريقة الابداعية اصول مذهبهم في الادب أصبح هو الدوق المحكم بغيراضه او اقباله على بضاعة الشعراء والكتاب .

المذهب الطبيعي :

وفي منتصف القرن التاسع عشر ظهر المذهب الواقعي الذي ناهض المدرسي والابداعي معا بنظرياته الجديدة التي منها الدفاع عن الحقيقة . فيقولون « ان روايات الابداعيين سواء كانت تاريخية او موضوعة لا تفضل الفواقع المدرسية من حيث اعتمادها عن الطبيعة وما يذكرون عن ابطال العصور الوسطى وعن رجال زمن النهضة وعن الشرقيين ليس هو من الحقيقة في شيء » ونبذ أصحاب هذه الطريقة كل الاراء الابداعية ولم يقرؤا من بيانها الا اللغة فنبذوا « الدرام » والروايات التاريخية « وجعلوا موضوع كتاباتهم مقتطفاً من الحوادث الحديثة واقتصروا على

تمثيل مشاهداتهم فلا يثبتون الا الحقائق ولا يصورون الا طبيعة
الحوادث كما هي فيصفون مشاهد الحياة وصفاً دقيقاً يسهبون في
جزئياتها اسهاباً يحمل مشاهدتها على استطلاع الحالة والوقوف على
حقيقتها في فرانسا يأخذ كاتبهم بالوصف وتحليل الحوادث ومؤثرات
الاشخاص كأنه شاهد لا يعبأ بما يقولون . اما الكاتب في انكثرا فأنه
يقص ما يطرأ من السراء والضراء على أبطال الرواية متأثراً كأنه
يقاسمهم احوالهم .

هذه خلاصة في تاريخ الادب الفرنساوي رأينا من الضروري اثباتها
ليتسنى لنا الحكم على ما في العربية من فيود ثقيلة على ناحيتها
اللفظية والمعنوية .

اننا اذا تتبعنا ادوار الادب العربي لا نرى لها انقلابات كالادب الغربي
اذ ان الاخير قد احاطت به ظروف وعوامل شتى هذبت أساليبه
وأخضعته لناموس الارتقاء فالادب اليوناني الذي أعرض عنه العرب
وأسأثر بغنونه الغربيون كان يشمل القصة والانشيد المسهب اللذين
هما خير ما اخذه الغربيون لادبهم عن الاغريقيين ومع ذلك فالامم الاوربية
لم تمن بأدابها العناية التامة الا على اثر انقلابات علمية واجتماعية كبرى
كان الادب العربي منها محروماً .

كان الادب العربي ادباً خاصاً بالملوك ومن هم على موائد الملوك فهو
فكاهة المنادم وبضاعة المستظرف في الاستجداء وصاحبه لا يتخطى تلك
الاساليب المعينة في كتب البيان كالمديح والغزل والهجاء وله دو فتي
الجبل في قوله :

مطارف الإبداع

ان البس الشعر قوم

مداخلة او ناعسي

فليس بالقوم الا

بالشاعر الاجتماعي

ما فيهم من يسمى

أجل - ان الادب العربي قد أخذ بعض الحظ من عناية النقاد عناية صيرته قريب الشبه بالاسلوب المدرسي الذي تقيد به الادب الغربي وزج في دائرة الحدود الضيقة والقيود المرهقة . ففي صدر الاسلام كان الاهتمام بالادب من بواعث العناية بعلوم الدين ثم توسعت البحوث في دائرة الادب عينه فوضع الخليل قواعد الشعر المتهم بزيادة أوزان منها لم تكن معروفة عند العرب وأسسوا لصناعاتي الشعر والنثر قواعد اسمعى بها الافصح الخالي من التكلف . فتملأى الكتاب والشعراء في تنقاء الغريب من اللفظ والاكثار من محسناته البديعية وضيقوا على أنفسهم بالايجاز . فكان اكثرهم يومئذ لما يختلج بصدوره من المعاني ايماء كان الشرح والاسهاب في مذهبهم هجنة فقد سمع اعرابي قصيدة من شعر ابي تمام فقال : « ان في هذه القصيدة اشياء افهمها واشياء لا افهمها . فاما ان يكون قائلها اشعر من جميع الناس واما ان يكون جميع الناس اشعر منه » ومما يزيدنا علماً ان حبيب واضرابه كانوا يتكلفون الشعر قول القائل « يا ابا تمام لم لا تقول من الشعر ما يفهم » فاجابه بما يدفع عن نفسه غائلة هذا الاعتراض : « وانت لم لا تفهم من الشعر ما يقال » !

وضيق اهل الصناعة كلبي هلال العسكري على الشعراء فعملوا عليهم من جعل معنى البيت موقوفا على ذكر الموالى اليه . فهذا القيد مما يتعلم به الاسهاب وشرح المعاني النفسية وكشف ما هو مبهم في الضمائر بواسطة التعبير .

ووضعوا حتى لقصائد المديح اقساماً لا مفر للملاح منها فاجوبوا عليه ان يأتي بالنسيب بعد ذكر المنازل والاطلال وحددوا له اساليب التخلص فقال ابن قتيبة بعد تفصيله ذلك في كتابه (الشعر والشعراء) : فالشاعر المجيد من سلك هذه الاساليب وعدل بين هذه الاقسام وليس لمتاخر الشعراء ان يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الاقسام) ! . وابن رشيق يقول بما هو اخطر من ذلك « وللشعر الفاظ معروفة وامثلة مألوفة لا ينبغي للشاعر ان يعدوها ولا ان يستعمل غيرها » ! وهكذا افراط

النقاد حتى أخرجوا البغضاء أحراراً لا مزيد عليه . فعاب أبو الهلال
العسكري قول الشاعر :

بطاحي له نسب مصفي وإخلاق لها عرض وطول

لأن استعمال الطول والعرض خارج طريقة القدماء في الفرض الذي
عناه الشاعر ! وهكذا يتمادى في الأرهاق حتى يقول « ومن الألفاظ ما
يستعمل رباعية وخماسية دون ثلاثية . فينبغي أن لا يعدل عن جهة
الاستعمال فيها ولا يفرك أن أصولها مستعملة فالخروج عن الطريقة
المشهورة والنهج المسلوك رديء على كل حال » !

ومما أقعد الناس عن ابتكار المعاني وصرف همهم للاشتغال بما
سوي اللب قولهم (وليس الشأن في إيراد المعاني لأن المعاني يعرفها
الاعجمي والعربي والقروي والبدوي . وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه
وحسنه وبهائه ليس يطلب من المعاني إلا ما يكون صواباً) فهذه الصورة
المجتمعة النماذج القليلة من آراء أكابر النقاد الذين ظهروا بين القرن
الثالث والخمس تفهمنا سراً من أسرار الجمود الأدبي والفقر الذي
اعتل به البيان العربي في أجمل عصوره ! والولا شذوذ أفراد أدخلوا على
الأدب بعض الأساليب الأعجمية كابن المقفع وعبد الحميد الكاتب لقضى
الأدب نحبه وهو في ربوع ذويه وأحضان أهله .

ولا أحدكم من دولة السجع الطافية فإن كتب التراجم والقصص
وأسفار التاريخ لم تسلم من سماجته وآفاته ! وبلغ من كلف الناس به
أن أدخلوا على الشعر منه نصيباً ! ولا أدري كيف كان مثال الأدب
لو لم يك سجع الكهان مذموماً في نظر سيد بلغاء العرب - فانسجع وان
كان يعلب بترنماته الشعرية فالذوق يمجج الأكثر منه ولو كان كثيره
مشبوها بما يرد في الكلام عفواً .

ومن غريب ما رأيته في كتاب الصناعتين قول صاحبه في ما يتعلق
بالحديث الشريف (أعيدته من الهمة والسمة وكل عين لامة) والعدول

باللغة عن اللمة (رغبة في السجع) ! وقوله عن حديث « أرجعن
مازورات لا ماجورات » : وإنما أراد موزورات من الوزر فقال مازورات
بمكان موزورات قصداً للتوازن وصحة السجع !!!

فإذا كنت لا تجاسر عن تخطية أبي هلال العسكري في قوله هذا
فاني أستنتج منه استنتاجاً عظيم الفائدة . وهو انه اذا كان من المسموح
للكتاب في تفخيم كلامه ان يستبدل بلفظ « لصحة التسجيع واقصد
التوازن » فاي مانع من استبدال لفظ بآخر اذا كان الغرض اسمى من
التسجيع ودلت وضعية اللفظ الجديد من الجملة على معنى اللفظ
المستبدل - كقول جبران خليل جبران :

هل تحممت بعطر أم تنشفت بتور ؟

فان وضعية تحمم من البيت لا يدل على معنى غير الاستحمام .

فان لم نتواضع بأساليب بلاغتنا العربية ولو الى الحد الذي وقف
عنده صاحب كتاب الصناعتين من فهم حديثي السجع وارتفاع شأن
الضرورة الى مستواه اللائق ونعتبر اللغة كحق من حقوق بلغاء اللسان
من كل جيل - فسلام على العربية التي ستبقى ساكنة في قراوها سكون
الجماد الذي لا يتنقل . ولعلم القدماء أننا حين نشعر جميعاً بصحف
قوانا وخيبة جهودنا من تحريك ذلك الساكن فان أنظرونا ستتحول عنه
بفعل الاضطراب والغلبة لأن الزمان لا يهتم بعملنا طويلاً .

ب . التهل

مرامي التجديد

ما أحسب حركة لقيت من غموض التفسير والتدليل على مراميها الواضحة كالحركة التجديدية التي نادى بها المفكرون الاحرار بعد الحرب الكبرى ! .. وقد كنت احسب الى عهد غير بعيد ان هذا الغموض يقفه بالفئة الرجعية بافكارها وميولها وعقائدها والتي كانت ولا تزال حجرة عثرة في سبيل نهوض ورفي الامة واذا بي ارى الشك في صلاح التجديد ينفلد الى فئة من اراقى شبلنا الذين تقف مقومات نهوض الامة وتقدمها على جهودهم الفكرية وما تخطه براعاتهم من اراء حرة وافكار صائبة رجيحة .

فما هو موضع الغموض في الحركة التجديدية ؟ بل ما هو الجديد وما هي اغراضه ؟ وفي اي مدى يجب ان تبدى الدعوة اليه وعند اي مدى يجب ان تقف ؟ وبالتالي هل التجديد - كما يزعم بعض الكتاب - مطية من مطايا الاستعمار وسبباً من الاسباب المؤدية الى فقدان البلاد كيانها القومي ؟ ..

هذا ما فكرت به وانا اقراء بين يوم وآخر بعض الفقرات التي تجود بها اقلام بعض اصدقائنا المفكرين الذين لهم في قيادة الراي العام وفي الوصول الى ما ينبض به قلبه وتهجس به احلامه بعض النفوذ والاتصال . واذا كنت اقدر بحق اثر هذه الصيحات المنبثقة من قلوب مخلصه وعقول مفكرة رجيحة رايت من الواجب - والحديث تعني عناية خاصة بالدهوة التجديدية في سورية - ان نعود الى معالجة هذا الموضوع الذي يجب ان تبحثه الاقلام النزيهة باخلاص لنحدد اغراض التجديد والمقصد الذي يجب ان يبدأ وينتهي عنده واثر التجديد برقي الامة ونهضتنا

الفكرية لكيلا يكون تباين الآراء واختلافها بل واضطراب بعضها من الأسباب التي تزيد في محن هذه الأمة وتمرقل طرق نهوضها سيما في هذا العصر الذي تتسابق فيه الأمم بعنف وجهاد لتوطيد كيانها القومي على دعائم وطيدة لا يتسرب إليها الوهن ولا تهزها الزلازل والمحن .



فما هو التجديد ؟

انا لا انظر الى « التجديد » الا انه ثمرة حية من ثمرات الإصلاح الذي ينهض بنا نهوضاً قوياً في ادياننا وحياتنا الاجتماعية ، واذا قلنا « الادب والحياة الاجتماعية » فقد عينا عنصرين كبيرين من عناصر الرقي التي تركز عليهما النهضة الفكرية في بدء كل حركة ويقظة . ذلك لان من اوليات ما تعني به الحركة التجديدية هو تحرير الافكار من غشاوات الجهل وتعميم الثقيف بين طبقات الأمة وافتق الاذهان لمعرفة كل ما ينير طريقها في تلمس حقوقها وواجباتها مع اقتباس ما لدى المدنيات القديمة والحديثة من نور باهر يضيء ظلمات العقول ويزيد قوى الأمة قوة مع الاعتماد على كل السفاف والقشور وحتى التقاليد العمياء التي تميمت عناصرنا الخلقية وكياننا القومي وهاداننا المتوارثة القديمة التي لا تصطدم واضطراب الرقي الذي ينشأ مما نحن فيه من تدهور وانحطاط كل ذلك وغيره من الوسائل الثقيفية الحية التي تزيد نشاطنا وتعلو بنا الى المستوى الرفيع الذي تتبوءه اكثر الأمم والتي تتمتع من ثمار خيراته وبميزها عن غيرها في اديانها وعلومها ونمط تفكيرها وطرز معيشتها وفي حياتها الادبية والخلقية والاجتماعية وما تتسع اليه اخيلتها من الصور والرؤى التي تترك اثرها حياً في تاريخ نهضتها القومية . نعم ، كل ذلك اثر من آثار التجديد بل فيض حي من اغراضه السامية ، وما احسب احداً يفكر على رقي وطنه ونهوض أمته ويحرص الحرص كله على مستقبل هذه الأمة ذات الماضي المجيد الناصع الصفحات يجد في مثل هذه الدعوات البارة ما يتناكر وما يرمي اليه المخلصون .

وما دامت الاغراض واضحة جليلة لا غموض في ثنائياها وفيما تحمله من اصلاح واحياء وثورة عاتية على الخنوع الذي يزيد في تخدير العقول الواكلة والنفوس الضعيفة فما على الطبقة المفكرة الراقية الا أن تصمد للحادثات وان تقضي بقوة على الدجالين الذين يلطخون صفات النهضة بسوء ما ينفثونه من دجل وآراء هي وحي العصور المظلمة .

فإذا كنا وصلنا فيما عرضناه الى هنا بقي علينا ان نعرف أين تبتدىء الدعوة الى « التجديد » وعند أي مدى يجب أن تقف اغراضه وما من واقف على سير الحركة الفكرية الا ويعلم ان بدور التجديد بدأت يوم بدء المصلحون نهضتهم قبل ربع قرن أو أكثر يوم بدء المصلحون صيحاتهم وينفخون في صميم الشرق الناعس ان ينهض وان يستقيظ قبل ان يصبح لقمة سائغة للمطامع المحدقة به من كل صوب . واحسب لو ان الشرق لبى تلك الدعوات منذ الصيحة الاولى ولم يرتطم بخزعبلات « الحشويين » المملؤ تاريخهم الاسود بابشع الصور ، لو انه فكر بجذ وهذا بالحشويين وبما ينفثونه من سموم فتاكة ومشى في طريقه لما كانت اليوم هذه « المآسي المفجعة » التي تمثل على مسرحه ؟ ولقد كان « المصري » بالامس ملحداً زنديقا . وكانت الاصوات التي يرسلها « المصريون » من صميم افئدتهم اصواتا لا تتلائم وعقيدة الامة !.. وما أحسب نعمة الامس البالية الا ذات النعمة التي يرددها بعضهم اليوم ازاء الذين يعنون بالتجديد والاصلاح الذي ينقذ الامة من ضعفه وما في اخيلتها من ضلالات وينهض بها الى ارقى ما تحلم به من تطور ورفي ولا ناتي بالامثال على ما نقول فهي قريبة ماثلة من ذهن بنت اليوم بل هي بداءت منذ بدأ الشرق يستقيظ على اصوات المصلحين ، وقد تطورت مع الايام تبعاً لكل فكرة تخضع لنموس التحول ، فكانت تنهض تارة وتعثر اخرى وما زالت في سيرها حتى يومنا هذا ، وهي تمتاز اليوم في نشاطها وسيرها عن الادوار التي مرت بها ان روح الثقيف التي عمت مختلف الطبقات تدعمها دعماً قويا وتمسك بها عن الانزلاق في الهاوي السحيقة التي يوسع فتحاتها الحشويون !..

دعوة التجديد في الشرق قديمة ، وواصل الشرق الى ما وصل اليه من تطور ورفي هو اثر حي لهذه الدعوات التي حاربها الجهلاء عن طيش وخبل ، وسير الروح التجديدية وغمرها الشرق من اقصاه الى اقصاه بدون ان ترتطم بزعر الجهلاء وزميقهم من انصع الادلة على يقظة الشرق وتماسك ابنائه من ان تهز وحدتهم او تعصف بكيانهم المواقف ، وواجب المفكرين - وأريد غير واحد من رؤساء تحرير الصحف - ان لا يكونوا سببا لخمود هذه الروح المشتعلة وان لا يكونوا تكة للرجعيين الذين كانوا في كل مواقفهم اكبر خطرا يهدد الرقي متخذين الدين وتعاليمه السامية ستارا ينفذون من وراءه الى الافراض السافلة التي لم تلتئم قط وروح الامة في كل ما تطمح اليه من امان وآمال ويدهي اننا لا نريد الطفرة للشرق ولا نحب ان نسبق الايام في سيرها وان لا تكون المظاهر الخلابة وحالة ما تنفثه المدنية هدفنا بل نحب النمو التدريجي والتطور المستمر وان نأخذ من المدنية روحها ولبابها وان نخلق من ضعفنا قوة وان نسير مع الزمن بما لا يتناكر ومالنا من مجد واخلاق ومن عادات كريمة وسنن صحيحة . . . وهنا عند هذه الفضائل التي تسمو بنا الى العلاء يجب ان نقف حيث « التجديد » قد اوضحت اغراضه وقد انتشلنا من هاوية الدم الى الحياة .

وما احسب بعد الذي قدمته ان مفكرا مختصا يقول ان التجديد مطية من مطايا الاستعمار وانسه سبب من الاسباب المؤدية الى ان تفقد البلاد « كيانها القومي » :

« سامي . . . »

المحافظون والمجددون

التجديد يستلزم التساهل وحرية المناقشة

انسان المستقبل . كيف يكون

يقال أن الانسان مطبوع على التمسك بالقديم ، مفعول على اتخاذ خطة آبائه ومن سلفه . فهو ينبذ لاول وهلة ما هو جديد ويرأى أن يسير بموجبه (١) . أجل ، ليس التمسك بالقديم والمحافظة عليه أمرا مشينا . ولكني لا أرى أنه من الحكمة أن يظل الفرد متمسكا بالقديم محافظا عليه لمجرد أنه قديم أو ينبذ الجديد لأنه جديد ، دون أن يفسح مجالا للبحث والنقد والتفكير ، ليرى ما إذا كان هذا الجديد يعود عليه بنفع أجل من نفع القديم الدارس . فالفرد في هذه الحال ميت لا يستطيع التقدم بل هو كالمياه الراكدة لا تلبث أن تتجمع فيها الاقذار وتكثر فيها الجراثيم فتفسد . غير أنه قد يبدل الدهن القاريء أن فئة المحافظين أو المتمسكين بالقديم فئة مضرة . لا لست أقصد هذا : فكما أن الجواد الجموح يحتاج الى من يشد لجامه ليتدارك تهوره أو جموحه في السير هكذا المحافظون هم لفئة المتجذدين يقفون في سبيلهم يتداركون سيرهم السريع الذي قد يؤدي الى هفوات خطيرة . فكان المحافظين على غير ارادة منهم يجعلون الآراء الجديدة تتقدم ببطء وانما بقدم ثابتة لا تزال ،

(١) نلن ان الانسان غير مفعول على التمسك بالقديم او بالجديد وانما هو « يقلد » (اي يحاكي) ابويه وقومه . فهو مفعول على سنة المحاكاة والالتباس . فاذا كان الخلف يقتبس دائما من السلف يظل القديم مستمرا . هكذا قامت التقاليد . وذلك الاستمرار هو « الوراثة الاجتماعية » - المحرر .

اللهم ، اذا كانت هذه الآراء سديدة تثبت امام البحث والنقد ، على ان فئة المحافظين قد تأتي بضرر مبین ان هي حالت دون افساح مجال للبحث والجدال لان هذين الاخيرين مدعاة للتقدم وسعة الحياة والنمو .

لماذا نرى العلم سائرا في التقدم على قدم وساق في حين ان بعض اعتقاداتنا الدينية لا يزال اكثرها على ما كان عليه في ايام اجدادنا الاولين ، ومنها اعتقادات سخيصة تستوجب السخرية احيانا ؟ هذا لان المجال في العلم مفتوح لاستقبال ما هو جديد وطرحه على بساط البحث والنقد فيثبت ان كان صحيحا وينبذ ان كان زائفا . وما اتي به انشئين من النظريات الحديثة التي قلبت بعض نظريات نيوتن رأسا على عقب اكبر دليل على ما ذكر (١) .

واما الحال في الامور الدينية فهي خلاف ذلك . فعند البعض الجدال محظور في الاعتقادات الدينية والمناقشة بها ، فكيف يرجى تقدم آئند ان لم تحتك الآراء بعضها ببعض فيقضي صحيحها على زائفها ؟ غير ان هذا التضيق اخذ يخف نوحا في ايماننا هذه . ولقد قام كثيرون يدعون للتجدد وينزعون التطهير الدين من شوائب السخافة . وقد يتخطى هذا التضيق في حيز الحرية الفكرية واخفاء الحقيقة الى الامور السياسية . فبعض الحكومات مثلا تحظر على صحفها ومجلاتا نشر ابحاث تتعلق بالدعوة البلشفية ، فعندي ان كل تضيق من هذا النوع لعين الخطا ، بل هو جريمة ضد ناموس الطبيعة الذي يدعو الى التطور في كل ادواره ، واني ارى ان الجدال والمناقشة والنقد خير الوسائل التي تؤدي الى اظهار الحقيقة وازهاق الباطل .

(١) يقال ان نظريات انشئين صححت نظريات نيوتن ولم تنقصها - المعمر .

ملاحظة : معمر مجلة السيدات والرجال هو نقولا حداد . م . خ .

المصدر : مجلة السيدات والرجال ج ٢ س ١١ فبراير ١٩٢٠ .

الادب الجديد

يشير بعضهم في المرض الاسبوعية ، بحث الادب القديم والجديد ، وتلخص القصة في نزعة هذا البعض الى خلق ادب جديد . يطالع الجمهور بالآراء والافكار الجديدة في ثوب من اللغة جديد وبيان واسلوب هما في طرافتهما وجدتهما غير ما تعودناه واخذنا عنه من ادب اجدادنا الاقدمين .

حسن جداً افراغك آراءك وافكارك مهما كان لونها في قالب من اللفظ متين ، وفي لغة مشرقة قوية التركيب وفي بيان واستعارات وتشابيه ما عرفها الاقدمون من ادبائنا .

ولكننا نريد ان نسال ؟ - واحد هؤلاء الذين يشيرون الضجة يقول في تعريف نزعة الادب الجديد ما نصه :

نحن نريد ان ننفذ بكتابتنا الى قلوب سائر الطبقات المتعلمة على تفلوت درجات علومها وتباين مقادير ذكائها (كلا !) ونريد ان لا نكتفي بالكتابة الخاصة (كلا) التي هي في غير حاجة الى ما تكتب - وهي شجاعة في الاعتراف بالحق - او في حاجة ضئيلة الى نتائج قرائعنا وبيان شعورنا وتفاهم وايهام على يدهما « وكفى بالله الكاتب سوء التفاهم » .

هذا ما قاله احد هؤلاء في تعريف طريقتهم ، ونعود فنتساءل ما هو هذا الادب الجديد ؟ وكيف يكون ؟ وهو فيما عرّفه احدهم لا يغير من اصول اللغة واساليبها ! واذن فليس هناك حكاية ادب جديد ا. قديم وانما وسيلة من وسائل التادية والتجوير .

هذا ومهما ارادوا التزمير من نزعتهم فهي لا تملو التسمية والتحديد الذي حددنا به هذه المحاولة وهذا لا يمنع ان يكون في نطاق اللفظة التي نتكلم وفي حدود آدابها القديمة ، ولن نستطيع مهما اوتينا من القوة ومن عبقرية الاختراع والخلق الطلوع على الناس بلفظة جديدة لا يكون بيانها البيان الذي عرفنا في ادبائنا القدماء ولا يكون طريقتهما واسلوبها طريقة واسلوب اهل الادب الاقدمين واذا كان صحيحا ما يدعيه اولئك من نزعتهم الى الجديد في التعبير وفي الاستعارة والتشبيه فما تراه فاعلمين لو طالبناهم بان ياتونا بلبرع وارشق من هذا التعبير .

شدّ الذ من ابتداء الصين اغفاتها

احلى واشهى من منى نفس وقيل وجاهها

اللهم لو كان بعضهم لبعض ظهيرا وراحوا يكدون اذهانهم لما استطاعوا مثله ولما وجدوا اليه سبيلا .

اذن سموا الاشياء باسمائها وقلوا ان هناك الفاظوا فكلوا ومصطلحات لا غنى عن اختراعها او تركيبها او اشتقاقها للدلالة على مقاصدها ومعانيها اخترعتها ملنية العصر هذا ولم يعرفها اجدادنا واعيلكم ان تكونوا كالقزم المقعد يطاول اسباب السماء .

الديب الصفدي

بين الادب الجديد والقديم

خليل تقي الدين

الاستاذ الصديق خليل تقي الدين من ادبائنا المعروفين ينزع في الادب العربي نزعة تصويرية جديدة يريد معها ان يكون صورة حية لما يفكر ويتخيل وعلى ذلك كان من عصبه العشرة الذين يملأون صحائف المعرض الاسبوعي بما يمتقنون انه وسيلتهم الى تقرير مثل هذا الادب الجديد .

وقد كنا نشرنا في العدد الماضي مقالا اوليا تساءلنا فيه من هذا الادب الجديد وحدوده ومراميه وماذا يريد بهذه الدعوى اصحابها عصبه العشرة في المعرض وهم لا يستطيعون خلق هذا الادب على غير الاساليب والصور التي عرفناها في ادبنا القديم !

وارسل الينا حضرتك كتابا يعرب في جملته عن حيرة هؤلاء الادباء « عصبه العشرة » فيما يريدون وما يعتزمون فينبجا الكتاب هذا . يقول بالتحديد اذا به يقول بان المذهب هذا لا يعد خروجا عن الادب القديم - ذلك وحسب - وانما هم يريدون تصوير ما يشعرون وما يفكرون ويتخيلون وهذا اعتراف صريح بان ليس هناك تجديد وانما تصوير للمشاعر والخيالات الفكرية الحديثة ليس غير وهذا نص الكتاب :

بمقلين في ٢٢ حزيران ١٣٠٠

اخي الاستاذ الاديب .

سلام الله عليك ، وبعد فقد طالعني « الناقد الطريف » في هذه القرية الهادئة من قرى لبنان بمقال لك في الادب الجديد هو الرابع في موضوعه في هذه الاسابيع الاخيرة الاربعة تساءلت فيه مطلقا على مقال صدر اخيرا

في المعرض لآحد أفراد عصابة العشرة « فؤاد حبش » ما هو هذا الآدب الجديآ وكيف يكون وهو فيما عرفه آآدهم « آآذ الآذين يشيرون الضجة » لا يغير من أصول اللغة وآاساليبها وآآذن فليس هناك حكاية آدب جديآ أو قديم وآنما وسيلة من وسائل التآآية والتصوير .

فلآذا غضضت الطرف عن التزمير ومطاولة القزم للسماء واللعوى العريضة والضجة وما آلى هذه الكلمات التي نفحنا بها ، سآلتك آتجاهلا يا آآيب ؟ وهل يخطر في بالك أن كآبآ عربيا له ذرة من العقل يفكر في الطلوع على الناس بلغة جديآة لا يكون ييآنها البيان الآذي عرفنا في آآبآنا القدماء ولا يكون طريقتها وآسلوبها طريقة وآسلوب آهل الآدب الآقآمين .

بحق الجآفظ وآبن المقفع وآبي نواس من قال لك آننا نفكر في ذلك .

نحن نعلم أن لكل لغة من لغات الأرض أصولا وآاساليب آذا آنكرها الكآب وقع في الركآة والرتانة ، ونعلم كذلك أن آآبنا القديم بآمد الله غني زآخر بنتآج قرائح آآبآنا العبآقرة ولسنا نآعي آننا وقفنا على الآدب العربي القديم كله ، وليتنا نستطيع ! ولكننا قرآنا طآافة كبيرة منه قراءة تمكنا من الظهور في الناس بلغة آذا لم تضارع لغة الزمخشري والصاحب بن عباد فهي على كل آال لغة صحيآة سهلة مفهومة .

ولقد تسآلت في شيء كثير من التواضع ما هو هذا الآدب الجديآ الآذي نآعو آليه كآنك لا تعرفه ولا تحسه وآآنت الآديب .

وهل التجديآ غير أن يكتب الكآب ما في نفسه لا أن ينقل ما كتبه الآآرون عن نفوسهم ؟

آليس هذا تجديآ كآفيا لما نريد ؟ ثم الآ توافقنا عليه آنت الآذي أرسل المقال تلو المقال وكلها مليء حيرة وتساؤلا وعلامات استفهام وتمعجب وسخرية ؟

وليس ينحصر التجديآ في عصر من العصور ففيه يستوي القدماء والآآآئون .

قابو نواس والجاحظ وابن ابي ربيعة واضرابهم مجددون على بعد
الشقة بيننا وبينهم .

« وشيوخ الشعر والنثر » في الاقطار العربية اليوم - وهل لي ان
احصيههم وهم من الكثرة بحيث لا يحصون - مقلدون وان كانوا عائشين
بين ظهرانينا تواكلهم ونساكنهم ونعاشرهم والله مع الصابرين .

والفرق بين المقلدين والمجددين ان هؤلاء ينظرون الى اللغة كأداة
للإعجاب عما في النفس فهي ليست غاية في حد ذاتها بل هي سبيل الى غاية
سائية هي التعبير عما يحسه الانسان ويجول في فكره وفي مخيلته من افكار
وصور واخيلة وان اولئك - اي المقلدين - يعتقدون ان استعمال الكلام
الحوشي الغريب وزخرفة العبارات الفارغة غاية ليس بعدها من غاية اذا
بلغوها اطمأنوا اليها وما كانت هذه الزخرفة في نظرنا الا كزخرفة الرخام
يقام على ارماس لا تحوي الا الجثث والعظام .

واذا لم يتمكن المجددون من الوصول دفعة واحدة الى الغاية التي
يقصدون اليها وهي تعويد الادباء الاخلاص في العمل الادبي السامي واظهار
شخصية الاديب ومحو فكرة التقليد من رؤوسهم فهم على الاقل يلجمون
بعض ادمعاء الادب الذين يعتقدون ان المنابر وصدور الصحف خلقت لهم
اولئك الذين يقفون على كل منبر ، دعوا اليه ام لم يدعوا ويرثون كل ميت
ويمدحون كل كبير وينظمون الشعر كما تاكل انت او كما يدخن النارجيلة
معروف ! بربك اليس في اسكات هذه الابواق خدمة كبرى تؤديها الجراة
في النقد الى جملة « المنكوبين » بسماع هؤلاء المقلدين وقراءتهم كل يوم .

اطلت عليك القول عن غير قصد ولكن ما حيلتك بالقلم اذا مشى .

اخوك خليل تقي الدين

المصدر : الناقد - دمشق العدد ٨ / ٢٦ حزيران ١٩٢٠ السنة الاولى .

مذهب الادب العصري

يتغنى ادباؤنا ، واذا قلت ادباءنا فاني اعني طبقة القدماء منهم ،
بالادب وبنهضة الادب ونحن لو سألناهم اي أدب تعنون لما نطقوا جوابا .
ولماذا ؟ ؟

لان هذا الادب وهذه النهضة ليسا بالادب كما يفهم من الادب ولا
بالنهضة كما يعرف من النهضة وانما هما ذلك الاختلاج الذي يختلجه
التمساح بعد سكون سنين وقعود عمر لا لكي يسير في الهواء والنور وينتقل
من مكان الى مكان بل لكي يقلب من جنب الى جنب ومن جهة الى اخرى
قد ينام عليها مدة اطول من المدة الاولى وقد يموت عليها ولا رحمة عليه
ولا اسف .

لكل عصر رجال حسب دولته فالان ما الرجل العبي بالرجل
كذا لكل زمان السن نطقت بكل معنى جديدة غير مبتذل

هذا ما قاله الشاعر المجدد فرنسيس مراثى منذ نصف قرن وهو
يعني ان الادب لا يجب ان ينحصر بالتقليد كما كان في زمان هذا الشاعر
وكما هو الآن عند هذه الطبقة التي تحتكر الادب بل يجب ان ينزع الى
ناحية جديدة تتفق مع روح العصر وتوجد نواة ثقافة حديثة تكون اساس
حضارة المستقبل ، فاذا بقي الادب يقلد تقليدا ويطبع طبعا في عقول
الشعبية فالمعنى ان ثقافتنا هي كما كانت منذ عشرة قرون وان حضارتنا
منذ عشرة قرون وان حضارتنا الآتية هي ايضا كما كانت وكما هي
الآن وان حالتنا الاجتماعية ستكون اشر مما هي عليه بنسبة ما يطرا
على العالم من التجديد وما يفوتنا من اللحاق به .

شاع في أوروبا في هذين القرنين الآخرين عدة مذاهب في الادب خرج بها الادباء على القديم وتقليد القديم واستقروا على هذا المذهب الذي يعم اليوم القارتين أوروبا وأميركا ويعرف بالمذهب الطبيعي ، هذا المذهب لا يأخذ صفة من صفات المذاهب القديمة ولا يقلد مذهباً سبقه ولكنه مستقل بذاته يدعى بحق مذهب الادب المصري وإذا ما درسناه جيداً وجدناه يميل نحو المحسوس في الحياة فلا يعتني كثيراً بالخيال ولا يذهب مع الأهواء والعواطف ولا يخترع من عندياته مناج قد لا تتفق مع الحقائق وهو أقرب الى العلم منه الى التصور القصصي فالاديب الأوروبي المعاصر ليس اديباً يجيد درس الادب الذي كان شائعاً منذ قرون ودهور ويميل بنزعة الى هذا الاديب القديم المشهور او الى ذاك . لا بل هو ذلك المعلم الذي درس في مدرسة الحياة والطبيعة علمي النفس والاجتماع حسب القواعد الحديثة وجاء يطبقهما على احوال الناس وميولهم ويصور لهم منها صوراً تأخذ بمجامع القلب وتسلب اللب وترهب ذواتهم كما هم بدون تصنع ولا محاباة .

هذا النوع من الادب يوجد ثقافة جديدة وهذه الثقافة الجديدة تكون حضارة المستقبل وحضارة المستقبل مقياس رقي الأمم الأوروبية والأميركية فلذا ما تفاءلنا بمستقبل هذه الأمم فأننا انما نتفائل عن معرفة وإدراك كما اننا اذا ما تشائمنا من مستقبلنا فأننا انما نتشائم عن معرفة وإدراك أيضاً لان ما عندنا من مذاهب الادب وما ينتج عن هذه المذاهب من الثقافة يجعلنا نجزم بالمستقبل الرديء الذي ينتظرنا .

يقف الاديب امامك في هذه البلاد يكلمك عن الادب فتظنه سيتحدث اليك من نزعة جديدة يطمئن اليها فتركك ويسر بها قلبك ولكن سرعان ما يخيب ظنك اذ تراه لا يعرف غير القدماء وادب القدماء وإذا خافك الحظ معه فتسمع منه عن الجن والسحر والعرافة ما الى هذه الخرافات الشيء الكثير .

انا لا اقول هذا عن كل الادباء لانه يوجد ، والحمد لله ، فئة لا تقلد هذا التقليد ولا تذهب هذا المذهب القديم المعقم وهذه الفئة لم تؤثر بعد

في الادب وفي مذهب الادب واذا كانت لم تؤثر بعد في الادب وفي مذهب الادب فالمعنى ان هذا البحث والتقد لا يشملها الا من ناحية ايجابية اي من ناحية تحبذ رأيي ومذهبي ، فهذه الفئة نواة الادب العربي المعصري ان شاء الله وروح النهضة الفكرية التي ستعم الشرق في المستقبل .

في مصر كما في لبنان وكما في سائر البلدان العربية نزع ادب عصري جاءت بعد ان قام الدكتور طه حسين امام المجددين في الادب وعلي عبد الرازق وبقيّة من يجاريهما في نهضتهما ينادون بضرورة خلق ادب جديد وثقافة جديدة وان نسيت فلا انسى الاستاذ الكبير اسماعيل بك مظهر والاستاذ كامل كيلاني والاستاذ سلامة موسى الذين جاهدوا وما زالوا احسن الجهاد في هذا السبيل ولكن مع وجود هذه النزع فان الادب في مصر مازال مطبوعا بطابع المذهب القديم ومازلنا نقول عن مصر كما نقول عن هذه البلاد وبقيّة البلدان الشرقية انها لم تخرج بعد على الادب القديم ولم توجد ثقافة تكون اساس عظمة حضارة مستقبلها كما هي ثقافة الشعوب الاوربية والاميركية الحاضرة اساس عظمة حضارة مستقبل هذه الشعوب .

هذا التاخر الادبي في الشعوب العربية يرجع الى كون الاديب يهتم بنحو اللغة وصرفها ومعرفة شواذها اكثر مما يهتم بالعلوم والفلسفة وما انتجت العلوم والفلسفة من المذاهب والآراء ، واذا ما حصر الاديب اهتمامه بدرس اللغة فانه يميل بطبيعة الحال الى درس ادب القدماء واذا ما مال الى درس ادب القدماء فانه يفوس في بحر من المتناقضات لا يخرج منه الا فاقد الادراك الصحيح والتمييز التام منهد القوى لا يقدر ان يأتي عملا مفيدا . وكيف يقدر ان يعمل الحسن في الادب وهو راضخ الى هذه المناقضات والاهام ويخاف انه اذا ما ترك واحدة منها يتدرج الى ترك الكل وبعد ذلك يرجع كانه لم يدرس ولم يتعب هنا كل المصيبة لانه يضطر الى درس جديد وتعب اجد وهذا لا يقدر عليه ؟؟

هذا هو السبب في بقائنا مطمئنين الى هذا النوع من الادب ، فالاديب الذي امضى السنين في درس القدماء وادب القدماء لا يعرف غير القدماء

وادب القدماء ولما كان خوفه من تعب جديد وتمضية سنين عديدة في الدرس والتنقيب يمنعه من رذل هذا الادب الذي استظهره عن سطح قلبه ونقشه نقشا في فكره وصار يتلوه بدون كلفة ولا تعب ، فان الادب سيبقى مطبوعا بطابعه لانه يمثل الفئة الكبيرة من الادباء .

واذن ١١ .

فاني لا اقدر ان ابقى صلتا ولا بد من اثرة حمية بقية الادباء ممن ينزعون نزعة ادب عصري لتكوين بيئة تساعد في المستقبل من يسعده الحظ ولا يسير على المنهاج القديم لكي يحل شيئا فشيئا مذهب ادب عصري جديد مكان هذا المذهب القديم . تبنى عليه الثقافة والحضرة والرقى والتقدم .

لا احد يجهل السيد جميل صدقي الزهاوي الشاعر العراقي الكبير واحد اقرب الادب العصري الجديد . هذا الشاعر المحترم كان قد سئل من مجلة الهلال عن الكتب التي افادته فاجابها (سر النجاح) كتب علم الهيئة والفلك التي افها الدكتور فاندريك (كتب الصحة) كتب الكيمياء وبقية الكتب العلمية . فهو لم يقل لها كتب المبرد وابي علي القالي وابي تمام والزمخشري وسيبويه ، ولم يقل لها هذه الكتب التي تدرس اليوم في المدارس لتعليم الادب وهي ليست بكتب ادب بل قال لها سر النجاح وبقية الكتب العلمية ، والسيد الزهاوي كما يعلم الجميع شيخ جليل قد يكون الذي من امثاله قد نسي هذه الكتب التي ذكرها امام بقية ما درس من كتب القدماء ، ولكن شكرا لقوة العقل التي وان طمت عليها العوامل المتناقضة فانها تثبت وتثبت حتى الموت .

عندما ابتدأت بكتابة هذه المقالة تذكرت انتقادا كانت نشرته مجلة المعصور في مصر حول كتاب طبع في العراق ووزع هدية لمشتركي مجلة تصدر هناك ، وهذا الكتاب يبحث في تفسير رموز جبل قاف . ومن من اسيدنا الادباء اصحاب المذهب القديم يجهل جبل قاف ١٢ .

ولكي تدرك عظمة رموز هذا الجبل القاف وأهميتها فان المؤلف
استشهد بعشرات الكتب القديمة القيمة ؟ على وجوده ولم ير من
غضاضة عندما صرح ان بحثه وتنقيبه اثبتا له صحة وجود هذا الجبل
ولا خجل من نفسه عندما قارن بين ما ارتآه القدماء وبين ما يرتآيه هو
حول حل رموزه وقد تفضل وذكر صديقا له قرأ ذلك الكتاب الثمين ؟؟
ونعته بأعظم النعوت وأفخمها كحجة العلماء الاعلام ؟؟ وإواحد العصر
والدهر ؟؟ مما ينبو عن السمع . فهل من سخافة بعد أكبر من هذه
وهل من شك بعد بعقم هذا المذهب القديم في الادب ؟؟

بيد ان الامر لا يقف عند هذا الحد بل يتعداه الى تقديس بعض
الاشياء الطبيعية وتنجيس بعضها فقد ذكر ان استاذنا في علم الكيمياء
أخذ يشرح يوما لتلاميذه مبادئ هذا العلم وأولئك التلاميذ كانوا قد
دوسوا الادب حسب المذهب القديم وعرفوا منه ان الاشياء الطبيعية
بعضها مقدس وبعضها منجس فلم يتمهلوه حتى سئلوه : أمقدس هو
الأكسجين أم نجس ؟؟ حتى يعرفوا مقلبه في لائحة مقدساتهم
ومنجساتهم ؟؟ ويوجد مثل هذه الحادثة عشرات بل ومئات وكلها تثبت
ضرر هذا المذهب القديم في الادب .

صادفت بالأمس صديقا يتمسك بهذا المذهب القديم تمسكا أعمى
فسأله رأيه في هذه النزعة الجديدة فأجابني - ان الله سبحانه وتعالى
أراد بها تفكيك عرى الرابطة العربية واستعباد العرب لشروء بعضهم عن
جادة الدين القويم ، فقلت وهل من رابطة عربية لكي نخاف على قطعها
واستقلال لكي نخاف عليه فلم يرد جوابا فقلت له ثانية ان الحالة الحاضرة
ليست مما يخاف عليها فأكثرت من هذا التنافر لا يوجد وأكثر من هذا
الاستعباد لا يمكن ان يصير وإذا كان هذا فلا خوف علينا ولا وجل .
بمثل هذا الجواب اقنعت صديقي فذهب يضرب أخماسه بأسداسه
ويفتكر بسؤالي وجوابي .

فأسيادنا أصحاب المذهب القديم ينكرون كل شيء الا صوابية مذهبهم
في الادب وهذا من أغرب المناقضات .

قرأت في صغري من جملة ما قرأت أشعارا تنسب الى الجن وهذه
الجن قد لعبت دورا كبيرا في حياتي ثم ازل كلما اذكره اشعر بالحزن
والكلـ ، وقد جرت ان اقنع البعض من اصدقائي من اصحاب المذهب
القديم بعدم وجود الجن وبأن ما ينسب اليها من الاشعار منتحل فلم
اوافق . وكيف اوافق الى نفي وجود الجن وكتب اسيادنا القلماء محشوة
بها ؟ . وكيف يمكن ان تكون هذه الكتب مضلة ؟ . اما قالت الجن شعرا
ترثي به عمر بن الخطاب :

ابعد قتيل بالمدينة اظلمت له الارض تهتز الغصاه باسوق
جزى الله خيرا من امام وباركت يد الله في ذاك الاديم المبزق
فمن يسع او يركب جناحي نعامة ليدرك ما حاولت بالامس يسبق
قضيت امورا ثم غادرت بعدها بوائق في اكمامها لم تفتق
وما كنت اخشى ان تكون وفاته بكفي سبتي ازرق العين مطرق

واما قالت شعرا آخر تفتخر به بقتل سعد بن عباد : :

قد قتلنا سيد الخز رج سعد بن عباد
ورميناه بسهمي من فلم نخطيء فؤاده

وعدا هذا يوجد مئات من الاشعار التي تنسب الى الجن وثبت
وجودها .

يريد اسيادنا اصحاب المذهب القديم ان تؤمن بوجود الجن
والمفاريت وانها قالت شعرا وان العقل لا قيمة له تجاه هذا الامر الواقـ
المحسوس ؟ . وبعد هذا يتساءلون عن سبب ذلنا واستعبادنا .

رحم الله هربرت سبنسر ذلك الفيلسوف الكبير الذي علمنا تسلسل
الاشياء من بعضها وبين لنا خطأ اتكالكنا على الظروف والصدف واحيانا
على الله فهو في ابحاثه العميقة قد عرف الناس ارتباط الحالات ارتباطا

تاريخيا واظهر علة تاخر الشعوب واضمحلالها في كتابه الكبير « مبادئ علم الاجتماع » فتاخر الشعوب حسب رايه « وهو الصحيح » يرجع الى جمود عاداتها وتقاليدها وجمود هذه العادات والتقاليد يرجع الى كونها قديمة ، فالعادات القديمة تكتسب قوة من ناحية قدميتها وهذه القوة تزيد في بقائها وقدميتها ولما كانت الهيئات الاجتماعية مرتبطة بعاداتها فان احسنها تلك التي لا عادات قديمة جدا عندها تحول بينها وبين النمو والتقدم . على هذا المبدأ بقيت شعوب واضمحلت شعوب وتبدلت الانواع على وجه هذه البسيطة .

« اديب »

المصدر : مجلة النهود . بيروت العدد الاول . المجلد الاول . تشرين الاول - ١٩٣٠ .

اتجاهات التجديد

اصدر الاستاذ سليم قبّين صاحب مجلة « الاخفاء » عددا ممتازا اشترك في تحريره اكابر ادباء العرب كالدكتور طه حسين ومحمد فريد وجدي وخليل مطران وكامل كيلاني والدكتور ابو شادي وعيسى اسكندر المعلوف وغيرهم من الادباء وبعثوا غاية في الجودة والتمتعة ، وقد طلب اليّنا التزميل الكريم ان تكون لنا كلمة في هذا العدد . فنزلنا عند رغبته وهذه هي كلمتنا « اتجاهات التجديد » .

* * *

في الشرق العربي ، اليوم ، فكرتان تتصادمان : فكرة البعث والتجديد وملائمة روح العصر وميوله من جهة ، وفكرة الخنوع والاستسلام والرجوع الى الماضي والاحتفاظ بكل ما هو قديم من جهة أخرى . . .

ويمثل الفكرة التجديدية جموع الشباب المثقف وزعماء الفكر الحر ومن اخذ بنصيب وافر من حضارة الغرب وادابه ، ويمثل الفكرة الاستسلامية الخائفة فئات غير قليلة تعيش في فكراتها وهواجسها في صميم القرون الخالية ، ناظرة نظرة سوداء الى كل ما تقلده مدنية الغرب من خير وشر ، مبتعدة كل الابتعاد عن هذا « الجديد » الذي يحمل في طياته ارادته كل جرائيم أوروبا التي ستقضي على فضائل الشرق وادابه — كما يزعمون ! — ويقوي الصراع ويضعف كلما اخذ كتاب الفئتين يطرحون هذه الافكار على صفحات الجرائد والمجلات او يبسطونها فيما يخرجونه من كتب ورسائل ويبدو للقراء الذين يتلون ما يكتبه زعماء التجديد اننا قد التصقنا بصميم الحياة الأوروبية ، كما يبدو لشباب التجديد ان الحياة التي يحياها القدماء ليست على هامش القرن العشرين بل في كنف المصور الاولى للاسلام . وكلتا الفئتين تخطيء وتصيب فيما

تتصوره أو فيما يصوره لها الكتاب إذ ليس في الفئات التجديدية من يحيى تملأ - إلا فئات قليلة - تلك الحياة الأوروبية البحتة في جميع نزعاتها وميولها. وفيما تخلقه حولها من أجواء واضواء ، وليس في الفئة الثانية - الفئة التي تنعم بظلال الرجعية وتابى إلا أن تكون قديمة رغم مواضعت العصر - نقول ليس في هذه الفئة أيضا من ينكر تماما حقائق هذا العصر وما يفيضه علينا من نعيم ، وإن حياة أفرادها مجرد تكشف وزهد وخنوع واستلام ! ١٠.

فالواقع ، أن حضارة هذا العصر تنشر مبادئها بشتى الوسائل وينهل جميعنا ، وبدون تفريق ، من ينبوعها العذب وعصارتها اللذيذة المذاق . . واكل ما في الأمر من الفروق والتباين أن بعضنا تهضم معدته هذه العصاراة فيستزيد ، وإذا يستزيد تنكشف أمامه ، مع الأيام عوالم جديدة باسمته فيها كل ما يحقق اطماع القلب والعقل معا وبعضنا لا تهضم معدته هذا الغذاء المدهني الدسم إلا بمقدار فيأخذه بتأفف وينفر منه أحيانا وقد تضطرب معدته فيقيء ويلفظ ما قدم له ، شأنه شأن المريض الجاهل أو الطفل الغريب الذي ينفر من الدواء المر . . . وهو في نفوره وعناده وابتعاده عن هذه الادوية الناجمة كمن يحكم على نفسه بالموت المحتم مع أن في وسعه أن يشفي نفسه مما هو فيه إلى أن يقوى على السير رويدا رويدا وإذا يقدر له السير في الطريق يمكنه أن يجاري موجبات العصر ، وبالتالي يصبح عصبيا قويا في الكيان الشرقي المتوثب إلى الحياة والمتطلع دائما إلى ما في الأفاق البعيدة من عوالم حية غير مكشوفة ، وعندئذ يشوقه أن يعمل بنشاط وقوة لمحاولة كشف هذه العوالم والنفاذ إلى أدق أسرارها وأبعد خفاياها شأنه شأن الغربي الذي لا يفتأ - يعمل ليل نهار ودائما في سبيل هذه الحضارة والسهر على نمائها وبسط نفوذها في المناطق التي لم تصل إليها . . . وهو في طريقه هذا لا يكل أيضا بل يوالي البحث والاستقراء ويخلق إلى أن يكشف عوالم جديدة (تكون) ركائز قوية لتدعيم هناء البشرية على أسس جد قوية .

هذه هي الفروق الحقيقية لما يسمونه « قداماء » و « مجددين » من

ناحية البحث الاجتماعي . وهي فروق يمكن ان تزول مع الزمن القريب بل يجب أن تزول وان تلتقي خصومه الفريقين عند فكرة التمسك بلباب هذه الحضارة الراهنة التي تنتشر سهلة واضحة على لسان البرق والتلفون واللاسلكي ، وعلى متن القطارات والسباحات والطائرات والتي تلمسها عيانا في أمواج الكهرباء وتنتقل اليها على لسان الراديو ونحن متكئون على أرائك وثيرة بدون ان نثعب أو نجاهد جهود الجبابة في الحصول عليها .

ان هذه الحضارة المحببة الى كل نفس والتي تنقل الشرق من المجهل المظلم الى لباب العصر الخالي المشرق بكل استنباطاته العجيبة . . . وهذا الفيض المدني الذي ولدته حضارة القرن العشرين والذي يعطينا وسائل قوية لتختزل المسافات والابعاد ونطوف العالم بأسابيع ونكتشف ما لم يصل اليه أبائنا الأولون . . . وهذه المستنبطات الحديثة التي تكشف أمامنا هذه التيارات المفلقة وتتركنا في أضواء خالدة كأننا في هذه العالم المسحور الذي تعدنا به الكتب المقدسة . . . ان كل ذلك مما يحتم علينا أن ننسى هذه السفساسف الجدلية التي تثار أحيانا حول «القديم» و «الجديد» . إذ لا جديد ، ولا قديم . . فنحن تجاه حضارة عصرية راهنة نلتقي بها - شائنا أم أبينا - وجها لوجه . . وإذا كان من مسئلة يجب ان تثار فهي : هل في الامة العربية هذه القليلة التي تمكنها من هضم حضارة الغرب والسير في نفس هذه الاتجاهات التي تتجه اليها الامة الحية ؟ . . أنا لا أظن أن مفكرا يجب على هذا السؤال بالنفي . . فالامة العربية ، ذات التاريخ الناصع الصفحات ، لم تكن في يوم من خاليات ايلها امة خنوع واستسلام بل كانت مغامرة في فتوحاتها ، مجددة فيما تركته من ادب وحضارة لا تزال موضع بحث اكابر مؤرخي الغرب الذين كثيرا ما يقفون امام روائع الحضارة العربية مبهورين مشدوهين . . . وإذا كانت أوروبا في نهضتها الاولى لم تنتكب ان تأخذ حضارتها عن العرب بعد ان استروح نسيم هذه الحضارة المطر غير واحد من اكابر مفكريها ورجالاتها - وقد كان العرب في نظرهم آثد كفارا مسلمين ! . . - اذا كان الامر كذلك ؟ أفنتكب نحن عن ولوج هذا الطريق ونكون جامدي الاحساس بليدي الشعور لدرجة نقف أمام

حضارة القرن العشرين وجلين من الاقتراب من حماها بداعي أن حضارة
الافرنج - وهذا ما يقوله بعض غلاة انصار القديم - لا تتلائم وروح الدين
لأنها هي حضارة الاثم والفجور ومدنية الكفرة الاثمين !

هذا الهراء الذي تدعو اليه بعض الفئات الرجعية هو ما يجب
منازلته والقضاء عليه .١٠ ومن دواعي الفرح ان تكون المدارس المدنية
هي التي تقوم بنصيبها الاوفر بتهياة جيل جديد قوي المنازع في اتجاهاته
التجديدية للقضاء على مثل هذه المفكرات الواسخة التي ترجع بنا
عشرات السنين الى الوراء دون ان تمكنا من خطوة واحدة الى
الامام !...

ان اول ما يرمي اليه دعاة التجديد هو ان تتحرر العقول من قيود
الجمود ، وهذا اول منفذ للبحث والاستقراء والوصول الى نتائج
خطيرة في حياتنا العقلية .١١ ومحاولتنا اخذ لباب مدنية الغرب ليس
معناه القضاء على كياننا القومي ، بل بالعكس هو طريقنا القويم للاحتفاظ
بكياننا القومي وبهذه الخصائص النبيلة التي تميز الامة العربية عن
غيرها من الامم ويخطأ جدا من يحسب ان دعوة التجديد يجب ان تنتهي
بتلاشي وذوبان هذه الخصائص في بوتقة المدنية الغربية !... نعم ، ان
هذا خطأ فادح يجب ان يزول من الازهان .١٢ فدعوة التجديد دعوة
نقية الصفحات فيما تطبئه وما تظهره وواجب الامة العربية ان تنظر
اليها نظرة بريئة من هذه الاوشاب التي يلصقها بها حثالة من سقط
الناس قد ضاق تفكيرها عن بحث مثل هذه الامور البديهة فراحت في
ابطالها وخزعبلاتها تصور « التجديد » كويلات منقضة على اسس
الدين وان الشرق اذا ما استيقظ على وهج المدنية الوضاء فهو من
المهلكين !...



ان للشرق العربي عبرة باليابان والاتراك ..

فالامة اليابانية قد حاولت هذه التجربة الاجتماعية الخطرة منذ أكثر من نصف قرن ولا يمكن أن يقال انها لم تكن موفقة في تجربتها هذه .. كلا ! فهي في توفقها الاجتماعي والصناعي أصبحت تتلاقى وأرقى الامم الاوروبية والأميركية .. ولم يصب دينها الوثني ولم يتحطم كيانه القومي من هضمها عصارة المدنية الغربية ، بل بالعكس فقد كان ذلك قوة حية لخصائصها التي انبعثت من جديد لتساهم بنشاط وقوة في ميدان الحضارة الواسع الرحب وهذه تركيا أيضا قد أخذت تجرب هذه المحاولات التجديدية بقوة وعنف . وفي اعتقادنا أن مغامرتها هذه لا تعد تجربة بل نوعا من الايمان الصريح — هذا الايمان الذي يطلبونها أن تعتنق هذه المذاهب الجديدة التي خلقت حضارة أوروبا ومدنيتها خلقا جديدا ... ان بعض المتشائمين يذهبون الى أن تركيا في نهجها الجديد قد انكرت خصائصها « الشرقية » وتحولت الى أمة « اوروبية » في كل شيء ١٠. والواقع ان الاتراك لم يمتنعوا الأساليب الأوروبية الا ليكونوا أندادا للأوروبيين شأنهم شأن اليابان تماما . وهم مع اخذهم مظاهر المدنية الأوروبية من لباس وعادات ، هذه المظاهر التي هي أقرب للحياة المصرية من غيرها — نعم ، ان اخذهم هذه المظاهر لم يجردهم قط من خصائصهم القومية بل قد يكون له الآن حرص على هذه الخصائص منهم قبل أن يلبسوا لباسهم الجديد ١٠.

ولسنا نطلب ملامة العربية الافراط بما افراط به الاتراك ، كما لا نريد ان نقيّد نهضتنا وبعثنا الجديد بسلاسل من عبودية القرون المظلمة .. كلا !... بل ان ما نريده هو تحطيم هذه السلاسل التي تقيّد نهضتنا ، وتلك الصخور القاسية التي تعترض طريقنا ١٠. نريد ان ننزع هذا الفناء الكثيف الذي يعلو أدمغة المرجعيين وان نمزق تلك الحجب السمكة التي تربهم للعالم بلون قائم ..

هذه هي ، اتجاهات التجديد وهي اتجاهات لا خطر منها على

القومية ولا على الدين وقد آن للشرق العربي ، وبعض المنشائمين من
أبنائه أن يتركوا ، ولو الى حين ، هذه السفساف التي تثار باسم الدين
ثارة ... وباسم منعتات السلف تارة أخرى .. وان يكون نضالنا في
سبيل الحياة الجديدة . . هذه الحياة المبنية التي تحقق اطماع القلب
والعقل معا والتي نستشف من مولدها هذه السيادة العقلية بل سيادتنا
القومية المزمزة التي تتطلع الى صروحها المشيدة كل امم الشرق المجروحة
الكرامة .

ولعلنا فاعلمون .

سامي الكيالي

المصدر : الحديث ، السنة السادسة ١٩٣٢ ، العدد الثامن اب .

تقديم

محمد حسين هيكل

ثورة الادب

هذا الكتاب جديد قديم . هو قديم لان بعض فصوله نشر من قبل كما هو بعنوانه ، وبعضها نشر لم يغير منه الا عنوانه . وهو جديد من ناحيتين . الاولى واحدة الفكرة التي تنتظم فصوله جميعا . والثانية ان بعض الفصول جديدة لم يسبق نشره ، وبعضها مما سبق نشره زيد عليه او حذف منه ما يجعله يتفق وواحدة الفكرة ، وبعضها ألف من أكثر من جزء من عدة فصول نشرت ، وهذه الاجزاء جميعا تتسق من حيث الفكرة وتؤدي الى الغاية التي وضع الكتاب من أجلها . فالكتاب اذن جديد قديم . وأحسب طابع الجودة فيه أغلب لان الفكرة التي دعت الى نشره لم تكن بارزة في أي من الفصول التي سبقت الى نشرها بروتها فيه .

وقد اخترت له (ثورة الادب) عنوانا بعد ان جال بخاطري قبيل طبعه ان أجمل عنوانه (نحو الادب القومي) ، لان فصوله الاولى جميعا لا تتحدث عن الادب القومي وإنما تتحدث عن هذه الثورات المتصلة التي شهدتها نصف القرن الاخير في شؤون الكتابة والادب وتصف المجهود المتصل الذي قام به أصحاب المذاهب المختلفة في إقامة الادب العربي الجديد . والواقع ان هذا الادب العربي يضطرب بعوامل الثورة فيه منذ الثورة العربية في مصر ، ومنذ بدأ هذا الشعور القومي يحرك النفوس ويدعوها الى التوجه نحو النهوض بمجموع الامة الى مثل أعلى . من يومئذ بدأت الكتابة تخرج من الحظيرة الضيقة حظيرة الدواوين ، ومن النطاق المحصور نطاق التعليم ، لتتصل بالناس على اختلاف طبقاتهم ولتصور لهم من نواحي الحياة ما يريد الكاتب تصويره . وقد

كان هذا العمل وما يزال شاقا . فاية لغة يمكن أن تحقق هذه الغاية ويمكن أن تبقى مع ذلك على الزمان ؟ ليست هي اللغة الدارجة التي يتكلم الناس بها لأن لكل إقليم من الاقاليم لغة كلام تختلف عن لغة الاقليم الذي يجاوره ، وتكاد تنقطع الصلة بينها وبين الاقليم الذي يبعد بعض الشيء عنه . واختلاف لغات الاقاليم التي تتكلم العربية يجعل محالا وضع قواعد تنتظم هذه اللغات المختلفة . ولغات الاقاليم لم يكون لها أدب له من الاحترام ما يجعل بعثه موضع فخر ومجد . فلا بد إذن من أن تكون اللغة العربية الصحيحة لغة الكتابة ولغة الاتصال بالجمهور لكن هذا الجمهور لا يفهمك إذا خاطبته باللغة التي كان يتخاطب بها العرب الأولون . ولكن اللغة العربية هي كذلك لغة القرآن الكريم . فكيف ترتفع بالجمهور الى حسن ادراك لغة القرآن ، وكيف تقرب اللغة العربية الى إدراك الجمهور ؟... من الاجابات المختلفة على هذين السؤالين نشأت ثورة الادب خلال السنوات الخمسين التي انقضت حتى يومنا الحاضر . وفي خلال هذه السنوات الخمسين اخرجت الثورة صورا من الادب مختلفة في النثر والشعر يدرسها بعض المستشرقين اليوم ، وهي جديرة بالعناية والدرس من كل مشتغل بالادب معنى بتاريخ الكتابة العربية في العصر الاخير .

وكما ان الثورة العربية لم تنته الى اليوم لانها لم تحقق غاياتها ، كذلك لم تنته ثورة الادب بعد الى غاية . وكما أدت الثورة العربية الى الاحتلال البريطاني لهذه البلاد احتلالا اتجه بالثورة السياسية الى ناحية جديدة ، وكذلك اتجه هذا الاحتلال بثورة الادب الى ناحية جديدة انتهت عندها الصورة الاولى من الثورة ، صورة لغة الكلام ولغة الكتابة ولم تبق بعدها محلا لبحث أو جدل ، ولم يبق قط قائل باتخاذ لهجات الكلام أساسا للادب ، وحل محل ذلك ما سمي القديم والجديد في الادب واللغة . وقد احتدمت معركة القديم والحديث هذه منذ سنين طويلة وتنقل المحاربون فيها في ميادين مختلفة كانت هذه الميادين قبل الحرب تتناول اساليب الكتابة وتتناول الالفاظ العلمية وغير العلمية الجديدة كما كانت تمس في رافق صور الادب وما يصح أن تكون عليه . وإلى

يومئذ كانت الغلبة لانصار تقليد الادب القديم وكان السجع والاغراب في اختيار الالفاظ بعض ما يمتاز به كتاب العصر . وكان الادب الغربي يومئذ جديرا بأن يسمى الادب الكبير في النشر والشعر فقد كان الادب القصصي قد بلغ قمة مجده وكان كبار الشعراء قد اقاموا في لون العصر ما يقف الى جانب الالباب والانيادة في الادب اليوناني ، والى جانب شعر فرجيل من ادب الرومان . وكان كثيرون من شباننا الذين ذهبوا يتمون دراساتهم في اوربا يومئذ سواء منهم من وافدتهم الجامعة ومن اوفدتهم الحكومة من بعدها ومن ذهبوا يتمون دراساتهم العالية قد فتنوا اكبر فتنة بهذا الادب الغربي الكبير . فلما آن لهم أن يعودوا وكانت الحرب الكبرى قد اعلنت او قد انتهت كان هذا الادب الغربي الكبير في اوربا قد آن له أن يستريح بسبب انصراف النفوس في الغرب عنه . ويرجع هذا الانصراف الى أن النفوس شمرت بعد الحرب بفراغ هائل فيها كما شمرت في نفس الوقت باستهتار بالحياة أدى بها الى التهالك عليها . وما تريد بالانسانية خارجة من افطع مجزرة شهدتها التاريخ بعد ان ظلت خلالها أربع سنوات تباعا ترى الالوف ومئات الالوف والملايين يحصدهم الموت حصدا وهم في ريعان الفتوة وزهرة الشباب ! أية قيمة للحكمة في نظرها ولهذا القصد في الحياة نهل منها على مهل اذا كنا نجعل كل الجهد ما سنصير اليه في غدنا ، وهل سنظل في فتوتنا وقوتنا نستمتع بالعيش ونميمة او أنا سنصبح لا شيء كما أصبح ملايين غيرنا ؟ اذن فعلى الحكمة وعلى العقل العفاء ولنترام بكلنا في أحضان السرور نال منها في اقصر وقت اكبر حظ ما دمنا غير مؤقنين بأننا سناخذ حظنا منها كاملا اذا نحن تناولناه على مهل وبمقدار ما تطيقه قوانا الانسانية وكان من أثر هذه الحال النفسية على الادب ان اضطر كثير من الكتاب لارضائها وامتاعها بما تريد الاستمتاع به من شهوات صغيرة ولكنها مختلفة متفرقة لانها تقصد الى ارضاء شهوات النفس جميعها . وهذا النوع الصغير من الادب هو الذي تهافتت الجماهير عليه لا قدرا منها اياه ولا اعجابا منها به ، ولكن لانه يسد مطامعها ونهمها للمتاع كما تهافتت على غيره من بضاعة ربما كان فيها اضرار بها ولكنها تهافتت عليها لانها تسد حاجتها الى نسيان آلامها

وهمومها لتتمتع بسعادة مؤقتة زائفة ، ولكنها على كل حال سعادة ربما لم يتح لها ان تنال غيرها قبل هذا الغد الذي يخبيء لها ما لا تدري المرض او العاهة او الموت او البؤس الدائم .

عاد الشبان الذين اتموا دراساتهم في اوربا قبيل الحرب او اثناءها او في اعقابها ممثلة صندوقهم اعجابا بالادب الكبير الذي قرأوا والذي شهدوا على المسارح ، موجهة عقولهم توجيهها جديدا على الطرائق العلمية الحديثة . وعادوا فدخلوا الميدان بقوة ونشاط لم تر مصر مثلبا من زمن غير قليل الا من افراد قلائل موهوبين كان لهم اثرهم في توجيه التفكير المصري وفي مقدمتهم المرحومين الشيخ محمد عبده وقاسم امين كما كان بينهم بعض اساتذتنا ممن لا يزال اثرهم في هذه الناحية متصلا . وسبب قوة هؤلاء الذين عادوا الى الميدان ونشاطهم ان البعوث الى اوربا لاتمام الدراسات العليا كانت قد انقطعت زمنا غير قصير ولم تعد سيرتها الاولى في سنة ١٩٠٧ بفضل الجامعة المصرية فضلا تاثيرتها فيه وزارة المعارف في السنة التالية . اما قبل ذلك فقل من كان يسافر الى اوربا للقيام بدراسات عليا متصلة والشبان الذين كانوا يقصدون مختلف الجامعات في فرنسا وانكلترا كان اكثرهم ممن لم يلق نجاحا في مصر فلم يستطع متابعة دراساته في مدارسها . فلما عادت البعوث سيرتها واوقدت الجامعة من اوقدت واقتدت بها وزارة المعارف انتقلت العدوى الى بعض الافراد القادرين فذهبوا يتمون تعليمهم وعادوا بعد اتمامهم اياه فنقلوا ميدان القديم والجديد في الادب ووجهه وجه اخرى غير لغة الكلام ولغة الكتابة مما كان البحث فيه قد فرغ ، وغير اساليب الكتابة بعد ان اسبغ عليها امتياز شخصيات بعض الكتاب طبعاً جديدا نقلها من مجرد المحاكاة الى بروز الذاتية هذا الميدان الجديد الذي انتقلت المعركة اليه هو صور الادب وما يجب ان تكون . لقد انقضى عصر المقامات والترسل في نظر هؤلاء المجددين فلا بد من صور جديدة هي صور الادب القومي الكبير هي القصة والافصوصة وهي الشعر الوجداني والشعر التمثيلي .

وقد أعلن ثورة الادب هذه انها اقترنت بالثورة السياسية التي شبت في اثر الحرب الكبرى إذ بدأت في ٩ مارس سنة ١٩١٩ . لم يكن المصريون يطلبون في ثورتهم هذه الاعتراف باستقلالهم وسيادتهم ويطالبون حياة سياسية وصورة من الحرية السياسية على مثال ما في الغرب سواء ؟! فلتكن مظاهر الفن والادب مصبوبة عندهم في قوالب غربية لتكون آية للناس جميعا على تقدمهم وعلو انهم يسبقون الغرب الى مختلف ميادين الحضارة وقد يسبقونه .

ولم تكن ثورة الادب هذه ليغيب عن الالذهان جلال خطرهما ولا هي كانت اقل لفتا . لنظر الغرب بمن الحركات السياسية التي دمغها الطابع القومي والتي امتدت الى بلاد الشرق جميعا . وسهما تكن الحوادث قد غمرت زعماء ثورة الادب في ميادين السياسة فان جهودهم ظلت تراقب ذلك بان الادب واتجاهه في اية امة من الامم هو العنوان الصحيح لحضارتها وهو القوة التي لا تستطيع قوة اخرى كبها والقضاء عليها بالسهولة التي تقضي بها القوات المسلحة على الثورات السياسية وانما يقضي على ثورة الادب باندساس عوامل تفسد توجيهها . ويخيل الى ان مجهودا كبيرا قد انفق في هذا السبيل كما اتفق من قبل ذلك مجهود كبير للقضاء على حركة الاصلاح الديني التي بدأ المرحوم الشيخ محمد عبده والتي كانت جديرة بان تؤتي اعظم الثمرات ، وسهما يكن من امر هذه الجهود فان ثورة التجديد في الادب قد ظفرت بالقديم وقد جرت الى ناحيتها حراس حصونه حتى كادوا يسلمون المجددين مفاتيحها . لكن ما انفق من الجهود التي هيات الفوز فتح عيون اصحاب الجديد واسعة وجعلهم يتساءلون : ايان نذهب وملاذا اليه من جديدهنا نقصد ؟

وقد كان طبيعيا ان يقفوا هذه الوقفة وان يطرحوا هذا السؤال . الحضارة الانسانية ثورة متصلة مظهرها الادب والفن . ونحن في مصر وفي الشرق كانت لنا حضارات مختلفة انطوت ثم اخضعتنا الظروف لحكم الحضارة الغربية . وقد قامت هذه الحضارة الغربية اول قياها

على بحث فلسفة اليونان وتشريع الرومان واتجاه الادب الوجهة التي ترسمها هذه الفلسفة وهذا التشريع وما أحاط بهما في عضورهما من صور الفن والادب . ثم جعلت أوروبا تستقل بحضارتها رويدا رويدا لتقيمها على الاساس العلمي الذي وضعه ديكلوت في القرن السابع عشر ، ثم جعل هذا الاساس يتطور من بعد ذلك الى دين الطبيعة والى فلسفة التجريد في القرن الثامن عشر ثم الى العلم الوضعي والفلسفة الواقعية والى دين الانسانية في القرن التاسع عشر ، وذلك كله من غير أن تنقطع الصلة بين هذه الحضارة وبين اليونان والرومان من ناحية ، ومن غير أن تنقطع الصلة بينها وبين المسيحية من ناحية أخرى . صحيح أن هذه الصلة كانت صلة محلية وهم في احيان كثيرة . لكن الحضارة الغربية لم تقطع ، ولا تستطيع أن تقطع ، صلتها بهذين العاملين اللذين انشأها . والادب الغربي المعبر عن هذه الحضارة لا يمكن أن ينسى هذه الصلة . وتستطيع أن تقرأ في الادب الانكليزي أو الفرنسي أو الالماني أو ايا ماشئت من آداب الأمم الأوروبية وانت أبدا وأجد مظهر هذا الاتصال قويا واضحا . فلماذا عسانا نحن نصنع والى ادبوالى آية فلسفة في الماضي القريب والماضي البعيد يجب أن ننسب اذا أردنا به أن يكون مظهرا لحضارة ما ؟ وقف المجددون هذه الوقفة وواجهتهم هذه المسألة فلم يتردد اكثرهم في الاجابة بأن ماضيهم هو الاب الطبيعي لحضارتهم ولادبهم . اما القلائل الذين قالوا بالاخذ بالحضارة الغربية في كل مظاهرها وصورها على نحو ما فعل الاتراك فلم يجدوا لاقوالهم الا صدى ضعيفا زاده ضعفا ما قدمنا من فتور النفس الغربية بعد الحرب عن الادب الكبير . من هنا بدأت الصلة بين انصار القديم وانصار الجديد فبدأ هؤلاء يقبلون على تراث السلف ينقبون فيه بالوسائل العلمية الحديثة ، وبدأ أولئك يقرون هذا ويعتبرون في ثمرات الجهود التي يبذلها انصار الحديث في بحث الادب الجاهلي وادب عصور الاسلام المختلفة بعنا علميا دقيق التحقيق خطوة موافقة في سبيل اعادة الحياة الى حضارتنا الدفينة .

ولكن !.. ما هي هذه الحضارة ؟ عربية ام اسلامية ؟ سؤال

وجه وكان المستشرقون اشد ما يكونون جدلا بتوجيهه حتى لقد رأينا أخيرا طلابا وطالبات غربيين يقدون الى مصر وإلى مختلف جهات الشرق العربي يحاولون فيما يقولون تحقيق هذه المسألة ، يتصلون بكل من يتوسمون فيهم انهم رجال الادب الحديث ، ويلتمسون اليهم ان يدلّوهم على عقيدتهم العلمية في الامر . واشعر بأنني في حل من القول بان هذه الطلبة الغربية متجهة الى مثل هذا البحث ربما شابتها غايات سياسية تبرر الاعتقاد بان المسألة لم تثر للبحث العلمي وحده . وسواء صح اعتقادي هذا ام لم يصح ، وسواء اكان المقصود اثرة الخلاف بين المسلمين وغير المسلمين من الذين يتكلمون العربية . او كان المقصود به ان لا تفرق الى الاسلام حضارة ما ، او ان هذا ولا ذاك لم يكن المقصود وانما البحث التاريخي التزييه هو المقصود ، سواء اكان هذا او ذاك فانا نعتقد ان اية حضارة يجب لتقوم ان تتصل حتما بعنصر من الايمان . وقد خيل الى العلماء زمنا ما ان العلم سيفلّي النفوس بهذا الايمان ليقم دين الطبيعة على نحو ما حاول روسو ان يقيمه ، او دين الانسانية على ما وضعه اوجست كومت . لكن ما تم من محاولات في هذه السبيل لم ينجح في ان يقدم للجمهور الغربي ما يرضي طمعه الى رجله او امل في الطمانينة والسعادة . ومن ثم انقلب هذا المجهود الى الناحية المادية والاقتصادية وجعل منها كل رجائه في الحياة فكان من ثمره ذلك ما تعاني الانسانية اليوم من شقوة وبؤس زائدا في افراء الجمهور بالتشبه بهذا الامن وهذا الرجاء . فالنفس بحاجة الى رخاء في غذائها الفكري والعاطفي حاجة الجسم الى شيء من النعيم في حياته المادية ولذلك اندفع فلاسفة الغرب وكتابه وادباؤه يلتمسون هذا الغذاء النفسي في اديان الشرق وصور الايمان فيه . والادب كمظهر للحضارة لا غنى له عن تجلية جانب الايمان في النفس كما يجلو جانب العواطف المختلفة ، ولا غنى له عن ان يحلل هذا الجانب ويصف اثره في الحياة . وجانب الايمان في بلاد الشرق العربي قوي ايا كان الدين الذي يدين هؤلاء الشرقيون به . وقد كان الاسلام وما زال دين اهل الشرق العربي الا الاقلين منهم ، فلا يمكن ان يؤدي الادب رسالته اذا اهل هذا الجانب القوي من جانب حياة الشرق العربي واذا لم يحاول ان يصل ماضي

هذا الشرق بمستقبله الصلة التي تستقيم والتفكير الحديث . وقد تناولت هذا المعنى في خاتمة هذا الكتاب عن الادب والحضارة .

لم اغل اذن حين استقر رأيي على أن اتخذ « ثورة الادب » عنوانا لهذا الكتاب . فالادب في ثورة متصلة بالفعل منذ النصف القرن الاخير ، ثورة توازي الثورة السياسية المتصلة هي الاخرى في مسيرها وتعاني من صور الركود واليقظة والتقدم والتراجع ما تعاني زميلتها . لكنني لا بد لي من التنويه بأن هذا الكتاب لا يصور جوانب تلك الثورة تصويرا كاملا . واحسب دقة تصويرها ما دام اتصالها غير ممكن . وهو بعد ليس من عمل رجل مثلي لم ينقطع له وانما ألم به منه في اوقات فراغه وقد تكون الفصول التي اشتمل عليها هذا الكتاب بعض هذه الثورة في مختلف تطوراتها . ومن العسير على مشترك في عمل من الاعمال ان يقوم بتقدير آثار هذا العمل تقديراً دقيقاً على نحو ما يفعل الشهيد المراقب .

وما دمت قد اشرت الى ما بين ثورة الادب وثورة سنة ١٨٨١ وثورة سنة ١٩١٩ من موازنة فلا مندوحة لي من القول بأن عوامل السياسة التي حاولت صرف التيار السياسي في فواح معينة قد حاولت مثل هذه المحاولة في شأن الادب والكتابة . ولقد اشرت في هذا التقديم الى ما بذل لهذه الغاية من جهود عاقت سير الحركة الادبية وحاولت من غير نجاح كبير افساد اتجاهها . وليس موضع تفصيل هذه الجهود هاهنا . ويكفي ان اذكر ما كان من سعي متصل لجعل اللغة الدارجة لغة الكتابة وما كان من محاولة قطع كل نسب بين الحاضر والماضي ، ومن اظهر هذا الماضي في صورة زرية غير جذيرة بالاستعداد بها او باستلهاها . وقد وصفت في الفصل الذي يلي هذا التقديم صورة ما يصيب الادب في عصور الطفيان . ولعل هذه الجهود كان يصحبها من التوافق اكثر مما صحبها لو ان الحضارة الغربية بقي الايمان قويا كما كان ولو ان الادب الكبير علون على بقاء هذه القوة . لكن ما اصاب الادب الغربي في اعقاب الحرب مما وصفنا مضافة اليه نهضة مصر والشرق نهضة

قوية جعل الجهود التي انفقت لا تؤولى ما اريد منها من ثمرات وان جعلها تحول دون ثورة الادب والاستقرار الى ناحية تطمئن اليها .

واكبر اعتقادي ان هذه الثورة ستظل متصلة زمنا طويلا . فنحن ما نزال من بعد في بدايتها . وحسن توجيهها بحاجة الى جهود شاقة جبلة والى جود الطبيعة بالموهوبين الذين يستطيعون ان يطيعوا الادب بصورة تدعو الى استقراره وهؤلاء الموهوبون . وأولئك الذين يقومون بالجهود الشاقة لما يوجد منهم في الشرق العربي كله الا عدد قليل وبناء صرح الادب على الصورة التي تدور في نفوسنا ونرجو ان تراها اعيننا بحاجة الى كثيرين من هؤلاء المجاهدين والموهوبين . والقوى التي تعمل لتحول دون نجاح هؤلاء وأولئك ضخمة جبارة هي الاخرى . فرجاء استقرار ثورة الادب في زمن قريب فيه من التفاؤل ما نرجو وان كنا نرتاب أشد الريبة فيه .

والآن اختتم هذا التقديم واخلي بين القارئ وفصول الكتاب ولعله يجد من نفسه الصبر على تلاوتها من غير ان تملأ او تدعوه الى التشاؤم ولعله اذا استطاع ان يتم قراءتها يرى اني لم اقم بمجهود عقيم حين فكرت في جمعها وتنسيقها ثم نفذت الفكرة واظهرت اللأ على « ثورة الادب » .

محمد حسين هيكل

الابضاع والاتباع

جميل صليبا

في سوريا عددٌ غير قليل من المتعلمين تلقوا مبادئ الحضارة الحديثة وتغذوا بلبان العلم وتهذبت نفوسهم بالادب وتوصلوا بعد الملاحظة والتجربة الى درجة من الثقافة والتفكير قد لا تقل عن مستوى المتعلمين من رجال البلاد الاخرى .

إلا ان ارتقاء الفكر وازدياد المعرفة لا يقتضيان بالضرورة ارتقاء في الادب والاخلاق لان حكم الحال كما يقول الغزالي غير حكم المنطق والمقال . فقد تنمو المدارك العلمية ويتسع الخيال والتفكير وتجهد مع ذلك العواطف وتجف الميول وتنضب ينابيع الرحمة المنسجمة من القلب فليس كل ارتقاء علمي مصحوبا بارتقاء أدبي ، واقد تعرف الشيء ولا تعمل به وتدرك الواقع ولا تفكر في اصلاحه لان العلم بما هو لا يقتضي العمل بما يجب ان يكون .

واكثر الذين ارتقت معارفهم واتسع افقهم الفكري لا يزالون في اضطراب نفسي وتشويش عملي لان المثل الاعلى الذي تصوره اعلى من الواقع الذي غرقوا فيه ورغبوا في التخلص منه ولان الافق الذي ارتقوا اليه اوسع نطاقا من البيئة التي ضاقت باحلامهم .

بحثت مرة بين بعض الشبان من طلبة العلم عن الرجل الذي يرغبون في التشبه به وعن الصفة التي يريدون الانتساب اليها فحصلت على نتائج مختلفة تدل كلها على قلق النفس وفقدان الثقة وضعف الارادة ، فاكثر هؤلاء التلاميذ يريدون ان يكونوا مثل غاندي او مصطفى كمال او سعد زغلول او موسوليني او نابليون . واحسن المهن في نظرهم « السياسة »

— كما يقولون — والصحافة والمحاماة والطب والهندسة . ولعلمهم لم ينتخبوا هذه المهن الاخرة الا حبا بالسياسة فكان السياسة في أعينهم إله معبود او لعل خير دليل على قلقهم ترددهم في انتخاب المهنة وعدم ثقتهم بالمستقبل لانهم لا يجدون فيه الا شبهات في شبهات وظلمات فوق ظلمات ! ففيهم من يريد ان يكون مثل نابليون ، الا ان المهنة التي ينتخبها هي الطب ، ومنهم من يريد ان يكون مثل مصطفى كمال ويريد ان يكون في الوقت نفسه شاعرا . فهناك تضاد بين الغاية والواسطة وتردد في الارادة وضعف في الايمان والثقة .

ولعل للتقليد والاتباع اعظم الاثر في تكوين هذا القلق في نفوس الشبان لانهم يقلدون الحضارة الغربية تارة ويتبعون صور الحياة الماضية اخرى فيتشوش عليهم الانتخاب ويختلط الامر فتفقد افكارهم اتساقها وتصبح حياتهم العملية عرضة للاضطراب والتبدل السريع .

والتقليد يجعل الانسان شبيها بالالة ، ينقل عن غيره اصول التفكير والعمل من غير ان يتون له فيها حرية الانتخاب . واذا سار المرء زمنا على طريقة الاتباع دون الابداع ونسج حياته بقواعد النقل لا باحكام العقل اصابه ركود في الفكر وجمود في العواطف وصار كالالة يتحرك بغيره لا بنفسه واذا صار شبيها بالالة خسر صفقته وانحط الى ادنى درجات الحيوانية . واي حالة هي اشقى من حالة الركود الفكري والجمود النفسي . افلا يصبح الانسان فيها خاليا من الذكريات والافكار والרגائب ؟ كان نفسه قد خلت من التصور وقلبه قد تجرد من العاطفة او كان صبور الطبيعة المختلفة قد انقلبت الى صورة واحدة ، فلا ابتسام على ثغر الزهر ولا نور في اشعة الشمس ولا أمل في احمرار الشفق ! كان هذه الالوان قد تبدلت وانقلبت الى لون واحد غامض كما تتبدل الالوان الاشياء اذا رسمتها اشعة الشمس . وكان الفكر قد فقد نوره والعواطف قد اضلعت عدوبتها فانقلبت النفس من حالة الوحي الى حالة التقليد او من الحرية الى التقيد وهي حالة — اعيذك منها — اشبه بالنوم لا بل اشبه بالموت ، لان سكونها كسكون المادة وحركتها كحركة

الآلة فلا تتخيل ولا تبدع ولا تحلل ولا تتركب بل تقلد أفعال غيرها كما تعيد ذرات الهواء حركات الذرات المجاورة فهي كالمادة خاضعة لقانون الاستمرار لا لقانون الابداع .

وحالة الاتباع هذه على عكس حالة الابداع ، لان النفس في الاختراع تكون مسرحا للذكريات والافكار ، فتجري الصور امام مرآة الشعور كما تجري مياه النهر ، وتتسق في تماقبها كما تتسق النقرات الموسيقية . وتصدر المعاني العلمية والصور الفنية عن عوامل الحياة الكلمة وراء حجاب الشعور كما يفتح الزهر اكمامه بعد دبيب الحياة في الياف الشجر . يكون الانسان في هذه الحالة حديد البصر واسع الخيال ، يكشف في كل صورة من صور الوجود عن لون جديد ، ويرى في كل مادة حياة جديدة ، كأن لغته الوحي والالهام لا لغة القياس والبرهان ، لا يحتاج لسوى الحدس في الكشف عن الامور العلمية ، ولا يعرف غير الدوق في ادراك الامور البديعية ، يتوجه الى فضاء الفكر ويعلو في جو المعقولات ولا يحزن لتبدل الاشياء واختلافها ، فالمرئيات والمسموعات والمشمومات كلها ناطقة بما في نفسه ، والطبيعة لا تتحرك الا بما يتحرك به قلبه .

لقد وصف الفلاسفة هذه الحالة وقالوا انها حالة تتخمر فيها ميول النفس وراء حجاب الشعور فينبجس الاختراع على صورة وحي يسنده المخترع الى قوة مغلقة له مجردة عن ارادته . فالشاعر يعزو وحيه الى شياطينه والموسيقل الى الهته ، ويظن انه يكتب ما يمليه عليه غيره ، ويخيل اليه انه متبع في حين انه مخترع مبتدع . وهذا مخالف تملأ لحالة الاتباع لان المقلد قد يظن نفسه مبدعا للاحوال التي ينقلها عن غيره ، كالذي يجرفه السيل فيظن انه مخير في سيره ، وهو مسير لا مخير ، تقذفه الامواج ولا يخطر بباله ان يقف لمحة في وجهها .

على ان المخترع لا يخلو في ابداعه من اتباع المجاري القديمة التي حفرها قبله طائفة المخترعين لأن الهيئة الاجتماعية تؤثر في صور الابداع

كما يؤثر الاقليم في اشكال النبات والحيوان . وللاختراع البديعي اساس اجتماعي كما للاختراع العلمي . لان الشاعر والموسيقيار والعالم السياسي كلهم يستفيدون من الآثار التي حفظها الماضي في حوض الجملة المشترك . وهذا ما يمكننا التعبير عنه بقولنا ان الاتباع ضروري للابداع .

ولقد قال هنري برغسون ان ابداع المادة غير ممكن وان الابداع لا يكون الا في الصورة (١) فيمكنك تخليق الاشياء كل يوم بصورة جديدة . ولكن ابداعك لا يعدو التركيب . فانت انما تركب صورة جديدة من عناصر قديمة ، ولا تتخيل شيئا الا على اساس صور المواد المحفوظة في نفسك . نعم انك قد تتخيل حصانا مجنحا ولا وجود للحصان المجنح في الطبيعة الا ان الحصان والاجنحة كلها موجودة على انفراد ولولا وجودها لما استطعت ان تتخيل صورة مؤلفة منها . فالانسان يبدع الصور الذهنية وقد يبدع المعاني والافكار ولكن هذا الابداع لا يخرج عن كونه مبنيا على التجربة . اننا بأحلامنا نضع المثل العليا في السماء ، ولكننا اذا رجعنا الى الحقيقة عرفنا ان هذه المثل العليا منسوجة بخيوط الواقع . اضعف الى ذلك ان للابداع ، فنيا كان أو علميا ، انماطاً معينة لا يمكن التوصل اليها الا اذا اطلع المخترع على القواعد والاصطلاحات القديمة . وهذه الاصطلاحات السابقة لا بد للانسان من اكتسابها حتى تصبح عادة أو طبيعة له ، فاذا تعودها وصارت حاضرة في ذهنه امكنه بعد ذلك ان يضم بها شيئا جديدا الى حظيرة العلم والفن . فالمخترع لا يتقن ابداعه الا اذا استفاد من الماضي لان الاتباع ضروري للابداع كما ان العادة ضرورية للتفكير والحرية .

انظر الى الطريق الذي يسلكه العالم أو الشاعر أو الروائي في ابداعهم ، انهم يتصورون بالحدس ، كما قال (هنري برغسون) (٢) ،

(١) هنري برغسون ، التطور المبدع Evolution créatrice ص ٢٢٣ - ٢٢٧ .

(٢) الجهد الذهني (Effort Intellectuel) مقال نشر في المجلة الفلسفية Rev. Philos سنة (١٩٠٢) .

معنى مجردا بسيطا وخيالا عاما مبهما يقلبونه بالتدريج الى شكل جسي واصورة متشخصة . فهم يدركون النهاية قبل البداية ، ثم يعودون الى المبدأ فيفكرون في الواسطة التي يمكن الانتقال بها شيئا فشيئا الى الغاية . وعند ذلك تصبح الغاية المجردة حقيقة متشخصة . فالكتاب الروائي يتصور قبل كل شيء مسألة من المسائل الاجتماعية او قضية من القضايا ، ثم يجمع الحوادث ويصور الواقعات ويصف الاشخاص واصفا يستطيع به تحقيق الغاية التي يتطلع اليها . فالواقعات التي تخيلها والحوادث التي جمعها مقتبسة من الحياة الاجتماعية ، ولولا وجود هذه العناصر لما حصل التركيب . والله در ابن سينا حين قال ان واجب الوجود لا يهب الصورة للمادة الا عند استعداد المادة لها . فالابداع يقتضي اذن تخطيل المحسوسات المتشخصة الى عناصرها البسيطة ثم جمع هذه العناصر البسيطة ضمن مركبات جديدة ولذلك كان لا بد في الابداع من بقاء الآثار القديمة ضمن الصور الجديدة . وهذا ما يبعث على انتشار الاختراع وارتياح الناس اليه . والناس لا يرتاحون كما قال (ويليم جيمس) الا الى القديم ضمن الحديث ، ولذلك يقلقون امام الصور الجديدة التي لم يوالفوها ويتألون من الصور القديمة التي اصبحت بالية لا تتفق مع روح العصر .

والسوريون اليوم قلقون لانهم مترددون بين الماضي والمستقبل ، لا يعرفون أية صورة من صور الحياة يتبعون ولا الى اي قطب من هذين القطبين يتوجهون ، فالماضي يهزهم والحياة الجديدة تستفزهم ، الا ان الماضي المحسوس أثقل على كاهلهم من المستقبل المجرد . وهم ابوا او ارادوا سائرون بحكم الضرورة في تيار المدنية الحديثة .

ولعل ابداع صورة صالحة لحياة السوريين الجديدة لا يتم الا بتحليل هذا الماضي الى عناصره المقيمة . نعم ان البناء في الامم التي ليس لها ماض اسهل منه في الامم القديمة ولكن هذه الاخيرة لا تستطيع التجرد من جميع عناصر حياتها السابقة . فالهندس الذي يبني مدينة جديدة يخططها كما يريد ، ولكن المهندس الذي يصلح مدينة قديمة لا يستطيع

اصلاحها الا بالهدم والبناء معا . فهو يهدم البيوت القديمة ويستفيد من اوضاعها وانقاضها في بناء الشوارع الجديدة . يجمع الماضي الى المستقبل ويضع القديم في الحديث ، ولكن الصورة المجردة التي في نفسه هي اصل ابداعه . ولعله لم يهدم من البناء الا ما اوحى اليه به ابداعه . لان الفكرة كما قال ابن خلدون اول العمل .

ان اسباب القلق في نفوس الشبان ناشئة عن فقدان المثل الاعلى من نفوسهم وعدم وجود تفكير شخصي حر يتجردون به عن اتباع الآثار القديمة وتقليد الاوضاع الغربية تقليداً اعمى . ولو ابداعوا لانفسهم صورة جديدة لارتاحوا في الارتكاز عليها ... لولا الابداع لبقيت البشرية مظلمة كما كانت في العصر الحجري . فالابداع قد ملأ الحياة الاجتماعية بالصور الدينية والعلمية والفنية . وهي بالنسبة الى الحياة كالزهر بالنسبة الى الطبيعة . والتوازن المتحرك خير من التوازن الساكن ، لانه يدل على الحركة والتطور . ولعمري ، انني لافضل الحركة مع القلق على السكون مع الراحة ، لان الحركة اقرب الى الحياة والحرية . والمرء في التوازن الساكن يعيش مقلداً على نمط واحد واذا تحرك كانت حركته ميكانيكية . ولكنه في التوازن المتحرك يجدد نفسه وافكره في كل لحظة . وكما تقلب العادة الحرية الى قيد والنفس الى مادة ، فكذلك يقلب التوازن الاجتماعي الساكن واجبت الانسان الحر الى فرائض اجتماعية . فالابداع دليل على الحرية وهو بالنسبة الى العقل كالحرية بالنسبة الى الارادة واذا تكامل صار كما يقول ابن سينا في اعلى درجات التكوين ، الا ان الانسان بالرغم منه لا يستطيع التجرد من الماضي وكلما كان الماضي بعيدا كانت تقاليده ثقيلة .

جميل صليبا

المصدر : الثقافة - دمشق . العدد الاول - السنة الاولى . ٥ نيسان ١٩٣٢ .

التجديد في الدين

للاستاذ امين الخولي المدرس بكلية الاداب ١٨٩٥ - ١٩٦٦

مقال لمشروع القرش ، وحول مشروع القرش ، يحضر النفس ذكبر
الشباب ، والتضامن والاستقلال والحياة والقوة وتجديد مجد مصر ..
ثم نحن الآن في رمضان : صوم وزهد وتدين .. فمن تداعى هذه المعاني
ياتلف العنوان « التجديد في الدين » .

عنوان قد يطلع على البعض جريئا بل ربما كان مزعجا لكثير من
المتدينين الذين يتعجلون الحكم على الاشياء قبل اختبارها ويبتدرونها
بتلك الاحكام الغاضبة السريعة . فان يفعلوا ذلك قبل الفراغ من المقال
فهذا هو الذي يفقد احكامهم قوتها وحرمتها . وان يترثوا حتى يقرؤا
فسيروا انهم كثيرا ما يشودون في وجه من لا يستحق منهم الا التقدير .

عنوان قد يكون نابيا قلعا عند غير المتدينين . لانهم يرون في الشيوخ
صورة المحافظة المسرفة ، بل يعتبرونهم حجر عثرة في سبيل التجدد على
الاختلاف الوانه . ويحملونهم تبعة الكثير مما اوقف الشرق واخره .
ويرونهم جند الرجعية ومقلها . ويصدر الكثيرون عليهم احكاما رهيبة .
لكنها سرية قل من يجرؤ على مجاهرتهم بها . فاصحاب تلك الآراء والاحكام
قد يعدون هذا العنوان دعابة مازحة ومفارقة فكهة . لكنهم ان يتعجلوا
الحكم كذلك قبل ان يقرؤا فهذا بعض تطرفهم الذي يفقد جهادهم قوته
ويعوق نجاحه . وان يطمئنوا حتى يقرؤا فسيرون ان كثيرا مما ثاروا
فيه على الدين ليس من الدين في شيء وان الدين غير المنتسبين الى الدين .

العنوان حقيقة صحيحة صريحة لا فكاها فيه ولا مروق « ان شاء

الله . ففي الدين فكرة واضحة عن التجديد تبين ناموسا كونيا وتنبه الى سنة اجتماعية مطردة لا تتبدل . اذ ورد في الحديث « ان الله يبعث على رأس كل مائة سنة لهذه الامة من يجدد لها دينها » أو ما هذا معناه . وهو حديث صحيح نص على صحته متقدمون منهم البيهقي والحاكم ومتأخرون منهم ابن حجر والعراقي . . . وراجت فكرة التجديد في الاسلام وعني العلماء ببيان مجدي كل مائة وتعيين اسمائهم ، وأعمالهم والترجمة لهم . . . ولا أريد هنا وفي هذه الائمة الصحفية ، أن أعنى باستقصاء تلخيص فكرة « التجديد في الدين » بل اكتفي بأن أشير في ذلك الى مجموعة تنتظم من خير التجديد والمجددين صورة كاملة من الهجرة الى اليوم ، وهي تتألف من منظومة للسيوطي في هذا الموضوع سماها « تحفة المهتدين في بيان أسماء المجددين » ومطلع هذه المنظومة :

لقد اتى في خبر مشتهر رواه كل حافظ معتبر
بأنه في رأس كل مائة يبعث ربنا الهدي الامة
منا علينا عالما يجدد دين الهدي لانه مجتهد

وعلى هذه المنظومة شرح الشيخ محمد المراغي المالكي الجرجاوي الذي عاش في القرنين الثالث والرابع عشر الهجريين وسمى هذا الشرح « بغية المقتدين ، ومنحة المجددين » ، على تحفة المهتدين . . . الخ . . . شرح فيه منظومة السيوطي ثم أكمل أسماء المجددين نظما الى عصره وشرح نظمه على طريقته شرحه نظم السيوطي (١) .

وفي بيان الدينين لمعنى التجديد تراهم يقولون : انه نفع الامة ، ودفع المكروه عن الناس ، ونصرة الحق وأهله ، وأحياء ما اندرس من أحكام الشريعة ، وما هي من معالم السنن وما خفي من العلوم الدينية ويتجدثون عن تغير الحياة واستحداث أشياء تحتاج الى تناول جديد وحسبك من قولهم في معنى التجديد ماورد في المجموعة السابقة من

(١) ان هذه المجموعة مخطوطة في دار الكتب المصرية تحت رقم ١٩٨٧ تاريخ .

عبارة النظم والشرح ممتزجين وهي : « وانما كان مجدداً لانه اي المبعوث فينسا مجتهد وشأن المجتهد «التجديد . . . » ولئن اكتفوا في الازمنة الاخيرة بالاجتهاد المقيد فبحسبهم ان ناطوا التجديد بالاجتهاد وفسروه به وأبعده عن التقليد الذي هو آفة العقول وعلة الجمود . ونراهم حين يعدون أسماء المجتدين في كل طبقة قد يعددون المجتدين ويخصون كل مجدد بفرع من فروع العلم أو العمل . فيوسعون الدائرة توسعة محدودة .

تلك فكرتهم في تجديد الدين : وانها لفكرة في التجديد متزنة رزينة . مقدره لنظام الحياة وتدرجها معادية للجمود واقاضية عليه قاتلة لاهله واذا كان الدين وهو وحي الهي والاسلام وهو رسالة لا رسالة بعدها هو الذي يقرر لاهله أن نظام الحياة العاملة يحوجه الى التجدد ويهيئ الله له على الزمن من ينفي عنه مظاهر الجمود ، وعوامل الوقوف ؟ اذا كان هذا حال الدين ، وذلك شأن الاسلام ، فما وفق الحياة ، وظواهر المعيشة التي لا ثبات لها ولا استقرار ، والتي هي وليدة الظروف وصنعتها ، أشد حاجة الى التجدد والتغير واذا كانت البعثة الدينية التجديدية منة على المتدينين ، وفضلا من الله ونعمة ، فالمنتسبون الى الدين حين يقاتلون المبعوثين لهذا التجديد ، ويجمدون على ما وجدوا عليه آباءهم ، انما ينكرون نعمة الله ، ويصدون عن سبيله ويبغونها عوجاً - وما هم ببالغيه - وهم ، وبين ايديهم ذلك الاثر ، وعليهم ذلك الواجب لا ياثمون بجمودهم اثم واحداً ! بل آثما كثيرة : اثم لانهم لا يتجددون واثم لانهم لا يجددون واثم لانهم يعوقون المتجددين في تعنت أصم لا يميز الخبيث من الطيب مهما تباينا ولا يعرف داعي الله من داعي الشيطان .

مصر والتجديد في الدين

وما ننسى ان الكلمة لمشروع القرش وحول مشروع القرش فلنعد الى مصر المتجددة بجهاد شبانها مصر ذات الحيوية الفياضة وصاحبة

الشخصية الخالدة والتي اسدت الى الانسانية والحضارة اظهر الأيادي
 وأشرفها على تطاول السنين وتمادي الأيام . نعود لنقول ان مصر كعادتها
 في ذلك قد اضطلمت من تجديد الدين بالحظ الاوفر وساهمت فيه
 بالنصيب الاكبر على سعة الامبراطورية الاسلامية وتراحم أرجائها
 وانتظامها الواسع الأفيح اقطار الدنيا القديمة . فانت حين تعرض اسماء
 أولئك المبعوثين المجددين على رؤوس المئآت خلال الثلاثة عشر قرنا من
 تلرخ الهجرة تراهم يعدون هكذا :

في المائة الاولى عمر بن عبد العزيز

» » الثانية الشافعي

» » الثالثة ابن سريج العراقي او ابو الحسن الاشعري

» » الرابعة الباقلاني او الاسفراييني

» » الخامسة الغزالي

» » السادسة الفخر الرازي

» » السابعة ابن دقيق العيد الشافعي

» » الثامنة البلقيني او غيره

» » التاسعة السيوطي

» » العاشرة الرملي او غيره

» » الحادية عشرة عبد الله بن سالم البصري

» » الثانية عشرة الدردير

» » الثالثة عشرة أحمد الشرقاوي

» » الرابعة عشرة ؟

وتجبل نظرك في هذه الجريدة من الأسماء فتري - كما لاحظ
 القدماء أنفسهم - ان الكثرة المطلقة من هؤلاء المجددين مصرية رجال
 انجبتهم وآوتهم وعلمتهم مصر ذات الفضل العتيد على المدنية منذ

عرفها بنو آدم ، فبين هؤلاء الثلاثة عشر مجددا ثمانية من المصريين هم :
عمر بن العزيز وليد مصر الناشئ بها والشافعي الذي حمته وفيها علم
وابن دقيق العيد القشيري المنفلوطي ، والبلقيني المنسوب الى بلقينة
قرب المحلة والسيوطي والرملي المنسوب الى رملة قرب منية المطار
تجاه مسجد الخضر والدردير الصدوي والشرقاوي الجرجاوي ...
وان شئت عددت لمصر منهم تسعة فمصر في القرن الرابع عشر الهجري
هي قلب الشرق الخافق وعقله المفكر وقد تصدرت في شجاعة وبن
لحمل اعباء تلك القيادة منذ بدا ذلك الشرق يمسح عن عيونه آثار النوم
ويتهيا ليقظة نشطة باهرة تمدها عزيمة القاهرة تكتب له النجاة وترد له
حقه في الحياة ... ولا اريد اليوم ان اسمي مجددا هذه المائة او مجدديها
من المصريين حتى لا احلبي احدا ، ولا القن رايا وانما اترك الكلمة في
ذلك لشبان الشرق وشبان مصر .

يا شبان الشرق — ها انتم اولاء تطالكم قوى التجديد من حيث
تخشون عناصر الجمود ؛ وها هو ذا الاسلام الدين الحي يدفعكم دفعا
الى مسامرة نواميس الكون ؛ ومجاراة نظم الجماعات الانسانية ؛ وهذا
تاريخكم المجيد يغذي حاضركم الحديث فلا علم اليوم لكم اذا لم تثبت
تلك العزمات لتسمع الدهر صوتا طالما اصغى اليه ازمانا وحدا له فسر ؛
ومضى حيث صرفه واحتكم فيه .

يا شباب مصر : هاكم ماضينا مجيدا في الصدارة والزعامة ، لم
يدع ميدانا الا حله وها هي ذي مصركم معلمة الدنيا قد انتهت اليكم لواء
هذه الزعامة وقد بايعها الشرق وعرف مكانتها وهاندها الغرب وجحد
حقها . والحياة العاملة اليوم انما يكتب للامة الصانع والشعب الدؤوب
فلا بد ان تتصدر مصركم ما تصدرت من سائر الميادين قديما وسيبني
ثبات شبانها بمشروعهم العملي صروحا سامقة من القوة المادية تشهد
ان الذين عرف اسلافهم كيف يحمون الفلسفة ويمنعون العلم ويلبسون
عن الاديان يعرفون هم جيدا كيف يؤصلون الصناعة على اساس ابقى
على الدهر من الدهر .

● امين الخولي

المصدر : الرسالة ، العدد الثاني ، اول فبراير ١٩٢٢ .

من رسالة الى صديق

حول التجديد

احمد حسن الزيات ١٨٨٥ - ١٩٦٨

... الجديد جديد في مظهره ، قديم في جوهره ، لا يصلح موضعاً للدرس ولا موضوعاً لحديث .

ستقول : اذن ما بل هذه القصائد الرائعة التي يجلوها الشعراء والمفالات الرائقة التي يدبجها الكتاب ؟ فاقول لك انك اذن تفهم من كلمتي القديم والجديد غير ما افهم ، واتريد من مدلولهما غير الذي اريد . كانك تريد بهما ما كان يريده الاقدمون حين كانوا يتمازجون في شعر امرئ القيس وجريير وابى نواس وابى تمام والبحثري والمتنبي وابن هانئ . والاقدمون كما تعلم إنما كانوا يختلفون في شكل الشعر لا في موضوعه ، فهم يتكلمون في اللفظ الجزل والركيك . والاسلوب الرصين والمهلل . والمعنى المسروق والمطروق ، والتشبيه المنتزع من وجوه البادية أو من صور الحضر ، والمطلع الجيد والردىء ، والتخلص الحسن والقبيح ، ويجرون في كل ذلك على اذواق تختلف باختلاف الطبقات والبيئات والصناعات والاجناس . وعندهم في ذلك واضح . فالشعراء لاسباب فطرية واجتماعية ، لم يقدموا اليهم الا نوعاً واحداً من الشعر هو ما يتعلق بالوجدان والملاطفة . فكان النقاد امام وحدة الشعر العربي ونقصه ، مسوقين الى ان يقصروا جهودهم على لفظه : يحكون معدنه ، ويمجمون عوده ، ويسبرون غوره بالموازنة والمقارنة والتعقب . والشكل الخارجي حكمه حكم اللباس والاثاث والانية : يتغير بتغير الزمان والمكان والحالة ، ليس لاحد في ذلك حيلة .

فهل ترى أن أبا نواس مجدد بالإضافة الى امرئ القيس ، لأنه بدأ قصيدة بوصفه الخمر ، وتكلم في الفلمان والطرء ؟ أو أن المتنبي مجدد بالإضافة الى أبي نواس ، لأنه داف شيئا من فلسفة اليونان في شعره ؟ أو أن مطراننا مجدد بالإضافة الى المتنبي ، لأنه ذكر القطار والكهرياء ، ولون أدبه بأدب الغرب ؟ اني لا أرى في مثل هذا التفاوت الظاهري تجديداً ، ما دام الشعر قد ظل في كل هذه العصور واحداً في موضوعه وطريقه ونوعه ووزنه . . اما تغير الشكل فذلك فعل القانون العام الذي يغير أبداً كل شيء .

وهل قصد أحد من هؤلاء وأولئك الى هذا التجديد المزعوم فجاهد في سبيله أهل جيله ، كما فعل أرباب المذهب الاباعي (Classique) والابتداعي (Romantique) والواقعي (Realisme) في فرنسا مثلاً ؟ لم يكن شيء من ذلك ، لأنهم لم يختلفوا كما اختلف الفرنج في الموضوع والينبوع حتى تتباين الأغراض من تلك المواضيع ، وتشعب المسالك الى هذه الينابيع . واهل سمعت أن الناس اختلفوا يوم تركوا الطلبة الى الكوز والكوب والقدح والجام ؟ أم علمت انهم اختصموا كلما تغيرت موادها من الجلد الى الخشب ، ثم الى الخزاف ، ثم الى الزجاج ، ثم الى المعلن ؟ كلا ! لم يسمع أحد بذلك ، لأن اللبن والماء وهما القصد والغاية لم يتغيرا منذ خلقهما الله . أما حين تغير الشراب من اللبن الى الخمر فقد حدث الخلاف وتشعب الرأي وتعددت المناهج .

الحق أن التجديد لا يحدث ، والجديد لا يكون ، إلا متى وجد القصص والتمثيل في الشعر فيكمل ، ودخلت الاقصوصة والقصص والرواية في النثر فيتم . اما ادعاء التجديد بالدعوة الى العمامة وترجمة الاساليب الغربية فمعجز يتظاهر بالقدرة ، وجهل يتستر بالتحذلق !

١ . الزيات

المصدر : الرسالة ، العدد السادس ، اول ابريل ١٩٢٢ .

التجديد في الأدب

احمد امين ١٨٧٨ - ١٩٥٤

- ١ -

موضوع ثار فيه الجدل بين الكتاب ، واحتدم فيه الخلاف بين الباحثين . هل ادبنا العربي يحتاج الى تجديد ؟ وهل سواء في ذلك شعره ونثره ؟ وتعصب قوم للتقديم يدودون عنه ويحافظون عليه ، ولا يسمحون بأي تغيير فيه . وهب المحدثون ينمون على المحافظين جمودهم ، ينذرونهم بسوء العاقبة إن هم ظلوا متمسكين بالتقديم معرضين عن الجديد .

ولكن اسوا ما يسوءني في هذا الموضوع وأمثاله الغموض والابهام ؛ فلذا سألت المجددين ماذا يريدون بالتجديد وما ضروبه وما مناحيه وماذا يقترحون أن يدخلوه على الأدب العربي فجمعوا في القول وأتوا بكلمات غير محدودة المعنى ، ولا واضحة الدلالة . وقد يجوز إذا حددوا أغراضهم وأبانوا عن مقاصدهم ، أن يوافقهم المحافظون أو أكثرهم ، ولا يكون ثمة خلاف ، وإن يكن فخلاف معروف تقام عليه حجج واضحة .

من أجل هذا كله أحاول أن أعرض لوجوه التجديد التي يخيّل إليّ أنهم يريدونها ، وأدلي برأيي فيها ، وأدعوا الكتاب أن يساهموا فيها بأرائهم ، ويستتركوا ما يفوتني من حججهم وأغراضهم .

في أدب كل لغة عناصر ثابتة لا يعتريناها تغير ولا ينالها تجدد ، هي

قدر مشترك من الأسلوب والتراكيب وتأليف الجمل ؛ به تمتاز اللغة من سائر لغات العالم ، وينفرد أدب الأمة عن آداب العالم — وقدر مشترك من الفن ، ننبين به الجيد من الأدب في كل عصر وكل جيل ، هو فوق البيئة وفوق العوامل السياسية والاجتماعية ، وفوق ما يطرا عليها من كل تغيير .

وهذا وذاك هما اللذان يجعلاننا نتلوق الأدب الجاهلي ، ونذكر ما فيه من جمال ، ونشعر بما فيه من نقص . ويستطيع الأديب منا أن يعرف خير ما قال امرؤ القيس ، وما قال طرفة ، وما قال زهير ؛ وهو الذي يجعلنا نتلوق ما في القرآن الكريم من جمال في الأسلوب والمعنى . ونذكر ما في العصر العباسي الى عصرنا هذا من نشر وشعر ، ونزنه ونقومه . ونحكم على بعضه بالحسن والجمال والقوة ، وعلى بعضه بالضعف والقبح والقموض . ولولا هذا القدر المشترك لانقطعت الصلة بيننا وبين القديم فلا نحس له جمالا ، ولا نتلوق له طعما .

وهذا النوع من العناصر لا يقبل تجديدا ولا تغييرا ، اذ بتغييره تضعيف اللغة وتفقد شخصاتها ، فلو قلبنا تركيب الجمل رأسا على عقب ، أو لم نراع الوضع الذي تسير على نهجه اللغة ، لكان لنا من ذلك لغة جديدة ، ليس بينها وبين الأولى نسب .

وهناك نوع آخر من العناصر في اللغة والأدب ، خاضع للتغير ، قابل للتشكل ، يتأثر بالبيئة وبمرجحة الحضارة ، وبالأساليب السياسية ، وبالحياة الاجتماعية ، وبغير ذلك .

وفي هذا النوع يكون التغيير والتجديد . ومن أجل هذا التغيير كانت الفروق واضحة بين الشعر العباسي والشعر الجاهلي ، في التعبير والتشبيه والأسلوب والموضوع ونحو ذلك ومن أجل هذا امكن الأديب اذا عرض عليه نوع من الأدب ، ان يعرف عصره ولو لم يعرف قائله ، لانه يستطيع ان يتبين خصائص كل عصر ومميزاته ، ويطبق

ذلك على ما يعرض عليه من شعر او نثر . ومن اجل هذا ايضا نرى الفرق واضحا بين لغة الادباء الآن وبين لغتهم منذ عشرين عاما . وتجدر الفرق واضحا بين لغة الجرائد المصرية اليوم ، وبين لغة الجرائد السورية والعراقية ، وان كانت كلها تصدر باللغة العربية ، وتشترك في العناصر الاساسية .

وهذا التغيير او التجديد في الادب وتأثره بما حوله خضع له الادب العربي وكل أدب على الرغم من المحافظين والجامدين ، فقد رأينا في العصر العباسي مدرسة وعلى رأسها الاصمعي لا تحب الا الشعر الجاهلي ولا تحب من المحدثين الا من قلد القدماء . ورأينا من كان ينشد الشعر فيسئسئنه ، فاذا قيل له انه محدث استهجنه واتهم ذوقه ، ولكن هذه المدرسة اخضعها الزمن لحكمه ، ونشأ أدب عباسي جديد ، احتفظ بالعناصر الاساسية للادب العربي ولم يابه لما عداها واكن الفرق كبيرا بين الاديين كما قال الجاحظ : كم من الفرق بين قول امرئ القيس :
تقول وقد مال الفيض بنا مصا

ومول علي بن الجهم :

فبتنا جميعا لو تراق زجاجة

من الماء فيما بيننا لم تسرعب

وجاء المتنبي وعلى اثره الممرى فجدها في الشعر من ناحية الاسلوب ومن ناحية المعاني ، فانكر عليهما ادباء عصرهما نزعتهما الجديدة ، حتى رأينا من بين العلماء من ابوا ان يعدوها في الشعراء . ثم حكم الزمن على هؤلاء العلماء ووضع المتنبي والممرى في مكلفهما اللائق بهما .

وكان هذا هو الشأن في كل عصر ، حتى عصرنا الحديث ، نشأ قوم تأثروا بالادب العربي القديم وحلوا حلوه ، ولم يخرجوا قيد شعرة عنه . فلو ركبوا الطائرة قالو ركبنا الهودج والبحير ، واذا

استهلك البنزين قالوا رعت السعدان(١) ، وسموا الجنيهات الانكليزية
وعملة الورق دراهم ودنانير ، واذا لم يكن لهم من الامر شيء قالوا لا ناقة
لنا ولا جمل ، وهم في الحقيقة لا ناقة لهم ولا جمل ، الى كثير من امثال
ذلك .

وتأدب قوم بالادب الغربي الى ثقافتهم العربية ، فثاروا على كل
ذلك واختلفوا بينهم في مقدار هذه الثورة ، فقوم يريدون ان يتحرروا
من الاوزان والتزام القوافي ، وآخرون يريدون ان يتحرروا من التشبيهات
البالية والمجاز العتيق ، وآخرون يعافون بعض الاساليب القديمة ،
والموضوعات التي جرى عليها السابقون . وكان صراع بين الطائفتين
نعرض له بعد .

على كل حال دلتنا احداث الزمان على ان عوامل البيئة في التغيير
والتجديد ولا يمكن ان تقاوم ، كما دلتنا على ان ليس كل تجديد
يصادفه التوفيق ويتسع له صدر الزمن ، وفي نجاح من نجح من دعاة
التجديد وفشل من فشل منهم انما كان خاضعا للقوانين الطبيعية ظاهرة
حيننا وخافية احيانا ، وان نوع التجديد ان كان صالحا وكان مملا
تسمح به القوانين الطبيعية للادب فمعارضة المعارضين لا يكون لها من
اثر الا ان تؤخر زمن الاصلاح ، وهو واقع لا محالة يوما ما ، واذا لم
تسمح بها هذه القوانين كانت دعوة التجديد صيحة في فضاء ، او في
خطأ في ماء .

وبعد فأي انواع التجديد يتطلبه المجددون ؟ وهل من خير الادب
العربي قبوله او رفضه ؟

ان اول انواع التجديد وأبسطها تجديد الالفاظ ، لانها زيادة
الاديب الاولى ، وخيوطه التي ينسج منها قطعته الفنية .
وتجديد الالفاظ على ضربين :

(١) السعدان نبت من افضل مراعي الابل ، وفي المثل : (مرمى ولا كالسعدان) .

(١) اختيار الالفاظ التي تناسب العصر ويرضاها ذوق الجيل الحاضر لأن لكل أمة في كل عصر ذوقا خاصا بها تختار الفاظا تناسبها وتانس بها ، وتمج الفاظا لا يستحسنها ولا تستسيغها ، وذوق الامة في حياة مستمرة ، فهو كذلك في عمل مستمر ازاء الالفاظ ، وادباء كل عصر لهم معجم يخالف معاجم اللغة القديمة ، فلو ان اديبا استعمل اليوم كلمة « هَبِيخ » للجارية الحسناء لكفت في اسقاط قصيدته ابو مقالتة . ولو استعمل كلمة بعلق للمطر او السيل لدل على فساد ذوقه ، وسوء ادبه ، ومن اجل ذلك لا يستحسن في هذا العصر بعض ما كان يستحسن في عصور سابقة . فقد كان يستحسن من ابي الطيب قوله :

وترى الفصيل لا ترد فصيله الشمس تشرق والسحاب كتنهورا

والكن كنهورا ثقيلة في اللفظ كريهة على السمع ، وهذا بديهي لا يحتاج الى اطالة - وكل من جهل هذه الحقيقة لا يفلح ان يكون اديبا ، لقد اراد الاستاذان الشنقيطي وحمزة فتح الله ان يحيا غريب الالفاظ ويستعملاه في قولهم وكتابتهم ففشلا كل الفشل ، وكان الناس يستظرفون ذلك منهما كما نستظرف فتاة حضرية لبست ثياب بدوية وفهموا ان ذلك ليس جدا من القول ، وليس طبيعيا ان تعيش بدواة القرن السابع في حضارة القرن العشرين . انما يحيا الاديب يوم يوفق لاختيار الالفاظ الرشيقة التي تتناسب ذوق عصره ، والعصر الان اميل الى السرعة والاقتصاد ، وكلاهما يتطلب الوضوح والجلاء لا الغموض والغرابية .

لذلك أصبحت في معاجم لغتنا الفاظ كثيرة ليس لها قيمة إلا انها اثرية تحفظ فيها كما تحفظ التحف في دار الآثار .

والضرب الثاني : الفاظ تخلق خلقا .. تلك الالفاظ التي تسير المدنية الحديثة بكل ما اخترعت من أدوات وصناعات ، وما ابتكرت من فن وعلم ومعاني وآراء ، واللغة العربية اليوم ، قاصرة كل القصور في هذا الباب ، فليس لدينا الفاظ لكثير مما اخترع وابتكر ، وهذه مشكلة المشاكل اليوم وقبل اليوم تجادل العالم العربي فيها طويلا ولما يستقر على حال .

وكان لقصور الالفاظ اثر كبير في ضعف الادب . فكيف يستطيع
الاديب ان يصف حجرة وكل ما فيها من اثاث ليس له الالفاظ تدل عليه ؟
وكيف يستطيع الكاتب ان يؤلف رواية ، وهو في كل خطوة يعثر بمسميات
لا أسماء لها ؟ ولذلك يهرب كثير من الادباء من التعبير الخاص الى التعبير
العام ، فلذا اراد ان يصف رجلا يلبس طربوشا قال إنه يلبس عمارة أو
قلنسوة ، والحقيقة انه لا يلبس عمارة ولا قلنسوة ، وإنما يلبس طربوشا ،
واذا اراد ان يقول إنه يضرب على البيانو قال إنه عزف على آلة موسيقية ،
وهذا منتهى الفقر في التعبير .

كل هذا حقن الافكار في ادمغة الادباء ، وسبب ضعف الوصف والرواية
وغيرهما في الادب العربي الحديث ، وجعل الادباء يفرون الى الموضوعات
الانسانية العامة ، والافكار الميتافيزيقية ، فان نحن شئنا ان يكون الادب
ظلا لحياتنا ، وحياتنا الآن ، وجب أن نحل مشكلة الالفاظ حتى يطلق
الادباء من اغلالهم ، وإلا ظلوا يدورون حول أنفسهم ، وظل أدبهم غداء
ناقصا للامة ليس فيه كل العناصر التي لا بد منها للحياة .

وهناك تجديد في مناحي أخرى غير الالفاظ نعرض لها في مقالات تالية
إن شاء الله ؟ (*)



- ٢ -

عرضت في مقالي السابق للبحث في الالفاظ وما تتطلب من جدة ؛
واليوم أعرض لضرب آخر من ضروب التجديد وهو التجديد في العبارة .
وأعني بالعبارة الجملة التي يؤدي بها المعنى على اختلاف ألوانها ، من
حقيقية ومجاز وتشبيه واستعارة وكناية .

(*) المصدر : الرسالة العدد السادس • أول إبريل ١٩٣٣ . السنة الاولى .

ومما لا شك فيه أن البليغ يستمد تشبيهاته واستعاراته وما الى ذلك مما يحيط به من بيئة طبيعية واجتماعية . فالادب الجاهلي - مثلاً - صورة صادقة لمعيشة العربي في الجاهلية ؛ اذا بكى ، فانما يبكي الاطلاق والمنزل الدائر والرسم العافى . واذا رحل ، فعلى ناقة او بعير . واذا أعجبه ثبت ، فالشيخ والقيصوم ، والخزامى والعرار . واذا ذكر النسيم ، فصبا نجد . واذا حن الى مكان ، فموطنه من الرقمتين ورضوى وثبير . كذلك كان في تشبيهاته واستعاراته وأمثاله : يستوحى ما يحيط به ، ويستلهم ما يقع حسه عليه . فقال : استنوق الجمل ، وهو امز من الابلق المعقوق ، وأبدت الرغبة عن الصريح ، وهم أكثر من الحصى ، وهو ليث غابة ، وما تحل حبوته ، وألقى حبله على غاربه ، وقصرت الاعنة ، واشتجرت الاسنة ، وزلزلت الاقدام من رنين القسي ، وقزاع الرماح ، وطحنهم طحن الرحى ، ومطله مظل نعاس الكلب ، وكالباحث عن حتفه بظلفه ، وحط راحلته ، وضرب أوتاده ، وألقى عصاه ، والقافلة تسير والكلاب تنبح . الى كثير من أمثال ذلك - فهم في كل هذا يصفون حياتهم ، ويستقون منها تشبيهاتهم ، ويضربون منها أمثالهم .

وتتابع ادباء العرب بعد يزيدون في التعبير ، تبعاً لتغير المعيشة الاجتماعية ، وتقدهم في الحضارة . فقالوا : سندل الشراب وعنبره - وكان اخلاقه سبكت من الذهب المصفى - ويكاد يميل الظرف من اعطافه ، ويمزج الارواح لرقته - قد دس له الغدر في الملق - وهو من صياغة الكلام ، ويتطفل على موائد الكتاب - وكان الفاظه قطع الرياض ، وكان معانيه نسيم الاصال . وهكذا كانت العبارات المحدثه في العصر العباسي تخالف من وجوه كثيرة العبارات الجاهلية والاموية .

وقد جارى المؤلفون الادباء : يدونون ما اخترعوا ، ويقيدون ما ابدعوا . فراينا عبد الرحمن الهمداني يجمع في كتابه (الالفاظ الكتابية) العبارات المختارة من جاهلية واسلامية وراينا الحصري يملأ كتابه (زهر الاداب) بفصول يعنونها « الفاظ لاهل العصر » يجمع تحتها ما اخترعه اهل عصره من تعبير رقيق وتشبيه انيق . ونهج المؤلفون بعد هذا المسلك حتى

كان خاتمتهم ابراهيم اليازجي في كتابه « نجمة الرائد وشرعة الوارد
جمع فيه احسن العبارات والالفاظ مما قال السابقون والمحدثون
عصره .

وبعد ، فلو قارنا بين الادب العربي الحديث ، والادب الغربي في «
الباب ، اعني باب العبارة ، وجدنا في ادبنا الغربي قصورا ظاهرا
وضمعا بينا .

ذلك ان الادب الغربي ساير الزمن ، واعترف بكل ماحدث فيه
واستمد منه ، على حين أن الادب العربي الحديث اغمض عينه عن ذلك
ما كان ، ولم يعترف بوجوده . نظر الادب الغربي الى ماضيه وحاضر
ومستقبله ، ولم ينظر الادب العربي الا الى ماضيه . وزع الادب الغربي
لفتاته لينظر نظرة شاملة وثبت الادب العربي عينيه فيما وراءه ، فلم
ينظر الا الى قديمه ، فكان ناقصا ، لا يسايرنا ولا يصفنا ولا يمس حياتنا ،
وانما يمس حياة آبائنا .

اعترف الادب الغربي بالادب القديم فاخذ منه خيره ، واعترف بالدنيا
الحديثة فاستمد تشبيهاته واستعاراته منها - رأى في دنياه مخترعات
ومستكشفت لا حد لها من كهرباء ومواد كيميائية وطائرات وغواصات
وغازات واضواء وراديو ومالا يحصى كثرة . كل هذه الاشياء قلبت الحياة
الاجتماعية رأسا على عقب . فلماذا لا تقلب الادب ؟ فاقبل الاديب عليها
يتعرفها ويستلهمها تشبيهات واستعارات عصرية طريفة ، فكان له منها
ما اراد .

ورأى الاديب علم النفس ينمو ويرقى ويحلل اعمال الانسان تحليلا
علميا دقيقا ، ويعرض لكل المظاهر اليومية من ابتسامة وعبوس ورضى
وغضب ، فاخذ بحظ وافر منه واستعان به في ادبه وتعبيراته حتى استطاع
احد الكتاب الفرنسيين (وهو مارسيل بروس (Marcel Proust)
ان يحلل ابتسامة سيدة في ست صفحات ، ورأى نظمها في الحكم تقوم

وأخرى تسقط وكان لها من الأثر في حياة الناس وعقليتهم ما يخيّل اليك معها أنهم أصبحوا بها خلقاً آخر ، فجعل يتتبع هذه التغيرات ويقتبس منها ما شاء ذوقه الأدبي .

كل هذا وأمثاله جعل الأدب الغربي يسير محاذياً لكل نظم الحياة ويشاركها في رقيها واتجاهها ، أن استضاء الناس بمصباح كهربائي فالأدب يعبر عنه ويستعير منه ويشبه به ، وأن كان نظام الحكم ديمقراطياً فالأدب ديمقراطي ، والصور التي يصورها ديمقراطية ، ويتعمق السيكولوجي في بحثه فيتعمق الروائي في تحليل شخصيات روايته ، وهكذا كانت الاختراعات والصناعات والعلوم ونظم الحكم والسياسة والأدب تسير معاً ، لا يخطو عنصر منها خطوة إلى الأمام حتى يدرك الآخر سر تقدمه فيعمل على أن يحتذيه . أما الأدب العربي فيحارب متراليوزا بقوس وسهم ، ويضيء في أدبه سراجاً بزيوت ، والناس اليوم قادمون على أن يغيروا المصباح الكهربائي بخير منه ، ويبيكي الاطلال ولا اطلال ، ويحن إلى سلع ويستطيع الخزامى والعرار ولا خزامى لدينا ولا عرار . من الحق أن نحب القديم الجميل ونحفظه ونتعلم منه ونعجب بما فيه من مظهر عاطفة حية وشعور قوي ، ولكن لا ننشئه . وإذا قلناه يجب أن نقول معه ما نحبه ونعيش فيه :

إذا أنت لم تحم القديم بحادث من المجد لم ينفعك ما كان من قبل

وقفت العبارة العربية حيث كانت في العصر العباسي ، ولم تتقدم إلا قليلاً بما اقتبس من الأدب الغربي ، والذي نتطلبه من التجديد فيها أن يستمد من حياتنا الواقعية ، ومن كل ما يحيط بنا جملاً حياً تلائم ما في نفوسنا ، وأن نخترع عبارات من المجازات والاستعارات والتشبيهات الكنايات نستمدّها من الحياة التي نعيشها ، والمخترعات التي نستخدمها ، ما وصلت إليه علوم النفس والاجتماع والسياسة والاقتصاد .

وقد عاق الادب العربي الحديث عن الوصول الى هذه الغاية عوائق كثيرة أهمها :

(١) ما سبقت الاشارة اليه من أن المخترعات ليس لها أسماء ، وأن أئمة اللغة لم يرضوا أن يستعملوا الكلمات الاجنبية ولا وضعوا لها أسماء عربية ، وتركوا الادباء في حيرة من أمرهم ، فكيف يستطيعون أن يستلهموها في جملة لتكسب المعنى قوة ، وهم يفرون من التلفظ بها ، ويخشون من علماء اللغة استعمالها ، لذلك رضىنا من الادب بالمدول عنها جملة وتفصيلا ، حقيقة ومجازا . وبهذا سد أمام الاديب العربي باب من أوسع الابواب وأغزرها فائدة .

(٢) وسبب آخر من أهم الاسباب في فقر الادب العربي في التعبير ، هو أن الادب العربي الحديث أدب أرستقراطي لا أدب شعبي ، وعني أرستقراطية العلم لا أرستقراطية المال ، ذلك أن الادب الانجليزي أو الفرنسي أو الالماني ، أدب شعب لا أدب طبقة خاصة — نعم قدير في الادب الانجليزي مثلا — فلا يفهمه الا الراقون ، ولكن بجانبه أدب انجليزي شعبي ، لا يختلف عن أدب الخاصة في الفاظه وتراكيبه وإن اختلف في دقة المعنى وبساطته — أما الادب العربي فادب خاص لطائفة المتعلمين تعلموا راقيا فحسب ، لا يشتركهم فيه العامة واشباه العامة ، ولل العامة أدب بلدي خاص ، يستمتعون به في أغانيهم ونكتهم وزجلهم وموالياتهم — وحتى الخاصة ، لا يتذوقون الادب العربي الا في الكتب والمجلات والجرائد ، أما أحاديثهم وتنادرهم وفكاهاتهم باللغة العلمية ، وليست أمة من الامم الحية الآن بين لفتها اليومية ولفتها الادبية من الفروق ما بين اللغة العربية واللغة العلمية .

• • •

نتج من هذه الظاهرة نقص كبير في الادب العربي الحديث ، لان استعمال الكلمات والعبارات في البيت وعلى المائدة وفي الشارع يكسبها

حياة قوية ويزيدها صقلا ومرونة ، ولو اقتصر في استعمالها على الكتب كانت حياتها ناقصة ، لا يهذبها الاستعمال ولا يرقىها الصقل اليومي . وحسبك دليلا على ذلك أن النكت والنوادر وهي من أهم أركان الأدب لا تجد منها سائغا عذبا في أدبنا العربي عشر معشار ما تجده في الأدب العامي ، وأن النادرة تحكي بالعلمية فتضحك الى اقصى حد ، ثم تحكيها باللغة الفصحى فتخرج باردة تافهة ، وإن كثيرا من الالفاظ والتعبيرات العلمية قد افادها الاستعمال روحا قوية ، فإذا عبرت عنها بالعربية لم تجد لها من التعبير قوة العامية وحسن دلالتها على المعنى .

وكل أمة قد كسبت من توحيد لغتها الكلامية والكتابية مالا يقدر ، فقد أصبح الشعب كلها منتجا أدبا وتعبيرا قويا ، وأصبح الحديث على المائدة وفي حجرة الجلوس وفي التمثيل والسينما يخرج أدبا جديدا ويحيى أدبا قديما ، والأمة كلها تتعاون في الانتاج الأدبي ، هذا بتعبيره الرقيق ، وهذا بنكته ونوادره ، وهذا بقصته وأمثاله ، وهذا بشعره ، وهكذا .

وليس كذلك الحال في الأدب العربي ، فالأمثال والنوادر والحكايات باللغة العامية ، والاحاديث اليومية وقضاء كل شؤون الحياة باللغة العامية ، وليس للغة العربية إلا الكتاب وما اليه - ولذلك أصبح عندنا أدبان أدب أرستقراطي هو هذا الشعر والكتب التي تؤلف ، والمجلات والجرائد التي تنشر وأدب شعبي هو الزجل والأغاني والحواديت وما اليها ، وبين الأدبين فواصل كبيرة وحواجز متينة ، وفي هذا ضرر كبير على الأمة والأدب معا ، أما الأمة فلأن شعبها لا ينتفع بنتائج المتعلمين منها ، وأما الأدب فلأنه ليس أدبا صحيحا ، إذ الأدب الصحيح هو ما كان ظللا لحياة الأمة الاجتماعية كلها لا الحياة طبقة خاصة منها .

ولا أمل لحياة الأدب العربي من هذه الناحية إلا بإزالة الحواجز القوية بين العامية والعربية ، على أي وجه يرضاه قادة الأمة ، ويحفظ اللغة العربية مكانتها من حيث هي لغة الدين ورابطة الشعوب الشرقية . إذ ذاك تصبح اللغة حية ، والتعبيرات حية ؛ وإذ ذاك تزول الحيرة التي نعيش فيها الآن ،

فإنك تستعمل اللفظ العامي والمعبارة العامية ، فلا تجد لهما نظيرا في العربية ، وإن وجدت لهما نظيرا فنظير ميت ليس فيه حيائهما . كنت أقرأ الآن في جريدة فوجدت فيها كلمة «ببيع» وكنت أسمع فسمعت من يقول : إنه بيت « مَبْهَوًا » ومن يقول « رزق الهبل على المجانين » . ووجدتني إذا أجهدت نفسي قد أعثر على تعبيرات عربية مرادفة لها أو قريبة منها . ولكن ليس فيها حيائها ، لأن الحياة وليدة الاستعمال ، وأريد الاستعمال الشعبي . وهذا أحد الأسباب في أن مقالات الاستاذ فكري أباطة ، والمجلات الهزلية ، والهزلية الجدية ، لها من الرواج في أوساط الجماهير ما ليس لغيرها ، وتتفتح لها نفوس شعبية أكثر مما تتفتح للمقالات العربية الصرفة ؛ وترن الكلمة أو العبارة في الأذن رنيناً دون رنين العربية الكلاسيكية .

« ٣ » وسبب ثالث هو أن الحواجز عندنا بين العلم والادب قوية متينة ، وإن شئت فقل إنه ليس هناك صلة بين كلية العلوم والآداب ، وأن الثقافة التي يتشققها الأديب ينقصها غالباً — قدر ضروري صالح من المعلومات العلمية ، تجعله يستطيع أن يلهم الملم بالاختراعات والمستكشفات ، ويستغلها في أدبه . وهذا القدر يلقيه الأديب الأوربي في بيته وفيما يقع في يده من كتب ومجلات أولية ، ثم في مدرسته . وأدباء الطبقة الأولى منهم كانوا على حظ عظيم من الثقافة العلمية استغلوها في منتجاتهم ، فأصبحت هناك أنواع من الأدب ، ومن التعبيرات والتشبيهات القوية التي تعتمد على الثقافات العلمية ، أخذها منهم الشعب واستسافها . أما برنامج الأديب العربي فقاصر من هذه الناحية كل القصور ؛ ولذلك كان نتاجه قاصراً كل القصور .

وهناك أنواع من التجديد في الأسلوب والموضوع والنثر الفني والشعر والقصة وغيرها ، نعرض لها فيما بعد . ؟

المصدر : الرسالة العدد الثالث ١٥ أبريل ١٩٢٢ •

من اوضح الظواهر ان الجمهرة العظمى من المتعلمين الذين درسوا ادبا عربيا وادبا اجنبيا يعكفون على الادب الاجنبى يتذوقونه ويكثرون من مطالعته ، في جدهم ان شاءوا الجد ، وفي لهوهم ان شاءوا اللهو . وهم ان قرأوا في الادب العربي ففي القليل النادر ، وان فعلوا لم يظيلوا ولم يتعمقوا ، وقل ان يدرسوا كتابا دراسة جيدة ، انما اكبر همهم ان يقلبوا صفحات الكتاب ليقع نظرهم على ابيات من الشعر يستملحونها ، او قصة طريفة يتفكحون بها . ومكتبتهم - على قلتها - تمثل ميلهم ، فالكتب الانجليزية او الفرنسية فيها غالبية ، والكتب العربية قليلة نادرة .

ذلك ولا شك حال اغلب المثقفين ثقافة عصرية .

ويذهب بعض الباحثين في تحليل هذه الظاهرة الى ان السبب يرجع الى فساد تعليم اللغة العربية وآدابها في المدارس ، فان اساتذتها لا يحبون الى الطلاب الادب العربي ، ولا يصلون به الى نفوسهم ، وانما هي امثلة محدودة تتكرر عاما بعد عام ، ونماذج من الشعر والنثر تعرض مرة بعد مرة ، ولا غرض من دراستها الا ان يذكرها الطلبة عند الامتحان فيؤدوها كما تليت عليهم ، ثم تذهب بذهب الامتحان ، لانهم قد تجرعوها على مضض ، فهم يفرحون بنسيانها فرح المريض - وقد شفي - بالخلاص من دواء مر المذاق .

قد يكون هذا سببا صحيحا ، ولكنه فيما أرى ليس بالسبب الجوهرى ، فان بعض اللغات الاجنبية التي تدرس بيننا ليست دراستها باحسن حالا من دراسة اللغة العربية ، ومع هذا فالطلبة سيفنون ادبا ويتذوقون كتبها بما لا يظفر ببعضه الادب العربي .

اهم سبب عندي يرجع الى موقف الاديين الادب العربي والادب الاوربي .

ذلك أن كل أدب أوروبي له قديم وحديث ، والأدب الحديث هو الذي يناسب جمهور المتعلمين وعامة الشعب ، لأنه في الغالب يعرض لما يشعرون به فيعبر عنه التعبير الفني ، فالأديب المحدث يرى ظاهرة اجتماعية فيضمها في قصة ، أو منظرا جميلا فيضعه في قصيدة ، أو معنى أثارت في نفوس قومه أحداث سياسية أو اقتصادية فيضعه في مقالة أو كتاب ، فيقبل الجمهور على قراءة ذلك ويعجبون به ، وسبب الإعجاب أن الأديب شعر بما يشعر به الجمهور . واستطاع أن يعبر عنه التعبير الفني الذي لا يستطيعه الجمهور . أما الأدب الأوروبي القديم فانما يناسب خاصة المتعلمين لأنه يتطلب دراسة لغوية وأدبية عميقة كما يتطلب - لتذوقه - أن يلم المتعلم بشيء كثير من المسائل التاريخية والاجتماعية التي احاطت بالأديب وبالقطعة الفنية حتى يستطيع أن يفهمها فهما صحيحا ، وليس ذلك في مكتبة السواد الأعظم من الناس . فالذين يفهمون الأليظة والأوديسة وخطب ديمستين قليل بالنسبة الى الذين يقرأون الأدب الحديث ويفهمونه ، وكذلك الذين يفهمون الأدب الانجليزي أو الفرنسي في القرون الوسطى ويتذوقونه هم الخاصة من الأدباء ، وإن قرأ الجمهور شيئا من الأدب القديم فانما يقرأه مترجما الى اللغة الحديثة . أو معروضا في شكل جديد قد ذلت فيه كل الصعوبات التي يحتمل أن يلقاها القارئ العادي . أما الأدب الانجليزي أو الفرنسي الحديث فيكاد يكون حظ الانجليز أو الفرنسيين جميعا .

وسبب ذلك أن الأدب هو نقد الحياة في أسلوب فني ، وإذا كانت كل أمة تفهم حياتها الحاضرة فهما ما - وإن اختلفوا في مقدار الفهم - كان الأدب الحديث أقرب الى فهمهم وأيسر متناولا لجمهورهم ، وإذا كان الأدب القديم وصفا لحياة قديمة لا يستطيع فهمها فهما صحيحا إلا من عرف بيئتها وتاريخها ، كان ذلك الأدب الأدب الخاصة .



وبعد فالأدب العربي أدب قديم لا حديث له ، وإن شئت تعبيرا دقيقا فقل أنه أدب قديم لم يستكمل حديثه ، لذلك كان الأدب العربي أدب الخاصة لا أدب الجمهور .

لا يستطيع القارئ أن يفهم الأدب العربي القديم إلا بفهم دقيق للتاريخ ، وفهم بالغ للظروف الاجتماعية التي نشأ فيها الأدب ومعرفة واسعة بالجغرافيا ، وعلم تام بقوانين الصرف المعقدة كأنها قوانين اللوغارتمات ليعرف كيف يبحث في معاجم اللغة العربية عن كلمة غريبة ، وليس يصبر على ذلك كله إلا المجاهدون الصابرون ، وقليل منهم .

يريد سواد المتعلمين أن يفلتوا مشاعرهم من حب يحلل تحليلاً دقيقاً ، أو إعجاب بمنظر طبيعي ملك عليهم نفوسهم ، فأرادوا أن يصور هذا الإعجاب في قطعة فنية ، أو تبرم بأسر ورقة فهم يريدون أدبا يتفنى بالحرية ويحفر النفوس إلى تحقيقها ، أو ألم من سوء حالة اجتماعية فهم يبتغون قصة تمثلها ، أو قصيدة تصفها ، أو كتاباً يطلها ، أو نحو ذلك من ضروب المشاعر فلا يجدها في الأدب العربي الحديث إلا قليلاً نادراً فيضطر إلى الأدب الأجنبي يقرأه ويتفنى به ويستمره ، وهو على الرغم من أن ذلك الأدب ليس بلفته ، ولا يصف مشاعر تمثل بالدقة مشاعره ، ولا يحلل حالات اجتماعية تشبه مشهبة تامة حالاته ، على الرغم من ذلك كله مضطر أن يقرأه ، إذ ليس عنده من أدبه ما يكفي لفلأته ، وفي الأدب الغربي كل صنوف الفداء على اختلاف الأنواع وعلى اختلاف الأساليب ؛ إن شاء سهلاً ، وجد السهل ، أو صعباً وجد الصعب ، أو بين ذلك وجد بين ذلك ، وإذا غمض عليه لفظ استطاع أن يكشف عنه في المعاجم من أول درس تعلمه ، فكيف لا يهمل بعد ذلك الأدب العربي ويعكف على الأدب الغربي ؟

إن شئت فوازن بين ما يدرسه الطالب في المدارس الثانوية أو العالية في الأدبين ، فهو في الأدب الغربي يدرس شكسبير وأمثاله فيجد موضوعاً شيقاً يمثل حالة من الحالات التي تتصل بنفسه ، وتمس حياته الاجتماعية بقدر ما ، قد صيغت في قالب فني رشيق ، فخرج من الدرس يحبها ويحب موضوعها ، أما في الأدب العربي فيدرس مختارات من جرير والفرزدق والأخطل ، أو مختارات من مقامات البديع والحريري أو نحو ذلك ، وهذه كلها لا تمثل ناحية اجتماعية يحياها أو ما يقرب منها ، ولا فكرة عميقة حللت تحليلاً واسعاً ، لذلك يخرج منها وهو لا يحبها ، أو على الأقل يكون على الحيلاد منها .

لست أنكر أن في جرير وامثاله ، والمقامات وامثالها ، وفي الادب العربي على العموم جمالا ويفا وابداعا ، ولكن ذلك لا يدركه الا الخاصة الذين مرفوا طويلا على الدرس وبدلوا الجهد في تدريب اذواقهم علي تقويمه واستساغته ، وليس ذلك في استطلعة كل الطلبة ولا اكثرهم .

فان انت نظرت الى الادب العربي الحديث فماذا ترى ؟ ترى كثيرا من الادب الغربي قد ترجم الى العربية، وليس من الحق أن نعد هذا ادبا عربيا في جوهره وموضوعه ، اذ ليس له من العربية الا لغة ملتوية على النمط الغربي . وترى نتاجا مبتكرا قليلا ، واكثر هذا القليل مقالات وفصول جمعت بعد ذلك وسميت كتبا مجازا ، لا تربطها وحدة غالبا الا بضرب من التمثل . والبقية الباقية من القليل هي التي يصح ان تسمى ادبا عربيا حديثا لم يكتمل .

ذلك في نظري اكبر سبب في انصراف جمهور المتعلمين عن الادب العربي ، فإن اريد اقبالهم عليه فلا بلا من انتاج حديث وافر يفدي كل مشاعر الحياة كما يفدي العقول ، وليس من الحق أن ندعو السواد الاعظم الى الادب العربي قبل ان نستكملة او على الأقل نوجد فيه ما يسد رمقهم ، وان اردنا الانصاف فواجب أن ندعو الدعوتين : دعوة الادباء في العربية الى ان ينتجوا ، ودعوة القراء الى ان يقرأوا .

وينجح الادباء اذا اقتصروا على ان يحتدوا حذو القدماء شكلا وموضوعا دون ان يمسوا حياتهم الواقعية وبيئتهم الاجتماعية ومشاعرهم النفسية ؛ فالادب متغير ، خاضع لقانون النشوء والارتقاء ، فاذا تقيد ادباؤنا بالموضوعات التي عالجها القدماء وبالشكال التي صب فيها الادب القديم ، عد ادبهم قديما لا حديثا ، ولم يصلح علاجا لما نصف من امراض .

مثل ذلك : انا اذا وضعنا ايدينا على مختارات البارودي ، وهو كتاب ضخيم في اربعة اجزاء اختار فيها لثلاثين شعرا من شعراء العصر

العباسي ، وجدناه قد اختار نحو أربعين ألف بيت ، منها أكثر من أربعة وعشرين ألفا في المديح ، وإذا أضفت الهجاء والمرثاء الى المديح وجدت جميع ذلك يقرب من ثلاثين ألفا ، والرابع الباقي في الادب والصفات والزهد والتسيب !

افترى من هذا افراط الادباء القدماء في وصف العواصف الشخصية من كرم ورثاء وهجاء ، وتقصيرهم في ابواب كثيرة أهمها وصف المناظر الطبيعية ، وتحليل الانفعالات النفسية ، وغير ذلك من ضروب الادب .

وهذا التقصير وقع في الادب الاوربي القديم كما وقع في الادب العربي ، فلو قرأنا شعر هوميروس وفرجيل ودانتي وجدنا فيه قليلا من وصف جمال الطبيعة من جبال وبحار ونجوم ، على حين ان الشعر الاوربي الحديث قد ملئ بهذا الضرب من القول وأبدع الشعراء فيه ابداعا لا حد له فافاضوا في القول في السماء ونجومها ، والاشجار وازدهارها وذبولها ، والبحار والصحراء وغيرها ، ووجدوا في ذلك كله كنوزا استمدوا منها شعرهم ، وكان تقصير القدماء واجادة المحدثين في ذلك قانونا طبيعيا ، لأن الاحجاب بجمال الطبيعة نتيجة رقي كبير في اللوق ، فاذا قصر ادباؤنا المحدثون في هذا كما هو حادث الآن وتابعوا الاقدمين في المديح والهجاء في هذا كما هو حادث الآن وتابعوا الاقدمين في المديح والهجاء والغزل ، فقط - ظل نقص الادب العربي على ما هو عليه .

كذلك يعيش الشرقي عيشة خاصة غير التي كان يعيشها ابائهم ، سفرت المرأة بعد حجابها ، وتغير في العشرين سنة الاخيرة كل نظم الحياة تقريرا من معيشة بيئية ونظم اجتماعية ، وحياة سياسية ، وأصبح كل باب من هذه الابواب يتطلب قصصا جديدةا وشعرا جديدا وكتبا ادبية جديدة ، فان نظر ادباؤنا الى دواوين الشعراء الاقدمين ولم ينظروا الى دواوين الطبيعة وصحائف العالم الذي فيه يعيشون ، فلا أمل في شعرهم ، ولا ثمرهم وظل المتعلم منصرفا عنهم الى الادب العربي على الرغم منهم .

ونوع آخر من الادب يصح أن يستغله الأدباء ، وهو أن يعمدوا الى الادب القديم ، وأبطال الشرق ، والاحداث التاريخية العربية فيجعلوا منها موضوعا للراستهم ثم يلقوا عليه أضواء مما وصل اليه العلم الحديث والادب الحديث وعلم النفس الحديث ، فيترجموه الى لغة العصر ويبرزوه في شكل يناسب ذوق الجمهور ويحبب اليهم قديمهم .

انهم ان فعلوا ذلك استطاع من لا يعرف لغة اجنبية أن يجد فائدة في الادب العربي ، واستطاع أن يكون انسانا مثقفا بكيفه ثقافته ، واستطاع من يعرف لغة اجنبية أن يباهي بادب قومه كما تباهي كل امة بادبها ، وفي ذلك اعتداد بشخصيتنا العربية الشرقية لا يستهان به .

التجديد في الأدب

حول مقال الاستاذ أحمد أمين

للدكتور عبد الوهاب عزام (١٨٩٤ - ١٩٥٩)

قرأت المقال الثاني الذي تكلم فيه الاستاذ عن « التجديد في العبارة »
فرضيت آراء وانكرت أخرى .

وأول ما أخذ على المقال أنه لم يحكم تحديده فالقارئ يحس أن
كاتبه أراد أن يعالج التجديد في المعنى والعبارة معا .

يقول الاستاذ في مستهل مقاله : « واليوم اعرض لضرب آخر من
ضروب التجديد وهو التجديد في العبارة . وأعني بالعبارة الجملة التي
يؤدي بها المعنى على اختلاف ألوانها من حقيقة ومجاز وتشبيه واستعارة
وكناية . » ولست أدري كيف يكون التجديد في التعبير الحقيقي ؟
الحقيقة لفظ مستعمل فيما وضع له . فلذا اتفق معنى لشاعر في
الجاهلية فأداه بالفاظ حقيقية ثم وقع المعنى بعينه لشاعر معاصر فأراد
الإبانة عنه بلفظ حقيقي لم يمكن التجديد في الأداء إلا بالاسهاب أو الإيجاز
وليس هذا ما يريده الاستاذ . أو بإيثار لفظ حقيقي على آخر مثله وهذا
يرجع إلى بحث الالفاظ الذي فرغنا منه في مناقشة المقال الاول ، إذ
أراد شاعر معاصر أن يبين بالفاظ لا تجوز فيه من قول القتال الكلابي :

ولما رايت أنني قد قتلته نعمت عليه أي ساعة مندم

لم يستطع في هذا تغييراً يلائم البصر الحاضر ، ولم ينوئه إلا أن

يضع ابصرت مكان رأيت أو اسفت موضع ندمت أو يقدم ويؤخر في الكلمات . وليس هذا هو التجديد في العبارة الذي عناه الاستاذ . أي تجديد في العبارة يستطيعه قائل يريد أن يترجم عن هذا المعنى :

يقيم الرجال الأغنياء بأرضهم وقرى النوى بالمقترين الراميا

انما يمكن التفسير في المجازات والكنائيات والتشبيه والتمثيل مما يمكن فيه تأدية المعنى الواحد بطرق مختلفة ، وتصوير الحقيقة الواحدة بصور شتى وألوان عدة تتجلى فيها أثر الخيال والمعاشى المختلفة ، والأزمان والبلدان المتباينة . وهو موضوع لا يغنى فيه الاجمال ولا غنى به عن التفصيل :

١ - بعض المجازات والكنائيات جرت مجرى الحقائق حتى نسي أصلها أو كاد . ولا يدرك فيها التجوز أو الكناية الا بالبحث والرجوع بالكلمات الى أقدم أصولها المعروفة . وذلك مثل اسبل المطر ، وفلان زميل فلان . وأرهقه العمل ، وراض نفسه على الأمر ، ودهماء الناس وأمثال هذا مما شاع استعماله حتى سلوى مجازة الحقيقة أو قلب عليها فلم يبق المعنى الحقيقي شاهدا بأصل الاستعمال ودالا على التجوز في غيره ، كما يعرف التجوز في قولنا زل في رأيه ، وضيع المودة في قلبه ، وسمع زئير الحرب ، ببقاء هذه الالفاظ معروفة ذائعة الاستعمال في معانيها المحسوسة .

وحكم هذا المجاز حكم الحقيقة لا تجديد فيه ولا تغيير على الأسلوب الذي يريده الاستاذ أحمد أمين .

٢ - وأما المجازات التي يظهر فيها التجوز ، ويبين فيها التخيل فبعضها يخترمه الكاتب البليغ الذي يحس في نفسه القدرة على تصريف الكلام وخلق العبارات . وهذا مأخوذ من عقل الكاتب ، أو المكلم وإحساسه وعلمه كما يسمى الجمل سفينة الصحراء ويسمى الرجل الجري اسداً وذئبا الخ وكما يسمى احدنا الفواصة مثلاً نسر الماء ، ومنطاد زبلين

حوت الهواء ، ويقول عن خبر فطيع جاءه بالتلفراف : هذه احدى صواعق البرق ، ويشبه الرجل العظيم بأخبار العالم واحواله بالراديو الخ وينبغي الا ننسى ان علم الانسان وعقله ليسا مقصورين على البيئة التي يعيش فيها بل من هذه البيئة ومما رأى او سمع عن بلاد غابرة او حاضرة وامم ذاهبة او قائمة . فقد يسوغ للكاتب المصري ان يستمد مثلا او تشبيها مما يعرف عن امم الاسكيمو او مما عرف عن الامة المصرية القديمة او الامة العربية قبل الاسلام ، او من خرافات اليونان الاقدمين . فاذا قال عن رأي سيء يظهر بمظاهر مختلفة انه غول متلونة او عن فكرة سخيفة في نفس باردة انها كواحد من همج الاسكيمو يقطن بيتا من الثلج لم يكن لاحد ان يقول له ، انك لم تر الغول ولا عاشرت الاسكيمو فينبغي ان يكون بيانك خاليا من التشبيه بهما . وانما شرط هذا ان يكون مصدر المجاز او التمثيل معروفا لا يقف بالقارئ عنده غموض او اغراب .

وضرب من المجازات وما اليها ينشأ هذه النشأة ثم يذبح وتداوله الاجيال حتى يصير مظهرا لبيان الامة وخيالها لا الخيال كاتب او متكلم كالذي وراثناه في لغتنا عن بلغاء العربية في الجاهلية والاسلام ..

وهذا جدير بالاستعمال ، فلكل كاتب او متكلم ان يتوسل به الى البيان وان كان مصدره غريبا غير مألوف ، بل ينبغي المحافظة عليه بما يبين عن تاريخ الامة وحياتها في طور من أطوارها .

فلا عيب ان يقول القائل : اخذه برمته ، وترك حبله على غاربته ، وماله خف ولا حافر ، ورموا عن قوسه واحدة ، واعطي القوس بلربها ، والقي عصاه ، والقافلة تسير ، والكلاب تنبح ، كالمستجير من الرمضاء بالنار ، كمهدي التمر الى هجر ، أعقد من ذئب الضب ، أعدى من الشنفرى ، مرق مروق السهم ، اختلط الحابل بالنابل ، اهدى من القطا ، وهلم جرا .

ولغات الامم الاخرى حفظت كثيرا من عاداتها القديمة وتاريخها ولست اضرب مثلا باللغة الفارسية او التركية او الاردية فهي لغات شرقية

لا تصلح حجة في هذا العصر ، ولكن اضرب مثلا من اللغة الانكليزية والفرنسية : يقال في الانكليزية ان يباليخ في كلامه : « ينزع في القوس الطويلة ، ولن يخير بين أمور عدة ، عنده اوتار لقوس واحدة » (١) وهذه العبارة الاخيرة في اللغة الفرنسية ايضا (٢) . ويقال في الانكليزية في تقدير المسافة : « على رمية سهم » (٣) كما يقال في العربية « مقدار غلوة » . ويقال في الفرنسية ان يتوسل الى غايته بكل وسيلة : « يبرى سهامها من كل خشب » (٤) . وامثال هذا كثير . فما منع الانكليز والفرنسيين استبدالهم بالاقواس والسهم آلات الحرب الحديثة منذ مئات السنين ان يقولوا على العبارات التي حدثت في عهد الاقواس والسهم .

ست اقول ينبغي ان تلزم العبارات القديمة ونابى كل عبارة حديثة فلا احد يستطيع ان يحول بين الناس وبين الابانة عما في انفسهم بوسائل مشتقة من حياتهم ولكني اخشى ان تكون الدعوة الى الجديد دعوة الى هجر القديم ، ونحن في هذا العصر — عصر الفتن احوج ما نكون الى التمسك بالقديم ، والاستمسك دون التهافت في التقليد ، والفضلال بين القديم والجديد . ومن ينعم النظر في صحفنا ومنشآت طلبتنا يعرف كيف تراكنا كثيرا من عباراتنا الجيدة الموروثة الى عبارات غثة ضعيفة لا تكاد تبين عما وراءها .

تم يتكلم الاستاذ عن مسابقة الادب الغربي للزمن ووقوف الادب العربي فيقول : « ذلك بان الادب الغربي ساير للزمن واعترف بكل ما حدث فيه واستمد منه ، على حين ان الادب العربي الحديث اغمض عينيه عن كل كل ما كان ، ولم يعترف بوجوده الخ ، ولو رددنا الامور الى نصابها وتجلوزنا ظواهر الامور الى بواطنها ما رأينا في هذا قصور الادب العربي ، ولا اعجز ادباء العربية بل عرفنا فيه قصورنا في العلوم

(1) to draw the long bow — to have two strings to one's bow.

(2) avoir plusieurs cordes a son arc.

(3) arrow-shot.

(4) faire flèche de tout bois.

والفنون الحديثة أو حداثة عهدنا بها . الادب ترجم الحياة العامة فهو لا يتناول مسائل علم واصطلاحاته حتى تشيع اوليات هذا العلم بين الامة شيوعا يدخل مصطلحاته في لغة التخاطب . ولا ينبغي للاديب ان يدخل في الادب المسائل العلمية او الاسماء التي لا تزال مقصورة على العلماء المختصين بها . فاذا جاوزتهم الى جمهور الامة ودخلت في لغة الكلام ساء للاديب ان يتناولها . في الكيمياء ، مثلا ، مسائل عويصة لا يعرفها الا علماء الكيمياء فهذه المسائل ستبقى وقفا على العلماء مخبوءة بين اجهزة الكيمياء ، ولن تخرج الى لغة الخطاب العامة فتدخل في الادب الا ان تصير الامة او جمهورها من علماء الكيمياء . وهناك مسائل من اوليات هذا العلم كصفات الاحماض وتأثير بعض العناصر في بعض .

وهذه تدخل في اللغة العلمية وتنتهي للدخول في الادب حين يشيع في الامة علمها فلا يختص بها الكيميائيون ومن اجل هذا تجد طلاب الفلسفة او انطب او النحو يتفكرون بتشبيهات من هذه العلوم لا يفقهها غيرهم اذ شاع علمها بينهم وصلحت للدخول في لغة تخاطبهم . واذا رجعنا الى تاريخ الادب العربي عرفنا ان اصطلاحات الفلسفة والمنطق وغيرها لم تدخل في الادب اول عهد المسلمين بهذه العلوم . ثم شاعت قضاياها واصطلاحاتها فساغ لابي نواس وامثاله ان ينظموها في شعرهم . كما قال ابو نواس .

تأمل العين منها محاسننا ليس تنفد
فبعضها « يتناهى » وبعضها « يتولد »

فالتناهى والتولد من اصطلاحات انفلاسة ، وكما قال البحري :

وكان الزمان أصبح « محمولا » هوامع الأخصس الأخصس

فهو فيما اظن يشير الى قول المنطقيين ان النتيجة تتبع اخص المقدمتين .

وكنول الميري :

طرق الملا مجهولة فكانها « صم المنايد » ما لها « اجذار »

وكنول الفارابي في اصطلاحات الهندسة :

**وهل نحن الا خطوط وقصن على كرة وقع مستوهز
محيط السماوات اولى بنا فمانا التنازع في المركز ؟**

وقد يكفي في هذا ان تشيع القضية العلمية بين المتأدبين من الامة ولا ينتظر بها ان تشيع بين الجمهور . ولا يتسع المجال للافاضة في البيان منا :

ومهما يكن الامر فقد غلا الاستاذ اذ قال : « اما الادب العربي فيحارب مترليوزا بقوس ، ويضيء في أدبه سراجا بزيت والناس قادمون على ان يغيروا المصباح الكهربائي بخير منه ويبكى الاطلال ولا اطلال ، ويحن الى سلع ولا سلع ، ويستطيب الخزامي والعرار ولا خزامى لدينا ولا عرار . » هل يستطيع استلذا ان يعرفنا بشاعر او كاتب في مصر او الشام والعراق يفعل هذا ؟

ويقول الاستاذ : « وسبب آخر من اهم الاسباب في فقر الادب العربي في التعبير هو ان الادب العربي الحديث ادب ارستقراطي لا ادب شعبي . » وانا لا اخالف هذا الراي في جملته ولكن لي فيه ماخذ .

(١) ليس حقا ان احاديث الخاصة من متعلمينا وتناديرهم وفكاهاتهم باللغة العلمية . فاحاديث الخاصة من المتعلمين اقرب الى لغة الكتابة من اللغة العلمية . ومراقبة مجلس الإذباء والعلماء وتشهد بما أقول .

وفي هذا نفسه بيان خير الوسائل الى ما دعا اليه من « ازالة الحواجز القوية بين العلمية والعربية . على أي وجه يرضاه قادة الامة . » وذلك

ان قرب احاديث الخاصة من لغة الكتابة يبين لنا الطريق التي ينبغي ان نسلکها لازالة هذه الحواجز . فليس لنا من وسيلة الا ان ترقى العامة حتى تستطيع ان تفهم عن الخاصة اذا حدثها . فكلما شاع التعليم في الامة ارتقت العامة الى مستوى اقرب الى لغة الادب ونحن اليوم سائرون في هذه السبيل وقد سمعت في السنين الاخيرة جماعة من العامة واشباه العامة يخطبون ويتكلمون بلغة لا تخالف لغة الكتابة الا قليلا . وآلاف المتعلمين من طلاب مدارسنا وآلاف القارئین الذين يستطيعون مطالعة الصحف والكتب عاملون كل يوم للتقريب بين العامة والفصحى .

(٢) ثم قد غلا الاستاذ حين قال : « وكل امة قد كسبت من توحيد لغتها الكلاسية والكتابية ما لا يقدر ، فقد اصبح الشعب كله منتجا ادبيا وتعبيرا قويا . » ليس في العالم شعب ينتج كله ادبا قويا ولا يزال الخاصة من الادباء هم منتجي الادب واثمته ، بل اتفه الادباء اقربهم الى العامة . فلا يزال عند الاوربيين فوارق بين ادب العامة وادب الخاصة وستبقى هذه الفوارق ما دام اختلاف العلماء والجهال في عقولهم ومشاعرهم وكل الذي نبغيه ان يلتقي العامة والخاصة في مقدار من الادب مشترك هو اعلى ما تسمو اليه العامة وادنى ما تنزل اليه الخاصة . ولن يزول الفارق بين الادبيين ابدا .

واكيف وفق الاستاذ بين دعوته الى أن يساير الادب العلم وتستحكم الصلة بين كلية الآداب وكلية العلوم وبين دعوته الى توحيد الادب والمساواة فيه وبين الخاصة والعامة . أيمن أن يكون جمهور الادب اتخذ بحظه من كلية العلوم أيضا .

(٣) ثم الفكاهات الواردة يقول استاذنا الفاضل . حسبك دليلا على ذلك ان النكت والنوادر . وهي من اهم اركان الادب . لا تجد منها شائعا في ادبنا العربي عشر معشار ما تجد في الادب العلمي . ان النادرة تحكى بالعامة فتضحك الى اقصى حد ثم تحكيها باللغة الفصحى فخرج باردة تافهة .

نظر الاستاذ الى هذه القضية من جانب واحد . والحق أن النكتة تبلغ مبلغها فيما وقعت فيه من حال وعبارة فالذين يشهدون الواقعة المضحكة أو يسمعون الكلمة المضحكة أكثر ضحكا لها ممن رويت لهم في غير أحوالها أو بغير الفاظها ، بل ينطق الرجل بالكلمة فيضحك لها الناس فإذا رواها غيره بلفظها في مثل حالها لا تبلغ من النفوس ما بلغت أول مرة لما فاتها من أثر القائل الأول . فإذا اختلفت العبارة فأخري أن يختلف التأثير . فإذا ترجمت الفكاهة من لغة إلى أخرى ضاع أثرها كله أو بعضه وإذا نقلتها من عبارة إلى أخرى في لغة واحدة لم تبق على حالها الأولى . فإن تكن النكت العامية تبرد إذا نقلت إلى العربية الفصحى فكم من نادرة فصيحة تموت إذا نقلت إلى العامية . وكثير من فكاهات الجاحظ و « كتاب الحمقى والمغفلين » لابن الجوزي لا يمكن نقلها إلى العامية ؛ كالفكاهات المتعلقة بالنحو والمروء والفقه ونحوها . وكثير منها يضعف أثره وإن أمكن نقله والا فكيف تترجم إلى العامية هذه العبارات :

قال رجل للحسن يا أبا سعيد . فقال كسب الدرانيق شغلك عن أن تقول يا أبا سعيد . وقدم رجل من النحويين رجلا إلى السلطان في دين له عليه فقال أصلح الله الأمير لي عليه درهمان ، قال خصمه : لا والله أيها الأمير إن هي إلا ثلاثة دراهم لكنه لظهور الأعراب ترك من حقه درهما واعتبر كل ما في كتب الأب من لمح تجد أكثرها يجري هذا المجرى .

والغريب أن لغة الخاصة ولغة الكتابة أو لسان العامة ولسان الخاصة كانا مقاربين في عهد الجاحظ ولم يكن بينهما ما بين الفصيحة والعامية اليوم . ولكن الفكاهات إذ ذاك كانت كما هي اليوم لا تصلح للنقل من لغة إلى أخرى . قال الجاحظ :

« ومتى سمعت حظك لله بنادرة من كلام الأعراب فيالك والله تحكيها إلا مع أعرابها ومخارج الفاظها . فانك إن غيرتها بأن تلحن في أعرابها وأخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين خرجت من تلك الحكاية وعليك

فضل كبير . وكذلك اذا سمعت بنادرة من نوادر العوام وملحة من ملح
الحشوة والطفام فايك وان تستعمل فيها الاعراب او ان تتخير لها لفظا
حسنا الخ . »

وكذلك يقول قدامة بن جعفر في كتاب نقد النثر : « واللفظ السخيف
موضع آخر لا يجوز ان يستعمل فيه غيره . وهو حكاية النوادر والمضاحك
والفاظ السخفاء والسفهاء فانه متى حكاهما الانسان بغير ما قالوه خرجت
عن معنى ما اريد بها وبردت عند مستمعها .

(٤) وبعد فلا ينبغي ان تسف لغة الآداب العالية الى مستوى العامة
بل يجب ان نرقي العامة الى مستوى لغة الآداب او ما يقرب منه . . على
ان هذا التباعد بين ما يسميه الاستاذ « الادب الارستقراطي » وما نسميه
« الادب الشعبي » مظهر واحد من مظاهر الاختلاف بين عامتنا وخاصتنا
بين الفريقين تفاوت عظيم في العقل والمعرفة والازياء والمساكن وطرائق
المعيشة . ولا بد من تقريب المسافة بين العامة والخاصة في هذا كله قبل
ان يشتركا في لغة واحدا ويستمتعا بأدب واحد فان الادب الصحيح
ترجمان معيشة الامة .

عبد الوهاب عزام

التجديد في الادب

محمود الشرقاوي ت - ١٩٧١

يناقش الدكتور عبد الوهاب عزام الاستاذ احمد امين في رأيه عن التجديد في الادب ، وقد دفعتني هذه المناقشة الى ابداء رأي و ذكر مناقشة ، اما الراي فهو : ان المعاجم اللغوية التي يقول الاستاذ احمد امين ان فيها « الفاظا كثيرة ليس لها قيمة الا انها اثرية تحفظ فيها كما تحفظ التحف في دار الآثار » ، في هذه المعاجم الفاظ كثيرة لها قيمة عظيمة عند من يحسن الاداء بها في مواقعها وكثيرة منها يؤدي لنا عن معان كنا نظن ان ليس لها في الالفاظ العربية ما يدل عليها ، فالبحت عن هذه الالفاظ واستعمالها يزيد من غير شك في حيوية اللغة ونمائها ، وقد فعل الدكتور محمد شرف والدكتور احمد عيسى شيئا من ذلك في معجمهما عن الحيوان والنبات ، فكشفا في هذه القواميس عن الفاظ عربية لنباتات وحيوانات كنا نستعمل عند الدلالة عليها اسماءها العلمية اللاتينية ، وذلك لظننا خلو لغتنا من اسمائها .

واما ما ذكره الاستاذ احمد امين من الغاء هذه الالفاظ لان اللوق العام للقراء لا سيفها الآن ، فانا اظن بان درجة المعرفة التي يصل اليها جمهور القراء ليست كافية للاعتبار والحكم على اللغة والكاتب ، والناقد البصيرة له ان يقدم لهذا الجمهور القارئ ما يرى انه مفيد من معنى او احساس ، ولو كان الجمهور القارئ لا يعرف هذه الالفاظ او لا سيفها ذوقه ، ولكن المهم ان يقتصد في ذلك على الضروري المفيد ولا يعتمد الاغراب .

هذا مع ملاحظة أن ما لا يسيغه ذوق الجمهور هو الاقلية من هذه
الالفاظ المهجورة .

هنا عن رأيي ، واطنني فيه قريبا من الدكتور عزام وأن كنت اخالفه
في بعض الشواهد التي اوردها في مقاله وفي بعض الآراء كذلك .

واما عن المناقشة فقد جرت منذ شهور بيني وبين كاتب من كبار
كتابنا المتحمسين لتبسيط اللغة ، وكان يقول أن هذه الالفاظ الموجودة
في القواميس هي مثل التروائد والبقايا الاثرية في جسم الانسان «كالزائدة
الدودية ومجب الذنب مثلا» ويجب علينا طرحها لنكسب الوقت والسرعة،
فقلت انا ، أن في هذه القواميس الالفاظ تؤدي لنا عن معان نتحير الآن
في الاداء عنها بكلمة واحدة، فنعبر عنها بجملة أو سطر، فلو اننا استعملنا
هذه الالفاظ واشعناها لاكتفينها بلفظ واحد عن هذه الجملة أو السطر ،
فكسبنا بذلك الوقت والسرعة ولفظا جديد يزيد في لغتنا سعة ، فقال :
اذكر مثلا ، قلت : اقرب مثل هو صديقك فلان الذي عرفتني به اخيرا ،
فقد لاحظت أن لون عينيه مختلف فله عين زرقاء وأخرى كحلاء . فلو
اردت أن اذكر لك هذه الصفة فيه استعملت لها سطرا من الكلام ، ولكني
وجدت في القاموس كلمة واحدة تؤدي هذا المعنى كله وهي « أخيف »
وهذه الكلمة نفسها تفنيها عن جملة أخرى ، فإن الابناء الذين هم من أم
واحدة وآباء شتى يقال لهم « أخيف » فيمكنك في الاول أن تقول «فلان
أخيف » بدل « فلان احدى عينيه زرقاء والاخرى كحلاء » وفي الثاني
« هؤلاء الاخوة أخيف » بدل « هؤلاء الاخوة من أم واحدة وآباء شتى» ،
وقد كسبنا بذلك الوقت والسرعة ولفظة جديدة ، وهذه الكلمة لا أحد
يقول « حتى الاستاذ أحمد امين » أنها ناقرة أو ثقيلة على الجيل
الحاضر ، وقد استعملها ابن زيدون في قطة جميلة من شعره .

فقال صديقي الكاتب الكبير في صيغة التحدي والتهكم ، أنك بذكر
هذا اللفظ اطلت في الوقت واطعفت من السرعة لأنك ستشرحها للقارئ

بهذه المعاني التي ذكرتها ، فكان خيرا لك وله لو أنك اكتفيت بالشرح عن المشروح فلم تذكر اللفظ الواحد ثم تتبعه بجملته شارحة ، فقلت أنا أولا لا اسلم بضرورة الشرح فان القارئ واحد من اثنين ، قارئ يقظ يقرأ ليفهم ويفتش عن كل كلمة ولا يكتفي بالفهم الاجمالي ، وهذا القارئ عندما يجد هذه الكلمة — اذا لم يكن يعرفها — سيبحث عنها في القاموس حتى يعرفها ، ومن المرجح انه بعد ذلك لن ينساها ، وهذه وحدها فائدة اخرى ، والقارئ الثاني يمر على الكلام مرا ويكتفي بالفهم الاجمالي ، فهذا ليس يهمني اذا شرح له ، والمعلم هو ايضا لا يهتم بشرح وعلى فرض التسليم بضرورة الشرح فهذه الكلمة ومثلها ، فان الشرح لن يكون الا بمقدار ما تشيع هذه الالفاظ وتعرف لجمهور القارئ وعند ذلك تترك وحدها فيفهمها القارئ ونكسب نحن وهو الوقت والسرعة والافاظ جديدة تزيد في لغتنا وتنميها ، ثم ذكرت له بعضا من الالفاظ والجمل استعملها هو بدءا وشرحها في اول ما استعملها واصبحت الآن مفهومة لكل قارئ وشائعة على اقلام الكتابين والسنة الناطقين حتى كأنها تستعمل منذ مئات السنين .

والعلنا نجد في المقالات القادمة للاستاذ احمد امين اننا فهمنا من كلامه غير ما يقصد هو ، وعندئذ فنحن على وفاق ، او في « خلاف لفظي ... » كما يقول الاصوليون .

« محمود . ع . الشرفاوي »

عالم من الازهر

تجديد التقليد

« بهذا العنوان نشرت مجلة المغرب التي تصدر بالرباط هذا المقال
فاحبيننا ان يطلع ادبائنا عليه » .

في مصر اليوم جملة من حاملي الاقلام بلغ بها حب التجديد الى حد
انها رأت التقليد الذي يرسف في اغلاله كتاب العربية وشعرائها قد
بلى وقدم ، وانه في حاجة ماسة الى التجديد فراحت تسود اوراق
الصحف والمجلات بالنهي عن تقليد العرب ، واسلوب العرب ، وتفكير
العرب ، وكل ما هو من العرب باختصار . . . لا لتضع في محله شيئا
جديدا مبتكرا ، ولكن لتحكي الغرب ، واسلوب الغرب ، وتفكير الغرب !
واكل ما جاء عن الغرب وان لم تشعر بذلك ، اليس هذا تجديدا . . .
للتقليد ؟ او ليست هي جملة المجددين ؟ وعدم فهمكم لها جعلكم ترمونها
بعدم القدرة على التفكير بالعربية واساليبها الضادية : وكيف تكون غير
قادرة على هذا وهي التي تعلمت في أوروبا وقضت شهورا واعواما في
« حي مونبارناس » والحي « اللاتيني » . . . وهلم جرا . لا . ليس هذا
(عجزا يتظاهر بالقدرة ، وجهلا يتستر بالتحذلق) كما زعم الزيت ،
بل سيل التجديد طفى حتى على التقليد واراد تجديده .

اتدري ماذا تنكر هذه الجملة على العربية ؟ تنكر عليها انها خالية
من القصة والرواية ، ومن « التراجميديا والكوسيديا والميتولوجيا »
وان ادبها ليس منقسما مثل الادب الغربي الى « كلاسيكي ورومنتيكي »
وان شعرها ليس منقسما الى « ابيك وليريك » وان جن شعرائها لم
يتاله ، ولم يتخذ « ابولو » : ذلك الاسم العالمي اسما له ، وان

التاريخ العربي الاسلامي ليس منقسما كالتاريخ الغربي الى : « العاديات والقرون الوسطى وعصر النهضة والعصر الحديث والعصر الحاضر » .

وصفوة القول ان ذنب العربية هو عدم مجيئها على النمط الغربي ، وقد تكون جديرة بان تقلدها جماعة المجددين المصريين لو انها احتوت على مثل تلك الاقسام ، واخشى مع هذا ان لو كان مثل ذلك للعربية دون الغرب لالفته قديما باليا ، ويكون مع ذلك الحق معها ؛ لانها ليست جملة المبتكرين بل جماعة المجددين ، وكل ما يهمها هو التجديد لا الابتكار . ولو كان يهمها هذا لخرجت لنا عوض هذا التقليد المشوه والصخب الفارغ والكلام الاجوف ، انتاجا فكريا صحيحا ، ولست انكر انها جاءتنا « بمعجزات » فنية جديدة كل ما فيها غربي الا بعض الفاظ وحروف عربية .

وهنا ضرب الكاتب المثل برسالة الاستاذ توفيق الحكيم الى الدكتور طه حسين ، ثم لخص بعض رأي الاستاذ ، وعقب عليه بقوله :

هذا رأي الكاتب ، اما رأيي انا فهو ان مصر القديمة لولا تلقحها بعناصر اجنبية لما كان لها ادب او فكر ؛ والتاريخ بالباب وهو اصدق مرشد واعظم برهان ، فلولا الاغريق لما كانت مدرسة الاسكندرية الفلسفية ، ولولا العرب لما كان لمصر ادب او فكر حديث يذكر ، ولا ذكرت مصر في تاريخ العالم الا بفنها وهندستها الدينية ؛ والحقيقة ان تلك الجماعة انما تريد ابدال المقلد : ابدال العرب بالغرب ؛ وقد بلغ تطرف صاحب مقال « الرسالة » الى حد انه رمى الكاتب الوحيد الذي ابتكر جديدا في العربية ولم يحاك احدا بالتقليد . وكتاب المولحي « حديث عيسى بن هشام » لا يزال قريب العهد ، وما يعنيني الاسلوب اذا كان الكتاب غريبا مبتكرا ؟ ولم تنتج مصر بعده جديدا سوى « الايام » لطله حسين .

ومنذ سنوات كانت جملة المجددين المصريين تبرق وترعد بمحاسن المدنية الغربية وأفضليتها وسوء الحضارة الشرقية . ولما أراد الله رفع الستار عن مساوئ الأولى وظهر أفلاسها بعد الحرب فبرز كتاب أوروبيون عظام للتنديد بها وتفضيل الحضارة الشرقية في عدة نواح وخصوصا الروحية منها ، أخذت هذه الجماعة نفسها تمجدها تقليدا لهؤلاء لا عن عقيدة ، وهذا حد التقليد !

اني لا أنكر على هؤلاء الكتاب حملتهم على التقليد وانما أنكر عليهم أولا سعيهم في ابدال المقلد بدون كبير فائدة . وثانيا انهم بدلا من أن يشتغلوا في ابتكار جديد والعمل على الانتاج الصحيح يضيعون وقتهم في الصخب . اما خلق ادب مصري قومي فهو « مودة » بالية قديمة بالنسبة لمن يتخذ لقب مجدد ؛ على أن الادب الجميل جميل في كل محل وتحت كل شمس وقمر و « ألف ليلة وليلة » حجة لذلك .

واما أن يكون عدم وجود الرواية والقصة سبب فقر ادبنا العربي فهذا غلط ، فلربما جاء فكر عربي عند نضوجه بشيء أفضل من القصة والرواية ، شيء يلائم طباعنا وادبنا ؛ وان كان لا بد منهما فنيجيئان في وقتهما حسبما تنضج وتختمر الفكرة في عقول أبناء العربية ، ولا يكفي قولنا لهما كونا فيكونان ، لأن النبوغ يتدفق من تلقاء نفسه ولا يستخرج ، وكذلك تقسيم الادب العربي على النمط الغربي ؛ وله تقسيمه الذي لا يحتاج الا الى اصلاح وضبط . ويكفي مثلا لفساد تطبيق اقسام التاريخ الاوربي على التاريخ العربي الاسلامي ، اني كنت اقرا اخيرا كتابا عن تاريخ الاسلام والعرب لكاتب مجدد جرى فيه على الاسلوب الغربي في التقسيم . جاء فيه : « ... وقد كان آباءنا يتخبطون في بحر الجهل والتعصب طيلة القرون الوسطى ... » والكل

يعلم ان القرون الوسطى في التاريخ العربي هي ازهى عصر المدينة
الاسلامية العربية .

وارجو لمصر ان تخرج من هذا المخاض بخير وعافية بفضل ما بقي
صالحا سالما من ابنائها الكرام ، وان يسفر هذا المخاض عن انتاج
صحيح مبتكر ؛ والا تكتفي جماعة المجددين بابدال المقلد فحسب .

محمد حصار

المصدر : الرسالة ، القاهرة - العدد الرابع عشر - اول أغسطس ١٩٣٢
السنة الاولى .

هذه المعركة المزمنة بين أديين !

أكرم ملحم كرم

١٩٠٣ - ١٩٥٩

انها لمعركة مزمنة حقاً ، هذه المعركة بين الجديد والقديم . فهي معركة حامية لا تنطفئ لها نار ولا يخبو منها أوار . فالشباب والمشيب يتطاحنان . المتريع في القمة يصارع الواقف في ساحل الحياة ، الضاحك للمستقبل ، المتقلب في أحضان الربيع ، الناعم باخضرار العيش ، يقاتل من يحاذر الوقوع في اللجة . الهاتف بملء فيه « الغد لي ! » يغالب المتمسك بأذيال الحياة لئلا يبتلعه الموت !

ومعركة القديم والجديد بدأت منذ الأزل وسوف تتصل بالأبد . فان هذا التطاحن بين ابن الأمس وابن اليوم حديث كل يوم . هذا التطاحن بين ابن الأمس الخائف على مكانته من التهشيم والتحطيم ، وابن اليوم الراضب في أن يشق لنفسه طريقاً الى الشمس ، القاتل للقديم المزمّن : « دعني أحتل مقعدك ! » ، هذا التنافر ابن عصور ودهور ، انبثق يوم انبثاق الكون ، وسيرافق الكون في مراحل الطوال لا يزول منه الا يوم يزول .

فالشباب يفيظه أن يطاطىء الرأس للمشيب ، أن يعترف له أبداً بالسيادة ، أن يقف حياله مكتوف اليدين ، فيصيح به : « نلت نصيبك من دنياك فلا تحرمني نصيبي ! .. » فيأبى من أدركهم المشيب أن يتزحزحوا من أماكن استقروا فيها بعد جهد ومشقة . ويفضض الشباب

وفي أعصابه جمر ونار فيثور وتنشب المعركة . نولا يسلم الفريقان من شظايا القذح والنقد والتعريض . الشيخ العتيق يسخر بشمار عقول الشباب . والرائع في مقتبل العمر يهز بيده المهند الصقيل مهلهدا متوعدا ، وتتساقط الضحايا في الميادين . ويقول القائلون : « المعركة بين القديم والجديد ! . . . » ويخيل الى بعضهم ان الأدب القديم هو ما جاد به الطاعنون في السن . وأن الأدب الجديد هو ما يتحفهم به كل ناضر العود . على حين أن بين ذوي الانياب الصفر فئة لا يبلى لها طارف ولا تليد . فالجديد ما تنفث وتكتب وتنظم ، كما أن بين الفتيان الافراخ الزغب الحواصل ، فريقا لا يحسن الابتكار ولا التوليد ، فانه لغارق في القديم الى الاذنين ، ويأبى الا أن يحارب كل من أسن وشلب وشاخ ، وبات على قيد خطوة من يومه الاخير !

وهذه المعركة لا يصح القول عنها انها أدب قديم وأدب جديد . ان هي الا بين المشيب والشباب ، بين قوم تمتعوا باطايب دهرهم وأدركوا الشهرة والصيت البعيد ، وقوم يريدون قسمتهم من قرص الحلوى . فهم نهمون شرهون جائعون ، يلتمسون الأكلة الشهية يتذوقونها ، مع انهم في الخطوات الاولى من عهد انقطاع .

ومثل هذا النضال ما خلا منه عهد . اما سمعنا جريرا يقول حين سئل رايه في الاخطل : أدركته وله ناب واحد ، ولو أدركته وله نابان لاكلني !

فالاخطل اكبر من جرير سنا . وقد تحكك به جرير ليدرك المنزلة العليا فادركها ، وهناك من شاء الاقتداء بجرير في التحكك بالطاعنين في السن . نريد بشار بن برد الشاعر الفحل الضرير . فقد راى بشامه جريرا لم يرد عليه . وكان يقول حين يبلغه طعن بشار : مالنا ولهله الغلام الخامل الفر نرفع قدره !

ف قيل لبشار : بم اساء اليك جرير ؟

قال : لم تنلني منه اساءة . على اني وددت ان يهجوني . ولو فعل
لكنت اشعر شعراء العرب اجمعين !

وغاظ الميري ان يسمع : « هل غادر الشعراء من متردم ؟ » فانشد
قصيدة من عالي الشعر جاء فيها :

واني وان كنت الاخير زمانه لا بما لم تستطعه الاوائل

فالتطاحن بين القديم والجديد ليس ابن يومه . فكل يريد المقام
الاول . والشجرة يؤلها ان تخيم عليها الشجرة فتسمى الى امتصاصها
كي تبلل وتجف . هي سنة تنزع البقاء . الشاب يدفع الشيخ الى
الهوة ليقوم مقامه ، والقوي ينشب اظفاره في الضعيف لتخلو له الساحة
وقد يكون هذا الشيخ من انصار التجديد . ولكن الشاب لم يطلق ظله ،
فحفر له الحفرة ووقف يشهد مصرعه فيها .

اذا من هم انصار الادب القديم ؟

من هم المتمسكون به والداعون اليه ؟

لا جدال في ان الادب القديم ركن الادب الجديد . فالادب الجديد
لم ينشأ عفواً ، بل تسلق قواعده القديم وشيد عليها قواعده الخاصة
يستند اليها ويحيا بها . فالادب القديم ابوه ، على ان الابن وان يكن
تغذى من ابيه فقد اظهر فيما شيد لنفسه من بنيان انه مستقل . فلن
حجارة هيكله تختلف في حجمها ولونها وشكلها عن حجارة هيكل المتقدمين
بل هو خالفهم في البناء نفسه . فجعلوا هيكلهم مستطيلا . فابى الا ان
يشيد هيكله مستديرا ، وبنوه عالي القباب فرفعه نائنا يشك في الاجواء
بدا هيكلهم في منظر خشن فتلاا هيكله لطيف الشكل ، مصقول الجدران
ترتاح العين لرؤيته وينعم فيه النظر بلا ملال .

والادب الجديد ليس وليد عصر معروف ، فكل عصر يحفل بالقديم
والجديد ، كل عصر يبرز فيه هيكلان يختلفان شكلا ولونا وذوقا . كل

عصر يدين بهذين المذهبين ويقوم فيه من يناصر القديم ويظاهر الجديد .
وليس نصير القديم من وقف على الاطلال فبكى واستبكى ، فان بعضهم
يقف على الاطلال ويجود بالشائق والرضى . اما انشد داود عمون :

هاج اشواقي الى الدمن طائر غنى على فنن

وداود عمون شاعر ثوي منذ سنوات قلائل في مقره الاخير . وقد
جاء شعره في الدمن من ارق الشعر ، فلا هو بالخشن المتبدل ولا الجاف
الفليظ ، فالعلوبة وافرة فيه ، والقوة محكمة في ديباجته العالية .

وليس كل من تحدث عن الابل والنوق بنصير القديم . فالمنخل
اليشكري لم يكن من انصار القديم حين حال :

واجبها وتعجنني ويجب ناقتها بميري

لا ، فان في هذا الشعر لظرفاً ، وان فيه لامعانا في التوكيد على نحو
ما جاء في قول ابي نواس :

الا فاسقني خمرأ وقل لي هي الخمر ولا تسقني سرا اذا امكن الجهر

ان فيه لرونقاً ، فهو بعيد عن التكلف في سبكه ومعناه . وكل شعر
جامع للرونق خال من التكلف والقلو الفحاش يطمئن اليه كل جيل ،
ويرضى عنه الادب الجديد .

فما هو الادب القديم اذا ؟ ..

الادب القديم هو الحافل بغريب الكلام ووحشي الالفاظ ، المثقل
بالتقليد ، الراكد في معناه ومبناه ، فلا ابتكار ولا روعة ولا سهولة ولا
ذوق ، هو المنسوج على منوال خشن ، الضخم الكلمات ، الطنان الاجوف
القائم على صناعة الالفاظ ، المحشو تكلفاً وتعقيداً ، البلرد لفرط ما
لاكنه الالسن ومضفته الافواه .

الادب القديم هو الادب المطبوع بطابع عصر معلوم ، جاءه من يبعثه حياً في عصر لم يخلق له ، فاذا نحن رأينا في شعر امرئ القيس شيئاً جديداً فهناك ما لا يصح قوله في عصر غير عصر الشاعر الضليل ، فقد قيل في زمن يجب الا يتخطاه الى زمن آخر ، وقد تبدلت العادات وتبدل الناس ، والجديد الجديد في شعر امرئ القيس تشابيه واستعاراته . وهذا التشابيه والاستعارات ملك الشاعر لا يجوز لاحد ان يسطو عليها والا كان سارقاً . كان اشبه بالضحك من نفسه ليخدعها وانما يهين نفسه .

فالابتكار في الادب اشبه بالابتكار والاخترع في سائر الفنون . فمن ابتكر في اسلوب الانشاء مذهباً جديداً بات هذا الاسلوب معروفاً باسمه ومن جادت قريحته بتشبيه جديد لا يجوز لاي اديب بعده ان يأخذ عنه هذا التشبيه ويثبناه وهو ليس من تواليده ، والا كان سألخاً ضعيف المخيلة قاصر اليد .

والاديب العربي لا يكون اليوم مبداً اذا اتحف الادب زوايات اشبه بمقامات الهمداني والحريري ، فان ذلك النسيخ من ثمار عصر مضى ، وهو مما تستحسن حياكته في ايام الانحطاط لانهاض اللغة واذاعبة مفرداتها ، فتلتقطها الازدهان وتستعين بها الاقلام ، أما اليوم فان اسلوب المقامات لا يحتسبه ابناء العصر ولا يستسيقونه ، فقد تبدل اسلوب الانشاء تبديلاً عظيماً ، فمات السجع ، ومات التقعر والتحدلق والانصراف الى الالفاظ دون المعاني ، واضحى الاسلوب الساري كل واضح جلي مريب الى الدهن والفهم .

ولا فرق في هذا الواضح الجلي سواء انتقل اليها من الجاهلية او صدر الاسلام ، او عصر العباسية ، او عصر الانحطاط ، او عصر الانبعث فان انشاء ابن المقفع لا يبلى في اي عهد ، ومثله الجاحظ ، وابن الاثير والاصبهاني ، وابن عبد ربه ، وابن خلدون ، مع ان انشاء ابن خلدون اخذ يتقادم عهده وفيه من التطويل ما فيه .

واللغات كلها طافحة بأساليب الانشاء . وانها لتحوى من الاساليب
المتعة ما لا تقوى على محوه يد الدهر ، ولا تؤثر فيه سنة بقاء الانسب ،
فهي صامدة للصروف لا ترث منها القوى ولا ينصل لونها وهي صافية
نقية كزرقة السماء .

وهذه الاساليب يصح ان نطلق عليها اسم الادب الجديد ، وهي
الخالدة ، وهي مرجع الطلاب والادباء ، كساها منشئوها المعنى الجميل
في المبنى السليم ، فاضحت لا تنبو عنها الاذن ولا ينكرها اي جيل ، وهو
بها قرير ضنين .

وما يقال في النثر يقال في الشعر . فالشعر الناضج بالعصر الشهي
لا يفنى ، على حين ان الشعر اليبس لا تقوم له قائمة في سوى يومه
ولو انشده المتنبي ، فان شعر عمر ابن ابي ربيعة ، وجميل بثينة ،
وكثير عزة ، وابن الدمينه ، وعباس بن الاحنف ، وابن زريق ، وابي
لؤاس ، والشريف الرضي ، والبهاء زهير ، وابن المعتز ، وابي فراس ،
وشعراء الاندلس في معظمهم ، مما يطح ان يقلل اليوم وينشد ، وتقتبس
طريقته ، ويهتدى بنوره ، اللهم اذا تغاضينا عن بعض مناحي هذا الشعر
اقتضاه روح العصر ، وكثيرا ما يكون هذا الروح نائيا عن حضارة العصر
الذي يلي .

فان هؤلاء الشعراء جمع منظومهم الرقة والروعة والوضوح ، وكل
شعر يرتع في هذه الميزات لا يعرف الانقراض ، خصوصا وهو مستمد
من العاطفة ، والعاطفة لا تموت ، فالقلوب تخفق ابدا بها . وكل شعر
اوحى به العاطفة وعنه الذاكرة ، وردده اللسان ، وابتهج به الخاطر ،
وتناقلته الكتب والافواه من عهد الى عهد ، وهو الشعر الذي يفرض
مشيئته على الايام والسنين .

وللشعراء الهجائيين منزلة وشان لدى الحفاظ والرواة . ويمكن
القول ان شعرهم يقوم يقوم على العاطفة ، افلا تتبدل هذه العاطفة بما

يتبدل به القلب ؟ ... الا تخضع لسلطان الهوى ؟ ... وشعر الهجاء
يشير الهوى . اذا فهو شعر عاطفي . ولهذا الشعر حظه من اليقظة والخلود
ان يكن جميلا فريها ، على طراز ما اتحفنا به الحطيثة والاخلط والفرزدق
واجريير وبشار ودعبل وابن الرومي والمتنبي . فان شعر الهجاء اقرب
الى الحفظ والبقى اثرآ . فالنفس وهي الامارة بالسوء تميل الى الهجاء
وترتاح له اكثر منها الى احراق البخور وتقبيل الاذبال .

ولسنا ندعو بالخلود لكل شعر عاطفي ، ولكننا نقول ان شعر العاطفة
يملك ميزة الخلود اكثر من اي شعر آخر ، ويأتي بعده شعر الوصف ،
على ان يكون بليغا وشيقا غير مسبوق اليه . ويقبل في الدرجة الثالثة
شعر الحكمة اذا افترط فيه قائله تبرأ منه الشعر .

ولا يكتب الخلود لشعر الحكمة الا اذا قلله من ارغم الدهر على الاصفاء
الى انشاده واسمعت كلماته من به صمم ؛ ومع ان المتنبي يسير في طبيعة
امن صاغ هذا الشعر فلا يستطيع الجزم بان حكمياته تستاغ في كل عصر ،
افهي من بنات عصرها . وقد ظهر خاتم ذلك العصر فيها . ومن المحال ان
يحاول تقليدها اي عصر جديد . وكل من استهواه تقليدها فهو من طبقة
المحافظين .

لا نكرر في ان في هذا الشعر قوة ومناعة وحسن صياغة . ولكن
صب الحكمة في الشعر ليس مما يشمله الادب الجديد . فالادب الجديد
في الشعر عاطفة ووصف . وما جاوز العاطفة والوصف بليد . ويجوز
ان تطفو الحكمة في بعض المواقف . الا ان الاغراق فيها يذهب برونق
الشعر . ويرصف هذا الشعر فوق اكاداس القديم .

ومن الواجب على الادباء والمتأدبين الاكثار من مطالعة ابي تمام والمتنبي
وابي العلاء . ففي مطالعة هؤلاء الأئمة ما يساعد على اقتباس العصمة
والقوة والفخامة . الا ان التشبه بهم يدل على العقم والعجز عن التوليد ،
يدل على الانغماس في التقليد ، على الفرق في بحيرة ملأى منذ الف عام .

فمن خاض عباها ، لن يبلغ شاطئها الآخر . وإذا بلغ هذا الشاطئ فأي فضل هو فضله . وقد كان تابعا لا متبوعا ، وقد وقف حيث وقف سواء ؟

ولذا الاقتداء بأبي تمام والمتنبي وأبي العلاء في شعرهم الضخم الجانح الى القديم أكثر منه الى الجديد ، وهناك عمر بن أبي ربيعة في قالبه الصحيح العذب الرسيل ؟ فان ابن أبي ربيعة ابن كل عصر ، على حين أن المتنبي ابن عصر أو عصرين أو ثلاثة . فان شعر زعيم الغزاليين يقال وينشد ويردد اليوم وغدا وبعد غد ، ويدغم فيما يقال اليوم وغدا وبعد غد كأنه منه وفيه . فلا يجفوه عصر ولا يعرض عنه أي عهد . بينما المتنبي لا يرحب بأسلوبه كل جيل ، وإن يكن ثمة من اعترف بـ سيد الشعراء .

وكيفه تسمع عمر بن أبي ربيعة ينشدك أبياته :

تقول وليدتي لما راتني	طربت وكنت قد اقصرت حيناً
أراك اليوم قد احدثت امرا	وهاج لك الهوى ذاء دينا
وكنت زعمت أنك ذو عزاء	إذا ما شئت فارقت القرينا
بعينك هل رايت لها رسولا	فسألك أم لقيت لها خدينا
فقلت شكاً السيّ اخ محب	كبعض زماننا اذ تعلّمينا
فقص عليّ ما يلقى بهند	يذكر بعض ما كنا نسينا
وذو القلب المحب وإن تعزى	مشوق حين يلقى العاشقينا

كيف تسمع هذا الشعر ولا تحسبه من مواليد اليوم ، بل من موال كل يوم ، وهو الوضاء الصافي الأنيق الرقيق

وهذا ابن الدمينه هلا أصغينا اليه في قوله :

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد
فقد زاذني مسراك وجدا على وجد

إن هتفت ورقاء في رونق الفضي
على فتن غص النبتات من الرند
بكيت كما يبكي الحزين صلبة
وذبت من الشوق المبرح والصد

هلا أصفينا الى هذا الشعر البهي القشيب وهو يحدثنا بلغة اليوم
ودوح اليوم ٤ . . .

قيل كان العباس بن الأحنف إذا سمع هذا الشعر تترنح منه
الاعطاف ، وكاد لفرط إعجابه به ينطح برأسه العمود . فقد تعفقه ابن
الدمينة بلا خمر .

وأبو فراس أي عصر لا يفتح له صدره وقصائده من بنات كل عصر :
أزاله عصي النمع شيمتك الصبر أما للهوى نهى عليك ولا امر
وماذا تقول في شعر المنازي يوم فزع الى الوادي الظليل هربا من
الحر .

نزلنا دوحه فحنا علينا حنو الرضعات على الفطيم
تروع حصاة حالية المناري فتلمس جانب العقد التنظيم

الا يسير هذا الشعر في ركاب كل عصر ٤ .

والبهاء زهير ٤ . . . اتنسى البهاء زهير ٤ . . .

انا من تسمع عنه وتري لا تكذب في غرامي خبرا

وماذا نطلب في الشعر إلا أن ينهج هذا النهج ، الا أن يصدر عن
هذا المورد ٤ . ماذا نبغي منه الا أن يبقى أبدا شهي المذاق ، اذا رددناه

في كل ثانية أطربنا ورجونا أن نستزاد منه ، فلا يتنكر له زمن من الأزمان ، ولا تشد دونه الأسماع كلما قام للأدب العربي كيان .

والأدب الجديد إذاً هو المبتكر ، الفريد ، السائغ ، الرائع الديباجة ، الواضح الجلي ، الذي يرضى عنه كل عصر ، ويهضمه كل جيل ، فلا يؤلم السميع بغريب الالفاظ ، ولا بالنافر من المعاني ، ولا بالتكلف والتعقيد .

والأدب القديم هو المثقل بالتقليد ، المطبوع بطابع عصر خاص لا بعده ، المنغمس في السجع في نثره ، والمتوكئ على الالفاظ والتفلسف في شعره ، العويص ، الخشن ، الوحشي الكلمات والمعاني ، ها ما يحتاج الى القاموس كلما خطر لك أن تجيل الانظار .

ومثل هذا الأدب شؤم على اللغة والبيان ، إلا أن المحافظين يستمرثونه ، بينما انصلو التجديد يشنون عليه الفارة ، وينادون الى استئصاله وهو أدب راكد ، والأدب الراكد لا يعيش !

وقد طال التطاحن بين أنصار الأدبين . وسيطول كلما بقي في الأدب قديم وجديد . وعندنا أن الأدب الجدير بالحياة ما استوفي شروط البيان ، وحفل بالمبتكر ، وهز النفس ، وأرغمك على قراءته والاصفاء إليه ، واستعادة قراءته والاصفاء إليه ، هو ما أطربك كلما رويته ووقفت على بدائعه وآياته . هو ما رمى الى أبعد مما يرمى اليه مقال في صحيفة سيارة ينشر اليوم ليطوى غدا . . !

بيروت

كرم ملحم كرم

صاحب جريدة « العاصفة »

المصدر : الرسالة - العدد ٦٤ - ٢٤ سبتمبر . ١٩٣٤ السنة الثانية .

التطور والتقليد

في الأدبين العربي والانجليزي

فخري ابو السعود ١٩٠٩ - ١٩٤٠

التطور والتقليد ، أو التجديد والمحافظة ، عملان خالدان يعملان جنباً لجنب ويتنازعان كل كائن حي من فرد أو مجتمع أو نظام أو نحوه . فهما يتنازعان كل أدب حي ؛ وقد كان لكل من الأدبين العربي والانجليزي نصيب من كليهما ، غير أنا اذا دققنا النظر رأينا أن الأدب العربي كان أوفر حظاً من التقليد أو المحافظة أو الاتباع ، بينما كان الأدب الانجليزي أوفى نصيباً من التطور والتجديد والابتداع .

تطورت لغة الأدب الانجليزي وأسلوبه : فهما اليوم يخالفان ما كانا عليه في عهد شكسبير مخالفة كبيرة ، وتطورت أغراضه عامة : فصار اليوم أشد اتصالاً بالمجتمع أخذاً منه وتأثيراً فيه ، وتطورت أشكاله : فظهرت فيه على التتابع المقالة الدورية والبطولة والترجمة والقصة الطويلة والقصة القصيرة .

وتتابعت مذاهبه : فخلت المدرسة الرومانسية التي ازدهرت في عهد اليزابث ، وكان شكسبير وسبنسر من أبنع ثمراتها ؛ وكان الخيال ووقائع البطولة وحياة الملوك والأمراء والقواد وقصص الأولين وخرافاتهم مداد نظمها ونثرها ؛ وتلتها المدرسة الدينية التي اطلعت ملتون وبنيان

الذين كانت أمور الدين وأخبار البعث والحساب والخلود مدار كتابتهما ثم كانت المدرسة الكلاسيكية في القرن الثامن عشر فافتتن زعمائها في الشعر أمثال درايدن وبوب ، وفي النثر أمثال أديسون وستيل ، بمحاكاة الأثر الكلاسيكية القديمة من أغريقية ولاتينية في حسن الصياغة وإحكام الأسلوب ثم أعقبت هذه مدرسة رومانسية أخرى في مستهل القرن التاسع عشر كان من أقطابها وردزورث وشلي وكيثس ، فنبذت الاهتمام بتنميق الأسلوب وأطلقت لخيالها العنان ؛ وفي أواسط القرن قامت المدرسة الواقعية تحد من ذلك الخيال الجامح وتربطه برباط الواقع ، وكان من رجالها تينسون ثم هاردي .

وكانت كل مدرسة من هذه المدارس الأدبية مرآة للحياة في عصرها : فمدرسة شكسبير كانت مرآة عصر الاستكشاف الجغرافي وكشف كنوز الأدب القديم ، والمخاطرات والمغامرات في الكشف والقتال . ومدرسة ملتون الدينية كانت مرآة عصر التشدد الديني الذي كان زعماءه « المطهرين » ؛ والمدرسة الكلاسيكية المنمقة الأسلوب كانت صدى لمجتمع القرن الثامن عشر المنمق الآداب والاقوال المتهافت على حياة المدن المزدهرة بمظاهر الطبيعة ؛ والمدرسة الرومانسية في مستهل القرن التاسع عشر كانت تعبيراً في عالم الأدب عما عبرت عنه الثورة الفرنسية إذ ذاك في عالم السياسة : من نزعة إلى التحرر من قيود المجتمع وأغلال الفكر والعودة إلى الطبيعة ما أمكن ؛ والمدرسة الواقعية التي تلت ذلك كانت متأثرة بالاستكشافات العلمية البعيدة المدى التي شهدتها القرن الماضي . وقد تلاعبت هذه المدارس جيلاً بعد جيل وكانت كل واحدة منها ثورة على سابقتها تحاول إصلاح معاييبها وتدارك ما أهملته .

هكذا تطور الأدب الإنجليزي مع تطور السياسة والعلم والدين ، وكذلك تطور الأدب العربي : ففئة الجاهلية الوعرة تلتها لغة صدر الإسلام الفحولة ، ففئة صدر العباسي الجزالة ، ثم جاءت بعد ذلك لغة لينة مبالغة في اللين والاناقة ، والأسلوب المرتجل المرسل تلاه الأسلوب الفني المتصنع المرصع الذي تزايد عمله وترصيعه شيئاً فشيئاً ؛ وتطورت أغراض

الادب وشملت من اسباب الحضارة ما لم تشمل قبل : من شؤون الامارة ومظاهر الترف وآثار العلم والفلسفة ؛ وتطورت أشكاله : فظهرت كتب التراجم والاخبار والنقد والمقامات والرسائل المطولة . فالادب العربي قد تطور تطوراً عاماً اتجه الى ترقيق العبارة وتوسيع اغراض القول ، وكان مرجع هذا التطور العام هو تحضر ابناء العربية واشتغالهم بالعلوم .

ولكنه تطور عام غير محسوس كتلك التطورات السالف ذكرها في مجرى الادب الانجليزي ؛ ومعظم اغراض الادب العربي وصفاته توارثت جيلاً عن جيل : فأغراض الفخر والمدح والهجاء والرشاء ونحوها في الشعر ظلت ابواباً ممتازة محددة يتبلى الشعراء في تناولها ولا تتم لاحدهم البراعة حتى يطرق كلا منها ؛ وكتب الاخبار الادبية والتاريخية المختلطة ظلت على وتيرة واحدة من اول ظهورها لا يختلف بعضها عن بعض في طريقة البحث والسرد وتهذيب الابواب والفصول .

ولا غرو فقد كانت تحيط بالادب العربي ظروف كلها تدعو الى المحافظة والتقليد : فالمجتمع العربي ذاته كان مجتمعاً محافظاً لم يكذب طراً عليه جديد من الافكار والانظمة بعد تشبعه بحضارة الاقدمين وعلومهم ، ولم يختلف عليه من الاحداث الاجتماعية والسياسية ما يترك صداها في الادب : فقد كانت القصة من اولها الى آخرها على وتيرة واحدة : أسر وامراء يتوارثون الحكم ويتجاذبون ، وامم مكفوفة عن شؤون الحكم الا ان ثور ثارتها في الفينة بعد الفينة فتقمع وتعود الامور الى وتيرتها ، وما من نزعة جديدة او اتجاه جديد يحول عنان الامور الى غير ما هي سائرة فيه .

والادباء انفسهم كانوا منمزلين بأدابهم عن مجتمعاتهم قلما يعمرون عن امانيه او يحاولون قيادته ، وكانوا اقرب مكلنا الى الامراء منهم الى صف الشعب ، لانهم كانوا يعتمدون على الاولين في معاشهم .

ثم إن قيام الإمبراطورية الإسلامية أدى من بادىء الأمر الى نتيجتين كانت كلتاهما ذات اثر بالغ في الادب العربي ، وكانتا عاملي محافظة وتقليد فيه : وهما فساد اللغة الفصحى تدريجيا ، ودخول الاعاجم في اللسان العربي .

فان فساد اللغة تدريجيا جعل الادباء يحتلون دائما حلو المتقدمين من العرب الأتقاح ، ويتخذون من كلامهم نماذج وشواهد ، وصار حسب الشاعر المتأخر أن يجاري المتقدمين في جزالة القول وإحكام النسج ليكون قد بلغ مبالغ الشاعرية ، ولا يكاد يخطر له أن يبرز على أولئك المتقدمين ويبتكر ما لم يعرفوا ، وهو وإن لم يرد إلا محاكاة أسلوبهم إلا أن ذلك مؤديه حتما الى محاكاة أفكارهم ، ومن ثم التقليد والمحافظة .

والاعاجم الذين دخلوا في اللسان العربي انكبوا كذلك على دراسة المتقدمين وانصرفوا الى محاكاةهم تقويما لعريبتهم وطلبا لاسرار اللغة وقوامدها ؛ ولا يخفى أن كثيرا من أقطاب الادب المتأخرين كانوا من هؤلاء الاعاجم المستعربين ، فكان تأثيرهم في الادب تأثير محافظة وتقليد ونظر الى القديم .

وقد تزايد تبجيل كل ما ورد عن المتقدمين حتى قلوب منزلة التقديس وإن قلم من الادباء من ينكره ويثبت الفضل للمتأخرين . وكان من آثار هذا التقديس وهذه المحاكاة الدائبة ما نرى في الادب العربي دون غيره من الآداب من ظواهر بتراء ليست من التعبير عن الواقع ولا من الابتكار في شيء : كالغزل الاستهلاكي ، وذكر الأبل والحذاء والبيد ، ومعارضة القصائد المشهورة بمماثلاتها في الغرض والوزن والقافية .

وهناك بلجان من أبواب الشعر كان مجرد بقائهما عامل تقليد ومحافظة في الادب : هما المدح والهجاء المتكلفان طلبا لصلوات المندوح أو لهبات خصم المهجو ، فقد كان الشاعر مثلا يمدح قائد الخليفة أو وزيره ما دام مرضيا عنه ، فان نكب تقرب الشاعر الى الخليفة بدمه ؛ وقد كان أكثر

المدح والهجاء من هذا النوع المتكلف المستمنح ، وما لم يصدره الشاعر عن شعور حقيقي فسبيله فيه ان يحاكي ويأخذ ممن تقدم نقصا وزيادة وتخريجا وتوليدا ، لذلك ظلت معاني المدح والهجاء وتشبيهاتهما في مختلف العصور تحوم حول اقوال المتقدمين ، واثّر هذا جلي في جمود الادب وتقيدته بالقديم بدل اتجاهه الى مناح جديدة .

ثم هناك عامل كبير بين عوامل محافظة الادب العربي ، هو اعتزال ذلك الادب غيره من الآداب ، فالادب ككل كائن حي يجمد ويتضائل اذا لم يتصل بغيره ، فتتجاوب الاحساسات والافكار ، وقد كان من اكبر عوامل رقي الادب الانجليزي وتطوره اتصاله بالآداب المعاصرة ورجوعه الى الآداب الكلاسيكية ، أما الادب العربي فلم يكن له مرجع علا ماضيه ، فظل دائما ينظر الى الخلف بدل ان ينظر الى الامام ، ولو استفاد من الادب الاغريقي مثلا لكان له تاريخ غير تاريخه المعروف .

كل هذه عوامل سياسية واجتماعية وأدبية أدت الى ضعف رغبة التجديد واستفحال نزعة التقليد في الادب العربي ، ومن ثم ظل طوال العصور يردد الحانها بعينها حتى بلغ ما يمكن أن يبلغه مثله من الرقي ، ثم انحدر في طور تدهوره الطويل ، وكان من اكبر عوامل هذا التدهور تغلب نزعة التقليد فيه على نزعة التطور .

فخري أبو السعود

المصدر : الرسالة ، المجلد ١١ ، ١٢ أغسطس ١٩٣٥ ، السنة الثالثة .

آراء في الماضي والحاضر

ميشيل عفلق - ١٩١٠ -

الماضي ثقل من الاثقال . وعلى الانسان او على الشعب ان يعرف كيف يجعل هذا الثقل مفيداً . فالحجر يمكنك ان تضعه كأساس لتبني فوقه بيتاً ، او تضعه فوق صدرك فيجبس منك الانفاس . وما اخل اكثر الذين يتفنون بالماضي العربي الا سالكي الطريق الثانية ، فعظمة الاجداد تكاد تخنقهم !

الماضي ثقل ، وللثقل استعمالات شتى . فهو للرفع والدفع ، كما انه للشد والمنع . فاذا عرف الشعب كيف يستخدم ماضيه ، كان دافعا له الى الامام . والا كان كحجر يعترض طريقه ويعوقه في السير .

المعبرة كل المعبرة اذن في حاضر الشعب ، لا في ماضيه لان الحاضر اذا كان قويا يسهل عليه الانتفاع بقوة الماضي ، مثلما ينتفع الولد الذكي من علم ابيه وماله . في حين ان الحاضر الهزيل ينوء بحمل الماضي الضخم ويرزح تحت ثقله ، كما يتخاذل الولد البليد امام شهرة اب ذكي !

قد يشفع الحاضر المجيد بـماضٍ مظلم . فلا يفكر احد مثلاً في ان ينكر على تركيا نهضتها الحديثة بحجة انها كانت متأخرة في القديم . . ولكن ماضي العرب الزاهر لم يشفع لهم امام اوروباء القوية المكتسحة .

لا تكون النهضة القومية في ان يبعث الماضي في الحاضر ، ولكن في احياء الحاضر للماضي . لان الحاضر في الواقع هو الذي ينعش الماضي ويمطيه قدراً يكسوه جمالا .

الحاضر مرآة الماضي . فالابطال القداماء اذا لم تنعكس صورتهم في

أبطال جدد ، تظل هذه الصورة جامدة ميتة . والحاضر اذا كان مظلماً
صدناً يصعب أن تتبين من خلاله وجه الماضي مهما كان رائعاً مضيئاً .

تذكر الماضي دليل على عجز الحاضر وفقره ، كالشيخ المقعد الذي
يقضي أيام شيخوخته في تذكر عهود صباه ولكن الشباب المضطرب بالحياة
قلما يعرف الذكرى لأنه يعمل بدلاً من أن يتذكر .

لا ينفذ صوت الماضي الى الحاضر الا من خلال العصور الصامتة
الفارغة . فاذا كانت هذه فعالة ملأى بالحوادث صعب على ذلك الصوت
أن يهزها ويتجاوب بين جذرها . هذه ايطاليا اليوم ، شل فيها طاغيتها
الابداع وفيد حريتها وحرمتها الخير ، قصارت تحلم بتمثيل روما
القديمة ، كما يحلم الجائع بصحاف اللحم ، والسجين برحب الفلاة ..

لو كانت الشعوب القديمة التي بنت لنفسها مجداً مظلماً تجر
وراءها ماضياً عظيماً ثقيلاً كالذي نجر نحن اليوم ، لما خلفت لنا جزءاً
صغيراً من الميراث الذي نتغنى به . ولكن الجدائدنا مشوا الى الرقي
خفافاً ، كل شيء في نظرهم ممكن ، لانهم لم يتعلقوا بصورة سابقة عن
الحياة ، ولا استعبدتهم تاريخ حافل .

عند الأمم المجيدة الحاضر ، لا يهتم بالتاريخ الا العلماء المختصون
بدرسه . أما الحاضر الحقير فيجعل كل أبنائه مؤرخين . الكل يلهجون
بالقديم لا حباً به بل هرباً من التفكير في حالتهم .

أكبر كتاب عن الابطال القدماء ليس تلك الصحائف الصفراء التي
يجمعها المؤرخون الشيوخ ، بل هو وجود من يضارع اولئك الابطال في
البطولة ويتابع سيرتهم .

الملاهي ابن الحاضر ، لأنه اصفر منه سنناً . فعلى الاب أن يمد يده
الى ذلك الابن الراقد في أعماق العصور وينتشله الى الحياة .

ميشيل عفلق

المصدر : الطبيعة ، دمشق ، العدد ١١ ، ١٩٣٥ .

الميل الرجعية

عند بعض ادباء العرب المعاصرين

يوسف متى

في مصر اليوم حركة ادبية رجعية تزعمها جماعة من فطاحل اخلاف
سيبويه ، ومن الاخطاء الشائعة التي يقع فيها كتابنا هي ان يمزو هذه
الرجعية « للجشع المادي وابتغاء مرضاة الاغلبية الرجعية » فحسب
وان ينعتوها « برجعية مقنعة » وراء ستلر الفن والادب فحسب .
هذه المزاعم لا يمكن اعتبارها كافية لادراك دواعي هذه الرجعية عند
اكابر كتاب مصر . اذ الحقيقة ان هذه الرجعية كانت نتيجة مباشرة لسير
الحياة العلمية في اوربا ، فهي ليست مظهراً خلافاً لارضاء الاغلبية
الرجعية كما كتب احد الاصدقاء ، هذا ، وسنحاول في هذا المقال
ايضاح فكرة الاغلبية الرجعية التي يرددها الكتاب ، ويعززون اليها خطأ القيام
بحركات فعلية ضد الادباء الاحرار . لكن ، قبل الكلام عن هؤلاء الادباء
الرجعيين ، سوف نبحث باختصار الحوادث الاجتماعية التي خضعت
لها اوربا الغربية ، والتي نعزو رجعية كتاب مصر بدرجة كبيرة جداً الى
تأثيراتها وانعكاساتها .



ان السنين التي اعقبت المجزرة الاستعمارية الكبرى كانت مطبوعة
بطابع واضح المعالم ، ويمكننا ان نطلق عليه اسم « طابع الحرية
الفكرية » او « الديمقراطية » ، في مختلف بلدان اوربا الغربية . وهذه
الظاهرة كانت نتيجة قيام الطبقة العاملة بحركات فعالة ضد الرأسمالية
السيطرة اسبغت على المجتمع الاوربي ألواناً زاهية من الحريات الفكرية

والاجتماعية ، سواء في ايطاليا او فرنسا . فاخذ الكتاب ينحون مناحي جديدة في كتاباتهم اقتضتها ظروفه يشتمهم وصرخات المفكرين المخلصين واحساسهم بشقاء الاغلبية الكلاحة في سبيل اقلية ضئيلة مميزة . هذه الكتابات كانت تختلف سواء في الدعاية ضد الحرب وتفسير التلويح ، او نظم الشعر الثوري وتاليف الروايات الشعبية الواقعية وهدم الابطال الخرافية التي تستغلها الراسمالية للسيطرة على مشاعر الناس وخداعهم .

فاذا لاحظنا الآن ان النهضة الادبية في البلاد العربية — وفي مصر خصوصا — كانت ولا تزال تتأثر باحداث اوربا الغربية وفنونها وآدابها امكننا ان نفهم بسهولة كيف ان الحرية الفكرية انعكست على البلاد العربية ، وجازفت بعض الكتاب العرب ، كل بحسب فهمه وقابليته .

اخذت كتابات طه حسين في الشعر الجاهلي تحدث دوبا في مختلف الاقطار العربية ، وكان الزهاوي يشايح الافكار الداروينية في النشوء والبوخنرية في المادية ، ويدات « المقتطف » وسواها تحمل لقراء العرب بعض ألوان الحركات الفكرية في اوربا ، فتأثر بكل ذلك وامثاله قسم كبير من اهل البلدان العربية ، وبهذه المناسبة نقول ان الساخطين يومئذ على الكتاب الاحرار لم يكونوا الاغلبية مطلقا ، بل كانوا الاقلية ذات المصالح المختلفة في الرجعية ، بما فيها الطبقة الحاكمة ورؤساء الازهر يومئذ . ومن الخطا ان نرمي اغلبية الشعب بالرجعية اذ ادركنا ان الحركات التي تظهر احيانا بصورة عداء او كراهية ضد الكتاب الاحرار هي من موحيات الرجعية .

بيد ان الراسمالية في البلاد الغربية لم تكن ، في هذه الاثناء مغمضة عينها من ملاحظة انتباه الطبقة العاملة وادراكها لحقيقة وضعها ، فكانت تشد قبضاتها الحديدية وتتخلق هنا وهناك رجعية قاهرة باسم فاشستية او نازية او غير ذلك ، وولت عليها ديكتاتوريين يحكمون لحفظ احتكاراتها واستثمارها بالثقل والحديد ، ولا سيما انهم ذمروا اذ راوا روسيا

القيصرية تدخل في ذمة التاريخ ، اذ قامت بثورتها الناجمة وشرعت في بناء مجتمعها الجديد ، أول مجتمع غير رأسمالي في العصر الحديث .

وعلى اثر ذلك تقدمت في ايطاليا دمية الرأسمالية موسوليني . واستوت معه في الحكم في ربوع ايطاليا افكاره الرجعية واساليبه الفاشستية في القضاء على كل جديد وخنق صوت كل مخلص وكل مفكر حر . واخذت الرأسمالية تصفق لهذا النهج الجديد بيديها الملطختين بدماء ملايين ضحاياها . فمن لم يقتل من اهل الثقافة العليا والفكر الحر واصحاب الارومة الانسانية قضى في سجون الفاشيست الفظيعة . واخذ الكتاب الرجعيون ينشون ويفركون كل بال عتيق من الاراء التي لا قيمة شعبية او فنية حقيقة او انسانية لها من الادب ، فيقدمونها للناس تسلية رخيصة تلهيهم من وضعهم البائس .

نقفه عند هذا الحد عن ايطاليا ، والقارىء يمكنه ان يفكر بما انتجته هذه الدعوة من الحملة العسكرية على الحبشة المسكينة التي اريقت فيها دماء الالوف من جنود ايطاليا المخدوعين ، وقتل من الاحباش اكثر من اولئك ، والهبت انعام بكل هذه الرزايا التي نلمسها الان ، لا شيء الا لتكون النتيجة تضخم رؤوس اموال اصحاب معمل الاسلحة الإيطالية فقط . واستثمر الاواخي الحبشية ان كانت تستثمر .

ثم في المانيا مدت الرأسمالية العليا بيدها لتخرج دكتاتورا تمثيلي الطبع والاحساس ، فيصرخ بلسانها وهي تختبئ خلفه : « الجنس الجرمانى .. نحن الجرمان ارقى الاجناس واسمى الشعوب وااقوى العناصر ! .. » ثم بالتستر بهذه الدعوة يقوم يشنت كل مفكر حر ، حتى لم يعد احد يتمكن جهاراً من الدعوة الى السلام والتنبية الى ما ترتبه البربرية في سجونها الهائلة وفي الحياة الالمية المقهورة .

لقد خنقت النازية في المانيا كل فكرة تقدمية وقضت على مفكري المانيا الافلاذ ، سواء بزعم انهم من العنصر السامي او انهم ينشرون دعوة الحرب ويبينون للناس أهوالها وفظائنها . ولم يعد يصدر جهاراً

من الكتب والمؤلفات الا ما كان يحمل الطابع الارتجاعي لنفخ صليو
الشباب والهيب حماسهم ليسهل دفعهم الى مجازر اخرى يثري من
ورائها اصحاب المصالح والمعايل .

في الوقت نفسه كانت اسبانيا ترزح تحت نير دكتاتورية اخرى تعمل
في سبيل الراسمالية ومشاريعها الإستعمارية ، وضرب كل حركة نضالية
مجاهدة . وكان الصراع في فرنسا ايضا قائما بين الرجعية الفاشية
واحزاب اليسار ، ولم تنج حتى بريطانيا « الام » من خطر الفاشستية
برغم مزاعم الاعيان والوجهاء بان تقاليد انكلترا ومحافظتها تمنعان تسرب
الفاشستيه اليها !...

هكذا كان في اوربا الغربية . ولا يفهم من هذا ان حركات الكفاح
العمالية ماتت في البلاد التي ذكرناها . اذ ان حركات الاضراب الثورية
المنظمة سارت دائما/بتقدم هائل وقد ظهر اثرها في اسبانيا وفرنسا .
واما في ألمانيا وايطاليا فتشتغل بنظام خاص ليس هنا مجال ذكره .

غير اننا نريد ان نقول ان هذه الحركات والافكار الرجعية انتقل
صداها الى البلاد العربية . ولا ننكر ان مصر اوثق هذه البلاد علاقة
فكرية باوربا الغربية ، فكان انعكاس آثار الرجعية فيها ابين واوضح
ولم يقف الامر في آدابها وفنونها ، بل تعداه الى نظام الحكم ، وهو ما
كان يريده المستعمرون . ولا يلعب القارىء الى اننا نقول بحتمية هذا
التاثير الرجعي . لكننا لا ننكر ان مهزلة الحكم المطلق في مصر كانت لعبة
استعمارية ، قضت على دستور ١٩١٣ وسدت افواه الاحرار الصاعقين
ضد الاستعمار .



لم يكن اثر الرجعية على جميع الكتاب في مصر متساويا او واحدا .
ولكن اكثر من ظهرت عنده اتجاهاتها وافكارها هو الدكتور طه حسين .
ولا ننسى ان نقول ان الكتاب الرجعيين حصلوا على شهرة واسعة ومكانة

ممتازة وثراء كبير ، ودأبو جهدهم للمحافظة عليها . إذ لم يكف يخرج طه حسين ، مثلا ، من الجامعة المصرية ، وكان متأثرا بموجة الرجعية الغربية ، حتى اخذ يفكر بطريقة لارضاء « الاقلية المدركة » - لا الاغلبية غير المدركة كما يعتقد بعض الاخوان . فكر طه حسين كيف يرضي اعداء الرجعيين بالامس ، فلم يكن اسهل من التزبي بزيتهم والضرب على عودهم وبهذه المناسبة نقول ان كتب الرجعية في مصر لا يكتبون لغير الاقلية « المتعلمة » فهم لذلك لا يهتمون بالاغلبية « الجاهلة » . وكل ما يكتبونه او يقولونه يجب ان يفهم انه في سبيل مرضاة هذه الاقلية ، التي اصبح طه حسين مربوطا بخيوطها المصلحية . فكان همه اعادة ما افسده الدهر من صداقتهم ، وكان ظهور كتاب « على هامش السيرة » اثر الموجة الرجعية الغربية وارضاء للطبقة الحاكمة والازهر .

الدكتور من القائلين بان الادب والفن يجب ان يكتب لاجل الادب والفن ، ويجب ان لا يتبدل هذا الادب لتفهمه العامة !.. ان رجعيته المفضوحة تحاول ان تتستر بما يتوهمونه ادبا وفنا . ويجدر بنا ان نقرر ان الدكتور تمكن من ارضاء الطبقة الرجعية القليلة ، وهكذا اميد الى منصبه في الجامعة ، حيث حمل فكرة مناصرة كل وضع وكل نظام عندما اتخذ سمة الواقع بين جماهير الطلاب : ان يهدواوا ويصبروا في حركاتهم الفعالة ، وانهم المتعلمين الذين يجب عليهم ان لا ينصروا حزبا على حزب ، وانه يجب ان تتميز حركاتهم عن حركات غير المتعلمين !.. الى آخر هذه المخدرات المضحكات .

ومن الغريب ان تأخذ حمى « الفن » بخناق الدكتور حتى لتفقد بصيرته الى حد ان ينكر العلم ويحمل على العلماء . فقد قرأنا له مقالا في « مجلتي » عنوانه « بين كاسين » ينكر فيه لصديقه الدكتور محمد عوض محمد لانه كتب مقالا في مجلة « الهلال » ذهب فيه الى ان حروب طروادة قامت على اساس فتح تجاري ، ونظمها هوميروس كما اوحى له مخيلته الشاعرة . تنكر الدكتور طه حسين لهذه « النتيجة الفجة الغليظة الحقيرة » ، كما يدعوها ، واقام بشتم هؤلاء العلماء الذين

يعززون كل حركة او حرب الى اسباب مادية وارسلها صرخة : « اللهم اني انكر العقل ! واجحد العلم ! وارفض ان تكون حرب طروادة قد قلمت لشيء غير جمال هيلانة الخالدة ! »

ندع طه حسين غارقاً في كأس « فنه » الى اذنيه يتجرع منه « التي لا يجرمها الا صفوة الاخيار ... » رائين لهذا الفهم المعكوس ، لنقول كلمة عن الدكتور حسين هيكل الذي نرى ان موجة الرجعية كانت تجرفه وهو يناضل في سبيل الوصول الى ما يتوق اليه « كمدرّك متعلم » ، فكلن من اللزام عليه ان يرضي الاقلية الرجعية المحافظة التي تقرر مصير المنتمين اليها .. وهو كذلك من الذين يحصرون ويحددون الادب بانه « فن جميل يبحث عما في الوجود من حير وجمال » فقط . وهذه الفلسفة المورفينية الرجعية الفردية تقول للفلاح الكادح والعامل المتعب اللذين توكل جهودهما ، تقول لهما بطريق غير مباشرة : « كن جميلا تر الوجود جميلا » ليخدع كل واحد منهما نفسه ويرضى بالواقع الاليم - نقول ان هذه الفلسفة التخديرية لا يقولها هيكل للفلاح والعامل رأساً وما حولهما من الاغلبية المطلقة لانهما لا يقرآنه ، ولكنها تخلق جوا من هذه الروح وتشير جدالاً مضحكا عن الخير والجمال ، فتقرر دون علمه وشعوره ، ما يريده للاغلبية . كذلك الاستاذ الزيات في « رسالته » عندما يتكلم عن القرية والفلاح ، واصفا جمال الطبيعة وخرير الماء وثغاء النعجة وتفريد البلابل .. وسعادة الفلاح (!...) وتمجيد قناعته وسكوته ، بأسلوب مجلجل الكلمات ، ضخم العبارات ، رجعي النزعة .

اما رجعية الاستاذ الرافعي ، فمن الواجب ان نقرر انه تشربها طفلاً وكرعها يافعا وامتزجت بدمائه كهلا بحكم مركزه وبيئته . وان ذهب يزعم للناس انه يكتب عن الحب والفلسفة ، فان كلامه في الواقع فارغ المعنى لا يكاد ينطبق بشيء الا على ما قررته رجعيته من اهمال تعليم الشعب . وقد كان من وحي « الرسالة » ان جرافت الاستاذ توفيق الحكيم بتيارها . وهو من تلامذة طه حسين ومن اشد الكتاب صلة بالادب الغربي وتمجيذاً لفردية الفن ، ومن الكلاهيين للمرأة . هذا الكاتب

الدكي الفنان بعد ان اخرج « عودة الروح » عاد يقرر ادبه باريستوقراطية ادبية مبتذلة . فما اخرج آخر كتبه إلا لتمجده الرجعية وتضمه الى صفوفها .

ان جميع من ذكرناهم يقولون بمبدأ « الفن لاجل الفن فقط » وهم يكتبون للطبقة « الراقية » فحسب ، المتعلمة تعليما عاليا ويانفون الكتلة للجمهور ويصرحون بهذا بصلف الاشراف المميزين عن الناس بطبقاتهم وبما يعتقدون من فهمهم وادراكهم السلمي لاصول الحياة الفنية والادبية . فتراهم يشنعون بكل كاتب « يتدل حتى تفهمه العامة » ويقتتلون على لفظة لا يقرأها القاموس . تقول هذا لندل على ان هؤلاء الكتاب لا يكتبون للأغلبية الا بالرغم منهم وبسوق من غريزتهم حين تسمو بهم عن طلب ارضاء الاقلية الرجعية التي ينطقون بلسانها ويحافظون على مصاحها . فمن الخطا اذن القول بان هؤلاء يبتغون « ارضاء الاغلبية الرجعية » كما ذهب صديقنا عبد الوهاب الامين . ولسنا بحاجة للقول اننا لسا ضد القديم على اطلاقه . ولكننا نسال . او ليس من الافضل ان لا يتوارى الكتاب وراء كلمات الفن والشعر والادب ليتخلوا عن ميدان الشعب . ان المخلصين يهتمون بالادب الشعبي . وان شيئا يعوز الرجعيين هو ما يسمى « الوجدان الثوري » الذي يمتاز به المخلصون القريبون من الشعب والامة .

بغداد

يوسف متى

المصدر : الطليعة : دمشق العدد الثامن . تشرين الاول ١٩٣٦ السنة الثانية .

المتعلمون والشعب

ابراهيم المصري

ننشر فيما يلي مقالا ممتعا للاستاذ ابراهيم المصري يبحث فيه ناحية خطيرة هامة من حياة الشباب المثقف الناشء . وهو ، وان يتحدث عن المصريين منهم ، فان اقواله تنطبق اعلى تلك الطبقة في مجموع القاطنات العربية ، رغم ما نلاحظه الان من بوادر نهضة مباركة بينها في بعض ربوعنا .

« الطليمة » التي ما انفكت تدعو عنصر الشباب المتعلم الى التقرب من الشعب ودرى شؤونه وامله وتثفيقه والتعاون معه على تحرير هذا الوطن العربي واعلاء مجده ، تنهى على الجهود التي يبذلها الاستاذ المصري وامثاله في هذا السبيل وتامل ان تكلل بالنجاح . والمقال هذا قد نشر قبلا في صحيفة مصرية ونحن لم نر فضاضة في نشره مرة ثانية لما فيه من صراحة وصدق .



تصطنع مصر الحضارة الغربية . وترسل بابنائها الى مختلف بلاد اوربا واميركا يتلقون العلم على اهلها ويتصلون بروح الحضارة في مستقرها ويقفون بانفسهم على شتى مظاهرها الخلقية والثقافية . ثم يعودون اليها لتجديد البيئة الشرقية وحراثتها حراثة جديدة لهدم الفاسد من النظم ووباء الصالح منها ، للاندماج في طبقات الامة اندماجا عمليا ونشر مبادئ الحرية والعدل بين سواد الشعب .

هذا واجبهم فهل هم يؤدونه على خير وجه . وهل تلمس في حياتنا اليومية اثرهم الفعال . وهل نحس في اخلاق هذا البلد وعاداته ونظمه تلك الوثبة العنيفة التي يحدثها غليان الفكر والشعور في نفس الطبقة المتعلمة .

ليس من ريب في ان البلد ناهض . وان النهضة المصرية كسائر نهضات

الشعوب الناشئة تسري عليها افلعل المد والجزر ، فتارة تتقدم واخرى تتراجع . ولكن هذا التارجع بين الارتقاء والتقهقر ، هذا الاضطراب بين القديم والجديد ، هذه الحركة المطردة نفسها هي مظهر القوة وعنوان الحياة .

• واذا فالنهضة قائمة ، والشعور بها متأجج في الصدور ، ملازم اخيالات المصلحين يبرح بهم ويقض مضاجعهم ويصلهم مر العذاب ... لا ، اني اود ان اصلح نفسي والقراء بان هذه النهضة ما زالت حتى السابعة منة من الرؤوس للرؤوس ، صادرة من المتعلمين للمتعلمين أي لمصلحة طبقة واحدة : هي طبقة أهل المدن وأهل الريف المترفين والمسؤول عن هذا هم بعض المتعلمين أصحاب الثقافة الغربية أو أدمياؤها . ونظرة واحدة على حياتهم تقنع القارئ بصواب ما ارمي اليه .

يقصد الشاب المصري منهم أوروبا فيتخصص في فرع من العلوم ، ويحصل على شهادة . ثم يرجع إلينا وقد فتنه من الحضارة الغربية ملاحها الظاهري ، وزخرفها المادي وشتى وسائل النعيم التي أبصر القوم هناك يستمتعون بها ويقدم لهم منها الرقي الصناعي ألوانا مختلفة كل يوم .

يرجع إلينا هذا الشاب وملاء نفسه الأمل باستغلال علمه في سبيل ان يحيا في مصر حياة المرفهين في أوروبا . في سبيل ان يصبح موظفا ناجحا يتحدث عن الدرجات ويرتقب العلاوات ويتطلع الى منصب قاض أو وزير في سبيل ان يصبح رجلا « بوجوازيا » كاملا ، مطمئنا على عيشه ، مستوفيا حاجاته المادية ، آمنا شر الفاقة ، خاضعا للنظام والعرف ، يتجنب المصارحة بأرائه الجديدة ، ويخشى الافضاء بنزعائه الحرة ، مخافة ان يصطدم بالتقاليد السائدة فيتهدد مركزه ويتبدد النعيم المادي الذي يسبح فيه .

هذه الحياة تولد في نفس هذا الشاب ضربا من الإنانية الخطرة ، والجبن الحقر والتفلق الممقوت . فهو يتعلم ليصبح موظفا . وهو يترفع ليصبح من القلادة . ومتى أصبح منهم وانخرط في سلوكهم واتصل بهيئة

الحكام خضع لطبقته وانضوى تحت لوائها والقى عقله واحساسه دفعا عنها ، وانقطعت الصلة بينه وبين نفسه وبينه وبين سواد الشعب .

قد يكون هذا الشاب موسرا ، في وسعه الانصراف الى الاعمال الحرة والاحتفاظ بفكره خالصا من شوائب الكذب والرياء وخدمة بلاده خدمة نزيهة صادقة ، ولكنه كثيرا ما يؤثر المنصب على العمل الحر . اذ في المنصب لذة السيادة والحكم التي يتوهم بعض المتعلمين في مصر انها هي التي تتفق مع ما للعلم من مكانة وسلطان ، وهي التي تتناسب مع ارسقراطية العلم وارسقراطية المال .

فليس المنصب في نظر اوائك المتعلمين الا وسيلة من وسائل السيادة ، وملجأ يستريحون فيه بعد عناء التحصيل . يستريحون ويستمتعون بأقل مجهود . وان من كان هذا مثله الاعلى ليس في مقدوره على الاطلاق التلخص من مؤثرات الطبقة التي تحققه له وتمنحه اياه فهو يجتهد في حمايتها برغبه . يتشبث بعاداتها ، ويروج لآخلاقها ، ويدود عن تقاليدھا ، وينسلخ عن مجموع الشعب شيئا فشيئا ليزداد ارتباطا بها .

وهذا هو الواقع الآن .

فالفرق من المتعلمين الذين ذكرت ، لاسيما بعض المثقفين منهم في مختلف جامعات اوربا وامريكا ، قد انضموا بدافع المصلحة وتاثير البيئة المتحولة التي انشأتهم وانفقت على تعليمهم - الى طبقة الموظفين ، والموظفين فقط . بل هم اليوم قد الفوا طبقة ممتازة تعيش على هامش الحياة المصرية وتتمثل انانيتهما الخطرة في السعي الى ما يعود عليها وحدها بالربح الوفير .

نحن في حديثنا عن هذه الطبقة لا نوجه اللوم الى الموظفين ولا نقصد اتهمهم ، ولكننا نعيب على بعض المتعلمين المثقفين منا عبوديتهم لفكرة التوطف وانصرافهم الى تاليف كتلة مستقلة لا تحفل بغير مصلحتها . كتلة قد انسلخت وتنسلخ عن ابناء الشعب تحيا من كدهم وكأنها غريبة منهم .

لا تعنى بهم ولا تأبه لمطالبهم ولا تحول التعرف اليهم للوقوف على مدى القوى الهائلة التي تصطدم في نفوسهم ولدراسة حياتهم العاملة المجيدة على ضوء الثقافة الحديثة والعلم الحديث دراسة وافية شاملة أساسها الرحمة والمحبة وقوامها العدل والانصاف والحرية . وأنا اتحدى أي فرد من أفراد تلك الطبقة ان يحدثنا طويلا وفي حنكة ودراية وعمق عن حياة الفلاحين المصريين والعمال المصريين ، وعن واجبه تجاه ما تتطلبه تلك الحياة من اصلاح عاجل ، وعن جهوده هو في سبيل هذا الاصلاح . بل أنا اتحدى ان يجرؤ فيصارع باحساسه العميق نحوهم ونظرته اليهم ومعاملته لهم ، سواء في البيت أم في الديوان أو في الطريق أم في المزرعة .

ولو فعل . لو كشف ايما انسان بما يضره لهم ، لو خلا الى نفسه وحاسبها على عواطفها من نحوهم ، لو حلل الافكار التي تنبثق في ذهنه والميول التي تحتل قلبه ساعة ان يصادف واحدا منهم ، بل لو انعم النظر في تصرفاته حيالهم وقلارن بينها وبين ما يشعر به ويفعله اذ يلتقي بنفر من اهل طبقته ؛ لو اقدم على هذا وكنت فيه بقية باقية من ضمير حي لم تخنقه المصلحة ولم يخمد حبه الترف ، فقد يشعر ان بينه وبين الفرد المتحضر المتعلم الصحيح كما يبين القرد والانسان او بين شعوب أوروبا الشمالية وقبائل الزولو .

ان الترفع والكبرياء والازدراء والاستخفاف والتحكم وعدم الاكتراث وسائر غرائز الاثرة الشائنة في الروح البيروقراطية الشرقية العتيقة هي التي تقابل بها تلك الطبقة المصرية المثقفة أبناء الشعب ، وهي التي تحفر الهوة السحيقة بينها وبينهم ، بل هي التي تؤخر حركات الاصلاح في الريف بالنسبة للفلاح وفي المدن بالنسبة للعامل .

وانه ليخيل الي ان تلك الطبقة من المتعلمين لا ترى في مصر غير القاهرة والاسكندرية ولا تعمل الا على نقل الحضارة الأوروبية الى القاهرة والاسكندرية حيث تنعم هي وينعم الاجانب ويتفق الفريقان على استغلال موارد البلد لاشخاصهم وذويهم دونما احتفال بالطبقات البائسة المنكوبة العاملة .

اجل لقد انقطعت الصلة بين تلك الطبقة وبين العمل والفلاحين .

ان جهل هؤلاء وفقيرهم وانحطاطهم وقنذارتهم وتواكلهم ، كل هذه الامور، ض تنفر منهم الفرد المتعلم المنتسب الى تلك الفئة . فبدل ان يستخدم علمه في التقرب اليهم والاحساس بمطالبهم وايضا حاسة الكرامة فيهم ومحاولة اصلاحهم ، ينطوي على نفسه ويتشبث بطبقته ويزهو عليهم وينصب الحاجز الابدي بينه وبينهم . وهو انما ينساق الى ذلك بطبيعة حياته ونظامها . فهو يعيش في المدن ، بل في الاحياء الاوروبية وبين الاوروبيين . يرتاد مسارح التمثيل ويفشى دور السينما ويطالع الادب الغربي ويتشدد بالكلام عن كبر كتاب اوربا وشعرائها ويجادل في المسائل السياسية بعبارات ملؤها التحفظ والحذر والجبن . فلذا ما حدثته عن المشاكل الاجتماعية وعن موقف عمالنا من حياتنا الاقتصادية وشؤون فلاحينا والامهم ومطالبهم اجابك لغوره : انهم سعداء بحظهم ، سعداء بجهلهم . وانهم هكذا عاشوا طوال السنين ، وانه قد يكون في الرقي والتقدم شقاؤهم . . . فتحس لغورك بعمق الهوة الفاصلة بينه وبينهم وتشعر انه لم يفكر قط فيهم ولم يخطرهم على باله لحظة وان حياته الضيقة الجوانب المحدودة الفسحت ، مقصورة على اعمال المنصب وملاهي المدن ومطالعة الصحف والروايات .

هذا ولو انه رجع بذاكرته الى ما يمكن ان يكون قد طالع من كتب التاريخ الحديث ، لادرك ان المتعلمين من شبان وبنات الروس كانوا يؤلفون قبل الحرب مختلف الجمعيات تطوف القرى الروسية وتتصل بالفلاح الروسي وتتوافر على دراسته وتتعرف الى خلقه وتستمع لشكاواه وتعمل على تعليمه وتهذيبه ورفع مستواه المادي والادبي . بل لقد كان ابن البيوتات المريقة يخرج على وسطه ويندمج في بيوت الشعب وينزع الى الريف ويحس وهو يتجول ويجاهد ويعلم ويهذب ان من واجبه احكام الصلة بين شطري الامة ، وتوثيق روابط التفاهم والتعاون والرقى المشترك بين الطبقات القائمة والطبقات العاملة .

أما عندنا فالويل كل الويل من المتعلم المسمم العقل والروح يوم ينقل مثلاً في وظيفة إلى الريف . أنه ليستحيل اذن عنصراً جامعاً من عناصر الاستبداد . يعد هذا التبدل في حياته كارثة ، فيجف طبعه ويفلظ خلقه ويعمد إلى الثأر لنفسه من الفلاحين التمساء فيضطهدهم وينكل بهم كأنهم هم المسؤولون عن ثقله ، وهم الذين سلبوه نعمة الحياة الناعمة في المدن . وهذا الكره لحياة الريف الناجم عن سحر الحضارة الحديثة المجلوبة إلى المدن وعن افتقار فريق من المتعلمين للاحساس بما للشعب عليهم من حقوق ، يؤثر ولا شك في ثروة البلد أعمق تأثير . فأصحاب الأقطان يعيشون في القاهرة أو الإسكندرية فارين من قراهم تاركين مقاليد الأمور فيها لمفتشهم ونظرهم .

وهذا هو السر في أن كثيراً من المزارع الخصبة تهمل زراعتها أو تزرع بأساليب سيئة فيقل محصولها بينما أصحاب الأقطان من المتعلمين حملة الدبلومات الزراعية يقنعون بإيجار أطيقتهم ولا يحفلون بمستأجريها ولا يشعرون بالبتة بأن أولئك المستأجرين عليهم واجبات ، في تاديتها مصلحة لهم وللمجموع على السواء .

وجملة القول أن في مصر طبقة من المتعلمين في وسعها تحطيم أغلال المعاداة القديمة والتقاليد البالية ولكنها لفرط عنايتها بنفسها لم تعد تعني بالأحوال العامة للأمة . فهل لشبابنا المتعلم أن يدرك أن لا علم مع الانانية ، وأن الأمة إنما علمت رجالها لا لخدمة أنفسهم فحسب ، بل لخدمة مجموع الأمة ممثلاً في تلك الطبقات الجاهلة المسكينة الخليفة بكل حب وتمجيد وتصحية ؟

ابراهيم المصري

المصدر : الطليعة - دمشق العدد العاشر ، كانون الاول ١٩٣٦ السنة الثانية .

قطيعة الماضي

محمد امين حسونة ١٩٠٩ - ١٩٥٦

اقبل على الادب الاوربي اطالعه في حماسة وشغف ، فنتوقد ذهني
وينشرح صدري ، وسرعان ما تواتيني الافكار العلمية الصحيحة ، وتنثال
علي الخواطر الناضجة .

هذا الادب الاوربي الذي يلهمني تعاليم الحضارة الحديثة التي يأخذ
بها العالم ، ويفرس في ذهني روح التفكير النبيل الحر ، يزيدني ثباتا
وجراة ، ويوثق الصلة بيني وبين رواده ، فأحس اني عضو عامل في
هذه الهيئة البشرية المتمدينة ، وانظر الى العالم كما أنظر الى أسرة
واحدة ، ويدفعني هذا الاحساس العميق الى التفكير في طلب الرقي
لامتي ، واستنباط وسائل الاصلاح التي أرى أبناء وطني في أقصى حاجة
اليها ، فلا يعود الفلاح عرضة للفقر والجوع والمرض ، ولا يشكو الشاب
المتعلم البطالة والضعف والخمول ، ولا تعتقد المرأة في الزار والتمائم
والبدع ، بل تعمل على دفعهم جميعا من حضيض الجهل الى مرتبة
الانسان الحي .

فبالادب الاوربي أحيا حياة فكرية شريفة ، وتنمو في نفسي نزعة
قاهرة تدعوني للسمو ، فأوشر اللحاق بالغرب لاتعم بخسرات المدنية
الحديثة ، واقف على قدم المساواة مع غيري من أبناء القرن العشرين .

وأحاول ان اكره نفسي على تذوق الادب العربي القديم وتلاوة
نصه ، فأخال اني مساق الى السأم والضجر وبلادة الفكر ، وسرعان

ما يتراءى أمامي جو الرياء الذي عاش فيه أدباء تلك العصور ، جو القصور المتعفنة التي كانوا يستمدون حياتهم منها ، فيتقدم الشاعر من المرتزقة ليمدح الخاصة ويتملق العظماء ، لا لشيء سوى جلب السرور والمتعة الى نفوسهم ، على حساب الادب الحر . ومن هنا كان حظ الشعب المسكين من التصوير الادبي حظا ضئيلا ، فلم يعترف أدباء العرب بحقوقه ولم يمنوا بالدفاع عن حقوقه ولا طلب المساواة بين أفرادهم ! .

هذا الادب وحده لا يمكن ان يصلح غذاء كافيا لابناء هذا الجيل ، فهو يؤتي في نفوسهم أسوأ الثمرات ، ويرغمهم على إنفلاق وقتهم في حل الطلاسم والأحاجي ، ويستنفد قواهم الذهنية في اصطناع أشباه تلك الأساليب الكلابية المقنونة . وأخيرا ينتهي بالمستنيرين منهم الى اعتبار أدبا زائفا لتجرده من عناصر الحياة الخالدة ، ووقوفه جامدا لا يعبر عن إحساساتهم الابدئية بل عن الحياة الاجتماعية عند طبقة معينة من العرب في أزمنة بائدة .

بسبب الخضوع لهذا الادب ، وتلك العقائد الموروثة ، لم يتقدم الى الآن قصصي واحد فيعالج الموضوعات التي تمس حياة الجماهير وتحرك الوتر الخفي من إحساسهم .

ولم يستطع شاعر من شعراء الجيل الماضي ان يتخلص من عبودية الألفاظ والزخارف ، فيهب مشاهري بوصف جمال بلادي ، ويستوحي الطبيعة المصرية بدلا من استعارة أخيلة البدو الذين لا يزالون يتحكمون في أوضاع شعره وفنه من وراء قبورهم ..

ولم يجزا كاتب مصري من كتب ذلك الجيل على ابتداع عمل أدبي فني للدفاع عن فكرة معينة ، أو محاربة البدع والخرافات والسخافات التي تشن تحت ألقائها أمنا .

وهل تحسب واحدا منهم فكر في مصلحة المتعلمين عما اذا كان التقليد هو سبب تأخرنا الفكري أو تقدمنا ، وفيما اذا كن احتذاء

أساليب الاولين يعوق نشاطنا الذهني ويقتل ملكات الابتكار في نفوس
شبابنا ؟

جميعهم شغلوا بالبريق اللفظي ، وانصرفوا الى الزركشة البيانية
والشعوذة اللغوية ، فكان كل ما عند انصار الفكر الحر باطلا في نظرهم
يجب أن يحاربوه ، وكل ما في صحائفه الاولين خير يجدر بهم أن
يقتبسوه .

وفي الحقيقة ماذا يهم الشاب في مصر أن يعرف أن المتنبي ادعى
النبوة أو أنكرها ، وأن أبا نواس كانت له علاقات شائنة مع رجال
عصره ، وأن أم عمرو بن العاص كانت زوجة لأربعة رجال في وقت
واحد ، وأن يلغي عقله ليردد فقط ما سبقه السلف الى قوله فيمدح
الجاحظ ويدم خصومه ، ويتشكك في كل ما كتبه المصري بحجة أنه كان
كافرا زنديقا !

وهل تحسب الشبان عندنا يفيدون من مطالعة هذه المؤلفات التي
توافر أصحابها على صناعة التصنيف ورص الكلمات ، وترتيب الاشعار
السقيمة التي يرثي فيها الشاعر ناقتة في أربعين بيتا أو يهجو كلبا أو
يصف جاروبة أو يتغزل في غلام بعشرات القصائد .

انما يهم الشاب المصري أن تصارحه بأن عليه أن ينظر الى أدباء
الصناعة كما ينظر الرجل المتمدين الى الدمى الخشبية المصنوعة في
القرون الوسطى ، يهمه أن تكشف له عن المساويء والميوب الخلقية
التي نزلت اليها امتنا ، وأن تواجهه بالحقائق المرة بدلا من التستر
عليها ، وأن تعالج أسلوب الفلاح في حياته التمسعة قبل أن تعنى بأن
يجيء أسلوبك الكتابي على نمط الجرجاني أو الخوارزمي أو الجاحظ .

كيف تريد الى الشعب أن يتذوق الادب ، وكيف تشكو من كساد
سوق الكتب وبيع الكلمات ! ومعظم هذا الادب اجنبي عن نفسيته ،
لا يصف ملامحه وهاداته وبيئته ، ولا مطالب الطبقات الدنيا وحقوقها ،

وانما هو يستوحي خيال أمة غير الأمة المصرية ، ويباعد بينه وبين تفهم الوسط الذي يعيش فيه ، ويتحدث اليه عن تاريخ اناس لا يمت الى عقليتهم بصلة .

وعليه يمكننا ان نقرر في صراحة ان ادبنا الحاضر لا يمثل روح العصر ولا حياة القرن العشرين ففي الوقت الذي بدأ العالم يفكر في الاستعاضة عن المصباح الكهربائي بما هو احسن منه ، لا يزال نضوء ظلام آدابنا بالفتيل والمشعل ، ونتعلق بالماضي عوضا عن ان نتغنى بمجد المستقبل ونتمسك بأهداب التقليد بدلا من ابراز مواهبنا في مضمار الاجتهاد ، ولا يزال تعريف الادب عندنا « هدية الادباء للادباء » . فهو الادب الارستقراطي الغريب عنا ، وهو ادب الفقائيع الذي لا يسلك الى نفوس العامة مسلك الشعور المتمكن الباقي .

فهذه التقاليد ذات الروح الارستقراطي الزائفة هي التي جعلت الكاتب يترفع عن ان يلتصق بالحياة ، ويبقى النزول الى حاجات الناس ، ويعيش بمعزل عن أمته في ظلمات الماضي السحيق .

وهذه العبودية الفكرية المتأصلة في نفوس البعض منا هي التي يجب التحرر منها كي تتوثق الصلة بين الكاتب وعصره ، وبين الكاتب والمجتمع الذي يعيش فيه ، والقراء الذين يطالعونه ويبحثون في أعماله عن الحق والجمال والخير والحرية .

محمد أمين حسونة

المصدر : الطليعة - دمشق ، العدد الثالث - آذار ١٩٢٨ السنة الرابعة .

القديم والجديد

نقد وتحليل

محمد احمد الفمراوي

١

لعل من أسوأ سيئات عصور الانتقال ظاهرة التمرد التي تغلب على الناشئين فيها ، فقد كان الناس قبل أن يتلوا بعصر الانتقال هذا يرجعون فيما يختلفون فيه الى أصول مقررة تستند الى ما يسلمون به جميعا من دين ، أو عرف مستمد من دين ، أو الى ادب عريق تحدت احكامه وتبينت معايير ورسخت اصوله على طوال القرون . فلم يكن صغير يخرج على كبير في تحديد ما ينبغي ، ولم يكن ناشيء يتطاول على استاذ فيما يعلم انه ناشيء فيه وأنه حديث العهد به . فكان الصغير اذا خالف في سلوكه رأي الكبير يخالف وهو يعرف انه مخطيء ، ولم يكن ناشيء مبتدئ في الادب أو غير مبتدئ يخطر بباله - اذا لم يقتنع برأي استاذ أو من هو في منزلة استاذ في اللغة أو في الادب أو في الدين في مسألة بدا له فيها رأي خاص - أن يعيب استاذ أو يثليه أو بصغره أو يحاول أن يعرضه لسخرية الناس . وكان الكبار اذا اختلفوا يتحاكمون الى ما أجمعوا على التسليم به من الاحكام والاصول . فلم يكن الخلاف في المقاييس ولكن في طريقة القياس ؛ لم يكن في القواعد ولكن في التطبيق . فكانوا سرعان ما ينتهي خلافهم الى اتفاق إن كانوا ممن يبتغون الحق للحق لا للشهوة ، أما الذين تأخذهم العزة بالاثم فلا ينزلون على حكم الحق وإن وضع فاولئك في عصر هم مصدر الشقاق والفراق ، سواء أكان العصر عصر استقرار في المعايير أم كان فيها عصر اضطراب يشبه الفوضى كعصرنا الذي نعيش فيه .

كان الامر كذلك وكان الناس في راحة من اجل ذلك . كان يكفي ان يحتج احد المتناظرين لرأيه بأية كريمة أو حديث شريف أو رواية في اللغة ثابتة تشهد لاحد الرايين حتى ينزل صاحب الراي الآخر على راي الاول من غير ان يجد في نفسه غضاضة ، لانه في قرارة نفسه يعرف انه نزل على حكم الآية أو الحديث أو الرواية الصادقة ، وهذه عنده احكام يجب ان تطاع واصول يجب ان تتبع ، والغضاضة كانت عنده والهوان في مخالفة تلك الاحكام والاصول بعد ان وضع له وجه الحق منها ، لا في مخالفتها نزولا على حكم الهوى والشهوة . وكان الامر في ذلك كله مداره الدين وعلم المرء ان الله سائله عن الحق لم لم يتبعه وقد قر في نفسه ، وعن الباطل كيف اتبعه وليس به الحق رغم ضميره ورغم قلبه . فكان هذا الوازع الداخلي حاملا على الحق صارفا عن الباطل حتى ضعف في الناس على الاخص بفشو هذا التجديد الذي يستمد كل قوته من جلال الغالب في نفس المغلوب .

ومسألة القديم والجديد عمرها لا يكاد يزيد على ثلاثين عاما اثارها في الناس نفر تثقفوا ثقافة غربية من غير ان يكون لاكثرهم من الثقافة الاسلامية نصيب مذكور . والغرب والشرق على طرفي نقيض لا يلتقيان كما يقوله رديارد كيلنج ، وإن كان من الممكن ان يلتقيا في العلم الذي هو مفخرة الغرب والذي هو جزء من الاسلام الذي يدين به الشرق . لكن الذين اثاروا مسألة القديم والجديد لم يكونوا يعرفون ، ولعل انصلهم لا يزالون يجهلون ان العلم الذي ظهر به الغرب هو في الاسلام جزء من الدين ، وان المدنية الغربية ليس فيها ما يستحق ان يطلب ويؤخذ إلا ذلك العلم الطبيعي الذي اهتدى اليه الغرب بالعقل والتجربة ، والذي يمثل فطرة الله التي فطر عليها الاشياء . أما فطرة الله التي فطر عليها الناس فتلك يمثلها الاسلام عن يقين . فكان الغرب والشرق قد اقتسما علم الفطرة : علمها الغرب في الماديات بالعلم والتجربة ، وعلمها الشرق في الروحانيات والاجتماعيات بالدين والوحي . فكان الشرق سخطا حين لا يأخذ بعلم الغرب ، وكان الغرب ضالا حين يخالف الاسلام كما انزله فاطر الفطرة على محمد عليه الصلاة والسلام . وكان سبيل

الكمال لهما معا وللانسانية ان يجتمعا على العلم والدين ، علم الغرب الطبيعي ودين الشرق الاسلامي ، فيجتمع لهما بذلك علم الفطرة ونظامها في المادة والروح . وكان هذا أيضا هو سبيل التجديد الصحيح لمن يريد ان يكون مجددا مصلحا ، يحدد للشرق شبابه ومجده من غير أن يعرضه لشر ما يهدد الغرب من اخطار . وهذا هو السبيل الذي دعا اليه جمال الدين الأفغاني وسار على اثره فيه محمد عبده . لكن دعاة التجديد الذين جاءوا بعدهما ممن لم يكن لهم مثل علمهما ولا بصيرتهما بالاسلام ضلوا سبيل الدعوة وصدقوا الغرب في ظنه بالاسلام من أنه كان سبب تأخر الشرق . ولما لم يطبقوا أن يهاجموا الاسلام مواجهة فيدعوا الناس صراحة الى نبذه ، عمدوا الى مهاجمته مداورة بدعوة الناس الى قبول كل ما عليه الغرب إن كانوا يريدون ان يكون لهم ما للغربيين من قوة وحياة . وزعموا للناس ان المدنية الغربية كل لا يتجزأ ، فإما أن تؤخذ كلها أو تترك كلها ، إما أن تؤخذ باجتماعياتها وأدبياتها وعلمياتها وإما الا يؤخذ منها شيء . فوقع الناس بهم في مصيبة طامة وفتنة عامة لان الناس يلمسون قوة الغرب ويريدون ان يكون لهم مثل قوته لينجوا مما هم فيه من رقة واستعباده . فإن كان حقا ما يزعمه لهم دعاة التجديد الغربي من ان لا سبيل الى ذلك الا بأخذ المدنية الغربية بحدافيرها فليس لهم فيما يبدو مفر من ذلك ولو كان في ذلك خروج على الاسلام . ونجحت حركة الالتفات التي قام بها دعاة الغرب ضد سلطان الاسلام في نفوس من أصفى اليهم من الناس حين الجأهم الى ان يميزوا أنفسهم ذلك التمييز بين الاسلام وبين القوة والحياة ، من غير ان يتعرض أولئك الدعاة في سبيل ذلك للخطر الذي كانوا يتعرضون له من غير شك لو انهم دعوا الناس مباشرة الى نبذ الاسلام . وأصبح الدين اصابتهم فتنة ذلك التجديد كمن احاط به العدو لا بد له من الموت أو التسليم ، أو كمن وجد نفسه مضطرا الى الاختيار بين قتل ولده وبين الحياة . والقد كان سهلا على من وقف هذا الموقف من الناس ان يفك عن نفسه ذلك الحصار ويخرج من ذلك الاضطراب الوهمي لو أنه يعرف حقيقة دينه وتاريخه حتى صدر الخلافة الراشدة ، لكن أولياء امور المسلمين عفا

الله عنهم وتداركهم بهدايته وتسديده كانوا ولا يزالون يهملون تعريف المسلمين بدينهم ، وتنشئ أبنائهم وبناتهم في الروح الاسلامي بالتربية الاسلامية . ومن هنا كان المسلمون عوناً لعدوهم على انفسهم . ومن هنا كان كل ما اصاب اولئك « المجددون » من نجاح ، وما يهدد الاسلام في بلاده وفي نفوس اهله من خطر . ومن هنا ايضا هب لدفع هذا الخطر فريق من المجاهدين المحتسبين الذين اتاهم الله فقهاً في الدين وقوة في الجنان وبسطة في البيان ، وفي طليعة هؤلاء كان الرافعي رحمة الله عليه .

فالمسألة بين القديم والجديد كما يسمونها ليست مسألة اختيار بين ادب وادب وطريقة وطريقة ، ولكنها في صميمها مسألة اختيار بين دين ودين . فالذين يسمون انفسهم انصار التجديد يؤمنون بالغرب كله ويريدون ان يحملوا الناس على دينهم هذا ولو خالف الاسلام في اكثره . والذين يسميهم هؤلاء انصار القديم يؤمنون بالاسلام كله وبالقرآن كله ويأبون ان يؤمنوا ببعض ويكفروا ببعض ، او ان يدينوا للغرب مؤمنين به من دون الله . وكل الخلاف بين انصار « القديم » وانصار « الجديد » منشؤه هذا وخرده الى هذا . هؤلاء مثلاً يريدون متابعة الغرب في السفور والاختلاط لينعموا بالحب ! كيفما شاءوا ، واولئك يرون السفور والاختلاط مفسدة اي مفسدة لان الله وهو اعظم بخلقه نهى عنهما في الكتاب . هؤلاء يريدون متابعة الغرب الا يتزوج متزوج الا واحدة ، واولئك يرون إباحة تعدد الزوجات لان الله اباحه في الكتاب . واولئك يريدون التسوية بين الذكر والانثى في كل شيء ظناً منهم ان الغرب يسوي بينهما ، واولئك يرون غير ذلك فيما لم يسو الله بينهما فيه في الكتاب . هؤلاء يرون الاسلام ديناً عربياً انزل للعرب ولا يلائم الا العرب ، واولئك يعتقدونه دين الانسانية الكامل انزل للناس كافة بما يضمن صلاح الناس غير متقيد بزمان ولا متخصص بمكان كما نص الله عليه في القرآن وكما يتجدد عليه في كل عصر البرهان . ثم انصار « الجديد » يضيقون ذرعاً بالقيود الاخلاقية التي قيد الدين بها الناس فيما يعملون وفيما يقولون ، ويريدون ان يتحللوا منها فيزعموها للناس

أن هذه الاخلاق وقيودها أن هي الا عرف وتقاليد ، وأن التقيد بالعرف والتقاليد في الفن والادب يعوق الفن ويحول دون ترقى الادب فيجب اذن اطلاق الفن وتحرير الادب من تلك القيود . ومن هنا نشأ خلاف آخر بين الفريقين نقل المراك بينهما من ميدان الاجتماع الى ميدان الادب . فانصار الجديد يدعون الى الفن العاري والادب المكشوف ويدعون للفنان والاديب حرية في القول والفعل لم يأذن الله فيها لانسان ، وانصار قديم الاسلام يدفونهم عن هذا ويحدون حرية الفنان والاديب بما حد الله به حرية كل انسان من قيود الدين والاخلاق والاعمت البلية بالادب وصار شرا ووبالا على الناس . واتسع الخلاف وتشعب بين الفريقين . يمضي انصار الجديد الغربي في توهين السد الاسلامي الذي يجدونه قائما في وجوههم اينما تلفتوا فيزعمون للناس من طرف خفي أن القرآن من صنع عبقرى لا من صنع الله ، وأنه آية فنية لكنه آية فنية انسانية لا معجزة الهية ، واذن فينبغي ان يخضع لما يخضع له كل عمل انساني من النقد والفحص والبحث العلمي فيما يزعمون ، ويهب لدرء هذا الافك العظيم كل كريم نجد من رجال الادب او غير رجال الادب من المسلمين ويقاثلونهم على اعجاز القرآن وحرمة وتقديسه ، ويدعونهم الى خطة انصاف ليس من انصاف بعده : اما ان يتركوا القرآن وشأنه لا يتعرضون له بشيء ان كانوا لا يؤمنون به ، واما ان يذكروه ويدرسوه اذا قدروا على دراسته ، ولكن بنفس روح الاحترام والاحتياط والاحلال الذي يدرس به العلماء الشمس والنجم والبحر وما اليها من الظواهر الكونية الثابتة التي لا يد في خلقها للانسان . وهي كما ترى كلمة سواء غايبة في الانصاف ، لو كان لدى انصار الجديد الروح الذي يقضي بقبولها لما كانت هناك الماراة في القتال التي جلبها عدم قبولهم شطر الكلمة الاول ولا صطلح الفريقان وتحابا واجتمعا على التجديد الحق في الاب وغير الادب لو ان اولئك قبلوا شطر الكلمة الثاني . واذن لما كان هناك انصار جديد وانصار قديم ، ولكن فئة واحدة من المجددين المصلحين الذين يعملون بالحق للحق ضمن دائرتي العلم والدين اللتين يشملهما الاسلام جميعا .

ان من اشد ما يؤسف له ان تفترق قوة اولى القوة في الشرق هكذا
فرقتين احدهما تهدم والاخرى تدفعها عن الهدم ، فيشغل الفريقان جميعا
عن التجديد وعن البناء ، وعدوهما واقف بالمرصاد . لكن التمني لايجدي
والواقع هو الواقع . فستستمر المعركة بين انصار جديد الغرب
وانصار قديم الاسلام كاشد واحمي ما تكون حتى يقضي الله بينهما
بحكمه . ومهما يكن من ذلك فالموقف بين الفريقين هو في صميمه كما
صورنا . وعلى اساسه يمكن النقد في غير كبير عناء ان يضع الامر بينهما
في نصابه فيما كان وفيما يجد من خلاف . وسنضرب فيما نستقبل من
الكلمات مثلا لذلك بتبيين وجه الحق فيما احتدم حول ادب الرافعي
رحمه الله من جدال .

محمد احمد الفمراوي

المصدر : الرسالة - العدد ٢٦١ - ٤ يوليو ١٩٢٨ ، السنة السادسة .

ملاحظة : المقال الاول من سلسلة مقالات حول الموضوع م . غ .

بين القديم والجديد

عبد الوهاب الامين

سيدي الاستاذ الكبير صاحب الرسالة :

تحية : وبعد فقد حسب الاستاذ محمد احمد الغمراوي في آخر مقال حول ادب الرافعي (بين القديم والجديد) ، أنه انتهى من « تزييف » كلام الاستاذ سيد قطب الى المبلغ الذي كان يريد واكثر ، وانه وضع العقاد موضعهم والرافعي موضعهم ، وان كان هذا الموضعان ليسا الا ان الرافعي انصع لفظاً من العقاد ، وانه رجل يهتدي بنور الدين ، والعقاد لا يهتدي بأي نور !

كذلك حسب الاستاذ الغمراوي انه فصل بين الحق والباطل في هذا الامر واستراح الى نتيجة تلك . ولم اكن اود ان انفس عليه هـ.م. الراحة لو انه شاء ان يعرض لكلمة سابقة لي في هذا المضمار ، وراى ان يرميني بالفزع من ذكر الدين فزع (الملسوع) بالنار فقال :

« لكن اصحابنا المجددين انصار ما يسمونه بالادب الحديث يفرقون من ذكر الدين كأنما تلسعهم من اسمه النار ، كذلك فزع أحدهم بالمراق ، وكذلك يفزع هذا الآخر . . . » .

وانا المقصود ولا ريب بالفزع الاول . والقارىء يذكر ان فزعي المزموم هذا لم يكن من الدين ، فما فيه ما يفزع او يلسع ، وانما كنت اعترضت على اقحام الدين - بدون داع ولا مبرر ولا فائدة - في نقد

ادبي قاله الأستاذ سيد قطب حول بيت من أبيات الرافعي ، وجلاء
الأستاذ الطنطاوي يحوره ويتجه به نحو الدين كما يفعل الأستاذ
الغمراوي الآن ، وكما فعل الرحوم الرافعي في كل نقد أدبي له ، وكما
يفعل كل من يؤوده أن يكسر من شوكة هذا الذي يسمونه تجديدًا أو
كفرًا من سادتنا الرافعيين ! فما الذي يقصده الأستاذ الغمراوي بالفرع
وما شأن الدين بكل شيء يتصل بالأدب الحديث الذي يسمى إلى
التجديد والنهوض وتوسيع أفق الحياة الأدبية وإخراجها من عصر
الاجترار والتخلف ، إلى عصر التمثيل والحيوية ؟ وإذا كان الأستاذ
الغمراوي يقول في مقاله الآنف الذكر :

« إن الفطرة كلها ينشئها واحد هو الله سبحانه وتعالى ، والعلم
والدين كلاهما قد اجتمعا على استحالة التناقض في الفطرة ، فإذا كانت
هذه الفنون من روح الفطرة كما يزعم أهلها وجب ألا تخالف أو تناقض
دين الفطرة دين الإسلام في شيء .. » .

وهو بذلك يريد أن يحد من مفهوم الأدب ، فما نصنع إذن بالأدب
الذي أقره العالم كله واعترف به أدبا ساميا ولم يكن مصدره الدين
الإسلامي ، والذي لم يخلقه أدباء مسلمون ولم يأتلف مع قواعد الدين
الإسلامي في شيء ؟ أقول ماذا نصنع بأدب طافور ، وملتون ، ودانتي
وتورجنيف ، وإيبانيز ، وأبسن ، وموباسان ، وغوركي ، وهاردي
وجيتي ؟ بل ماذا نصنع بأدب بودلير ، وفرلين ، ولورنس ، وجويس
وهيكسلي ، ولوتي ؟ هل نرمي بهم في البحر أم نعتز بأدبهم ؟ وهل
يتفق أدبهم مع الفطرة ؟ وهل هو خير أم أدب الرافعي ؟

وحضرة الأستاذ يذكر أدب الإيمان فهل يرى أن الشك لا أدب له
وما قصده من التعريض بالإيمان ، والشك ؟ والحووم حوالي الدين في
كل مناسبة عرض لها في نقده وبحثه أدب العقاد والرافعي ؟ هل يريد
أن نهم من أقواله تلك أن العقاد ومن يرى رأيه ملحدون لا إيمان
ولا نور لهم يهتدون به ؟ وكيف يتسنى له أن يحكم هكذا بدون تدليل ؟

سيدي الاستاذ :

ان الاستاذ الفمراوي - وقبله الاستاذ الطنطاوي - يريد ان يضع ما اسمه « الادب » على الرف ويريد ان يدخله في بوتقة الدين بوجه عام ، والدين الاسلامي بوجه خاص ، وفي هذا من الجناية على الادب مقدار ما فيه من التجني على الدين واكثر . ولا اظن الاستاذ يخالفني في ان يتعرض له متعرض سلم من تهمة المروق ! فليفسر موقفنا كيف شاء ، وليس له فزعا وهلمأ ، فالحق ان الدين الاسلامي لم يدخله التاويل والخلاف من كل باب الا بعد ان اقحم في غير مجالاته ! وهو بعد مقحم اقحاما في موضوع الجدل هذا .

وما دام الاستاذ الفمراوي يرى انه فصل ادبيا في امر العقاد ومكانه من الادب الحديث ، فلماذا يريد ان يخرج من دينه فيقول عنه ممرضا : « ان الرافي عنده نور يهتدي به ليس عند العقاد ؟ » .

وبعد فليكن الرافي عند الاستاذ الفمراوي ما يشاء له ان يكون ، فان ذلك لا يمنع العقاد ان يكون هو الآخر حيث يشاء له الادب والحق ان يكون . ولسنا نعجب به لشخصه ، بل لانه يؤدي الرسالة عنا ، فما يقال فيا نحن انصاره والمعجبين به ، ولنا اود ان اكرر ما سبق ان قلته وهو ان من الواجب اعتبار الدفاع عن العقاد دفاعا عن مذهبه في الادب وفي الحياة لا دفاعا عن شخصه ، فلسنا نمك حق الدفاع عنه .

وتقبلوا تحيات المعجب بكم

عبد الوهاب الامين

« بغداد »

المصدر : الرسالة . العدد ٢٧ . السنة السادسة . سبتمبر ١٩٢٨ .

القديم والجديد - ٢٩

الدين والاخلاق

بين الجديد القديم

لاحد اساطين الادب الحديث

الظاهر ان الاستاذ الفمراوي رجل حسن النية صادق السريرة وقلت الظاهر لاني لا اعرفه ، ولا اريد ان اعرض لنقده ما يسميه المذهب الجديد ، ولا للنزاع الثائر بين انصار الرافعي وبين انصار العقاد . ولو كان الاستاذ قد اكتفى بالنقد الفني وقصره على ذلك النزاع الفني لسلم من بعض الهفوات التاريخية والاجتماعية ، فقد قال ان نزعة التجديد يرجع اولها الى نحو ثلاثين سنة ، وقد ذكر فيما ذكر من التجديد اخذ لآراء الاوربية ، ولم يكتف بذكر ما اخذ منها مما هو في باب الآداب ، بل ذكر ايضا ، ما اقتبس من النظم والمبادئ الاجتماعية . وهذا الوصف الشامل للتجديد لا ينطبق على نزعة بدأت منذ ثلاثين سنة ، وانما ينطبق على النزعة بوجه عام منذ جاء نابليون الى مصر ، ومنذ عهد محمد علي باشا اسماعيل باشا ، ومنذ ادخلت المطابع وارسلت البعثات العلمية واقتبست القوانين المدنية ، ونظمت المحاكم الاهلية التي صارت تحكم بغير احكام الشريعة الاسلامية ، وكثر نقل الكتب الى العربية والاستاذ الفمراوي يعيب على المجددين انهم يريدون رفض بعض احكام الشريعة ، ويذكر كيف ان بعض الكتّاب يجب منع تعدد الزوجات . ويقول الاستاذ ان للدين وحدة تامة فلا يجوز اخذ بعضه وترك بعضه . ويا حبذا لو ان الاستاذ كان قد فصل هذه الناحية من التجديد في مقال مستقل عن النزاع على التجديد في معاني الشعر والنثر ، إذ ما صلة الدين قاموا باقشاء المحاكم الاهلية واحلو احكامها

محل الشريعة الاسلامية ، وما صلة الذين يريدون منع تعدد الزوجات ومنع الطلاق ، بمعاني شكسبير والمتنبي وملتون وأبي العتاهية مثلا ، ولعل أكثرهم كانوا لا يهمهم النزاع الفني والادبي مطلقا . نعم إن الدين والاخلاق لها مظاهر في الشعر والنثر فكان ينبغي للاستاذ الفمراوي وقد حكم للمذهب القديم انه قوام الدين الاخلاق ، وحكم على المذهب الجديد انه يؤرثه الالحاد والمجون ، أن يثبت هذا الزعم فينفي عن شعراء المذهب القديم كل كفر وإلحاد ومجون ، وينفي عن شعراء المذهب الجديد كل تدنٍ وإيمان بالفضائل مستشهدا بأقوالهم من شعر ونثر فإن هذه هي الطريقة الفنية للمفاضلة بين المذهبين من حيث الدين والاخلاق . وإن لم تخني الذاكرة فإن الاستاذ قد لخص المذهب الجديد في الادب بأنه نزعة تغليب دين على دين . وإذا كان لهذا القول معنى فمعناه أن أدباء المذهب الجديد يريدون تغليب الديانة المسيحية على الديانة الاسلامية .

فإذا لم أكن مخطئا في هذا التفسير كان واجبا على الاستاذ أن يقيم الدليل على أن أدباء المذهب الجديد يريدون تغليب دين على دين ، وقد نسي الاستاذ أن كثيرا من مظاهر الحضارة الأوروبية الحديثة لا علاقة له بالمسيحية التي هي دين أكثر الأوروبيين ، أو لعل الاستاذ قد أراد أمرا آخر لم نفهمه . ولو رجع الاستاذ الى العصر الذي كانت فيه النزعة الدينية المسيحية متغلبة في أوروبا وهو عصر القرون الوسطى عصر التزهّد والرهبة والتقشف لعلم أن المحافظين من رجال الدين والكتاب كانوا يخشون على الدين والاخلاق من غزل العرب ومجون شعرائهم وقصصهم ومن حرية افكارهم في المسائل الدينية والكونية ، وكانوا يرسمون الادب العربي بالاباحية في الاخلاق ، وكانوا يلومون الأبناء الذين كانوا يرسلون أبناءهم الى مدارس البلاد العربية كالاندلس وصقلية ؛ فلم يكن عداؤهم للكتب العربية الدينية فحسب ، بل كان عداؤهم للكتب الادبية العربية والفكرية اشد . وموقف هؤلاء المحافظين من الادب والفكر العربي كان أشبه بموقفهم من الادب والفكر الاغريقي القديم . وهذه الحقيقة ينبغي أن تنبه الاستاذ الى أن الدولة العربية الاسلامية لم تلبث على الفطرة السليمة وعلى حالها من الادب كما كانت في صدر الاسلام مثلا بل دخلها

الترف وتفتشت فيها لذائد الحضارة وكثر المجون في اقوال الشعراء والكتاب وبقيت اصناف المجون والالحاد مخطوطة الى عهد ان دخلت المطابع البلاد العربية الاسلامية . ولا احسب ان أهلها كانوا على فطرة يخشى عليها من تلك الكتب فان حالة الاخلاق في عهد دخولها لم تكن اراقى مما هو موصوف في تلك الكتب الا في اوساط محدودة معروفة بالنزاهة والعفة والاستقامة وصدق القول والعمل ؛ وكان يضرب بها المثل ؛ وكانت كالشامة البيضاء تنعت نفسها لوضوحها في الجلدة السوداء . ولا تنس ان البدو كانوا بطبيعتهم يكرهون الضوابط والروادع اية كانت ، فسرهم ما حشتم الحضارة ولذائدها على التحلل من روادع الدين . وقد بدأ المجون يعود الى استفحاله بعد عهد قريب من صدر الاسلام ، وبلغ اشده في الدولة العباسية ، وكان مصحوبا في كثير من الاحوال بالكفر والزندقة والالحاد ، وكان كل منهما في بعض الاحايين مستقلا عن الآخر ، فقد كان بعض الملحدين من اشد الناس زهلا ومحافظا على الفضائل كما كان العربي مثلا .

يقول الاستاذ إن المذهب الجديد في الادب الذي يقول عنه الاستاذ إنه بدأ منذ ثلاثين سنة خطر على الاخلاق والدين ، فهل يستطيع الاستاذ ان يأتي بابيات من شعر هذا المذهب الجديد في شاعتها كآبيات ابن الرومي التونية التي يقول فيها :

صوت يد المجان في المعين او صوت رجلي عامل في طين

وهي آبيات قد اختارها له السيد توفيق البكري في كتاب (صهلريج اللؤلؤ) الذي ألفه كي يقرأه الناس رجالا ونساء وفتيانا وفتيات ، والبكري كما يعلم الاستاذ الغمراوي كان شيخ السادة البكرية ورجلا من رجال الدين والفضل ومن ادباء المذهب القديم ، ولكنه لم يتخرج من اطلاع سيدة او فتاة فاضلة على ما في كتابه هذا من المجون الشنيع . ولأن يعطي الاديب من ادباء المذهب القديم أي قول قاله شعراء وادباء المذهب الجديد لاخته او لفتاة من اقربائه لتقرأه ؛ لا صوت لها ولا خلاقتها

من أن يعطيها كتاب صهاريج اللؤلؤ هذا إلا إذا طمس المجون قبل أن يقدم إليها الكتاب . وقد طبع الشيخ شريف جزءين من ديوان ابن الرومي في أحدهما أرجوزة مظلما : (رب غلام وجهه لا يفضحه) وفيها يصف طرق اللواط في أوضاع وأشكال مختلفة . وقد عني الشيخ شريف بشرح لفظه ومعناه كما عني السيد توفيق البكري بشرح الأبيات النونية . والشيخ شريفه كان مفتش اللغة العربية وأديبا من أدباء المذهب القديم ، ولكنه لم يتخرج كما لم يتخرج البكري من شرح وطبع هذا المجون وإيضاح معناه كي يقرأه ويفهمه الفتيان والفتيات ، فأي أديب من أدباء المذهب القديم يرى أن يعطي اخته أو أخاه الصغير هذا الكتاب ، أو أن يعلمهما على قصيدة ابن الرومي أيضا في (ديوان) . أو على ديوان أبي نواس أو على ما في كتاب الأغاني أو كتب يتيمة الدهر للشمالي من مجون لا تسمح أية دولة أوروبية بنشره ، بينما أدباء المذهب القديم يشرحونه ويطبعونه ويستطونونه في مجالس أنسهم ويضحكون تفكها به ، حتى إذا جاء ذكر ما يسمى بالمذهب الجديد وأثر الأدب الأوروبي فيه أخذتهم رعدة الغضب وادبعوا أن المذهب القديم عماد الأخلاق والدين ، وأن المذهب الجديد بؤرة المجون والإباحية والالحد . أن المسألة بسيطة والأمور هين . نستطيع أن نطبع على الناحية اليمنى من صفحات المجلة ما نجده من مجون وإباحية شعراء المذهب القديم في العصور المختلفة حتى عصرنا هذا ، وعلى هؤلاء الأدباء أن يقدموا ما يستطيعون أن يعثروا به من أقوال أدباء المذهب الجديد لتطبع في الناحية اليسرى من المجلة . لا شك أن أدباء المذهب القديم يتهربون من مثل هذه المقابلة كل التهرب . وما يقل في كتب المذهب القديم الأدبية يقال أيضا في كتب التاريخ . انظر بالله إلى الأبيات التي زعموا أن مسيلمة الكلاب بعث بها إلى سجاح المتنبي والتي فيها (وإن شئت . . . وإن شئت) كيف يستطيع أديب من أدباء المذهب القديم أن يطلع اخته أو بنته أو قريبة له من الفتيات على هذا الشعر ؟

ثم انظر إلى ذكر الفحش وقصصه ونظم الهجاء فيه شعرا تجد أن أدباء ما يسمى بالمذهب القديم في كل عصر حتى عصرنا هذا كانوا أكثر حظا منه . ولا أعني جميعهم ، ولكنهم حتى الأفاضل منهم قد وجدوا

هذا الأسلوب من القول عادة صقلها الدهر وهون أمرها فاصبحوا لا يجدون خطراً على الاخلاق في نظم الهجاء فحشاً ولا في التحدث عنه ، ولكن الخطر كل الخطر هو تأثير الادب العربي بنواحي القول كما وردت في كتب الادب الاوروبي .

وبعد فاي ادب اوروبي يعنون ؟ لقد تقلبت على الدول الاوروبية عصور اتخذ الادب في كل منها نزعة خاصة ، ولكنهم اذا تكلموا عن الادب الاوروبي خيل للقارئ أنهم يعدون جميع الادب الاوروبي في عصوره المختلفة على طراز واحد وأنه ماوى المجون والاباحية والزندقة . ان عصور الادب الاوروبي تختلف اختلافاً يجعل بعضها اقرب الى بعض الادب العربي منها الى عصور أخرى من عصور الادب الاوروبي ، فالادب الاغريقي في سهولة معانيه وخيالاته اقرب الى الادب الجاهلي العربي منه الى الادب الرمزي الاوروبي الحديث . والادب الاوروبي الحديث في حرية الفكر اقرب الى الادب العباسي العربي منه الى الادب الاوروبي في القرون الوسطى . فالذا كان بعض الادب الاوروبي الحديث قد دعا بعض ادباء المذهب الجديد الى إيهام الايجاز والصور المتدخلة بعضها في بعض وإلى غموض الرمزية فقد ألف بعض ادباء المذهب القديم على هذه الطريقة في إيهام الايجاز من غير أن يطلعوا على الادب الاوروبي . انظر مثلاً الى ايجاز الرافعي في كتاب (حديث القمر) والكتب الاخرى التي كتبها ، وكأنه لم يكتبها الا لكي يشبث أنه يستطيع أن يزيد على معاني وصور ادباء أوروبا والمذهب الجديد وأنه أغنى منهم بمعانيه كما أنه أغنى منهم بأساليبه اللفظية الفصيحة العربية ؛ ولكن فصاحة لفته العربية لم تخف الحقيقة الفنية ، وهي أن الرافعي صاحب (حديث القمر) و (السحاب الاحمر) اقرب الى ادباء الرمزية الاوروبيين منه الى الرافعي صاحب كتاب (إعجاز القرآن) واقرب الى ادباء العربية الاقدمين من الرافعي صاحب (حديث القمر) وأعني القرب في أسلوب التخيل وأسلوب عرض الصور الفكرية وكل صورة مستقلة غير متدخلة في اختها . فالذا أراد اذا ناقد أن ينتقد المذهب الجديد او الادب الاوروبي كانت الطريقة المثلى أن ينتقد ما يعبه فيه على طريقة النقاد الفنيين

فيبين الفث من السمين ويوضح اسباب حكمه على كل قول وكل اديب .
اما أن يقول ان الادب الاوروبي كادب المذهب الجديد فاسد المعنى
والخيال ينبو عنه الذوق العربي وتمججه الفصاحة العربية ، وانه مباءة
المجون والاباحية والزندقة ، فقول من لا يريد ان ينقد ولا ان تنقد
قيمة ما يقول قدرا صحيحا ، ولا اعني الاستلا الغمراوي فان هذه احكام
شائعة . نعم ان بعض الادب الاوروبي ولا سيما الحديث منه يحث ادباء
العربية على بعض ما يخالف العرف والتقاليد الاسلامية ، ولكن اليس
في قول شعراء العرب وادبائهم في كل عصر اشياء كثيرة تخالف العرف
والتقاليد والآداب والاخلاق الاسلامية كما اوضحنا بالشواهد ؟ ونعترف
ان في بعض الادب الاوروبي الحديث ما يحث على الاحاد ، ولكن اليس
في اقوال زنادقة الدولة العباسية وفي لزوميات رجل فاضل كالمصري
ما لا تسمح الحكومة بنشره لو ان ان اجد شعراء المذهب الجديد كان هو
قائله ؟ ولكن اقوال ادباء الدولة العباسية والمصري اقوال صقلها الدهر
واعتادها الناس فلا بأس من أن يتفكه بها ادباء المذهب القديم في
مجالسهم ولا بأس من نشرها وايداعها مكتبات المدارس .

وكما أن بعض الادب الاوروبي اقرب الى بعض الادب العربي منه
الى عصور اخرى للادب الاوروبي فكذلك بعض ادباء المذهب الجديد اقرب
الى ادباء المذهب القديم منهم الى ادباء آخرين من ادباء المذهب الجديد ،
فادباء المذهب الجديد اليوم اكثر حرية في القول واكثر نصيبا من الرمزية
من ادباء المذهب الجديد الذين ظهروا منذ ثلاثين سنة .

(قارىء)

الرسالة : العدد ٣٦٨ - ٢٢ أغسطس سنة ١٩٣٩ . المقال الاول في سلسلة مقالات
في الرد على مقالات الغمراوي .

القديم والجديد

لأستاذ محمد أحمد الغمراوي

احس أن عليّ ديناً لقراء الرسالة يجب الوفاء به ، فقد كنت وعدت إذا زال الحائل الذي كان يحول بيني وبين الكتابة أن أعود فأفصل ما أجملت في خطابي الذي نشرته الرسالة وتقيدت فيه بذلك الوعد . وما أجملت هناك وأريد الآن تفصيله ، هو أن ما فهمه الأستاذ (قاري) من بعض كلماتي ، وانتقده في مقالاته « الدين والأخلاق بين الجديد والقديم » (١) شيء آخر غير ما أردته بما كتبت ، وأزيد الآن أنه شيء آخر غير ما تفيده تلك الكلمات .

وليس الذي يدعوني إلى الكرة بعد تلك الفترة مجرد حب الوفاء ، ولا مجرد الرغبة في أن أبين أنني أصبت ولم أخطئ ، فالإنسان يخطئ ويصيب ، ولا غضاظة على المخطئ ما دام يخلص النية ويبتغي وجه الحق . إنما أكبر ما يجعلني أحرص على الرد هو الرغبة في تصفية مسألة القديم والجديد مرة أخرى — فقد صفتها قبل ذلك في بعض فصول كتابي النقد التحليلي — ليتبين وجه الحق فيها عسى ألا يعود أحد يتخذ بما بين لفظي القديم والجديد من تفاوت ، فيؤثر في المعنويات الجديد لجذته على القديم لقدمه ، كما تعود أن يؤثر في الماديات الجديد على القدم في المأكل والمسكن واللباس .

(١) انظر الأعداد ١١٤٣ ، ١١٨٤ ، ١٢٩٧ ، ١٢٦٧ ، ١٢٢٨ ، ١٢٤١ ، ١٤٧٧ (من الرسالة) .

والنقد الذي كتبه الاستاذ (قارىء) ، وصدر فيه عن أدب جم موجه الى كلمتين اثنتين من كلماتي : الى الكلمة الاولى التي قدمتها بين يدي ما كنت اريد من كتابة حول أدب الرافعي ، وإلى بعض الكلمة السابعة التي جعلتها خاتمة تلك الكلمات . ويظهر أن الاستاذ حين بدأ يكتب ، كتب عفو الساعة من غير أن يرجع الى الكلمة المنقودة وإلى أخواتها إن لزم ليستوثق من أن المعنى الذي في ذاكرته هو حقاً المعنى المقصود بالكلام المنقود ، فقد كان مر على الكلمة الاولى المنقودة بضعة اسابيع حين كتب الاستاذ .

ثم يظهر أن تلك الكلمة الاولى من كلماتي صورت مسألة القديم والجديد صورة غير مألوفة . فلم تقصرها على ميدان الأدب ولكن عدتها الى ميدان الاجتماع ، ثم جعلت من الميدانين ميداناً واحداً ، ومن حركة النزوع الى الجديد في كل منهما حركة واحدة تشملهما جميعاً هي حركة الانصراف الى جديد الغرب ولو استلزم ذلك الانصراف عن قديم القرآن .

لكن هذا التصوير أقرب الى صميم الامر وإن كان تصويراً غير مألوف . غير أن قربه من الحق لا يتبين حتى تتبين حدودتينك الحركتين الادبية والاجتماعية اللتين ركبتا معاً في حركة واحدة حين صورتا ذلك التصوير .

وأول هذه الحدود وأوضحها أن تكون الحركة العلمية أو الصناعية غير داخلة في تينك الحركتين ، فإن الأدب والاجتماع غير العلم والصناعة بالبداية . واذن فلا محل للرجوع بحركة الجديد الى عهد محمد علي كما يريد الاستاذ (قارىء) لأن عهد محمد علي فيما نعرف لم يأخذ عن الغرب إلا علمه وصناعته ، ولم يمس النظم الاسلامية الاجتماعية في كثير ولا قليل .

واحد آخر من حدود حركة الجديد التي أردناها : أن روحها يخالف روح الاسلام في الصميم . من أجل ذلك أخرجنا منها حركة التجديد

التي قام بها الإمامان جمال الدين الافغاني ومحمد عبده كما هو صريح مقالنا الاول الذي نقده الاستاذ من الذاكرة من غير رجوع اليه . وهذا الحد الثاني كاف وحده في اخراج عهد محمد علي مرة اخرى من نطاق البحث ، واخراج كل حركة جديدة تتفق مع الدين .

وحد ثالث من حدود حركة الجديد التي أرخنا لها : انها حركة افراد لا حركة حكومات ، اللهم الا ان تكون حركة الحكومة نتيجة من نتائج انتشار حركة الافراد كما حمل اصحاب الحركة النسوية مثلا الحكومة المصرية على تحديد سن الزواج . ولم يخطر ببالنا ان ننبه بهذا الفارق حين كتبنا ما كتبنا ، لاننا اولاً لم تكن بصدد التاريخ للجديد على اطلاقه ، ولكن كنا بصدد الكلام على حركة صارت بعد ملهبا اعتنقه افراد دعوا اليه وثاروا على دعوتهم حتى انتشرت وصار لها من السلطان ما لها اليوم - ثانياً - كان واضحاً من سياق ما كتبنا ومن الظرف الذي دعا الى الكتابة ومن بعض عبارات فيها مثل : « ومسألة القديم والجديد عمرها لا يكاد يزيد على ثلاثين عاماً اثارها في الناس نفر تثقفوا ثقافة غربية من غير ان يكون لاكثرهم من الثقافة الاسلامية نصيب مذكور .

وهذا ، وغيره لا يدع مجالاً للشك في ان المقصود هو مسألة القديم والجديد التي ثارت بين الناس والتي لا تزال موجودة بيننا فهذا الحد الثالث كاف هو ايضاً لان يخرج من نطاق البحث كل حركة لم يتم بها فرد او افراد ولم يعتنقها جمهور من الناس . واذن فالحركة التي قصدنا بالنقد والتي قدرنا عمرها ثلاثين عاماً هي حركة قائمة بيننا الآن لا ترجع الى عهد نابليون في مصر ولا الى عهد محمد علي ولا الى عهد اسماعيل ، ولكن ترجع في رايانا من الناحية الادبية الى العهد الذي كان هيكلاً وامثاله يكتبون فيه في « الجريدة » ، ومن الناحية الاجتماعية الى العهد الذي كتب فيه قاسم امين واصدر فيه كتابه « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » .

والعهدان في الحقيقة عهد واحد يظللهما زمن واحد هو زمن اشتداد الحركة الوطنية الاولى حوالي ١٩٠٨ او قبلها بقليل . ومن هنا أمكن تقدير عمر واحد للحركتين اللتين بدأتا في الادب والاجتماع حوالي ذلك التاريخ ، واللتين جعلنا منهما حركة جديدة واحدة عمرها بالطبع عمرهما ، وهو تقدير طبيعي كما ترى لا عوج ولا تكلف فيه .

والاستاذ قارىء لم يأخذ علينا مخالفة للواقع فيما يتعلق بالحركة الادبية من تقديرنا ذلك ، فهو يوافقنا فيه وإن كان بعض ما كتب في مقاله الخامس (١) يدل على انه يميل الى جعل عمر حركة الجديد في الادب اقل من ثلاثين . أما من الناحية الاجتماعية فان التاريخ لحركة الجديد فيها بظهور كتابي قاسم أمين امر معقول .. فقبل قاسم لم يدع مسلم في عصرنا الحديث في هذا الميدان ، ولم يحاول مسلم أن يدعو الناس في ميدان الاجتماع الى مخالفة ما جرى عليه العمل في زمن الرسول صلوات الله عليه في مسألة الحجاب مثلا والسفور . وإذا كان هناك من المسلمين او غير المسلمين من سبق قاسم الى مثل ما دعا اليه فانه لم يترك أثراً في الناس في مصر كما ترك قاسم ، ولم يستهو نفراً الى مذهبه كما استهوى ، ولم يبدأ حركة كبرت بعده حتى جاوزت كل ما كان يدور له في حسابان . فقاسم اولى الناس بأن يبدأ بكتبه تاريخ حركة الجديد مما يخالف الاسلام في ميدان الاجتماع .

والحركة التي بدأها قاسم لم تكن لتبلغ ما بلغت وتستشرى كما استشرت لو لم تجد من الحركة الجديدة في الادب مؤيداً وظهيراً . فانك اذا تتبعت الحركتين وجدتهما سائرتين جنباً لجنب تأخذ أحدهما بيد

(١) نشير الى قوله « ولما انا وجدنا الى ما الف من المقالات والكتب منذ ثلاثين سنة ما وجدنا الا لهذا الاصطلاح : اعني اصطلاح تقسيم الادب الى جديد وقديم ، وانما كان الشعراء الذين يسمون الآن أدباء المذهب الجديد يدعون الى نبد شعر الغزل المتكلف الخ » .

اختها تقيها العثرة وتثبتها في المعترك ، وانك لو اجد أن الصحف التي ظهرت احدى الحركتين هي نفس الصحف التي ظهرت الاخرى ، وإن أنصار الجديد في الادب كانوا ولا يزالون هم أنفسهم أنصار السفور من قبل وأنصار الاختلاط وما اليه اليوم . كانت الجريدة في مبدا الحركتين لسان الدفاع عن كليهما والدعوة اليهما ، ثم كانت جريدة « السفور » ، ثم « السياسة » ، ثم « السياسة الاسبوعية » وغزوا أنصارهما الصحف الأخرى وخلالهم الجو لما غاب « المؤيد » و « اللواء » وصارت الدعوى الجديدة هي البدع و « الموضة » فمن لم يقل بها عن نية واعتقاد قال بها كيلا يوصف بالرجعية والجمود . وليس يهم الآن تحليل ذلك ، إنما المهم تأكيد ما كان بين الحركتين من اتصال وتلاقح وتعاون ، فالحركة الجديدة في ميدان الاجتماع اعقبت لونا جديداً من الادب لم يكن موجوداً قبلها . يصح أن يسمى بأدب السفور ، والحركة الجديدة في ميدان الادب مهما يكن أصل نشأتها ، قد امتزجت بعد بالحركة الاجتماعية الجديدة المتفاقمة واستوحت منها أكثر وحيها لأن روح كل منهما مستمدة في صميمها من روح الغرب لأن من روح الاسلام . ومن يكن في شك من هذا فليرجع مثلاً الى مجلدات « السياسة » و « السياسة الاسبوعية » قبل ظهور كتاب « حياة محمد » ، فسيتجلى له المذهب الجديد في الادب والمذهب الجديد في الاجتماع قد اتحدا في حركة واحدة شلملة تنبض بروح الخلاف للاسلام ، لأن أصحابها لجهل أكثرهم بالاسلام صدقوا ما زعمه لهم الغرب من أن الاسلام هو سبب تأخر المسلمين .

واذا كان من رجال الحركة الجديدة في الادب من لم يناوئ الإسلام مع الغرب ومشايخه من أهل الحركة الجديدة في الاجتماع فلم يتخذ من وحيها وحيه في كتاباته ، ولم ينجر معها الى آخر الشوط الذي جرت

وتجري اليه ، فان هؤلاء نفر جد قليل . والنظر الى صميم الامر
لا يستطيع ان يحكم على حركة الا بما يغلب عليها ، وسيجعل لذلك
القليل مخرجاً ان امكنه ولو بتقسيم آخر . ونظن اننا فعلنا ذلك
بالحد الثاني من الحدود التي فصلناها آنفاً ، وبما سنبينه ان شاء
الله في مقال تل .

محمد احمد الفمراوي

المصدر : الرسالة ، العدد ٢٨٧ - ٢ يناير ١٩٢٩ - المقال الاول من سلسلة مقالات
في الرد على سلسلة المقالات الموقفة باسم « قارىء » .

بين القديم والجديد

(لآحد اساطين الادب الحديث)

يجمع الاستاذ الفمراوي في نفسه من صفات الخلق العظيم ما لا يتفق الا للقليل من المهلبين الافاضل ، فهو يغار على التفضيلة والدين ويجمع الى غيرته لطف المناظرة والإنصاف وآداب الحديث والمجادلة بالتي هي احسن ، وهذه رعاية من الله ، نرجو أن يديم الله عليه نعمته وقد ظهر عدل الاستاذ وإنصافه في اعترافه بأن في الادب القديم اكثر مما يشكو منه مما في الادب الحديث ، وفسر القديم بأنه ليس القدم الزمني فالقديم والحديث في اصطلاح الاستاذ صفات لا تدل على الزمن ، وضرب شعر عمر بن أبي ربيعة وقال انه لو كان في عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه لنفاه بسبب غزله فعمر بن أبي ربيعة اذاً على قدمه الزمني ليس من المذهب القديم في الشعر على حد اصطلاح الاستاذ ، ان القديم في اصطلاح الاستاذ هو من لم يقل غزلاً يثير شجون النفس وشهواتها وتعلقها بفتنة الحسن . وليعدني الاستاذ اذا قلت انه يصعب عليه ان يجد شاعراً واحداً يصح ان نطلق عليه اصطلاح القديم في عرفه ، فهذا الرافعي على تقواه ودينه وفضله له في الغزل نثراً وشعراً أشياء (أشهى) من شعر عمر بن أبي ربيعة . ألم يقرأ الاستاذ الفمراوي للرافعي وصفه للراقصة ومحاسن جسمها وقصته معها ؟ ومع ذلك فالاستاذ الفمراوي يقول إن ادب الرافعي يمثل القديم في اصطلاحه ، مع ان الاستاذ الفمراوي لو كان خليفة وعرض عليه غزل عمر بن أبي ربيعة وبعض ما قاله الرافعي شعراً ونثراً في الغزل ووصف مفاتن الحسن ولذة التقبيل ومحاسن جسم المرأة لأمر الاستاذ بنفي الشاعرين:

ابن أبي ربيعة والرافعي معا . واذا كان الأستاذ في شك من أن الرافعي له أشياء أشهى من أشياء عمر بن أبي ربيعة ذكرنا له طرفاً منها ورضينا بحكمه وهو أعدل الحاكمين من الناس . بل نحن نترك للأستاذ الخيار فليختر أي شاعر ونحن نورد له ما يستحق به النفي ولو وكل الأمر إلى الأستاذ الغمراوي في نفي الشعراء ونورد ما يستحق به النفي ونقارنه بما استحق به عمر بن أبي ربيعة النفي ونقبل حكم الأستاذ الغمراوي في المقارنة وهو خير لحاكمين .

إننا ما أردنا أن نعذر شطط المتأخرين بشطط المتقدمين كما ذكر الأستاذ وإنما أردنا أن نبين أولاً أن النفس البشرية واحدة في كل زمان ومكان مهما اختلفت الفروق الظاهرة وبالرغم من شدوذ الاتحاد بالنقاوة النادرة أو النجاسة البالغة النادرة . وأردنا أن نفسر أثر المتقدمين في أقوال المتأخرين وأن نقول أن الشطط في وصف المفاتن وفي شرح الشكوك النفسية لم يأتنا من ناحية الأفرنج وحدهم بل جاءتنا به مؤلفات العرب ولا سيما عندما أدخلت الطباعة وطبعت المخطوطات العربية القديمة والحديثة . على أن النفس الإنسانية يا سيدي الأستاذ ينبوع يفيض بكل ذلك من غير حاجة إلى كتب العرب أو كتب الأوربيين ؟ وإن شاء الأستاذ فليرتد أماكن الناس الذين لم يتأثروا كثيراً بكتب العرب ولا بكتب الأفرنج وليسمع هواجس نفوسهم .

على أن في ذكر الأستاذ التجاء عمر بن الخطاب إلى النفي ما يدل على أن النفوس في عهد عمر رضى الله عنه لم تكن تمتنع عن التعلق بمفاتن الحسن ومحاسن الحياة ، ولعل الأستاذ قد أذكرته التجاء عمر إلى النفي قصة سماع عمر غناء التي تغنت بهذا البيت :

هل من سبيل إلى خمر فاشربها أم من سبيل إلى نصر بن حجاج

فنفي عمر رضى الله عنه نصراً هذا . ولو رجع الأستاذ إلى ما قبل سيدنا عمر وتدبر حكمة الآية الكريمة التي تنهى الناس عن قرب الصلاة

وهم سكارى لراى عبرة تسلك النفوس البشرية في كل عصر في صعيد واحد بالرغم من تفاوتها . واستحلف الاستاذ ان يحكم على تلذذ كعب بن زهير بذكره كبر عجز حبيبته في قصيدة (بانث سعاد) عندما قال (هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة) وتلذذه بذكره كبر العجز في قصيدة يمدح بها النبي صلى الله عليه وسلم وهي قصيدة يتبرك بها بعض الناس ، وبعضهم يتخذها حجاباً وتميمة بما فيها من التلذذ بذكر كبر العجز من غير فطنة الى ما فيها ومع ذلك قد مر النبي صلى الله عليه وسلم بغزل كعب هذا من الكرام بما كان يدعو اليه من العقيدة السمحة وتآلف النفوس ومعرفته ضعف النفس وقصورها . فلماذا كان يصنع الاستاذ الغمراوي لو ان شاعرا مدحه بقصيدة تغزل في اولها وتلذذ في غزلها يذكر كبر عجز حبيبته ؟ هل كان يتفاضى كما تفاضى النبي صلى الله عليه وسلم ام كان ينفيه كما اراد ان ينفي عمر بن ابي ربيعة ؟ وماذا كان يقول الاستاذ لو ان شاعرا انجليزيا مدح ملك انجلترا ومقام الملك دون مقام النبوة فقال الشاعر في قصيدة (ان حبيبتي يا كنج جورج لها عجز كبير) اننا يا استاذ نضرب هذه الامثال لنبين ان الناس ناس في كل زمان ومكان . وبان النفس البشرية واحدة فمهما تباينت واختلفت صفاتها . ولو كان الاستاذ في شك من ذلك فليراجع ديوان حسان بن ثابت فيراه في قصيدة يتهم ابا الوليد ابن المغيرة بمحبة غلام رومي جميل كان مملوكا له ، وبانه علق صورة الغلام كي ينظر اليها اذا غاب عن نظره ، ويتهم امه بمحبة الغلام ايضا (صفحة ٣٢٩ طبعة السعادة شرح العبتي) ولو رجع الاستاذ الى كتاب (العقد الفريد) لقرأ ان سائلا سأل ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم على قول المجنون ينقض الوضوء ؟ فقال لا ، وانشد بيتا فيه مجنون وكانت قد حانت الصلاة فقام وصلى للدلالة على ان شعر المجنون لم ينقض وضوءه . وفي حالة اخرى سمع وهو يحلو بيت فيه مجنون . ولو تقصى الاستاذ اخبار سبي الرقيق من المدن الفارسية والرومية التي فتخت عنوة واثر ورود هذا السبي الى شبه جزيرة العرب ، وما كان يرد قبله من جلب تجارة الرقيق قبل الاسلام لعلم ان الولوع بمفاتن الحسن لم يكن مقصورا على الشعراء المتقدمين او المتأخرين

للتعبير عن النفس والحياة وعواطف النفس واحاسيسها فيهما ، فتحجر الصنعة من غير بحث في النفس قيد ، والتخلص من جمود ذلك التحجر حرية ، وهي الحرية التي اردناها في قولنا . وقد فسرنا ذلك باطالة ونحن لا نريد ان نعد حالة الناس في عصرنا . فلعل التعلق بمفاتيح الدنيا في عصرنا اضر وافسد اذ ان القوى الحيوية الخلقية العظيمة في تقوى المتقدمين كانت تستطيع موازنة ضعف هذا التعلق وانعدام هذه القوى الخلقية الحيوية في عصرنا يزيد ضرر التعلق بمفاتيح الحسن وشهواته . ونعلم ذلك ونوافق الاستاذ على ضرورة معالجة هذه المسألة ، ولكن لا يكون ذلك الا بالتربية وتطهير الكتب ولا سيما القديمة . اما اننا رجعنا الى مبدأ نهضة التجديد فلاستلنا نفسه يعترفه بأن التجديد في الأدب روح لا قالب ، وأن هذه الروح مستمدة من نظام التعليم الحديث ، ومن الانظمة التي اقتبست من الانظمة والشرائع والسنن الاوروبية ، ومن البعثات العلمية الى اوربا واثرها في النفوس ، ومن الكتب التي ترجمت ، وما دامت المسألة مسألة روح لا قالب فلا يستطيع الاستاذ فصل التجديد في العلوم والتعليم والنظم والشرائع عن التجديد في الأدب وهو لم يحاول ان يفعل ذلك . اما اننا فسرنا قوله : (تغليب دين على دين) بغير ما اراد فعذرنا في ذلك انه كان يقارن بين الثقافة والحضارة والدين عند العرب وعند الاوربيين فلم يخطر ببالنا انه يعني بالدين عند اطلاقه على الاوربيين معنى الضلال والباطل وانما ظننا انه يعني دينهم ولنا العذر أو بعض العذر واما قول الاستاذ إن حافظ ابراهيم رجع بالفضل الى طريقة الجاهلية وصدر الاسلام اي طريقة الفضل بالمعطفة كما فعل المدرسون فهذا ما لا يقول به حافظ نفسه ولم يقل به اديب قبل الاستاذ والاصح وهو ما قلناه من ان البارودي وشوقي وحافظ انقنوا الاديب من طريقه ابن حجة الحموي و خليل بن ايبك الصفدي وصفي الدين الحلبي واشباههم ورجعوا به الى طريقة مسلم بن الوليد وابي تمام والبحري وحسبهم هذا فخراً . وقد جعلنا اكثر قولنا في التجديد في الشعر لان الباعث على مقالات الاستاذ كان شعر الرافعي والعقاد ، ولم نقصر التجديد على محاولة ادخال العاطفة كشرط اساسي في الفضل بل قلنا انها شرط اساسي في كل شعر ، وان الصنعة لازمة ، ولكن كخادمة

وأوضحنا ان هذه الحرية ليس معناها التخلص من قيود العرف او الدين
فترجو الاستاذ ان يرجع الى ما فصلنا من الكلام عنها . وقد اعترفنا
للاستاذ بما في نزعة التجديد من عيوب وحبلا لو رجع الاستاذ الى ذلك
التفسير والتعطيل ، وقلنا انها عيوب عارضة وليست كل شيء . اما
المسائل الاجتماعية التي ذكرها الاستاذ فهي امور يختلف فيها الادباء
وغير الادباء ويختلف فيها الناس في كل عصر ، ولو شاء الاستاذ لذكرنا
من اقوال كتاب العرب وشعرائهم ما اهو اشد من اقوال طه حسين وهيكلا
وقاسم امين ومن القريب ان الاستاذ لا يرى حرجا في الاقتباس من
علوم اوربا ويرى حرجا في الاقتباس من ملأههم وابواب ادبهم ، واذا
كان هناك حرج فالحرج في الحاليتين .

(قارىء)

المصدر : الرسالة ، العدد ٢٩٤ - ٢٠ فبراير ١٩٣٩ - والرد حلقة من سلسلة
مقالات في الرد على دعوى القمراوي .

بين جيلين

للاستاذ محمد عبد الواحد خلاف

بين الجيل القديم الذي ذهب أكثره ولم تبق منه إلا قلة آخذة في التناقص ، والجيل الحديث الذي يتكاثر عدده . وتزداد على الأيام قوته ، شقة واسعة ، وتباين بعيد في النظر إلى الحياة ، يجعل منهما معسكرين متنازعين ، تشتد بينهما الخصومة حيناً ، وتضطرهما الظروف أحياناً إلى التهادن ، وفي نفس كل منهما ضيق بصاحبه ، وتبرم بأساليبه .

وقد يكون النزاع بينهما هو النزاع الأبدي بين الشباب والشيخوخة ، ولكن يزيده حدة ما يصحب أدوار الانقلاب الاجتماعي السريع عادة من هزات تزلزل أركان المجتمع وتطفر بالانتقال .

وكاتب هذا المقال وأقرانه في العمر ، من البلدتين في الكهولة ، تربطهم بالجيل الماضي خيوط فضية تسالت إلى رؤوسهم ، وشيء من الضعف دب في أوصالهم ، وتربطهم بالجيل الحديث بقية نضرة في وجوههم ، وبعض الفتوة والنشاط في حيويتهم ، فهم يقعون في البرزخ الذي يفصل بينهما ، يتصلون بأواخر جيل ، ويلحقون أوائل الجيل الآخر ، وهم بهذا يجمعون شيئاً من خصائص الجيلين ، ويدركون وجهات نظر الفريقين ، ولا تغيب عنهم فضائل كل جيل ونقط الضعف فيه .

ولعلنا بهذا الوضع أقدر على أن ننصف كل فريق من صاحبه ، وأن نطلع كلا على ما تخفيه حدة النزاع من حقيقة حاله ، من غير تجن أو محاباة ، وقد يكون لهذه الموازنة الصريحة بينهما بعض الأثر في إعادة التفكير ، وتعديل بعض الاتجاهات لما هو خير .

... من أقوى العوامل التي باينت بين الجيلين، بعد ما بين نشأتهما ،
وشدة الاختلاف بين الظروف العامة فيهما . فالجيل القديم نشأ في الثلث
الآخر من القرن الماضي، والجيل الحديث نشأ وقد انفرط من القرن الحاضر
عقد أو عقدان ، وشتان ما بين الفترتين .

حسبك أن توازن بين وسائل النقل والحركة في العهدين والسرعة
التي أصبحت تدور بها عجلة الحياة ، بعد أن كانت تسير في رفق وأناة .

وحسبك أن ترى ما هياه العلم الأبناء الجيل الحديث من شتى الوسائل
التي يسرت لهم الحياة ، ووفرت لهم الدعة وأراحتهم من كثير من المشقة
والجهد ، وتقرن ذلك إلى ما كان أبناء الجيل الماضي يكابدون في سبيل
توفير أيسر الضروريات من نصب وعناء ، وكيف كانوا يشقون طريقهم في
الحياة في مجاهل وعرة وأدغال مظلمة .

وحسبك أن تقدر ما حفلت به المدة التي انقضت من هذا القرن من
أحداث عالمية كبرى ، وانقلابات فكرية خطيرة ، واختراعات لم يمتد
لتصورها خيال ، وما تتمخض الدنيا عنه كل يوم من تغيرات فجائية
متلاحقة في عالم السياسة والاقتصاد ، وأن تتأمل ما كانت عليه الحياة في
أواخر القرن الماضي من ثبات واستقرار وهدوء نسبي وبطء في التطور .

حسبك هذا أو بعضه لترى أن الجيلين وقعا تحت مؤثرات متخالفة
وظروف متباعدة من شأنها أن تبين بين ميولهما ونزعاتهما وأخلاقهما
وطرق تفكيرهما وأن تسلك بكل منهما مسلكا خاصا لا يتفق مع مسلك
الآخر .

أضف إلى هذا أن أبناء الجيل القديم قاموا والدنيا مدبرة والزمان
متنكر لهذا البلد ، وشهدوا محنة قومية جرحت عزة الوطن وأخمدت
جذوة الآمال فيه ومكنت للأجنبي أن ييسط سلطانه ويفرض إرادته .
وأبناء الجيل الحاضر جاءوا والدنيا مقبلة ، والآمال الوطنية تنتمش ،
ويوانيتها الجد فيتحقق منها الكثير ، والنفوذ الأجنبي يأخذ في التقلص ،

والشعب يُسمع ضوته وتتحرى رغباته ، وإنظمة الحكم تتبدل وتتعديل ،
ونسيم الحرية يهب رخاء يذكي خلد الامل ويحيي روح العزة والكرامة .



لا عرابة اذن في ان نجد في أبناء الجيل الماضي ميلا للسكون والهدوء ،
ونفورا من الجلبة والضجيج ، وحرصا على الثبات والاستقرار . وأن
نرى في أبناء الجيل الحديث روح القلق والرغبة في التغيير والنزوع الى
الحركة العنيفة .

تجد مظاهر هاتين النزعتين فيهما بلديتين في نواح شتى .

تجدها في طرق تفكيرهما ؛ فأبناء الجيل الماضي هادئو التفكير قليلو
الانفعال بطيئون مترددون في الاستماع للدعوات الجديدة والآراء المستحدثة ،
يستمسكون بما ألفوه ، ويتشددون في التزام ما عرفوه من الأوضاع ،
حتى ليصل بهم الحال الى نوع من الجمود ؛ ومع ضيق أفقهم فان فيهم
عمقا وميلا للتقصي . وترى أبناء الجيل الحديث أوسع أفقا وأضيق صدرا
بالتعمق والاستقصاء راقل ترددا وأكثر مرونة وأسرع استجابة لكل جديد
واستباقا لاعتناق كل دعوة جديدة ، ويفلون في ذلك حتى ليكادون يقطعون
كل صلة بالماضي ، ويتقلبون حتى ليكادون يسировون في عالم التفكير على
ما يسرون عليه في عالم الأزياء ، يقتبسون آخرها ويخلعون قديمها . ومن
هنا يصعب أن نستبين في أكثرهم شخصية ثابتة مستقلة التفكير .

وتجد مظاهرهما في أخلاقهما ؛ ففي أبناء الجيل الماضي لين ودمائة ،
وجنوح للسلم ، وضبط للنفس ، وتقيد بالمواضعات ، وغلبة الاحتشام ،
والحياء والتواضع ، والزهد في الظهور ، وفيهم حرص على السلامة
وضعف وتردد في الاستمسك بحقوقهم يصل الى ما يشبه الجبن
والاستكانة والاستسلام . وفي أبناء الجيل الحديث طموح ونزوع للمغامرة ،
وتحرر من كل قيد ، يصل بهم في كثير من الأحوال الى ما يشبه الاستهتار
والاندفاع وراء العواطف ، من غير بصر بالعواقب ، وقد يصل ذلك أحيانا

الى بعض الخروج على حدود الاحتشام والحياء ، وقلة الاحتفال بالتقاليد والأوضاع ، وينقصهم في كثير من الاحوال الجلد والصبر واحتمال خشونة العيش ، والثبات امام عارض المحن .

وتجدها في اذواقهما الفنية ؛ فالجيل القديم يعجب بالادب المحافظ الرزين المتجمل ، ويطرب للأغاني العفة الهلدة ، ويانس للموسيقى الناعمة الحزينة ، ويهش للنكتة المحتشمة الرقيقة .

والجيل الحديث يابى الا الموسيقى الصاخبة المجلجلة ، والأغاني المرعبدة السافرة ، والنكتات الجارحة العلوية ، ويتحلى في الادب من كل كل قيد ويتحرر من مالوف الاوضاع .

وكان من اثر الظروف التي قدمنا من قبل ، أن غلبت النزعة الفردية على الجيل الماضي . فكل منهم يعيش في شبه عزلة عن سواه ، يعمل لحسابه الخاص ويهتم بمصالحه الذاتية ، ولا يولي الشؤون العامة الا اهتماما فاترا ، ولا يشترك في واجب عام الا اشتراكا سلبيا . كما أن الجيل الحديث تغلب عليه النزعة الاجتماعية ؛ فالحركات العامة والشؤون القومية تجد منه اكبر اهتمام ، وقد لا يولي شؤونه الخاصة بعض ما تستحقه من العناية .

وتتجلى هاتان النزعتان في تفكيرهما واخلاقهما .

ففي رجال العهد القديم انانية تجعل التعاون بينهم أمرا عسيرا ، وتجملهم يفلتبون مطالبهم الخاصة في كثير من الظروف على المصلحة العامة . وفيهم شح وذن بالمال والجهد في سبيل الخير العام . وقل أن تجد منهم من بذل الا تورطا أو ضحى الا طمعا في عوض ، وفيهم محابة للأقرباء ومجاملة للخلان والأولياء .

وفي أبناء الجيل الحديث ميل للعمل الجماعي ؛ فهم يستجيبون للدعوات المشتركة والحركات العامة ويفكرون بعقل الجماعة ويتأثرون بروح

الكثرة ، وفيهم استعداد للتضحية ، واهتزاز للمكرمات ، وتقدير للعدالة والمساواة . ولكنهم يغلب عليهم اهمال شؤونهم الخاصة وقلة العناية بالتكامل الفردي الذي لا يتسنى بغيره القيام بالواجب العام على اكمل وجه .

وخير ما تتجلى فيه فضيلة الفردية في الجيل القديم - او على الاصح الروح الاجتماعية الضيقة - العناية الكبرى التي أحاطوا بها الأسرة وشدة اهتمامهم بتدعيم بنائهم وتقوية أركانها والذب عن حيائهم والتعاطف القوي بين أعضائها ، ونشأ عن ذلك أن اشتدت غيرتهم وقويت عصبيتهم .

وفي الجيل الحديث يبدو أن الأسرة قد نزلت بعض النزول عن عرشها وأن روايتها قد تفككت بعض التفكك ، وأن حرمانها لم يصبح لها من القدس ما كان لها في الماضي ، وأن روح العصر طغت على تقاليدها وأخرجتها عن عزلتها .



ويبدو أن أهل الجيل القديم كانوا عمليين غير مثاليين ، كما يلوح أن أبناء الجيل الحديث أكثر تعلقاً بالمثل وجرياً وراء الخيال .

يتجلى ذلك في غلبة الأخلاق العملية التي يتطلبها النجاح الدنيوي على أهل الجيل القديم ، من تلمظ في الاحتيال لما يريدون وأخذ بالتقية فيما يخافون ومصانعة للأقوياء ومداراة للسفهاء . وفي أبناء الجيل الحديث صراحة قد تزيد إلى ما يشبه التبجح . وفيهم سداجة تجعلهم فريسة هينة للمخادعين . وفيهم عواطف حساسة قد يشتتون في التأثير بما يحركها لأبعد الحدود .

ولست أدري لم كان أهل الجيل القديم أكثر جداء وأقل عبثاً من أبناء الجيل الحديث الذين تغلب عليهم في أكثر حالاتهم روح الهزل والمجون .

هذه نظرة مجملية حاولت أن أصور بها أبرز الصفات في الجيلين . ولا يصح اعتبارها نظرة شاملة ، ولا أن يؤخذ بها كل أفرادهما ، فكم في كل جيل من يعيش في غير زمنه ويساير جيلاً غير جيله .

محمد عبد الواحد خلاف

المصدر : الثقافة - القاهرة العدد ١٣ / ٢٨ مارس ١٩٣٩ - السنة الأولى *

رجعية قديمة ورجعية جديدة

... تجب مكافحتهما

وصفي البني ١٩١٢ - ١٩٨٣

لا شيء مثل القضايا الاجتماعية ، دينية كانت او وطنية ، اصبح ميدانا لتلاعب صريح مفضوح ليس له من ستار يخفي خطره غير جهل المتلاعب بمصالحهم ، وليس له من دعامة يستند عليها غير ضعف هؤلاء وقوة المتلاعبين . وان لهذه القوة وذلك الضعف لمظاهر كثيرة ومصادر مختلف لا بد من موضوع مستقل لدراستها دراسة علمية وافية .

ولقد بات طبيعيا ان نرى كثيرا من الاعمال المنافية لروح الدين تجري امام عيوننا ورغم انوفنا . . باسم الدين ! كما بات طبيعيا ايضا ان نرى كثيرا من الاتجاهات القائلة لمصلحة الشعوب يدفع الناس او يندفسون في طريقها ، امام عيوننا ورغم انوفنا . . . باسم مصلحة هذه الشعوب ! والاغرب من هذا اننا نجد هذا الكلام نفسه يردده العابثون بالاديان ومصالح الشعوب لمحاربة الاتجاهات الجديدة التي ترمي الى استئصال العبث من جذوره . فكيف السبيل للتفريق بين الباكي والمتباكي ؟ اهنالك من حكم غير العقل والمنطق ؟ ولكن العابثين جميعا يزدرون العقل والمنطق . ففريق قد اغلق « باب الاجتهاد » او حال العقل « على التقاعد » الى الابد . . . وفريق « جديد » يقطب في وجهك جبين فيلسوف ويخاطبك بمنطق شاعر ، فيقول لك : العاطفة فوق العقل ، فوق المنطق ، فوق المصلحة ، فوق كل شيء ! . . . اتريد ان نحصر انفسنا في نطاق الوعي المحدود ؟ . . . ولعمري انها لرجعية جديدة ، وما الجديد فيها الا ثوبها « الفني » البراق الذي يخدع الاطفال ويرضي الكسالى والجبناء الذين ينغرون من ملاحقة

العقل الواعي الذي يقود الباحث الامين الجريء الى شتى مطارح الحقيقة، الحقيقة العارية ، سواء اتجلت في جنة وارفة الظلال او بين فكي الثنين . انهم بتمسكهم بهذه « النظرية » الجديدة بمظهرها والعتيقة بجوهرها . انما يريدون ان يفلقوا « باب الجدل » - اجل هكذا يقولون - وهنا يتحمسون « حماسا قوميا » فيقولون لك بوجوه متجهة من الاسى والالم : « لا شيء يقضي على نهضتنا القومية مثل هذا « الجدل العقيم » الذي يدور هنا وهناك حول ما يجب علينا ان نعمل ، واين هي مصلحتنا ، واي النظريات يجب ان نؤمنق . . دعونا من كل هذا ! . . نحن عرب قوميون فقط . . هذه هي الحقيقة المطلقة ومصدر كل الحقائق . . كل نظرية من النظريات يجب ان نترف من هذه « الحقيقة الحية » مادتها الاولى . . الخ » بمثل هذه العبارات تتجلى الرجعية الجديدة التي تفتقر منطقها الخلاب من مستنقعات النازية والفاشستية التي تفريهم خضرة سطحها فيسدون انوفهم كيلاينسوا روائح الدمار المقيم تحت تلك الخضرة الخلدعة التي تتشقق كثيرا فيغمضون عيونهم كيلا يبصروا القبح المخزون تحت الورم الذي يحسبونه شحما . .

فنحن اذن امام رجعتين : اولاهما ، وهي العتيقة ، قد اتخذت الجمهور الساذج الجاهل قلعة حصار وسلاح هجوم في آن واحد . وثانيتهما وهي « الجديدة ! » راحت تنفث سمومها في السذج من شبابنا المثقف وتحاول التسرب الى اوساط الطلبة ، فاستثمرت في اولئك وهؤلاء حماسهم البريئة ونفرتهم من مسالك التفكير العميق والدراسة الجدية المستقصية ، واثيرهم العمل السطحي في المناسبات العارضة ، جينا بعد حين ، على العمل في الاعماق والاسس بصورة متواصلة غير متقطعة .

ونحن نؤمن ان معسكر الفاشستية والنازية في وطننا العربي انما يتخذ من هاتين الرجعتين اداة هجومية دفاعية يهدم بها كيانات القومي بشتى الدعايات الاستعمارية المطلية بطلاء « اسلامي » حينا ، و« عربي » حينا آخر فيتخلى شعبنا الساذج وشبابنا المخدوع عن التفكير ببناء مستقبل امتهم والعمل في الميادين القومية الصحيحة ، منتظرين « منقذ العرب »

هتلر الجبار الذي « أرسله الله سبغا على اعداء العرب والاسلام لينتقم لهم من ظالمهم ويحررهم من مستعبدتهم ثم يعود الى غمده في برلين بعد أن يترك عددا كبيرا من طائراته في هذه الديار لينقل الحجاج الى بيت الله الحرام ذهابا وإيابا ومجانا لوجه الله تعالى ! .. »

وتقول اسطورة سمعتها في دمشق ان لهتلر - او « أبو أحمد » كما يسميه الطابور الخامس - غرفة في قصره في برتشفان لا يدخلها احد غيره . وهو يختلي فيها كل يوم ساعات وساعات . . فدفع الفضول ذات يوم واحدا من المقربين الى « الزعيم » - ولعله غوبلز - فدخل الغرفة فإذا هي خالية الا من سجادة للصلاة لله تعالى . . . ولما فرغ الفوهرر من صلاته وسئل عما هو فيه أشار بسبائنه الى القرآن وقال : هذا هو الطريق ! . . . بهذا انتصرت ! . . .

تمثل هذه السخافات والاضاليل يبشر الطابور الخامس بالوثنية النازية ، ومن هنا تبدو قيمة خطرة ، فهو يستند على الجهل والرجعية وشتى الوان الخيانة الوطنية والقومية ، الواعية وغير الواعية ، ان مكافحة هذا الطابور الخامس ، ان مكافحة الفاشية والنازية في وطننا العربي ليست كما يحسب بعض « القوميين » عملا « انسانيا بعيدا عن القومية » بل هي في الواقع العمل القومي الاجل الذي يجب على من يطمح لتحرير امته حقا ان يصرف كل قواه في تاديته ، انها عمل قومي عربي في الدرجة الاولى ، وانها لعمل انساني بالدرجة الثانية لان العرب حين يتحررون من خطر الفاشية والنازية فانما يخدمون « الانسانية باضعافهم لخطر كبير يهدد حياتها بأفظ وأرعب شكل من أشكال الاستعمار الذي تهب الدول الفاشية البربرية لانعاشه وهو على فراش الموت .

فما هو عملنا نحن اعداء الفاشية والنازية العرب ؟ يقول محتكرو القومية : « انكم يا هؤلاء بمكافحتكم الفاشية والنازية انما تخدمون استعمارا عرفتكم شروره وتكافحون امة لم تجربوها بعد » . اصحيح اننا لم نعرف ايطاليا في الحبشة وطرابلس الغرب ، واليابان في الصين ، والمانيا

في اوربوا ؟ ... لا ، لا ، اننا اجل واشرف من ان ننحدر الى هوة المفاصلة بين استعمار واستعمار .. والقضية ليست قضية مفاضلة بين نوعين من انواع الاستعمار ، فنحن اعداء كل استعمار لاننا اعداء كل ظلم واضطهاد ونحن اذ نعلن وقوفنا في وجه الفاشية النازية المجرمة ليس معنى ذلك اننا تكافح خطرا بعيدا لم نعرف حقيقته بعد ونصالح خطرا قريبا قد خبرنا حقيقته . وليس غير الصم البكم العمي من يحسب ان خطر النازية البربرية بعيد عنا ، انه هنا بين ظهرائنا ، فوق رؤوسنا ، وتحت سمعنا وبصرنا ، وهو جائم فوق صدورنا يكاد يخنقنا بثقله وضغطه . ان بعض الفئات المخدوعة بالاضاليل الرجعية ودعايات الخونة ، باتت ولسان حالها يقول : « عجلي ايتها الساعة التي سوف تحمل الينا فيها جيوش « المحررين » الالمان الخلاص من كل مصاعب هذه الحياة الخائفة التي لم نعد نحتمل الصبر عليها ! » ومن الذي ينكر على شعبنا ان يحس مصاعب هذه الحياة ، اجتماعية كانت او اقتصادية ؟ بل كيف يمكن لشعب حي ان لا يتضجر من مصاعب الحياة ؟ هنا تبدو لنا حقيقة واضحة كالشمس : ان شعبنا اشبه ما يكون بتائه في صحراء قاحلة قد بلغ به الاعياء والجوع والمعطش حدا فقد معه سمعه وبصره وتفكيره ... فاذا لمست يداه شيئا حسبت هذا الشيء « منقذا من عند الله » ولو كان هذا « الشيء » رأس افعى او انياب ضبع شره الى الدم ! اتريدون ان يدرك شعبنا حقيقة ما يحسبه « منقذا من عند الله » ؟ ... شمروا سواعدكم اذن وتعالوا تكافح كل ما يؤدي الى فقدان هذا الشعب لسمعه وبصره وتفكيره . تعالوا لنعمل كل ما يجب عمله لننقذ شعبنا من التيه في الصحراء ، لننقذه من الجوع والجهل .

وهذا ما تنادينا اليه نحن اعضاء عصبة مكافحة الفاشية في سوريا ولبنان .

وهذا هو عملنا القومي الذي كنا ندعو اليه كل راغب بتحرير قومه من كل اشكال العبوديات التي معاضدتنا فيه .
وصفي البني

المصدر : الطريق . بيروت . المجلد الاول . الجزء الاول . ٢٠ كانون الاول ١٩٤١ .

موقف العرب

من الثقافة القديمة والثقافة الحديثة

عبد المعين اللوحي - ١٩١٧ -

يسود التفكير العربي اليوم اضطراب وتردد بين ثقافتين : ثقافة قديمة وثقافة حديثة . ثقافة قديمة تحاول ان تستمر وان تفرض على عقولنا مفاهيمها ووجهة نظرها الى العالم ، وتريد ان نكتفي باجترازمعقولاتنا القديمة ، وآرائنا السابقة ، وبترديد الحكم الشرقية والامثال الخالية للحكم على كل مناحي الحياة الحديثة واتجاهات الحضارة البشرية ، وتود ان تقف على شاطئ كل التيارات السياسية والفكرية والاجتماعية في العالم ، قانعين بالنظر اليها نظرة جامدة بليدة ، ساخرين بهذا المعترك المتلاطم من النظريات والمبادئ ، سخرية من يرى انه ارفع من ان ينزل الى ميدانها ويناضل في تحقيق ما يرى ان عليه نصره منها ، وتبتغي ان تعيش كما تعيش الحيوانات التي حرمت غذائها على حساب ما فيها من مواد مدخرة حتى تموت وتبلاشى . او بكلمة مختصرة : ثقافة قديمة ، تظن ان لم يخلق خير منها ، وانه ليس في الامكان ابداع مما كان ، واتها ارقى الثقافات واتمها ، وانها كاملة لا سبيل الى الزيادة فيها والانقاص منها ، فلذلك ينبغي ان نعتنقها وان لا نرضى بها بديلا ، وان (نرجع) اليها ونقنع بها فلا نتطلع الى ما حولنا من ثقافات وفلسفات ، الا من عل ، واذا نحن تطلعنا فكما ينظر الطفل الذي يغبه النعاس الى ما حوله من وجوه ومعالم .

وثقافة حديثة نفزو عالمنا العربي من كل ناحية وتعرض لنا في اغراء وفتون ، ونقبلها راضين احيانا ، ساخطين احيانا ، ولكننا نتقبلها في كل

حال ، وهذه الثقافة تمثل الحضارة الحديثة واتجاهاتها ، تدوي فيها صرخة الحياة ، ويضج من حولها كل ما في الكون من عراك بين المبادئ والنظريات ، انها تنبعث من مقاعد الدرس ، ومن دور الكتب ، ومن آلات المصانع ، ومن ضجة المطابع ، ومن مخابر الكيمياء ومن كل ما على هذه الارض ، وما تحت الارض ، من اختراعات ومكتشفات . وهي ثقافة لا تحتم علينا نوعا واحدا من الآراء ، ولا تفرض على عقولنا قابلا واحدا من التفكير ، ولكنها تعرض علينا كل ما انتجته القرائح في المجتمعات الراقية لنجد فيه ما ترضاه طبيعة ماضيها وحاضرنا وهي لا تقول عن نفسها : « انها ابداع ما يمكن ان يكون » ولكنها تقول انها شيء كائن يمكن ان يكون ما هو خير منه ، وهي لا تقول انها كاملة ولكنها تقول انها تسير نحو الكمال (وتتقدم) اليه . انها تقدمية أي انها ترى مثلها الاعلى فيما سيكون ولا كما رآته الثقافة القديمة فيما كان .

فما هو موقفنا نحن العرب من الثقافيين ؟ والى ايهما يجب ان نتجه ان اردنا لامتنا الحياة ؟ وكيف يجب ان نفهم الثقافة ؟ وما هي مقوماتها ؟ وكيف نستطيع ان نكون مثقفين ؟

اول ما يجب ان نعرفه : لتبين على ضوءه موقفنا من الثقافتين ، ولنجيب على هذه الاسئلة المختلفة ، هو ان نحدد معنى الثقافة ومفهومها :

ان للحضارة البشرية مظهرين : مظهرا ماديا نصطلح على تسميته بالمدنية ، ومظهرا فكريا نصطلح على تسميته بالثقافة ، فالثقافة هي المظهر الفكري للحضارة ، وهي والمدنية تسيران جنبا الى جنب وتتطوران تطورا مستمرا دائما .

ان اختلاف طرائق الناس في معاشهم ومكاسبهم وتبدل وسائل الانتاج ، هما اللذان يحددان بالضرورة نوع التفكير في المجتمع ، ودرجة ثقافته ، ونوعها .

وكما أن الحضارة المادية في تطور مبدع واستمرار متجدد ، كذلك كانت الثقافة في تطور مبدع واستمرار متجدد ، انهما نتيجة لسبب واحد ، هو هذا الجهد الذي بذلته البشرية كلها على اختلاف أممها وعروقها من أقدم عصورها حتى اليوم ، ولا تزال تبذله ، ومن الطبيعي ان هذا الجهد مستمر في قوته وانتشاره فمظاهره من حضارة ومن ثقافة مستمرة في قوتها واتساعها ، وليس من أحد يحترم نفسه اليوم يعتقد ان الحضارة المادية القديمة والحضارة المادية الحديثة متساويتان في النوع والقيمة ، فقد ارتقت الحضارة البشرية منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى يومنا هذا ارتقاء لو شئنا ان نستعمل لبيانه الطريقة الحسابية لقلنا انه يبلغ ٩٠٠ بالمئة من الحضارة البشرية نفسها خلال عصور التاريخ .

وإذا نحن اتفقنا على هذا الرأي الاساسي ، أي أننا إذا اتفقنا على أن الثقافة مظهر الحضارة الفكري . وانها تختلف درجاتها باختلاف درجات الحضارة ، وصلنا الى نتيجة منطقية لا شك فيها ، وهي ان مرحلة ما من مراحل الثقافة لا تصلح للحياة في كل مرحلة من مراحل المدنية ، انها ليست رداء واسعا ولا كيسا يلبسه كل جسم ، بل هي مرحلة ثقافية صالحة وممثلة لمرحلة مدنية معينة ، أو هي على التأكيد مظهر لتلك المرحلة الخاصة ، وليس ممكنا أبدا أن نطبق أية مرحلة من مراحل الثقافة على أية مرحلة من مراحل المدنية ، إذا لم تكن هاتان المرحلتان حدثتين في نفس زمان ومكان واحد ، وكانت أحدهما مظهرا ومتممة للآخرى ، أي ان لكل مدنية من المدنيات ثقافة من الثقافات لا يمكن فصلها عنها ، فإذا تطورت تلك المدنية استدعت بالضرورة تطور هذه الثقافة .

ان لكل دور من أدوار التاريخ تفكيراً خاصاً ، فليس يصلح للدور الرأسمالي تفكير الدور الاقطاعي ، وليس يصلح للدور الاقطاعي تفكير عهد العبودية .

وهنا نصل الى ما لا بد من الوصول اليه ، وهو أننا في مرحلة من مراحل التمدن الحديث تلازمها مرحلة من مراحل الثقافة الحديثة ،

ونحن لاننا نقبل هذه المدنية ، بل نحن لاننا نسرع الى هذه المدنية مختارين
أو غير مختارين ، لا بد لنا من قبول ثقافة هذه المدنية مختارين أو غير
مختارين ، بل لا بد لهذه المدنية التي نستمدّها ونؤسسها من ثقافة هي
ناشئة عنها ومستمدة منها .

وهكذا نرى اننا قد وصلنا الى حل هذه العقدة التي تفرض علينا
وتطلب منا ان نطبق مرحلة ماضية من مراحل الثقافة القديمة على مرحلة
حاضرة من مراحل المدنية الحديثة .

ان الحياة نفسها تأبى تحقيق هذا الطلب ، بل ان الحياة نفسها ترفضه
لانه ليس من طبيعتها ولانه غير معقول وغير ممكن .

ان للمدنية الحديثة ثقافة حديثة ، كما كانت للمدنية القديمة ثقافة
قديمة ، ونحن أمام طريقتين لا ثالث لهما ، ولا اختيار فيهما هو إما ان
نقبل ثقافة المدنية الحديثة ، لاننا قبلنا هذه المدنية نفسها ، وإما ان نعود
القهقري خلال التاريخ ، فنرفض المدنية التي قبلناها عفواً ، ونرجع الى
دور من أدوار المدنية القديمة حتى تتفق مع هذا الدور من أدوار الثقافة
القديمة التي يريدنا أصحابها على التمسك بها واعتناقها ، وليس هذا
أيضاً ممكناً ، لاننا سرنا في طريق الحياة ، ولسنا ، وان كان ممكناً ،
لنختاره نحن العرب الذين نطلب لامتنا الحياة .

اذن فنحن لا نستطيع الفاء ما اخذناه من مدنية ، ونحن لا نستطيع
اعادة دور من أدوار المدنية الماضية يعتمد على نوع خاص من أنواع المعاش
والكاسب والعلاقات الاجتماعية القائمة على وسائل انتاج معينة ، قطعه
البشرية منذ عصور ، ونحن في سبيل قطعه واجتيازه . ونحن لا نستطيع
أيضاً بطبيعة الحياة أن لا نفتح صدورنا للمدنية الحديثة ، لان الانسان —
كما يقول الفلاسفة — مدني بالطبع ، واذن فلا بد لنا مختارين أو كارهين
وما دما احياء مفكرين ، من قبول ثقافة هذه المدنية لاننا قبلنا هذه
المدنية نفسها ، ولست أقصد من هذا اننا يجب أن نقبل كل ما في تلك

الثقافة ، لاننا في الواقع يجب أن لا نقبل كل ما في هذه المدنية ، ونحن اذا كنا عربا واعين وجب أن ندرك الاسس الفكرية والخطوط الاولى الموجهة لهذه الثقافة ، لا ان نحل انحلالا نهائيا في تناقضاتها ونهمل قواعدها الاساسية المتينة .

اننا ايضا لا نستطيع اعادة دور من ادوار الثقافة الماضية يعتمد على نوع خاص من انواع التفكير والدوق والشعور ، لاننا لا نستطيع بطبيعة الحياة ان لا نفتح صدورنا للثقافة الحديثة ، وعقولنا للتفكير الحديث .

ولكننا اذا وصلنا الى هذا الراي الذي لا يرفضه انسان ، وجب علينا أن لا ندفعه الى أقصاه فيصبح خطأ ، ونقع فيما لا نريد أن تقع فيه من ضيق ساحة النظر . ولقد قلت ان هذه المدنية والثقافة متصلتان غير منفصلتين ، وانهما مظهران لشيء واحد ، هو هذه الجهود البشرية المادية والفكرية ، ولكن هذه المدنية التي ننعم تحت أفيائها اليوم ، ليست نتاج الحاضر ، ولا هي شيء منزل ليس له مقدمات ، وان تنتج عنه نتائج ، ولكنها حلقة من الحلقات المتصلة المتسلسلة تتصل بما سبق وتتصل بما يلي ، وكذلك كانت الثقافة الحاضرة فهي ليست إلهاما ولكنها حلقة من الحلقات المتصلة المتسلسلة ، تتصل بالماضي والمستقبل ، ولقد أصبح من مكرور القول أن جسم الانسان الحاضر ليس مخلوقا منقطعا عن الماضي غير متصل بالمستقبل ، وان هذه المظاهر المتفرعة لجهود الانسان ولنشاطه ليست منقطعة عن ماضيها ومستقبلها .

ان علم الحياة يقول لنا ان الانسان الحاضر هو نتيجة التطورات البيولوجية التي حدثت لاسلافه وأجداده ، وهو ايضا مقدمة الأبنائه الذين يرثون منه هذه التطورات . وكذلك فان المدنية والثقافة أو الحضارة المادية والحضارة الفكرية هما نتيجة جهود آباءنا الذين وضعوا الحجر الاساسي في بنائها وهي نتيجة جهودنا التي سنقدمها لابنائنا ليزيدوا في بنائها ويوسعوه .

وعلى هذا فليس من انقطاع بين ماضينا وحاضرنا بطبيعة الامر ، ولو انقطع حاضرنا عن ماضينا لم تبق لنا شخصية ولا هوية - كما يقول علماء النفس - وانما بقاء الانسان ببقاء شخصيته ، والثقافة التي ندمو اليها اليوم هي بطبيعة الامر ثقافة الحاضر والماضي معا ، والواقع في المدينة الحاضرة عناصر كثيرة من المدينيات الغابرة ، كما أن في الثقافة الحاضرة عناصر كثيرة من الثقافات الغابرة ، وهذه اللغة التي نتكلم بها ، هل هي الا وراثته الماضي ؟

يقول انصار الثقافة القديمة ، او على الاصح يقول من لا يفهم الثقافة القديمة ، وهو عن فهم الثقافة الحديثة اعجز ، اننا نستطيع ان نعيش في هذا العصر المادي الواقعي بثقافتنا المتأفيريكية القديمة ، التي هي ممثلة للعصور الاولى والوسطى ، وهذا غير صحيح ، فنحن في عصر مادي يجب ان تكون لنا فيه ثقافة مادية أي ثقافة واقعية تعتمد على التجربة والمحكمة ، لا على الآراء السابقة والتصورات المتوهمة ، ثقافة تفهم الكون ولا تتصور له اشكالا وقوالب ترغمه على قبولها والتطور في اطرافها .

اننا نقبل حضارة الغرب ، نقبل مخترعاته ، ونقبل أنظمتها ، ونترجم علومه ، وذلك كله لأن حاجتنا مثل حاجاته ومثلنا العليا قريبة من مثله ، ذلك لأن عقلنا مثل عقله ، ذلك لأن العالم يسير كله الى تحقيق عالم انساني عادل وشريف وسعيد ، ذلك لأن هناك وحدة في العقول ووحدة في الاهداف ووحدة في المصالح كامنة وراء هذه الفوضى المتلاطمة من التعارض والاختلاف والتعصب التي نتجت من تفاوت درجات التطور في مختلف الافراد والجماعات والشعوب .

فليس من المعقول بعد ذلك كله ان نزعم قدرتنا على الاكتفاء بثقافتنا ولولاك نظرياتنا وآرائنا ، بل ان الواجب والمعقول أن نزيد في ثقافتنا وان ننميتها ، وان لا نكتفي باجتراح ما حفظنا ، بل يجب أن ننشئ ثقافة حديثة تتفق مع مدينتنا الحديثة . اننا لا نريد ان نكون منغلطين نتقبل

ولا نبذع ، وناخذ و لانعطي ، ونسرق ولا ننتج . ان الذين يدعوننا الى مقاومة الثقافة الحديثة والاكتفاء بالمدينة الحديثة كمن يدعوننا الى امتطاء سيارة ليس فيها زيت ، وحافلة ليس فيها كهرباء ، انهم يقدمون الينا جثة ليس فيها روح .

وهم في الواقع يعوقوننا عن السير في طريق الحياة ، في طريق الانتاج والابداع ، في طريق الاختراع والاكتشاف ، في طريق أن نكون أهلا لهذه المدينة التي نتمتع بخيراتها ، ثم يريدون أن لا نعينها في أزماتها الحاضرة ، وأن لا نساهم فيها ونقدم اليها ما نستطيع من قوة ونجدة . انهم يطلبون منا أن نكون حيوانات لا تنتفع من خيرات الارض الا بما يطمحها ويسقيها ، ثم هي غافلة عما في الارض وفي السماء ، من حياة وجمال ، وعلم وثقافة ، وفن وذوق وأدب .

ولكننا نحن العرب نرفض هذه النظرية الرجعية وثأبها ، لاننا من امة انسانية رشيدة ، ولاننا اهل لهذه الحياة الجديدة التقدمية التي تعج بالابطال من العرب ومن غير العرب ، والتي تسير بعجلة التاريخ الى الامام دائما وإلى الامم ، ولاننا لا نريد الموت لانفسنا ولا لامتنا .

اننا نأبى أن ننظر الى الانسان كمخلوق شرير بغريزته . لا سبيل الى اصلاحه وجعله انسانا خيرا وطارها .

اثنا نأبى أن ننظر الى الانسان كمخلوق يحمل تبعة (الخطيئة الاولى) ثم لا سبيل الى سعادته وورغده .

اننا نأبى أن ننظر الى الانسان كمخلوق عدو لآخيه الانسان يسعده ويستثمره ، ثم لا سبيل في نظره الى الفناء الاستعمار والاستثمار في جميع اشكاله .

اننا نأبى أن ننظر الى دينانا التي فيها معاشنا كجيفة قلدة ، وليست هي الا مجالا رحبا طيب المتاع ، يمكن أن يتحول الى حديقة غناء .

انا تأبى كل هذا وفريد أن ندفن الى الأبد تلك البقايا المتحجرة
العفنة من آرائنا وأوهامنا .

يقول باسكال : « اتني لا أجد الفيلسوف مونتنى في كتبه ، ولكنني
أجد نفسي . » وأنا أيضا لا أجد الغرب وحده في كتبه وثقافته ، بل
أجد نفسي ، أجد ما يرضي عقلي ويمجّب ذوقي ، أجد فيهما ما تتطلبه
الامة العربية التي لم تتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر
منذ قرون ، فلما تبينته هرعت اليه ووجدت طريقها التي أضاعتها فيه ،
فاهتدت اليه كما هدت الغرب من قبل اليها ، فاذا هي طريق الحق
والنور والجمال .

دمشق ١٠ - ١ - ١٩٤٣

عبد المين الملوحي

المصدر : الطريق ، بيروت : المجلد الثاني ، الجزء الثاني - ٢٠ شباط ١٩٤٣ .

كمقدمة

ملون عبود ١٨٨٦ - ١٩٦٢

القديم والجديد نضال الابد بل صراع الحياة . في عش المصفور
الدوري كما في عرين الاسد ، بين الآباء والابناء ، الاخوة والاخوات ،
والكنة وحماتها ، وهنا التنور المسجور والفرن الحامي ...

تكون الحماة ارجح عقلا واوفر علما وتراها الكنة اختا للغوريلا
واننى الكهوف . اما الحماة فتقف بالمرصاد كعداد التكسي . ان مشيت
الكنة رات خطواتها اوسع من المعتاد ، وأشأت بتعديلها لتكون على
اللتام ، كما رسمها السلف الصالح . واذا تبسمت صفقت على
فخديها وصاحت بابنها : قل لبنت عمك لا تفتح بوزها على مصراعيه
ثاني مرة ، هذا عيب ! واذا حكمت فهي ثرثرة ، لسانها اطول من اذنيها ،
وان سكنت فالمسكينة حمارة ، الدجاجة تاكل عشاءها ، وان رفعت
صوتها كانت وحشة مقطوعة من الحرج ، وان خف صوتها فهي حية
رقطاء تحكي في عيبها ، وان قصرت ثوبها فهي من سلالة حاتم في الفتنة
والاغراء ، وما هكلنا تعمل بنت الاوادم ، وان عملت بوصايا الله فكل
قماش بيروت لا يكفيننا ، والله يساعدك يا ابني !! وان كبرت لقمعتها فهي
غولة ، لعنة الله على من ربوها ، وان بينت سنها فالبننت عينها شلودة .

وتروى الكنة حماتها فتراها اقل من خرقة بالية اولى لها ان تلقى في
المطبخ لا أن تتقدم عليها في المحضر ، وتسود وجه البيت . فلتنقبر !
اين عزرائيل كناس البيوت ؟ الا يرى هذا الوجه المتكرش كانه آخر
البندورة ؟ ..

والحماة تخاف على ولدها من هذا الطاعون . البيت يخرّب اذا
تخلّت هي عنه لهذه البنت الطائشة ، واذا زارتها جارتها تسرّ النجوى
قائلة : غضب من ربنا يا جارة ، حلّ علينا . يا قلة الحظ !! ثم تقرصها
في جنبها قرصت لاذعة لها ألف معنى ومعنى ، بينما الكنة المسكينة تقرأ
او تطرز ، او تترنم كدباب عنتره ... وتختّم الحماة رسالتها هذه بصريف
الاسنان مقرونا بأحرّ العواطف : يخرّب بيتها ، لا يهمها شيء سواء
عندها خرب البيت أم عمر ، فتجيب الجارة الحكيمة : السكوت إحسن
يا جارة ، ما في اليد حيلة !

أجل ما في اليد حيلة ، وهذه مصيبتنا بعينها في الادب ، الادب يريد
ان يمشي ، والحماة قرم عنيد واقف بالدرب ، لا تفتح الطريق الا اذا
مشينا على جثتها . قلنمش !

كان من الازياء الأدبية ، منذ نصف قرن خلا ، ان يقدم الكاتب لاسمه
بسجمة فيقول : ألفه الفقير الى عفو ربه الرزاق فارس بن يوسف
الشدياق ، او صنّفه العبد الفقير الجاني ، سعيد الخوري الشرتوني
اللبناني . وقد أدركت ، تلميذا ، آخر هذه السوق ، فكتبت على دفتر
لي مدرسي سيبقى بعدي وقف ذرية : المحتاج الى عفو ربه المعبود ،
مارون حنا الخوري عبود . وكان هناك زي آخر أعظم خطراً وهو ان
يصدر المؤلف كتابه بيتين من الشعر ، كما فعل المعلم بطرس البستاني
فكتب على قاموسه الشهير :

قل لن لا يرى الأواخر شيئاً ويرى للأوائل التقديماً
ان ذاك القديم كان حديثاً وسيمى هذا الحديث قديماً

فتعظيم القديم من طبيعة الناس ولذلك عبدوا جدودهم .. فكل رجل
ولو خاملاً ، يستحيل يوم يموت شيئاً عظيماً ، تنهال عليه الرحمات
ويرون انه كان من المفارّد ، لا تعصى عليه مشكلة ، مع ان المرحوم كان
لا يهش ولا ينش ، ولكنه دخل الابواب الدهرية فصار ملك المجد ..

وفباله جيل القديم يرتفع توأم آخر يساميه ويطلوله ، هو جيل الجديد ، والتوأمين لا يلتقيان . فزعيم الشعر العربي واحد لا غير هو الذي ضيع ملك أبيه ، ولكن عرش ذلك الوالد المحترم لا يسلوي بيتا من قصائد ابنه . طاح تاج ابن حجر فداء رأس داره جلجل . . . ونودي بامرئ القيس ملكا على الادب العربي ، وثبت عرشه مدة ستة عشر قرنا ، لا يشور عليه الا عصابات تدوب جهودها في الخنادق التي تحيط بالقديم .

وقرأ شبابنا آداب الامم فأغرتهم بالخلق فتجهم لهم المحاربون القدماء يريدون ان تظل الجبهة في البلاء فقالوا : ليس هذا من كلام العرب .

ان الشعر معمل تصنع فيه التعابير ، ولهذا يحق لنا ان نقول للشاعر كن كيف شئت ، الا اثنتين فلا تقربهما أبداً : النحو واللغة .

فتنت العرب التعابير الراقصة فصرخوا بصاحبها : انت اشعر العرب وادركوا ان الشعر موسيقى اولا فقدموا البحرى وأخروا ابن الرومي . واهتز ابن الاثير « لوطن النهى » في شعر أبي تمام ، وأعجب « بقلب يطل على افكاره » عند أبي عباد ، كما نعجب نحن « بضيوف الله » عند شوقي لا بقريع الشهباء وكبش النطاح . .

يصلح الشباب اوتارهم فنشوشها لهم ، وبدلاً من ان ننشر الزهر على الموكب العابر نرجمه بالحجارة . ما قتل الادب العربي الا توسله الى الفن بلغة « رسمية » لا يحيد عنها . ولو كان في ذلك الاسلوب « الرسمي » خير ، ما نزل القرآن الكريم بلغة الناس الفاتنة الطرية الناعمة المصقولة .

يحاول الشباب خلق الشعر المصفى فنغضب تلك الغضبة المضرية ليظل اكثر شعرنا نشرأ . وكما كانوا يحتكمون في البصرة والكوفة الى واد من البادية نحتكم نحن اليوم الى الكتب القديمة ، حتى في الفن . . ان باب القياس اوسع من الهاوية ، فدعوا السماع ، واضربوا في مناكب الارض ولا تكونوا من ذوات المهدتين .

فلندع المجترين يتبلغون بما في بطونهم ، ولنخلق طعماً جديداً . ان في الادب ازياء تتجدد . ان البساتين تحتاج ، دائماً ، الى التطعيم ، والاداب بساتين الشعوب ، فلنطعم ادبنا فقد أصبح برياً . قدحان لهذه الوثنية الادبية ان تتواري ، فالغن لا يعرف الا إلها واحداً هو الجمال . ان فلح الشباب ففلاحهم مجد لنا ولهم ، وان اخفقوا فالتبعة عليهم . ان اللواء معقود لهم وسيظل في يدهم حتى تعقده العبقرية لجيل آخر ، ان اللرية محبوبة الا في الادب ، ففلان وفلان لا يريدون ان يتواروا ان الحماة لا تدع ثرواتها حتى يغلق عزرائيل ذلك الفم الذهبي .

مل العرب القديم في كل عصر فضل الاسمعي ابن براد على مروان ابن ابي حفصة ، وابن الاثير نادى ان باب الجديد مفتوح حتى يوم القيامة .

منذ دهور واعيننا في ظهورنا ، واكثرنا يعارض الذي عيناه في وجهه . فهذا الشعر الذي يقوله شعراء اليوم هو الشعر حقاً ، ولكنه في حاجة الى خلق مستمر ، فقد كاد ان يصير ادب عصائب طير تهتدي بعصائب .

كان الاعرابي يؤثر - كالأب بريمون اليوم - شعراً موسيقياً خف معناه على شعر بلا موسيقى ، وان رجحت كفة معانيه . فلنسر على هذه الطريق نفلح . اما المتوغلون في الوثنية الادبية فلهم اقول : اذا كان استطاع تبديل حياة النبات بتبديل الضوء ، فلا استطاع الشعر على ضوء مصباح اديسون بدلا من ذبال امرىء القيس المقتل ؟!

نيسان ١٩٤٨

ملعون عبود

المصدر : مجددون ومجتررون - ص ٥ - ٩ المقدمة . الطبعة الاولى . بيروت ١٩٤٨ .

الجديد والقديم

الدكتور عبد الرزاق السنهوري باشا ١٨٦٥ - ١٩٧١

تفضل معالي الدكتور عبد الرزاق السنهوري باشا ، فقدم هذا العدد بهذه الكلمة القيمة التي تضمنت رأيا نفيسا وتوجيها رشيدا للجيل الجديد .

وزير المعارف

طلب الى « الهلال » ان اقدم بكلمة موجزة لهذا العدد الممتاز وعنوانه « الجديد » . وقد كنت احب ان اقصر عنوان هذه الكلمة على « الجديد » دون ان اضيف اليه « القديم » فاحاكي بذلك عنوان العدد الممتاز نفسه . ولو طابعت شعوري لفعلت . ولكني فكرت قليلا . .

فكرت اولاً في انني اقدم الكل ما اشتمل عليه العدد من آراء ونزعات ، وفيها انتصار للجديد والقديم .

وفكرت ثانياً في ان الجديد لا يقوم الا بالقديم ، ولولا القديم لما كان هناك جديد . فليس من الانصاف ان اخص الجديد بالذكر دون القديم .

وفكرت اخيراً في ان جديد اليوم سيكون القديم في الغد ، وان قديم اليوم كان بالأمس هو الجديد . فلا فرق اذن بين الجديد والقديم .

اذن سأعرض للجديد والقديم معا ، فان حنيني الى القديم لا يقل عن شغفي بالجديد .

الجديد قوي وثاب . ونحن امّة في اشد الحاجة الى القوة والثوب . قديمنا رث مهلهل ، فينبغي ان ننزعه وان نتقدم الى هذا العالم الجديد

في ثوب جديد . جربنا المشي الوئيد والعالم يجري ركضا ، فإذا بنا تخلفنا عن الركب وصرنا مسبوقين بعد ان كنا السابقين . فما بالنا نستمسك بهذا القديم البالي ؟ بل ما بالنا نطمع في ان نعيش بعقول القرون الوسطى في حضارة القرن العشرين ؟ حضارتنا قديمة ، ونظمتنا قديمة ، وحياتنا الاجتماعية قديمة ، واساليبنا في العيش قديمة ، ولغتنا قديمة ، فمن اين لنا العيش في العصر الجديد ؟! اليس نسخ الجديد للقديم هو التطور ؟ ثم اليس التطور هو ناموس الحياة ؟! فما بالنا نأبى ان ننزل على ناموس الحياة ونطمع مع ذلك في ان نعيش ؟!

هذا هو لسان الجديد ينبغي ان نسمعه خاشعين واجفين . فللجديد سلطان مرهوب ، وله جلال تطاوىء له الرؤوس ، وله جمال تخفق له القلوب . وهو ابدا في صراع مع القديم ، يصاوله ويجاوله ، ويتربص به ، ويدبل منه ، فلا يطمئن القديم ولا يقر له قرار ما دام الجديد قائما في وجهه يطالعه في كل حين .

ولكن لمن الغلبة في هذا الصراع العنيف ؟

لا هي للقديم ، ولا هي للجديد . لان حاجتنا للقديم قائمة كحاجتنا للجديد . والقديم والجديد كلاهما نمط من أنماط الحياة وناموس الحياة لا يقوم على الصراع وحده ، بل يقوم ايضا على التعاون ولننظر الى الحياة عن كثب . السنا نراها تقوم على أصلين يبدو لاول وهلة انهما متعارضان ولكنهما في الواقع من الامر متوافقان ، احدهما يكمل الآخر ؟

تقوم الحياة على التنافس . وهو هذا الذي قصد اليه كتاب الله الكريم عندما تقرأ فيه :

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض » .

ثم هي تقوم على التضامن . وهو هذا الذي قصد اليه الشاعر العربي حين يقول :

الناس للناس من بدو ومن حضر بعض لبعض وان لم يشعروا خدم

فالتنافس والتضامن هما اذن الاصلان اللذان تقوم عليهما الحياة ، فلماذا

نمجب اذا كن الصراع والتعلون هما الاصلان اللذان تقوم عليهما العلاقة بين الجديد والقديم ؟

الجديد يصارع القديم ، فيصرعه فيما رث منه وبلي ، ويتماسك معه فيما ثبت منه وصلب . ولا يستطيع الجديد ان يستغني عن القديم ، كما لا يستطيع القديم ان يستغني عن الجديد .

القديم يمثل الثبت والاستقرار ، والجديد يمثل المرونة والتطور . وكل ذلك ضروري للحياة الانسانية وضروري للفكر البشري .

ما هي الحضارة ؟ اليس هي أصلا ثابتا من القديم يقوم عليه بنيان يتجدد على وجه الزمن ؟

ما هو العلم ؟ اليس هو المعرفة تلقيناها عن أجدادنا جيلا بعد جيل ، وكل جيل يهدم من البنيان حجرا قديما متداعيا ويضيف حجرا جديدا راسخين ، حتى اتسق البنيان وعلا شاهقا يطاول السماء ؟

اليس الفكر الجديد يصطرح مع الفكر القديم ، فيكشف عما في القديم من غث وعما فيه من سمين ؟

وهذا القول صحيح في الادب وفي الشعر وفي الاجتماع وفي العلوم المختلفة وفي القانون .

حتى لقد وجدني كتبت في القانون منذ اثنتي عشرة سنة ، في صدد النظريات القديمة والجديدة ما يأتي : « ووقفت فيما استعرضته من النظريات القديمة والجديدة موقف المعتدل ، لا يستهويني من الجديد جدته ولا يثني من القديم قدمه . حتى اذا انست في الجديد ثباتا ، واحسست منه عمقا ومطاوعة للتطور ، تركت القديم اليه ، واعرقت فيه وجه القانون الحي المتجدد » .

والآن ايها الشباب ، ايها الجيل الجديد . هذا رجل من الجيل القديم يتحدث اليكم فاصغوا له : نحن رجال الجيل القديم شيبتنا الايام

وعرّكنا الزمن ، وبلونا الدهر حطوه ومره ، فأتسعت تجاربنا ، وانفسح
لنا مجال المعرفة ، ولكن تصرفات الدهر وتقلبات الزمن وكر الأيام كل
هذا أطفأ بريقنا ، وخمد جدوتنا ، وقت في عضدنا ، وصيرنا إلى المعجز
أقرب منا إلى القدرة .

وانتم شباب الجيل الجديد : هممكم مشبوبة ، وعزائمكم متوقدة ،
واللهمكم صادق ، ودم الشباب يتدفق في عروقكم ، واحلام المجد والمعظمة
تجيش في صدوركم ، ولكن الزمن لم يعرككم ، ولم تتمرسوا بالاحداث ،
ولا زلتم في حاجة إلى المعرفة .

نحن في حاجة إلى الهامكم ، وانتم في حاجة إلى معرفتنا . نحن
في حاجة إلى حركتكم ، وانتم في حاجة إلى ثباتنا . ونحن في حاجة
إلى وثبتكم ، وانتم في حاجة إلى تجربتنا .

فنحن جميعا اذن لا غنى لبعضنا عن بعض . يكمل جيلنا جيلكم ،
ويشرق جيلكم على جيلنا ، ونبقى معا في صفين متقابلتين ، مقدر لنا
ان نتصارع ، ومفروض علينا ان نتعاون .

ليت جيلكم يستطيع النهوض بالامر وحده ، اذن لاسلمنا لكم
الزمام ، وتخطينا عن التبعة .

وما جيلنا بمطيع ان يقوم بهذا الامر دون ان يستوحى الهامكم ،
ويستنجد بهممكم ، ويستند إلى عزائمكم .

نعوزكم المعرفة ، ونعوزنا القدرة .

اواه لو عرف الشبا ب وآه لو قدر المشيب

عبد الرزاق السنهوري

المصدر : الهلال : يناير ١٩٤٩ المجلد ٥٧

محاكمة الجيل الجديد

عباس محمود العقاد وفتحي رضوان : ت ١٩٨٨

تولى مهمة الاتهام الاستاذ عباس محمود العقاد ، وتولى الدفاع الاستاذ فتحي رضوان المحامي ، اما الحكم فهم قراء الهلال . .

كلمة الاستاذ عباس محمود العقاد :

تبدا محاكمة الجيل بتقرير الحقائق المتفق عليها في شأن هذا الجيل .
والحقائق المتفق عليها في شأنه هي :

١- اولاً : انه اوفر من الاجيال الجديدة في العصور الماضية نصيباً من المعرفة .

ثانياً : انه اوفر منها نصيباً من حرية الرأي واستقلال التفكير .

ثالثاً : ان له اعداء كثيرة مما يعانيه في مطلع حياته من تبلبل الافكار واضطراب الشعور وقلق الضمير . لانه نشأ في زمان تهدم فيه كثير من القواعد وتزعزع فيه كثير من الاصول ، وتبدل فيه كثير من العلاقات والمألوفات .

هذه حقائق يعرفها الجيل الجديد كما يعرفها الجيل القديم .

وبقيت هنالك طائفة من الحقائق التي ينبغي ان يعلمها الجيل الجديد ليعلم ما يستطيعه ويهتدي الى الصواب في امتحان دعواه .

وأول تلك الحقائق ، انه ليس بأول جيل جديد ظهر في تواريخ الاجيال ، فما خلا العالم قط من جيل جديد ظهر فيه منذ أقدم العصور .

وان النسبة محفوظة بين كل جيل وما قبله ، فلم يكن الفرق بين القديم والجديد في عصرنا هذا اوسع او اهم من الفرق بين القديم والجديد في القرون الماضية ، لان التقدم يأتي على التعاقب والتدرج ولا يأتي طفرة واحدة في زمن من الزمان .

واهم من هذه الحقائق جميعا ، وأعجبها لأول وهلة ، واحتقها بالتأمل الطويل من جيلنا الجديد ، هي ان الاجيال الجديدة في الزمن الماضي كانت - مع قلة نصيبها من العلم - أقدر على حل مشكلاتها وأعراف بظروفها من الجيل الجديد في العصر الحاضر ، لان علمها على قلته كان كافيا لمواجهة مشكلاتها . على خلاف جيلنا الجديد في عصرنا هذا ، فان مشكلاته اكبر وأضخم من علمه كائنا ما كن حظه من التعليم .

فالاجيال الجديدة في العصور الماضية كانت لها مشكلات محدودة في مجتمع واحد ووطن واحد ، او لم تكن لها مشكلات على الإطلاق ، لانها تتلقى ظروف المعيشة وتكاليف الحياة على سنة معروفة لم يطرأ عليها تغيير كثير .

اما الجيل الجديد في العصر الحاضر فمشكلاته متعددة الجوانب ، كثيرة الشعب ، متناقضة المبادئ والغايات ، وهي على هذا مشكلات عالمية انسانية ، وليست بمشكلة معيشة واحدة أو مجتمع واحد . لانها تتناول المذاهب الاجتماعية التي يتوقف فهمها على فهم أطوار التاريخ من عهد الهمجية الى اليوم ، وتتناول السياسة العالمية بما يحيط بها ويكمن فيها من الاسرار والغوامض التي تدق عن الافهام ، وتتناول اصول الروحانية ، والمادية وأصول المعاملات الاقتصادية التي توسع فيها المدارس ، حتى أصبح كل باب منها أوسع من جميع الابواب التي كان يطرقها المفكرون والدارسون في العصور الغابرة .

فالذا كان نصيب الجيل الجديد من العلم أوفر وأعظم من نصيب الاجيال السابقة ، فليس في ذلك ما يخوله ان يستولي على مقاليد الامور ،

ويستقل بالعمل في مسائل وطنه او مسائل العالم اجمع . بل هو احوج من كل جيل مضى الى التعاون بينه وبين الاجيال السابقة والاجيال اللاحقة ، لان العبء الذي يواجهه عبء انسانية كاملة ، وليس عبئا ينهض به جيل عابر في هذا الوطن او ذاك .

وقد دلت التجربة العملية على ان الجيل الناشيء في القرن العشرين ، يعجز عن الاحاطة بالمشكلات التي يدعى الى الاضطلاع بها كلما اعتمد الامر عليه دون غيره .

فرعامة هتلر - وهي اكبر زعامة في الجيل الحديث - قلمت على الجيل الناشيء في البلاد الالمانية ، ولم يكلفه اقناعهم غير الهاب حماستهم ، واشباع شغفهم بالمواكب والمظاهرات ، وتزويدهم ببعض الافكار التي لا تمبر عن حقائق الاحوال في العالم . فكانت النتيجة كارثة على هتلر ، وكارثة على الجيل الناشيء ، وكارثة على البلاد الالمانية ، وكارثة على العالم بأسره .

كانت كارثة على هتلر لانه سقط وانتحر ، وكارثة على الجيل الناشيء لانه كاد يفنى في الحرب الطاحنة التي سيق اليها فاصبح فناؤه مشكلة اجتماعية لبلاده ، وكارثة لالمانيا كلها لانه اوقعها تحت اقدام اعدائها فتسلطت عليها اربع دول من الد اولئك الاعضاء ، وكارثة على العالم كله لانه خلق فيه هذه القلاقل التي لا يزال يتخبط في جوارئرها الى اليوم .

وهكذا حدث لاطاليا على يد موسوليني ، وهكذا يحدث لكل بلد يبطل فيه التعاون بين الاجيال ويقوم الحكم فيه على هوى جيله الجديد دون غيره من اجيال الشيوخ والكهول .

هذه الحقيقة جديرة بكل تأكيد وتكرير .

وهي جديرة على الخصوص بالتأمل الطويل بين أبناء الجيل الناشئ،
لأنها تعصمهم من الغرور وهو الذي يضلّهم عن حقائق أنفسهم وحقائق
غيرهم وحقائق الزعامات والدعوات .

وأصعب ما يشكو منه الجيل الجديد أنه مضطرب المذاهب بين شتى
الزعامات ومختلف الدعوات .

ولكنه إذا سلم من ذلك الغرور أمن أن يسيطر عليه المظلون ، وتيسر
له أن يميز بين الصالح والفاسد من كل دعوة تتجه إليه .

فإنما يفلح المظل في تضليله لأنه يشبع غرور الجيل الناشئ فيفر
به من هذا السبيل .

يفلح المظل إذا وجد أمامه جيلا مغرورا يستمع له حين يوهمه أنه
أعظم الأجيال ، وأذكى الأجيال ، وأقدر الأجيال على ولاية الأمور .

فإذا بطل هذا الغرور الذي يتقبل هذا التفرير ، فهناك فائدة محققة
يجنيها الجيل الجديد من صحوه ويقظته ، وهي أن يقضي على التضليل ،
ويقوم الإصلاح على أساس سليم . فإن لم يتيسر تحقيقه كله ، فقد ارتفع
من طريقه على الأقل كثير من العقبات .



وفي مصر هنا يوجد بين المظللين من يوهم الناشئة أن الجيل القديم
لم يصنع شيئا وأنهم - أي الناشئة - هم الذين يصنعون كل شيء .

وكلمة الصدق التي نقولها في دفع هذا التضليل ، أن الجيل الجديد
يعد نفسه سعيدا حقا إذا استطاع أن يصنع لوطنه في ثلاثين أو أربعين

سنة مثل ما صنعه الجيل السابق في مثل هذه المدة من تاريخ النهضة المصرية .

فالجيل السابق نقل مصر في ثلاثين أو أربعين سنة من الحماية الى الحرية الوطنية والحياة النيابية ، وخلصها من الامتيازات الاجنبية التي كانت تستعبد لها لجميع الدول الاوروبية والامريكية .

كان في كل وزارة مستشار اعظم نفوذا من الوزير ، وكان في كل اقليم مفتش اعظم نفوذا من المدير ، فاصبح ابناء البلاد هم الحاكمين في الوزارات والاقاليم ، وهم الذين يضعون القوانين للاجانب كما يضعونها للمصريين .

وتخلصت مصر من ديونها للدول والمصارف فاصبحت دائنة لمن كانوا يدينونها ، ولم يكن لها شأن في سياستها الخارجية فاصبح لها شأن ملحوظ في مجامع الدول كافة ، ولم يكن لها جيش فاصبح لها جيش مجيد يحسب حسابه ، وتضاعفت ثروتها ، وتضاعفت مستشفياتها ، وتضاعفت مدارسها ، وتضاعف عدد المتعلمين فيها .

ويمكن ان يقال ان الناشئة اذا كانت تتمتع اليوم بنصيب عظيم من الحرية ، فهو كله من عمل الجيل السابق لا من عمل الجيل الجديد .

فاذا استطاع هذا الجيل الجديد في ثلاثين او أربعين سنة ان يصنع لوطنه مثل هذا الصنيع فانه والله لجيل سعيد .

قد يقال ان زعماء الجيل القديم فيهم مظلون كثيرون .

فمن قال هذا فليذكر ان المظللين بالناشئة موجودون في كل امة ، وكلهم يريدون التفضليل ويربحون منه اذا استطاعوه ، ولكن الفرق بين امة وامة هو ان المظلل لا يجد من يضلله في الامة الرشيدة ، وانه يجد في الامم الاخرى من يقبل منه التفضليل ويعاونه عليه .

قيل لجمال الدين الافغاني : « ان المستعمرين ذئاب » ، فقال كلمته المشهورة : « لو لم يجدوكم ناعجا لما كانوا ذئابا » .

ويقال هنا ان بعض الزعماء الاقدمين يضللون بالناشئة . فليكن جواب هؤلاء القائلين : « نعم . ولكنهم لو لم يجدوا من يستمع اليهم لما تأتى لهم تضليل ولا تدجيل » .

وهم يجدون من يستمع اليهم لانهم يجدون من يغرون به ، ويجدون من يغرون به لان هؤلاء يحبون الغرور ، ولن يكون تغرير قط بغير غرور .

فنعصم الجيل الجديد نفسه من الغرور ، لانه ظلام يحجب حقائق الاشياء ، وليخرج من هذا الظلام الى النور مفتوح العينين ، فيرى الطريق السوي . ومن رأى الطريق السوي استطاع ان يصل وإن طالت المسافة وشق المسير .

كلمة الاستاذ فتحي رضوان المحامي

نحن نختلف ، في تقدير الجيل الجديد ، وتحديد نقائصه وسقطاته ، وبيان فضائله ومزاياه .

نختلف في المقدمات ، وفي النتائج . ولعلنا اكثر اختلافا في المقدمات . وقد يكون هذا طبيعيا ، لان النتائج انما تلدها المقدمات . فمن المقدمات التي نعترض عليها اشد الاعتراض ان هتلر وموسوليني ، قد جرا على نفسيهما كارثة ، ثم تكبا وطنيهما بمثلها ، ثم جرا على العالم الويل والشقاء : لانهما اعتمدا على الشباب واثارا فيه حب الضجيج ، والميل الى مظاهر البطولة بالمظاهرات والمواكب .

وقلرىء هذا القول يظن ان المانيا نفسها لم تنكب بمثل هزيمتها في سنة ١٩٤٥ ، في حرب عالمية اخرى انتهت في سنة ١٩١٨ ، ولم يكن قادتها اذ ذاك الا الشيوخ ، بل ان اكبر قوادها كان ضابطا متقاعدا شهد حرب السبعين ، وعمل في ايام بسمارك .

وللقارىء ان يتساءل : اذا كان هتلر وموسوليني قد منيا بالهزيمة لانهما اعتمدا على الشبان دون الشيوخ فما سر هزيمة اليابان ، وللشيوخ فيها مقام القديسين بل ومنازل الارباب ، والسياسة تجري فيها على طقوس تباركها المعابد التي يعيش في زواياها الهادئة شيوخ اثقلت عقولهم واجسامهم معا حكمة الخبرة وتجارب السنين ؟!

ولكن القارىء اذا فكر قليلا لا يلبث ان يدرك ان انجلترا هي التي وكلت اكبر شؤونها الى الشبان في عوالم السياسة والحرب والاقتصاد ، خلال المعركة العالمية الثانية ولم يكن تشرشل الا الوجه الظاهر المتيق ، لبناء اقيم على احدث طراز ، واثث من الداخل بآخر ما جادت به الايام . ولو اننا حسبنا اعمار بيفن ، وهوربلشيا ، وايدن ، واندادهم ممن اداروا دفعة الحرب في بريطانيا ، وقارناها باعمار اضرابهم في دولة هتلر من امثال جورنج ، وفون بابن ، وبرنتروب ، وروذنبرج ، لتبيننا ان بريطانيا هي دولة الشباب ، او ان الشيوخ فيها ليسوا باكثر نصيبا من الشيوخ في دولة النازي !

ولقد فازت روسيا ورئيس دولتها او زعيمها المحرك لها ، في حدود الستين ، ولكن الدين حوله اكثرهم من الشبان او الكهول ، فكيف نعلل هزيمتها في سنة ١٩١٧ يوم ان كانت امورها في ايدي شيوخ تدلت لحاهم حتى البطون ؟!

ان الجيل الجديد ، انما كان جديدا ، لانه اتى بعد جيل نهيا لاخلاء ساحة الميدان ، او لمبارحة خشبة المسرح ، ولا يستطيع الجيل الجديد ان يحل محل السابقين الا اذا امتلات نفسه ثقة بمواهبه ، وامتلا اقتناعا بانه سيأتي بما لم يات به الاوائل ، وهذه الثقة التي تغيظ الشيوخ وتضايقهم ، ليست الا قانون الطبيعة الذي لا يقاوم . فهي مظهر المزاحمة بين الجيلين ، فان لم يدفع احد الجيلين الآخر ، وقفت الحياة . وهذا الدفع لا يتم مرة واحدة ، والا فسد الامر ، وتوقف العالم . فان الجيل القديم لن يخلي المكان مرة واحدة ، والجيل الجديد لا يحتل مقاعد

الشيوخ في جولة واحدة ، انما يتم ذلك بالتلقيح وعلى سنة التدرج والتطور ، وتنظيم التعاون بين الجيلين ، ولا يمنع ذلك ان الجيل الجديد يواصل زحفه ، والجيل القديم يواصل انسحابه .

ولست ارى ان الجيل الجديد الحالي ، أعجز عن حل مشاكله من الجيل السابق ، وان زاد نصيب الاول من العلم على نصيب الثاني . ذلك لاننا لا نرى مشكلة من المشاكل قد حلها الجيل القديم في مصر . فالاحتلال البريطاني ، كان قد قنع في الحربين العالميتين السابقتين بأن تقف بلادنا موقف المساعدة داخل حدودها ، غير ان الجيل القديم يطعمه في امكان الخروج بهذه المساعدة عن الحدود ، وبغير قيود ، وفي حرب عالمية ستكون فيها الكوارث مما يبعد المدن في لحظات !

واذا كان الجيل القديم قد زحزح الاحتلال الى السويس ، فانما كان ذلك بسواعد الشباب ، ودماء الشباب ، بل كان على عكس النتيجة التي قدم لها الشيوخ بسياسة الملاينة والتسامح . ومع ذلك فان الكسب الظاهر من زحزحة الاحتلال الى السويس وبور سعيد والاسماعيلية سيبدده ما تطلبه بريطانيا من اقحامنا في حروبها مع اضعف الدول واكبرها !

وانا لتساءل بعد ذلك : ما هي المشكلة التي حلها الجيل القديم ؟ هل حل شيوخي مشكلة الامية ؟ والى اي حد خفضوا نسبة الجاهلين بالقراءة والكتابة ، وكم رفعوا نسبة المتعلمين ، الذين يعرفون كيف يصونون في الانتخابات ، بعيدا عن الضغط والتضليل ؟

هل زادوا شيئا في موارد الثروة ، او اضافوا اليها جديدا عما كان في عهد محمد علي الكبير ؟

هل رفعوا مستوى المعيشة بين الفلاحين ، وهل زادوا في نصيب الفقراء من الثروة العقارية ؟

ثم ما هي الافكار الجديدة التي بشر بها شيوخ هذه الايام فلكيت رواجا ؟ ومن منهم ثبت على شيء من الافكار المتطرفة التي بدأوا بها حياتهم ؟! لقد كان الايمان بالبحث العلمي ، الى حد متاخمة (الالحاد) طابع التفكير عند شيوخ ايامنا منذ سنوات . فلما تقدم بهم العمر طووا اوراق هذه البحوث المتطرفة المتوثبة ، واحلوا محلها بحوثا تتسم بالتصوف ، وتقرب من الحضارة الشرقية .

اما الجيل الجديد فقد دعا الى اعلاء شان اللغة العربية مثلا في شؤون التجارة والاعلان ، وفي المخاطبة بين الشركات والبنوك . وقد طورد واضطهد ، ولكنه ثبت حتى نجحت فكرته .

على اننا نسال ايضا : اين هم التلاميذ الذين انجبهم هؤلاء الشيوخ : واتاحوا لهم الظهور ، بحيث يستطيع كل مصري ان يقول لنفسه : « لو خلا مكان الكاتب الكبير فلان ، لكان العوض في فلان الذي اخذ عنه . واذا شفر مكان الفيلسوف فلان ، ملا مكانه تلميذه الذي ينشر الان كتبنا وبحوثنا مشابهة ، وان كانت تحمل طابع الجدة » ؟!

ليس يحق للشيوخ ان يعموا على الجيل الجديد بانهم اسبقوا عليه نعمة الحرية . فليس ثمة قيد واحد مما كان في ايامهم الا وهو موجود في ايامنا ، بل ان القوانين المفيدة للحرية ، زادت في ايامنا ، حتى اصبحت القضايا الصحفية لا تعد في هذه الايام ولا تحصى ، بينما كانت قضايا الراي والسياسة في الماضي ، من الحوادث المشهورة التي تؤرخ بها الايام !

ولكأنما احس موجه الاتهام الى الجيل الجديد ، ان جيله متهم بالتضليل ، فلما اراد ان يدفع هذه التهمة عن جيله اكدها ! فقد اخذ على الجيل الجديد انه انطلى عليه الخداع ، وجاز عليه التضليل . ثم حملة تبعة هذه الرذيلة التي ارتكبها بعض الشيوخ في حق امتهم وابنائهم ، وفاته ان الصغير الناشيء لا يملك بحكم السن ، وظروف الطبيعة ، ان

يميز بين الخير والشر ، وانه ليس الا ضحية القدوة السيئة التي ضربها
له بعض الشيوخ .

ومع ذلك ، فاي صاحب رأي من الشيوخ ، يستطيع ان يقول ان
انصاره اليوم هم في عدد انصاره بالامس . واي منهم يملك ان يدعي ان
حرارة الحماسة التي كان يلقاها ويحس بها في تأييده عند معركه مع
خصومه في الرأي السياسي او الادبي ، باقية جذوتها الى اليوم ؟

لقد انفض الشبان عن هذه المعسكرات القديمة كلها ، ويأبى الآن
كل منهم ان يرتبط في سداجة كما كان يفعل في الماضي .

والشباب على عكس ما يظن الظانون لا يخاف المشاكل الكبرى
القومية والعالمية التي تواجهه ، ذلك لانه يحس ان هذه المشاكل
واشباهاها هي شغل الدنيا قاطبة ، وانه يستطيع ان ينتفع بتجارب
البشر في كل بقعة من الارض . بعلمهم وفنهم ، يؤنس وحشته ويزداد
ثقة بنفسه وطمأنينة ، واملا في الانسانية جمعاء .

في تقليد مظاهر الحياة الغربية ، ولكنها تبقى بعيدة عن مسيرة روح العصر في طرائز التفكير والعمل ، وفي سائر نواحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية .

ومن المعلوم ان روح المحافظة في أوروبا كانت وصلت الى أوج قوتها في القرون الوسطى ، حيث كان كل شيء تقريباً استقر على شكل معين ، لم يتبدل منذ عدة اجيال ؛ حتى الاعمال الزراعية والصناعية ، كانت قد تقررت على قواعد ثابتة ، لا يسوغ لأحد ان يخالفها أو ان يغير شيئاً منها ، وحتى التفكير كان اخذ يسير سيراً رتيباً ، لا مجال فيه لأدنى تغيير وتجديد . وقد أحيطت الكتب القديمة بأجمعها بهالة من التمجيد والتقدیس ، واعتبرت الكتب المذكورة المصدر الأصلي لكل علم ، والمرجع الأول والآخر لكل قضية ؛ وصلح الدرس والبحث والتفكير لا يعني شيئاً غير فهم الكتب القديمة ، والاستنباط من الكتب القديمة ، والبحث في الكتب القديمة ، وشرح معاني الكتب القديمة ، وتفسير عبارات الكتب القديمة .

ولكن الامور تغيرت منذ تلك العصور تغيراً كلياً ، وقد فقدت روح المحافظة قوتها شيئاً فشيئاً ، وأخذت نزعة التجديد تتغلغل في النفوس ، وتتصل بشتى نواحي الحياة تدريجياً ، الى أن صارت تشمل جميع مظاهر الحياة تقريباً .

والآن ، قد وصل العالم المتمدن الى دور أصبحت فيه نزعة التجديد مسيطرة على جميع مظاهر الحياة . واصلت كل الامور تتطور بصورة مستمرة وبسرعة هائلة ، لم يسجل التاريخ لها مثيلاً في حياة امة من الامم ، وفي أي دور من ادوار الماضي القريب والبعيد . أصبح كل شيء يتجدد ويتطور بسرعة هائلة ، تجعل هذه الاطوار شبيهة بالانقلابات الثورية التي تجرف كل شيء فلا تترك شيئاً من الاشياء على حالته القديمة .

وأما نحن فقد بقينا محافظين على معظم أحوالنا القديمة ، ولم نسابر هذا التطور السريع الذي أخذ يجرف العالم جرفاً . ولا نغالي إذا قلنا أننا وقفنا أمام هذه السيول الجارفة حائرين ، مترددين ومتخالفين :

ففريق منا يدعو إلى الإسراع في التجديد دون قيد وشرط ، حتى أنه يقول بوجوب نبذ كل ما هو قديم بدون استثناء . وفريق يعتقد بأفلاس الحضارة الغربية ، ويدعو إلى الاحتفاظ بتراث الشرق ، وعدم التفريط به « في سبيل هذه الحضارة المزيفة » . وفريق يقف موقفاً بين بين ، ويحاول أن يعين الأمور التي يجب التجديد فيها والأمور التي يجب سلوك مسلك المحافظة في شأنها .

فلماذا يجب أن يكون موقفنا من هذه القضايا ؟ . ماذا يجب أن يكون موقف الجيل الجديد في البلاد العربية من قضايا « القديم والجديد » ومن سياسة « المحافظة والتجديد » ؟

- ٢ -

إن أولى الحقائق التي يتوصل إليها الباحث عندما ينعم النظر في قضية « القديم والحديث » ، وهو : أنهما عنصران هلمان من عناصر الحياة . وهما متلازمان وضروريان لبقاء الحياة الجسمانية والنفسية والاجتماعية بوجه عام .

فلننظر أولاً في تأثير كل من القديم والحديث في الحياة الجسمانية :

من المعلوم أن أهم الأوصاف التي تميز الأحياء عن الجمادات هي صفة « التجديد المستمر » .

فإن الخلايا التي تؤلف البدن - في جميع الكائنات الحية - تتغير وتتجدد على الدوام ، كما أن المواد التي تتركب منها كل واحدة من هذه الخلايا أيضاً تتغير وتتجدد بدون انقطاع .

ولا حاجة الى القول ان مفهوم « التجديد » ، يفيد « حدوث شيء جديد » من حيث الاساس ، ولكنه يتضمن في الوقت نفسه « بقاء شيء قديم » ايضا . لان « التجديد » يختلف عن « التغير المطلق » ، ويعني « تغير العناصر المكونة » مع بقاء الهيئة الاصلية واستمرار البناء القديم .

فنستطيع ان نقول - لذلك - ان « القديم والحديث » عنصران لا ينفصلان في « الحياة الجسمانية » .

افترضوا ان عضوية من العضويات اخذت تتغير في موادها المركبة ، دون ان تحتفظ بهيأتها الاصلية وبنائها القديم . وتصوروا ماذا سيكون مصير تلك العضوية : لا شك في ان هذا المصير ، لن يكون سوى فقدان الحياة ، والانحلال والفتناء .

وافترضوا - بعكس ذلك - ان عضوية من العضويات حرمت بغتة من حركة التجدد والتغير ، وحافظت - في الوقت نفسه - على هيئتها الاصلية وبنائها القديم ، وتصوروا ماذا سيكون مال تلك العضوية : لا شك في انها ستتحول الى مومياء فقدت الحياة ، ودخلت في عداد الجمادات والمستحاثات .

يظهر من ذلك ، ان لكل من القديم والحديث مهمة خاصة في الحياة .

ونستطيع ان نقول ، ان الحياة تقوم على نوع من التوازن بين القديم والحديث ، وهي تعني : قيام عناصر جديدة مقام العناصر القديمة ، مع بقاء الهيئة الاصلية والبناء القديم .

ومما يلفت النظر : ان النسبة بين القديم والحديث ، لا تبقى على وتيرة واحدة في جميع اعضاء البدن وفي جميع ادوار الحياة .

فإن سن الشباب ، هو الدور الذي تبلغ فيه حركة التجدد اقصى سرعتها واوج نشاطها . واما سن الشيخوخة ، فهو الدور الذي تخف

وتتضاعل فيه حركة التجديد ، وتزداد خلاله في البدن المواد القديمة التي تبقى خارجة عن نطاق هذه الحركة .

كما ان هذه الحركة تخف وتتضاعل في بعض اعضاء البدن قبل غيرها ، والمواد التي تبقى خارجة عن تيار التجديد ، تتراكم في تلك الاعضاء اكثر مما تتراكم في غيرها .

والشيخوخة إنما تنأت من تراكم هذه الرواسب الجلمدة ، وتضائل حركات التجديد في مختلف اعضاء البدن .

ويظهر من كل ذلك : أن الحياة الجسمانية ، تقوم على عنصر التجديد والمحافظة في وقت واحد . ولكنها تتمثل في عنصر التجديد أكثر مما تتمثل في عنصر المحافظة بوجه عام .

إن ما قلناه آنفاً عن الحياة المادية — الحياة الجسمانية — ينطبق على الحياة النفسية أيضاً :

فإن الحياة النفسية أيضاً مزيج من القديم والحديث ، لا القديم يكفي لها ، ولا الحديث يغني عن القديم فيها . بل إن كليهما ضروري للحياة النفسية ضرورة قاطعة .

افرضوا أن شخصاً من الاشخاص البشرية ، تجرد عن كل ما هو قديم ، وفقد كل ما كان له من العناصر التي تمت بصلة الى الماضي ، وتصوروا ماذا ستكون حياته النفسية في هذه الحالة . لا شك في أنه سيفقد الإدراك والفهم والتفكير مرة واحدة . لأن الإدراك لا يتم الا بتلاحق الاحساسات الجديدة مع القديمة ، والفهم لا يتيسر الا بادخال المفهوم الجديد بين المعلومات القديمة والتفكير لا يقوم الا على اساس الانتقال من المعلوم الى المجهول ، وذلك لا يتم الا بتنظيم المعلومات السابقة على اشكال جديدة ، وتحليلها وتركيبها على أنماط وصور مختلفة ، كلها حديثة . إن الحرمان من الذكريات القديمة ، لا بد من أن يؤدي الى الحرمان من كل

هذه الصفات العقلية ، ولا بد من أن يستوجب توقف وانتقطاع جميع هذه
الافاعيل النفسية .

وافترضوا - بعكس ذلك - أن شخصاً من الأشخاص انقطع بفترة عن
كل جديد ، وأصبح لا يملك في ذهنه غير ذكريات قديمة ، حتى أنه فقد
قابلية تركيب هذه الذكريات بأشكال جديدة ، وتصوروا ماذا ستكون
حياته النفسية في هذه الحالة ، لا شك في أن هذه الحياة ستتلاشى
حالا ، فلن يعمل الشخص الا ما كان تهيأ له قبلا ، مثل المكائن الأوطوماتية
التي لا تعرف شيئا من الجديد أبدا ..

يظهر من ذلك : أن لكل من القديم والجديد مهمة خاصة ودورا خاصا
في الحياة النفسية ، وهذه الحياة لا يمكن أن تدوم وترعرع دون أن
تستند إلى كليهما في وقت واحد .

ونستطيع أن نقول بكل تأكيد : أن حوادث الماضي وافاعيله ، لو لم
تترك أثرا في النفس ، لما استطاع الإنسان أن يرتقي إلى مرتبة « العقل
العالي » التي وصل إليها ، ولبقي محروما من قابليات الحكم والفهم
والتفكير والابداع حرمانا مطلقا .

إن القديم هو الذي يفسح المجال لقيام الحديث ، والمكتسبات الماضية
هي التي تمكن الذهن والخيال من الابداع والاختراع ، كما أن الجديد
هو الذي ينفع الحيلة في القديم ، ويورثه القوة والفاعلية . وروح
التجديد ، هي التي تبني من « الأشياء القديمة » المباني الجديدة ،
وتكسب تلك الأشياء الفائدة والقيمة .

القديم وحده جمود وموت ، والحديث وحده عجز وحرمان ، وأما
الحياة النفسية الواعية ، فما هي الا نتيجة التمازج والتفاعل بين
القديم والحديث .

إن الحياة الاجتماعية ، لا تخلو من الشبه بالحياة النفسية بهذا الاعتبار . فإن هذه الحياة أيضاً تقوم على تملزج القديم مع الحديث وتفاعله على الدوام . لأن الروابط الاجتماعية التي تربط أفراد المجتمع بعضهم ببعض - من اللغة إلى التقاليد والعادات وسائر المؤسسات المادية والمعنوية - كلها من بقايا الماضي ، ومن موارث الأجيال القديمة .

إن كل جيل من الأجيال المتتالية ، في المجتمعات البشرية ، يرث من الأجيال التي سبقتة مجموعة كبيرة من العنعنات والمعلومات والخبرات ، والمهارات ، ثم يضيف إليها ما يستطيع إضافته بجهوده الجديدة ، وفي الأخير ، يوصلها - مع هذه الإضافات - إلى الجيل الذي يأتي بعده . إن الحضارة البشرية لا تقوم ولا تتقدم إلا على هذا الأساس ، وعلى هذه الوتيرة . فلو لم يرث الجيل الجديد ، تلك الثروة المادية والمعنوية القديمة المتراكمة ، لما استطاع أن يعيش عيشة تختلف عن عيشة ألوحوش والبهائم . ولكن لو اكتفى الجيل الجديد ، بما توارثه عن أجداده ، دون أن يضيفها حسب ما تقتضيه الظروف الجديدة ، ودون أن يضيف إليها شيئاً جديداً ، لتوقف المجتمع عن التقدم ، فجمد في مكانه ، وأصبحت حضارته جامدة متحجرة ، لا تأخذ أي حظ من المتطور المبدع ، فلا تستطيع أن تتقدم خطوة واحدة إلى الامام .

هذا ما حدث وما يحدث في الأقوام البدائية ، التي تعيش على هامش الحضارة عيشة ميكانيكية ، لا تبدل فيها ولا تجدد .

ولا حاجة إلى القول أن أمثال هذه الأقوام تتعرض إلى الفناء والاضمحلال ، عندما تصطدم بجماعات جديدة ، مسلحة بأسلحة حديثة ، عاملة بأساليب جديدة .

إن هذا الركود والجمود ، قد يأتي بعد تقدم كبير ، ناتج عن تجدد

سابق طويل . ولكن هذه المجتمعات الجامدة أيضاً لا تستطيع أن تصمد أمام هجمات المجتمعات الناهضة ومنافساتها ، مهما كانت متقدمة عليها بتاريخها ، ومهما كانت متفوقة عليها بعدد أفرادها .

إن تاريخ الصين من أبلغ الشواهد على ما نقول : من المعلوم أن الصينيين كانوا قد تقدموا تقدماً كبيراً في شتى نواحي الحياة الفكرية والاجتماعية ، وكانوا قد سبقوا جميع الأمم الغربية في هذا المضمار . غير أنهم انقطعوا بعد ذلك عن التجدد والتقدم ، وجعلوا في مكانهم ، في المرتبة العالية التي كانوا قد وصلوا إليها قبل غيرهم . ولذلك لم يستطيعوا أن يقاوموا - فيما بعد - هجمات شرذمة صغيرة من الجماعات الأوروبية المتجددة ، فاضطروا إلى الاستسلام لها ، والرضوخ لمشيئاتها ، بالرغم من تفوقهم العددي الهائل على تلك الشرائع الصغيرة . والصين لم تتقو وتصبح قادرة على مقاومة الاحتلال الأجنبي ، إلا بعد ما أقلمت عن الجمود ، وعدلت عن الاعتداد بالماضي ، فأخذت تقتبس أساليب الحضارة الحديثة ، ودخلت في تيار التجديد العالمي المعلوم .

ويظهر من ذلك بكل وضوح : أن القديم والحديث عنصران ضروريان لقيام المجتمع وتقدمه .

وهنا لا بد لي من أن أشير إلى قضية هامة ، وهي قضية التوازن بين القديم والحديث :

إن هذا التوازن يختل أحياناً ، من جراء توجه الأمور نحو الحديث أكثر من توجهها نحو القديم ، أو - بعكس ذلك - توجه الأمور نحو القديم أكثر من توجهها نحو الحديث . فنجد أحياناً أن تيار التجديد يكتسب قوة كبيرة ، ويصرف الأذهان عن القديم . وقد يصل إهمال القديم - بهذه الصورة - إلى درجة تصبح معها مقومات الأمة وكيانها . معرضة إلى خطر التضعع والاضمحلال . فيترتب على مفكري الأمة عندئذ ، أن ينبهوا الأذهان إلى هذا الخطر ، ويدعوا الناس إلى زيادة الاهتمام بالقديم .

وقد يحدث أحيانا عكس ذلك تماماً : أن روح المحافظة تتقوى إلى درجة كبيرة ، فتصرف الأذهان عن الالتفات إلى حركات التجديد ، فتصبح الأمة معرضة إلى خطر الجمود والتأخر . فيترتب على المفكرين عندئذ أن ينبهوا الأذهان إلى هذا الخطر ، وأن يقوموا بدعاية قوية جداً ، لحمل الجيل الجديد على الثورة ضد القديم ، وإبعاد الناس عن مهاوي الركود والجمود ، ودفعهم نحو سبيل التقدم والتجديد .

ولست في حاجة إلى القول بأننا الآن ن في وضع يشبه هذا الوضع الأخير :

لقد تأخرنا كثيراً جداً عن مسير قافلة الحضارة العصرية . ووجدنا على أساليب بالية ، في معظم مناحي حياتنا الفكرية والأدبية والاجتماعية . فأصبح من الواجب علينا أن نشور على هذا الركود والجمود ، وأن نسارع إلى سلوك سبيل التجديد ، وأن نسير في هذه السبل مسرعين ومهروولين ، لنستطيع أن نتلافى ما فاتنا ، من الزمن في هذا العصر الذي امتاز بوجه خاص ، بسرعة التطور والتجدد الخلقة .

- ٤ -

يوجد بيننا عدد غير قليل من الشبان والكهول الذين يتخوفون من الاسراع في هذا السبيل ، ويقولون بوجوب السير على « سنة التدرج » في امر التجديد . وهؤلاء كثيراً ما يتلذذون بنظرية التطور لدعم رأيهم وتبرير موقفهم من هذه القضية .

لا شك في أن نظرية التطور كانت من أهم النظريات التي أوجدت أخطر الانقلابات الفكرية في النصف الثاني من القرن الأخير ، والتي غيرت نظر الإنسان إلى الكون تغييراً أساسياً :

كل شيء يتطور في الكون ، في الأرض وفي السماء ، وفي عالم الجماد وفي عالم الاحياء . . كل شيء يتطور بالتدرج ، بفعل عوامل طبيعية ،

قد تبدو في الوهلة الاولى ضئيلة . والتطورات التي تحدث بهذه الصورة ، قد تكون — في بادىء الامر — تافهة ، غير انها عندما تتوالى وتتلاحق تؤدي — تدريجياً — الى نتائج كبيرة وخطيرة .

وهذه النظرية التي نشأت عن ابحاث عن ابحاث داروين في « أصل الأنواع » الحيوانية والنباتية ، ما كانت تهدف — في بادىء الامر — الى شيء غير تفسير وتعليل كيفية نشوء هذه الأنواع . غير انها لم تلبث أن انتقلت الى ميادين الفلسفة على يد « هربرت سبنسر » ، وقد أخذت تؤثر في شتى نواحي التفكير البشري تأثيراً عميقاً . « والفلسفة التطورية » التي نشأت بهذه الصورة أخذت تتوسع وتترعرع بسرعة ، وصارت تغزو ميادين الاخلاق والتاريخ والادب واللغة والاجتماع .. وفي الأخير قد تسلت الى ميادين العمل والسياسة أيضاً .

وبعض المفكرين أخذوا من هذه النظرية فكرة « التدريج » وحدها ، وصاروا يستعملونها لتبرير نزعة المحافظة ، ولشجب روح الثورة والانتقال في الحياة الاجتماعية .

إن قرب الكلمة التي تعبر عن مفهوم « التطور » في اللغات الأوروبية Evolution من الكلمة التي تدل على الثورة والانتقال Révolution في اللغات المذكورة قد ساعد كثيراً على تقوية هذا الاتجاه الفكري ، وصارت كلمتا التطور والانتقال تذكران معاً ، للدلالة على طريقتين متعاكستين ، في أمور التجديد والاصلاح .

فلنفكر إذن ، ما هي قيمة نظرية التطور ، في تأييد وتبرير سياسة الإبطاء والتدرج في الحياة الاجتماعية .

أولا يجب أن نلاحظ أن قياس الحوادث الاجتماعية على الحوادث الطبيعية على الإطلاق ، والزعم بأن ما يصح في احداها يصح في الاخرى أيضاً في كل الاحيان ، مما لا يستند على أساس علمي صحيح أبداً . فإن

عالم الاجتماع يختلف عن عالم الحياة اختلافاً كبيراً ، فالنظريات التي تستنبط من دراسة الحوادث الحياتية والطبيعية لا يجوز أن تعتبر شاملة للحياة الاجتماعية أيضاً .

وفضلاً عن ذلك ، يجب أن نلاحظ في الوقت نفسه أن الأبحاث والتجارب التي قام بها جماعة من علماء الحيوان والنبات أنفسهم قد زعمت فكرة التدرج التي كانت تضمنها نظرية التطور في شكلها الأول ، لأنه قد ثبت ببراهين قاطعة — منذ تجارب « دافريس » المشهورة — أن التطور في الحيوانات والنباتات قد يحدث فجأة ، وأن بعض النويجات منها قد تظهر وتتولد وهلة ، دون أي تدرج كان .

ونستطيع أن نقول لذلك ، أنه قد أصبح من العبث تماماً ، الاستناد إلى نظرية « التدرج » لتجديد خطط الإصلاح والتجديد في الحياة الاجتماعية .

هذا ، وكثيراً ما يتلوع دعاة « التدرج في الجديد » في دعاياتهم هذه بكلمة قالها أحد علماء الطبيعة المشهورين ، قبل مدة تزيد على قرن ونصف قرن : « الطبيعة لا تقفز ، La nature ne fait pas sauts » أنهم كثيراً ما يحورون هذه الكلمة إلى شكل آخر فيقولون « الطفرة محال ! » .

غير أن هذه الكلمة — حتى في شكلها الأصلي — لا تعبر عن حقيقة مطلقة ، فإنها إذا صحت في مضمون الحوادث الطبيعية ، فلا تصح في بعض الأخرى .

إن ثورات البراكين وحدها تبرهن على ذلك برهنة قطعية . فضلاً عن ذلك ، كثيراً ما لاحظ علماء الفلك أن بعض النجوم تتوهج بغتة ، مما يدل على حدوث تطورات خطيرة جداً في تركيبها . فلا يجوز لنا قط أن نقول أن الطبيعة لا تعرف الطفرات والانقلابات الفجائية أبداً .

ومع هذا ، ولو تساهلنا في الامر ، وسلمنا جدلاً بان الطبيعة لا تطفر أبداً ، فإن ذلك لا يمنعنا من القول : بأنها لا تسير سيراً وثيداً على الدوام ، بل انها كثيراً ما تهزول هزولة ..

ولهذا السبب ، كلما اسمع أحدهم يقول : « الطبيعة لا تطفر أبداً » ؛ أعقب على ذلك قائلاً : « ولكننا نستطيع أن تهزول كثيراً » .

ولا أراني في حاجة الى القول : إن الهزولة اهم بكثير من الطفرة في هذا الميدان ؛ لأنها تتألف - في حقيقة الامر - من سلسلة قفزات وطفرة .



وقبل أن أختم حديثي عن « القديم والجديد » أود أن ألفت أنظار القائلين بوجوب « التدرج في التجديد » الى « الحقائق التالية » :

إن سير الحضارة العالمية لم يعد سيراً عادياً عادياً وثيداً ، بل انه أصبح سيراً سريعاً جداً ، لا يختلف عن الهزولة كثيراً . وإذا كانت الامم التي تتقدم القافلة أخذت تسير بهذه الصورة بسرعة هائلة ، أفلا يترتب على الامم التي تأخرت عنها في هذا المضمار ، أن تسير بسرعة أعظم من ذلك أيضاً ، تستطيع اللحاق بالقافلة التي كانت قد سبقتها كثيراً ؟

هذا ، ويجب علينا أن نعرف حق المعرفة ، أننا نميشي الآن في عصر أصبح فيه « التوقف » لا يؤدي الى « التأخر » فحسب ، بل يعرض الواقفين الى « الاضمحلال » أيضاً . لأن الحضارة المصرية أخذت تطفئ وتستولي على جميع أنحاء العالم ، وتسمى وراء استفلال جميع موارد الارض . فصلوات مطامح الدول القوية تشمل جميع أنحاء الكرة الأرضية . حتى إن الصحاري القفراء الخالية والاقطر القطبية المتجمدة ، مع كل ما فوقها من الأجواء العالية ، وكل ما تحتها من الطبقات العميقة ، أخذت تدخل في نطاق نشاط تلك الدول ، بصور شتى .

فأصبح من المستحيل على أية ناحية من نواحي الكرة الأرضية أن تبقى زمناً طويلاً على حالتها القديمة .. وغداً من المستحيل على أية أمة من أمم العالم أن تحافظ على كيائها ، دون أن تتسلح - مادة ومعنى - بأسلحة الحياة المعاصرة .

هذه حقيقة ، ويجب علينا أن ندركها تمام الإدراك ، ونؤمن بها صدق الإيمان ، وأن نضعها نصب أعيننا على الدوام ، لنعمل على هديها بدون تأخر ، وبحزم والدفاع .

يجب علينا أن نسلك ، بدون تأخر وبحزم واندفاع ، مسالك التجديد في كل ساحة من سوح الحياة المادية والمعنوية والاجتماعية ..

التجديد في كل شيء : في اللغة والأدب ، في التربية والأخلاق ، في العلم والفن ، في السياسة والثقافة ، في الزراعة والصناعة والتجارة ..

التجديد في كل مكان : في البيت والمدرسة ، في القرية والمدينة ، في الشارع والحديقة ..

التجديد في كل زمان ، وفي كل شيء ، وفي كل مكان ... يجب أن يكون شعارنا العام .

● ساطع الحصري

المصدر : ساطع الحصري - الأعمال الكاملة - مركز دراسات الوحدة ، مقدمة كتاب : آراء وأحداث في التاريخ والاجتماع . صدرت الطبعة الأولى من الكتاب عام ١٩٥١ .

خاتمة وشهادتان

التجديد والتجدد والمجددون

رشيد رضا ١٨٦٥ - ١٩٣٥

بسم الله الرحمن الرحيم

محاضرة القاها صاحب هذه المجلة في نادي الجمعية الجغرافية الكلية ،
بافتتاح جمعية الرابطة الشرقية في احدى ليالي رمضان سنة ١٣٤٨
ولقد حضرها الجهم الفخير من العلماء والادباء وطلبة العلم بالآزهر ونجباء
المدارس العالية ، وفصليات النساء . وكذا بعض فضلاء المستشرقين من
الشعوب الاوربية ، وقد سئلوا بعد الفراغ منها من رأيهم فيها ، فشهدوا
لها بالاعتدال .

أيها السادة :

عهدت إلى جمعية الرابطة الشرقية بأن إلقي على حضرتكم في هذه
الليلة محاضرة في موضوع التجديد والتجدد والمجددين ، كما تفضل
زميلي في عضوية ادارتها الدكتور منصور فهمي ببيانه لكم باسمها ،
فأرجو من حضرتكم الاصغاء والافضاء عن التقصير . وأبدأ بالتمهيد
للموضوع بمقدمة في بيان الحاجة الى شرحه وتمحيصه فأقول :

المقدمة التمهيدية في حاجتنا الى التجديد بأنواعه :

في هذا العصر المضطرب بأنواع الانقلاب الاعتقادية والفكرية
والسياسية والشيوعية والبلشفية ، في هذا العصر القلق بالفوضى
الدينية والادبية والاجتماعية ، في هذا العصر المهدد بالثورة النسائية ،
وتقوض ميثاق الزوجية ، وانقطاع سلك الاسرة ، ووشائج الرحم

والقراية ، في هذا العصر الذي نجمت فيه قرون الزندقة ، والاباحة المطلقه ، والهجوم على مقومات الامة من دين و لغة وادب ، ومشخصاتها من عادات وزي وحسب ، حتى لا يبقى فيها شيء ثابت يربى عليه النشء وتجرمه النابتة .

في هذا العصر الذي اجملت وصفه - وعندكم تفصيله - كثر اللهج بيننا بلفظ الجديد والتجديد والمجددين ، والعصر الحق اننا لفي أشد الحاجة الى التجديد والمجددين ، فانه لم ابق عندنا شيء يحفظ شخصيتنا القومية ، ومقوماتنا المالية ، ويرتقي بنا في معارج الحياة الاجتماعية ، الا وقد سطت مريراته ، وانفصمت عروته .

اما ما كان عندنا من حسب قديم ، ودين قويم ، وحضارة زاهية وملك عظيم ، فقد اخلقناه وابليناه ، بل هجرناه فنسيناه ، واما ما حاولنا من اقتباس طريف ، وانتحال حديث ، فلما تشبثنا باهدابه ، ولم ننسج شيئا من انوابه ، فكل ما لدينا من القديم والجديد ، فهو من قشور التقليد ، كقشرة اللوز والجوز الخارجية الظاهرة ، التي تفسى القشرة الخشبية الباطنة ، لا غناء به في نفسه ، ولا هو حفاظ لشيء من اللب في داخله .

فان كان ازهرنا ومعاهدنا الدينية في حاجة الى الاصلاح لتجديد هداية الدين ، فمدارسنا الاميرية والاهلية احوج الى الاصلاح لتجديد حضارتنا المدنية ، واعادة استقلالنا ، واقامة سائر مصالحنا ، فان ما ظهر من فساد التربية والتعليم فيها شامل للقسمين : الابجلي والسلمي . واما ما نشكو من خلل المعاهد الدينية فمعظمه سلبي محض ، وسنبين ضرره بعد . ولا يزال اهل الرأي والفهم من الامة يشكون من كل منهما ، ويقترحون الاصلاح بعد الاصلاح لهما .

نحن نحتاج الى تجديد استقلالي كتجديد اليابان ترتقي به مصالحنا الاقتصادية والعسكرية والسياسية ، وننمي به ثروتنا الزراعية

والصناعية والتجارية . ونكون به أمة عزيزة ودولة قوية ، مع حفظ مقومات أمتنا من دين وثقافة وتشريع ولغة ، وحفظ مشخصاتها القومية من زي وهادات حسنة وأدب .

لا إلى تجديد تقليدي كتجديد الدولة العثمانية الذي انتهى بتمزيق سلطنتها (إمبراطوريتها) الواسعة ، ثم بزوالها من الوجود ، ومحو رسمها من مصور العالم الجغرافي — ولا كتجديد الدولة المصرية الذي بدىء به في عهد مؤسسة محمد علي الكبير استقلاليا ، ثم استحالة تقليديا ، فانتهى بالاحتلال ، وافقد الاستقلال ، ولو استقام على خطته الأولى لصارت به مصر سلطنة عظيمة مؤلفة من شطر أفريقية الشرقي ، وشطر آسية الغربي ، وإلحادات مجد الحضارة العربية ، ونيطت بها زمامة الأمة الإسلامية ، ولا تزال مستعدة لهذا ، وما عليها إلا أن تأخذ له أهيته ، وتسمى له سميته ، ثم تطلبه في إيانته ، وتأخذ له بربانه وعلى عرشها اليوم ملك يظهر من الاستعداد لهذا ما يعلمه الجميع .

نعم نحن في حاجة إلى هذا التجديد المجيد ، الجامع بين الطريف والتليد ، وإلى مجددين في العمران كمحمد علي الكبير ، وفي العلم والحكمة كمحمد عبده وجمال الدين ، لا إلى تجديد الإلحاد والإباحة ، والتهتك والخلاسة ، والدعوة إلى الرذيلة باسم الأدب المكشوف ، والتنفير من الفضيلة بدعوى الحرية ، وتحرير المرأة الشرقية ، وتقليد الحضارة الغربية ، فإن كل هذه المفاصد قديمة لا جديدة ، كما يعلمه المطلعون على تاريخ أئبنه ورومية وغيرهما من عواصم الشعوب القديمة ، وهي التي أضعفت دولها وذهبت باستقلالها (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) أي أمرناهم بالطاعة والفضيلة ، ففسقوا عن أمرنا إلى المعصية والرذيلة ، فأثروا شهواتهم الخاصة ، على النهوض بالمصالح العامة ، فحق عليهم قولنا (لنهلكن الظالمين) وقولنا (وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون) وقولنا (فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) وقولنا (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) أي ما كان ليهلكهم بظلم منه لهم وهم مصلحون في أعمالهم .

أيها السادة :

إن إصلاح محمد علي الكبير العمراني لم يزل معروفاً ، وإن إصلاح الحكيمين الديني والسياسي الاجتماعي لم يصر مجهولاً ، فجلالة الملك الجالس على عرش محمد علي والأمراء والنبلاء من سلالة محمد علي هم أقوى ظهير للأمة وللدولة على إعادة تجديده العمراني العسكري سيرته الأولى ، مع المحافظة على مقومات الأمة ومشخصاتها ، إذا طلبته الأمة منهما ، فإن عملة محمد علي المجراء ، وجبته القوراء ، وأزياء رجال دولته القومية ، ورجال بعثاته العلمية ، لم تكن عاقبة لهم عن النهوض بملك العمران ، والاضطلاع بتجديد العلوم وجلال الأعمال . ولكن أمان الله خان خسر ملكه ، وسفك دماء قومه ، بما حاول من تجديده التقليدي ببرنيطته ، وتبرج امرأته ، وحلق لحى رجال دولته !!

وإن لجمال الدين ومحمد عبده سلالة علمية عقلية إصلاحية جديدة بالقيام بسنتهما ، والمضي في إصلاحهما بقدر ما توانيتهم به الأمة في استعدادها . وقد رأت من نبوغ أحدهم في الزعامة السياسية (١) ما لم يكن يخطر لأحد قبل استعدادها للنهوض معه ، وعرفانها بقدره .

بيد أنه قد تصدى لزعامة التجديد واحتكار لقب المجتهدين أفراد هدامون غير بنائين ، يدعون الأمة إلى ترك هداية الدين ، والتجرد من لبوس الفضيلة ، والتشرف بلبس البرنيطة ، وإباحة ملابس النساء للرجال في الرقص والسباحة ، والخلو والسياسة ، ومعاقرة الخمر ، وما يتبع ذلك من ضروب الفسق . وينمون على المرأة أن يكون جل مهمها من الحياة الاستعداد للقيام بما خلقها الله لأجله حق القيام وميزها به على الرجل ، وهو أن تكون زوجاً صالحة محصنة ، وأماً رؤوماً مربية ، ورئيسة منزل مقتصدة منظمة . فيسمون الدار سجنها - وإن كانت كقصور الجنان ، ويسمون الزوج سجيناً لها - وإن كانت في نظره كالحور المقصورات في الخيام ، ويفرونها بالخروج عليه والتفلت منه ، وأن تدخّل داره وتدخّل هي دار من أحبت بلون رضاه وإذنه . ويعظمونها في مناصب الحكومة

(١) هو سعد باشا زفلول .

ومقاعد النيابة وعدم المبالة بما يعرض ذلك من وظائف الحمل والولادة ،
والرضاعة والحضلة . بل يقول بعضهم : إنها أهل للحرب والقتال ،
وقيادة الجيوش البرية والبحرية ، والأساطيل المائية والهوائية ، وإن من
استبداد الرجال بالنساء واهانتهم لهن ما عبر عنه بعضهم بقوله :

كتب القتل والقتال علينا وعلى الفتيات جر اللبوس

كذلك يفرون الشبان بالاحاد ، ويزينون لهم اتباع الشهوات ، ليتخذوا
منهم ومن النساء جنداً يطيع قواده منهم طاعة عمياء ، لا يقبل فيها وفيهم
— بعد المروق من الدين — وعظ واعظ ، ولا يسمع مع فوضى الآداب
وطاعة الهوى نصيحة ناصح ، وحسبكم من سفه النفس وأفن الرأي ،
التسليم لهم بأن القديم قبيح يجب تركه واحتقاره لأنه قديم ، ويحتقر
المحافظ عليه بوصفه بالرجعية ونبز صاحبه بلقب « الرجعي » .

نعم قد حاول انتحال هذا اللقب الشريف (التجديد) في هذا العهد
زعنفة من الملاحدة في هذا البلد العظيم ، ليس لأحد منهم امتياز فيه بالعلم
والحكمة ، ولا بالرشد والفضيلة ، ولا يكشف حقيقة كانت مجهولة ، ولا
يسن سنة نافعة للأمة في حفظ حقيقتها ، أو تنمية ثروتها ، أو إعادة
مجدها ، (استغفر الله إن إعادة مجد الأمة في فتوحاتها وحضارتها رجعية
عندهم يحتقرون من دعا إليه) .

وانما كل ما أوتوا أو حملوا من البضاعة في هذه السوق ثروثة في
الكلام ، وسفسطة في الجدال ، وجراءة على تلبيس الحق بالباطل ، وسفاهة
في الطعن على من يخالفهم أو يرد عليهم ، ولكن بالبهتان الصريح ، لا بالبرهان
الصحيح فالصدق لا حرمة له عندهم — وباطراء غلاة الترك الذين نبذوا
الإسلام وراء ظهورهم ، حتى في هدم جميع أركان الحرية : حرية الدين
والرأي والخطابة والكتابة والزي والعمل — هذه الحرية ، التي يقدسها
من يدعون اتباعهم من أهل العلم والحضارة المصرية ، ولولا إفراط الحكومة
المصرية فيها ، لما أمكن لهؤلاء الأدمياء أن يجهروا بهذه الدعاية الالحدية

لهدم دينها وآدابها وتقاليدها ، وهذا الذي يطرونه من غلو ملاحدة الترك ليس بجديد فيهم ، بل نجم في الجيل الماضي منهم وكان من ثمراته في هذا الجيل زوال السلطنة العثمانية ، التي كانت أعظم سلطنة في أوربة وآسية وأفريقية ، ولم يبق منها الا امارة جمهورية صغيرة فقيرة ، هي أقل عدداً وثروة وعلماً وحضارة من المملكة المصرية ، التي كانت إحدى امارات هذه السلطنة ، وهم يريدون اليوم أن تقتدي بها في إلحادها ونبد هداية الدين فقط ، لئلا تحل محلها فيما هي أجدر به من زعامة ٤٠٠ مليون من المسلمين .

ولما خدع أمثالهم من ادعياء التجديد امان الله خان وحلول تقليد الدولة التركية الحاضرة طفقوا يفرغون عليه الحلي والطلل من الثناء ، أن اكروه قومه على لبس البرنيطة وتبرج النساء ، فكثرت عاقبة تجديده الالحادي إيقاد نيران الثورة في بلاده عليه وعلى حكومته ، واضطراره الى الفرار منها وخسارة ملكه ، وأما المدارس والنظام العسكري والصناعة وغيرها من التجديد الحقيقي فلم يتوجه اليه في بلادنا الأفغان ، وقد بدى به في القرن الماضي على عهد الرحمن خان .

وكل ما يحتاج اليه الترك من التجديد الدنيوي الذي يطلبه الملاحدة وغيرهم قد شرعوا فيه في القرن الماضي ولم يكن الاسلام مانعاً لهم من شربه الذي يحظره ، فضلاً عن خيره الذي يوجهه ، ولكنهم لم يسلخوا فيه طريقة الاستقلال التي سلكها اليابان بالحفاظة على مقوماتهم الدينية والقومية ، بل كانوا مقلدين فاصطدموا بالمقلدين من رجال الدين ، وكان الواجب عليهم الجمع بين التجديد الديني والدنيوي كما فعلت أوربة في النهضة الاصلاحية الدينية .

وأما مصر فقد سبقت الترك الى هذا التجديد الدنيوي ولم يعارضها رجال الدين كما أنهم لم يساعدوها ، لأن التجديد كان من جانب واحد ، ولو كان من الجانبين لتم وكمل في زمن قليل ، كما سابينه بعد .

وأدعياء التجديد هنا لا ينظرون الى الواقع وانما يقلدون ملاحظة
أوربة في عداوة رجال الدين تقليداً ، فهذا التقليد الأعمى هو الذي يحملهم
على الصد عن الدين بالتشكيك في عقائده ، والطمع في إحكامه بآدابه ،
والتحقير لرجاله ، ودعوى إبطال العلم والفلسفة ، واتهام علمائه بأنهم عقبة
تؤود في طريق ترقى الأمة ، فيجب أن يماطوا عنه كما يماط الأذى من
الطريق الحسية . ولو كانوا يطلبون باسم التجديد إصلاحاً عملياً ويجدون
أهل الدين مقاومين لهم فيه لكانوا معذورين .

تجديد الملاحدة المزعوم شقالي جديد للأمة

هذا التجديد المزعوم كاد يكون تجديداً حقيقياً لفتنة من فتن التفريق
ربما كانت شراً من فتن التفرق بالعصبيات الجنسية والوطنية ، والأحزاب
السياسية ، كأننا لا نستكمل جميع أنواع الشقاق إلا بوجود حزب جديد
يمادي الدين ويحتقر أهله — وهم السواد الأعظم من الأمة — تقليداً للملاحدة
أوربة وأحرارها فيدعوا علماءه وخطباءه وكتابه الى الرد عليه ،
واستصراخهم الشعب المتدين لمداوته ومقاومته ، ويضطر زعماءه وكبراءه
الى مطالبة الحكومة بردع المجاهرين من أفرادهم عن جهرهم بالسوء ، وهذا
عين ما وقع بسوء تأثير من جهر في الجامعة المصرية بحقوق للمرأة ما أنزل
الله بها من سلطان (١) ثم من جهر في الجامعة الأمريكية بوجوب مساواة
النساء للرجال حتى في الطلاق والميراث ، في محاضرة طبعها ونشرها في
الناس (٢) وقد سمعت أمس خطيب الجمعة في المسجد الذي صليت فيه
يندب الاسلام ويستصرخ المصلين الصائمين للدفاع عن القرآن ، إذ أهانه
بعض أعدائه فرماه بظلم النساء الخ بعد أن قام بالانكار الشديد على هذه
المحاضرة بعض كبار الأمراء (٣) واجمعت الجرائد على انتقاد هذا الأهرام .

(١) هو الأستاذ محمود زمي الذي نالناه في الجامعة فكان لنا الفلج والظفر بتأييد الجمهور
لنا وباعتزاله هو ايضاً .

(٢) هو الدكتور فخري فرج ميخائيل القبطي .

(٣) هو سمو الأمير عمر باشا طوسن .

أيها السادة :

إن مثل هذا الشقاق قد وقع في قرون أوربة الوسطى التي كانت شر القرون عليهم ، فكانت فتنة كقطع الليل المظلم ، سفكت فيها دماء غزيرة في التنازع بين حرية العلم والحكم من جهة ، وتقاليده الدين وسلطان الكنيسة من الجهة المقابلة ، ووقع مثله أخيراً في بلاد الأفغان ، وأرى أن حل مصر مخالف لحال الأوربة في تلك القرون وحال الأفغان في هذا العصر ، وأنه يجب علينا درء هذه الفتنة قبل انتشارها ، وتلافي هذا الشقاق قبل تفاقم خطبه ، وهذا ما أتوخاه بهذه المحاضرة ، وأرى أنه أفضل عمل أقدمه بين يدي جمعية الرابطة الشرقية لمصر العزيزة والشرق كله .

حصر موضوع المناظرة في بضع قضايا

وإنني بعد هذا الاجمال التمهيدي احصر موضوعها في بضع مسائل او قضايا :

(١) في معنى التجدد والتجديد ، والمقابلة بين القديم والجديد ، والتنازع بين الطريف والتليد ، والمفاضلة بين المتقدمين والمتأخرين ، وهو بحث لا يخلو من فكاكة وإحماض ، في أثناء هذا الموضوع الحريّيف الحماز (١) .

(٢) في فضل الشيء في ذاته وصفته ، ودرجة الانتفاع به ، ومزيتة في قدمه أو جدته .

(٣) في الحاجة الى التجديد الديني والتجديد الدنيوي ، وحكم الاسلام فيهما ، وحنه عليهما .

(١) الحريّيف بكسر الحاء وتشديد الراء الذي يلذع اللسان بحرافته وهو هنا مجاز ويرادفه الحماز وهو مبالغة حامز فطعم الحمز قريب من طعم الحرافة .

(٤) في المجددين في الاسلام ، والتجديد الذي سنه حكيم الشرق الافغاني والاستاذ الامام المصري .

(٥) في انواع الاصلاح الجديد وعدم التعارض فيه مع الدين .

(٦) الاحزاب الثلاثة في المسلمين : الفقهاء المقلدون الجلمدون ، والملاييون السياسيون والمصلحون المعتدلون ، وما يقابلهم في الغرب من الاحزاب والجمعيات الدينية .

(٧) في القاعدة التي ينبغي عليها الاتفاق بين الذين يخدمون امتهم ووطنهم بالاخلاص على ما يكون بينهم من اختلاف في العرف والمشرع ، او الدين والمذهب .

المصدر : مجلة المنار - م / ٣١ / ح / ١٠ (١٩٣١) ، اعيد نشر المعاصرة كاملة في « ديوان النهضة » . ادونيس - دار العلم للملايين - بيروت ١٩٨٢ ، وما نشره هنا هو القسم الاول من المعاصرة .

حديث

طه حسين ١٨٨٩ - ١٩٧٣

سيداتي .. سادتي :

في تلك الايام التي جاءت بعد الحرب العالمية وبعد الثورة المصرية ظهرت الوان من الحرية لم يكن المصريون بل لم تكن الامة العربية تعرفها من قبل الا في تلك الايام القديمة التي ازدهرت فيها الحياة الاسلامية ايام الامويين والعباسيين ...

وكان اسبق الناس الى اخذ حريتهم غالباً هم الكتاب والادباء بوجه عام . هؤلاء الكتاب والادباء لم يحتاجوا في تلك الايام الى استئذان السلطان ليتكلموا بما في نفوسهم ، ولم يحتاجوا الى استئذانه ليقولوا ما تنتجه عقولهم وقلوبهم وما كان يلائم اذواقهم ، وانما اطلقوا السنتهم بالقول واطلقوا افلامهم في الكتابة فنشأت احاديث في الصحف لم يكن الناس يالفونها قبل هذا العهد .. وكانت هذه الاحاديث تمس الادب وتمس اشياء اخرى غير الادب تتصل بكل ما يكون الحياة العقلية . وكان الادباء يطرقون هذه الموضوعات في حرية واسعة توشك ان تكون مطلقة ، ثم كانوا يطرقون الموضوعات السياسية لا يحسبون حساباً لشيء ولا يخافون ان يتعرضوا للمحاكمات او التحقيقات التي كانوا ربما قدموا اليها بين حين وحين . كان الادباء اشد الناس ايماناً بحريتهم ، واسبقهم الى الانتفاع بهذه الحرية واصطناعها في احياء الشعور وفي احياء العقل وفي تنبيه الذوق وفي تزكية القلوب .

وفي تلك الايام اثرت مسائل ادبية كان الذين سبقوا في اواخر القرن

الماضي وفي أوائل هذا القرن قد أحسوها وتأثروا بها فذهبوا في إنشائهم
للشعر والنثر مذهباً جديداً ، ولكنهم لم يتعرضوا لهذه المسائل بمناقشة
أو جدال وإنما تأثرت بها عقولهم وأذواقهم وكتبوا متأثرين بها دون أن
يحققوا البحث في هذه المسائل .

أثيرت مسألة القديم والجديد في الأدب ، وما يلائم العصر الحديث
من ألوان الإنشاء الأدبي ، وثارت حول هذه المشكلة خصومات لم تك
تنقطع ، خصومات عنيفة أشد العنف ، مع أن أنصار الجديد قد بينوا
لخصومهم أن فكرة القديم والجديد في الأدب ليست مبتدعة ، وليست
مستحدثة ، وإنما عرفها العرب القدماء ، فكان الأدب الأموي تجديداً
بالقياس إلى الأدب الجاهلي ، وكان الأدب العباسي تجديداً ، وتجديداً
مسرّفاً ، بالقياس إلى الأدب الأموي وذلك لاختلاف العصور واختلاف
ظروف الحياة ولأن من شأن هذا كله أن يؤثر في الأدب وأن يلونه ألواناً
جديدة تلائم حياة الناس وتخالف حياة الذين سبقوهم فلم يصرف
العرب أيام الأمويين ولا أيام الجاهليين شاعراً كبشعر أو كاتباً نواصراً ،
ولم يطرّقوا موضوعات كالتي كان الشعراء في القرن الثاني والثالث
يطرقونها ، ولم يعرفوا الكتابة على النحو الذي كان الكتاب يكتبون عليه
في تلك الأيام ، أيام الرشيد وأيام المهدي وأيام الخلفاء الذين جاءوا بعد
هذين ، وكذلك قد كان الأدب يتجدد كلما اختلفت الظروف وكما
اختلفت العصور .

وكان هؤلاء الأدباء يطالبون بأن يتجدد الأدب العربي في هذا العصر
الحديث كما كان يتجدد في العصور القديمة ، وكانوا يقولون إن الأدب
العربي أدب حي ، وما دام أدباً حياً فلا ينبغي أن يجمد ولا أن يشب
على حال من الأحوال وإنما يجب أن ينتقل من طور إلى طور ، وأن
يتبدل من حياة إلى حياة ، كما تتغير الحياة نفسها وكما تتغير الظروف
المحيطة بالناس في حياتهم . حدث ذلك عند اتصال المسلمين في العصور
القديمة بالثقافات الأجنبية ، وجاء أوانه في هذا العصر الحديث وقد

اشتد اتصال المصريين والعرب علما بالاداب الاجنبية الغربية التي لم تكن بينها وبين ادابنا العربية قبل القرن التاسع عشر صلة ، اي صلة .

ولكن انصار القديم كانوا يجادلون عن قديمهم جدالا شديدا ، ويزعمون ان المحدثين لا يعرفون اللغة العربية ولا يحسنون الادب العربي ، وان هذا هو الذي يدعوهم الى ان يبتكروا فكرة التجديد ، وكان المجددون يبينون إتقانهم للغة العربية وللاداب العربية في عصورها المختلفة فيكتبون في فنون من الاداب قديمة ما كان الناس يكتبون فيها قبل تلك الايام .

وبكذلك اشتد الجدل بين انصار القديم وانصار الجديد في تلك الايام التي جلت في إثر الثورة المصرية ، حتى انتصر الجديد آخر الامر واصبح انصار القديم انفسهم يحاولون ان يجددوا وإن كانوا انحروا في التزام اساليب بعد بها العهد ومضى عليها الزمان .

واكثر من هذا إن قراء الصحف اهتموا بهذه المسائل التي كانت تثار بين الادباء واشتد اهتمامهم بها ، وكان موضوع احاديثهم عندما يلتقون هذه الخلافات بين انصار القديم وانصار الجديد ، وكانوا يختصمون حول الكتاب ، اي الكتاب اثبت في الفن قلماً واي الكتاب ابرع في الكتابة قلماً ، كانوا يختصمون حول هذا كله وكتلوا يحرصون على قراءة ما يكتبه الكتاب في الصحف على اختلاف مذاهبهم السياسية، ونشأت من هذا حياة عقلية لم تقتصر على طبقة معينة من الادباء ولكنها تجاوزتهم الى قراء الصحف سواء منهم من كان له حظ عظيم من الثقافة ومن كان على حظ ضئيل منها ومن لم يكن يحسن من الامر كله إلا الكتابة والقراءة .

ونشأ في تلك الايام شيء غريب لم يكن مألوفاً ، فظهر بعض الشبان الذين لم يكونوا قد تثقفوا وانما يحسنون ان يكتبوا الحروف وان يقرأوها ، ويستغلون بفنون مختلفة من ألوان الحياة الخاصة ، منهم من

يشتغل في الصناعة ومنهم من يشتغل في التجارة ، هؤلاء الشبان أكثروا من قراءة الصحف فأهمتهم وأثرت في نفوسهم ، وإذا هم يأخذون في تمرين أنفسهم على الكتابة ويأخذون في القراءة والاكتساب منها وإذا هم يتجربون ذات يوم فيرسلون أحاديثهم إلى الصحف وترضى عنها الصحف وتنشرها ، وكذلك جعل هذا اللون من الحياة الأدبية الجديدة التي أحدثتها الثورة المصرية تلك ، جعل هذا اللون يؤثر حتى في جملة كان أقصى أمرهم أن يصيروا إلى حياة عادية خالصة فجعلت منهم أدباء .

في تلك الأيام ظهر شيء آخر يتصل بحرية الأديب وبحرية الرأي ، ظهر في بيئات ما كان ينبغي في العصور الماضية أن يظهر فيها ، وهو الاستمساك بحرية الرأي إلى أقصى الحدود ، الاستمساك بحرية الرأي والبحث عن حقائق الأشياء والجهر بما لم يكن الناس يجهرون به من قبل في بعض المسائل التي تمس السياسة والتي تمس الدين .

● طه حسين

المصدر : أدبنا الحديث ما له وما عليه ص ٢٥٩ - ٢٦٢ الأعمال الكاملة . المجلد ١٦ ص ٢٥٩ - ٢٦٢ ، والنص المختار هو حلقة من حديث أدامي التي في إذاعة القاهرة ثم نشر بعد وفاة د. طه حسين .

الفهرس

٥	من عصر النهضة الى نهضة العصر
١٢	القديم والجديد
٢١	المرحلة الاولى
	الشعراء المحافظون والشعراء المصريون
٢٣	— نجيب شاميه ١٨٦٥ — ١٩٢٧
	الشعراء المحافظون
٢٨	— اسعد دافر
	القديم والحديث
٣٢	— محمد كرد علي ١٨٧٦ — ١٩٥٣
	الافكار القديمة والحديثة
٣٨	— محمد تيمور ١٩٨٢ — ١٩٢١
	مقدمة
	— عباس محمود العقاد ١٨٨٩ — ١٩٦٥
٤٠	ابراهيم المازني ١٨٨٩ — ١٩٤٨
٤٢	تقليد القدماء
	مصطفى صادق الرافعي — المذهب القديم والمذهب الجديد
٤٧	— سلامة موسى ١٨٨٧ — ١٩٥٨

	دفاع عن المذهب القديم في الادب
٥٣	- صادق الراقمي ١٨٨١ - ١٩٣٧
	الخصوبة بين القديم والجديد في الادب
٦٢	- طه حسين ١٨٨٩ - ١٩٧٣
	الجملة القرآنية
٧١	- شكيب ارسلان ١٨٦٩ - ١٩٤٦
	الادب واللفظة - القديم والحديث
٧٨	- محمد حسين هيكل ١٨٨٨ - ١٩٥٦
	القسم الثاني
	في الشعر الجاهلي
٨٩	- طه حسين ١٨٨٩ - ١٩٧٣
	نقض كتاب في الشعر الجاهلي
١١٠	- عبد الرحمن قراة ١٨٦٢ - ١٩٣٩
١١٢	محمد الخضر حسين ١٨٧٦ - ١٩٥٨
	منهج الدكتور طه حسين العلمي في البحث
١١٥	- محمد عرفة ١٨٩٠ - ١٩٧٣
	نقد كتاب الشعر الجاهلي
١٢٣	- محمد فريد وجدي
١٢٦	الاحاد في الجملة العربية
	مصطفى صادق الراقمي - تحت راية القرآن
١٣٢	- المعركة بين الجديد والقديم

- الجامعة في مجلس النواب ١٣٧
- الدعوة الى الاتحاد بالتشكيك في الدين
(كتاب في الشعر الجاهلي) ١٦٢
- كتاب في الشعر الجاهلي
- دعاية الى الاتحاد والزندقة وطمع في الاسلام ١٧٥
- طه حسين - ديكلوت ١٨٦
- في الشعر الجاهلي
- ابراهيم عبد القادر المازني ٢٠٣
- قرار النيابة العامة
- قضية الدكتور طه حسين ٢١٠
- مقدمة المؤلف
- محمد احمد الفمراوي ٢٢٤
- تقريظ المطبوعات الحديثة - النقد التحليلي لكتاب
« في الادب الجاهلي » ٢٢٨
- حملة القرون الوسطى
- سلمي الكيالي ١٨٩٨ - ١٩٧٢ ٢٣٣
- المرحلة الثالثة**
- الطربوش ام القبعة - رايان لكاتبين قديرين
- مصطفى صادق الرافعي
- دكتور محمد عزمي ١٨٨٩ - ١٩٥٤ ٢٤١
- الحديث - فاتحة القول ٢٥٣

- ٢٥٧ التقرير وانتقاد المطبوعات
- ٢٦٠ التهمة الجبارة - القديم والحديث
- ٢٦٤ القديم والجديد /
- ٢٦٩ انباء العالم الاسلامي - مجلة الرابطة الشرقية
- ٢٨١ الالحاد ودعائه في مجلة الرابطة الشرقية والاستاذ احمد امين
- ٢٨٤ نحن وصاحب المنار
- قطيعة الماضي
- ٢٩١ - سلامة موسى
- قطيعة الماضي
- ٢٩٥ - ساطع الحصري ١٨٨٠ - ١٩٦٨
- ٢٩٩ حياتنا العقلية - الاحاد ام اصلاح - حقيقة النزاع بين طابقين
- ٣٠٥ حياتنا العقلية - تجديد
- ٣٠٧ كلمات في التجديد
- حياتنا العقلية
- ٣١٠ - داود بركات ١٨٦٧ - ١٩٣٣
- ٣١٣ التجديد قديم - فلماذا يعاودنه الآن
- بين القديم والحديث
- ٣١٦ - عبد اللطيف الطيباوي
- ٣٢٠ الادب - « ب. النبال » - قديمة وجديدة - وحظ المربية منهما

٣٢٧	مرامي التجديد
٣٣١	المحافظون والمجددون - التجديد يستلزم التساهل وحرية المناقشة - انسان المستقبل .. كيف يكون
٣٣٣	الادب الجديد
٣٣٥	بين الادب الجديد والقديم - خليل تقي الدين
٣٣٨	مذهب الادب المصري
٣٤٥	اتجاهات التجديد
٣٥١	تقديم - محمد حسين هيكل - ثورة الادب
٣٦٠	الابداع والاتباع - جميل صليبا
٣٦٦	التجديد في الدين - امين الخولي ١٨٩٥ - ١٨٦٦
٣٧١	من رسالة الى صديق حول التجديد - احمد حسن الزيات ١٨٨٥ - ١٩٦٨
٣٧٣	التجديد في الادب - احمد امين ١٨٧٨ - ١٩٥٤
٣٩١	التجديد في الادب - للدكتور عبد الوهاب عزام د ١٨٩٤ - ١٩٥٩
٤٠٠	التجديد في الادب - محمود الشرقاوي ت - ١٩٧١
	- ٥٣٣ -

- ٤٠٣ تجديد التقليد
- هذه المعركة المزمعة بين اديين
- ٤٠٧ - كرم ملحم كرم ١٩٠٣ - ١٩٥٩
- التطور والتقليد في الادبين العربي والانجليزي
- ٤١٧ - فخري أبو السعود ١٩٠٩ - ١٩٤٠
- آراء في الماضي والحاضر
- ٤٢٢ - ميشيل عفلق - ١٩١٠
- الميول الرجعية عند بعض أدباء العرب المعاصرين
- ٤٢٤ - يوسف متى
- المتعلمون والشعب
- ٤٣١ - ابراهيم المصري
- قطيعة الماضي
- ٤٣٧ - محمد أمين حسونة ١٩٠٩ - ١٩٥٦
- القديم والجديد - نقد وتحليل
- ٤٤١ - محمد أحمد الفمراوي
- بين القديم والجديد
- ٤٤٧ - عبد الوهاب الامين
- الدين والاخلاق بين الجديد والقديم - لأحد اساطين الادب الحديث ٤٥٠
- القديم والجديد
- ٤٥٦ - محمد أحمد الفمراوي
- ٤٦٢ بين القديم والجديد - (لأحد أساطين الادب الحديث)

بين جيلين

- ٤٦٧ - محمد عبد الوهاب خلاف
- رجعية قديمة ورجعية جديدة ... تجب مكافئتهما
- ٤٧٢ - وصفي البني ١٩١٢ - ١٩٨٣
- موقف العرب من الثقافة القديمة والثقافة الحديثة
- ٤٧٦ - عبد المعين الملوحي ١٩١٧ -
- كمقدمة
- ٤٨٤ - مارون عبود ١٨٨٦ - ١٩٦٢
- الجديد والقديم
- ٤٨٨ - عبد الرزاق السنهوري باشا ١٨٦٥ - ١٩٧١
- محاكمة الجيل الجديد
- ٤٩٢ - عباس محمود العقاد وفتحي رضوان ت - ١٩٨٨
- القديم والجديد
- ٥٠٢ - ساطع الحصري ١٨٨٠ - ١٩٦٨
- خاتمة وشهادتان - التجديد والتجدد والمجددون
- ٥١٦ - رشيد رضا ١٨٦٥ - ١٩٣٥
- حديث
- ٥٢٥ - طه حسين ١٨٨٩ - ١٩٧٣

1989/9/15 2000

هذه هي الحلقة الاولى من سلسلة « قضايا النهضة العربية » وهي قراءة جديدة للنهضة في نصوصها مصنفة وفق المشكلات التي قراها اعلام النهضة في واقعهم وما تزال من صميم واقعنا الراهن . المشكلات هذه ترتد الى تعارضات ثلاثة اساسية هي :

القديم والجديد
الشرق والغرب
الاصلاح والنهضة

ويمكن ان نصيف اليها الحوار - الصراع حول الاجناس الادبية الجديدة قبل ان ترسخ جذورها في ارضنا وثقافتنا .

وقد تفرع عن هذه المشكلات الام تعارضات فرعية اخرى قد نقاربها في حينها .

السلسلة الجديدة هذه باشراف الاستاذ محمد كامل الخطيب الذي اختار وقدم لثلاث حلقات منها هي الان قيد الطبع في الوزارة .

المختارات بناتها قراءة ، وقد تكون اعماق القراءات واصدقها تعبيراً عن واقعنا في حاضره وماضيه القريب . وكل قراءة تستدعي اخرى ، تتابعها هو فكر الادب وحياته .

To: www.al-mostafa.com